

رفع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فستان من الشاي

تأليف

أحمد خليل جمعة



الكمامة

إهداء للشباب والتوزيع
موسم - بيروت

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

اليكامة

للطباعة والنشر والتوزيع



دمشق - بركة - جانب الجوف والمزارات - ص.ب. ٣٧٧ - هاتف: ٢١٢٢٠٥٩ - ٢١٢٣٢٤٥

بيروت - برج أبو صير - خلف دويس الأصلي - ص.ب. ١١٣/٥٤٨٨ - هاتف: ٧٠٢٩٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه ثقني وعليه توكلني

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ، وهداهُ إلى ما تهياً به صلاحُ معاشه ومعادِه كما كان في الكتابِ مَسْطُوراً .

* أحمدهُ تعالى إذ أنزلَ القرآن ، وخلقَ الإنسان ، وجعلَ له شأنًا في الأكوان ، فَصَالَ وَجَالَ في كُلِّ ميدان ، وأحصى بالذِّكرِ أكارِمَ الفُرسان ، الذين كان لهم آثارٌ ومناقبٌ حِسان ، في كلِّ زمانٍ ومكان .

* أحمدهُ ربِّي على ما أولانا من الإحسان ، وأشهدُ أن لا إله إلا هو شهادة أثقلُ بها كفة الميزان .

* اللهم إِنِّي أسألكَ نفساً مطمئنةً تؤمنُ بِلِقائِكَ ، وترضى بِقضاءِكَ ، وتقنعُ بِعطاءِكَ .

* اللهم أَغْنِنِي بِالْعِلْمِ ، وَزَيِّنِي بِالْحِلْمِ ، وَأَكْرَمْنِي بِالتَّقْوَى ، وَجَمِّلْنِي بِالْعَافِيَةِ ، وَاسْتَرْنِي بِكَرِيمِ لُطْفِكَ .

* اللهم إِنِّي أسألكَ صحَّةً في إيمان ، وإيماناً في حسنِ خُلُقٍ ، ونجاحاً يَتَّبِعُهُ فَلَاحٌ ، وفلاحاً تَصِلُهُ رَحْمَةٌ ، وعافيةٌ ومَغْفِرَةٌ منك ورضواناً .

* وأشهدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ سَيِّدُ الشَّجْعَانِ ، المبعوث إلى الإنسِ والجان ، فهو خاتمُ الأنبياءِ والمرسلين ، وقائدُ الصَّحابةِ الغرِّ الميامين .

* صلى الله عليه وعلى آله وصاحبه أبي بكر الصديق المخصوص بالسَّبق في الإيمان ، وعلى عمر بن الخطَّاب صاحب دار الخيْزَران ، وعلى مجهَّز جيشِ العسرة عثمان بن عفان ، وعلى عليّ بن أبي طالب بطل الميدان ، وعلى جميع الصَّحابة ومن تبعهم بإحسان ، وطلبَ مرضاة الرحمن ، وبعد :

* فلم يكنْ هذا الكتاب الذي بينَ أيدينا اليوم وليدَ السَّاعة ، ولا ابنَ هذه السَّنة ، بل ترجعُ صِلَتي به إلى أيَّام وسنين خَوَالٍ ، تقاربُ إحدى عشرة سنة ، هي في طَيَّاتِ الماضي ، وأرْدَانِ الزَّمان مدَّة تُقَطَّعُ فيها مراحل ، وتُطوى صحائف ، وتُولدُ أفكار ، فإذا بها غُضَّةٌ حيَّةٌ ، كأنَّها تحيا بين أضرابي وحنايي لحظةً إثرَ لحظة ، وثوب العمر أزهر نقي ، إذ كان عمري وقتذاك يزيد عن الثلاثين قليلاً .

* وخلال تلكم الفترة أصدرت كتباً كثيرة - أسأل الله عز وجل أن يجعل ثوابها في صحائف عملي ، وعمل والدي ، وأولادي ، وزوجتي - لَقِيتُ بفضلِ اللهِ وكرمه قبولاً حسناً لدى القُرَّاء الكرام الذين أحببتهم في الله ، وكانوا زَهْرَ الرِّياضِ الذي أجْدُ فيه السُّرور والخير .

* وانهالتُ عليَّ رسائلُ لا تُعدُّ ولا تُحصى من كثيرٍ منَ البُلدانِ العربيَّة وغيرها ، وأكثرُها يحتوي على الشُّكر والثناء والدَّعاء بالتَّوفيق ، والاستمرار في هذا الطَّرِيق ، وكانت تحملُ في طياتها نزاهةَ المؤرِّخ ، وطبعَ الأديب ، ولباقةَ المُرسل ؛ وتَقَبَّلْتُها بقبولٍ حَسَنٍ ، وأنزلْتُها من قلبي مكاناً أثيراً ، ومن نفسي مرتبةً علياً ، يُضافُ إلى ذلك كلِّه تلكم الاتِّصالات الهاتِفِيَّة التي تحملُ نَبْرَاتِ الحَنان من أصحابِها الذين أثلجت أصواتهم صدري ؛ وبعثتُ فيَّ النِّشاط والمضي في هذا السَّبيل .

* وإمعاناً في التَّحَدُّثِ بنعم الله عز وجل ، كان لا بدَّ من متابعة رحلة العِلْمِ الشَّرِيفِ ، والمعرفة الهادفة المُفيدة ، وسَبْرُ أغوار التاريخ في عمقٍ وتمعُّنٍ وتمحيصٍ وتدقيقٍ ، كيما نستخلصَ الدُّروسَ والعِبَرَ ، ونسجِّلَ وقائعَ الحياةِ لأولئك الأعلام الكرام ، الذين لهم باعٌ في تدوينِ سجلاتِ أعمالهم على صفحاتِ الأيام ، فإذا بحياةِ أولئك العُظماء ملءَ السَّمْعِ والبصر ، بما تمتلكه من بهاءٍ في الطَّلعةِ ، ونصاعةٍ في الجبين ، وجمالٍ في الهيئةِ ، وقوَّةِ تأثيرٍ في البصمات الدَّامغةِ .

* وكانتِ الصُّورُ التَّاريخيَّةُ تترى أمامَ مخيلتي ، تصافحُ العقلَ والفكرَ ، وتدنو هامسةً من العاطفةِ المتوهَّجةِ ؛ من خلالِ التَّصاوِيرِ المتألِّقةِ ، والمشاهدِ المتألِّثةِ عبر صفحاتِ الزَّمنِ النَّاضرِ ، وأوراقه الخضر المنداة بشذا الكرامةِ والفروسيَّةِ .

* ولا تعجب - عزيزي القارئ - من تاريخنا المجيد ، ومجدنا التَّليد ، ففيه صفحاتٌ نواضرٌ كثيرةٌ تضجُّ بالبطولةِ ، وتتفرَّدُ بالنَّظرةِ الصَّائبةِ ، وتسجِّلُ حركةً نشِطةً في مدرسةِ الفروسيَّةِ الحقَّةِ ، بينما يعبرُ الفرسانُ حلباتِ التَّزال ، وهم يُسمِعُونَ أذنَ الجوزاءِ قصصَ الفداء ، وحكاياتِ المجدِّ والكبرياء .

إنَّهم فرسانٌ من تاريخِ العرب الزَّاهر . . . وأكرمُ به من تاريخ! إذ يرتادُ القممَ وذُرَا المعالي ، ويجعلُ صَعِيدَ الغبراءِ يتحدثُ بلسانِ المقال ، وواقعِ الحال ؛ عن تلكم البطولاتِ التي أُمستُ شعاراً لتاريخنا الوضيء ، وإدالةِ الخصُومِ والحسَّادِ بالجهدِ ، والافتداز ، وكمالِ صدقِ المواجهةِ ، وتمامِ المحبَّةِ للأهل ، والخلَّان ، وذوي الرِّحم .

* وهذا الكتابُ الطَّرِيفُ يدلُّ دلالَةً منطقيَّةً على أنَّ هذه الأمةَ الكريمةَ العريقةَ أُمَّةٌ منجبةٌ على الدَّوام ، ومنتجةٌ على مدى الأيام ، تزهرُ أغصانُها ،

وتورق أشجارها كلَّ حين لِتَهَبَ النَّاسَ جَمِيعَهُم رَوْقاً ، وحضارةً ، وبهاءً .

* إِنَّ الفَرَسَانَ المَجْمُوعِينَ بَيْنَ دَفْتِي هَذَا الكِتَابِ هُم ثَلَاثَةٌ مِنَ التَّوَابِعِ وَمِنَ المُوْهُوبِينَ ، وَقَادَةُ الفُرُوسِيَّةِ عِبْرَ تَارِيخِنَا العَرِيقِ ، حَيْثُ كَانُوا نَجُوماً زَوَاهِرَ ، اِمْتَازُوا بِعُلُوِّ الهِمَّةِ ، وَبُعْدِ الصِّيتِ ، فَلَمْ يَكُونُوا - إِنْ صَحَّ التَّعْبِيرُ - نَسْخَةً طَبَقَ الْأَصْلِ عَنِ الْآخَرِينَ ، بَلْ نَجَدُهُمْ طَبْعَةً مَتَقَنَةً مِمْتَازَةً ، فِيهَا كُلُّ الْجَدَّةِ وَالْجَمَالِ وَالْجَلَالِ

أُولَئِكَ آبَائِي فَجَنَنْي بِمِثْلِهِمْ إِذَا جَمَعْتُنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ وَحُسْبُنَا - أَعْزَائِي - أَنْ نَقْرَأَ بِتَمَعْنٍ تَوَارِيخَ هَؤُلَاءِ الْفَرَسَانِ ، لِنَرَى التَّنَوُّعَ فِي الْأَحْدَاثِ ، وَلِنَجِدَ الطُّمُوحَ قَائِماً عَلَى أَشَدِّهِ ، جَدَّةً وَطَرَاةً ، فَحَيَاةً هَؤُلَاءِ كَالْقَاطِرَةِ الْقَوِيَّةِ الَّتِي تَجْرُ غَيْرَهَا ، حَيْثُ إِنَّهُمْ لَمْ يَخْلُدُوا إِلَى الرَّاحَةِ ، وَلَمْ يَخْضَعُوا لِلقُوَّةِ ، بَلْ ثَبَتُوا فِي مِيْدَانِ الْكِفَاحِ وَالْجَلَادِ وَالنِّزَالِ وَالنِّضَالِ ، فَكَانُوا كَالسَّهَامِ الصَّائِبَةِ الْمَوْجَّهَةِ إِلَى الْهَدَفِ الْمَقْصُودِ .

* إِنَّ الْكَلِمَاتِ قَدْ تَكُونُ رَائِعَةً ، وَالْعِبَارَاتِ رَائِقَةً ، وَلَكِنَّهُ لَا رُوحَ فِيهَا وَلَا حَيَاةَ ، حَيْثُ لَا يَتَجَاوَبُ الْكَاتِبُ مَعَ مَا يَكْتُبُ ، وَقَدْ صَوَّرَ ذَلِكَ الشَّاعِرُ الْهِنْدِيُّ «جَكَرُ مُرَادِ أَبَادِي» عِنْدَمَا وَصَفَ الْخُطِيبَ فَقَالَ : «مَا أَرُوعَ كَلِمَاتِ الْخُطِيبِ ، وَمَا أَجْمَلَ تَعْبِيرَهُ ! وَلَكِنِّي لَا أَجِدُ فِي عَيْنَيْهِ بَرِيقَ الْحَبِّ ، وَلَا أَقْرَأُ فِي وَجْهِهِ نَوْرَ الْإِيمَانِ ، وَسِيمَاءَ الْحَبِّ وَالْحَنَانِ» .

* بَيِّدَ أَنَّ الْقَارِئَ الْكَرِيمَ سَيَلْحَظُ - دُونَ شَكِّ - أَنَّ الدِّرَاسَةَ فِي هَذَا الْكِتَابِ عَمِيقَةٌ الْقَرَارِ ، يَحْيِيهَا الْإِخْلَاصُ فِي التَّعْبِيرِ ، وَالْوَصُولُ إِلَى كُنْهِ الْحَقِيقَةِ ، مَعَ إِشَارَاتٍ وَإِيمَاءَاتٍ مُفِيدَةٍ ، تَبْعَثُ مَوَاتَ الْأَفْكَارِ ، وَتَنْفُخُ رُوحَ الْمَعْرِفَةِ فِي الثُّفُوسِ ، مِنْ أَجْلِ الْجُهُودِ الْإِصْلَاحِيَّةِ ، وَالْكَفَاحِ الْمُثْمَرِ الْعَمَلِيِّ ؛ لِمَلَأَ الْقُلُوبَ قُوَّةً ، وَالثُّفُوسَ أَمَلًا ، وَالْعِزَائِمَ نَشَاطًا .

* فَمَنْ كَتَبَ مِنْ أَجْلِ الْكِتَابَةِ وَخَدَهَا لَا رُوحَ فِي مَوْلاَفَاتِهِ ، بَيْنَمَا تَكْمُنُ

قوة التأثير في روح المؤلف الداعي إلى حسن العاقبة ، وتجديد أواصر العلاقات بين القراء والمقروء .

* وفي الجملة ؛ يكون الكتاب محاولة لشدّ القارىء وجذبه إلى ميدان البحث ورياضه ، وتقويم سلوكه وأفكاره ، وإنضاجها قدر الإمكان ، من خلال دراسة التعمق والوعي ، والرغبة في الإصلاح .

* ولم يكن كتابنا هذا جلسة ، أو لفظة عابرة ، تُسجل فيها الأحداث وحسب ، ويوماً إلى البطاقات الشخصية ، وملامح الحياة العامة ، وإنما هو كتاب واسع المنازل ، رُحِبُ الفناء ، شامخُ البنيان ، قويُّ الأركان ، وإلاّ فهل يكفي المتعبّد المجدّ ساعةً من نهار؟! أو شطراً من الليل؟! لا ؛ فلا بدّ للمجدّ المُجتهد من الليالي ذوات العدد ، ليكتمل الشُّرور ، وتزداد الغبطة ، ويشعرَ بالحبور ، ويلتذّ بحلاوة الإيمان ، وطعم التوحيد ؛ وسقيا الإخلاص . . .

* وهكذا كان هذا الكتاب متابعةً مضيئةً في جمع وتنسيق المادة العلمية من بطون الكتب ، وثنايا المصنّفات ، فخبّرُ هنا ، وخبّرُ هناك ، وتجديني يوماً في دمشق ، وآخر في الرياض ، ويوماً في عمّان ، ويوماً في المدينة ، وطوراً عند عالم أو باحثٍ أو أديبٍ أقتبسُ علماً ، وأقتنصُ فائدةً ، وأجتني من ثمار المعرفة ما لذّ وطاب وتطولُ الأيامُ وتمرُّ الليالي ، وتنقضي الشُّهور ، وتطوئُ السَّنوات ، ومادّة الكتاب تزدادُ يوماً بعد يوم وترتلُّ العبارات وترسمُ الكلمات ، وتبلورُ الهمسات فتجتمعُ في عقدٍ ذهبيّ يطوقُ الشخصيات بقلادات جميلة متنوّعة ، لكنّها متألفةٌ بالمعرفة وقلادات مختلفة الصياغة ، لكنّها نادرةٌ ولطيفةٌ كالحياة البسيطة في ريف بسيط جميل ، بيدّ أنّها تسرُّ القلب ، وتسعدُ النفس ، وتثلجُ الصّدر . .

* وثمة أمور لا بدّ من التركيز عليها ، والإشارة لها ، ليكون القارىءُ

الكريم مطلعاً عليها؛ وبالتالي تتضح الصورة أمام ناظره ويدرك ما يقرأ ولم يقرأ ، وكيف يقرأ ، فأقول - بعد الاستعانة بالله عز وجل - :

* كان الاستطراءُ المدروسُ ظاهرةً جليةً في صفحاتِ هذا الكتاب ، ولا شكَّ أنَّ فيه نفعاً واضحاً ، لأنَّه يحتوي على معلوماتٍ مفيدة ، بحيثُ يطلعُ القارئُ الكريم على جوانبٍ مُضيئةٍ للموضوع ، فتُجلى لديه الرؤية ، وتتسع مداركه ، ويقفُ على حقائقٍ منوَّرة ، تهدي السَّائرِينَ ، وتكشفُ مضامين البحث ، وتبرزها للعيان .

* كان ضبطُ النَّصِّ ضبطاً محكماً ، وأعني به إضافةَ الحركاتِ إلى الكلمة ، منعاً للبسِ أثناءَ القراءة ، وقد كان اهتمامي كبيراً بهذا الجانبِ ، نظراً لأنَّ شريحةً كبيرةً من القراء الكرام غير متخصصين باللغة العربية ، ومن ناحيةٍ أخرى لنقترب أكثر من السَّلامة اللفظية والنطق السليم ، فاللغة العربية لغة جميلة ، بل هي الجمالُ ، وعَيْبُ علينا أن نعبثَ بهذا الجمال الذي وهبنا الله إياه ، واختاره لكتابه الكريم ، ولسوله الأمين ، بل ولتكون اللغة العربية لغة أهل الجنَّة ، وجواز سفر لدخولها ؛ ولذا فقد كان من الأجدر بالكتاب والمؤلفين أن يعتنوا بضبطِ النَّصِّ ، لأهميته ، وكذلك ضبط الأماكن والأعلام ، لأنَّ في ذلك تقريباً للعلم ، وتهذيباً للفهم ، وخدمةً لطلاب المعرفة وشُداتها ؛ وكم هو مؤلمٌ حقاً أن نسمعَ من يتصدَّر المجالس ومن ثمَّ يلحن ، ويرفع المجرور ، وينصب المرفوع ، ويجول ويصول ، ويطلب الطعنَ وحده والنزال ، فيخطيءُ في طعناته ، ويكبو به جواد النَّحو كبوةً مُخجلة ، وتعالوا نسرحِ النَّظَرَ في هذه الأبيات :

| | |
|---|---|
| تَصَدَّرَ فِي الْمَجَالِسِ ثُمَّ بَاهَا | وَيَلْحَنُ فِي الْقِرَاءَةِ إِنْ تَلَاهَا |
| وَفِي طَاقَاتِهَا كُتِبَ كِبَارٌ | مُجَلَّدَةٌ وَلَكِنْ مَا قَرَاهَا |
| فِيحَسِبُ أَنَّ كُبَرَ الشَّاشِ فَخْرٌ | تَرْخِصَ فِي الْبِطَانَةِ وَاشْتَرَاهَا |

* أمّا حواشي الكتاب وهوامشه فكان لها شأن آخر ، إذ سجّلت فيها كلّ ما يساعد على توضيح النّص ، وتقريبه من الأفهام ، من غير إطالة ، أو إطناب ، أو خروج عن الموضوع ، ولم يكن الهدف تفاصحاً غير مُرحّب به ، بل كانت الحواشي حافلة بما هو جديّد ومفيد ، وتضمّ ما يلي :

أ - ذكرُ المصادر والمراجع التي تمّت الاستفادة منها .

ب - شرح الكلمات الغامضة ؛ مراعاةً لمستويات القراء .

ج - التعريف بطائفة من الأعلام - رجالاً ونساءً - .

د - العناية ببعض التعليقات المفيدة التي تخدم النّص وتفيد القارئ ، فكانت تلك التعليقات ضروريّة ، دون أن نخرج إلى حشد المعارف ، أو استعراض العضلات ! بل كانت إشارات أدبيّة ، أو نكتاً بلاغيّة ، أو طرفاً تاريخيّة ، أو إيماءات متنوّعة تذكّر القارئ بما مضى ، وما سيأتي ، ونحو ذلك .

هـ - قمتُ بتخريج الشعر الوارد ، وذلك بعزوه إلى مصادره الأصيلّة ، وفي ذلك توثيقٌ للنّصوص ، وتأكيدٌ على صحتّها ، فيكون المطالع للكتاب على ثقةٍ ممّا يقرأ .

* اتّبعْتُ النهجَ العلميّ ، لا سيما في الإشارة عند الاقتباس إلى الموارد التي استقيتُ منها ، فذكرتُ الكتاب ومؤلفه ، والجزء والصّفحة التي وُجدَ فيها النّص ، وأنا في ذلك أتبعُ قولَ أبي عبيد : «مَنْ شَكَرَ الْعِلْمَ أَنْ تَسْتَفِيدَ الشَّيْءَ ، فَإِذَا ذَكَرَ لَكَ قُلْتَ : خَفِيَ عَلَيَّ كَذَا ، وَلَمْ يَكُنْ لِي بِهِ عِلْمٌ ، حَتَّى أَفَادَنِي فَلَانَ فِيهِ كَذَا وَكَذَا ، فَهَذَا شُكْرُ الْعِلْمِ» .

* وقال السيوطي في «المُزهر» (٣١٩/٢) : «من بركة العلم وشُكره : عزوه إلى قائله ولهذا لا تراني أذكرُ في شيءٍ من تصانيفي حرفاً إلّا معزواً إلى قائله من العلماء ، مُبيناً كتابه الذي ذكر فيه» .

* وهنا أودُّ أن أشيرَ إلى طائفةٍ من قراصنةِ الكُتبِ ، وممن يسطونَ على أعمالِ غيرهم ، و«يلْهفون» كتاباً بكامله دون الإشارةِ إلى مؤلفه الأصلي ، ومنَ العجيبِ حقاً أنَّ موضةَ سرقةِ الكتبِ قد كَثُرَت في أيَّامنا هذه ؛ وقد سرقَ مُحامٍ ماهرٌ كتابي «نساء أهل البيت» بحذافيره ، وكتبَ اسمه كاملاً ووضعَ تحته : المحامي ؛ فإذا كانَ المحامي يسرقُ أعمالَ غيره في غيرِ بلدهِ ، بل وقارَتِهِ ، فكيفَ يُرجى نُصْحُهُ؟ وكيفَ يُوثقُ فيه؟ و :
متى تَصْلُحُ الدُّنيا ويَصْلُحُ أهلُها إذا كانَ قَاضي... .

* ومن المؤسفِ أيضاً أنَّ هذا المحامي الماهر في السَّطو قد سَطَا على كتابي «بنات الصَّحابة» ، وظنَّ أنَّه بعيدٌ في أرضِ الكِنانة ولن تَطالَهُ يَدٌ ، أو قانون ، ولكنتنا نقولُ له ولغيره في بلدهِ وبلدنا وبلدان أخرى : مَهْلاً [فاللهُ عَدْلٌ والتَّلَاقِي غَدٌ] وهذا العمل ليس من أخلاقِ غيرِ العُلَماءِ وأهلِ العِلْمِ ، فكيفَ بمن يتدنَّثرُ بالعِلْمِ وينضوي تحت لوائِهِ ويتستَرُ خَلْفَهُ؟! أنا لا أريدُ أنْ أذكرَ اسمَ أيِّ واحدٍ من هؤلاء القراصنة الجبناء الذين يظنونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنْعاً ، لئلا يحسبونَ أنَّهم من ذوي المقاماتِ المرموقةِ والرُّتبِ العلميَّةِ والأدبيَّةِ ، ولكنْ نقولُ لهؤلاء الذين يُجيدون السَّطو :

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ فَضَحَّتْهُ شَوَاهِدُ الامْتِحَانِ

* إلى جانبِ ما ذكرتهُ آنفاً ، أشيرُ إلى أنني قد استوفيتُ علاماتِ التَّريقِ ؛ التي تفصلُ بين الجُمَلِ والعبارات ، فهي تزيدُ من جمالِ العلمِ التَّاليفيِّ . وصحيحٌ أنَّها مُقتبسةٌ من نظامِ الطَّباعةِ الأوربي ، إلَّا أنَّها نافعةٌ للكتابِ ، حيثُ إنَّها تُيسِّرُ فَهْمَ التُّصوص ، وتُعَيِّنُ معانيها ، وتزيلُ الإبهامَ والإعجامَ .

* وإنَّني أعجبُ إن اطلعتُ على كتابٍ لم يَعْتَنِ مؤلفه بعلاماتِ التَّريقِ ،

فربّ فاصلةٍ يُوَدِّي فَقْدُهَا إِلَى تَغْيِيرِ الْمَعْنَى ، أَوْ عَكْسِهِ ! بَلِ اضْطِرَابُهُ وَتَمَوُّجُهُ .

* هذا ، وقد رأيتُ - بعد أن استقرّت المادّة لديّ - أن أجعل الكتاب في أربعة أبوابٍ أو أقسامٍ هي :

الأوّل : فرسانُ من العَصْرِ الجاهليّ ، ويتمثّلون في نواحٍ هي :

١ - الفارسُ الفتى الحرُّ : ربيعةُ بنُ مكرم .

٢ - الفارسُ الصُّعلوكُ الفقير : عروةُ بنُ الورد .

٣ - الفارسُ العبدُ المُقْدَام : عنترَةُ بنُ شداد .

الثّاني : فرسانُ مخضرمون ، ويتمثّلون في نواحٍ هي :

١ - الفارسُ الشَّهْمُ النَّبِيلُ : زيد الخيل - الخير - بن مُهَلِّهَل .

٢ - الفارسُ الفاتحُ القائدُ : ضرارُ بنُ الخطّاب .

٣ - الفارسُ المُغامرُ الجريءُ : عمرو بنُ معدي كَرَب .

الثّالث : فرسانُ من العَصْرِ الإسلاميّ ، وهم كثيرون ، وشخصيّاتهم عديدةٌ ، ويمثّلون أنواعاً من الفُروسيّة الحقّة ، ففيهم القائدُ ، والفاتحُ ، والمغامرُ ، والصُّعلوكُ ، والكريمُ ، والفدائيّ ، والمتهورُ كأبطال الخوارج ، وسيجد القارئ هذه الصّفات مرسومة في هذه الشخصيات ، بالإضافة إلى صفاتٍ أُخر .

* ومن الجدير بالذّكر أنّي قد تعرّضتُ أثناء رحلتي مع هؤلاء الفرسان جميعهم ، إلى ذكر الأسلحة الدّفاعيّة والهجوميّة ، عبر تاريخهم ، وذكّرت كثيراً من الفوائد المهمّة في هذا المجال ، كذكر أنواع السُّيوف - مثلاً - ، أو الرّماح ، أو الدُّروع ، أو الخيل وغير ذلك .

الرابع : فإرساء من التاريخ ، وكل شخصيية منهم تروي لونا من ألوان فروسية المرأة عبر تاريخنا الجميل ، وخصوصاً القديم منه ^(١) ، بالإضافة إلى ذكر طائفة سيرة من نساء الخوارج ، وشيء من أخبارهن ، وأبناء إقدامهن وشجاعتهن .

* كما تحدثت بشيء من التفصيل عن فروسية المرأة العربية ، وعن أعمالها في صدر الإسلام ، ومشاركاتها في الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب .

* وفي الحقيقة إن الحديث عن بطولة النساء وفروسيتهن باب يجمع الطرافة والجمال والجدة ، وقد يكون هذا الباب يكرأ في موضوعه ، وهو مفتاح لكتاب كبير يضم بين حناياه عشرات الشخصيات عبر تاريخنا الوضاء في ماضيه وحاضره .

* ولا بد من الإشارة إلى أن التاريخ العربي والإسلامي يفيض بالحديث عن الفروسيية والفرسان ، فهو ملحمة كبرى ذات لحن جميل ، وتألف متواصل ، يجمع الماضي بالحاضر ليدل على أصالة الأمة ، وصدق محتدها وعراقته وحقيقته العظيمة .

* ومن واجب كل حريص على تراث أمتنا ، أن يستوعب هذه الحقيقة ، ولا يخرج عن مفهومها قيد أنملة ، حيث إن تنامي الأصالة يحمل إرهابات قوية تتجه بالأمة نحو العلياء ، وتجعلها تحاكي النجوم

(١) هذا لا يعني أنه لا يوجد نساء يمتلكن الشجاعة في أيامنا هذه ، فإن المرأة العربية المسلمة في أرض النبوات الآن وفي أراضي القدس الشريف تخيف جنود الصهاينة دون سلاح أو بالحجارة ، وما نقرؤه وما نشاهده دليل على ذلك ؛ ونسأل الله لهن الثبات ، فهن يقدمن أيضاً الشهداء والتضحيات ، فأكرم بهن !

رفعةً ، وذلك في ارتباطٍ لا تنفكُ عن الماضي السَّعيد ، لإنشاءِ حاضرٍ عتيد ، وبناءِ مستقبلٍ رشيد .

* وقُبيل الختام أودُّ أنْ أُشيرَ إلى أنَّ المصادرَ والمراجعَ كانت كثيرةً ومتنوعةً ، قديمةً وحديثةً ، وهي منشورةٌ بين ثنایا الكتابِ وحواشیه ، ومنها ما هو نادرٌ ، وكثيرٌ منَ المعلوماتِ لم نحصلُ عليها إلا بشقِّ الأنفسِ ، وسيلحظُ القارئُ ذلك من خلالِ رحلتهِ مع هذا الكتاب .

* والآن ومعَ الختام ، أضرُعُ إلى الله عزَّ وجلَّ أنْ يجزيَ كلَّ مَنْ دلَّ على خيرٍ ، أو أفادَ معلومةً ، أو أعارَ كتاباً ، أو دلَّ على مَصْدِرٍ أو مرجعٍ ، أو صحَّحَ عبارةً ، أو قوِّمَ نصّاً .

* وأسألهُ عزَّ وجلَّ أنْ يأخذَ بأيدينا إليه ، وأنْ يدلِّنا على الطَّريقِ القويمِ ، ويثبتنا على حبِّ العلمِ ، والتزوّد بالمعرفة النافعة ، في عَصْرِ حُرُونِ ، مُتَّسِمٍ بالتَّوجُّه نحو المادّة ، وتقييمِ النَّاسِ وفقها ، فهي ميزانُ كثيرين ! واللهُ المُستعان . .

* اللهم اجعلنا ممَّن يصلُّ إلى الحقِّ والحقيقة ، وممن يتمسَّكُ بهما ، ولا يزيغُ عنهما ، واجعلنا - يا ربِّ - ممَّن يدعو إليهما ، ويسيرُ في ركبهما ، في همَّساتِ قلوبنا ، وخلجاتِ صُدورنا ، ولهجاتِ ألسنتنا .

* اللهمَّ عليك توكلُّنا ، وإليك أنبنا ، فلا تخذُلنا ، ولا تسلطُ علينا الحُسَّاد ، وأبعدنا عن طريقِ الغاوين .

* وأرجو القارئَ الكريم أنْ يخصّني بدعوة خالصة منه بظهر الغيبِ إنْ وجدَ فائدةً في هذا الكتابِ ، وأنْ يسدَّ الخللَ ويسترَ العيبَ ، إنْ وجدَ هفوةً ، فالكمالُ لله وحده ، والإنسان بطبيعته خطاء :

وَمَنْ ذَا الَّذِي تَرْضِي سَجَايَاهُ كُلَّهَا كَفَى الْمَرْءُ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِيهِ

* وختاماً تعالوا نقرأ قول ربنا عز وجل: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝﴾
[العصر: ١ - ٣].

* اللهم اجعل آخر كلامنا: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».
﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وكتب
أحمد بن خليل جمعة
الحرستاني الدمشقي

دمشق - حرستا - حي الشيخ موسى
١٥ / شعبان / ١٤٢١ هـ
١٢ / تشرين الثاني / ٢٠٠٠ م

الباب الأول
فرسان من العصر الجاهلي

ربيعة بن مكرم
عروة بن الورد
عنترة بن شداد

ربيعه بن مكرم

* أحد فرسان مضر المعدودين ، وشجعانهم المشهورين.

* هو صاحب قصة «حامي الظعينة» حيث دافع عن محارمه ، وعن زوجته ، حتى قيل في المثل: «أحمى من مجير الظعن».

* مدحه كثير من الشعراء؛ لشجاعته وفروسيته.

فَتَى الْفُرْسَانِ:

* هَيَاتِ الْحَيَاةَ الْجَاهِلِيَّةَ لِلْعَرَبِ أَنْ يَكُونُوا أَقْوِيَاءَ ، لَتَسْتَقِيمَ حَيَاتُهُمْ ،
فَقَدْ كَانَ أَهَمُّ مَا يَشْغَلُ الْعَرَبِيَّ عَصْرَ ذَاكَ ، أَنْ يَسْعَى جَاهِدًا كَيْفَمَا يَكُونُ
قَوِيًّا مَرْهُوبَ الْجَانِبِ ، وَأَنْ يَكُونَ مُهَابًا مَمَّنْ حَوْلَهُ ، وَمِمَّنْ يُرْهَبُ
جَنَابَهُ ، وَيُرْهَبُ بِأُسِهِ ، وَلَعَلَّ نَابِغَةَ بَنِي ذُبْيَانَ قَدْ عَبَّرَ عَنْ هَذَا الْمَبْدَأِ عِنْدَمَا
قَالَ:

تَعْدُو الذُّنَابُ عَلَى مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ وَتَتَّقِي صَوْلَةَ الْمُسْتَأْسِدِ الضَّارِي^(١)

* وَفَارِسُ هَذِهِ الصَّفَحَاتِ مَمَّنْ عَرَفَهُمْ فَرَسَانُ عَصْرِهِ ، وَهَابُوهُ وَحَسَبُوا
حِسَابَهُ ، وَاضْطَرُّوا لِسَمَاعِ اسْمِهِ ، فَقَدْ كَانَ فَتَى الْفُرْسَانِ ، وَفَارِسَ
الْفَتَيَانَ ، أَقَرَّ لَهُ فَرَسَانُ الْجَاهِلِيَّةِ بِالْإِقْدَامِ وَالْجَرَاءِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْفَضْلِ عَلَى
الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ مَاتَ فِي رِيْعَانِ الشَّبَابِ .

* وَهَذَا الْفَارِسُ الْعَمَلَقُ فِي عَالَمِ الْفُرُوسِيَّةِ هُوَ أَحَدُ فَرَسَانِ مُضَرِّ
الْمَعْدُودِينَ ، وَشَجَعَانُهُمُ الْمَشْهُورِينَ ، إِنَّهُ رُبِيعَةُ بْنُ مَكْدَمٍ بْنُ عَامِرٍ مِنْ بَنِي
كِنَانَةَ^(٢) ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا بَنُو كِنَانَةَ!

(١) دِيوَانُ النَّابِغَةِ (ص ٢٤٩) طَبْعَةُ الْمَكْتَبَةِ التُّونِسِيَّةِ عَامَ ١٧٩٦ م.

(٢) الْأَغَانِي (١٦/٦٤ - ٨٦) ، وَبَلُوغُ الْأَرْبِ (١٢٥/١ وَ ١٢٦) ، وَالْعِقْدُ الْفَرِيدُ
(١١٦/١) وَ (٥/١٧٠ - ١٧٣) وَجُمُهِرَةُ الْأَمْثَالِ (١/٣٣٠ وَ ٣٣١) ، وَمَجْمَعُ
الْأَمْثَالِ (١/١٤٩) ، وَجُمُهِرَةُ أَنْسَابِ الْعَرَبِ لِابْنِ حَزْمٍ (ص ١٧٦ وَ ١٨٨) ،
وَالْبَرِصَانُ وَالْعُرْجَانُ وَالْعَمِيَانُ وَالْحَوْلَانُ لِلْجَاظِ (ص ٣٩٤ وَ ٣٩٥) ، وَالْأَمَالِي
(٢/٢٧١) ، وَالْإِسْتِقْلَاقُ (ص ٣١١) ، وَالْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ (١/٢٤٩) ، وَقَطُوفُ
الرِّيْحَانِ (ص ٥٧ - ٦١) ، وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ .

* وقبل أن نتعرّف أحوالَ هذا الفارسِ ، ونعرفَ أشياءَ جميلةً عن فروسيّته ، نودُّ أن نتعرّفَ شيئاً عن معنى الفتوةِ ، كيما ترسمُ صورةَ ربيعةَ بنِ مَكْدَمٍ صحيحةً في الأذهانِ .

* فالفتوةُ في الأصلِ معناها الشَّبابُ ، قالوا: فَتِيَ يَفْتِي : أي صارَ شاباً . وقالوا: هو فتى السَّنِّ ، بَيْنَ الفَتَاءِ . وبشكلٍ عام تعني كلمةُ الفتوةُ : القوةُ والرُّجولةُ والكرمُ . . . يقول طرفهُ بنُ العبدِ في معلقته عن الفتوة :

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى خِلْتُ أَنِّي عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدْ
وَلَسْتُ بِحَلَالِ الثَّلَاعِ مَخَافَةً وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدُ
فَإِنْ تَبَغْنِي فِي حَلَقَةِ الْقَوْمِ تَلْقَنِي وَإِنْ تَلْتَمِسْنِي فِي الْحَوَانِيتِ تَصْطِدِ
وَإِنْ يَلْتَقِ الْحَيُّ الْجَمِيعُ تَلَاقَنِي إِلَى ذِرْوَةِ الْبَيْتِ الشَّرِيفِ الْمَصْمَدِ^(١)

* ومن معاني الفتوةِ كما جاءَ في كُتُبِ اللغةِ : الشَّبابُ ، قالَ الجوهريُّ في «الصَّحاحِ» : الفتى : الشابُ ؛ والفتاةُ : الشَّابَّةُ . وقد فَتَى - بالكسر - يفتي فتى ، فهو فتى السَّنِّ بَيْنَ الفَتَاءِ^(٢) .

* وجاءَ في «لسانِ العربِ» : الفَتَاءُ : الشَّبابُ ، والفتى والفتيةُ : الشابُ والشَّابَّةُ ؛ والفعلُ فَتَوُ يَفْتُو فِتَاءً ، ويُقالُ افْعَلْ ذَلِكَ فِي فِتَائِهِ ، وقد فَتَى - بالكسر - يفتي فتى فهو فتى السَّنِّ بَيْنَ الفَتَاءِ^(٣) .

* وللفتوةِ معانٍ ومدلولاتٌ كثيرةٌ ، فقد اسْتُعْمِلَتْ في معنى الشَّجَاعَةِ والوفاءِ بالوعدِ ، والبَرِّ بالعهدِ ، والصَّبْرِ على الشَّدَائِدِ ، ودَفْعِ الملماتِ ،

(١) انظر: شرح المعلقات السَّبع (٦٤ - ٦٥) بعناية: عبد رب النبي سعيد الحسيني طبعة ١٣٥٤هـ .

(٢) الصحاح (٦/٢٤٥١) .

(٣) لسان العرب (٢٠/٣) .

وتحمّل الأعباء ، وكثير من الصّفات المحمودّة ، وهذا الاستعمال كان غالباً على كلّ الاستعمالات الأخرى . قال امرؤ القيس حين توجّه إلى قيصر :
فَدَعُ ذَا وَسَلِّ الْهَمَّ عَنْكَ بِجَسْرَةٍ ذَمُولٍ إِذَا صَامَ النَّهَارَ وَهَجَّرَا
عَلَيْهَا فَتَى لَمْ تَحْمِلِ الْأَرْضُ مِثْلَهُ أَبَرَّ بِمِثَاقٍ وَأَوْفَى وَأَصْبَرَا^(١)

* وإلى جانب هذا المعنى استُعملت الفتوة في معانٍ أخرى ، منها المروءة ، بكلّ ما تضمّنه من نجدة وكرم وشهامية ، وغير ذلك من القيم الخلقيّة التي تعارف عليها المجتمع الجاهليّ وقَدَّرها . قال لبيدُ يرثي أخاه أُرَيْدُ :

أَيَا مَيِّ قُومِي فِي الْمَأْتِمِ وَانْدُبِي فَتَى كَانَ مَمْنُ يَبْتَنِي الْمَجْدَ أَرُوعَا
فَتَى عَارِفٌ لِلْحَقِّ لَا يَنْكُرُ الْقِرَى تَرَى رَفْدَهُ لِلضَّيْفِ مِلَانَ مُتْرَعَا^(٢)

* وقد وردت في بعض النصوص كلمة الفتوة تحمل معنى صغر السنّ ، كما استعملت على القوّة والشّباب . قال الأعشى يمدح هوزة بن عليّ الحنفيّ :

قَدْ حَمَلُوهُ فَتَى السَّنِّ مَا حَمَلْتُ سَادَاتُهُمْ فَأَطَاقَ الْحَمْلَ وَاضْطَلَعَا^(٣)
وَجَرَّبُوهُ فَمَا زَادَتْ تَجَارِبُهُمْ أَبَا قُدَامَةَ إِلَّا الْحَزْمَ وَالْقَنَعَا

(١) ديوان امرئ القيس (ص ٦٣ و ٦٥) . و«فدع ذا» : من أساليب العرب في الانتقال من غرض إلى غرض في القصيدة ، وقد يجيء ابتداءً . «والجسرة» : الناقة القويّة النشيطة . و«الذمول» : التي تسير الذميل وهو سيرٌ سريع . و«صام النهار» : قام واعتدل . يقول : دُعُ ما أنث فيه من الشعر واذهب عنك الهمّ بركوب هذه الناقة القويّة السريعة عند اشتداد الحرّ . «وفتى» : يعني نفسه . و«الميثاق» العهد .

(٢) مختار الشعر الجاهلي للأعلام الشنمري (٢/ ٥٠٠) . و«المأتم» : مجتمعات النساء في حزين أو فرح ، والمراد هنا الحُزن . «أروع» : مَنْ يعجبك بحسن منظّره وجماله ، أو لشجاعته . «القرى» : ما يقدم للضيف من طعام وشراب وغيره . «الرغد» : العطاء والصلة . «مترع» : ملان .

(٣) ديوان الأعشى (ص ١٠٩) . و«أطاق» : احتمل . و«اضطلع» : نهض . و«الحزم» : ضبط الأمر ، والأخذ فيه بالثقة . «القنع» : الخير والكرم والزيادة وحسن الذكر .

* وقال عبيدُ بنُ الأبرص :

كَمْ مِنْ فِتْيٍ مِثْلُ غَصَنِ الْبَانِ فِي كَرَمٍ مُحَضُّ الضَّرْبِيَّةِ صَلَّتْ الْخَذَّ وَضَّاحٌ ^(١)

* وهكذا نجدُ كلمةَ الفتوةِ في هذهِ الفترةِ خاضعةً للبيئاتِ المختلفةِ التي تداولتها ، وكانت كلُّ بيئةٍ تلبسُها ما تراه مناسباً للمُثلِ العُلْيَا التي توسَّمتها في فتاها المقصود ^(٢).

* فالفتى في عرفِ العربِ القُدَامِي في الجاهليَّةِ ، هو الإنسانُ الذي تتجسَّدُ فيه الصِّفَاتُ والسَّمَاتُ التي تتطلَّبُها القبيلةُ على أكملِ صورةٍ ، فهي أحياناً شجاعةٌ في القتالِ والنِّزالِ تَضْمَنُ حمايةَ القبيلةِ ، أو كرمٌ يصونُ اسمَها ويرفعُ ذكْرَها ، وشهامَةٌ تزيدُ مركزَها علواً وشموعاً ، ومروءةٌ تجمعُ الخصالَ الحميدةَ الأخرى ^(٣).

رَبِيعَةُ وَالْفُرُوسِيَّةُ :

* مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّ الْفُرُوسِيَّةَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْفَتْوَةِ ، وَقَدْ دَعَتْ إِلَيْهَا الْحَيَاةُ الَّتِي يَعِيشُهَا الْعَرَبُ عَصْرَ ذَاكَ ، وَالْبَيْئَةُ الَّتِي يَنْزِلُونَ فِيهَا ، وَالنِّظَامُ الْقَبِيلِيُّ الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ حَيَاتُهُمْ ، وَهِيَ تَتَّخِذُ مَظَاهِرَ مُتَعَدِّدَةً وَتَرْسُمُ جَوَانِبَ وَاضِحَةً .

* فَفُرُوسِيَّةُ الْبَطْلِ الْعَرَبِيِّ تَنْسِمُ بِالْأَخْلَاقِ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا الْعَرَبُ جَمِيعاً ، فَالْفَارَسُ شَجَاعٌ وَكَرِيمٌ وَعَزِيزُ النَّفْسِ ، يَحْتَرِمُ الْمَرْأَةَ وَيَدَافِعُ عَنْهَا ، وَيَجِيرُ الْمُسْتَجِيرَ ، وَيَعْمَلُ عَلَى رَفْعِ الظُّلْمِ ، وَهُوَ سَمُحُ الْخُلُقِ إِلَّا إِذَا ظَلِمَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَغَيِّرُ مِنْ طَبِيعَتِهِ وَيَصْبِحُ ثَوْرَةً عَارِمَةً .

(١) مختار الشعر الجاهلي (٣٢/٢). و«محض»: خالص. «الضربية»: الطبيعة. «صلت»: بارز.

(٢) انظر: الصَّلَكة والفتوة في الإسلام (ص ١١).

(٣) انظر: الفروسية في الشعر الجاهلي (ص ٤٠) بتصرف يسير.

* ومع تلكم الخِلال السَّابقة فإنَّ الفارسَ العربيَّ صادقٌ وفيٌّ ، يكرهُ الغدرَ ، ونقضَ المواثيقِ ، وهو عفيفٌ في الحربِ ، لا يخوضُها من أجلِ الأسلابِ والغنائمِ .

* ومن المعروف أيضاً أنَّ الفروسيَّةَ الحَقَّةَ ترتبطُ ارتباطاً وثيقاً بالسيادةِ والرِّفعةِ ، فالفارسُ له مكانتُهُ الأولى في القبيلةِ ، وبينَ فرسانِ العشائرِ الأخرى ، لهذا فإنَّنا نجدُ أنَّ بطولاتهم قد امتزجت بمكارمِ أخلاقهم وأسلوبِ حياتهم .

* لقد عرفَ العربُ قديماً الفروسيَّةَ في تقاليدهم وفي مُثلهم ، فقد كانتِ الشَّجاعةُ والكرمُ والنَّجدةُ والمروءةُ من سماتهم ، وقد سجَّلُوا الذِّكرَ الحميدَ في ديوانِ مفاخرهم ، وظلُّوا يفخرونَ بالمناقبِ الحميدةِ على مرِّ الأيَّامِ ، وكانت كلُّ قبيلةٍ تفخرُ بفرسانِها وأبطالِها .

* ولذلك كانتِ نشأةُ ربيعةَ بنِ مكدَّم في قبيلةٍ عُرِفَتْ بالفروسيَّةَ والنَّجدةِ وخصائلِ الشَّجاعةِ والبَسالةِ والإقدامِ ، وقد فتحَ ربيعةُ عينيه على ساحاتِ الكَرِّ والفرِّ ، وأيفَعَ على متونِ الخيلِ وظهورِ الجيادِ ، حتى غدا معروفاً بينَ مشاهيرِ فرسانِ العربِ من معاصريه من أمثالِ : دُرَيْدِ بنِ الصُّمَّةِ ، وعنترةِ العبسيِّ ، وعامرِ بنِ الطَّفِيلِ ، والسُّلَيْكِ بنِ سُلَكةَ ، وغيرِهِم ، بل إنَّ فارسَ العربِ وفارسَ قومه عمرو بنَ معدي كرب قد خافَ بأسَ ربيعةَ عندما نازَلَه ، وأوشكَ ربيعةَ أن يسقيه حنْفَه بطعنةٍ نجلاء .

* وهكذا كانتِ قبيلةُ ربيعةَ بنِ مكدَّم تنجُبُ الفرسانَ الفتيانَ الأشداءَ ، وزعموا أنَّ الرَّجُلَ منهم يعدلُ عشرةً من غيرِهِم ، وذكرَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ - رضوانُ الله عليه - شجاعتَهُم وثباتَهُم لأهلِ الكوفةِ عندما خَذَلُوهُ : ودَدْتُ

والله أن لي بجمعكم - وأنتم مئة ألف - ثلاثمئة من بني فراس بن غنم^(١).
هنايك لو دعوت أتاك منهم فوارس منهم كأرمية الحميم^(٢)
من أشجع من رأيت؟

* تروي كتب الأدب والأسمار أن عمرو بن معدي كرب الزبيدي كان فارساً مشهوراً من فرسان العرب الأشداء ، وكان مشهوداً له بالرتبة والتقدم في الجاهلية والإسلام ، وكان فارس اليمن ، ويُقدّم على كثير من فرسان الجاهلية وأبطالها وأشدائها ، وعده سيّدنا عمر بن الخطّاب - رضوان الله عليه - بألف فارس .

* وعمر بن معدي كرب هذا ، شهد لربيعة بن مكدّم بالإقدام والشجاعة والبسالة في حديث شائق أدلى به لسيّدنا عمر - رضي الله عنه - .
فقد ورد أن عمر قد سأل عمرًا: من أشجع من رأيت؟!

قال: كانت لي فرسٌ شَمَقَمَقَةٌ طويلةٌ ، سريعةُ الإنقاذِ ، فركبتها ، فلم أكن ألقى أحداً إلا قتلته ، ثمّ مضيتُ ، فأصبحتُ بين رجالٍ متعاقدة ، فنظرتُ إلى أبياتٍ ، فعدلتُ إليها ، فإذا فيها جوارٍ ثلاثٌ كأنهنّ نجومُ الثريا ، فبكين حين رأيّني ، فقلتُ: ما يبكين؟

فقلن: لما ابتلينا به منك ؛ ومن ورائنا أختٌ لنا أجملُ منا .

فتركتُهنّ ، وسرتُ في طلبها ، فأشرفتُ على مكانٍ مرتفع ، وإذا بغلام قد جلس يخصفُ نعلَه ، فلما نظرَ إليّ وثبَ على فرسه مبادراً ، ثمّ ركضَ إلى الفتياتِ ، فوجدهنّ قد ارتعنَ ، فسمعتُهُ يقولُ لهنّ:

(١) بلوغ الأرب (١/١٤٤).

(٢) بلوغ الأرب (١/١٤٤) ، و«الأرمية»: جمع رمي ، كغني ، قطع صغاراً من السحاب . و«الحميم»: القيظ .

مَهْلًا نُسَيَّاتِي فَلَا تَرْتَعْن إِنَّ تَمْنَعِ الْيَوْمَ نِسَاءَ تُمْنَعْنَ^(١)
* فلَمَّا دَنُوْتُ مِنْهُ قَالَ: أَتَطْرُدُ لِي ، أَوْ أَطْرُدُ لَكَ؟

قلت: بل أَطْرُدُ لِي.

* فَرَكَضَ وَرَكَضْتُ فِي إِثْرِهِ ، حَتَّى أَمَكَنْتُ السَّنَانَ مِنْ لَفْتَتِهِ - أَسْفَلَ الْكَتِفِ - فَإِذَا هُوَ وَاللَّهُ يَنْقَلِبُ عَلَى صَدْرِ جَوَادِهِ ، فَتَذْهَبُ الطَّعْنَةُ خَائِبَةً ، ثُمَّ اسْتَوَى فِي سَرْجِهِ ، فَعُدْتُ إِلَى طَرْدِهِ وَهُوَ يَرْكُضُ أَمَامِي ، حَتَّى إِذَا مَكَنْتُ السَّنَانَ بَيْنَ نَاصِيَتَيْهِ ، إِذْ هُوَ وَاللَّهُ قَائِمٌ عَلَى الْأَرْضِ ، وَمَضَى السَّنَانُ زَالِجًا فِي الْهَوَاءِ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى فَرَسِهِ ، فَطَرَدَتْهُ ثَالِثَةٌ حَتَّى إِذَا أَمَكَنْتُ السَّنَانَ مِنْ مَتْنِهِ ، اتَكَأْتُ عَلَيْهِ وَأَنَا أَظُنُّ أَنِّي قَدْ فَرَعْتُ مِنْهُ ، فَمَالَ فِي سَرْجِهِ حَتَّى خَالَطَ بَدْنُهُ الْأَرْضَ ، وَذَهَبَتِ الطَّعْنَةُ فِي الْهَوَاءِ مَرَّةً أُخْرَى ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى فَرَسِهِ ، وَقَالَ: أَبْعَدَ ثَلَاثَ تَرِيدُ مَاذَا ؟؟ ! تَكَلَّتْكَ أُمُّكَ !.

* فَوَلِيْتُ وَأَنَا مَرَعُوبٌ مِنْهُ ، فَلَمَّا غَشِيَنِي أَحْسَسْتُ مَسَّ الرَّمْحِ فِي بَدَنِي ، فَالْتَفْتُ فَإِذَا هُوَ يَطْرُدُنِي بِالرَّمْحِ دُونَ سِنَانٍ ، ثُمَّ كَفَّ عَنِّي

(١) وَفِي رَوَايَةٍ: أَنَّ عَمْرَأَ قَالَ لَهُ: يَا هَذَا اسْتَأْذِنِي. فَمَضَى غَيْرَ مَكْتَرٍ حَتَّى أَشْرَفَ عَلَى الْحَيِّ ، فَإِذَا الْخَيْلُ جَائِلَةٌ فِي أَكْنَافِهِ ، فَعَطَفَ عَلَيَّ وَهُوَ يَقُولُ:

قَدْ عَلِمْتُ إِذْ أَلْتَمَنْتَنِي فَآهَهَا وَأَلْبَسْتَنِي بِكَرَّةٍ رَدَّاهَا
أَنْتِي سَاحُوِي الْيَوْمَ مِنْ حَوَاهَا يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي دَهَاهَا
قَالَ عَمْرُو: فَتَلَقَيْتُهُ وَأَنَا أَقُولُ:

عَمْرُو عَلَى بُعْدِ الْمَدَى دَهَاهَا جَابَ مَفَاوِزَهَا وَقَدْ قَلَّاهَا
بِالْخَيْلِ يُزْجِيهَا عَلَى وَجَاهَا حَتَّى إِذَا حَلَّ بِهَا احْتَوَاهَا
ثُمَّ حَمَلْتُ عَلَيْهِ وَحَمَلَ عَلَيَّ ، فَاسْتَبَكْنَا ، فَكُنْتُ أَضْرِبُهُ أَخَذَرُ مِنْ غُرَابٍ ، وَيَضْرِبُنِي أَثْقَفُ مِنْ سِتَّورٍ ، فَوَقَعَ سَيْفُهُ فِي قَرْبُوسِ سَرْجِي فَقَطَعَهُ وَمَا تَحْتَهُ ، حَتَّى هَجَمَ عَلَى مَسْحِ الْفَرَسِ ، ثُمَّ ثَنَى بِضَرْبَةٍ أُخْرَى فَأَخْطَأَنِي ، وَقَدْ زُغْتُ لَهَا رَاجِلًا ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ ، فَقَالَ: أَنَا رَبِيعَةُ بْنُ مَكْدَمٍ. (الجلس الصالح ٣/ ١٣٨) و(قطوف الريحان ص ٥٩) بتصرف واختصار.

واستنزلي ، فنزلت عن فرسي ، فجزّ ناصيتي وقال : انطلق فإني أنفسُ بك
عن القتل ، فكان عندي يا أمير المؤمنين أشدّ من الموت .

* ثم إنني سألت عن الفتى فقيل : ربيعةُ بنُ مكدّم ، فذلك أشجعُ من
رأيتُ يا أمير المؤمنين .

* وهكذا ظهرت فروسيّةُ وجرأةُ ربيعةَ بن مكدّم الذي احتقره^(١) وازدراه
عمرو بن معدي كرب بادىء الأمر ، ولما بلّاه واختبره ألفاهُ كحيّةِ بطنِ
الوادي ، وأمنع من نسر السماء ، ولا يقدر على مواجهته .
حامي الطّعينّة :

* في بطونها وبين جوانحها تحتوي كُتُبُ الأدب وتاريخه ، قصّة شائقة
عن فروسيّة ربيعةَ بن مكدّم وعن يومِ الطّعينّة الذي أبلّى فيه بلاءُ محموداً
مذكوراً للدّفاع عن محارمه وعن زوجته ، وأردى الأبطال الفرسان وجعلهم
كأمس الدّابر ، فقد حماهن من دُرَيْدِ بن الصّمة الفارسي الشّاعر المشهور في
ميادين المعارك والجلاد .

(١) قالوا : من الحزم أن لا يحتقر الرّجل عدوّه وإن كان ذليلاً ، ولا يغفل عنه وإن كان
حقيراً ؛ فكم من برغوث أسهر فيلاً ، ومنع الرّقاد ملكاً جليلاً .
ولله درّ الشّاعر :

فلا تحقرنّ عدوّاً رماك وإن كان في ساعدَيْهِ قَصْرُ
فإنّ السُّيوفَ تحزُّ الرّقابَ وتعجزُ عمّا تنالُ الإبرُ
* ومن هنا أمر الإسلامُ الحنيفُ المسلمين أن يعدّوا ما قدروا عليه من العدة والآلة
والحيلة لنكاية العدو ، قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ
الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

والشّأنُ كلُّ الشّأن في استجادة القوّاد ، وانتخابِ الأمراء ، وأصحابِ الألوية ، فقد
قالتُ حكماءُ العجم : أسدٌ يقودُ ألفَ ثعلبٍ خيرٌ من ثعلبٍ يقودُ ألفَ أسدٍ .

(المستطرف ٥٨/٢)

* تقولُ القصَّةُ: خرجَ دريدُ بنُ الصَّمَّةِ^(١) في فوارسَ من بني جُشم ، حتَّى إذا كانوا بوادٍ لبني كنانة يُقال له الآخرم ، وهو يريدُ الغارةَ على بني كنانة ، رُفِعَ له رجلٌ من ناحيةِ الوادي معه ظُعيْنَةٌ ، فلمَّا نظر إليه قال لفارسٍ من أصحابه: صَحَّ به أنْ خلَّ عنِ الظُّعيْنَةِ وانج بنفسك ، وهو لا يعرفه ، فانتَهى إليه الرَّجُلُ ، فصاحَ به ، وألحَّ عليه ، فلما أتى ألقى الزِّمامَ ، وقال للظُّعيْنَةِ :

سِيري على رسلِك سَيرَ الآمِنِ سَيرَ رَدَاحِ ذاتِ جاشِ ساكِـ
إنَّ انثنائي دونَ قرني شائني وابلي بلائي واخبري وعائني
* ثم حملَ على الفارسِ فقتلَه ، وأخذَ فرسَه ، فأعطاهُ الظُّعيْنَةَ ، فبعثَ دريدُ فارساً آخرَ لينظرَ ما صنعَ صاحِبُه ، فرآه ريعاً ، فصاحَ به ، فتصامَمَ

(١) دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ بن الحارث الجُشَمي من هوازنَ من الشَّعراء المذكورين ، قُتِلَ يومَ حُنينٍ كافراً. قال الأصفهاني: ودريدُ بنُ الصَّمَّةِ فارسٌ شجاعٌ شاعرٌ فُحِّلَ ، وجعله محمدُ بنُ سلام أوَّلَ شعراءِ الفرسان ، وقد كان أطولَ الفرسانِ الشعراءِ غزواً ، وأبعدهم أثراً ، وأكثرهم ظفراً ، وأيمنهم نقيبةً عند العرب ، وأشعرهم دريدُ بنُ الصَّمَّةِ .

وقال أبو عبيدة: كانَ دريدُ بنُ الصَّمَّةِ سيِّدَ بني جُشم وفارسَهم وقائدهم ، وكانَ مظفراً ميمونَ النقيبة ، وغزاه نحو مئة غزاةٍ ما أخفقَ في واحدةٍ منها ، وأدركَ الإسلامَ فلم يسلم ، وخرجَ مع قومه في يومِ حُنينٍ مظاهراً للمشرَكين ، ولا فَضْلَ فيه للحرب ، وإنَّما أخرجوه تيمناً به وليقتبسوا من رأيه ، فمنعهم مالكُ بنُ عوفٍ من قَبولِ مشورته ، وخالفه لئلا يكونَ له ذِكرٌ ، فقُتِلَ دريدُ يومئذٍ على شركه .

وكانَ لدريدِ إخوة وهم: عبد الله ، وعبد يغوث ، وقيس ، وخالد ، وأمهم جميعاً ريحانة بنت معدي كرب الزبيدي أخت عمرو بن معدي كرب . وكانَ لدريدِ ابنٌ يقال له سلمة وكان شاعراً ، وابنة يقال لها عمرة وكانت شاعرة . هذا وأخبار لدريد مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ ، وقد استوفى الأصفهاني معظمها في أغانيه .

(تهذيب الأسماء واللغات ١/ ١٨٤) ترجمة رقم (١٦٠) والأغاني ١٠/ ٥ - ٤٧) مع الجمع والتصرف .

عنه ، فظنَّ أَنَّهُ لم يسمعه ، فغشيَهُ فَألقى الزَّمامَ إليها ، ثم حملَ على الفارسِ
فطعنه فصرعه ، وهو يقول :

خَلَّ سَبِيلَ الحُرَّةِ المنيعة إِنَّكَ لاقٍ دونَهَا ربيعة
في كَفِّهِ خطيئةٌ مُطِيعَة أو لا فخذُهَا طعنةٌ سريعة
فَالطَّعنُ مِنِّي في الوغى سريعة

* فلما أبطأ على دُرَيْدٍ بعثَ فارساً آخرَ لينظرَ ما صنعَا ، فانتهى إليهما ،
فَرَأَهما صَريعَينَ ، ونظرَ إليه يقودُ ظِعِينَتَهُ ، ويجرُّ رُمَحَهُ ، فقال له
الفارسُ : خلَّ عن الطَّعِينَةِ .

فقال لها ربيعةُ : أَقْصِدِي قَصْدَ البُيُوتِ ، ثُمَّ أَقْبِلِ عَلَيْهِ فقال :
مَاذَا تَريدُ مِنْ شَتِيمِ عَابِسٍ أَلَمْ تَرَ الفَارِسَ بَعْدَ الفَارِسِ
أَرَدَاهُمَا عَامِلُ رُمَحٍ يَابِسٍ

* ثم طعنه فصرعه ، وانكسرَ رُمَحُهُ ، فارتابَ دُرَيْدٌ ، وظنَّ أَنَّهُم أَخَذُوا
الطَّعِينَةَ وَقَتَلُوا الرَّجُلَ ، فلاحقَ بِهِم ، فوجدَ ربيعةَ لا رُمَحَ معه ، وقد دناَ مِنْ
الحَيِّ ، ووجدَ القومَ قد قُتِلُوا ، فقال دُرَيْدٌ : أَيُّهَا الفَارِسُ ، إِنَّ مِثْلَكَ
لا يُقْتَلُ وَإِنَّ الخيلَ نائرةٌ بأَصْحَابِهَا ، ولا أَرى معَكَ رُمَحاً ، وأراكَ حديثَ
السِّنِّ ، فدونَكَ هذا الرُّمَحُ ، فَإِنِّي راجعٌ إلى أَصْحَابِي ، فمَشَبَّطُ عُنْكَ ، فَأَتَى
دُرَيْدُ أَصْحَابَهُ وقال : إِنَّ فَارِسَ الطَّعِينَةِ قد حَمَاهَا ، وَقَتَلَ فَوَارِسَكُمْ ، وانتزعَ
رُمَحِي ، ولا طَمَعَ لَكُمْ فِيهِ . فانصرفَ القومُ . وقال دُرَيْدُ في ذلك :

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ حَامِي الطَّعِينَةِ فَارِساً لَمْ يُقْتَلِ
أَرَدَى فَوَارِسَ لَمْ يَكُونُوا نُهْزَةً ثُمَّ اسْتَمَرَ كَأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلِ
مُتَهَلِّلاً تَبَدُّوا أَسْرَةً وَجِهَهُ مِثْلَ الحُسَامِ جَلَّتْهُ كَفُّ الصَّيْقَلِ
يُزْجِي ظِعِينَتَهُ وَيَسْحَبُ رُمَحَهُ مَتَوَجِّهاً يَمْنَاهُ نَحْوَ المَنْزِلِ
وَتَرَى الفَوَارِسَ مِنْ مَخَافَةِ رُمَحِهِ مِثْلَ البُغَاثِ خَشِينٍ وَقَعَ الأَجْدَلِ

يا ليت شعري مَنْ أبوه وأُمُّه يا صاحِ مَنْ يكُ مثله لم يُجْهَلِ^(١)
* فقال ربيعةُ:

إِنْ كَانَ يَنْفَعُكَ الْيَقِينُ فَسَائِلِي عَنِّي الظَّعِينَةُ يَوْمَ وَادِي الْأَحْرَمِ
هَلْ هِيَ لِأَوَّلِ مَنْ أَتَاهَا نُهْزَةً لَوْلَا طَعَانُ رَبِيعَةَ بْنِ مَكْدَمٍ
إِذْ قَالَ لِي أَدْنَى الْفَوَارِسِ مِيتَةً خَلَّ الظَّعِينَةُ طَائِعاً لَا تَتَدَمَّ
فَصَرَفْتُ رَاِحِلَةَ الظَّعِينَةِ نَحْوَهُ عَمْداً لِيَعْلَمَ بَعْضَ مَا لَمْ يَعْلَمِ
وَهْتَكْتُ بِالرُّمْحِ الطَّوِيلِ إِهَابَهُ فَهَوَى صَرِيحاً لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ
وَمَنْحَتُ آخِرَ بَعْدِهِ جِيَّاشَةً نَجْلَاءَ فَاغْرَةً كَشْدَقِ الْأَضْجَمِ
وَلَقَدْ شَفَعْتُهُمَا بِآخِرِ ثَالِثٍ وَأَبَى الْفَرَارَ لِيِ الْغَدَاةِ تَكْرُمِي^(٢)
أَنَا جَارَةٌ لَهُ مِنْكُمْ:

* بلغَ من مكانةِ المرأةِ في العَصْرِ الجَاهِلِيِّ أَنَّهَا كَانَتْ تَجِيرُ كَمَا يَجِيرُ
الرِّجَالُ ، وكَمَا يَجِيرُ الْفُرْسَانُ وَالْكَبْرَاءُ ، وَكَانَتْ تُقْبَلُ إِجَارَتُهَا ، وَلَا تُخْفَرُ
ذِمَّتُهَا.

* فهذه ربيعة بنتُ جذلِ الطَّعَانِ - زوجِ ربيعة بنِ مَكْدَمٍ - قد أجارت

(١) انظر: ديوان دريد بن الصمة (ص ١٥١ و ١٥٢) ، والأغاني (٧٣/١٦ و ٧٤) ،
والعقد الفريد (١٧٠/٥ - ١٧٢) والأُمالي (٢/٢٧٢) ، ولباب الآداب (من ٢١١) ،
والفروسيّة العربيّة في العَصْرِ الجَاهِلِيّ (ص ١١٠ و ١١١) وبلوغ الأرب (٢/١٣٦) ،
ونهاية الأرب (١٥/٣٧١) ، وزهر الأكم (١/١٠٣) ، وغيرها كثير. و«الظعينة»:
المرأة ، ويعني بحامي الظعينة ربيعة بن مكدّم فارس بني كنانة. (الاشتقاق ص
٣١١) ، و(مجمع الأمثال ١/٢٧٧) ، و«نهضة»: الفرصة: يعني لا يتمكن منهم
عدوهم إذ لا يلمس منهم غفلة. و«الصيقل»: شحاذ السيوف. «والبغات»: الطيور
الضعيفة. و«الأجلد»: الصقر.

(٢) الأغاني (١٦/٧٥) ، والعقد الفريد (٥/١٧١ و ١٧٢). و«الأضجم»: الذي في فمه
عوج وميل.

دريد بن الصِّمَّةَ عندما أسره قومُها ، لأنَّه أعطاه رمحه يومَ أن حمى
الظَّعينةَ ، وقُبِلَتْ إجارُتها - كما سنعرف بعد قليلٍ بإذن الله - .

* ومن الجدير بالذكر أنَّه كانَ للمرأةِ دورٌ كبيرٌ في الحربِ في عصرِ
الجاهليةِ ، لأنَّها رمزُ القوةِ المعنويَّةِ ، يستلهمُها الرَّجُلُ في ساعاتِ الشَّدَّةِ
والضَّيقِ ، فيستمدُّ عزماً من رؤيتها إلى جانبهِ ، فتثورُ فيه الحميَّةُ والحماسَةُ
والشَّجاعةُ ، وهذا ما فعله ربيعةُ بنُ مكدَّم يومَ أن حمى الظَّعينةَ وفيها
امراتُّه .

* وقد ذكرتِ المصادرُ لنا مواقعَ كثيرةٍ رافقت فيها النِّساءُ الرِّجالَ إلى
ميادينِ القتالِ ، حتى إذا ما رأَيْنَ دائرةَ الحربِ أوشكتُ أن تدورَ على
رجالِهنَّ ، حَسَرْنَ البراقعَ ، وكشفنَ الشُّعورَ ، وبرزنَ إلى المعمعةِ ،
يستثرن حميَّةَ الرِّجالِ ، ويدفعنَّهم إلى حمايتهنَّ من السَّبيِّ وهوانِهِ . ولقد
عبَّرَ عمرو بنُ كلثوم عن هذا في معلقته الشهيرة حينما قال :

| | |
|---------------------------------|---|
| على آثارنا ييُضُّ كِرامٌ | نُحاذِرُ أن تفارقَ أو تهونا |
| أخذنَ على بعولِهنَّ عهداً | إذا لاقُوا فوارِسَ مُعلمينَا |
| إذا ما رُحنا يمشينَ الهوينى | كما اضطربتْ مُتونُ الشَّارينَا |
| يقتنَ جِادنا ويقلنَ لستُم | بعولتنا إذا لم تمنعنونا |
| إذا لم نحمِهِنَّ فلا بقينَا | لشيءٍ بعدهنَّ ولا حينَا |
| وما منعَ الظَّعائنَ مثلُ ضَرْبٍ | تُرى منه السَّواعدُ كالقلينا ^(١) |

(١) انظر: شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها (ص ١٠٦ و ١٠٧) ومعنى «على
آثارنا . . . أو تهونا»: نساؤنا خلفنا نقاتلُ عنهنَّ ونحذرُ أن نفارقهنَّ أو يصرنَ إلى
غيرنا ويقعَ عليهنَّ الذَّلُّ أو الهوان . و«البعول»: جمع بَعْل وهو الزوج ، وأصلُه في
اللغة ما علا وارتفع . و«يقتن»: من القوت ، وكانوا لا يرضون للقيام على الخيل إلا
بأهلِيهم إشفاقاً عليها ، ويقلنَ أنتم لستم لنا أزواجاً إن لم تدافعوا عنا . و«القلون»:
جمع قلة ، وهي الخشبةُ التي يلعب بها الصبيان .

* وإذا كَانَ إِكْبَارُ الشَّجَاعَةِ ، واحترامُ مظاهرِ الفُروسِيَّةِ يستحقَّانِ الإعجابَ والتَّقديرَ من سائرِ النَّاسِ ، فَإِنَّ إعجابَ المرأةِ بهما أَشدَّ ، وتقديرها لهما أعظم ، لحاجَّتها الماسَّةُ إلى مَنْ يقومُ على شُؤونها ويعولها ويدفعُ ويدافعُ عنها في كلِّ الطُّرُوفِ والأوقاتِ .

* وكانت حمايةُ المرأةِ وصيانتُها جُزءاً من الخطَّةِ الحربيَّةِ عند فرسانِ العرب ، فالفرسُ العربيُّ يناضلُ حتَّى آخرِ نَفْسٍ فيه وهو يذبُّ عن نساءِهِ ، بل إِنَّ النِّسَاءَ كُنَّ يُثِرْنَ الحماسَ في نفوسِ الفُرسانِ ، فيدفعنَّهم دفعاً إلى البسالةِ والاستماتَةِ في سبيلهنَّ ، ويخوضون غمارَ الحروبِ غيرِ مبالينَ وقعوا على الموتِ أم وقعَ الموتُ عليهم ، اسمعُ إلى عمرو بنِ معدي كرب يقولُ عن هذا :

لَمَّا رَأَيْتُ نِسَاءَنَا يَفْحَضْنَ بِالْمَعْزَاءِ شَدًّا^(١)
وَبَدَتْ لَمِيسُ كَأَنَّهَا بَدَرُ السَّمَاءِ إِذَا تَبَدَّى
نَازَلْتُ كَبْشَهُمْ وَلَمْ أَرِ مِنْ نِزَالِ الْكَبْشِ بُدًّا
* فالمرأةُ كانت تثيرُ الهممَ في نفوسِ الرِّجالِ ، وتحرضُهم على القتالِ ، وكانت بعضُ النِّسوةِ يشتركنَ في الحربِ فعلاً - كما سنقرأ في سِيرِ بعضهنَّ في هذا الكتابِ - ويذكرُ الرُّواةُ أَنَّ لقيطَ بنَ زُرارة كان يصحبُ ابنته دختنوس في غزواتِهِ ، وكانتِ النِّسَاءُ يحملنَ القتلى بعد انتهاءِ المعاركِ .

* وهكذا امتازتِ المرأةُ العربيَّةُ في عَصْرِ الجاهليَّةِ بأنَّها سيِّدةٌ حافظتْ

(١) انظر: حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي (١/١٧٧) . و«المعزاء»: الأرض الحزنة ذات الحجارة ، ومعناه يؤثرن لشدة العدو في المعزاء . ومعنى «وبدت لميس»: أي برزت هذه المرأة كاشفةً عن وجهها سافرة . و«كبشهم»: كبش الكتيبة: رئيسها .

على إبايها ومكانتها ، وعرف لها قومها هذه المكانة فأصاخوا لقولها ،
ورضوا إيجارتها للرجال .

* تقصُّ علينا كتب الأخبار والتَّوَادِرِ والأسمار أنَّ بني مالك بن كنانة قوم
ربيعة بن مكدَّم قد أغاروا ذات مرَّة على بني جُشم قوم دُرَيْد بن الصَّمَّة ،
فقتلوا منهم كثيراً ، وأسروا ، وغنموا ، وأسروا دُرَيْد بن الصَّمَّة ، فأخفى
نسبه عنهم لكيلا يطمعوا فيه ويغالوا في فكَّاه .

* وبينما هو عندهم محبوسٌ والأغلالُ في يديه ورجليه ، إذ جاء نسوةٌ
يتهادين إليه ، ولما رأيته صرخت امرأةٌ منهنَّ فقالت : ويحكم ، هلكتم
وأهلكتم ، ماذا جرَّ علينا قومنا ؟! بل ماذا جرَّ علينا مُخارقُ - الذي أسرَ
دُرَيْداً - ؟

فقلنَّ لها : ويحك ، ما الذي دهاك يا ريطة ؟

قالت : يا صُويحباتي ، هذا والله الذي أعطى زوجي ربيعة بن مكدَّم
رمحه يومَ الطَّعينة .

ثمَّ إنَّ ريطة ألقت عليه ثوبها ونادت بأعلى صوتها : يا آل فراس ، يا آل
فراس ، أنا جارةٌ له منكم ، هذا صاحبنا يومَ الوادي .

* هنالك تبادر القومُ وأقبلوا نحوه مسرعين ، ومن ثمَّ سألوه : مَنْ هو ؟!

فقال : أنا دُرَيْد بن الصَّمَّة ، فمَنْ صاحبي يومَ الطَّعينة ؟!

قالوا : صاحبك فتى الفرسان وفارسُ الفتيانِ ربيعة بن مكدَّم .

قال : فما فعل ؟

قالوا : قتلته بنو سليم .

قال : فمَنْ الطَّعينة التي كانت معه وما فعلت ؟!

قالتِ المرأةُ: أنا هي ، وأنا امرأته ربطة بنتُ جذل الطَّعان .

* فحبسه القومُ ، وآمروا أنفسهم ، واثتمروا بينهم ، ثمَّ قالَ بعضهم لبعضٍ : لا ينبغي أنْ تُكْفَرَ نعمةُ دريدٍ على صاحبنا . وقال بعضهم : والله لا يخرجُ منْ أيدينا إلَّا المُخارقُ الذي أسرَهُ .

* وانبعثتِ المرأةُ في الليلِ - وهي ربطة بنتُ جذل الطَّعان - تقولُ :

سَنَجْزِي دُرَيْدًا عَنْ رِبْعَةٍ نِعْمَةً وَكُلَّ فَتًى يُجْزَى بِمَا كَانَ قَدَمًا
فَإِنْ كَانَ خَيْرًا كَانَ خَيْرًا جَزَاؤُهُ وَإِنْ كَانَ شَرًّا كَانَ شَرًّا مَذَمَّمًا
سَنَجْزِيهِ نِعْمَى لَمْ تَكُنْ بِصَغِيرَةٍ بِإِعْطَائِهِ الرُّمَحَ السَّدِيدَ الْمُقَوَّمَا
فَقَدْ أَدْرَكْتَ كَفَّاهُ فِينَا جَزَاءَهُ وَأَهْلٌ بَأَنْ يُجْزَى الَّذِي كَانَ أَنْعَمَا
فَلَا تُكْفَرُوهُ حَقَّ نِعْمَاهُ فِيكُمْ وَلَا تَرْكَبُوا تِلْكَ الَّتِي تَمَلَأُ الْفَمَا
فَلَوْ كَانَ حَيًّا لَمْ يَضُقْ بِشَوَابِهِ ذِرَاعًا غَنِيًّا كَانَ أَوْ كَانَ مُعْدَمًا
فَفَكُّوا دُرَيْدًا مِنْ إِسَارِ مُخَارِقٍ وَلَا تَجْعَلُوا الْبُؤْسَى إِلَى الشَّرِّ سُلَّمَا

* وَأَصْبَحَ الْقَوْمُ ، وَتَعَاوَنُوا بَيْنَهُمْ ، وَأَطْلَقُوا دُرَيْدًا ، ثُمَّ إِنَّ رِبْطَةَ كَسَتْهُ كِسْوَةً حَسَنَةً وَجَهَّزَتْهُ ، وَلَحَقَ بِقَوْمِهِ ، وَلَمْ يَزَلْ كَافًّا عَنْ غَزْوِ بَنِي فِرَاسٍ حَتَّى هَلَكَ (١) .

* وَمَنْ الْمَلاحِظُ أَنَّ رِبْطَةَ بِنْتَ جَذَلِ الطَّعَانِ هَذِهِ قَدْ ظَلَّتْ وَفِيَّةً لِلْوَفَاءِ ، وَلِزَوْجِهَا رِبْعَةَ بْنِ مَكْدَمٍ ، وَلِدُرَيْدِ بْنِ الصُّمَّةِ ، وَإِنَّ أَبْيَاتَهَا تَنْبَعُثُ مِنْ عَاطِفَةٍ صَادِقَةٍ ، وَقَلْبٍ وَفِيٍّ ، فَلَقَدْ أَحْبَبَتْ أَنْ تَرَدَّ الْجَمِيلَ لِمَنْ صَنَعَ مَعَهَا الْمَعْرُوفَ وَمَعَ زَوْجِهَا ، وَهَذَا لَيْسَ بِعَجِيبٍ فِي عَالَمِ النِّسَاءِ الْعَرَبِيَّاتِ وَالْعَرَبِ الْأَقْحَاحِ ، فَالْعَرَبُ مَعْدُنُ الْفَضْلِ ، وَجَوْهَرُ الْكَرَمِ ، وَيَنْبُوعُ

(١) انظر: الأغاني (١٦/ ٧٥ و ٧٦) بشيء من التصرف . وانظر: أيام العرب (ص ٣١٧) ، وقطوف من الرياحان (ص ٦١) وغير ذلك .

الخير ، ومنجم الإحسان وردُّ الجميل ، وقلما تجدُ عند بعضهم مَنْ يجحدُ النعمة ، أو ينكرُ الجميل ، أو يتنكرُ للفضل والإفضال . لذلك نلمحُ أنَّ بني فراس أكرموا دُرَيْدًا وأطلقوه من إيساره^(١) ، ولم يهملوه ، وردُّوه إلى قومهِ عزيز الجانب ، محفوظ المكانة .

مَقْتَلُ الْبَطْلِ:

* ذكر الأصفهاني أنَّ ربيعة بن مُكْدَم كانَ أحدَ فرسانِ مُضَرِ المعدودين ، وشجعانهم المذكورين المشهورين .

* ولكن مع هذه البسالة والقوة لم يعيش ربيعةً طويلاً ، فقد مات وهو

(١) من مناقب العرب وفضائلهم أنه كان إهمالُ الأسير عندهم عاراً كبيراً ، وسبباً لا يرضونها . يُروى أنه في يوم «نَعَف قُشَاوَة» ، أسرَ بِسْطَامُ بْنُ قَيْسِ الشَّيبَانِيَّ أَبَا مُلَيْلٍ ، فلَمَّا صَارَ فِي يَدَيْ بِسْطَامٍ قَالَ لَهُ : يَا أَبَا مُلَيْلٍ ، إِنِّي لَمْ أَخْذُكَ لِأَقْتُلَكَ قَالَ : قَدْ قَتَلْتُ ابْنِي ، وَدَدْتُ أَنِّي مَكَانَهُ وَأَسْرَتَنِي وَابْنِي مُلَيْلًا ، أَمَا إِنَّ طَعَامَكَ عَلَيَّ حَرَامٌ مَا دُمْتُ فِي يَدِكَ .

فَكَانَ أَبُو مُلَيْلٍ يُؤْتَى بِالطَّعَامِ ، فَيَبِيتُ يَطْرُدُ عَنْهُ الْكِلَابُ ، مَخَافَةَ أَنْ تَأْكُلَهُ فَيُظَنُّوا أَنَّهُ أَكَلَهُ هُوَ ، حَتَّى جَهَدَ ، فَلَمَّا رَأَوْا جَهْدَهُ ، قَالَ بَشْرُ بْنُ قَيْسٍ لِأَخِيهِ بِسْطَامٍ : إِنِّي لَا آمَنُ أَنْ يَمُوتَ أَسِيرُكَ هَذَا فِي يَدِكَ هَذَا ، فَتَسُبُّكَ بِهِ الْعَرَبُ ، فَيَعْبُ ثَنَفُ .

وَكَانَ فِي النَّهَايَةِ أَنْ خَلَّاهُ بِسْطَامُ بْنُ قَيْسٍ بِغَيْرِ فِدَاءٍ ، وَذَهَبَ أَبُو مُلَيْلٍ وَأَتَى قَوْمَهُ ، وَأَخْبَرَهُمْ خَبْرَهُ مَعَ بِسْطَامٍ . (أَيَّامُ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ص ٣٥٤ - ٣٥٩) بِتَصْرِيفٍ وَاخْتِصَارٍ . - وَمِمَّا يُرَوَّى عَنْ تَرْفَعِ الْعَرَبِ عَنْ تَعْذِيبِ الْأَسِيرِ وَالتَّمْثِيلِ بِهِ ، أَنَّ عَمْرُوَ بْنَ كَلْثُومٍ لَمَّا أَسْرَهُ يَزِيدُ بْنُ عَمْرٍو ، قَالَ لَهُ : أَنْتَ الْقَاتِلُ :

مَتَى نَعْقِدُ قَرِينَتَنَا بِحَبْلِ نَجْدِ الْحَبْلِ أَوْ نَقْضِ الْقَرِينَا؟ !
أَمَّا إِنِّي سَأَقْرُنُكَ إِلَى نَاقَتِي هَذِهِ فَأَطْرِدُكُمَا جَمِيعًا . فَنَادَى عَمْرُو بْنُ كَلْثُومٍ : يَا لَرَبِيعَةٍ أُمُتْلَةٍ؟ فَاجْتَمَعَتْ بَنُو لُجَيْمٍ فَنَهَوْهُ ، ثُمَّ سَارَ بِهِ إِلَى بَعْضِ قُصُورِهِمْ بِحَجَرٍ وَضَرَبَ عَلَيْهِ قَبْطَةً ، وَنَحَرَ لَهُ وَكَسَاهُ ، وَحَمَلَهُ عَلَى نَجِيبَةٍ ، وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِ ، فَقَالَ عَمْرُو مَا دَحَا :

جَزَى اللَّهُ الْأَغْرَّ يَزِيدَ خَيْرًا وَلَقَّاهُ الْمَسْرَةَ وَالْجَمَالَ

في رِيْعَانِ الشَّبَابِ ؛ ولموته قِصَّةٌ مِنْ أَجْمَلِ قِصَصِ البَطُولَةِ والفُرُوسِيَّةِ التي وصلت إلينا عن فرسانِ العربِ في العَصْرِ الجاهليِّ ، حيثُ ماتَ ربيعة يومَ الكُديد^(١) قَتَلَهُ نُبَيْشَةُ بْنُ حَبِيبِ السُّلَميِّ ، أو كَانَ السَّبَبُ في موته .

* ونحنُ مرسلو القولِ في قِصَّةِ موتِ ربيعة ومقتله ، حيثُ فيها كثيرٌ مِنْ ألوانِ البطولةِ الحقَّةِ ، والشَّجَاعَةِ الفريدةِ ، والهَيْبَةِ التي لَا تُضَارَعُ .

* تقول القِصَّةُ : وقعَ نزاعٌ وخصومةٌ واختلافٌ بينَ جماعةٍ من بني سُليمِ بنِ منصورٍ ؛ وبينَ نَفَرٍ من بني فِرَاسِ بنِ مالكِ بنِ كنانةٍ ، فقتلتُ بنو كنانة رجلينَ من بني سُليمٍ ، ثمَّ إِنَّهُم أعطوا لهم دِيَّتَهُمَا ، وكفَّ النَّزاعَ مدَّةً من الزَّمنِ ، ثم ضربَ الدَّهْرُ ضربَاتِهِ .

* وفي يومٍ من الأَيَّامِ ، خرجَ نُبَيْشَةُ بْنُ حَبِيبِ السُّلَميِّ غازياً ومعه جماعةٌ من بني سُليمٍ ، فلقيَ طُعائنَ من بني كنانةٍ بالكُديدِ ؛ وبَصُرَ بهم نَفَرٌ من بني فِرَاسِ بنِ مالكٍ ، فيهم عبدُ اللهِ بْنُ جَذَلِ الطَّعَانِ بنِ فِرَاسٍ ، والحرثُ بْنُ مَكْدَمٍ أبو الفَارعة أخو ربيعة بنِ مَكْدَمٍ ، وكان ربيعةُ يومئذٍ مريضاً مجدوراً يُحْمَلُ في محفَّةٍ ، فلَمَّا رآهم أبو الفَارعة قال : هؤلاء بنو سُليمٍ يطلبونَ دماءَهُمْ .

* فلَمَّا سمعَ ربيعةٌ من أخيه أبي الفَارعة ذلك ، غَالَبَ ضَعْفُهُ ومرضُهُ ، ثمَّ امتطى صهوةَ جوادهِ وقال : أنا أَذهبُ حتَّى أَعْلَمَ عِلْمَ القومِ ، فَاتِيكُمْ بخبرهم .

* ثمَّ إِنَّ ربيعةَ تَوَجَّهَ نحو بني سُليمٍ ، ولَمَّا وَلَّى قال بعضُ الطَّعْنِ : هربَ ربيعةٌ وهابَ أسبابَ المنايا .

(١) «الكديد»: موضعٌ بالحجاز . ويومُ الكُديدِ : من أَيَّامِ العربِ المشهورةِ في العَصْرِ الجاهليِّ . وهو موضعٌ على اثْنينِ وأربعينَ ميلاً من مكة .

وسمعتُ هذه المقولةَ أَخْتَهُ أُمُّ عَزَّةَ بِنْتُ مَكْدَمَ فَقَالَتْ: أَيْنَ تَنْتَهِي نَفْرَةُ^(١) الْفَتَى؟ فَعَطَفَ رِبِيعَةُ وَقَدْ سَمِعَ قَوْلَ النِّسَاءِ، وَقَالَ:

لَقَدْ عَلِمَنْ أَنَّنِي غَيْرُ فَرِقٍ لَأَطْعُنَنَّ طَعْنَةً وَأَعْتِنُقُ
أَعْمِلُ فِيهِمْ حِينَ تَحْمَرُّ الْحَدَقُ عَضْبًا حُسَامًا وَسِنَانًا يَأْتَلِقُ

* ثُمَّ انْطَلَقَ رِبِيعَةُ يَعْدُو بِهِ فَرَسُهُ، فَحَمَلَ بَعْضُ فَرَسَانِ بَنِي سُلَيْمٍ، فَاسْتَطَرَدَ لَهُ رِبِيعَةُ فِي طَرِيقِ الظَّنِّ، وَانْفَرَدَ بِهِ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ رِبِيعَةُ، وَشَكَّهُ بِالرَّمْحِ فَأَرْدَاهُ قَتِيلًا، ثُمَّ إِنَّ فَارِسَ بَنِي سُلَيْمٍ نُبَيْشَةَ رَمَاهُ بِسَهْمٍ، فَأَصَابَهُ فِي عَضْدِهِ، فَارْتَدَّ رِبِيعَةُ إِلَى الظَّنِّ يَسْتَدْمِي حَتَّى أَتَى إِلَى أُمِّهِ^(٢)، وَكَانَتْ مَعَهُمْ فِي الرَّحْلِ، فَقَالَ لَهَا: يَا أُمَاهُ اجْعَلِي عَلَى يَدِي عَصَابَةً، وَهُوَ يَرْتَجِرُ وَيَقُولُ:

شُدِّي عَلَيَّ الْعَضْبَ أُمَّ سَيَارٍ لَقَدْ رُزِيتَ فَارِسًا كَالدِّينَارِ
يَطْعُنُ بِالرَّمْحِ أَمَامَ الْأَذْبَارِ

فَقَالَتْ أُمُّهُ:

إِنَّا بَنُو ثَعْلَبَةٍ بَنِ مَالِكٍ مَرَزَوْوْ خِيَارِنَا كَذَلِكَ
مِنْ بَيْنِ مَقْتُولٍ وَبَيْنِ هَالِكٍ وَلَا يَكُونُ الرُّزْءُ إِلَّا ذَلِكَ

* وَشَدَّتْ أُمُّهُ عَلَيْهِ عَصَابَةً، وَشَعَرَ رِبِيعَةُ بِالْعَطَشِ، فَاسْتَسْقَاهَا مَاءً، وَلَكِنَّ أُمَّهُ قَالَتْ لَهُ: يَا بَنِيَّ إِنْ شَرِبْتَ الْمَاءَ مُتًّا؛ فَكَّرَ عَلَى الْقَوْمِ، فَإِنَّ الْمَاءَ لَا يَفُوتُكَ.

* فَكَّرَ رَاجِعًا يَشُدُّ عَلَى الْقَوْمِ وَدُمُهُ يَنْزِفُ حَتَّى كَشَفَهُمْ وَرَدَّهُمْ عَنْ

(١) «النفرة»: الجماعة.

(٢) أُمُّ رِبِيعَةَ بَنِ مَكْدَمَ، كُنْيَتُهَا أُمُّ سَيَارٍ، اشتهرتُ بِحَادِثَةٍ وَلَدَهَا رِبِيعَةُ بَنِ مَكْدَمَ، لَمَّا أَصِيبَ بِسَهْمٍ وَهُوَ يَحْمِي الظَّنَّ وَفِيهِنَّ أُمُّهُ، فَشَدَّتْ عَلَى جَرْحِهِ عَصَابَةً، فَكَّرَ رَاجِعًا يَقَاتِلُ، وَالْجَرْحُ يَنْزِفُ حَتَّى مَاتَ وَهُوَ مَتَكِيٌّ عَلَى رَمَحِهِ.

الظَّعَائِنَ ، ودُمُهُ ما يزالُ يَنْزِفُ حتَّى أَثْخَنَ ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ لِلظَّعْنِ : أَسْرِعْ
إِلَى أَدْنَى الْبُيُوتِ فِي الْحَيِّ ، وَإِنِّي لَمَّا بِي ، سَوْفَ أَقْفُ دُونَكَ لَهُمْ عَلَى
العُقْبَةِ ، وَأَعْتَمِدُ عَلَى رَمْحِي ، فَإِنْ فَاضَتْ رُوحِي كَانَ الرُّمْحُ عِمَادِي ،
وَهُمْ لَا يَجْرُؤُونَ أَنْ يَقْدُمُوا عَلَيْكَ لِمَكَانِي ، أَوْ مَا دَمْتُ وَاقِفًا لَأَنَّ هَيْبَتِي
وَقَعَتْ فِي نَفُوسِهِمْ .

* وَأَسْرَعَتِ الظَّعَائِنُ ، فَوَصَلَتْ إِلَى الْحَيِّ آمَنَاتٍ مِنْ خَطَرِ بَنِي سُلَيْمٍ ،
وَهَرَبَ الرِّجَالُ فِي إِثْرِهِنَّ ، وَرَبِيعَةُ بْنُ مَكْدَمٍ وَاقِفٌ إِزَاءَ أَعْدَائِهِ عَلَى جِوَادِهِ
مَعْتَمِدًا عَلَى رُمْحِهِ ، وَالْدَّمُ يَسِيلُ مِنْ جِرْحِهِ حتَّى لَفَظَ آخَرَ أَنْفَاسِهِ ، وَبَنُو
سُلَيْمٍ وَاقِفُونَ وَهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَقْدُمُوا فِي إِثْرِ الظَّعَائِنِ ، وَلَا يَجْرُؤُونَ عَلَى
الدُّنُومِ مِنْهُ .

* وَلَمَّا طَالَ مِنْهُمْ ذَلِكَ قَالَ نُبَيْشَةُ بْنُ حَبِيبٍ : إِنِّي أَرَى رَبِيعَةَ بْنَ مَكْدَمٍ
مَائِلَ الْعُنُقِ ، وَمَا أَظُنُّهُ إِلَّا قَدْ مَاتَ .

* ثُمَّ إِنَّهُ أَمَرَ فَارِسًا مِنْ خُزَاعَةَ كَانَ مَعَهُ أَنْ يَرْمِيَ فَرَسَ رَبِيعَةَ ، فَرَمَاهَا
فَقَمَصَتْ وَزَالَتْ ، فَمَالَ عَنْهَا مَيْتًا ، وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ ، وَأَسْرَعَتِ الْفُرْسَانُ
وَرَاءَ الظَّعْنِ فَلَمْ يَدْرِكُوهُنَّ ، وَإِنَّمَا أَدْرَكُوا أَخَاهُ الْحَارِثَ بْنَ مَكْدَمٍ أَبَا الْفَارَعَةِ
فَقَتَلُوهُ ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى رَبِيعَةَ ، فَأَهَالُوا الْحِجَارَةَ عَلَى جَثَّتِهِ ، وَأَصْبَحَ ذَلِكَ
الْمَكَانَ قَبْرًا لَهُ ، وَكَانَ مَصْرَعُ رَبِيعَةَ حَوْلِي عَامِ (٦٢) قَبْلَ الْهِجْرَةِ^(١) .

* وَبِهَذَا أَصْبَحَ رَبِيعَةُ مُضْرَبَ الْمَثَلِ فَقِيلَ : أَحْمَى مِنْ مُجِيرِ الظَّعْنِ^(٢) ،

(١) انظر : الأغاني (١٦ / ٦٤ - ٦٦) ، وجمهرة الأمثال (١ / ٣٣٠) مع الجمع والتصرف .
وقال أبو هلال العسكري عن دفنِ رَبِيعَةَ : مرَّ به حفصُ بْنُ أَحْنَفٍ وَالْكَنَانِيُّ فَوَارَاهُ .
(جمهرة الأمثال ١ / ٣٣١) .

(٢) انظر : جمهرة الأمثال (١ / ٣٣٠) برقم (٦٨٩) ، ومجمع الأمثال للميداني
(١ / ١٤٩) ، والمستقصى للزمخشري (ص ٣٩) .

قال أبو عبيدة: قال أبو عمرو بن العلاء: ولا نعلم قتيلاً ولا ميتاً حمى طعائن غيره^(١). أو قال: ما نعلم قتيلاً ميتاً حمى طعائن غير ربيعة^(٢).

* ويذكرُ العسكريُّ في «جمهرته» أنَّ الذي قتلَ ربيعةَ هو أهبانُ بنُ كعب فقال: والصَّحيحُ أنَّ الذي طعنَ ربيعةَ أهبانُ بنُ كعب بنِ أمية بن يقظة مكلَّم الذئب ، فقتله ، وجاءَ بفرسه وسلاحه ، فوهبه لنبيشة بن حبيب السلمي وقال:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ رِبِيعَةَ بَنٍ مُكَدَّمٍ يَوْمَ الْكُدَيْدِ فَخَرَّ غَيْرَ مُوسَدٍ
وَلَقَدْ وَهَبْتُ جَوَادَهُ وَسِلَاحَهُ لِأَخِي نُبَيْشَةَ قَبْلَ يَوْمِ الْحُسَدِ^(٣)
رِبِيعَةَ فِي ذَاكِرَةِ التَّارِيخِ :

* ظلَّ ربيعةُ بنُ مكدمَ رمزَ الفروسيَّةِ والبسالةِ ، وكان فرسانُ العربِ وشجعانُهم يَمْرُونَ به معجبين ، يحيون حامي الطَّعينة حيّاً وميتاً ، بل لقد أصبحَ ربيعةُ مثلاً أعلى للفروسيَّةِ الجاهليَّةِ التي تضحّي بأغلى ما تملكُ ، لتحميَ المرأةَ من التَّردّي في الأسرِ ، وهو أشدُّ عارٍ تخافُ منه القبيلةُ العربيَّةُ.

* وقد مدحه كثيرٌ من الشعراءِ ، وعيَّروا أهله ممن هربوا وتركوه وحده

(١) الأغاني (١٦/٦٦).

(٢) البرصان والعرجان (ص ٣٩٤). وقال الجاحظُ معلقاً على هذا القولِ تعليقاً نفسياً يَحْسُنُ بنا أن نوردَه لأهميته: ولو كَانَ الأمرُ كما قالُوا لما كَانَ للتي حَصَّ اللهُ بِهَا سَلِيمَانُ بْنُ دَاوُدَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - فَضِيلَةٌ عَلَى حَالِ رِبِيعَةَ بَنٍ مُكَدَّمٍ. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤] ، فهذا إِنَّمَا كَانَ شَيْئاً حَصَّ اللهُ بِهِ سَلِيمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ مِنْ عِلَامَاتِ النَّبِيِّينَ ، وَبِرَهَانَاتِ الْمُرْسَلِينَ.

(٣) جمهرة الأمثال (١/٣٣١).

يقاتِلُ فرسانَ بني سليم ، وقد مرَّ به رجلٌ من بني الحارثِ بنِ فهر ، فنفرتِ
 ناقتهُ من تلكِ الأحجارِ التي أُهِّلَتْ على ربيعةَ ، فقال يرثيه ويعتذرُ ألا يكونَ
 عقرَ ناقتهِ على قبره ، وحضَّ على قتلتِهِ ، وعيَّرَ مَنْ فرَّ وأسلمه من قومه ؛
 يقولُ من أبياتٍ :

| | |
|---|---|
| نَفَرْتُ قُلُوصِي مِنْ حِجَارَةِ حَرَّةٍ | بُنَيْتُ عَلَى طَلْقِ الْيَدَيْنِ وَهُوبِ |
| لَا تَنْفِرِي يَا نَاقٌ مِنْهُ فَإِنَّهُ | سَبَاءٌ خَمِرٍ مِسْعَرٌ لِحُرُوبِ |
| لَوْلَا السَّفَارُ وَبَعْدُ خَرَقٍ مَهْمَةٍ | لَتَرَكْتُهَا تَحِبُّو عَلَى الْعُرْقُوبِ |
| فَرَّ الْفَوَارِسُ عَنْ رَبِيعَةٍ بَعْدَمَا | نَجَّاهُمْ مِنْ غَمَةِ الْمَكْرُوبِ |
| يَدْعُو عَلِيًّا حِينَ أَسْلَمَ ظَهْرُهُ | فَلَقَدْ دَعَوْتَ هُنَاكَ غَيْرَ مُجِيبِ |
| لَا يَبْعِدَنَّ رَبِيعَةٌ بَنَ مَكْدَمَ | وَسَقَى الْغَوَادِي قَبْرَهُ بِذُنُوبِ ^(١) |

* وقال عبدُ الله بنُ جذلِ الطَّعان :

| | |
|---|---|
| لَأُطْلِبَنَّ بِرَبِيعَةَ بَنِ مَكْدَمَ | حَتَّى أَنْالَ عَصِيَّةَ بَنِ مَعِيصِ |
| وَتَقَادُ كُلَّ طِمْرَةٍ مَحْمُوصَةٍ | وَمَقْلَصَ عَبْلِ الشَّوَى مَحْمُوصِ ^(٢) |

* وقال ابنُ جذلِ الطَّعان أيضاً :

| | |
|--|---|
| أَلَا لَهِ دُرٌّ بَنِي فِرَاسِ | لَقَدْ أَوْرَثْتُمْ حُزْناً وَجِيعَا |
| فَلَنْ أُنْسَى رَبِيعَةَ إِذْ تَعَالَى | بُكَاءُ الظُّعْنِ تَدْعُو يَا رَبِيعَا ^(٣) |

* وقال أيضاً يرثيه من قصيدةٍ منها :

(١) انظر : الأغاني (٦٧/١٦) ، وجمهرة الأمثال (٣٣١/١) .

(٢) الأغاني (٦٨/١٦) ، «وعصية» : هو عصية بن معيص بن عامر بن لؤي من بني سليم . «والطمرّة» : الفرس الطويلة القوائم الخفيفة المستعدة للعدو . و«المحموصة» : القليلة لحم القوائم . و«المقلص» : الحصان الطويل القوائم المنضم البطن . و«عبل الشوى» : ضم الأطراف .

(٣) الأغاني (٦٩/١٦) .

خَلَّى عَلَيَّ رِبْعَةً بَنُ مَكْدَمَ حَزناً يَكَادُ لَهُ الْفَوَادُ يَزُولُ
فَإِذَا ذَكَرْتُ رِبْعَةَ بَنَ مَكْدَمَ ظَلَّتْ لَذْكَرَاهُ الدُّمُوعُ تَسِيلُ
سَقَتِ الْغَوَادِي بِالْكَدِيدِ رِمَّةً وَالنَّاسُ إِمَّا هَالِكٌ وَقَتِيلُ
فَإِذَا لَقِيتَ رِبْعَةَ بَنَ مَكْدَمَ فَعَلَى رِبْعَةٍ مِنْ نَدَاهُ قَبُولُ
يَأْبَى لِي اللَّهُ الْمَذَلَّةَ إِنَّمَا يُعْطَى الْمَذَلَّةَ عَاجِزُ تَنْبِيلُ^(١)

* ولعبد الله بن جذل الطعان مراثٍ أخرى كثيرة في صهره فارس الفتيان
ربيعَةَ بنِ مَكْدَمَ ، لم نذكرها في هذا الميدان ، لأنَّ ما ذكرناه من مراثيه
يشفي الغلَّةَ .

* وممن رثى ربيعةَ بن مَكْدَمَ كعبُ بنُ زهير بن أبي سلمى المازني ،
فقال من نوتية منها :

بَانَ الشَّبَابُ وَكُلُّ الْإِلْفِ بَائِنٍ ظَنَّ الشَّبَابُ مَعَ الْخَلِيطِ الظَّاعِنِ
قَالَتْ أُمَيْمَةُ مَا لِجَسْمِكَ شَاحِباً وَأَرَاكَ ذَا بَتْ وَلَسْتَ بِدَائِنِ
ومنها :

كَيْفَ الْحَيَاةُ رِبْعَةَ بَنَ مَكْدَمَ يُغْدَى عَلَيْكَ بِمَزْهَرٍ أَوْ قَائِنٍ^(٢)
* وقد رثى ربيعةَ بنَ مَكْدَمَ أخته أُمُّ عمرو بنتُ مَكْدَمَ بقصيدةٍ قافيةٍ
جميلةٍ تقطرُ أَسَى ، وتحملُ بين قوافيها التَّفَجُّعَ والحَزْنَ ، وتصفُ عواطفها
المتأججةً ، وحزنها الطَّوِيلَ فتقول :

مَا بِالْ عَيْنِكَ مِنْهَا الدَّمْعُ مُهْرَاقٍ سَخَاً فَلَا عَازِبٌ عَنْهَا وَلَا رَاقٍ
أَبْكِي عَلَى هَالِكٍ أودى وَأورثني بَعْدَ التَّفَرُّقِ حَزناً حرَّهَ باقِي

(١) الأغاني (٧١/١٦) و«التنبيل»: القصير العاجز .

(٢) الأغاني (٦٩/١٦ و٧٠) ، و«المزهر»: العود؛ و«القائن»: صاحب القيان
ومدرَّبهَنَ .

لو كَانَ يَرْجِعُ مِيتًا وَجَدُ ذِي رَحْمٍ أَبْقَى أَخِي سَالِمًا وَجَدِي وَإِشْفَاقِي
أَوْ كَانَ يُفْدَى لَكَانَ الْأَهْلُ كُلُّهُمْ وَمَا أَثْمَرُ مَنْ مَالٍ لَهُ وَاقِي
لَكِنْ سَهَامُ الْمَنَايَا مَنْ نُصِبْنَ لَهُ لَمْ يَنْجِهْ طَبُّ ذِي طَبٍّ وَلَا رَاقِي
فَاذْهَبْ فَلَا يَبْعِدُنكَ اللَّهُ مِنْ رَجُلٍ لَاقَى الَّذِي كُلُّ حَيٍّ مِثْلَهُ لَاقِي
فَسَوْفَ أَبْكِيكَ مَا نَاحَتْ مَطْوَقَةٌ وَمَا سَرِيْتُ مَعَ السَّارِي عَلَى سَاقٍ
أَبْكِي لَذْكُرْتِهِ عَبْرِي مَفْجَعَةٌ وَمَا إِنْ يَجْفُ لَهَا مِنْ ذِكْرِهِ مَا قِي^(١)

* وهكذا طوى التاريخ صفحةً فارسي من فرسان التاريخ ، له أثر في
التاريخ ، حتى قالوا: كَانَ يُعَقَّرُ عَلَى قَبْرِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَلَمْ يُعَقَّرْ عَلَى قَبْرِ
أَحَدٍ غَيْرِهِ^(٢).

* * *

(١) بلاغات النساء (ص ٢٤٨) طبعة الكويت . و(ص ١٧٧) طبعة مصر .
(٢) العقد الفريد (١/ ١١٦) ، والأمالى (٢/ ٢٧٠).

عُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ

- * شاعر جاهلي ، وفارس مشهور ، وجواد مُقَدَّم.
- * يُلقب «عروة الصعاليك» و«أبا الصعاليك»
و«أبا نجدة».
- * وَصَفَتْهُ زوجته بقولها: والله؛ إنك ما علمتُ لضحوكٍ
مقبلاً ، كَسُوبٍ مدبراً ، خفيفٌ على متن الفرس ، ثقیلٌ
على العدو ، طويل العماد ، كثير الرماد ، راضي الأهل
والجانب.

فِي رَحَابِ فُرْسَانِ الصَّعَالِيكِ :

* اشتهر كثيرٌ من العربِ في الجاهليَّةِ بالصَّعلَكَةِ^(١) ، ولعلَّ الحالةَ الاجتماعيَّةَ في جزيرةِ العربِ قد أنتجتْ هذه الصَّعلَكَة ، لأنَّ بعضهم كان من الفقراء ، وقد لا يجدون ما يأكلون أحياناً ، وإذا ما حصلوا على شيءٍ من غارةٍ أو نحوها ، فرئيسُ القبيلةِ له نصيبٌ أوفى منها ، وهم لا يأكلون إلا الفُتَات ، واشتهر هؤلاء باسم الصَّعاليك .

* والصَّعاليكُ جماعاتٌ من الفتيانِ الشُّجعانِ الذين انتشروا في أنحاء الجزيرة العربيَّة ، يُغيرونَ ويغنمون ، ومن ثمَّ يأوونَ إلى شعابِ الجبالِ ، وإلى الكهوفِ والوديانِ ينتهزونَ الفرصةَ فلا تفلتُ منهم ، وينقضُّون في بسالةٍ ، وحماسَةٍ على ضحاياهم ، فتعرَّضُوا في هذه الحياةِ لألوانٍ من رخاءِ العيش إن غنموا ، ولألوانٍ من الشَّظفِ ومن التَّقشُّفِ إن لم يجدوا مَنْ يغيرونَ عليه؛ ولعلَّ حالهم كانت أقربُ إلى الحرمانِ والقسوةِ منها إلى العطاء والرِّضا .

* يقولُ أبو زيدٍ القُرشيُّ عن جماعةِ الصَّعاليكِ : الصُّعلوكُ الفقيرُ ، وهو أيضاً المتفرَّدُ للغاراتِ ، والفَاكِلُ اللاعبُ والمتحرِّزُ^(٢) .

* وكأنَّ أبا زيدٍ القُرشيَّ يقصدُ بالتحرِّزِ تلكم اليقظةَ واتخاذَ الأهبةِ وشدةِ الحذرِ وغير ذلك من صفاتٍ ، ينبغي أن يتسلَّحَ بها كلُّ مَنْ سَلَكَ طريقَ الصَّعلَكَة .

* وللصَّعاليكِ موقفٌ حاسِمٌ من قبائلهم ، فهم خارجونَ عليها ،

(١) الصَّعلَكَة : الصُّعلوكُ الفقير الذي لا مال له . (لسان العرب) مادة صعلك .

(٢) جمهرةُ أشعارِ العرب (ص ٥٦٥) .

خالعونَ الولاءِ لها؛ ولعلَّ قبائلهم نفسها قد لجأت إلى طردِ شذائدها ،
فجمعهم التَّشُرُّدُ ، وألقت بينهم الحياةُ القاسيةُ ، حتَّى غدوا شيئاً مذكوراً في
المجتمعِ الجاهليِّ ، وغدا جانبهم مرهوباً بعضَ الأحياءِ .

* ويمكننا أن نقولَ: إنَّ حياةَ هؤلاء الصَّعاليكِ قد ربَّتْ عندهم عصبيةٌ
خاصَّةٌ بهم ، إذ تنكَّروا للعصبيةَ القبليَّةَ ، واعتزَّوا بشخصياتهم داخلَ
الصَّعلكةِ التي تعني الفتوةَ والشَّجاعةَ والتَّماسكَ عند الشَّدَّةِ ، والتَّمردَ الذي
يحمل دعوةَ اجتماعيَّةً صامتةً عبَّرت عنها أشعارهم في تصويرِ حياةِ الجوعِ ،
والنَّقمةِ على الأغنياءِ البُخلاءِ .

* وقد برزَ عددٌ منَ عمالقةِ الصَّعاليكِ في عصرِ الجاهليَّةِ ، منهم من هو
مشهورٌ مُتعالِمٌ بينَ أهلِ الأدبِ والثَّقافةِ ، ومنهم من هو مغمورٌ ، لكنَّه يُدرَجُ
تحت لواءِ الصَّعاليكِ ، وأمَّا أشهرُ فرسانِ الصَّعاليكِ الذي نستضيفُه اليومَ
من تاريخِ الفرسانِ فهو عروةُ بنُ الوردِ بنِ زيدِ العبَّسيِّ^(١) ، سيِّدُ فرسانِ
الصَّعاليكِ وعميدُهم ، وضيفنا في هذه الصَّفحاتِ .

* قال أبو الفرج الأصفهانيُّ: عروةُ بنُ الوردِ شاعرٌ من شعراءِ
الجاهليَّةِ ، وفارسٌ من فرسانِها ، وصُعلوكٌ من صعاليكها المعدودينَ
المقدِّمينَ الأجوادِ . وكان يلقَّبُ عروةَ الصَّعاليكِ لجمعه إياهم ، وقيامه
بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ، ولم يكن لهم معاشٌ ولا مغزى^(٢) .

(١) الأغاني (٣/ ٧٢- ٨٥) ، والشَّعر والشَّعراء (٢/ ٦٧٥- ٦٧٧) وسفَطُ اللَّالي
(٢/ ٨٢٣ و ٨٢٤) ، والأعلام (٥/ ١٨) والاشتقاق (ص ٢٧٩) . وديوان عروة بن
الورد (عدَّة طبقات مختلفة) ، والحماسة البصريَّة (١/ ٣٤٣) ، والصَّعلكةُ والفتوةُ
في الإسلام لأحمد أمين (ص ٢٩- ٣١) والأصول الفنيَّة للشَّعر الجاهليِّ للدكتور
سعد إسماعيل شلبي (ص ٣١٥- ٣٣٥) ومصادر أخرى كثيرة .

(٢) انظر: الأغاني (٣/ ٧٢) .

* ولم يكن عروءة وحيداً في ميدان الصَّعلكة يجول ويصول ، ويعلو صيته في الأصقاع ، وإنما كان هناك صَعاليك شهد لهم تاريخهم بطول الباع في هذا المضمار ، وكانوا ممن يُرهَبُ جانبهم ، وتُخشى صولاتهم وغدراتهم .

* ولا بأس أن نشير إلى نَفَرٍ منهم ونحن في هذه الرِّحلة الشَّائقة مع ألوان الفروسيّة التي حفلَ بها تاريخُ العربِ في عُصورٍ سالفات .

* فمن مشاهير الصَّعاليك الجاهليين الذين دوَّخوا النَّاسَ والبلادَ ، والذين عُرفوا بالصَّعلكة «الشَّنْفَرى» - واسمُه عمرو بنُ مالك توفي نحو سنة (٧٠ ق. هـ) - وهو الذي يُضْرَبُ به المثلُ في سرعة العدو ، وكان يسبقُ الخيلَ ، كما يُضْرَبُ به المثلُ في الحذقِ والدَّهاءِ ، وهو ابنُ أخت «تأبَّط شرّاً» ، رغم أنَّ الشَّنْفَرى أكبرُ منه سنّاً ، وكان أحد رفقةِ ثلاثةٍ اشتهروا بأنهم أقوى النَّاسِ وأعدَّاهم : هو ، وتأبَّط شرّاً ، وعمرو بنُ براق .

* والشَّنْفَرى هو صاحبُ القصيدة المشهورة باسم : «لامية العرب» :
التي يعتزُّ بها الشَّعرُ العربيُّ جميعه باحتوائه على مثلها ، والتي فتنتِ المستشرقين فأولعوا بها وبترجمتها ، حتى تُرجمت إلى نحو خمس لغات أجنبيّة ، والتي حظيت منذُ القديم بإعجابِ العلماءِ والأدباءِ والنُّقاد ، حتى إنَّ الزَّمخشري قد أفردَ لها كتاباً لِشَرَحِها هو : «أعجبُ العجبِ في شرح لامية العرب» ، ومطلعُ هذه القصيدة البارة التي تقتربُ من سبعين بيتاً ، والتي تصوِّرُ جزءاً من حياة الصَّعاليك هو :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيَّكُمْ فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأُمِيلُ

* وقد ضُربَ المثلُ بسرعةِ عَدُوهِ فَقِيلَ: أَعَدَى مِنَ الشَّنْفَرَى^(١). وقد استوفت المصادرُ أخبارَهُ وأشعارَهُ^(٢).

* ومن مشاهير الصَّعاليك عَصْرَ ذاك «تَأَبَّطُ شَرًّا» واسمه ثابت بن جابر الفهمي خال الشَّنْفَرَى، وهو أحدُ العدائين، فقد كان يغيِّرُ وحدَه على رجلَيْهِ ولا يهابُ أحداً، وهو من أبطال البدو المعدودين، حتى إنَّ قَصَصَ مغامراتِهِ وإقدامِهِ تشبه الأساطير، وقد اشتهر بالمهارةِ البارعةِ في التَّخْلِصِ من المآزقِ ذاتِ الخطورةِ البالغةِ، والتي لا يُتاحُ الخلوصُ منها إلا لشخصٍ وَهَبَ حظاً عظيماً من الذِّكاءِ وسرعةِ البديهةِ والعدوِ الخارقِ للعادة، وقد سجَّلَ معظمها في شعرِهِ، مما أثارَ إعجاب النَّاسِ بذلك، وقد شَرَحَتْ أُمُّهُ سِرَّ براعته فقالت: واللهِ ما وَلَدْتُهُ يَتَنًّا، ولا سَقَيْتُهُ غِيلاً، ولا أَبَتْهُ على مآقَةٍ^(٣).

* ومن مشاهير الفُرسانِ الصَّعاليك الشُّجْعانُ السُّلَيْكُ بنُ السِّلْكَةِ نسبةً إلى أُمِّهِ السِّلْكَةِ، أمَّا اسمه فهو: السُّلَيْكُ بنُ عُمَيْرِ السَّعْدِيِّ، وكان من أغربةِ العربِ، لأنَّ أُمَّهُ السِّلْكَةَ كانت أمةً سوداء، فورثَ عنها لونَهَا. وكان لذكْرِهِ وشهرتِهِ دويٌّ في أرجاءِ الجزيرةِ العربيَّةِ كُلِّهَا، حتى خافَهُ فارسُ

(١) انظر: جمهرة الأمثال (٥٩/٢) ومجمع الأمثال (٣٣٢/١)، ولسان العرب مادة

(شفر) والوسيط في الأمثال (ص ٧٠) ويقال: أسرع خطأً من الشنفرى.

(٢) انظر: الأغاني (١٨٥/٢١ - ١٩٩) وسمط اللآلي (٤١٤/١)، والطرائف الأدبية:

(ص ٢٧ - ٢٩) وخزانة الأدب (٣/٣٢٢ - ٣٢٦) وغيرها.

(٣) اقرأ سيرة السليك بن السلكة في الأغاني وغيره من مصادر متنوعة. ومعنى: «يتنأ»:

اليتن: خروجُ المولودِ قبل رأسه، وذلك علامةُ السَّوءِ.

«غِيلاً»: الغيل: ارتضاعُ لبنِ الحُبلى وذلك فسادٌ شديدٌ.

«مآقَةٍ»: المآقَة: مضمونُ العنفِ والحق من الأمِّ في تَرْقِيسِ ابنها وإعدادِهِ للنَّومِ

بطريقةٍ مفزعةٍ لا رفقَ فيها. (الحيوان للجاحظ ٢/٢٨٦)

الشُّجْعَانِ وَالرَّكْبَانِ وَالْأَحْرَارَ عَمَرُوا بَنُ مَعْدِي كَرَبَ الَّذِي قَالَ : مَا أَبَالِي أَيَّ ظَعِينَةٍ لَقِيتُ عَلَى مَاءٍ مِنْ أَمْوَاهِ مَعَدٍّ ، مَا لَمْ يَلْقَنِي دُونَهَا حُرَّاهَا وَعَبْدَاهَا . وَعَنَى بِأَحَدِ الْعَبْدَيْنِ : السَّلِيكَ بَنَ السَّلَكَةِ .

* كَانَ السَّلِيكَ سَرِيعَ الْعَدُو ، مَاضِي الْعَزِيمَةِ ، شَدِيدَ الْبَطْشِ ، شَجَاعاً فَارِساً ، فَهُوَ أَحَدُ الْعِدَائَيْنِ الْأَرْبَعَةِ فِي الْعَرَبِ ، وَأَحَدُ الْأَغْرَبَةِ الثَّلَاثَةِ ، وَأَحَدُ خَمْسَةِ وَصَفَهُم أَبُو عُثْمَانَ الْجَا حِظْ بِقَوْلِهِ : فَهَؤُلَاءِ أَسَدُ الرِّجَالِ ، وَأَشْدُّهُمْ قُلُوباً ، وَأَشَجُّهُمْ بِأَساً ، وَبِهِمْ يُضْرَبُ الْمِثْلُ ^(١) .

* يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّ السَّلِيكَ أَحَدُ الشُّعْرَاءِ الْفُرْسَانِ الْمَجِيدِينَ ، الَّذِي يَتَرَدَّدُ شَعْرُهُمْ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

* كَمَا اشْتَهَرَ مِنْ صَعَالِيكِ الْعَرَبِ وَفُرْسَانِهِمْ قَيْسُ بْنُ مَنَاقِدِ السَّلُولِيِّ الْخَزَاعِيِّ الْمَشْهُورِ بِابْنِ الْحَدَادِيَّةِ وَهِيَ أُمُّهُ ، وَكَانَ ذَا بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَكَانَ مِنَ الشُّجْعَانِ الْفَتَّاكِ ، وَقَدْ كَثُرَتْ غَارَاتُهُ ، وَثَقُلَتْ جَنَائِطُهُ عَلَى قَوْمِهِ فَخَلَعُوهُ ، وَأَشْهَدُوا عَلَى خَلْعِهِ بِسَوْقِ عُكَاظٍ عَلَى الْأَلَا يُحْتَمِلُوا لَهُ جَرِيرَةً ، وَلَا يُطَالِبُونَ أَحَدًا بِجَرِيرَةٍ يَجْرُهَا عَلَى قَيْسٍ ؛ بَيِّدَ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ لَمْ يَجْعَلْ عَزْمُهُ يَفْتَرُ مَرَّةً وَاحِدَةً بَعْدَ خَلْعِهِ ، وَإِنَّمَا اِزْدَادَ شِرَاسَةً وَضِرَاوَةً ، وَجَعَلَ قَوْمَهُ هَدَفًا مِنْ أَهْدَافِ غَارَاتِهِ .

* وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ ، فَقَدْ كَانَتْ لَهُ مَوَاقِفُ مَحْمُودَةٍ ، يُمَثِّلُ فِيهَا خُلُقَ السَّيِّدِ الْكَرِيمِ النَّبِيلِ ، لَا الصُّعْلُوكِ الْخَلِيعِ الْوَضِيعِ ^(٢) .

* وَمَنْ الصَّعَالِيكِ أَيْضاً مَالِكُ بْنُ حَرِيمٍ أَوْ خَرِيمُ الْهَمْدَانِيِّ ، وَصَخْرُ بْنُ

(١) انظر: رسائل الجاحظ (١/١٩٢) .

(٢) انظر هذا في الأغاني (١٤٤/١٦١) مطبعة وزارة التربية والتعليم - مصر - ١٩٥٨ م .

عبد الله الخيثمي الهذلي ، وعمرو بن بركة الهمداني ، وبراق أبو بركة اسم أمه ، واسمه عمرو بن منبه بن يزيد الهمداني ، وكان عمرو رفيقاً للشنفرى ، وتأبط شراً في الصعلكة .

* ومنهم أيضاً الأعلم الهذلي واسمه حبيب بن عبد الله من هذيل ، وهو أخو صخر بن عبد الله الهذلي ، وعمرو بن عجلان الهذلي ؛ واشتهر بعمرو ذي الكلب ، وحاجز بن عوف الأزدي وهو من العدائين الذين اشتهروا بأنهم يسبقون الخيل ، وكان من الفرسان الأشداء ، وله فرس تسمى ذئبة ، وقد وصفته عمته في رثائها إياه بقولها : كان حاجز لا يشبع ليلة يُضاف ، ولا ينام ليلة يخاف .

* ومنهم جحدرب بن ضبيعة بن قيس ، واسمه ربيعة ولقب جحدراً لقصره ، وهو من فرسان بكر الذين أبلوا في حرب البسوس ضد تغلب .

* هؤلاء من أشهر فرسان الصعاليك في العصر الجاهلي في الجزيرة العربية ، ولكننا سنعيش أضواء الفروسيّة الجميلة والصعلكة ذات النزعة الإنسانية مع سيّد الصعاليك ورأسهم ورئيسهم عروة بن الورد ، كيما نتعرف شذرات من فروسيته في هذه الصفحات .

* على أننا قبل أن نشرع في معرفة أخبار عروة ، لا بد لنا أن نتعرف أن هؤلاء الصعاليك هم من الفرسان الفقراء ، ولهم تقاليدهم الخاصة ، وحياتهم المتميزة ، فقد ربضوا في بطن الصحراء يقطعون السبيل ، ويغيرون على القبائل والقوافل ، ويتقاسمون الغنيمة ، ويتعاونون في دفع المكروه عن أنفسهم .

* فالصعاليك إذا نقر من العرب ، فقراء جياع ، مبدؤون من مجتمعاتهم ، مخلوعون من قبائلهم ، محقرّون من عشائريهم ، وكان قيس بن الحداية يرى أنه لا يساوي عند قومه عنزاً جرباء جذماء ؛ وفي

أخبارِ الشَّنْفَرى أَنَّ قَوْمَهُ قَتَلُوا رَجُلًا فِي خَفَرَةٍ بَعْضِ الْفَهْمِيِّينَ ، فَرَهْنُوهُمْ الشَّنْفَرى وَأُمَّهُ وَأَخَاهُ ، وَأَسْلَمُوهُمْ وَلَمْ يَفْدُوهُمْ .

* والمتأملُ في أخبارِ الصَّعَالِيكِ وحياتهم ، يجدُ أَنَّهُمْ يشْعرون شعوراً أليماً بحياتهم ، فهي حياةُ التَّشَرُّدِ وعدمِ الاستقرار ، إِنَّهُمْ لا يعرفونَ ما يأتي به الغدُ ، وإنْ أُمسوا فلا أملَ في الصَّباح ، وإنْ أصبحُوا لم يعلمُوا ما يأتي به المساء ، ولا ما يصادفُهُمْ أو يصادفُونَهُ في هذهِ الصَّحراءِ الجرداءِ التي أنْسوا إلى وحشتِها أكثرَ من أنْسهم إلى بني جلدتهم من البشر ، وفي شعرٍ تَأَبَّطَ شراً ، والشَّنْفَرى ، وعروة بنِ الورد وغيرهم من الصَّعَالِيكِ مقطوعاتٌ كثيرةٌ تحدَّثنا عن هذا التَّشَرُّدِ والضَّياع ؛ إِنَّ الصُّعْلوك كما يحدثنا عنه تَأَبَّطَ شراً :

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا جَحِيشاً وَيَعْرُورِي ظَهْرَ الْمَهَالِكِ
يرى الْوَحْشَةَ الْأَنْسَ الْأَنْيسَ وَيَهْتَدِي بَحِيثٌ اهْتَدَتْ أُمُّ النَّجُومِ الشَّوَابِكِ^(١)

* وكان تَأَبَّطَ شراً - إذ يتحدَّثُ عن نفسه - يحدثنا عن الصَّعَالِيكِ جميعاً فتلكَ حالُهُم اتَّخذوا مِنْ وحدتهم أنيساً ، ومن مخاطراتِهِمْ عادةً ، ومن وحشتِهِمْ أنساً واطمئناناً .

* بينما نجدُ الشَّنْفَرى يَفْضِلُ وحوشَ الفِلا على أهله ، يَفْضِلُ الذئبَ والنَّمِرَ والضَّبَّعَ ، إذ همُ الأهلُ الذين يحفظون السِّرَّ ، ولا يخذلونَ صاحبَهُم ، يقولُ الشَّنْفَرى :

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدُ عَمَلَسٍ وَأَرْقَطُ زُهْلُولٍ وَعَرْفَاءُ جِيَالٍ
همُ الأهلُ لا مستودعُ السِّرِّ ذائعٌ لَدِينِهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَزَّ يُخَذَلُ^(٢)

(١) ديوان الحماسة (ص ٣١) ومعنى : «جحيشاً» : منفرداً . يعروري : يرتكبُ المهالك . «أم النجوم» : الشمس . يريدُ أَنَّهُ يهتدي إلى مقاصدِهِ كما تهتدي الكواكب .

(٢) انظر : الروائع (ص ٥٧) ومعنى : «السيد» : الذئب . و«العملس» : القوي . و«الأرقط» : النمر . «الزهلول» : الأملس . «العرفاء» : ذات العرف وهو شعر العنق . «جِيال» : اسم للضبع .

* وإذا ما كان هناك أنسٌ واطمئنان ، فليكن إلى من يشاكله من الصَّعاليك الذين تجمعهم وإياه هذه الحياة القاسية التي تعصفُ به وبهم هنا وهناك .

* لذلك نجدُ الصَّعاليك يحسّون إحساساً مريراً بهوان منزلتهم الاجتماعية ، وعدم تقرير المجتمع لهم ، لا لأنَّهم عاجزون ، وإنَّما لأنَّ مجتمعهم ظلَّهم ، وحرَمهم العدالة الاجتماعية التي يتوقُّون إليها ، لذلك يقولُ عروةُ:

إذا المرءُ لم يبعثْ سوماً ولم يرُحْ عليه ولم تعطفْ عليه أقارِبُه
فللموتِ خيرٌ للفتى من حياته فقيراً ومن مولى تدبُّ عقاربُه
* وهؤلاء الصَّعاليك يستهينون بالحياة . وهذا ما يمثله قولُ عروة بن الورد أيضاً:

أرى أمَّ حسانَ الغداةِ تلومُني تخوفُني الأعداءَ والنفسَ أخوفُ
لعلَّ الذي خوَّفَنا من أماننا يُصادفه في أهله المتخلفُ^(١)

* وهم أيضاً أصحابُ جرأةٍ لا يثنيهم عن تحقيقِ أهدافهم شيءٌ ولو كان الموتُ نفسه ، لأنَّهم يعلمون أنَّ الموتَ لا مفرَّ منه ، وسوف يلقاه كلُّ فردٍ سواءً أكانَ جباناً متخوفاً أم شجاعاً متهوراً؛ لذلك فَهُم مناضِلون دائماً ، يقولُ تأبطُّ شراً يمدحُ إخواناً له في النُّضال والجلاد:

جزى اللهُ فتياناً على العوصِ أمْطرتْ سَمَاؤُهُم تحتَ العَجاَجَةِ بالدمِّ^(٢)

(١) الأغاني (٨٠/٣) .

(٢) موسوعة الشعر العربي (ص ١١٥) . ومعنى: «العوص»: اسم أرض . وانظر: الأغاني (١٥٣/٢١) .

* ويصفُ أصحابَه بأنَّهم ذئابٌ لا يهابون الموتَ ، وتشبهُ وجوههم المصابيحُ أو الماء المذهب ، فيقول :

سَراحينُ فتیانِ کأنَّ وجوهَهُم مصابيحُ أو لونٌ من الماء مذهبٌ^(١)

* وأحبُّ الأشياءِ إلى الصَّعاليك حديثهم عن مغامراتهم مع بعضهم ، ووصفِ شجاعتهم وفروسيَّتهم ، يقولُ الشَّنفریُّ يتحدثُ بلسانِ حالهم :

نحنُ الصَّعاليكُ الحماةُ البزلُ إذا لقینا لا نرى نُهلُّ^(٢)

* وفي هذا اللقاء الذي تحدَّث عنه الشَّنفریُّ ، يقولُ «كعب حدار» وهو أخو تائبُ شرّاً :

یا قومُ أمّا إذْ لقيتُم فاصبروا ولا تخيموا جزعاً فتدبروا

* ويقول «السَّمع» وهو أخوه الآخر :

یا قومُ كونوا عندنا أحراراً لا تُسلموا العونَ ولا البِكاراً

ساقوهم الموتَ معاً أحراراً وافتخروا الدَّهرَ بها افتخاراً

فلما سمعَ تائبُ شرّاً مقالَتهم قال : بأبي أنتم وأمي نِعَمَ الحُماة إذا جدَّ

الجَدَّ^(٣).

* لهذا كلِّه اتَّسمت فروسيَّة هؤلاء الصَّعاليك بطابعِ الجرأة والمغامرة

والسَّطوة ، لذا فقد خافتهم العربُ ، بل فرسانهم الأشداء .

* ولقد عُرفَ الفرسان الصَّعاليك بالشَّجاعة الفائقة حتى ضربتْ

بشجاعتهم الأمثالُ ؛ كما أنَّهم كانوا يأنفون من الأعمال التي يقوم بها

العييدُ ، كما يأنفُ السَّادة من رعي الإبل وخدمة الأحرار ، يقولُ تائبُ شرّاً :

ولستُ براعٍ ثلَّة قام وسطُها طويلُ العصا غريقُ ضحلٍ مرسلُ

(١) «السَّراحين» : الذئاب مفردُها سِرْحَان . و«مذهب» : في لون الذهب .

(٢) «البزل» : جمع بازل ، وهو البعير طلع نابه .

(٣) انظر الأغاني (٢١/ ١٧٠ و ١٧١) بتصرف .

أَبُو الصَّعَالِيكَ :

* تذكرُ المصادرُ أنَّ عروةَ بنَ الوردِ لُقِّبَ بعروةَ الصَّعَالِيكَ لقوله في رائيته الشهيرة :

لَحَى اللهُ صُغْلوكَ إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ مُصَافِي المُشَاشِ أَلْفَاً كُلَّ مَجَزَرٍ
يَعُدُّ الغِنَى مِنْ دَهْرِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ أَصَابَ قِراها مِنْ صَدِيقِ مَيْسَرٍ
وَللهِ صُغْلوكُ صَفِيحَةٌ وَجْهِهِ كَضَوْءِ شَهَابِ القَاسِ المِتنورِ^(١)

* وذكروا أنَّه كان يُكنى أبا الصَّعَالِيكَ ، وقيل : بل كان يكنى أبا نَجْدَةَ ، وقيل : كنيته أبو المُغَلَّسِ ؛ وقال آخرون : كانت كنيته في الحرب أبا عُبَلَةَ ، وفي السَّلم أبا هراسَةَ^(٢) .

* ولعلنا نستشفُّ شخصيَّةَ عروةَ من خلالِ أشعاره ، فقد كان سامقَ القامةِ ، معروقَ اليدين نحيلًا ، قد غزا الشَّيْبُ مفرقه ورأسه ، من طولٍ ما عانى وما خاضَ الوقائع والأهوال يقول : «طويل نجاد السَّيف عاري الأشاجع»^(٣) وكما يقولُ عن شبيهه :

فما شابَ رأسي مِنْ سَنِينَ تَتَابَعَتْ طوالٌ ولكنَّ شَيْبَتَهُ الوقائعُ^(٤)

(١) انظر : الأغاني (٣/ ٧١) .

(٢) قال ابنُ دُرَيْدٍ : عُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ : عُرْوَةُ الصَّعَالِيكَ ، كان شاعراً فارساً كثيرَ الغارة جواداً ، وكان يجمعُ الصَّعَالِيكَ فيغيرُ بهم . والصَّعَالِيكَ : الفقراء . وقيل لبعض الأعراب : ما الصُّغْلوكُ ؟

قال : كأنَّ اليوم .

والوَرْدُ : اشتقاقه مِنَ الفرسِ الْوَرْد . والوردة : شُفْرَةٌ صافيةٌ . ويُقالُ لِلأسَدِ : وَرْدٌ لِحُمْرَتِهِ . والوردُ معروف . (الاشتقاق ص ٢٧٩)

(٣) ديوان عروة (ص ٦٧) ومعنى «الأشاجع» : أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف .

(٤) ديوانه (ص ٦٤) .

* وتلكم صفات عروة الجسميّة ، يُضاف إليها صفات أخرى من الحذر واليقظة وحسن التصرف ، ونفاذ الرأي ، وشجاعة القلب وثباته ، وقد عرض عروة هذه الصفات وهو معتزّ بها فقال :

لِسَانٌ وَسَيْفٌ صَارِمٌ وَحَفِيزَةٌ وَرَأْيٌ لَأَرَاءِ الرَّجَالِ صَرُوعٌ
تَخَوَّفَنِي رَيْبَ الْمُنُونِ وَقَدْ مَضَى لَنَا سَلَفٌ قَيْسٌ مَعاً وَرَبِيعٌ^(١)

* وفي ومضة من ومضاته الشعريّة يصف ويشير إلى سماته الجسميّة والنفسية معاً ، فيذكر أخلاقه الرّفيعة ، ويذكر قلبه الذي لا يجبن فيقول :

بُنِيْتُ عَلَى خُلُقِ الرَّجَالِ بِأَعْظَمِ خِفَافٍ تَثْنَى تَحْتَهُنَّ الْمَفَاصِلُ
وَقَلْبٌ جَلَا عَنْهُ الشُّكُوكُ فَإِنْ تَشَأْ يَخْبِرُكَ ظَهَرَ الْغَيْبِ مَا أَنْتَ فَاعِلٌ^(٢)

* وقد وصفته زوجته سلمى بهذه الصفات جميعها فقالت : والله إنك ما علمت لَصَحُوكَ مُقْبِلاً ، كَسُوبٌ مُدْبِراً ، خَفِيفٌ عَلَى مَتَنِ الْفَرَسِ ، ثَقِيلٌ عَلَى الْعَدُوِّ ، طَوِيلُ الْعِمَادِ ، كَثِيرُ الرَّمَادِ ، رَاضِي الْأَهْلِ وَالْجَانِبِ^(٣) .

* وفي رواية أخرى أنّها قالت له تصف أخلاقه وفروسيته : والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك ، وأغض طرفاً ، وأقلّ فحشاً ، وأجود يداً ، وأحمى لحقيقة^(٤) .

* وقد امتاز عروة بنُ الورد عن غيره من فرسان العرب في العَصْرِ الجاهليّ بأنّه قد أضفى على الصّعلة كثيراً من الاحترام والتّقدير ، وذلك

(١) ديوانه (ص ٦٠) و«قيس وربيع» من سادات عبس ومشاهيرهم .

(٢) ديوانه (ص ٨٦) .

(٣) الأغاني (٣/ ٧٦ و ٧٧) و«العماد» : خشبة تقوم عليها الخيمة . ويُقال : فلان رفيعُ العماد : كناية عن أنّه شريف . و«كثير الرّماد» : كناية عن الكرم .

(٤) الأغاني (٣/ ٧٥) و«حقيقة الرجل» : ما يلزمه حفظه والدفاع عنه . يقال : فلان يحمي الحقيقة .

بما تحلّى به من خُلُقٍ فريدٍ في السَّخَاءِ والعَطْفِ الشَّدِيدِ عَلَى الْفُقَرَاءِ ، واعتبارِ نفسه مسؤولاً عن تفريج كرباتهم ، وضوايق العيشِ عنهم ، وكذلك في تواضعه الشَّدِيدِ معهم ، ومقاسمتهم إِيَّاهُ غنائمه في غاراته وغزواته من أجلهم في قصصٍ وأخبارٍ كثيرةٍ وصلت إلينا عن القدامى ، ولهذا لَقِبَ «عروة الصَّعاليك» ، ولذا فقد كان عروةُ ذا مكانةٍ مرموقةٍ بين الشعراء والفرسان الصَّعاليك في عصره .

* ومن الرّصيدِ الأخلاقي لعروة في عالمِ فُرسانِ المكارمِ والجود والندى ، ما جاء عن عبدِ الملك بن مروان أنّه قال : ما يسُرّني أنّ أحداً من العرب ولَدَني إلا عروةُ بنُ الورد لقوله^(١) :

وَإِنِّي امْرُؤٌ عَافِي إِنَائِي شِرْكَةٌ وَأَنْتَ امْرُؤٌ عَافِي إِنَائِكَ وَاحِدٌ
أَقْسَمُ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَاخَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدٌ
أَتَهْزَأُ مِنِّي أَنْ سَمَنْتَ وَأَنْ تَرَى بِجِسْمِي مَسَّ الْحَقِّ وَالْحَقُّ جَاهِدُ^(٢)

* وَكَانَ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - يَقُولُ : لَوْ كَانَ لِعُرْوَةَ بْنِ الْوَرْدِ وَلَدٌ لِأَحْبَبْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ إِلَيْهِمْ^(٣) .

* وَلَعَلَّ سَبَبَ صَعْلَكَةِ عُرْوَةَ هُوَ أَنَّ قَبِيلَةَ عَبَسَ كَانَتْ تَتَشَاءَمُ مِنْ وَالِدِ عُرْوَةَ ، وَهُوَ الْوَرْدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، لِأَنَّهُ كَانَ السَّبَبَ فِي حَرْبِ دَاخَسَ

(١) يبدو أنّ شخصيّة عروة بن الورد كانت عند اللغويين في القرنين الثاني والثالث للهجرة نموذجاً للفراس البدوي والمغامر الذي يغزو ويطعمُ الفقراء ، ويقفُ إلى جانبِ الضّعفاء ، وكان الخليفة المنصور أحدَ المعجبين أيضاً بعروة بن الورد .

(الأغاني ٨٣/٣ - ٨٨) طبعة مصر

(٢) انظر: الشعر والشعراء (٢/ ٦٧٥ و ٦٧٦) و«العافي»: الضَّيْفُ طَالِبُ الْمَعْرُوفِ .

«وجسمي»: قال ابن السكيت: جسمه هنا: طعامه. و«الماء القراح»: الذي لا يخالطه لبن ولا غيره .

(٣) انظر: الأغاني (٣/ ٧٢) .

والغبراء التي نشبت بينها وبين فزارة ، حين راهنَ حذيفةُ بنُ بدر الفزاري على أنَّ خيولَ قيسِ بنِ زهيرِ العبسي أفضلُ من خيله .

* ويظهرُ لنا من الأخبارِ الموثقة في المصادرِ أنَّ صعلكةَ عروةَ انبثقت من تفضيلِ أبيه لأخيه عليه ، فقد كانَ لعروةَ أخٌ أسنُّ منه ، وكان والدهُ يؤثرُ هذا الأخ عليه فيما يُعطيه ويقرُّبه ، فقليل له : أتؤثرُ الأكبرَ مع غناهُ عنكَ على الأصغرِ مع ضعفه؟ قال : أترونَ هذا الأصغرُ؟ ! لئن بقيَ مع ما أرى من شدة نفسه ليصيرنَّ الأكبرَ عيالاً عليه^(١) .

ويُضافُ إلى ذلك كله أنَّ أبا عروة الورد لم يُحسِن اختيارَ الأخوال لأبنائه ، حيث تزوّج من قبيلة نَهْد ، إحدى قبائل قُضاعة ، وقد كانت أقلَّ شرفاً ومكانةً من عبس ، فكان عروةُ ساخطاً على أمّه ، وعلى قبيلتها ، بل على هذه الصّلة التي ربطتُ بين أبيه وأمّه ، ولذلك فإننا نراه يهجو أحواله هجاءً مرّاً فيقول :

وَمَا بِي مِنْ عَارٍ أَخَالُ عِلْمَتُهُ سِوَى أَنَّ أَخْوَالِي إِذَا نُسِبُوا نَهْدُ
إِذَا مَا أَرَدْتُ الْمَجْدَ قَصَّرَ مَجْدُهُمْ فَأَعْيَا عَلَيَّ أَنْ يَقَارِبَنِي الْمَجْدُ
فِيالْيَتَهُمْ لَمْ يَضْرِبُوا فِيَّ ضَرْبِي وَأَنْتِي عَبْدٌ فِيهِمْ وَأَبِي عَبْدُ
تَعَالَبُ فِي الْحَرْبِ الْعَوَانِ وَإِنْ تَبَخُّ وَتَنْفَرُجُ الْجَلَى فَإِنَّهُمْ الْأُسْدُ^(٢)

* وكانت في أمِّ عروة - بالإضافة إلى تواضع نسبها - شراسةٌ ، ولعلّها كانت تغطّي شراستها بها عقدة النقص التي تعانيها من جرّاء هذا النسب المتواضع ، وكان عروة يُعيّرُ بشراسة هذه الأمّ النّهديّة ، حتى لم يجدُ بداً

(١) الأغاني : (٣ / ٨٥) .

(٢) ديوان عروة (ص ٢٦) . و«تبخ الحرب» : أي تنطفئ .

عن التَّسْلِيمِ فِي ذَلِكَ ، وَذَهَبَ يعلِّلُ لذلِكَ تعليلًا جميلًا ، إذ وصفَهَا بأنَّهَا مُنْجِبَةٌ فَقَالَ :

أَعِيرْتُمُونِي أَنَّ أُمِّي تَرِيعَةٌ وَهَلْ يَنْجِبُنْ فِي الْقَوْمِ إِلَّا التَّرَائِعُ^(١)
* إِنَّ مَعَانَةَ عُرْوَةَ مِنْ أُمِّهِ تَأْتِيهِ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ :

الأولى : وَضَاعَةُ نَسَبِهَا - فِي مَجْتَمَعٍ يَقِيمُ لأَصَالَةِ النَّسَبِ وَزُنًا - .

الثَّانِيَّةُ : شِرَاسَتُهَا - فِي مَجْتَمَعٍ يَجْعَلُ لِعَظْمَةِ الْخَلْقِ تَقْدِيرًا - .

* وَهَذِهِ الْأَسْبَابُ الْمَجْتَمِعَةُ مِنْ تَشَاوُمِ قَبِيلَةِ عَبَسَ مِنْ وَالِدِ عُرْوَةَ ، وَقَلَّةِ شَأْنِ قَبِيلَةِ أُمِّهِ ، وَظُرُوفِ حَيَاتِهِ ، جَعَلَتْهُ يَشْعُرُ بِالظُّلْمِ الْاجْتِمَاعِيِّ فِي مَجْتَمَعِهِ الْقَبِيلِيِّ^(٢) .

فُرُوسِيَّتُهُ وَأَخْلَاقُهُ وَهِمَّتُهُ :

* قُلْنَا : إِنَّ عُرْوَةَ بَنَ الْوَرْدَ الْعَبْسِيَّ أَحَدُ رُؤَسَاءِ الصَّعَالِيكِ إِنْ لَمْ يَكُنْ سَيِّدَهُمْ وَمَقْدَمَهُمْ .

* وَفِي أَخْبَارِ وَشِعْرِ عُرْوَةَ صُورٌ تَبَيَّنَ مَعَالَمُ شَخْصِيَّتِهِ الَّتِي اسْتَطَعْنَا أَنْ نَتَبَيَّنَ مَلَامَحَهَا مِنْ خِلَالِ كَلَامِهِ لَزَوْجَتِهِ ، حَيْثُ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْقَصَصِ الَّتِي تَحْكِي بَعْضَ أَخْبَارِهِ مَعَهَا ، تَفْصَحُ عَنْ طَرِيقَتِهِ وَهَدَفِهِ فِي الْحَيَاةِ .

* فَعُرْوَةُ يَتَغَنَّى بِالصَّعْلَكَةِ الْمَمْزُوجَةِ بِالْفُرُوسِيَّةِ وَالنَّجْدَةِ وَالْحَمِيَّةِ وَالْغَيْرَةِ ، عَلَى أَوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْزَلَهُمُ الدَّهْرُ عَلَى حُكْمِهِ مِنْ شَامِخٍ عَالٍ إِلَى خَفْضٍ ، وَغَالَهُمُ الدَّهْرُ بِوَفْرِ الْغِنَى ، فَلَيْسَ لَهُمْ مَالٌ سِوَى الْكِرَامَةِ وَالْعِرْضِ وَالْأَنْفَةِ .

(١) ديوان عروة (ص ٦٧) . و«الترיעة» : المسرعة إلى الشرِّ .

(٢) انظر : الفروسية العربية لسيد حنفي (ص ٨٠ و ٨١) بتصرف يسير .

* لذا فإننا نجدُ عروةَ الفُرسان وعروةَ الصَّعاليك ، ينهى امرأته عن التَّعرُّض لسيرته ونَهْجِه ، فهو إذا خرج إلى قتالٍ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، لا يصحُّ لها ولا يجوز أن تعترض سبيله وتعتورَ همته ، وإذا غنمَ مالاً ، وأرادَ أن يفرِّقه على الصَّعاليك من أمثاله ، فلا يصحُّ لها أن تعترضَ عليه أيضاً .

* ولعلَّ أبرزَ أخلاقِ عروةَ عدمُ الأنانيةِ ، وكراهيةِ حبِّ الذاتِ ، لأنَّه كانَ رجلاً يحسُّ بالنَّاسِ أكثرَ مما يحسُّ بنفسه ، وكأنَّه قد وُجِدَ في هذه الصَّحراء لينفعَ مَنْ حوله ، وينفعَ معارفه ، فجميعُ البُسطاء ، وجميعُ الصَّعاليك شركاء له في ماله ، وما تملكه يداه .

* وقد عرَفَ الصَّعاليك أخلاقَ عروة وإيثاره ، فكان إذا ما أصابهم قَحْطٌ أو سَنَةٌ مُجْدِبَةٌ أتوه فجلسوا أمامَ بيته ، حتى إذا بصروا به عن جنبٍ صرَّخُوا وقال : يا أبا الصَّعاليك أغثنا ! يا أبا الصَّعاليك جارَ علينا الفقُرُ .

* ويستجيبُ أبو الصَّعاليك لندائهم ، وتأبى همته القعود ، فيخرج ليغزو لهم ، ويصيبُ من أموالِ بخلاءِ الأغنياء ما يغني الفقراء ، ويسدُّ خلَّتهم وعوزَهم ، ويضفي عليهم علائمَ السَّعادة ، وأماراتِ الشُّرور .

* حدَّث ذات مرَّة من مرَّات خروجه للغزو أن اعترضته زوجته ، ونهته عن الخروج ، لأنَّها قد تخوَّفتُ عليه من عوادي الزَّمن ، ومن هلاكه في هذه الغزوات والغاراتِ على أحياءِ الأغنياء والأشحَّاء الذين بخلُوا بأموالهم على النَّاسِ .

* ولكنَّ عروةَ لم يَأْبِهَ لكلامِ زوجته ، ولم يردَّ عليها ، ولم تقدِرْ أن تثنه عن عزمه ، وإنَّما عصاها وخرجَ غازياً ، وفي طريقه مرَّ على بعضِ مَنْ يعرفُهم ، فسألوه أينَ يريدُ وأينَ وجهته؟! فأخبرهم عروةُ أنَّه يريدُ الغزو والغارةَ ، هنالك أمروا له بجزور فنحروها ، وأكلَ منها ، ثمَّ أشاروا عليه

أَنْ يَرْجِعَ عَنْ عَزْمِهِ الَّذِي هَمَّ بِهِ وَأَلْقَاهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، لَكِنَّهُ عَصَاهُمْ أَيْضاً ، وَمِنْ
ثُمَّ مَضَى لِسَبِيلِهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى بِلَادِ بَنِي الْقَيْنِ ، فَأَغَارَ عَلَيْهِمْ ، وَأَصَابَ
هَجْمَةً عَادَ بِهَا عَلَى نَفْسِهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ :

أَرَى أَمَّ حَسَّانَ الْغَدَاةِ تَلُومُنِي تَخَوَّفُنِي الْأَعْدَاءُ وَالنَّفْسُ أَخَوْفُ
لَعَلَّ الَّذِي خَوَّفْتَنَا مِنْ أَمَامِنَا يَصَادِفُهُ فِي أَهْلِهِ الْمُتَخَلَّفُ
إِذَا قَلْتُ قَدْ جَاءَ الْغَنَى حَالَ دُونَهُ أَبُو صَبِيَّةٍ يَشْكُو الْمَفَاقِرَ أَعْجَفُ
لَهُ خَلَّةٌ لَا يَدْخُلُ الْحَقُّ دُونَهَا كَرِيمٌ أَصَابَتْهُ حَوَادِثُ تَجْرَفُ^(١)

وَنَجِدُ فَرُوسِيَّةَ عُرُوةَ هُنَا وَاضِحَةً جَلِيَّةً ، فَهُوَ مَقْدَامُ جَرِيءٍ ، لَا يَهَابُ
الْمَوْتَ ، ثُمَّ نَلْمُحُ سَجَايَاهُ وَإِثَارَهُ ، إِذْ يَحُلُّقُ فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِلَا حُدُودٍ
وَلَا قِيُودٍ ، وَهُوَ عَالَمٌ مَانَحٌ مِعْطَاءٌ مَمْرَاحٍ ، فَهُوَ يُوْحِي لَزَوْجَتِهِ بِأَلَّا تَخَوَّفَهُ
مِنَ الْأَعْدَاءِ ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَخَافَ مِنْ نَفْسِهِ الَّتِي لَا تَحْدُثُهُ بِالْغَزْوِ وَالْفَتْكِ
وَالشَّجَاعَةِ ، ذَلِكَ أَنَّ الْمَوْتَ يَأْتِي الْمَقِيمَ وَالْمَسَافِرَ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ ، وَلَعَلَّ
فِي خُرُوجِهِ إِصَابَةً مَالٍ يُعْطِيهِ لِأَهْلِ الْحَاجَاتِ ، أَوْ لِمَنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَذَهَبَتْ
بِمَالِهِ .

* وَفِي مَرَّةٍ أُخْرَى نَرَى عُرُوةَ بَنِ الْوَرْدِ يُوَجِّهُ خُطَاباً قَاسِياً لَزَوْجَتِهِ بَعْدَ
لُومِهِ عَلَى تَطَوُّفِهِ فِي الْبِلَادِ ، لَجَمْعِ الْمَالِ لِسَدَادِ حَقُوقِ الْفُقَرَاءِ ، وَلِيَنْقِذَهُمْ
مِنْ بَرَاثِنِ الْفَقْرِ ، إِنَّهُ يَصْرُخُ فِي وَجْهِهَا :

دَعَيْنِي أَطُوفُ فِي الْبِلَادِ لَعَلَّنِي أَفِيدُ غَنًى فِيهِ لَذِي الْحَقِّ مَحْمَلُ
أَلَيْسَ عَظِيماً أَنْ تَلَمَّ مَلَمَّةٌ وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْحَقُوقِ مَعُولُ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَمْلِكْ دِفَاعاً بِحَادِثٍ تَلَمُّ بِهِ الْأَيَّامُ فَالْمَوْتُ أَجْمَلُ^(٢)

(١) انظر : حماسة أبي تمام (٣٣٨/٢) طبعة القاهرة (١٩١٣ م) و«المفاقر» : الحاجات .

و«أعجف» : هزيل . و«الخلعة» : الحاجة . و«الحق» : القرابة .

(٢) الحماسة (٣٠/٢) .

* وبهذه السّمات الكريمة كان عروةُ بنُ الورد شخصيّةً تاريخيّةً مرموقةً ، وفارساً شريفاً ، فسيرتهُ قريبةٌ إلى القلوبِ ، حبيبةٌ إلى النفوسِ ، لطبيعتهِ الإنسانيّةِ الرّفيعةِ ، وسلوكه الخلقى النبيل الذي رفعه إلى مستوى إنساني عالٍ ، فكان مثلاً حيّاً من أمثلة التّضحية والإيثار .

أَقْلِي عَلَيَّ اللَّوْمَ :

* كَانَ عروةُ بنُ الورد منَ الفرسانِ المغاويرِ ، والأبطالِ المشاهيرِ ، الذين لا يخشون الأخطارَ ، ولا يخافون المسيرَ في الليلِ أو النَّهارِ ، حتّى إنّ زوجته سلمى قد لامتهُ على كثرِ غاراته ، وركوبه الأخطارِ ، وعلى استهانته بالحياةِ ، ورغبته في الكفاحِ المستمرِّ ، كما كانت تلوّمهُ على غارته بأولئك الرّجال الذين يعتمدون في غزواتهم معه على المشي^(١) دون الخيل^(٢) .

* وفي هذا تصوّرُ عروةُ لومَ زوجته ويخاطبها في قصيدة رائية تُعدُّ من أجملِ عيون القصائدِ المُختارة من فارسِ الصّعاليك وزعيمهم وإمامهم ، وتقتربُ من ثلاثين بيتاً اخترنا منهم قوله :

(١) كانت معظمُ غزواتِ الصّعاليك تعتمدُ على أرجلهم ، كما كانت تعتمدُ في بعضِ الأحيان على أفراسهم ، وهم في هذا يختلفون عن الفرسانِ السّادة الذين كانَ جلُّ اعتمادهم على الخيلِ ، وقد وفرَ الفرسانُ الصّعاليكُ لغزواتهم كلّ عناصرِ النّجاحِ وتحقيقِ الأهدافِ ، ففيهم قوّةُ الجسمِ ، وشدّةُ البأسِ ، وشجاعةُ القلبِ ، وصدقُ الغريمةِ ، وسرعةُ العدو ، وهم أيضاً واسعُو الحيلةِ ، عميقُو الدّهاءِ ، يعرفون كيف يتخلّصون من المآزقِ الضّيقة والمواقفِ الحرجةِ .

(٢) يقولُ عروةُ مبرراً سببَ غزواته بأصحابه مشاةً وفرساناً :

| | |
|---------------------------------|---------------------------------|
| لعلَّ انطلاقي في البلادِ ورحلتي | وشدّي حيازيم المطيّة بالرحل |
| سيدفعُنني يوماً إلى ربِّ هجمةٍ | يدافعُ عنها بالعقوقِ والبُخل |
| قليلٌ تواليها وطالبٌ وترها | إذا صَحَّتْ فيها الفوارس والرجل |

أَقْلِي عَلَيَّ اللُّومَ يَا بِنْتَ مُنْذِرٍ وَنَامِي فَإِنْ لَمْ تَشْتَهِي النَّوْمَ فَاسْهَرِي
 ذَرِينِي وَنَفْسِي أُمَّ حَسَّانِ إِنَّنِي بِهَا قَبْلَ أَلَا أَمْلِكُ الْبَيْعَ مُشْتَرِي
 أَحَادِيثَ تَبْقَى وَالْفَتَى غَيْرُ خَالِدٍ إِذَا هُوَ أُمْسَى هَامَةً تَحْتَ صُبْرِ
 ذَرِينِي أَطَوِّفُ فِي الْبِلَادِ لَعَلَّنِي أَخْلِيكَ أَوْ أَعْنِيكَ عَنْ سُوءِ مَخْضَرِي
 فَإِنْ فَازَ سَهْمٌ لِلْمَنِيَةِ لَمْ أَكُنْ جَزُوعاً وَهَلْ عَنْ ذَاكَ مِنْ مُتَأَخِّرٍ
 وَإِنْ فَازَ سَهْمِي كَفَّكُمْ عَنْ مَقَاعِدِ لَكُمْ خَلْفَ أَذْبَارِ الْبُيُوتِ وَمُنْظَرِ
 تَقُولُ لَكَ الْوِيلَاتُ هَلْ أَنْتَ تَارِكٌ ضُبُوءاً بِرَجُلٍ تَارَةً وَبِمَنْسَرٍ
 فَجُوعٌ بِهَا لِلصَّالِحِينَ مَزَلَّةٌ مَخُوفٍ رَدَّاهَا أَنْ تُصِيكَ فَاحْذَرُ^(١)

* وهذه القصيدة الرائية الجميلة تصوّر واحداً من المواقف الجميلة الرائعة لعروة بن الورد ، وتصور مذهب وطريقته في الحياة ، وصلته بأسرته ومجتمعه وعشيرته ؛ فهو يرفض في إصرار وثبات وعنف عطف زوجته

(١) انظر القصيدة كاملة في ديوانه (ص ٤١) والحماسة (١/١٥٩) وجمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام (ص ٤٥٠ - ٤٥٥) ، والأصمعيات (ص ٤٣) رقم القصيدة (١٠) وغيرها. و«ابنة منذر»: امرأته سلمى التي سبها من كنانة وأعتقها وأولدها أولاده. و«أم حسان»: كنية امرأته سلمى. و«البيع»: المعنى هنا: الشراء. و«الهامة»: كانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يدرك ثأره تصير هامة تصيح عند قبر تقول: اسقوني. و«الصُّبْر»: القبر. «أخليك»: أطلقك ، وكنتي بها عن قتله ، وكانت تخلى للأزواج. و«فاز سهم»: خرج أولاً. «أدبار البيوت»: كان الضيف إذا نزل يقوم نزل بأدبار البيوت حتى يهيا له مكانه ، ويقصد أنه يرفض الدل في الحياة لأن المال ما زال أمانها من الدل. «الضبوء»: اللصوق بالأرض والاستتار ليختل الصيد. «الرجل»: بفتح الراء وسكون الجيم: الرجال ، أي المشاة. «المنسر»: الجماعة من الخيل بين الثلاثين إلى الأربعين تقول: هل أنت تارك الغزو يقوم راجلين مرة وراكبين أخرى. «فجوع»: تفجع الناس ، وهو من صفة الصرماء والصرماء القليلة اللبن من نتاج العرب. «الصالحين»: الرجال يطلبون معالي الأمور. «مزلة»: تزل بأهلها. تقول له: احذر من هذه الثاقبة الصرماء التي تنزل الفجيعة بمن يمتطيها ، لأنها عرفت بهذه الخصلة.

سلمى وإشفاقها عليه ، إنها تخافُ عليه الموتَ وانقضاءَ الأجل ، وهو يرى بعينِ بصيرته وعين عقله أنَّ الذِّكرى الطَّيِّبة أطولُ من حياته التي تعدُّ أياماً وليالي محدودة ، إذاً فليُشترَ المحامدُ والمناقبُ قبل أن يأتيه الموتُ فلا يستطيع إذ ذاك شراء شيء من المكارم .

* ومن هذا المنطلقِ الرَّائع - منطلقِ الشَّجاعة والاستهانة بالمنايا ، والاستشرافِ إلى المجد والرَّفعة - كانت علاقته بزوجته ، فهو يريدُ لها الثَّراء والغنى إنْ كُتِبَ له النَّصر والمغنم ، وهو يتيحُ لها أنْ تتَّصلَ حياتها بغيره إنْ أصابه الموتُ ، وهو يريدُ لها السَّعادة على أيِّ حال .

* وعلى هذا النَّحو وهذه الطَّريقة يعاملُ عشيرته وقبيلته ، إنَّه لا يهتمُّ الحياة القاسية ، ولا يرهبُ المعارك الرَّهيبة ، فهو صاحبُ أسفار وانتقال هنا وهناك ، يغشى المخاطر ، ولا يخلدُ إلى النعيم أو خفضِ العيش ، لأنَّه لا يريدُ السَّعادةَ لنفسه وحدها ، ولكنه يرى أنَّه مسؤولٌ عن ذوي قُرباه ، يعدُّ لهم القرى قبل أن يسألوه إياه ، ويملاً بيته خيراً مخافةً أنْ يغشاه ذوو قُرباه ، فيعجزُ عن إكرامهم ، ويعجزُ عن منحهم ما يرغبون من عطاء .

* وهذا منطلقه أيضاً في الحياة كُلِّها ، يأبى إلا أن يكونَ له المنزلة الرَّفيعة ، وهيبَةُ الجانب ، يفرغُ أعداءه في كلِّ زمان ومكان ، ويستحوذُ على الحياة في كلِّ وقتٍ وحين من أجلِ زوجته أمِّ حَسَّان ، نَعَم من أجلِ سعادتها ، اسمعُ إليه يقول :

ذريني أطوفُ في البلادِ لعلَّني أخليكَ أو أغنيكَ عن سوءِ محضري

ومع هذا كله لا ينسى أقرابه وعشيرته ، فيقول :

أيهلكُ معتمٌ وزيدٌ ولم أقمُ على ندبٍ يوماً ولي نفسٌ مُخْطِرٌ^(١)

(١) «مُعْتَمٌ وزيدٌ»: بطنان من عَبَسٍ ، وهما جداه . «النَّدْبُ»: بفتحتين : البكاء على =

* ومن أجل المبدأ الصحيح والمثل الأعلى يقول :

يريحُ عليَّ الليلُ أضيافَ ماجدٍ كريمٍ ومالي سارِحاً مالٌ مقتَرٌ^(١)

* وهكذا فقد كان عروة من فرسان الأبطال ، ومن صعاليكها الشُّجعان ، ومن المقدّمين الأجواد ، فقد كان يحثُّ على طلبِ الغنى ، وتركِ حياة المذلة والمهانة .

* ومن الواضح في أخبارِ عروة وقصصه الجميلة أنّه ما كان يخاطرُ بنفسه من أجلِ بقائه وبقاءِ أهله ، بل كان يجهدُ نفسه ويعرّضُها للأخطار من أجلِ الآخرين الذين عودهم على العطاء ، وكان يدعوهم إلى مثلِ هذا حتّى يتغلّبوا على الفقر ، وينقذوا أنفسهم من مهالكه .

* ويذكرُ أبو الفرج الأصفهاني كيف أنّ عروة كان يُخرّج الصّعاليك من مدرسته البسيطة فيقول ما مفاده : كان عروة بنُ الورد إذا أصابتِ النَّاسُ سنّةٌ شديدةٌ تركوا في دارهم المريضَ والكبيرَ والضعيفَ ، وكان عروة بنُ الورد يجمعُ أشباه هؤلاء من دونِ النَّاسِ من عشيرته في الشّدّة ، ثم يحفرُ لهم الأسراب ، ويكنفُ عليهم الكُنْفَ - الحِطَّائِرَ - ويكسبُهُم ، ومن قوَيِ منهم خرجَ به معه فأغارَ ، وجعلَ لأصحابه الباقيين في ذلك نصيباً ، حتّى إذا أخصبَ النَّاسُ ، وكثُرَ عندهم اللبنُ ، وذهبتِ السنّةُ ، ألحقَ كلَّ إنسانٍ منهم بأهله ، وقسمَ له نصيبه من غنيمته إن كان غنموها ، فربّما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنّى ، فلذلك سمّي عروة الصّعاليك^(٢) .

= الميت . «المُخْطِرُ» : الدّاخلُ في الخطر ، والمعنى : أيهلكُ في حياتي هذان ، ولم أقم نادباً لنفسي ، فأخاطر حتّى أموتَ كما ماتا ولي نفسٌ تعودتِ المخاطر .

(١) «يريحُ» : يرد . «ماجد» : يقصد نفسه . «مالي» : إبلي . «مقتَر» : الفقير المقل . والمعنى : يأتي عليَّ الليلُ بضيوف فأكرمهم وانحرُ لهم الإبل ، وتسرحُ إبلي في الصّباح كأنّها إبل فقير .

(٢) انظر : الأغاني (٣/ ٧٧ و ٧٨) بنصرف يسير جداً .

* وثمة قصة أخرى تفصّل عن كفالة عروة لجماعته ، والخروج بهم إلى الغزو إذا ما أرمّلوا ، تقول القصة :

* تتابعْتُ على معدّ سنوات جهدت النَّاسَ جهداً شديداً ، وكانت غطفانُ من أحسنِ معدٍ فيها حالاً ، وتركَ النَّاسُ الغزوَ لجذوبةِ الأرضِ ؛ وكان عروةُ في تلك السنين غائباً ، فرجعَ مخففاً قد ذهبَ إبله وخيله ، وجاءَ إلى قومه فنذبَ منهم رهطاً ، فخرجوا معه ، فنحرَ لهم بعيراً ، وحملوا سلاحهم على بعيرٍ آخر ، وقدَدَ لهم بعيراً فوزَّعه بينهم ، وخرجَ يريدُ أرضَ قُضاعة ، وقصدَ قبل أرضِ بني القين ، فمرَّ بمالكِ الفزاريّ ، فقال له مالك : أينَ تنطلقُ بفتيانك هؤلاء تهلكهم ضيعة ؟ قال : إنّ الضيعة ما تأمرون به أن أقيمَ حتى أهلك هزلاً . فقال : إنّ أطعنتي رجعتُ على حرسين^(١) ، فكان طريقك حتى تأتي قومي فتكون فيهم .

قال : فما أصنعُ بمن كنتُ عودتهم إذا جاؤوني واعتروني ؟!

قال : تعتذرُ ، فيعذرونك إذا لم يكن عندك شيء .

قال : لكنّ أنا لا أعذرُ نفسي بتركِ الطلب .

قال عروةُ يذكرُ شدةَ الصّعاليك ، ومنَ بِمَآوانٍ - اسم مكان - وقيامه

بأمرهم حتى صلّحوا ، وندبه إياهم حتى خرجوا معه :

وَقُلْتُ لِقَوْمٍ فِي الْكِنِيفِ تَرَوُّحُوا عَشِيَّةً يَتَنَاقَشُونَ عِنْدَ مَآوَانٍ رُزَّحَ
تَنَالُوا الْغِنَى أَوْ تَبْلُغُوا بِنَفْسِكُمْ إِلَى مُسْتَرَاكِحٍ مِنْ حِمَامٍ مُبْرِحٍ
وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرَاً مِنْ الْمَالِ يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ
لِيَبْلُغَ عَذْرَاً أَوْ يَصِيبَ رَغِيْبَةً وَمُبْلَغُ نَفْسٍ عَذْرَاهَا مِثْلُ مُنْجَحٍ^(٢)

(١) «حرسين» : اسم مكان .

(٢) ديوان عروة (ص ٢٠) . و«الكنيف» : مكان يحيط به الشجر يشبه الحظيرة .
«تروحو» : سيروا بالزّواح . «الحِمَامُ المُبْرِحُ» : الموتُ الشّدِيدُ .

* لقد عودَ عروة جماعة الصَّعاليك عاداتٍ وثقنَ بها ، ويأبى أن يخيبَ ظنَّهم به ، ولو عرَّضَه ذلك لهلاكٍ محققٍ ؛ وهو في ذلك داعيةٌ إلى العمل ، حريصٌ على السَّعي ، مجتهدٌ في تفريجِ الغمَّة عن الآخرين ، يعطي لجماعته وأتباعه درساً واضحاً في المغامرة في سبيلِ الكرامة والعزة .

* إننا نراه يقيمُ من نفسه حارساً أميناً على هذا المبدأ الإنسانيِّ النبيل ، لا يعذرُها وإنْ أعذره الآخرون ، وعليه أنْ يعملَ قَدْرَ استطاعته ، والنتائج بعد ذلك في يدِ الأقدارِ ، ولا يعفي نفسه من المغامرة من أجلِ دفعِ غائلة الجوعِ والضَّياع عن الآخرين .

* ويبدو أنْ عروة قد نظَرَ فيما حوله فرأى أنَّ المالَ كلَّ شيءٍ ، وأقدارُ الرِّجال على قَدْرِ ما في أيديهم منْ أموالٍ ، فإنْ اغتنوا عزَّوا وجلوا ، وتغاضى النَّاس عن ذنوبهم ، أمَّا الفقراء فشرُّ النَّاس ، تهونُ أقدارهم وإنْ ارتفعت أحسابُهم وشرفت أنسابُهم ، ويحتقرهم حتى أقرب المقربين إليهم^(١) .

* إنَّ الغاية التي كان يريدُها عروة هي الغنى ، لكنَّه لا يريدُ الغنى منْ أجلِ الغنى ، وإنَّما يُريده كيما يكون وسيلةً للارتفاعِ بمنزلته الاجتماعيَّة بين أفرادِ مجتمعه .

* فالفقيروُ في رأي عروة شرُّ النَّاس ، وأحقَّهم عندهم ، وأهونُهم

(١) يبدو أنَّ هذه الحال ساريةٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، فكم منْ وضعٍ من السَّفلة ومنْ أراذلِ البشر ، اغتنى فجأةً ، وتكرَّشَ ، وظنَّ أنَّه معروفٌ لدى الخاصِّ والعام ، وبدأ يتكلَّم بملءِ شذقيه كلاماً ليس فيه معنى ولا مغزى ، وترى السُّخفاء مثله يروجون له ، ويضحكُ عليهم ويضحكونَ عليه ، ولنا في قول الشاعر خير دليل :

إذا امتلأتْ أيدي اللئيم من الغنى تنفَّسَ كالمرحاضِ فاحٍ وأتَّنا
وأما كريمُ الأصلِ كالغصنِ كلما تحمَّلَ منْ خيرٍ تواضعَ وانحنى

عليهم مهما يكن له من فضل يجافيه أهله ، وتزدرية امرأته ، حتى إنَّ الصَّغِيرَ يستطيعُ أن يذلَّه ، والكلابُ تنبحُه ، أمَّا الغنيُّ فمهما يغفلُ يقبَلُ منه ، ومهما يخطئُ يُغْفَرُ له ، فللغنيِّ - كما زعموا - ربٌّ يغفرُ الذُّنوبَ جميعاً.

* لذا فإنه يُروى أنَّ سيِّدنا عبد الله بنَ جعفر الجواد بن الجواد - رضي الله عنهما - كان يقولُ لمعلِّم أولاده: لا تُروِّهم قصيدةَ عروةَ بن الورد التي يقولُ فيها:

| | |
|---------------------------|-------------------------------------|
| ذريني للغنى أسعى فإنني | رأيتُ النَّاسَ شرَّهمُ الفقيرُ |
| وأذنأهم وأهونهم عليهم | وإنَّ أمسى له حسَبٌ وخيرُ |
| يباعدهُ القريبُ وتزدرية | حليته ويقهره الصَّغِيرُ |
| ويلقى ذو الغنى وله جلالٌ | يكادُ فؤادُ لاقية يطيرُ |
| قليلُ ذنبه والذَّنْبُ جمٌ | ولكن للغني ربٌّ غفور ^(١) |

(١) انظر: الأغاني (٧٧/١٦)؛ وانظر ديوانه (ص ٥٨) ، وعيون الأخبار (١/٤١ و ٢٤٢) والعقد الفريد (٢٩/٣) وقد علّق الدكتور يوسف خليف على هذه الأبيات الحلوة الجميلة بقوله: هكذا يسجّل أبو الصّعاليك فلسفته في هذه المُشكِلة الاجتماعية الخطرة مشكّلة الفقر والغنى ، وفي هذا الأسلوب الممتاز الذي يستمدُّ امتيازَه من عنصرين أساسيين هما: السُّخريّة والبساطة؛ السُّخريّة من ذلك المجتمع العجيب الذي يحتقرُ الفقيرَ لا لشيءٍ إلاّ لأنّه فقيرٌ ، ويقدّرُ الغنيَّ لا لشيءٍ إلاّ لأنّه غنيٌّ. والذي لا يهتمّ بغير المظاهر المادّية ، أمّا جوهرُ النفس الكامنُ خلفَ هذه المظاهر فأمرٌ وراءَ اهتمامه ، ثمّ البساطةُ التي نلمسُها في عرضِ الشّاعر لمعانيه ، ذلك العرض السَّهل الذي لا يقبلُ معارضةً أو يثيرُ جدلاً ، والذي ينفذُ إلى النَّفسِ من أقرب السُّبُل ، ذلك العرض الذي يصحُّ أن نطلقَ عليه عرضاً شعبيّاً ، حتّى لنسمعَ أنَّ عبدَ الله بنَ جعفر بن أبي طالب يطلبُ إلى معلِّم أولاده ألا يروِّهم هذه القصيدة ويقول له: إنَّ هذا يدعوهم إلى الاغترابِ عن أوطانهم.

(الشعراء الصّعاليك في العصر الجاهلي ص ٣٢٦ و ٣٢٧)

* نعم إِنَّ مِثْلَ هَذَا الشَّعْرُ يَدْعُو الْأَوْلَادَ إِلَى الْإِغْتِرَابِ وَالسَّعْيِ وَرَاءَ الرِّزْقِ ، كما أشارَ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ إِلَى ذَلِكَ . وَلَكِنَّ عُرْوَةَ بْنَ الْوَرْدِ الْفَارِسَ الَّذِي آثَرَ النَّاسَ عَلَى نَفْسِهِ يَقُولُ :

أَقْسَمَ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَخْسُو قَرَّاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدٌ
* فَقَدْ حَدَّثَ أَنَّ جَهْدَ قَوْمِهِ ذَاتَ مَرَّةٍ جَهْدًا عَظِيمًا ، وَلَاقُوا عَنَاءً وَقَسْوَةً فِي الْحَيَاةِ ، فَأَحَاطُوا أَنْفُسَهُمْ بِسِيَاحٍ لَمَّا أَعُوزَتْهُمْ الْمَكَاسِبُ وَقَالُوا : نَمُوتُ فِيهَا جُوعًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَأْكُلْنَا الذَّنَابَ .

* وَكَانَ عُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ أَبُو الصَّعَالِيكِ وَفَارِسُهُمْ غَائِبًا عَنْهُمْ ، فَأَتَاهُمْ وَرَأَى حَالَهُمْ ، فَبَادَرَ وَنَزَعَ عَنْهُمْ سِيَاحَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ : هَذِهِ قُلُوصِي ، فَقَدِّدُوا لِحِمَّهَا ، وَاحْمِلُوا أَسْلِحَتَكُمْ عَلَيْهَا حَتَّى أَصِيبَ لَكُمْ مَا تَعِيشُونَ بِهِ أَوْ أَمُوتَ .

* وَخَرَجَ عُرْوَةُ مَعَ أَتْبَاعِهِ ، فَوَجَدُوا فِي الطَّرِيقِ آثَارًا فَقَالَ لَهُمْ : هَذِهِ آثَارُ مَنْ يَرِدُ الْمَاءَ فَاكْمُنُوا . فَجَاءَتِ الْإِبِلُ بَعْدَ خَمْسٍ ، فَوَرَدَتْ مِنْهَا مِئَةٌ مَعَهَا فَضْلَانِهَا ، وَمَعَهَا فَارِسٌ بِسِلَاحِهِ ، فَخَرَجَ عَلَيْهِ عُرْوَةُ ، وَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَأَرَادَهُ قَتِيلًا ، ثُمَّ اسْتَأَقَ الْإِبِلَ حَتَّى أَتَى قَوْمَهُ فَأَعْطَاهُمْ وَأَحْيَاهُمْ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ :

أَلَيْسَ وَرَائِي أَنْ أَدَبْتُ عَلَى الْعَصَا فَيَشْمَتُ أَعْدَائِي وَيَسْأَمَنِي أَهْلِي
رَهِينَةَ قَعْرِ الْبَيْتِ كُلِّ عَشِيَّةٍ يُطِيفُ بِي الْوِلْدَانُ أَهْدَجَ كَالرَّأْلِ
أَقِيمُوا بَنِي لُبْنَى صُدُورَ رِكَابِكُمْ فَكُلُّ مَنَايَا النَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ الْهَزْلِ
فَإِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا كُلَّ هِمَّتِي وَلَا أَرَبِي حَتَّى تَرَوْا مُنْبِتَ الْأَثْلِ
لَعَلَّ ارْتِيَادِي فِي الْبِلَادِ وَحِيلَتِي وَشَدَّي حِيَازِيمَ الْمَطِيَّةِ بِالرَّحْلِ
سَيَدْفَعُنِي يَوْمًا إِلَى رَبِّ هَجْمَةٍ يُدَافِعُ عَنْهَا بِالْعُقُوقِ وَبِالْبُخْلِ^(١)

(١) انظر: الأغاني (٣/ ٨٠ و ٨١) ، والصَّعْلُكَةُ والفتوة في الإسلام (ص ٣٠ و ٣١) مع الجمع والتصرف . و«هَدَجَ الرَّأْلُ» : مَشَى فِي ارْتِعَاشٍ ، وَهَدَجَ فُلَانٌ : مَشَى مِثْقَالًا =

* وهكذا كَانَ عَرُوةٌ يَحِبُّ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ فِي غِنًى وَوَفَّرَ ، وَعِنْدَهُمْ مَا يَكْفِي مِنَ الْمَالِ ، إِذِ الْمَالُ مَهَابَةٌ وَالْفَقْرُ مَذَلَّةٌ ، وَلِذَا فَقَدْ جَهَدَ أَنْ يَسْعِدَ نَفْسَهُ ، وَيَسْعِدَ الْآخَرِينَ مَعَهُ ، وَاتَّخَذَ مِنْ ذَلِكَ مَبْدَأً يَدْعُو إِلَيْهِ ، وَيُنَادِي بِهِ فِي أَسْلُوبٍ سَهْلٍ يَحْمِلُ بَيْنَ طَبَائِهِ الْحِكْمَةَ وَالْعِظَةَ ، وَيُرْسِمُ مَشَاعِرَ النَّاسِ تَجَاهَ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ ؛ فَيَقُولُ :

خَاطِرُ بِنَفْسِكَ كَيْ تَصِيبَ غَنِيمَةً إِنَّ الْقَعُودَ مَعَ الْعِيَالِ قَبِيحُ
الْمَالُ فِيهِ مَهَابَةٌ وَتَجَلَّةٌ وَالْفَقْرُ فِيهِ مَذَلَّةٌ وَفُضُوحٌ^(١)

* وَتِلْكَ نَصِيحَتُهُ نَفْسُهَا لِلصَّعَالِيكِ أَيْضاً إِذْ يَقُولُ :

وَقُلْتُ لِأَصْحَابِ الْكِنِيفِ تَرَحَّلُوا فَلَيْسَ لَكُمْ فِي سَاحَةِ الدَّارِ مَقْعَدُ
* وَلِهَذَا فَقَدْ كَانَ عَرُوةُ الصَّعَالِيكِ يَسِيرُ بِالرَّوَّاحِ ، وَيَطُوفُ الْبِلَادَ ، لِيُكْسِبَ الْمَالَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ بِذَلِكَ لِمَنْ هُوَ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ ، فَإِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ تَحْقِيقَ ذَلِكَ الْهَدَفِ كَانَ الْمَوْتُ عَذْرَةً ، يَقُولُ :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَطْلُبْ مَعَاشاً لِنَفْسِهِ شَكََا الْفَقْرَ أَوْ لَامَ الصَّدِيقَ فَأَكْثَرَا
وَصَارَ عَلَى الْأَدْنَيْنِ كَلًّا وَأَوْشَكْتُ قُلُوبُ ذَوِي الْقُرْبَى لَهُ أَنْ تَنْكَرَا
وَمَا طَالِبُ الْحَاجَاتِ مِنْ حَيْثُ تُبْتَغَى مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَنْ أَبْرَّ وَشَمَّرَا
فَسِرْ فِي بِلَادِ اللَّهِ وَالتَّمِسِ الْغِنَى تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوتَ فَتُعْذَرَا
وَلَا تَرْضَ مِنْ عَيْشٍ بَدُونٍ وَلَا تَنْمَ وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ كَانَ مُعْسِراً^(٢)

= فِي ضَعْفٍ . وَ«الرَّأَلُ» : الظَّلِيمُ - وَلَدَ النَّعَامِ - وَ«الْهُزْلُ» : الضَّعْفُ وَقَلَّةُ اللَّحْمِ .
وَ«أَرْبَى» : غَايَتِي ، وَ«هَجَمَةٌ» : الْمِئَةُ مِنَ الْإِبِلِ . وَمَنْ الْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ عَرُوةَ بَنِ
الْوَرْدِ كَانَ يَصْحَبُهُ صَعْلُوكٌ آخَرُ يُسَمَّى : أَشِيمَ بْنَ شَرْحِبِيلَ ، وَكَانَ يُسَمَّى : مَأْوَى
الصَّعَالِيكِ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَعُولُهُمْ وَيَنْفِقُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَسْتَغْنَوْا .

(١) دِيَوَانُهُ (ص ٢٤) .

(٢) انْظُرْ : الْحِمَاسَةُ الْبَصْرِيَّةُ (١/٣٤٣) .

* ومن أجل هذا المبدأ الصُّعْلوكي الجميل ، سَلَكَ عروةُ بنُ الوردِ هذا المَسْلَكَ ، حتى لا تنقطعَ صَلَاتُهُ بالحياةِ المليئةِ بالتَّكَاتُفِ والتَّراحمِ والتَّعاطُفِ ، وحتى لا يعيشَ وحدهُ في رزقٍ ضيِّقٍ محدودٍ ، فهو لا يعرفُ الحياةَ إلا بمشاركتهِ لغيره فيما يعانیه ، وهو لا يلتذُّ بمظاهرها إلا إذا عمَّتْ هذه المظاهرُ أكبرَ مجموعةٍ من المحتاجين من بني عَبَسَ ، ومن أصدقائه المعوزين .

* إنَّ عروةَ بنَ الوردِ هذا قد اتَّخَذَ منهجاً خاصاً له ، حاول أن يطبِّقَه في كُلِّ تصرُّفاته ، ويتلخَّص هذا المنهج بتمرُّدهِ على البُخلاء الأغنياء ، وعطفِهِ على المظلومين ، ومقاسمته لآلامهم التي يعانونها ، وبؤسهم الذي يقاسونه ، وكان تمرُّدهُ هذا وسيلةً لغايةٍ إنسانيةٍ ساميةٍ ، تدعو إلى العدلِ ورفعِ الظُّلم عن هذه الفئةِ من المظلومين ، وحمايةِ الضُّعفاء من تسلُّط جماعةِ الأقوياء من البُخلاء ونحوهم .

* فعروةُ يحاولُ بطريقتهِ الخاصَّة أن يتعرَّف على الأغنياء ، نعم يتعرَّف على الأغنياء ، فَمَنْ وجَدَه منهم بخيلاً ، غَزَاهُ وألْحَقَ به الخسائرَ ، ومن وجَدَه شهماً كريماً وجَوَاداً سخياً تركه ، وكان يتسَقَّط أخبارَ البُخلاء ، ويبعثُ عليهم العيونَ ليشدَّ إليهم الرِّحالَ ، ويستخلصَ منهم المالَ ، ويجعلهم في أحسِّ حالٍ ، وأسوأ مآلٍ ، فالبخلُ آفةُ الرِّجالِ ، وعلامةُ الآجالِ .

* ومن اللطيفِ الطَّرِيفِ في سيرةِ عروة أنَّهم زعموا أنَّه مكثَ مدَّةَ بعد قوله :

«أليسَ ورائي أن أدبَّ على العصا فيشمتَ أعدائي ويسأمني أهلي»

ما شاء الله ، ثمَّ بلغه عن رجلٍ من بني كنانة بن خزيمة أنَّه أبخلُ النَّاسِ ،

وأكثرهم مالا ، فبعث عليه عيوناً ، فأتوه بخبره ، فشدد على إبله فاستاقها ،
ثم قسمها في قومه ، فقال عند ذلك :

مَا بِالثَّراءِ يَسُودُ كُلُّ مُسَوِّدٍ مُثْرٍ وَلَكِنْ بِالْفَعَالِ يَسُودُ
بَلْ لَا أَكْثَرُ صَاحِبِي فِي يَسْرِهِ وَأَصْدُ إِذْ فِي عَيْشِهِ تَضْرِيدُ
فَإِذَا غَنِيْتُ فَإِنَّ جَارِي نِيلُهُ مِنْ نَائِلِي وَمِيسْرِي مَعْهُودُ
وَإِذَا افْتَقَرْتُ فَلَنْ أَرَى مُتَخَشَعاً لِأَخِي غَنَى مَعْرُوفُهُ مَكْدُودُ^(١)

* وهكذا انطلقت دعوة عروة بن الورد - في هذا المجال - في أوساط
المجتمع الجاهلي ، فاستجاب لها كثيرون ممن يشعرون بهذا الشعور
نفسه ، ويدركون المساوىء الاجتماعية السائدة في ذلك المجتمع ، وظلّت
أصداء هذه الدّعوة تتجاوب في جوانب الجزيرة العربيّة .

* إنّ مشاركة عروة في هذا المجال كانت مشاركة عمليّة ، لأنّه كان
يشعرُ بالنّاس أكثر مما يشعرُ بنفسه ، ولأنّه حمل عبء الفقراء في قبيلته ،
والى على نفسه ألا يستريح حتى يجدوا كفايتهم ، فألف منهم فرقة تعمل
معه ، وتسعى سعّيه ، وأطلق عليه اسم العيال ، لأنه يعولهم ويقوم على
إطعامهم ، ويبنى لهم الحظائر التي يقيمون فيها ، ويغزو بأشدائهم أعداءه
وأعداءهم ، ويوزع عليهم ما يكسبه ممن يكسبه في الغزو :

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرَأً مَنْ الْمَالِ يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ
* ومن هنا جاءت شهرة عروة ، وبرزت شخصيته لما اشتملت عليه
هذه الشّخصيّة من آداب إنسانيّة ، وأخلاق كريمة ، وروح مشاركة لم تعرف
التكلف ، ولم تتصنع الكرم والجود والإيثار ، وقد تجلّت هذه الصّفات في
كلّ ما كان يصنعه من إحسان ، ويبدله من عطف ، فعروة رجل العطاء

(١) انظر: ديوانه (ص ٣١).

والجودِ الطَّبِيعِيّ الذي لا تكلّف فيه ، ولا مرء ، وهو صاحبُ همّةٍ عاليةٍ ،
ومُثلٍ ساميةٍ ونفسٍ كبيرة^(١) .

قَصَّةُ عُرْوَةَ مَعَ زَوْجَتِهِ :

* يظهرُ لنا من أخبارِ عروة بنِ الوردِ بأنّه كان فارساً عفيفاً ، صادقاً في
فروسيّته ، وقيّاً بالعهدِ ، من ذلك أنّه سبى امرأةً من بني كنانةٍ في إحدى
غزواته اسمُها سلمى ، واتّخذها زوجةً له ، ورزقَ منها أولاداً ، ولكنّها
فارقتَه لأنّ قومها كانوا يقولون : إنّها أُمّةُ عروة ، ولنقرأ قصّة ذلك كما جاء
في المصادر .

* تقولُ القصّة : كانَ عروةُ بنُ الوردِ في بعض غاراته على مُزينة ،
فأصابَ امرأةً من كنانةٍ بكراً يُقالُ لها سلمى ، فأعجبته فاتّخذها لنفسه ،
وكانت ذاتَ جمالٍ ودلالٍ ، فولدت له أولاداً ، وكان شديدَ الحبِّ لها
والإعجابِ بها ، وكانَ ولده يُعيّرون بأُمّهم ، ويُسمّونَ بني الأخيذة - أي
السّبيّة - .

* وكانت سلمى تتألّمُ أشدَّ الألمِ من هذه المعاملة التي حَفَرَتْ في نفسِها
أخاديدَ عظيمة ، ومكثتْ عنده بضعَ عشرة سنة ، وهو لا يشكُّ في أنّها
أرغبتُ النَّاسَ فيه .

* وذاتَ يومٍ قالت لعروة : يا عروة ألا ترى ولدك يُعيّرون؟

قال : فماذا تريدن يا أمّ وَهْب - كنية سلمى - ؟

* وهناك فَكَّرَتْ سلمى في طريقةٍ تَصِلُ لها إلى قومها ، فقالت له : أرى
أنّ تردّني إلى قومي حتى يكونوا هم الذين يزوّجونك .

(١) انظر : الفروسية في الشعر الجاهلي (ص ٣١٧ و ٣١٨) بتصرف .

فقال عروة: نَعَمْ واللهِ إِنَّهُ لَصَوَابٌ .

* وَحَجَّ عُرْوَةُ بِسَلْمَى ، وَلَقِيَهُ قَوْمُهَا ، وَقَالُوا لَهُ : يَا عُرْوَةُ فَادِنَا بِصَاحِبَتِنَا ، فَإِنَّا نَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ سَبِيَّةً عِنْدَكَ .

قال عروة: على شَرَطٍ .

قالوا: وما هو يا أبا الصَّعَالِيكَ؟

قال: على أَنْ نَخَيَّرَهَا بَعْدَ الْفِدَاءِ ، فَإِنْ اخْتَارَتْ قَوْمَهَا أَقَامَتْ فِيهِمْ ، وَإِنْ اخْتَارَتْنِي خَرَجْتُ بِهَا - وَكَانَ عُرْوَةُ - يَرَى أَنَّهَا لَا تَخْتَارُ عَلَيْهِ أَحَدًا .

* فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ ، وَفَادُوا بِهَا ، وَلَمَّا خَيَّرُوهَا اخْتَارَتْ قَوْمَهَا عَلَى عُرْوَةَ ، ثُمَّ قَالَتْ : يَا عُرْوَةُ ، أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَعْلَمُ امْرَأَةً أَلْقَتْ سِتْرًا عَلَى خَيْرٍ مِنْكَ أَغْفَلَ عَيْنًا ، وَأَقَلَّ فَحْشًا ، وَأَحْمَى لِحَقِيقَتِهِ ، وَلَقَدْ أَقَمْتُ مَعَكَ وَمَا يَوْمٌ يَمْضِي إِلَّا وَالْمَوْتُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْحَيَاةِ فِيهِ ، وَذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ الْمَرْأَةَ مِنْ قَوْمِكَ تَقُولُ : قَالَتْ أُمُّهُ عُرْوَةُ كَذَا ، وَقَالَتْ أُمُّهُ عُرْوَةُ كَذَا ، وَاللَّهِ لَا نَظَرْتُ فِي وَجْهِ غُفْفَانِيَّةٍ قَطُّ ، فَارْجِعْ رَاشِدًا ، وَأَحْسِنْ إِلَى وَلَدِكَ ؛ فَقَالَ عُرْوَةُ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ الْجَمِيلَةُ :

| | |
|--|--|
| أَرَقْتُ وَصُحْبَتِي بِمَضِيقِ عَمَقٍ | لِبَرْقٍ فِي تَهَامَةٍ مُسْتَطِيرٍ |
| سَقَى سَلْمَى وَأَيْنَ دِيَارُ سَلْمَى | إِذَا حَلَّتْ مُجَاوِرَةَ السَّرِيرِ |
| إِذَا حَلَّتْ بِأَرْضِ بَنِي عَلِيٍّ | وَأَهْلِي بَيْنَ زَامِرَةٍ وَكَيْثَرِ |
| ذَكَرْتُ مَنَازِلًا مِنْ أُمِّ وَهْبٍ | مَحَلَّ الْحَيِّ أَسْفَلَ ذِي النَّقِيرِ |
| وَأَحَدْتُ مَعْهَدًا مِنْ أُمِّ وَهْبٍ | مَعْرَسُنَا بَدَارِ بَنِي النَّضِيرِ |

ومنها:

| | |
|--|---|
| أَلَا وَأَبِيكَ لَوْ كَالْيَوْمِ أَمْرِي | وَمَنْ لَكَ بِالتَّدْبِيرِ فِي الْأُمُورِ |
| إِذَا لَمَلَكْتُ عَضْمَةً أُمِّ وَهْبٍ | عَلَى مَا كَانَ مِنْ حَسَكِ الصُّدُورِ |

فيا للنَّاسِ كَيْفَ غَلَبْتُ نَفْسِي على شَيْءٍ وَيَكْرَهُهُ ضَمِيرِي
أَلَا يَا لَيْتَنِي عَاصَيْتُ طَلْقاً وَجَبَّاراً وَمَنْ لِي مِنْ أَمِيرٍ^(١)
مَنْهَجُهُ فِي الْحَيَاةِ :

* من خلالِ سيرةِ عروةَ بنِ الورد ، نلمحُ أنَّه فارسُ الصَّعاليكِ بلا
منازع ، فقد ضربَ لهم المَثَلُ الجيِّدَ في الإقدامِ والغزوِ والسُّلْبِ ، وقد كان
يحثُّ جماعتهِ والمتصعلكين من حوله على تركِ حياةِ الخُنع ، ويُطالبُهم
بالإقدام ، وبناءِ الأمجادِ على حدِّ ظُباتِ سيوفهم ، ويبعثُ فيهم روحَ
المغامرةِ ومحاربةِ الظُّلمِ بلسانِهِ وسنانهِ .

* فقد كانَ عروةَ شاعِراً وفارساً ، أَلَفَ الباديةَ ، وأَلَفَ وحوشها

(١) انظر: ديوانه (ص ٣٠ - ٣٣) طبعة دار صادر ، والشعر والشعراء (٢/ ٦٧٦ و ٦٧٧) والأغاني (٣/ ٧٤ - ٧٦) مع الجمع والتصرف . ومعنى : «عمق» و«مستطير» : منتشرٌ في أفق السماء . و«السَّير» : موضعٌ في بلادِ كنانة . و«بنو علي» : قومٌ من كنانة . و«زامرة وكير» : موضعان . و«ذو النِّقير» : ماء لبني القَيْنِ ولكلب . و«أُم وهب» : كُنية سلمى . «حَسَك الصُّدُور» : الغِلُّ والعداوة . و«طلق وجبار» : أخوه وابن عمه . و«أمير» : المقصود هنا : المستشار .

ثم يعقُبُ أبو الفرج الأصفهانيُّ على قصَّةِ سلمى مع عروة فيقول : ثمَّ فارَقَتْهُ . فتزوَّجها رجلٌ من بني عمِّها ، فقالَ لها يوماً من الأيام : يا سلمى ؛ أثنيتِ عليَّ كما أثنيتِ على عروة - وقد كان قولُها فيه شهرَ - فقالت له : لا تكلفني ذلك فإني إن قلتُ الحقَّ غضبتُ ، ولا واللاتِ والعزى لا أكذبُ .

فقال : عزمْتُ عليكِ لتأتيني في مجلسِ قومي فلئُشِّين عليَّ بما تعلمين .

وخرجَ ، فجلسَ في نادي القوم ، وأقبلتُ فرماها القومُ بأبصارهم ، فوقفتُ عليهم وقالتُ : أنعموا صَباحاً ، إنَّ هَذَا عزمَ عليَّ أنْ أثني عليه بما أعلمُ ، ثمَّ أقبلتُ عليه فقالت : واللهِ إنَّ شملتَكَ - كساءَكَ - للالتِّحافِ ، وإنَّ شربَكَ لاشتِّفاف - تقصِّي ما في الإناء وشربه كلُّه - وإنَّكَ لتنامُ ليلةَ تخاف ، وتشبعُ ليلةَ تُضاف ، وما تُرضي الأهلَ ولا الجانبَ ، ثمَّ انصرفتُ . فلامه قومه وقالوا : ما كان أغناكَ عن هذا القولِ منها .

(الأغاني ٣/ ٧٧)

ومفاوزها ، وعرفَ معنى الحرّية ، كما عرفَ معها معاناة الجوع ، تلك المعاناة التي ولدت عنده الفروسيّة الصّعلوكيّة .

* فعروة يمثّل الصّعلوك الفارس ، فهو فارسُ اليأسِ أحياناً ، وبطلُ الحرية عندما خيّمَت على مجتمعه أنماطُ الظلم ، فهبَّ يحملُ مسؤوليّة المعيشة لنفسه ولغيره ممن ذاقوا مرارة الهوانِ في أقوامهم .

* ولذلك نجدُه يقطعُ الفيافي والقفار بحثاً عن موقعة ، ليسجّل موقفاً من مواقف الكرم ، أو موقفاً من مواقف المروءة للجائعين والمُعْدَمين ، منتقماً لهم من ترفِ الأغنياء الذين بخلوا ولم يجودوا بفائضِ مَالِهِم على ذوي الحاجات .

* ولعلّنا نلحظُ أنّ عروة ما كان يملكُ من متاع الدُّنيا شيئاً يذكر ، لكنّه في الوقتِ ذاته يسعى مع جماعته لتحقيقِ نوعٍ من العَدالةِ الاجتماعيّة ورفع الظلم .

* إنّ الصّعاليكَ بعامّة رفضوا الحياةَ المستضعفةَ ، وطلبوا المغامرةَ ، ومصارعةَ الخطوبِ ، وهم لا يبالون بصروف الحياة ، لكنّهم متحمّسون تماماً للعدالةِ ولحياةِ الحرية وإن كانوا فقراءَ معدّمين ، لذلك حفلت أخبارُهم بقصصِ مآثرهم الحقيقيّة بعيداً عن المبالغة ، حيث نجدُ قصصهم مرآةً صادقةً لمواقع حياتهم وأحداثها الغريبة .

* إنّ الفارسَ الصّعلوكَ من أبعدِ النَّاسِ تعلّقاً بأمانِي الحياةِ وزخرفها ، فهو راغبٌ عن الدنيا وإن كانَ من أكابرِ عشاقِ ملاذّها الطّبيعيّة المباشرة ، لكنّه يعفُ عن عيشةٍ مع الدُّلِّ ، وعن غذاءٍ مع الهوانِ ، وعن عمرٍ بلا مغامرةٍ أو فروسيّة ، كما كانَ يعيشُ هذا كلّهُ فارسنا عروة بن الورد .

* إنّ ضيفنا عروة شخصيّةٌ تكادُ تكونُ فريدةً وقائمةً بذاتها في التّاريخ الجاهليّ ، فهو أولاً فارسٌ وهو أكثرُ من شاعر ، إنّهُ أبو الصّعاليك ،

ومأوى مَنْ هُضمَ حَقُّهُ ؛ إِنَّ عروَةَ هذا هو الذي دعاهُ سيّدنا معاويةُ - رضي الله عنه - فيما بَعُدَ باسم «ابن مانِعِ الضَّيِّمِ» ؛ وعروَةُ نفسُه وصَفَهَ عبد الملك بن مروان بقوله : مَنْ زعمَ أَنَّ حاتمًا - أي حاتم الطائي - أسمعُ النَّاسِ فقد ظَلَمَ عروَةَ بنَ الورد .

* نعم إِنَّ عروَةَ آلىَ على نفسِه - بعد أن اضطَهَد - أَنْ يكونَ زعيمًا للصَّعاليك ، وراحَ يغزو بأعدادٍ منهم البخلَاءَ وأصحابَ الثَّرَواتِ ، ومن ثَمَّ يقسُمُ الغنائمَ بين جماعتِه ، وقد كانَ الصَّعاليكُ الفقراءُ يأتونه من جميعِ النَّواحي كلما جارَ عليهم الأغنياءُ ، أو أصابَتْهم سَنَةٌ جَدَبٌ ، فيتوافدون على منزله ، وينادونه إذا خرجَ : يا أبا الصَّعاليك ، يا أبا الصَّعاليك .

* ومن هنا راحَ عروَةُ يرسمُ سياسةَ الفروسيةِ الحقَّةَ للصَّعاليك ، فهو لا يرضيه الصُّعْلوكُ الخاملُ الذي لا يسعى لالتماسِ المالِ ، وإنَّما يريدُه أَنْ يكونَ فارساً غازياً جريئاً ، يخشاهُ النَّاسُ في المحضرِ والمغيِبِ ، كما يحثُّ الفارسَ الصُّعْلوكُ على طلبِ المعالي ، وجمعِ المالِ وتوزيعه على مستحقِّيه من المعوزين ، وإنَّه ليكرهُ الصُّعْلوكُ الخاملَ المهينَ الحقيرَ الكسولَ الذي يألَفُ مَنَحَرَ الإبلِ ليأكلَ أو يتناولَ طعاماً من صديقٍ ، وينامَ عشاءً ولا يسعى ، ويتركُ عياله وأتباعه يتضوَّرون جوعاً :

لحى اللهُ صُعلوكاً إذا جنَّ ليلُهُ مُصافي المشاشِ ألفاً كلَّ مَجْزَرِ
يعدُّ الغنى من دهره كلَّ ليلةٍ أصابَ قِراها من صديقٍ ميسرٍ
ينامُ عشاءً ثمَّ يصبحُ ناعساً يحثُّ الحصى عن جنبه المتعفِّرِ
قليلُ التماسِ الزَّادِ إلا لنفسِه إذا هو أمسى كالعريشِ المجوَّرِ^(١)

(١) ديوانه (ص ٣٧) و«مُصافي المشاش» : مختار مؤثر للأكل و«المشاش» رأسُ العظم اللين . و«المجزر» : الموضع الذي يجزَّرُ فيه للإبل . «يحثُّ الحصى» : لا يبرح الحيَّ . «العريش» : شبه الخيمة . «يمسي طليحاً» : يمسي ضعيفاً . و«لكنَّ» =

* ويكره عروة ذلك الذي يخدم نساء الحي ، ويملاً بطنه بالزادِ دون أن يكون له رغائب في المجد ، ويحبُّ الصُّلوكَ الفارسَ المُجدِّ الذي يكره ويفرُّ ويغزو:

يُعينُ نساءَ الحيِّ ما يَسْتَعْنَهُ ويُمسي طليحاً كالبعيرِ المُحَسَّرِ
ولكنَّ صُعلوكاً صفيحةً وجهه كَضوءِ شهابِ القابسِ المتنورِ
مطالاً على أعدائه يزجرونه يساحتهم زجر المنيحِ المُشهرِ
فذلك إن يلقَ المنية يلقها حميداً وإن يَسْتَعْنِ يوماً فأجدر^(١)

* وكان عروة عملاقاً في شعرِ الفروسيَّة والبسالة ، يأنمُ الفرسانُ بِشعره ، ويقتدون بمآثره الحسان ، فقد عاش عروة فقيراً ، ولكنه كان سعيداً بأعماله ، ويذكر عروة في شعره أنه لن يترك بعد موته سوى عدَّة حربه ، وهي السيفُ والرَّمحُ والدِّرْعُ والمِغْفَرُ والجِوَادُ ، وهذا ما سيرته وارثوه من بعده ، فلنستمع إلى منهجه في هذا:

وذي أملٍ يرجو تُراثي وإنَّ ما يصيرُ له منه غداً لقليلُ
ومالي مالٌ غيرُ درعٍ ومغفرٍ وأبيض من ماء الحديدِ صقيلُ
وأسمَرَ خطيِّ القناةِ مثقف وأجردُ عُريانِ السَّراةِ طويلُ

* وكان السخاءُ والجودُ سجيَّةً في نفسِ عروة ، فقد كان يكره البخلاء ، وكان أحبُّ شيءٍ إلى نفسه أن يسطو على الأغنياءِ البخلاء ، ليعطيَ الفقراءَ ، أمَّا أولئك الذين عُرِفَ عنهم الجودُ وبسطُ اليدِ ، فلم يكن يغزوهم أو يعتدي عليهم ، وإنَّما كان يمدحهم لجودهم وكرمهم ، كما مدح مالكُ بن حمارِ الفزاريِّ لجوده وسخائه ، لأنَّه يجدُّ في نفسه خلَّة

= صعلوكاً: يريدُ ولكنَّ صعلوكاً هكذا وجهه لا لحاه الله. «مطالاً»: مشرفاً.
«يزجرونه» يصيحون به. «المنيح»: قدحٌ مستعار سريعُ الخروجِ والفوز يُستعار فيضربُ ثم يردُّ إلى صاحبه ، والعارية تسمَّى المنحة .

الكَرَمَ؛ فكيف لا يمدحهم؟ ترى ماذا قالَ في مديح هذا السَّخي مَالِكِ
الفزاري؟ :

جزى اللهُ خيراً كلّما ذُكِرَ اسْمُهُ أبا مالِكٍ إنْ ذلك الحيُّ أضعَدُوا
وزوَدَ خيراً مالِكاً إنْ مالِكاً له رِدَّةٌ فينا إذا القومُ زَهَّدُ^(١)

* وإذا ما ناقشتهُ امرأته في هذا التَّبذير ، رفضَ أن يسمعَ منها حرفاً
واحداً في هذا المجال ، بل إنَّ الضَّيفَ عنده في المكانِ الأوفى والأوّل ،
وعليه أن يقدّم له كلّ ما في منزله من زادٍ وطعامٍ وشرابٍ ؛ والبشاشةُ في
وجهه أوّلُ مظهرٍ من مظاهرِ إكرامِهِ ، ففراشه فراشُ الضَّيفِ ، ولن يلهو عنه
بامرأةٍ حسناء ولا غيرها ، اسمع إلى عروة يترجمُ هذا المعنى :

فراشي فراشُ الضَّيفِ والبيتُ بيتهُ ولم يلهني عنه غزالٍ مقنَّعُ
أحدُّه إنَّ الحديثَ من القرى وتعلّمُ نفسي أنّه سوفَ يهجعُ^(٢)

* ولهذا فإنّه أثّرَ عن الخليفةِ الأمويِّ عبدِ الملكِ بنِ مروان أنّه قال عن
عروة وجوده وسخائه وبذله : مَنْ زعمَ أن حاتماً أسمعُ النَّاسَ فقد ظلمَ
عروةَ بنَ الورد^(٣).

* وعلى قدرِ حبِّ عروة للسَّخاءِ والجودِ كان بغضُهُ للبخلِ والتَّقثيرِ ؛
يقولُ من قصيدةٍ يذمُّ البخلَ والبخلاءَ :

(١) ديوانه (ص ٢٨). و«أضعَدُوا»: أي ارتفعوا في البلاد. و«رِدَّة»: أي بقيّة. و«إذا
القوم»: أراد جميع العشيرة.

(٢) ديوانه (ص ٤٩). وقريبٌ من هذا قول الخريمي ، وقد ذكرته في هذا المقام :
أضاحكُ ضيفي قبلَ إنزالِ رَحْلِهِ ويخصبُ عندي والمحلُّ جديبُ
وما الجودُ للأضيافِ أن يكثرَ القرى ولكنّا وجهُ الكريمِ خصيبُ
(التذكرة الحمدونية ٢ / ٢٧٥)

(٣) الأغاني (٣ / ٧٣).

وقد عَلِمْتُ سُلَيْمَى أَنَّ رَأْيِي ورأي البخلِ مُخْتَلِفٌ شَتِيتٌ
وَأَنِّي لَا يَرِينِي الْبَخْلَ رَأْيٌ سَوَاءٌ إِنْ عَطَشْتُ وَإِنْ رُوِيْتُ^(١)

وربما كان عروة في حاجةٍ ماسّةٍ إلى المالِ ، فيحرمُ نفسه ويعطي
المحتاجَ ، وربما كان ذلك في السّنةِ المجدبةِ حيث يبخلُ النَّاسُ بالطَّعامِ ،
لأنَّ الجودَ به وقتٌ إذ يعرّضُ صاحبه للهلاكِ المُحتمِّ ؛ يقولُ مخاطباً زوجته :
قَعِيدُكَ عَمَرَ اللَّهِ هَلْ تَعْلَمِينَنِي كريماً إذا اسودَّ الأناملُ أزْهَرا
صبوراً على رُزءِ الموالِي وحافظاً لعرضي حتّى يُؤكَلِ النَّبْتُ أَخْضَرا
أَقْبُ وَمُخْماصُ الشّتاءِ مرزأً إذا اغبرَّ أولادُ الأذلةِ أسْفَرا^(٢)

* إِنَّ عروةَ يَبْذُلُ وَيَبْذُلُ وَإِنْ لَمْ يُسْأَلْ ، ويعطي ويعطي وإن لَمْ يَسْتَجِدْهُ
المحتاجُ ، يَهْشُ في وَجْهِ المحتاجين ، لأنَّ البشاشةَ أوّلَ الكرمِ ودليلُ
الْقَرَى ؛ يقول :

سَلِي الطَّارِقَ الْمُعْتَرِّ يَا أُمَّ مالِكٍ إذا ما أَتاني بينَ قِذْري وَمَجْزَري
أَيْسَفُ وَجْهِي إِنَّهُ أوّلُ الْقَرَى وأبْذُلُ معروفِي له دونَ مُنْكَري^(٣)
* هذا ولعروة قصصٌ جميلةٌ أوردَها الأصفهانيُّ في «أغانيه» تشيرُ إلى
همّةِ عروة وجودِهِ ، وسيرورةِ سيرته بين النَّاسِ .

* وبعد ، فهذا عروة بنُ الورد أبو الصّعاليك ، ذلك الفارسُ الذي

(١) ديوانه (ص ٢١) .

(٢) ديوانه (ص ٣٤ و ٣٥) و«قعيدك» : قَسَم ، كأنه قال : أذكرك . «عمر الله» : بقاء الله .

«رُزءُ الموالِي» : أي منالْتهم مَنِي . و«مرزأ» : أي يُنال مَنِي وَيُصابُ الخير ولا يخيب

على أحد . «الأذلة» : الواحدُ ذليل ، أي اللّثيم . والمعنى : إذا كانَ الشّتاء واشتدَّت

السّنةُ أثرتُ الأضيافُ بما عندي فطويْتُ بطني ولم تكنْ همتي الأكل فيعظمُ بطني .

(٣) ديوانه (٤٤) .

لقيتُ دعوته وسيرته أجملَ ترحيبٍ في صدورِ النَّاسِ حتى في بلاطِ الملوكِ
والأمراءِ على مرِّ الزَّمنِ .

* بقي أن نعرفَ أنَّ عروةَ ماتَ مقتولاً ، حيث قَتَلَهُ رجلٌ من بني طهيةَ
حوالي سنة (٦١٦ م) . ولكنَّ أحاديثَ عروة ظَلَّتْ ماثلة في التاريخ وبين
فرسانِ التاريخِ وأُسُخْيَاءِ الفرسانِ ، وكرمائِهِم ، لأنَّ الكرمَ يُولدُ مع المرءِ
وينمو مع مرورِ الزَّمنِ ، فهل نصقُلُ هذه الخصلةَ التي يحُبُّها اللهُ ورسوله؟!
اللهم اجعلنا من الأسُخْيَاءِ ، واحشرنا في زمرةِ الأسُخْيَاءِ الذين يريدونَ
وجهك الكريم يا كريم .

* * *

عَنْتَرَةُ بْنُ شَدَّادٍ

* هو مثلٌ أعلى في البسالة والبطولة الحربية ، وكانت
أحاديثه وأشعاره نواة الملحمة الكبرى في تاريخ
الأدب العربي.

* أحدُ أغربة العرب المشهورين في العصر الجاهلي.

* فارس مغوار ، عزيز النفس ، كريم الأخلاق.

في رحاب الشهرة:

* لعل أكثر الناس على اختلاف طبقاتهم وثقافتهم يعرفون أخبار وحكايات فارس اليوم؛ بل إن كل عشرة أشخاص يعرف تسعة منهم سيرة هذا الفارس العملاق الذي عُرف بالشجاعة والإقدام، وطار صيته في عالم الشجاعة منذ مئات السنين إلى عصرنا الحاضر.

* فقد احتفظت ذاكرة العرب على مدى تعاقب الأجيال والأزمان بشخصية من أبرز شخصياتها، وفارس من أشجع فرسانها، فكان المثل الأعلى في البسالة والبطولة الحربية، وكانت أحاديثه وأشعاره نواة الملحمة الكبرى في تاريخ الأدب العربي.

* ولا أدري ما السبب الذي جعل الناس قديماً وحديثاً يهتمون بسيرة هذا الفارس وأشعاره وحكاياته التي خلقت في سماء الشهرة إلى حد الأسطورة!!.

* ولعل من أسباب ذلك أن بطلنا اليوم قد تمثلت في فروسيته معاني الرجولة العربية الكاملة؛ تمثلت في أفعاله وأعماله، في عفته وكرمه، وفي رفته التي لا تنتهي به إلى الضعف، وصلابته التي لا تنتهي به إلى العنف، فهو رجل حياء وتكرم، تمثلت بفخره الصورة الصادقة لنفسيته الرفيعة التي تأبى القيود، وتسمو إلى العلاء والعلواء، ولا تقبل الذل والصغار، وهو بعد هذا كله فارسٌ تمثل فيه الفروسيّة الحربيّة في أقوى صورها، وأروع معانيها.

* لقد تحدّث الرواة والأخباريون عن بطولة هذا الفارس، وأكثروا من

حديثهم عن شجاعته ، فقد ذكره عبد القادر البغدادي في «خزائنه» ووصفه بأنه كان أشجع أهل زمانه وأجودهم بما ملكته يده ، وكان شهد حرب داحس والغبراء وحُمِدَتْ مشاهدته فيها^(١).

* ترى من هذا الفارس الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ، وردد الزمان كلماته ، وأبرز بطولاته ، وتغنى بسيرته الناس في الشرق والغرب؟!
* هذا الفارس هو عنترة بن شداد العبسي^(١) ، فارس الزمان ، وأسد الشجعان ، وعبري الحرب والنزال.

* سرد ابن قتيبة نسبه فقال: هو عنترة بن عمرو بن شداد بن عمرو بن قراد بن مخزوم العبسي.

* وقال ابن الكلبي: شداد جدّه أبو أبيه ، غلب على اسم أبيه ، فنُسب إليه ، وإنما هو عنترة بن عمرو بن شداد.

* وقال غيره: شداد عمّه ، وكان عنترة نشأ في حجره ، فنُسب إليه دون أبيه^(٢).

* وعنترة واحد ممن لعبت الشهرة دورها في حياتهم فأخذوا أكثر من نصيبهم ، ودارت قصصهم على الألسنة وفي المجالس والمتنديات ؛ ولعلّ الحظّ له دورٌ في هذا المجال ، أو الدعاية ، أو حتى السيرة الذاتية للمشاهير لأنّها تداعب الأحاسيس أحياناً ، وتدغدغ العواطف.

(١) الشعر والشعراء (١/ ٢٥٠ - ٢٥٤) ، وخزانة الأدب (١/ ٥٩ - ٦٢) ، وجمهرة أشعار العرب (ص ٣٤٧ - ٣٧٥) ، والاشتقاق (ص ٢٨٠) ، وشرح شواهد المغني (١/ ٤٧٩ - ٤٨٤) ، والأغاني (٨/ ٢٤٤ - ٢٥٣) طبعة بيروت ، وجمهرة أنساب العرب (ص ٢٩٠ و ٢٩١ و ٤٠٠) ، وديوان عنترة عدة طبعات ، بالإضافة إلى مصادر كثيرة جداً تختلف طولاً وقصراً في ترجمته.

(٢) الشعر والشعراء (١/ ٢٥٠).

* أمّا اسمُ عنترة فقد شَغَلَ علماء اللغة أيضاً ، ومعظمهم كَتَبَهُ ورسمه «عنترة» بإثباتِ التَّاء ، ولقد وردَ اسمُ عنترة في معلّقاته في موضعين ، ولكن بحذفِ التَّاء ، وذلك في قوله :

ولقد شَفَى نَفْسِي وأبرأ سُقَمَهَا قِيلُ الفَوَارِسِ وَيَكُ عَنَتَرُ أَقْدَمِ
يدعونَ عَنَتَرَ وَالرَّماحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بئِرٍ فِي لَبَانِ الأَدْهِمِ

* ولعلَّ الذي قُصِدَ هنا أن يكونَ الاسمُ على النِّداءِ ترخيماً ، وقد جاءَ هذا في لُغَةِ العرب ، وأوردَ الميدانيُّ في «مَجْمَعِهِ» هذا فقال : إِنَّ شِدَاداً العَبْسِيَّ قال لابنه عنترة في يوم لقاء ، ورآه يتقاعسُ عن الحربِ وقد حَمِيتْ : كَرَّ عَنَتَرُ^(١) ؛ فشَدَّادٌ قد عمَدَ هنا إلى التَّرخيمِ .

* وكان عنترة متعدّد الكُنَى والألقاب ، فمن كُنَاه : أبو المغلّس^(٢) لغاراتِهِ في الغلّس ، وأبو عَبَلَة^(٣) . ومن ألقابه : عنترة الفوارس^(٤) لَشَجَاعَتِهِ ، وعنترة الفلّحاء^(٥) لانشقاقِ شفّته السُّفلى .

* وعنترة بنُ شَدَادٍ أحدُ أغربة^(٦) العربِ المشهورين في العصرِ الجاهليّ ، وقد سُمُّوا بذلك لسوادِهِم وهم ثلاثة : عنترة ، وأُمُّه زبيبةُ سوداء ، وخُفَافُ بنُ نَدْبَةَ السُّلَميّ^(٧) ، وأُمُّه نَدْبَةُ ، وإليها يُنسَبُ .

(١) مجمع الأمثال (٢/٢٤٤) ؛ وهناك أكثر من شاعر اسمه عنترة مثل : عنترة بن الأخرس الطائي ، وعنترة بن عروس . (المؤتلف والمختلف ص ١٥١) .

(٢) المزهَر (٢/٤٢٤) ، وشرح ديوان الحماسة (١/٢١٨) .

(٣) شرح ديوان الحماسة (١/٢١٨) ، وشرح القصائد السبع الطوال (ص ٢٩٣) .

(٤) العقد الفريد (٥/١٥٣) .

(٥) شرح شواهد المغني (١/٤٨٢) ، والمخصص (٣/٤٧) ، والمزهَر (٢/٤٣٢) ، ومقاييس اللغة (٤/١٦١) .

(٦) «أغربة العرب» : سودانهم ، شَبَّهوا بالأغربة في لونهم .

(٧) خُفَافُ بنُ عُمير بنِ الحارث السُّلَميّ ، ونُدْبَةُ أُمُّه وهي أُمُّ سوداء ، وكانَ خُفَافُ =

والسُّلَيْكُ بْنُ السُّلَيْكَةِ^(١) ، وأُمُّهُ السُّلَيْكَةُ ، وإِليها يُنسَبُ وكانت سوداء أيضاً.

= أسودَ أيضاً ، وهو شاعرٌ من شعراءِ الجاهليَّةِ ، وفارسٌ من فرسانِهِمْ ، وجعلهُ ابنُ سَلامٍ في الطَّبَقَةِ الخامسةِ من الفُرسانِ مع مالِكِ بنِ نُويرَةَ اليربوعيِّ التَّميميِّ .
كان خُفاف بن ندبة فارساً شجاعاً شاعراً ومن شعرِهِ عندما قَتَلَ سَيِّدَ بني فزارَةَ مالِكِ ابنَ حمارِ فارسِ بني فزارَةَ وسَيِّدَهُمْ :

فإنَّ تَكْ خَيْلي قد أُصِيبَ صَمِيمُها فَعَمَدًا عَلَيَّ عيني تيمَمْتُ مالِكا
رَفَعْتُ لَهُ ما جَرَّ إِذْ جَرَّ موته لأبْنِي مَجْدًا أو لَأَثَارَ هالِكا
أقولُ لَهُ والرَّمْحُ يَاطُرُ مَتْنَهُ تَأْمَلُ خُفافاً إِنَّنِي أنا ذَلِكا
وأكثرُ شعرِهِ مناقضاتٌ مع العَبَّاسِ بنِ مرداسِ السُّلَميِّ ومنه :

أعبَّاسُ إمَّا كَرِهْتَ الحُرُوبَ فَقَدْ دُقْتُ مِنْ عَضِّها ما كَفَى
فلَمَّا تَرَقِيتَ فِي غِيَّها دَحَضْتَ وَزَلَّ بِكَ المُرتَقَى
وخُفافٌ مِنَ المَخْضَرِّينَ عاشَ في الجاهليَّةِ وأدركَ الإسلامَ فأسلمَ ، شَهِدَ فَتْحَ مَكَّةَ
مع رَسولِ اللَّهِ ﷺ ، وكانَ مَعَهُ لَوَاءُ بني سُلَيْمٍ ، وكانَ أَحَدَ فُرسانِ قيسَ ، وهو مِمَّنْ
شَهِدَ غَزوَ حُنَيْنٍ والطائِفَ مع رَسولِ اللَّهِ ﷺ ، ولَهُ في مَدْحِ سَيِّدنا أَبِي بَكْرٍ الصِّديقِ
- عليه سَحَاباتُ الرِّضوانِ - آيَاتٌ مِنْها قولُهُ :

إنَّ أبا بَكْرٍ هو الغِيثُ إِذا لَم يَشْمَلِ الأَرْضَ سَحَابٌ بِماءِ
أَبْلَجُ ذُو عَرَفٍ وَذُو مُنْكَرٍ مَقْسَمُ المَعْرُوفِ رَحْبُ الفَناءِ
وبَقِيَ خُفافٌ إِلى زَمانِ سَيِّدنا عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما . (نَوادرُ المَخْطُوطاتِ ١/ ١٠٤)
(والأَغاني ١٨/ ٨١ - ٩٩)

(١) السُّلَيْكُ بنُ عَمرو بنِ يَثْرِبِي ، والسُّلَيْكَةُ أُمُّهُ وهي أُمَّةٌ سوداء ، وهو أَحَدُ صَعاليكِ
العَرَبِ العَدائِيَّينَ الَّذينَ كانوا لا يُلْحَقونَ ، ولا تَعَلَّقُ بِهِمُ الخَيْلُ إِذا عَدوا ، وَهمُ :
السُّلَيْكُ ، والسَّنْفَرِيُّ ، وتَأَبَّطَ شَرًّا ، وَعَمرو بنُ بَراقٍ ، وَنَفيلُ بنُ بَراقة .
وَكانَ السُّلَيْكُ مِنْ أَشَدِّ رِجالِ العَرَبِ وَأَنكَرِهِمْ وَأَشْعَرِهِمْ ، وَكانَتِ العَرَبُ تَدْعُوهُ
سُلَيْكَ المَقانِبِ - الخَيْلُ مِنَ الثَّلاثينَ إِلى الأَربَعينَ - وَكانَ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالأَرْضِ ،
وَمَسالِكِها ، وَأَشَدَّهُمُ عَدوًّا عَلى قَدَميهِ ، لا تَعَلَّقُ بِهِ الخَيْلُ ، وَلَهُ غاراتٌ وأَخْبارٌ
مَشْهُورَةٌ وَقَصَصٌ غَرِيبَةٌ ذَكَرَها الأَصْهَانيُّ ، وَماتَ السُّلَيْكُ مَقْتُولًا في قِصَّةِ طَريفَةٍ
ذَكَرَها الأَصْهَانيُّ . (الأَغاني ٢٠/ ٣٨٩ - ٤٠٢)

ومن العجيب والطريف معاً أنَّ عنترة بن شداد أشهر الأعرية الثلاثة^(١) بالفروسيّة؛ بل إنّه من أشهر فرسان العرب المعدودين المشهورين بالنجدة ، وكان يُقال له : عنترة الفوارس ؛ ولعلّ هذا اللقب لم يلتصق به عن عبث ، وإنّما كان يستخدم عقله وذكاءه وتجربته الحربيّة في قتاله ، وفي إظهار فروسيّته ، وكان يعرف من أين تُؤكل الكتِفُ في هذا المضمار .

* قال الهيثم بن عدي : قيل لعنترة : أنت أشجع العرب وأشدّها؟

قال عنترة : لا ، هناك مَنْ هو أشجع وأفرس وأشدّ .

قيل : فبِمَ شاع لك هذا الصّيت في النَّاسِ ؟!!

قال : ذلك من فنون الفروسيّة والقتال .

قيل : كيفَ ؟

قال عنترة : كنتُ إذا شمّرت الحربُ عن ساقِها أقدمُ إذا رأيتُ الإقدامَ عزمًا ومضاءً ، وأحجمُ إذا رأيتُ الإحجامَ حزمًا ورأيًا ، ولا أدخلُ موضعاً إلّا أرى لي منه مخرجاً ومنفذاً ، وكنتُ أعتمدُ الضّعيفَ الجبانَ الرّعديد ،

(١) ورد اسم عنترة والأعرية الثلاثة في شعر جرير بن عطية الخطفيّ فقال :

كَانَ ابْنُ نَدْبَةَ فَيَكُمُ مِنْ نَجْلِنَا وَخُفَافُ الْمُتَحَمِّلِ الْأَثَقَالَا
وَإِنَّا زَبِيَّةٌ عَنَتَرٌ وَهَرَاةٌ مَا إِن نَرَى فَيَكُمُ لَهُمْ أُمَثَالَا
وَسَلِيكُ اللَّيْثِ الْهَزْبَرُ إِذَا عَدَا وَالْقَرْمُ عَبَّاسٌ عَلَوْكَ فَعَالَا
قال أبو عثمان الجاحظ : ثم ذكر أبناء الزنجيات حين نزَعُوا إلى الزنج في البسالة والأثَقَة ، فذكر خُفَافَ بن ندبة ، وعبّاسَ بن مرداس ، وابني شداد : عنترة الفوارس وأخاه هراسَة ، وسليكَ بن السُّلَكَة ، فهؤلاء أشدُّ الرّجال ، وأشدُّهم قلوباً ، وأشجعُهم بأساً ، وبهم يضربُ المثل .
(رسائل الجاحظ ١/ ١٩٢)

فأضرَبهُ الضَّرْبَةَ الهائلة يطيرُ لها قلبُ الشَّجاع ، ثمَّ أثْنِي عليه فأقتله ، فهذا سببُ شَجَاعَتِي^(١) .

عَنْتَرَةُ الْفَارِسِ الْبَطْلُ :

* حَدَّثَ عَمْرُ بْنُ شَبَّةٍ قَالَ : قَالَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لِلْحُطَيْيَةِ الشَّاعِرِ : كَيْفَ كُنْتُمْ فِي حَرْبِكُمْ ؟

قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كُنَّا أَلْفَ فَارِسٍ حَازِمٍ .

قَالَ عَمْرُ : وَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ يَا جَزُولَ - اسْمُ الْحُطَيْيَةِ - ؟ !

قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ كَانَ قَيْسُ بْنُ زُهَيْرٍ بَيْنَنَا وَكَانَ حَازِمًا ، فَكُنَّا لَا نَعْصِيهِ ، وَكَانَ فَارِسُنَا عَنْتَرَةُ بْنُ شَدَادٍ فَكُنَّا نَحْمِلُ إِذَا حَمَلَ ، وَنَحْجُمُ إِذَا أَحْجَمَ . وَكَانَ بَيْنَنَا الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ وَكَانَ ذَا رَأْيٍ فَكُنَّا نَسْتَشِيرُهُ وَلَا نَخَالِفُهُ ، وَكَانَ بَيْنَنَا عُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ فَكُنَّا نَأْتُمُّ بِشَعْرِهِ ، فَكُنَّا كَمَا وَصَفْتُ لَكَ .

فَقَالَ عَمْرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : صَدَقْتَ يَا هَذَا^(١) .

* وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ حَيَاةَ عَنْتَرَةَ بْنِ شَدَادٍ مَثِيرَةٌ وَجَمِيلَةٌ ، وَلَعَلَّ بَعْضَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي صَاحَبَتْ حَيَاتِهِ جَعَلَتْهُ فِي هَذِهِ الْمَكَانَةِ الشَّهِيرَةِ الْمَثِيرَةِ .

* وَكَانَتْ نَشَأَتُهُ فِي نَجْدٍ مِنْ أَكْبَرِ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَتْهُ فَارِسًا شَهِيرًا مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ ، وَبَطْلًا شَجَاعًا مَقْدَامًا لَا يَهَابُ الْمَوْتَ .

* كَانَ عَنْتَرَةُ بَادِيَّ ذِي بَدْيٍ عَبْدًا يَرَعَى الْإِبِلَ مُحْتَقِرًا فِي أَعْيُنِ الْأَقَارِبِ وَالْأَبَاعِدِ ، وَلَعَلَّهُ قَدْ عَاشَ زَمَنًا طَوِيلًا عَبْدًا مَغْمُورًا مِثْلَ غَيْرِهِ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ وَالْخَدَمِ الَّذِينَ يَجِئُونَ وَيُرُوحُونَ وَيَمُوتُونَ وَلَا يَدْرِي بِهِمْ أَحَدٌ ، وَالَّذِينَ مَرُّوا فِي حَيَاةِ الْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ لَا يَحْسَنُونَ مِنْ حَيَاتِهِمْ إِلَّا

(١) الْأَغَانِي (٢٥١/٨) بِتَصْرِفٍ ، وَانْظُرْ : شعراء النَّصْرَانِيَّة (ص ٧٩٨) .

الخدمةَ وإلاَّ العملَ وحلبَ النِّياقِ والإبلِ ، يمضون أيامهم مع الأنعامِ في مراعيها.

* ويظهرُ أنَّ عنترةَ كانتَ حياتُهُ في بدايتها هكذا ، حيثَ كانَ في معزلٍ عن الشُّهرةِ بينَ النَّاسِ وحسنِ الصَّيتِ ، يُضافُ إلى ذلكَ كلُّهُ أنَّ أباهُ لم يعترفَ به ولم يلحقه في نسبه إلا متأخراً وبعد كِبَره .

* بيدَ أنَّ نشأةَ الباديةِ أكسبتهُ الفروسيةَ والبطولةَ ، ومنحتهُ الجسمَ القويَّ ، وجعلتهُ بطلَ الأسطورةِ وأسطورةَ الأبطال^(١).

* وكانَ عنترةُ ابناً لأبٍ عربيٍّ صميمٍ ، وأُمُّهُ سوداءُ من الإماءِ اللواتي كانَ يتسرَّيُ بهنَّ أبوهُ ، ولم يحفظِ التَّاريخُ اسمَها ويشهرها لولا شهرةُ ابنها عنترة .

* يروي السُّيوطيُّ نقلاً عن شارحِ المعلِّقاتِ أنَّ عنترةَ كانتَ أُمُّهُ حبشيةً تدعى زبيبةً ، فوقعَ عليها أبوهُ ، فأنتَ بهِ ، فقال لأولادهِ : إنَّ هذا الغُلامَ ولَدِي .

قالوا : كذبتَ أنتَ شيخٌ قد خرفتَ ، تدعى أولادَ النَّاسِ .

* فلما شبَّ قالوا له : اذهبْ فارعَ الإبلَ والغنمَ ، واحلبْ وصرَّ .

* فانطلقَ يرعى ، وباعَ منها ذوداً ، واشترى بثمانِ سيفاً ورُمحاً وتُرساً ودِرْعاً ومِغْفَراً ، ودفنَها في الرَّمَلِ .

* وكانَ له مهرٌ يسقيهُ ألبانَ الإبلِ ، وكانَ في الجاهليَّةِ أنَّه مَنْ غلبَ سباً ؛

(١) أما سيرةُ عنترةَ التي تكوَّنتْ وتبلَّورتْ حولَ حياتِهِ ، ففيها تمجيدٌ مثاليٌّ للصُّورةِ التَّاريخيةِ لشخصيَّتهِ ، على نحو طمسٍ كثيرٍ من ملامحها الحقيقيَّةِ ، فلم تبقَ فيها من الحقائقِ التَّاريخيةِ المؤكَّدةِ إلا نقاطٌ يسيرة . وزادتْ الأفلامُ السِّينمائيةُ الطَّينَ بلَّةَ فسوّتهُ ما تبقى من حقائقٍ في قوالبٍ تمثيليةِ مثيرة .

وَأَنَّ عَنْتَرَةَ قَدْ جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى الْمَاءِ ، فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا مِنَ الْحَيِّ ، فَبُهِتَ وَتَحَيَّرَ حَتَّى هَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ : أَدْرِكِ الْحَيَّ فِي مَوْضِعِ كَذَا ، فَعَمَدَ إِلَى سِلَاحِهِ فَأَخْرَجَهُ ، وَإِلَى مُهْرِهِ فَأَسْرَجَهُ ، وَاتَّبَعَ الْقَوْمَ الَّذِينَ سَبَوْا أَهْلَهُ ، فَكَرَّرَ عَلَيْهِمْ ، فَفَرَّقَ جَمْعَهُمْ ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ ثَمَانِيَةَ نَفَرٍ ، فَقَالُوا لَهُ : مَا تُرِيدُ؟
فَقَالَ : أُرِيدُ الْعَجُوزَ السَّودَاءَ وَالشَّيْخَ الَّذِي مَعَهَا - يَعْنِي أُمَّهُ وَأَبَاهُ - فَرَدُّوهُمَا عَلَيْهِ .

فَقَالَ لَهُ عَمُّهُ : يَا بَنِي كُرَّ .

فَقَالَ : الْعَبْدُ لَا يَكُرُّ ، لَكِنْ يَحْلِبُ وَيَصْرُ .

فَاعَادَ عَلَيْهِ الْقَوْلَ ثَلَاثًا ، وَهُوَ يَجِيبُهُ كَذَلِكَ .

فَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ ابْنُ أَخِي ، وَقَدْ زَوَّجْتُكَ ابْنَتِي عَبْلَةَ .

* فَكَرَّرَ عَلَيْهِمْ ، فَصَرَخَ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ ، فَقَالُوا لَهُ : مَا تُرِيدُ؟ قَالَ : الشَّيْخُ وَالْجَارِيَةُ - يَعْنِي عَمَّةً وَابْنَتَهُ - فَرَدُّوهُمَا عَلَيْهِ .

* ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : إِنَّهُ لَقَبِيحٌ أَنْ أَرْجِعَ عَنْكُمْ وَجِيرَانِي فِي أَيْدِيكُمْ ؛ فَأَبَوْا فَكَرَّرَ عَلَيْهِمْ حَتَّى صَرَخَ مِنْهُمْ أَرْبَعِينَ رَجُلًا قَتَلُوا وَجَرَحُوا ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ جِيرَانَهُ ، وَلِذَا أُنْشِدَ عَنْتَرَةَ :

لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ يَتَذَامَرُونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمِّمٍ
يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالرَّمَاخَ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بَثْرٍ فِي لَبَانِ الْأَدْهَمِ
وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سُقْمَهَا قِيلُ الْفَوَارِسِ وَيَكُ عَنْتَرَ أَقْدَمُ^(١)

* وَالْحَقِيقَةُ : فَعَنْتَرَةُ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ شَاعِرُ الْفَرَسَانِ ، وَفَارَسُ الشُّعْرَاءِ ، وَلَيْثُ الْمِيدَانِ ، وَقَدْ تَجَمَّعَتْ فِي شَخْصِيَّتِهِ كُلُّ صِفَاتِ الْبَطْلِ

(١) انظر: شرح شواهد المغني (١/ ٤٨١ و ٤٨٢).

الفارسِ الشَّهْمَ الْغَيُورَ^(١) الذي كانوا يعدُّونه ذخيـرةً لوقتِ الخطرِ ، وأهلاً
للاعتـمادِ عليه في القتـالِ ، فهو الشُّجاعُ القويُّ الصَّـنيدُ ، صاحبُ العقـلِ في
الحربِ ، والقوةُ في الشَّرَفِ والكرامة^(٢) .

✽ أمّا ابنُ قُتَيْبَةَ فيروي قصّةً أخرى عن سببِ ادّعاء والدِ عنترة لابنهِ فقال
ما نصُّه: وإنّما ادّعاها أبوه بعد الكبرِ ، وذلك لأنّ أمّه سوداء يُقال لها:
زَبِيبةٌ ؛ وكانتِ العربُ في الجاهليّةِ إذا كانَ للرَّجُلِ منهم ولدٌ من أمةٍ
استعبده ، وكان لعنترة إخوةٌ من أمّه عبيد ، وكان سببُ ادّعاء أبي عنترة إيّاه
أنّ بعضَ أحياءِ العربِ أغاروا على قومٍ من بني عبس ، فأصابوا منهم ،
فتبعهم العبسيّون ، فلحقوهم فقاتلوهم عما معهم ، وعنترةُ فيهم ، فقال له
أبوه: كُـرِّ يا عنترة!

فقال عنترة: العبدُ لا يحسنُ الكَرَّ ، إنّما يحسنُ الحلابَ والصَّرَّ.

فقال: كُـرِّ وأنتَ حرٌّ ، فكُـرِّ وهو يقول:

كُلُّ امرئٍ يحمي حِرَّهُ أَسْـودَةً وأَحْمَـرَةً
وَالْوَارِدَاتِ مَشْفَرَهُ

وقاتَلَ يومئذٍ فأبلى ، واستنقذَ ما كان بأيدي عدوّهم من الغنيمَةِ ،
فادّعاها أبوه بعد ذلك ، وألحقَ به نسبهُ^(٣) .

(١) من هذا المنطلقِ كانتِ المرأةُ عَصْرَ ذاكِ باعناً قوياً من بواعثِ الفروسيّةِ ، ومُنطلقاً
واسِعاً من منطلقاتِها الرَّخْبَةِ ، ومجالاً فسيحاً يُظهِرُ فيه الفرسانُ بطولاتِهم النّادرة كما
صنَعَ عنترةُ هنا من أجلِ خلاصِ عبلَةٍ من السَّبيِّ والأسْرِ ، وقاسى كثيراً من الهوانِ
بسببِها كما تدلُّ أخبارُهُ على ذلك .

(٢) عُرِفَ عنترةٌ منذَ زمنٍ مبكّرٍ بوصفِهِ بطلاً جاهليّاً ، ويشعرُهُ في الغَزْلِ ، وما تزالُ
ذكرى عنترةَ باقيةً في الشَّرقِ - خاصةً - إلى اليومِ تتناقلها الأجيالُ للأجيالِ .

(٣) الشعر والشعراء (١/ ٢٥٠ و ٢٥١) .

* ولعلّه مما أسلفنا نجد أنّ عنترة قد بدأت شهرته تحلّق في سماء المشاهير منذ أن اعترف به أبوه وألحقه بنسبه ، وذلك بعد أن بلغ أبوه من الكبر عتياً ، وبعد أن أبلى عنترة في الحرب ذلك البلاء الحسن المحمود ، ولا يعظم هذا البلاء - على الأغلب - إلا بعد أن تتكرّر من الإنسان البطولة والشجاعة ، ويحقّق النّصر والغنيمة .

* وهكذا غدا عنترة علماً مشرقاً ولواء خافقاً ، ورجلاً فذاً ، وفارساً معلماً في تاريخنا العربي والأدبي ، وغدت سيرته تذاً في كلّ النوادي ، وبين مختلف الناس على اختلاف طبقاتهم وألوانهم وأشكالهم وثقافتهم .
فُرُوسِيَّتُهُ وَشَمَائِلُهُ :

* اهتمّ عنترة بن شداد في أحاديثه وفي أشعاره بالحديث عن طيب محبته وعنصره ، لأنّ البطل الحقيقي - في رأي العرب القدماء - مَنْ كَانَ نَبِيلَ النَّسَبِ مِنْ آبَاءِ كَرَمَاءَ ، وَمَنْ أَصْلٍ عَرَبِيٍّ عَرِيقٍ ، لَمْ يَخْتَلِطْ نَسَبُهُ ، وَلِذَلِكَ اتَّفَقُوا أَلَّا يَلْحَقُوا أَوْلَادَ الْإِمَاءِ بِنَسَبِهِمْ ، وَيُرْوَى تَارِيخُ عَنْتَرَةَ أَنَّهُ لَوْلَا بَطُولُهُ وَشَهَامَتُهُ لَمَا اسْتَلْحَقَهُ أَبُوهُ بِنَسَبِهِ .

* فمن المعروف بالاتفاق أنّ أمّ عنترة أمة حبشية اسمها زبيبة^(١) ، أولدها شداد عنترة ، وقد تحدّث عنترة نفسه في شعره عن أمّه زبيبة ، وذكر بأنّها سوداء من آل حام فقال من قصيدة طويلة تعدّ (٤٣ بيتاً) منها :

إِنِّي لَتُعْرِفُ فِي الْحُرُوبِ مَوَاتِنِي فِي آلِ عَبَسٍ مُشْهَدِي وَفَعَالِي
مِنْهُمْ أَبِي حَقّاً فَهَمْ لِي وَالِدٌ وَالْأُمُّ مِنْ حَامٍ فَهَمْ أَخْوَالِي
وَأَنَا الْمَنِيَّةُ حِينَ تَشْتَجِرُ الْقَنَا وَالطَّعْنُ مِنِّي سَابِقُ الْآجَالِ

(١) الشعر والشعراء (٢٥٠/١) ، والمقاصد النحوية (٤٧٨/٢) ، وخزانة الأدب (١٣٩/١) وغيرها .

مَنْ مِثْلُ قَوْمِي حِينَ تَخْتَلِفُ الْقَنَا
 الْمُطْعِمُونَ وَمَا عَلَيْهِمْ نِعْمَةٌ
 إِنَّا إِذَا حَمَسَ الْوَعْيُ نُرْوِي الْقَنَا
 مِنْ كُلِّ أَرْوَعٍ لِلْكُمَاةِ مَنَازِلُ
 وَإِذَا الْأُمُورُ تَحَوَّلَتْ أَلْفَيْتُهُمْ
 وَهُمْ الْحِمَاةُ إِذَا النَّسَاءُ تَحَسَّرَتْ
 يُقْصُونَ ذَا الْأَنْفِ الْحَمِيِّ وَفِيهِمْ
 وَإِذَا تَزُولُ مَقَادِمُ الْأَبْطَالِ
 وَالْأَكْرُمُونَ أَبَاءً وَمَخْتَدَ خَالِ
 وَنَعَفْتُ عِنْدَ مَقَاسِمِ الْأَنْفَالِ
 نَاجٍ مِنَ الْغَمَرَاتِ كَالرَّثْبَالِ
 عَصَمَ الْهَوَالِكِ سَاعَةَ الزَّلْزَالِ
 يَوْمَ الْحِفَاطِ وَكَانَ يَوْمَ نَزَالِ
 حُلْمٌ وَلَيْسَ حَرَامُهُمْ بِحَلَالِ^(١)

* وذكر ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» أنَّ عنترة: يفخر بأخواله من
 السودان.

* وقد ورد أنَّ عدم إلحاق عنترة بقومه في النسب كان له أثرٌ كبيرٌ في
 نفسه ، حيث جعله يفخرُ بشعره في بطولته مؤكداً أنَّ أفعاله الكريمة ، وأنَّ
 شجاعته وبأسه خيرٌ ممَّا فاتته من النسب العريق من جهة أمه ، فهو وإن كان
 ابن أمة حبشية ، إلَّا أنَّ له فعلاً مشرقاً تشرفه وتعوض ما فاتته ، وفي هذا
 يقول من قصيدة طويلة تبلغ (٢٢ بيتاً) :

إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبْسٍ مُنْصَبًا
 وَإِذَا الْكَتِيبَةُ أَحْجَمَتْ وَتَلَاخَظَتْ
 وَالْخَيْلُ تَعْلَمُ وَالْفَوَارِسُ أَنَّي
 وَإِذَا حَمَلْتُ عَلَى الْكَرْيَةِ لَمْ أَقْلُ
 شَطْرِي وَأَحْمِي سَائِرِي بِالْمُنْصَلِ
 أَلْفَيْتُ خَيْرًا مِنْ مَعَمٍّ مَخُولِ
 فَرَّقْتُ جَمْعَهُمْ بِطَعْنَةٍ فَيَصَلِ
 بَعْدَ الْكَرْيَةِ لِيَتْنِي لَمْ أَفْعَلْ^(٢)

(١) ديوانه (ص ٣٣٦ - ٣٣٨) بتصرف وانتقاء ، وأورد ابن قتيبة بيتين من هذه القصيدة
 في كتابه الشعر والشعراء .

(٢) انظر القصيدة كاملة في ديوانه (ص ٢٤٦ - ٢٥٢) ، والشعر والشعراء (١/ ٢٥٣ و
 ٢٥٤) ، وشرح ابن قتيبة البيتين الأولين فقال: النصف من نسبي في خير بني
 عيس ، وأحمي النصف الآخر وهو نسبته في السودان ، فأشرفه أيضاً ، وانظر
 الحماسة البصرية (١/ ٦٢ و ٦٣) .

* إذاً ، كان شرف الأصل من أهم خصائص الشخص الكامل البطل الصنديد ، وقد حظي عنترة بشطر هذا الشرف . أمّا من كان خسيس الأصل أو هجيناً ، فلا يصل إلى مرتبة الكمال في الفروسيّة ، ولا يُعتبر على أيّ حالٍ مثل الأصل . فذو النسب العريق هو المحترم المبجل ، وهو أهل لأن يُخاصم ويقارع ويُقتص منه ، ولولا أن كان عنترة من أشداء الفرسان وشجعانهم لما وصل إلى ما وصل إليه من مكانة في ميدان الفرسان وعالم الفروسيّة .

* ويُضاف إلى ذلك كُله أن عنترة كان فارساً مغواراً جريئاً ، عزيز النفس ، أصيداً ، أيباً ، لا يرضى خطّة خسفٍ ، ولا يخضع للظلم ، فالحرية مبدؤه ، والموت خيرٌ له من حياة الدلّ والقهر^(١) .

* وعنترة دائماً هو الغالب لا المغلوب ، والظالم لا المظلوم ، وهو طموحٌ ، كبيرٌ لا صغيرٌ ، لا يقرّ لهوانٍ ، ولا يتحمّل إساءة غيره ، حازمٌ في أمره ، لا يتردّد ، وإذا صمّم على شيء نفّذه دون أن يرده أيّ عائق ، ودون أن يلتفت إلى نسب أمّه ، فهو من خير عبسٍ وإن كانت أمّه من آل حام^(٢) .

* وعنترة هو الفارس الكبير ، ذو الشأن الخطير ، وقد كان للفرسان

(١) شعراء النصرانية (ص ٨٦٢) .

(٢) يؤكد عنترة في أكثر من موضع بأنّ أمّه سوداء من آل حام ، ولكنّه يذكر أصله العبسيّ ويؤكد على شجاعته في قصيدة ميمية منها يصف تقدّمه وإقدامه :

| | |
|--------------------------------------|---------------------------------------|
| يُقَدِّمُهُ فَتَى مِنْ خَيْرِ عَبْسٍ | أَبُوهُ وَأُمُّهُ مِنْ آلِ حَامٍ |
| عَجُوزٌ مِنْ بَنِي حَامِ بْنِ نُوحٍ | كَأَنَّ جَبِينَهَا حَجَرُ الْمَقَامِ |
| وَقَرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ لَدَى مَكْرٍ | صَرِيحاً بَيْنَ أَصْدَاءِ وَهَامٍ |
| تَبِيتُ نَسَاؤُهُ عَجَلاً عَلَيْهِ | يُرَاوِخُنَ التَّفْجُوعَ بِالْإِدَامِ |

(ديوانه ص ٢٤٥) بتصرف

عند العرب في عَصْرِ الجاهليّة المقامُ الأكبرُ والمكانةُ الأولى بين العشائر والقبائل ، لأنّهم عنوانُ الشّجاعة ، وملاذُ القبيلة ، وحماتها عند احتدام المعارك ، وكانتِ الفُروسيّةُ حديثَ النَّاسِ وأقاصيصهم ، وكانت كذلك حافِزاً قوياً للاقتداء ، وشحذَ الهِمَمَ ، والسَّيرَ في الطَّرِيقِ الذي رسمه الفارسُ لنفسه ، وقد ظلت أحاديثُ الفُرسان حيّةً في نفوس الأجيال عقب الأجيال ، يستلهمون منها القوّة ويستمدون العون .

* ومنَ الجدير بالذكرِ أنّ الحياةَ الجاهليّةَ نفسها كانت تفرضُ على أبنائها أدبَ الفُروسيّة ، وتعلّمهم تمجيدَ البطولة ، وذكرَ حوادثِ الأيام والحروبِ والانتصارات ، لأنّ ذلك كلّه نابغٌ من أعماقِ العربيّ الذي عاش حياةَ القتالِ والنّزالِ .

فالبيئةُ التي ينشأُ فيها الفارسُ الجاهليُّ ، هي التي تجعلُ عودَه صلباً ، وتجعله يألفُ المخاطرَ ، ويهوى المغامراتِ ، ويفتحُ عينيه على مبادئِ الفُروسيّة والشّهامة والنّجدة ؛ وهي التي تجعلُ الفارسَ يتعوّدُ على استقبالِ الموتِ بنفسِ الرّوح التي يستقبلُ بها الحياة .

* إنّ الفارسَ في هاتيكِ البيئة ، هو ذلك البطلُ الذي تتجسّدُ فيه آمالُ النَّاسِ ورغباتهم ، فيظلُّ صامداً يحقّقُ مطامحَ مجتمعه فيه ؛ لأنّ الفارسَ النَّابغَ النَّابه مكانةٌ لا تُطاوَلُ ، وأثراً لا يُبارى ، وكلمةٌ لا تُردُّ ، وإذا خلا مكانه وافْتُقدَ ، زادَ ذكره ، وعلا صيته ، وارتفعت سمعته ، وتضخّمت أخبارُه ، وحِيكَت حوْلَه الأساطيرُ ، ونشأت القصصُ والحكاياتُ ، فيصبحُ أقربُ إلى الأسطورةِ منه إلى الحقيقة^(١) .

* لقد حبا الله هؤلاء الفُرسان اقتداراً على القيام بأعمالٍ كبارٍ لا يقوى

(١) انظر : سيرة في الشعر العربي (ص ١٢٥) بتصرف .

عليها غيرهم ، فكان ذلك مبعث احترامهم ، لأنَّ المرءَ في أعماقه يحسُّ بتقدير وإجلالٍ لِمَنْ هو أرفعُ منه ، فإذا ظهرَ الفارسُ البطلُ ، وتوضَّحتْ معالمُه وشخصيَّتهُ ، وعرفَ الناسُ مآثره ، انبجستْ في قلوبهم مظاهرُ الاحترامِ له ، فالفروسيَّةُ والبطولةُ مِنَ الصُّورِ الخالدةِ التي تحتفي بها الأُمَّةُ العربيَّةُ ، وتفخرُ بأبطالِها وفرسانِها .

* لذا فإنَّنا نجدُ بعضَ الأقاصيصِ من عصورِ الفُرسانِ ، مليئةً بروائعِ الأوصافِ ، وبدائعِ الصُّورِ ، كما نجدُها مجالاً رحباً لِمَتَمَتَّعِ الأُخيلةُ ، وميداناً للمواقفِ والوقائعِ ، كما حدثَ تماماً في سيرةِ عنترَةَ بنِ شدادِ العبسيِّ ، فقد كانت صورةُ عنترَةَ هي صورةُ البطلِ التي تتمثَّلُ للفردِ الجاهليِّ بشكلها الكاملِ ، ومثلها الرِّفِعةُ ، وصفاتها النِّبيلةُ ، التي تعارفَ عليها النَّاسُ ، من حمايةٍ للجارِ ، وكرمٍ ، وشجاعةٍ ، وصبرٍ على المكارِه .

* وقد كانَ عنترَةُ شجاعاً ، بيدَ أنَّه مقتصدٌ في شجاعتهِ ، مفكِّرٌ في طريقةِ استعمالِها ، يقدِّمُ إذا رأى الإقدامَ عزمًا ، ويحجمُ إذا رأى الإحجامَ حزمًا ، لذلكَ كانتَ له فِرَاسَةٌ تصيبُ ولا تكادُ تخطيءُ في هذا المجالِ ، وكأنَّه أدركَ بخبرتهِ الحربيَّةِ نفسيَّاتِ الرِّجالِ ، وعرفَ كيفَ يتوغَّلُ في أعماقِها وأغوارِها ، فاحتفظتْ ذاكرةُ العَرَبِ على مدىِ الأجيالِ بهذه الشَّخصيَّةِ المحببةِ لديهم ، وبهذا الفارسِ الأثيرِ عندهم ، فكان المِثالُ الجميلُ في البطولةِ الحربيَّةِ والبَسالةِ وكمالِ الفروسيَّةِ ، وكانت حكاياتُ فروسيَّتهِ من روحِ الملاحمِ في أدبنا العربي .

* إنَّ الذي يتصفَّحُ سيرةَ عنترَةَ بنِ شدادِ ، ويقرأ أشعاره ، يجدُ أنَّه وقورٌ متَّزِنٌ ، لا تثيرُهُ أعظمُ الأشياءِ ، ولا تخرجهُ شدَّةُ الأمورِ عن طوره ، فليسَ هو أهوجَ هذراً ، ولا مرحاً طائشاً ، ولكنَّ وجهَهُ باشٌ ، وأساريُّه مستبشرةٌ ، صريحٌ في أعمالِه ، يكرهُ النَّفاقَ ، عفيفٌ ، لا يحبُّ المراءاةَ ،

صديقٌ مخلصٌ لمن أخلصَ له ، خَصِمٌ ألدُّ لمن حاربَه ، فهو على استعدادٍ تامٍّ لأيِّ مَلَمَةٍ ، فثيابه مشمّرة ، وليس أعزل السلاح ، بل يحافظُ على سلاحه ويعتزُّ بها ، فهو ماله و ثروته ، وهو صديقه في حِلِّه وترحالِه .

* ومن خلائقِ عنترَةَ الشّجاعة ، فهي العمادُ الذي تقومُ عليه شخصيَّته ، لذلك كانت لا تروعه الأهوالُ ، فهو يتمكّنُ من السيّطرةِ على زمامِ الحروبِ ، ويُضافُ إلى ذلك أنّه راعي الحمى ، وحامي الضّعيف ، بأسه شديدٌ إذا ما احمرتِ الحُدق ، وقوّته معروفةٌ إذا ما علّت صيحاتُ الأبطالِ ، يهرعُ إلى منازلِ الفرسانِ الأشداءِ المشهورين ، لذا فقد اشتهرت قوّته حتى خافَ جميعُ النَّاسِ ، لأنّه كان ليثَ الميادين ، والسيّوفُ تلمعُ من حولِه فيودُّ تقبيلَها لا القتالَ بها ، لأنّها تشبهُ ثَعَرَ حبيبتِه المبتسم ، ولاستهانتَه بمن أمامَه من الفرسانِ .

* ومن شمائلِ عنترَةَ المحبّةِ إلى النَّفسِ عَفّةُ السّامية ، وخلقه الكريم ، اسمع إليه يقولُ :

وأغضُّ طرفي إنْ بدتْ لي جارتي حتّى يُواري جَارَتِي مأوَاهَا

ويقولُ في العفّةِ وكرمِ الأخلاقِ ونبيلِها والحفاظِ على الجوار :

أَغْشَى فِتَاةَ الْحَيِّ عِنْدَ حَلِيلِهَا وَإِذَا غَزَا فِي الْحَرْبِ لَا أَغْشَاهَا

* إنّ عنترَةَ في عصرِ الجاهليّةِ يعفُّ عن النّظرِ إلى جارَاتِه ، بل لا يزورُ فتاةَ الحيِّ إذا كان بعْلِها غائباً أو غازياً ، تُرى هل يعفُّ النَّاسُ عن جارَاتِهِمْ كما كان عنترَةُ عفيفاً؟!

* إنّ الفروسيّةَ الحقّةَ التي كانَ عليها عنترَةُ تدعوهُ إلى مكارمِ الأخلاقِ ، ولعلَّ أخلاقه هذه قد ساهمتْ في شهرتهِ .

* لقد كانَ عنترَةُ إذاً فارساً نبيلاً ، تمرّسَ بالوإنِ القتالِ ، وفنونِ

النَّزَالِ ، وقد أَوْرَثَهُ هذا التَّمْرُسَ خبرةً استَخدمَهَا في حُرُوبِهِ مع أعدائِهِ ، وأكسبَتْهُ شهرةً عَظِيمَةً ، وجعلتْ مِنْهُ فارساً مرموقاً ، تُضْرَبُ بِشَجَاعَتِهِ الأمثال .

* ولعلَّ حُرُوبَ داحس والغبراء هي التي أخذتْ بيدَ عنترة إلى مسارح الشُّهرة ، فقد كانت تلُكُمُ الحُرُوبُ الميدانَ الرَّحْبَ الذي ظهرتْ فيه فروسيَّتُهُ وشجاعته وأخباره ، فقد كان من فرسانِ القَبِيلَةِ العَبْسيَّةِ المعدودين ، الذين يدافعونَ عن وُجودِهِم وعن قَبيلَتِهِم .

* ففي معركةِ يومِ الفُروقِ ، دارتِ رحىُ الحربِ بينَ عبسٍ وتميمٍ ، وأقدمَ عنترةُ في هذه المعركةِ وخاضَ غمارَها وشرى وباع ، وبذلَ الجُهدَ والطَّاقةَ ، وقتلَ معاويةَ بنَ نزال ، وافتخرَ بِقَوْمِهِ ، ونصرَهم على بني تميم في تلك المعركةِ ، وبَيَّنَ أسبابَ الظَّفَرِ ، فقالَ حينَ سُئِلَ : كم كانَ قومه يومَ الفُروقِ ؟ ! ويجيبُ عنترةُ إجابةَ العالمِ الخبيرِ والفارسِ الخطيرِ : كُنَّا مئةً لمْ نَكْثُرْ فنَتَكَلَّ ، ولمْ نَقْلَ فَنَذَلْ^(١) .

* وفي معركةِ ذاتِ الجَراجِرِ ظهرتْ بطولَةُ عنترةَ ، وأصبحَ حديثُ القَبِيلَةِ بما أبداهُ من بطولاتٍ ضدَّ ذبيان .

* ولما أغارتْ طيءٌ على بني عبس ، والنَّاسُ خلوفاً ، وعنترةُ في ناحيةٍ من إبلِهِ على فرسٍ له ، وأُخْبِرَ بالخبرِ ، لمْ يتأخَّرْ عن التَّجْدَةِ ، ولمْ يتقاعسْ عن المعركةِ ، بل كَرَّ وَحْدَهُ ، واستنفَذَ الغنيمَةَ من أيديهم ، وأصابَ رهطاً ثلاثةً أو أربعةً ، وأنشدَ بذلك قصيدَتَهُ التي أولها :

ظَعَنَ الَّذِينَ فِرَاقَهُمُ أَتَوَقَّعُ وَجَرَى بَيْنَهُمُ الْغَرَابُ الْأَبْقَعُ^(٢)

(١) انظر : العقد الفريد (١/١٠٤) وفي رواية : فننكُل .

(٢) انظر : ديوان عنترة (ص ٢٦٢) .

والأخبارُ عن فروسيّةِ عنترَةَ كثيرةٌ ، وهذه الفروسيّةُ لم تكن عبثاً عنده ، وإنّما هي نتيجةُ الخبرةِ الطويلةِ التي اكتسبها في القتالِ والنّزالِ ، والتي أكسبته الشهرةُ ، وأعلتْ ذِكره ، فالنّصرُ والفوزُ في ساحاتِ القتالِ يجبُ أنْ يقتَرُنَ بالسّلامةِ ، والشّجاعةِ ، ويجبُ أنْ تكونَ عزيمةُ وقوةُ ، وأنْ تكونَ تفكيراً وأنْ تكونَ تقديرًا ، وهكذا كان عنترَةُ في فروسيّتهِ ، فالرجلُ العاقلُ هو الذي يحسُنُ الخروجَ مما يدخلُ فيه ، ثمَّ إنّ للحربِ التّفسيّةَ عندَ عنترَةَ أثرها ، فتحطيمُ معنوياتِ مَنْ أمامه أقوى من تحطيمِ القوَى ، وهذا ما يصنّعه عنترَةُ ، فهو يحطّمُ ويثبّطُ معنوياتِ الفرسانِ الشّجعانِ بما يصنّعه بالضّعفاءِ الجُبّناءِ ، وإذ ذاك يستولي عليهم الجزعُ ، ويسهلُ القضاةُ عليهم .

* وتذكرُ كتبُ الأدبِ والأخبارِ والأسمارِ أنّ عنترَةَ قد بلغَ شهرةً عاليةً في الفروسيّةِ جعلتْ أكابرَ الفرسانِ ، ومشاهيرَ الشّجعانِ تهابُهُ ، وتحسبُ له ألفَ حسابٍ ، وتخافُ منه على نفوسِها ، وهل أدلّ على ما نقولُ ممّا صرّحَ به الشّاعرُ الفارسُ الشّجاعُ عمرو بنُ معدي كرب^(١) - رضي الله عنه - عندما قال: ما أبالي مَنْ لقيتُ من فرسانِ العربِ ما لم يلقني حُرّاها وهجيناها؛ يعني بالحرّين: عامر بن الطّفيل وعُتيبة بن الحارث بن شهاب ، وبالعبدِين: عنترَةُ والسّليك بن السّلكة^(٢) .

* إنّ فروسيّةَ عنترَةَ كثيرةُ الجوانِبِ ، متعدّدةُ المظاهرِ ، فهو لا يضعُ فروسيّتهِ دائماً وشجاعتهِ في خدمةِ قبيلتهِ ، بل إنّهُ يجعلُها أحياناً في خدمةِ غيرها ، وذلك إذا ما اضطرّهُ الطُّروفُ ، فقد حدثَ أنْ حصلَ خلافٌ بين

(١) اقرأ سيرة الفارس الشجاع عمرو بن معدي كرب في هذه الموسوعة اللطيفة ، فسيرته إمتاع للأسماع .

(٢) الأغاني (٨/٢٥٣) ، وخزانة الأدب (١/٤٧٣) طبعة بولاق ، ولباب الآداب (ص ١٨١) .

عنترة وقبيلته من أجل إبل أخذها من حليف لهم ، وأبى أن يردّها عليه ، فرحل عن قبيلته وجاور بني جديلة ، وحين حصلت معركة بين جديلة وبين ثعل ، شارك عنترة وقاتل مع حلفائه ، فرجحت كفّة جديلة ، واحتجّ بنو ثعل على صنيع عنترة لدى غطفان .

* فعنترة هنا يستخدم فروسيّته في خدمة من جاورهم ، وعرض نفسه للأخطار ، ضارباً بذلك أجمل المثل في الوفاء والإخلاص^(١) .

* وكان عنترة في كثير من الأخبار التي وصلت إلينا حامي بني عبس وحامل لواءهم ، فقد روى أبو عمرو الشيباني هذا فقال: غزت بنو عبس بني تميم ، وعليهم قيس بن زهير - بن جذيمة العبسي - فانهزمت بنو عبس ، وطلبتهم بنو تميم ، فوقف لهم عنترة ، ولحققتهم بكبّة - جماعة - من الخيل ، فحامي عنترة عن الناس فلم يُصَبْ مُدْبِرٌ - فارّ - وكان قيس بن زهير سيّدهم ، فسأه ما صنع عنترة يومئذ ، فقال حين رجع: والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء . وكان قيس أكولاً ، فبلغ عنترة ما قال ، فقال يعرضُ به قصيدته التي يقول فيها:

بَكَرْتُ تَخَوُّفُنِي الْحَتُوفَ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ عَنْ عَرَضِ الْحَتُوفِ بِمَغْزِلٍ وَمِنْهَا قَوْلُهُ:

وَالْخَيْلُ تَعْلَمُ وَالْفَوَارِسُ أَتْنِي فَرَّقْتُ جَمْعَهُمْ بِضَرْبَةٍ فَيَصَلُ وَلَقَدْ أَيْتُ عَلَى الطَّوْى وَأَظْلُهُ حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكَلِ^(٢)

وهكذا عندما أحسّ عنترة برائحة الازدراء من قيس بن زهير ، والتذكير بالأصل الوضيع ، راحت نائفة التحدي تثور في داخله ، وتبرز فيه روح

(١) ديوان عنترة (ص ٤٢) بشيء من التصرف والاختصار .

(٢) الأغاني (٨/ ٢٤٧ - ٢٤٩) بتصريف واختصار .

الفروسيّة ، لذلك نراه يذكره بأفعاله المجيدة ، ويذكر فروسيته ، وبطولته التي تغطّي سواد الأمّ.

* إنّ فروسيّة عنترة تثير الإعجاب ، وتدعو إلى التأمل في فهمه للرجال ، فقد كان أحياناً يحجم عن مبارزة الرجال ، ونلمح في هذا المجال خبراً أورده ابن حزم الأندلسي في «جمهرته» عندما تحدّث عن بني عقيل بن كعب بن ربيعة فقال ما نصّه:

ومنهم: عويمر بن أبي عديّ بن ربيعة بن عامر بن عقيل ، شاعر ، فارس بني عقيل جُملةً ، دعا عنترة بن شداد العبيسيّ إلى المبارزة ، وقال له: ابرز إليّ أيّها العبد ، فإن قتلتك فلاخيفن أصحابك بعدك! وإن قتلني رجعت بابل قومي! فلم يقدم عنترة على مبارزته^(١).

بطولته وأسلحته وأفراسه:

* مامن شكّ في أنّ عنترة بن شداد العبيسيّ واحد من مشاهير فرسان التاريخ ، إن لم يكن أشهرهم في العصر الجاهليّ ، فقد اشتهر عنترة بين قومه - خاصّة - بشجاعته التي كان يبيديها ، وبطولته التي كانت مثار الإعجاب ، وملفت النظر ، ومهوى الأنفس التي تحبّ الأبطال.

* ومنّ الجميل في سيرة فارسنا اليوم أنّه صوّر هذه البطولة تصويراً جميلاً ورائعاً ولطيفاً في أشعاره الجميلة ، ورسم لنا من خلالها صورة الفارس الكميّ البطل ، وربط هذه الصورة بنفسه وشخصه ، فعرفنا عن نفسه أجمل تعريف ، بأجمل أسلوب ، وأعذب مقال.

* ومع كلّ ما يذكر عنترة عن نفسه ، نجده يذكر مظاهر بطولته في المعارك التي يخوضها ، حيث يبرز بعض الأبطال إلى ميادين القتال ،

(١) انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص ٢٩٠ و ٢٩١).

وهناك يتأخر الناس عن ملاقاتهم ويجئوا لأنَّ الموت بانتظارهم ، ويظلُّ
المبارز وحده في السَّاحة يطلبُ الطَّعنَ والنَّزالَ ، ويطلبُ ندَّ له فلا يجد ،
وإذ ذاك يبرزُ إليه عنترَةُ الفوارسِ متحدِّياً له ، منازلًا إيَّاه ، ومن ثم يذيقه
الموتَ ويجعله كأَمْسِ الدَّابر ، ويتركه طعاماً سائغاً شهياً للسَّباع ، فاسمعُ
إليه يقول :

ومدجج كره الكُماة نزاله لا مُمعِنَ هَرَباً ولا مُستسلمِ
جَادتْ يداي له بعاجِلِ طعنة بمثَقَّفِ صَدَقِ القِناةِ مُقَمِّمِ
وتركته جَزَرَ السَّباعِ يَنْشُنُه ما بينَ قَلَّةِ رأسِه والمِعْصَمِ^(١)

* ونلمحُ الإغراقَ في وصفِ البطولةِ ، إذ تحدَّثَ عنترَةُ عن جبنِ الكُماةِ
نزالَ هذا الفارسِ المدججِ بالسَّلاح ، لكنَّه نازله هو ، وظلَّ هو الفارسِ
الشُّجاع القويّ .

* وعن بطولته وفروسيته يدعو ابنةَ مالكٍ للسُّؤال عن شجاعته الخارقةِ
وأفعاله المجيدة ، وعن بسالته في المعركة والخيل تجولُ طولاً وعَرْضاً ،
فهو قادرٌ على حماية ابنةِ مالك ، وهو قاتلُ الأبطالِ المدججين بالسَّلاح ،
يقولُ عنترَةُ :

هَلَّا سَأَلَتِ الخيلَ يا بِنَةَ مالِكِ إِنْ كُنْتَ جاهِلَةً بما لَمْ تَعَلَمِي
يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الوقيعةَ أَنَّنِي أَغَشَى الوغى وَأَعَفَّ عندَ المِغْنَمِ

(١) ديوانه (ص ٢٠٩ و ٢١٠) بتصرف ، وهذه الأبيات من معلقته المشهورة . ومعنى
«مدجج» : أراد : وربّ مدجج أي تامّ السَّلاح . و«ولا مستسلم» : أي لم يُلْقَ بيده
ولم يستسلم للموت . والمعنى : هذا الفارسُ المدجج لم أجبنُ عنه ، بل أقدمْتُ
عليه واستسلم لي حينَ لقيته .

و«المثَقَّف» : الرَّمح المقوم بالثِّقاف ، و«الصَّدَق» : الصُّلب المستقيم . و«تركته جَزَرَ
السَّباع» : أي تركته لحماً للسَّباع ، و«ينشُنُه» : يتناولنه ويأكلن منه ، و«قَلَّة رأسِه» :
أعلاه . و«المِعْصَم» : موضعُ السَّوار من الذراع .

* ويذكرُ عنترةُ نهايةَ الأبطالِ والفرسانِ الذين لاقاهم ، وكانوا طعاماً
للسباعِ والضُّقور ، فعند توَعُّده لابنِي ضَمُضَم يقول :
ولقدْ خَشِيتُ بأنْ أَموتَ ولمْ تَدُرْ للحربِ دائرةٌ على ابني ضَمُضَمِ
الشَّاتِمِي عِرْضِي ولمْ أَسْتَمُهِمَا والنَّاذِرِينَ إذا لمْ أَلْقُهُمَا دَمِي
إنْ يَفْعَلَا فلقدْ تركْتُ أباهُما جَزْراً لَخَامِعَةٍ ونَسْرَ قَشْعَمِ
* وعند حديثه عن ذلك الفارس المدجج ، يؤكد بأنه تركه طعاماً للسباع
من رأسه إلى قدميه :

فتركتهُ جَزَرَ السَّبَاعِ يُثْنِئُهُ ما بينَ قَلَّةِ رَأْسِهِ والمُعْصَمِ
* ويبرزُ طعناته العظيمةَ فيقول :
قدْ أَطْعَنُ الطَّعْنََةَ النَّجْلَاءَ عن عُرْضِي تَصْفَرُّ كَفُّ أَخِيهَا وهوَ مَنْزُوفُ
* ويصفُ لوناً آخر من ألوان فروسيته ، إذ يجعلُ من مقتوله ^(١) مبللاً
الثياب بدمائه ؛ وهذا اللونُ تكشفه لنا الشُّطور التَّوَالِي .

* كان عنترةُ بنُ شداد في إبل له يرهاها ومعه عَبدٌ له وفرسٌ ، فأغارَتْ
بنو سُليم ، فقاتلهم حتى كسروا رُمَحَه ، وصارَ إلى القوسِ فرمى رجلاً منهم
من بجيلةً ، وطرَدُوا إبلَه ، فذهبوا بها ، وكان الذي أصابه من بني سُليم ،
وكان عنترةُ حاسِراً ، فقال في ذلك أبياتٍ عينيةً جميلةً :
خُذُوا ما أسَّارَتْ منها قِداحي ورفدُ الضَّيْفِ والإنسُ الجميعُ
فلو لا قَيْتَنِي وعليَّ دِرْعِي علمتَ علامَ تُحْتَمَلُ الدُّرُوعُ
تركْتُ جُبَيْلَةَ بنَ أبي عَدِي يُبْلُ ثِيابَه عَلَقَ نَجِيعُ
وأخِرَ مِنْهُمْ أَجْرَرْتُ رُمَحِي وفي البَجَلِيِّ مِغْبَلَةٌ وقيعُ ^(٢)

(١) اسمُ هذا المقتول الذي أرادَهُ عنترةُ «جُبَيْلَةُ بنُ أبي عَدِي البَجَلِيِّ» من بني سُليم .

(٢) ديوان عنترة (ص ٢٨٤ و ٢٨٥) . ومعنى «السُّور» البَقِيَّة . و«القِداح» جَمْعُ قَدَح . =

* ومن الواضح في أخبارِ عنترةَ وسيرتهِ وقصصِ فروسيتهِ ، أنَّ جميعَ خصومه يذوقون الموتَ من سيفهِ أو رمحه ، ولعلَّ من أجملِ ما تركَ لنا عنترة هذه النهايةَ لخصومه من بني ضبَّةَ وأبطالهم ، حيث قال قصيدةً حائيةً مطلعُها :

طَرَبْتُ وَهَاجَتِكَ الظُّبَاءُ السَّوَانِحُ غَدَاةَ غَدَا مِنْهَا سَنِحٌ وَبَارِحُ
ومنها يذكرُ إقدامه وجرأته وشجاعته وكيف أسرَ ضرارَ بنَ عمرو الضَّبِّيَّ وعدداً من بني ضبَّةَ قد شدُّوا وثاقهم وهم بين قتيلٍ غابَتْ عنه نواحيه ، وأسيرٍ في أيدي بني عبس ، وكذلك قهرَ عَمْرَأَ وَحْيَانَ ، وهما من بني ضبَّةَ أيضاً ، وتركهما قَتِيلَيْن تعودُهما السَّبَاعُ والضُّبَاعُ ، وتجرُّ منهما الهام ، وتزيلُ لحاها وذوائبها ، يقول عنترةُ :

إِذَا شئتُ لَأَقَانِي كَمِيٌّ مَدَجَّجٌ عَلَى أَعُوجِيٍّ بِالطَّعَانِ مُسَامِحُ
نُزَاحِفُ زُحْفًا أَوْ نُلَاقِي كَتِيبةً تُطَاعِنُنَا أَوْ يَذْعُرُ السَّرْبَ صَائِحُ
فَلَمَّا التَقَيْنَا بِالْجِفَارِ تَضَعُّضُوعُوا وَرُدَّتْ عَلَى أَعْقَابِهِنَّ الْمَسَالِحُ
تَدَاعَى بَنُو عَبْسٍ بِكُلِّ مُهْنِدٍ حُسَامٍ يَزِيلُ الْهَامَ وَالصَّفَّ جَانِحُ

= و«الأنس»: النَّاس. ومعنى البيتين الأولين: يقول لبني سليم: خُذُوا مَا أَبَقْتُ قِدَاحِي ، وإطعام الضَّيف من هذه الإبل ، أي ما أخذتم منها فهو بقيَّةُ الميسرِ والضَّيف.

ولو لا قيتني وقد لبستُ دِرْعِي لَمَنْعَتَكَ مِنَ الْغَارَةِ عَلَى إِبْلِي ، وَلَعَلِمْتُ أَنَّ لَابِسَ الدَّرْعِ لَا يَهْتَضِمُ ، وَلَا يُدْرِكُ مِنْهُ مَطْلُوبٌ .

ومعنى «جُبيلة»: هو رجلٌ من بَجَلَةٍ وهم حيٌّ من بني سليم ، و«يبل ثيابه»: أي طعنته ورميته بِسَهْمٍ فَسَالَ دَمُهُ حَتَّى بَلَ ثَوْبَهُ . و«العلق»: الدَّم . و«نجيع»: طَرِي . و«أجررتُ رمحي»: طعنته ، فتركْتُ الرَّمْحَ فِيهِ يَجْرُهُ . و«الْبَجَلِي»: رجلٌ من بَجَلَةٍ وَلَعَلَّهُ جُبَيْلَةٌ أَوْ غَيْرُهُ . و«مِعْبَلَةٌ»: السَّهْمُ الْعَرِيضُ الطَّوِيلُ النَّصْل . و«وقيع»: على وزن فَعِيل بمعنى مفعول حَذَفَ الْهَاء . و«المِيقَعَة»: الْمِطْرَقَة .

وكلُّ رُدِينِي كَأَنَّ سَنَانَهُ شِهَابٌ بَدَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَاضِحٌ
 تَرَكْنَا ضِرَاراً بَيْنَ عَانٍ مُكَبَّلٍ وَبَيْنَ قَتِيلٍ غَابَ عَنْهُ النَّوَاحِ
 وَعَمراً وَحَيَاناً تَرَكْنَا بِقَفْرَةٍ تَعُودُهُمَا فِيهَا الضَّبَاعُ الْكَوَالِحُ
 يَجْرُرْنَ هَاماً فَلَقَّتْهُ سَيُوفُنَا تَزِيلَ مِنْهُنَّ اللَّحَى وَالْمَسَائِحُ^(١)

* وَعَنْتَرَةُ الَّذِي يَذِيقُ الْأَبْطَالُ كَأْسَ الْمَنُونِ ، يَفَكِّرُ هُوَ الْآخِرُ بِالنَّهَائَةِ
 الْحَتْمِيَّةِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ ، وَقَدْ وَصَلَ إِلَى حُلٍّ وَاضِحٍ حَيْثُ قَالَ :

بَكَرْتُ تَخَوَّفُنِي الْحَتُوفُ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ عَنْ غَرَضٍ الْحَتُوفَ بِمَعْزِلٍ
 فَأَجَبْتُهَا إِنْ الْمَنِيَّةُ مِنْهَلٌ لَا بَدَّ أَنْ أَسْقَى بِكَأْسِ الْمَنْهَلِ
 فَاقْنِي حَيَاءُكَ لَا أَبَالِكَ وَاعْلَمِي أَنِّي مَرُوءٌ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ
 * فَعَنْتَرَةُ ، «لَا بَدَّ أَنْ يَسْقَى بِكَأْسِ الْمَنْهَلِ» وَهُوَ «سَيَمُوتُ إِنْ لَمْ يُقْتَلِ» ،
 إِذَا هُوَ لَا رَيْبَ مَقْتُولٌ أَوْ مَيِّتٌ ، لِأَنَّ مَنْطِقَ الْوَاقِعِ ، وَمَنْطِقَ الْفَرُوسِيَّةِ
 وَالْبَطُولَةِ يَقْتَضِي ذَلِكَ ، فَالْبَطْلُ ابْنُ الْمَعَارِكِ ، وَرَفِيقُ الْأَهْوَالِ ، وَمَنْ كَانَ
 هَذَا دِيدَنَهُ ، فَلَا بَدَّ أَنْ تَنَالَهُ يَدُ الْمَخَاطِرِ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ
 قَتْلٌ ، فَالنَّهَائَةُ وَاحِدَةٌ هِيَ الْمَوْتُ .

* وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ نَلْمُحُ مِنْ أَيْبَاتِ عَنْتَرَةَ السَّابِقَةَ أَنَّ الْمَوْتَ لَا يَخِيفُهُ ، وَلِذَا
 فَإِنَّهُ يَشْفُقُ عَلَى الْحَبِيبَةِ الَّتِي تَحْذَرُهُ الْمَوْتَ ، وَيَرُدُّ عَلَيْهَا بِأَنَّ الْمَوْتَ مِنْهَلٌ
 يَرُدُّهُ النَّاسُ جَمِيعاً .

* وَمِنْ صُورِ الْبَطُولَةِ عِنْدَ عَنْتَرَةَ ، بَطُولَتُهُ النَّادِرَةِ أَمَامَ الْجِيوشِ وَجَحَافِلِ
 الْفُرْسَانِ وَالْأَقْرَانِ ، فَتِلْكَ هِيَ الْبَطُولَةُ الْحَقَّةُ ، وَهِيَ بِنْتُ الْوَاقِعِ ، وَحَدِيثُهَا
 ذَائِعُ الصَّيِّتِ ، طَائِرُ الشُّهُرَةِ ، يَنْتَقِلُ مَعَ النَّاسِ حَيْثُمَا سَارُوا وَحَلُّوا ،
 وَحَيْثُمَا أَصْبَحُوا وَأَمْسَوْا ، وَيَصِيرُ ذَلِكَ حَدِيثَ سَمَرِهِمْ وَسَمَرِ حَدِيثِهِمْ ،
 وَبَدِيلَ حَدَائِهِمْ ، وَهَمْسَ أَفْئِدَتِهِمْ ، وَأَنْسَامَ حَبِّهِمْ .

(١) دِيَوَانُهُ (ص ٢٩٧ - ٣٠٣) بِتَصَرُّفٍ وَانْتِقَاءٍ وَاخْتِصَارٍ .

* وقد خاضَ عنترةُ هذه التجربةَ ، وقَتَلَ فارساً مدججاً ، قد لبس الدرع السَّابِغَةَ^(١) ، وتركه ملقى مخضَّب الرأسِ والصَّدْرِ بالدماءِ ، وجعلَ من مقتلِ هذا الفارس صورةً بارعةً لقوتهِ وبطولتهِ أمامَ الأبطالِ في ساحِ المعركةِ ، يقول عنترةُ راسماً هذه البطولةَ في معلقته الشهيرة :

ومشكٌ سابِغٌ هتكتُ فروجَهَا بالسَّيْفِ عَنْ حامي الحقيقةِ مُعْلِمِ
بَطْلٍ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ يُحْدِي نَعَالَ السَّبْتِ لَيْسَ بِتَوَّعِمِ
لَمَّا رَأَيْتُ قَدْ قَصَدْتُ أَرِيدَهُ أَبْدَى نَوَاجِذَهُ لَغَيْرِ تَبَسُّمِ
فَطَعْنَتْهُ بِالرَّمْحِ ثُمَّ عُلُوَّتُهُ بِمَهْنَدٍ صَافِي الحَديدَةِ مِخْذَمِ
عَهْدِي بِهِ شَدَّ النَّهَارَ كَأَنَّمَا خُضِبَ اللَّبَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعِظْلَمِ^(٢)

(١) «الدرع السَّابِغَةُ»: أي الكاملة.

(٢) انظر: ديوانه (ص ٢١١ - ٢١٣) بانتقاء تصرّف ، وقوله: «ومشكٌ سابِغٌ»: أرادَ بها: ربّ مشكٍ درع سابِغٍ ، والمَشْكُ التي شَكَّ بعضُها في بَعْضٍ ، والشَّكُّ: مَسَامِيرُ الدَّرْعِ ، و«سَابِغَةُ»: كاملة. وقوله: «هتكتُ فروجَهَا»: أي شَقَقْتُ وفَرَّقْتُ فُرُوجَ الدَّرْعِ وهي جَبِيهَا وَكُمَاهَا ، واحْدُهَا فَرْجٌ ، وقوله: «حامي الحقيقةِ»: أي يحمي ما يحقُّ عليه أن يحميه. و«مُعْلِمٌ»: الذي شَهَرَ نَفْسَهُ بعلامَةٍ إِدْلَالاً بِشِجَاعَتِهِ وإِعْلَاماً بِمَكَانِهِ. و«بطلٌ»: الشَّجَاعُ الذي تَبَطَّلَ عِنْدَهُ شِجَاعُهُ غَيْرُهُ. و«ثِيَابُهُ فِي سَرْحَةٍ»: أي هو طَوِيلُ الجِسمِ كامله ، فَكَأَنَّ ثِيَابَهُ عَلَى سَرْحَةٍ لَطُولِهِ ، وَالسَّرْحَةُ: شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ طَوِيلَةٌ. و«يُحْدِي نَعَالَ السَّبْتِ»: يعني هو شَرِيفٌ يَنْتَعِلُ بِمَا يَنْتَعِلُ بِهِ الْمُلُوكُ ، وَالسَّبْتُ مَا دُبِغَ بِالْقَرْظِ ، وَلَمْ يُجَرِّدْ مِنْ شَعْرِهِ ، و«تَوَّعِمٌ»: الذي يَكُونُ مَعَ آخَرٍ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَهُوَ أضعفُ لَهُ ، فَنفى عنه ذلك ووصفه بِكَمَالِ الخَلْقِ وَتَمَامِ الشَّدَّةِ والقُوَّةِ ، و«أبدى نَوَاجِذَهُ»: كَلَحَ غِيظاً عَلَيَّ وَموجدةً ، وَيُقَالُ: بَلْ كَلَحَ كَرَاهِيَةً لِلطَّعْنِ. و«لغير تبسُّمٍ»: لَمْ يَكُنْ إِبْدَاؤُهُ لِنَوَاجِذِهِ مِنْ أَجْلِ التَّبَسُّمِ ، وَإِنَّمَا كَانَ كَلُوحاً ، و«النَوَاجِذُ»: آخِرُ الْأَضْرَاسِ. و«مَهْنَدٌ السَّيْفِ الهِنْدِي». و«صَافِي الحَديدَةِ»: مَجْلُوفٌ صَقِيلٌ. و«مِخْذَمٌ»: قَاطِعٌ. و«عَهْدِي بِهِ شَدَّ النَّهَارِ»: مُشَاهَدَتِي لَهُ وَقَدْ تَخَضَّبَ بِدَمِهِ ، فَكَأَنَّهُ قَدْ خُضِبَ بِالْعِظْلَمِ. و«العِظْلَمُ»: شَجَرٌ يَتَّخِذُ مِنْهُ الْوَسْمَةُ ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ الْكَثْمُ ، وَإِنَّمَا شَبَّهَ الدَّمَ بِهِ لَمَّا انْعَقَدَ ، وَضُرِبَ إِلَى السَّوَادِ ، وَ«شَدَّ النَّهَارَ»: ارْتِفَاعُهُ ، وَ«اللَّبَانُ»: الصَّدْرُ.

* ولا يكتفي البطلُ عنترَةً بأن يجعلَ منْ هذا الفارسِ أحدَوثَةَ الحربِ ، بل يربطُ بينْ هولِ المعركةِ وشِدَّتِها وبينَ نفسِهِ وذلكَ باتِّقاءِ الأبطالِ به ، فإذا ما احتدمتِ المعركةُ ، وكلحتْ وجوهُ الأبطالِ ، واحمرتْ أهدافُهم ، واكتفوا بالغمغمَةِ عن الشَّكوى ، راحوا يبحثونَ عن ملجأٍ يقيهم حرَّ الحربِ ، ويبعدونَ عن أنفُسِهِم وقْعَ السُّيوفِ الهنديَّةِ ، وطعنَ الرِّماحِ الرُّدينيَّةِ ، فلا يجدونَ أمامَهُم سوى الفارسِ البطلِ عنترَةَ الذي استجابَ للمستغيثينَ به ، فألقى بنفسِهِ وفرسِهِ في مشجَرِ الرِّماحِ ، وبريقِ السُّيوفِ وهممةِ الأبطالِ ، حتى إنَّ فرسَهُ قد اشتكى من كثرةِ الجراحاتِ التي أُصيبَ بها ، ولم يزلْ في المعركةِ يقاتلُ ويجالدُ حتَّى حَسُنَ فيها بلاؤُهُ وثباتُهُ وصبرُهُ؛ فلنسمعْ إلى عنترَةَ وهو يرسمُ تلکم الخطواتِ الحرجةَ بهذه الكلماتِ الجميلةِ السَّاحرةِ :

| | |
|--------------------------------------|---|
| ولقدْ حفظتُ وصاةَ عمِّي بالضُّحى | إذْ تَقْلِصُ الشَّفَتَانِ عن وَضَحِ الفَمِ |
| في حومةِ الموتِ التي لا تشكي | غَمَراتِها الأبطالُ غيرَ تَغْمُغِ |
| إذْ يَتَّقُونَ بيَ الأسِنَّةَ لم أخم | عَنها ولو أُنِّي تضايقَ مُقَدَمي |
| لَمَّا رأيتُ القومَ أَقبلَ جمعُهُم | يَتَذامرونَ كرزتُ غيرَ مذَمِّ |
| يدعونَ عنترَ والرِّماحُ كأنَّها | أشطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدهم ^(١) |
| ما زلتُ أرميهم بثغرةِ نحرِهِ | ولَبانِهِ حتَّى تَسْرُبَلْ بالدمِّ |

(١) قال أبو بكرٍ: وبعدَ هذه الأبياتِ أبياتٌ لم تقعْ في الرِّواياتِ يعظُمُ بها شأنُ نفسِهِ ، ويهولُ بها على أعدائِهِ وهي :

| | |
|---------------------------------|------------------------------------|
| يدعونَ عنترَ والسُّيوفُ كأنَّها | إيماضُ برقي في السَّحابِ الرُّكَمِ |
| يدعونَ عنترَ والرِّماحُ سواكبٌ | تجري بفياضِ الدِّماءِ وتنهَمي |
| يدعونَ عنترَ والفوارسُ في الوغى | في حومةٍ تحتَ العِجاجِ الأَقمِ |
| يدعونَ عنترَ والرِّماحُ تنوشُني | عاداتِ قومي في الزَّمانِ الأَقمِ |

(ديوانه ص ٢١٦) الهامش

فازورَّ مَنْ وَقَعَ الْقَنَا بَلْبَانِهِ وَشَكَاَ إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمُّمٍ
لو كَانَ يَدْرِى مَا الْمَحَاوِرَةُ اشْتَكَى أَوْ كَانَ يَدْرِى مَا جَوَابُ تَكَلُّمِي
وَالْخَيْلُ تَقْتَحِمُ الْخَبَارَ عَوَاسِئاً مَا بَيْنَ شَيْظَمَةٍ وَأَجْرَدَ شَيْظَمٍ
وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سَفْمَهَا قِيلُ الْفَوَارِسِ وَيَكْ عَنَتَرٌ أَقْدِمُ^(١)

* وفي المعارك الشديدة الحامية يكون فارسها المعلم عنترة ، فهو يترك
البطل الكمي متعفراً ملقى على الأرض :

فَلَرُبَّ أَبْلَجٍ مِثْلٍ بِغَلِكٍ بَادِنٍ ضَخِمَ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ مِهْبَلٍ
غَادَرْتُهُ مَتَعَفَّراً أَوْصَالُهُ وَالْقَوْمُ بَيْنَ مَجْرَحٍ وَمَجْبَلٍ
* وبطولة عنترة تحتاج إلى عناصر كيما تكون متكاملة ، وهذه العناصر
تكمُن في وجود الخيل والسيوف والرماح والدروع والقسيّ عنده ؛ فالفرس
البطل الكمي هو الذي يعنى بالسلاح وآلة الحرب . وعنترة فارسٌ يحترم
آلات الحرب جميعها ، فهو يقدّر السيف ، ويحترم الرمح ، ويحب
الفرس ، ويذكر الثرس والرمح والقوس والنبل ، ولكن السيوف والرماح

(١) انظر: ديوانه (ص ٢١٥ - ٢١٩) بتصرف يسير وانتقاء . ومعنى «تَقْلِصُ الشَّفْتَانِ» :
يعني عند شدة الحرب تقلص شفتاه عن أسنانه ، و«وَضَحَ» : بياض الأسنان .
و«حومة الموت» : شدته ، و«غمراتها» : الغمرات : الشدائد . و«تغمغم» : الصوت
الخفي المختلط . «ويَتَّقُونَ بي الأسنة» : يقدموني للموت ويجعلونني بينهم وبين
الرمح . و«لم أخم» : لم أجبن عنها . و«مقدمي» : موضع أقدامي . و«يتذاكرون» :
يحث بعضهم بعضاً ، وأصل الذم : الصياح . و«يدعون عترة» : ينادونني : يا عنترة
يا عنترة ويأمروني بالتقدم . و«أشطان» : الجبال ، شبه الرماح بها في طولها
واستقامتها . و«الأدهم» فرسه . و«ثغرة نحره» : النقرة في أسفل الحلق . و«تسرّكل» :
السربال : القميص . و«ازور» : أعرض الفرس لما رأى الرماح تقع بنحره ،
و«تحمحم» : الصوت الخفي ، فإن اشتد فهو الصهيل ، و«المحاورة» : المجاورة .
و«الخبار» : ما لأن من الأرض وكانت فيه حجارة . و«شيطرة» : الطويلة من الخيل .
و«الأجرد» : قليل الشعر . و«أقدم» : تقدم .

هي أصلُ الأسلحةِ ، ولها الاستعمالُ ، وهي روحُ الفارسِ ، وهي المقدمةُ في الذِّكْرِ؛ يقولُ عنترَةُ في يومِ عُراعِرٍ ، وكانت بنو عبس لما أخرجتهم حنيفة من اليمنِ ، وأرادوا أن يأتوا بني تغلبَ ، فمروا بحيٍّ من كَلْبٍ على ماءٍ يُقال له: عراعِرُ ، فطلبوا أن يسقوهم من الماءِ ، وأن يوردوه إبلهم ، وسيدهم يومئذ رجلٌ من كَلْبٍ يُقال له مسعودُ بنُ مُصَادٍ ، فأبوا وأرادوا سلبهم ، فقاتلوهم وقُتِلَ مسعودُ بنُ مُصَادٍ ، ومن ثمَّ صالحوهم على أن يشربوا من الماءِ ، ويعطوهم شيئاً ، فانكشفوا عنهم ، فقال في ذلك عنترَةُ قصيدةً فائقةً قوامها (١٠ أبيات) مطلعها:

أَلَا هَلْ أَتَاهَا أَنَّ يَوْمَ عُرَاعِرٍ شَفَى سَقَمًا لَوْ كَانَتِ النَّفْسُ تَشْتَفِي
* ومنها يذكرُ آلاتِ الحربِ والسِّيفِ المشرقيةَ ، والرِّمَاحَ والدَّرُوعَ والقوسَ ، فيقولُ:

فَظَلْنَا نَكُرُّ الْمَشْرِقِيَّةَ فِيهِمْ وَخِرْصَانَ لَذَنِ السَّمْهَرِيِّ الْمُثَقَّفِ
عَلَّانًا فِي كُلِّ يَوْمٍ كَرِيهَةٍ بِأَسْيَافِنَا وَالْقَرْحُ لَمْ يَتَقَرَّفِ
أَبَيْنَا فَلَا نُعْطِي السَّوَاءَ عَدَوْنَا قِيَامًا بِأَعْضَاءِ السَّرَاءِ الْمُعْطَفِ
بِكُلِّ هَتُوفٍ عَجَسُهَا رَضْوِيَّةً وَسَنَّهُمْ كَسِيرِ الْحِمِيرِيِّ الْمُؤَنَّفِ^(١)

(١) انظر: ديوانه (ص ٢٢٨ - ٢٣١) بشيء من التصرف والانتقاء. ومعنى «عراعِر»: ماءٌ لِكَلْبٍ ، و«شَفَى سَقَمًا»: أي ظهورنا في ذلك اليوم بأعدائنا شَفَى ما كَانَ بنفوسنا من الوجد عليهم. و«المشرقية»: سيفٌ منسوبٌ إلى المَشَارِفِ ، وهي قرى بالشَّام تشارفُ الرِّيفَ ، وقيل: المشرقية من صنعة مشرف ، وهو جاهليٌّ منسوبٌ إلى ثقيف. و«خِرْصَان»: جمع خَرَص ، وخَرَص هو الرَّمح ، وأراد به ها هنا السَّنان خاصَّةً ، ويُقال: الخِرْصَان الدَّرُوع ، سميت بذلك لحلقها ، كما سموا الحلقة التي في أذن المرأة خَرَصًا. و«لذن»: اللين الهَزْ. و«السَّمْهَرِيُّ»: الشَّدِيدُ ، والمعنى أَنَّهُ لَيْنٌ فِي اضْطِرَابِهِ وَمَهْزَتِهِ ، وَهُوَ فِي ذَاتِهِ صَلْبٌ شَدِيدُ الْكُحُوبِ. و«المثقف»: المقوم في الثقاف المستوي. و«علَّانًا»: بقيَّةُ ما عندنا من القِتَالِ ، يريد أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ قَاتَلُوا قَبْلَ ذَلِكَ ، وَالْعَلَالَةُ: بقيَّةُ اللَّبَنِ بَعْدَ الدَّرَّةِ ، وَمِنْهُ الْعَلَلُ وَهُوَ الشُّرْبُ الثَّانِي. =

* ومن الواضح في سيرة عنترة ، أنه يهتم بكل أنواع الأسلحة ، فهي عدة البطولة ، ولا تكتمل صورة البطل إلا بكمال أسلحته واستيفائه الحصول عليها ، وقد تغنى عنترة بألوان متعددة من الأسلحة ، فذكر السيوف وأحسن وصفها ، وأكد على حسن استخدامه لها ، كما ذكر الرماح وأحسن وصفها ، وذكر النبال وخفتها ، وذلك في قصيدة رائية قالها في هجاء عمارة بن زياد^(١) ، وكان عمارة يحسد عنترة ، ويقول لقومه : إنكم أكثرتم ذكره ، والله لوددت أني لقيته خالياً حتى أعلمكم أنه عبد ، وكان عمارة جواداً كثير الإبل ، مضيئاً لماله مع جوده ، وكان عنترة لا يكاد يمسك إبلاً يعطيها إخوته ويقسمها ، فبلغه ما يقول عمارة ، فقال عنترة في

= «القرح لم يتقرّف»: لم يتقشّر للبرء والشفاء ، يصف أنهم لا يشاهدون حرباً إلا شاهدوا قبلها أخرى ، فعليهم جراحات لم تبراُ بعد ، و«القرح»: الجراحات. و«الكريهة»: شدة الحرب. و«السواء»: المساواة. أي لا ينتصف عدونا منا. و«أعضاء»: جمع عضد القوس ، وهو موضع الحماله منها. و«السراء»: شجر تتخذ منه القسي. و«المعطف»: المحني. يقول: إذا قمنا بالقسي ورامينا العدو لم يساونا ولا انتصف منا. و«كلّ هتوف»: يعني قوساً موصّوثة عند الرمي لشدة وترها. و«عجسها»: العجس: مقبض القوس. و«رضوية»: منسوبة إلى رضوى وهي أرض ، وحرك الضاد في النسب ، لأنّ النسب باب تغيير. و«كسبر الحميري»: شبه السهم في استوائه وتحديد ظرفه بالشراك المؤنّف وهو المحدّد الطرف الرقيق ، ونسب السّير إلى رجل من حمير كأنّ سيورهم أجود السيور لأنهم ملوك.

(١) عمارة بن زياد العبسي ، أحد سادة عبس ، كان وإخوته يلقبون بالكملة ، وأمهم فاطمة بنت الخرشب ، وقد لقّب بعمارة الوهاب ، وبدالق ، وذلك لشدة كرمه ، وقد قتله شرخاف بن المثلث من بني عائدة من أسد . ويُقال في المثل عن أم عمارة: أنجب من بنت الخرشب ، وهي فاطمة الأنمارية ، ولدت لزياد العبسي الكملة : ربيعاً الكامل ، وعمارة الوهاب ، وقيس الحفاظ ، وأنس الفوارس . (جمهرة الأمثال ٢/ ٢٥٨) برقم (٢٠٧٠)

ذلك قصيدةً بلغتْ (١٣ بيتاً) ، ومنها هذه الأبيات يصفُ فيها سيفه ورمحه
وسهامه :

وسَيْفِي صَارِمٌ قَبَضْتُ عَلَيْهِ أَشَاجِعُ لَا تَرَى فِيهَا انْتِشَارَا
وسَيْفِي كَالْعَقِيقَةِ وَهُوَ كِمَعِي سِلَاحِي لَا أَفْلَ وَلَا فُطَارَا
وكالْوَرَقِ الْخِفَافِ وَذَاتُ غَرْبٍ تَرَى فِيهَا عَنِ الشَّرْعِ ازْوَرَارَا
ومَطَرْدُ الْكُعُوبِ أَحْصُ صَدُقْ تَخَالُ سِنَانَهُ فِي اللَّيْلِ نَارَا
ستعلمُ أَيْنَا لِلْمَوْتِ أَدْنَى إِذَا دَانَيْتَ فِي الْأَسْلِ الْجِرَارَا^(١)

(١) انظر: ديوانه (ص ٢٣٤-٢٣٦) ، وسمط اللآلي (١/٤٨٣) مع الجمع والتصرف .
وذكر أبو عبيد البكري هذا الخبر على النحو الآتي فقال: روي أنَّ عنترة وقفَ ينشدُ:
إِذْ يَتَقَوْنَ بِي الْأَسْنَةُ لَمْ أَحِمْ عَنْهَا وَلَكِنِّي تَضَايِقُ مُقَدِّمِي
فَبَوَّأَ لَهُ عِمَارَةُ بْنُ زِيَادٍ بِالرُّمَحِ وَقَالَ: نَحْنُ نَتَّقِي بِكَ الْأَسْنَةَ يَا بَنَ السَّوْدَاءِ . فقال له
عنترة: اغفرها . وكان عنترة حاسراً أعزل ، فذهب واستلَّامَ وركبَ فرسه ، ثمَّ أقبلَ
حتَّى وقفَ موقفه الأوَّلَ وأنشد البيتَ: «إِذْ يَتَقَوْنَ بِي الْأَسْنَةُ . . .» ، فتغافلَ عنه
عِمَارَةُ حينَ رآه في سِلَاحِهِ ، فأنشد عنترة قصيدته الرائية . (سمط اللآلي ١/٤٨٣) .
ومعنى «صَارِمٌ»: الصَّارِمُ: القاطعُ . و«أشَاجِعُ»: عَصَبٌ ظاهر الكَفِّ واحداً
أشَجَع . و«لا ترى فيها انتشاراً» يصفُ أنه سليمُ العَصَبِ ، شديدُ الخلقِ والانتشار
للعصب ، وهو انتفاضُها كانتشارِ الفرسِ في يديه . «وسيفي كالعقيقة»: يعني هو
صَافٍ بَرَّاقٌ كالقطعةٍ من البرقِ وهو العقيقةُ ، ويُقالُ: العقيقةُ السَّحَابَةُ تنشقُّ عن
البرقِ . و«كِمَعِي»: الكمعُ: الضَّجيجُ ، يقولُ: هو ملازمٌ لي ، فإن كنتُ مضطجعاً
كان مُضَاجِعِي . و«أَفْلَ»: أرادَ سِلَاحِي لَا أَفْلَ فِيهِ وَلَا فُطَارَ ، والأفلُ الذي فيه فلول .
«والفُطَارُ»: المتشققُ ، يقولُ: هو حديدُ السِّلَاحِ تَأْمَهَا . و«كالوَرَقِ الْخِفَافِ»: يعني
سِهَاماً جعلَ نصالها بمنزلةِ الورقِ في خفتها ، وأرادَ: من سِلَاحِي سهامٌ مثلُ الورقِ
الْخِفَافِ . و«ذَاتُ غَرْبٍ»: يعني قوساً ، وغربها: حدُّها . و«الشَّرْعُ»: الأوتارُ ،
واحداً شَرْعَةً . و«ازْوَرَارَا»: الازورار: الميلاَنُ . يقولُ: هي محنيةٌ فيها مِثْلُ عن
وترها ، وكلَّما مالَتْ عنه وبعُدَتْ كَانَ أَمْضَى لِسَهْمِهَا وَأَنْفَذَ . و«مَطَرْدُ الْكُعُوبِ»:
يعني رمحاً طويلاً . و«أَحْصُ»: الأحصنُ: الأملسُ الذي لا لحاءَ عليه ولا غيره .
و«الصَّدُقُ»: الصِّلْبُ المستقيمُ ، وشبَّهَ سِنَانَهُ بِالنَّارِ لصفائِهِ وحِدَّتِهِ فيقولُ: إِذَا نظَرْتُ =

وحديثُ عنترَةَ عن الأسلحةِ طويلٌ وشائقٌ ، ولكن ما أخبارُ أفراسِ
عنترَةَ وخيله وهي روحُ حياته وحياءُ روحه في المعاركِ والحروبِ ، وهي
من أسبابِ فروسيّته وبطولته ، وهي رفيقه ومؤنسُهُ في الساعاتِ الحرجةِ
التي يلقي بها الفرسان .

* ومن المؤكّد أن تكونَ لعنترَةَ عدّةُ أفراسٍ ، ذلك أنّ الحياةَ الطويلةَ
التي عاشها ، والمعاركَ العديدةَ التي خاضها ، تقتضي منه أن يملكَ أفراساً
كثيرةً ، إذ إنّ الحربَ مدعاةٌ لمقتلِ الخيلِ وجرحِها ، أو كَسْبِ غيرها .

* ومن الأفراسِ التي اشتهرتُ في حياةِ عنترَةَ الأبحر^(١) ، وهو من خيلِ
غطفانِ بنِ سعدٍ قال عنه ابنُ الكلبيّ: فرسٌ عنترَةَ بنِ شدّادِ العبسيّ ، وهو
الذي يقولُ فيه :

لا تَعْجَلِي أَشَدُّ حَزَامَ الْأَبْجَرِ إِنِّي إِذَا الْمَوْتُ دَنَا لَمْ أَضْجَرْ
وَلَمْ أَمْنِ النَّفْسَ بِالتَّأْخِرِ

* ولعنترَةَ فرسٌ مهمٌّ في حياته ذكره في معلقته وهو الأدهمُ ، وهذا
الأدهمُ يقولُ عنه ابنُ الكلبيّ: فرسٌ عنترَةَ بنِ شدّادِ الأدهمِ من خيلِ غطفانِ
بنِ سعدٍ ، وهو الذي يقولُ فيه :

يَدْعُونَ عُنْتَرَ وَالرَّمَا حُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بئِرٍ فِي لَبَانِ الْأَدْهَمِ
* وذكرَ ابنُ قتيبة أنَّ لعنترَةَ فرساً يُدعى الأغرّ ، فقال : قال عنترَةَ يذكرُ
فرسه الأغرّ وإحسانه إليه :

= إليه ليلاً أضواءُ إليك الظلام ، فكأنّه نازٍ . و«الأسل» : أطرافُ الرّماح ، ويُقال هي
الأسنة . و«الحرار» : العطاشُ إلى الدّم ، يقول لعمارة : ستعلمُ إذا تقابلنا ودائيتنا
الرّماحَ بيننا أيّنا أقربُ للموتِ ، وأدنى منه ، أي : إنك زعمتَ أنّك تقتلني إنّ
لقيتني ، وأنت أقربُ إلى الموتِ عند ذلك منّي .
(١) انظر : أنساب الخيل لابن الكلبيّ (ص ٦٩) .

أَرَاهُ أَهْلَ ذَلِكَ حِينَ يَسْعَى رِعَاءُ النَّاسِ فِي طَلَبِ الْحُلُوبِ
فِيخْفُقُ مَرَّةً وَيَفِيدُ أُخْرَى وَيَفْجَعُ ذَا الضَّغَائِنِ بِالْأَرِيبِ^(١)

* وَالْخَيْلُ وَالْأَفْرَاسُ كَثِيرَةٌ فِي حَيَاةِ عَنْتَرَةَ ، وَقَلَّمَا تَخْلُو أَثَارَهُ مِنْ كَلَامِهِ
إِلَّا يَذْكُرُ فِيهَا الْخَيْلَ ، أَلَيْسَتْ الْخَيْلُ أَسَّ الْمَعْرَكَةِ وَرُوحَهَا ؟! فَهَا هُوَ يَذْكُرُ
مُهْرَهُ فِي وَاحِدَةٍ مِنْ قِصَائِدِهِ فَيَقُولُ :

أَكْرُرُ عَلَيْهِمْ مُهْرِي كَلِيمًا قَلَائِدُهُ سَبَائِبُ كَالْقِرَامِ
كَأَنَّ دُفُوفَ مَرْجَعِ مَرْفَقِيهِ تَوَارَتْهَا مَنَازِعُ السَّهَامِ^(٢)
* وَفِي مَعْلَقَتِهِ يَذْكُرُ حِصَانَهُ فَيَقُولُ :

مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِشُغْرَةِ نَحْرِهِ وَلَبَانِهِ حَتَّى تَسْرِبَلَ بِالدِّمِّ
فَازْوَرَّ مَنْ وَقَعَ الْقَنَا بِلْبَانِهِ وَشَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحْمُحُمِ
لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمَحَاوَرَةُ اشْتَكَى أَوْ كَانَ يَدْرِي مَا جَوَابُ تَكْلَمِي^(٣)

* وَيَقُولُ فِي مَعْلَقَتِهِ أَيْضًا يَذْكُرُ مُهْرَهُ :

وَلَقَدْ كَرَرْتُ الْمَهْرَ يَدْمَى نَحْرَهُ حَتَّى اتَّقَتْنِي الْخَيْلُ بِابْنِي حَذِيمٍ
* إِنَّ الْخَيْلَ جَزْءٌ لَا يَتَجَزَأُ مِنْ حَيَاةِ عَنْتَرَةَ ، لِذَلِكَ أَخَذْتُ مَسَاحَةً كَبِيرَةً
مِنْ نَفْسِهِ ، وَمِنْ شَعْرِهِ ، فَهِيَ مَادَّةُ الْحَرْبِ الْأُولَى ، وَصَهْوَاتُهَا حَرْزُ

(١) انظر: المعاني الكبير (١/ ٨٤). و«الحلوب»: جمع حلوبة وهي النوق تحلب.

(٢) انظر: ديوانه (ص ٢٤٤) ، ومعنى «كليمًا»: الكليم: المجروح. و«قلائده» سبائب: أي لما جرح سأل الدَّم على صدره ، فصارت له كالقلادة ، والسبائب جمع سببة ، وهي الطريقة الطويلة من الدَّم ، والسبائب أيضاً الشَّفَق. و«القِرَام»: ستر أحمر خفيف يُجْعَلُ على الهودج شبه الدَّم به. و«كأن دُفُوفَ»: هي جمع دف ، وهو الجنب. و«منازيع السَّهَامِ»: جمع منزعة وهي مَنْ نَزَعَتْ إِذَا رُمِيَتْ ، يقول: تكثرُ السَّهَامُ بِمَرْجَعِ مَرْفَقِي الْفَرَسِ ، فَكَأَنَّهَا تَوَارَتْهُ لِكَثْرَةِ تَرَدُّدِهَا ، وَوُقُوعِهَا بِهِ.

(٣) انظر: الحماسة البصرية (١/ ٨٠) ويروى الشطر الثاني: ولكان لو علم الكلام مكلمي.

الفرسان ، وعنترة فارسٌ لا يُشَقُّ له غُبار ، فكم من مرّة ركب فرسه وصَرَخَ
الفرسان ، وهزمَ فيها الكتائبَ ، فالخيلَ تعلمُ وفرسانُ العربِ كذلك أنَّ
عنترة يفرِّقُ الجموعَ من على ظهرِ فرسه الذي أحسنَ وصفه في قصيدة لاميةٍ
جميلةٍ مطلعُها:

عجبتُ عُبيلةً من فتى متبذلٍّ عاري الأشاجعِ شاحبٍ كالمنصلِ
ومنها يصفُ حصانَه:

ولربّ مُشعلَةٍ وزعتُ رِعالها نهدِ القطاةِ كأنّها من صخرةٍ
بمقلّصٍ نهدِ المراكِلِ هيكلٍ ملّساءٍ يغشاها المسيلُ بمخفلٍ
وله حوافِرُ موثقٌ تركيُّها صمُّ النُصورِ كأنّها من جندلٍ
سلسُ العنانِ إلى القتالِ فعينه سلسُ العنانِ إلى القتالِ فعينه
فعلّيه أفتحُمُ الهياجَ تقحُّماً قَبلاءُ شاخصةٌ كعينِ الأخولِ
جودُهُ وشِعْرُهُ وشاعريَّتُهُ: فيها وأنقضُ انقضاضِ الأجدلِ^(١)

* كان عنترة^(٢) بن شدّاد من أشدّ أهلِ زمانه ، ومن أجودهم بما ملكَتْ

(١) ديوانه (ص ٢٥٩ - ٢٦٢) باختصار. ومعنى «شاحب» متغير. و«العاري»: قليل اللحم. و«مُشعلَة»: حرب شديدة. و«رِعالها»: جماعات الخيل. و«نهد»: غليظ. و«المراكِل»: واسع الجوف. و«هيكل»: ضخم. و«نهد القطاة»: غليظ مقعد الرّدف ، و«صمُّ النُصور»: حوافِرُ صلبة. و«سلس العنان»: لين العطف. و«عينه قَبلاء شاخصة»: جعلها كذلك لعزّة نفسه ونشاطه والدائم النظر مع السّمو والارتفاع. و«أفتحُمُ الهياج»: أغشى الحرب. و«الأجدل»: الصقر.

(٢) قال ابن دُرَيْد: عنترة بن شدّاد ، كان من فرسان العرب وشعرائهم قتلته طيءٌ فيما تزعمُ العرب وعامّةُ العلماء؛ وكان أبو عُبَيْدة يكرّ ذلك ويقول: مات برّداً ، وكان قد أسنَّ.

واشتقاقُ عنترة إمّا من ضربٍ من الدُّباب يُقال له: العنتر والعنتر ، وإن كانت النون فيه زائدة فهو من العتر ، والعتر: الذّبح .
ويقال: رمحٌ عاتِر ، إذا كان صلباً شديداً.

يُده ، وكان لا يقولُ مِنَ الشَّعْرِ إِلَّا الْبَيْتَيْنِ والثَّلاثَةِ ، حتَّى سَابَّه رجلٌ مِنْ بني عَبْسٍ ، فذكرَ سوادَ وسواده أُمِّهِ وإخوته ، وعيَّره بذلك ، وبأنَّه لا يقولُ الشَّعْرَ .

فقال له عنترةُ : وَاللَّهِ إِنَّ النَّاسَ لَيَتَرَفِدُونَ بِالطُّعْمَةِ ، فما حضرتَ مرفدَ النَّاسِ أَنْتَ ولا أبوكَ ولا جدُّكَ قطُّ ؛ وَإِنَّ النَّاسَ لَيُدْعَوْنَ فِي الْغَارَاتِ فَيَعْرِفُونَ بِتَسْوِيمِهِمْ ، فما رأيناكَ فِي خَيْلٍ مُغِيرَةٍ فِي أَوَائِلِ النَّاسِ قطُّ ، وَإِنَّ اللَّبَسَ لَيَكُونُ بَيْنَنَا ، فما حضرتَ أَنْتَ ولا أبوكَ ولا جدُّكَ خَطَّةً فَيَصِلَ ، وَإِنَّمَا أَنْتَ فَقْعٌ نَبَتْ بِقَرْقَرٍ ، وَإِنِّي لَأَحْضَرُ الْبَأْسَ ، وَأُوْفِي الْمَغْنَمَ ، وَأَعْفُ عَنْ الْمَسْأَلَةِ ، وَأَجُودُ بِمَا مَلَكَتْ يَدِي ، وَأَفْصِلُ الْخَطَّةَ الصَّمْعَاءَ - الْمَاضِيَةَ - ، وَأَمَّا الشَّعْرُ فَسَتَعْلَمُ ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا قَالَ قَصِيدَةً : هل غادرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مَتَرَدِّمْ . وهي أجودُ شعره ، وكانوا يسمونها الْمُذْهَبَةَ^(١) .

= وعترَةُ الرَّجُلِ : أَهْلُ بَيْتِهِ .

وفي حديثِ أَبِي بَكْرٍ - رضيَ اللهُ عَنْهُ - : عَلِيْكُنَّ عَتْرَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ والعَتْرَةُ : الْخَشْبَةُ الَّتِي فِي نَصَابِ الْمَسْحَةِ الَّتِي يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا الْحَافِرُ بِرَجْلِهِ .
وكانت حربُ بني دُؤْيَانَ وبني عَبْسٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً .
(الاشتقاق ص ٢٨٠) بتصرف واختصار .

(١) الشُّعْرُ وَالشُّعْرَاءُ (١/ ٢٥١ و ٢٥٢) ، «هل غادرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مَتَرَدِّمْ» هي المَعْلَقَةُ المشهورةُ لعنترةَ . و«مَتَرَدِّمْ» : مِنْ قَوْلِهِمْ : رَدْمْتُ الثَّوْبَ وَرَدَّمْتُهُ : أَصْلَحْتُهُ . وَالْمَعْنَى : هل أَبْقَى الشُّعْرَاءُ لِأَحَدٍ مَعْنَى إِلَّا قَدْ سَبَقُونَا إِلَيْهِ ، فلم يدعُوا مقالاً لِقَائِلِ . و«الْمُذْهَبَةُ» : بَصِيغَةُ اسْمِ الْمَفْعُولِ ؛ كَانَتِ الْمَعْلَقَاتُ تَسْمَى الْمُذْهَبَاتِ ، مِنْ الْإِذْهَابِ أَوْ التَّذْهِيبِ ، بِمَعْنَى التَّمْوِيهِ وَالتَّطْلِيَةِ بِالذَّهَبِ .

وَمِنْ الْجَدِيرِ أَنَّ مَعْلَقَةَ عَنْتَرَةَ فِي «الْجُمُهرَةِ» لَيْسَتْ مِنَ الْمُذْهَبَاتِ ، بَلْ هِيَ مِنَ الْمُجْمُهرَاتِ . وَشُعْرَاءُ الْمُذْهَبَاتِ سَبْعَةٌ وَهُمْ : عَبْدُ اللهِ بْنُ رِوَاحَةَ ، مَالِكُ بْنُ عَجَلَانَ ، قَيْسُ بْنُ الْحَظِيمِ ، أَحِيحَةُ بْنُ الْجُلَّاحِ ، أَبُو قَيْسِ بْنِ الْأَسْلَتِ ، وَعَمْرُو بْنُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ .

- وَمَعْنَى الْمَعْلَقَةِ : أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ الشَّعْرَ فِي أَقْصَى =

* ولعلَّ عنترة في بداية حياته سَمِعَ الشَّعْرَ وحفظَ قَدْرًا منه ، وأعجَبَ به وتذوَّقَه ، وأجرى نفسه على مَجْرَاه ، وسارَ على طريقه ، فلا غرابة أن ينشدَ المُعلِّقة يتحدَّى بها مَنْ عيَّره ، وَمَنْ انتقصه .

* وقد عاشَ عنترةُ عُمرًا طويلاً ، وكانت له وقائعُ مشهورة ، ومواقفُ مشهودة ، وخصوصاً في معاركِ داحِسٍ والغبراء^(١) الطَّاحنة ، التي أكلتِ النَّاسَ حيناً منَ الدَّهرِ اقتربَ من نصفِ قرن ، وكان عنترةُ خلالها رُكُوباً للأهوالِ غيرِ ألوفٍ للظلال ، ويرى أنَّ نيلَ المعالي يأتي من هولِ العوالي ، وأنَّ دَرَكَ الأحوالِ في رُكُوبِ الأهوالِ ، وفي الصَّبْرِ على النَّوائِبِ إدراكُ

= الأرض ، فلا يُعجَبُ به ولا ينشدهُ أحدٌ ، حتَّى يأتي مَكَّةَ في موسمِ الحجِّ ، فيعرضه على أنديةِ فُريش ، فإن استحسنوه رُوي وكانَ فخراً لقائِلِهِ ، وعُلِّقَ على ركنٍ من أركانِ الكعبةِ حتَّى يُنظرَ إليه ، وإن لم يستحسنوه طُرِحَ ، ولم يُعجَبَ به .

- وأوَّلُ مَنْ علَّقَ شِعره في الكعبةِ امرؤ القيس ، وبَعْدَهُ علَّقَتِ الشُّعراء ، وعدَدُ مَنْ علَّقَ شِعره سبعةً ، ثانيهم طرفة بن العبد ، ثالثهم زهير بن أبي سلمى ، رابعهم لبيدُ ابنِ ربيعة ، خامسهم عنترة ، سادسهم الحارث بن جَلْزَة ، سابعهم عمرو بن كلثوم التغلبي ، هذا هو المشهور . (خزانة الأدب ١/١٣٧) .

- وكانتِ المُعلِّقاتُ تسمَّى المذهبات ، وذلك أنَّها اختيرت من سائرِ الشُّعْر ، فُكِّبَتْ في القُبَاطي بماءِ الذهب ، وعُلِّقَتْ على الكعبةِ ، فلذلك يُقال : مذهبُ فلان إذا كانت أجودَ شِعره ، ذكرَ ذلك غيرُ واحد من العلماء . وقيل : بل كانَ المَلِكُ إذا استُجِدَّتْ قصيدةٌ يقول : علَّقوا لنا هذه ، لتكونَ في خِزانتِهِ .

- ورُوي أنَّ بعضَ أمراءِ بني أمية أمرَ من اختارَ له سبعة أشعار فسماها المُعلِّقاتِ وقد طرَحَ عبدُ الملك بن مروان شِعرَ أربعةٍ منهم ، وأثبتَ مكانَهُم أربعة .
والحديثُ عن المُعلِّقاتِ طويلٌ وشائقٌ ولا ينتهي ، ولكن ذكرنا ما يشفي الغلَّةَ وبيل الصَّادي .

(١) «داحِسٌ والغبراء» : اسمَا فرسينِ لقيس بن زهير بن جذيمة العبسي ، وكانتِ الحربُ بين عبس وذبيان أربعين سنة من أجلهما .

الرَّغَائِبَ ، لذلك كَانَ عنترةٌ من فرسانِ العربِ المعدودين^(١) ؛ وكان ممن سَطَعَ نجمُهُ في معاركِ داحس والغبراء .

قال ابنُ قتيبةَ : وكان عنترةٌ قد شهد حربَ داحس والغبراء ، فحُسِّنَ فيها بلاؤُهُ ، وَحُمِدَتْ مشاهدُهُ .

* ويُقال : إِنَّهُ حاربَ كذلك مع قبائلِ العربِ ضدَّ الفُرسِ في يومِ ذي قارِ عامِ البعثة (٦١٠ م) ؛ ويُقال : إِنَّ الخبرَ عندما وصلَ رسولُ الله ﷺ قال : « هذا أَوَّلُ يومٍ أخذت فيه العربُ منَ العجمِ بحقٍّ » .

* ولعنترةَ حروبٌ ذائعةُ الصَّيتِ مع قبيلتِهِ عِيسَ ضدَّ أعدائها من مثليِ ذبيانَ ، وتميمِ وطِيءَ ، ثمَّ إِنَّهُ كَانَ صاحبَ يومِ المُريقِيبِ الذي انتصرت فيه عِيسَ على فزارَةَ ، ثمَّ كَانَ له الفضلُ في انتصارِ عِيسَ على تميمِ ، حيثَ وَلَّى قيسُ بنُ زهيرٍ هارباً ، وبقيَ عنترةٌ مع أبطالِ عِيسَ . وعندما علِمَ قيسُ بنُ زهيرٍ بأنَّ عنترةَ هو الذي أنقَذَ النَّاسَ من الهلاكِ ، قال : واللهِ ما حمى النَّاسَ إلَّا ابنُ السَّوداءِ . وكان قيسٌ أَكولاً فبلغَ عنترةَ ما قال ، فقال يعرضُ في قصيدته التي يقولُ فيها :

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظلهُ حَتَّى أَنالَ به كريمَ المأكَلِ
مما جعلَ رسولُ الله ﷺ يُعْجَبُ بهذا البيتِ ، ويقولُ : « ما وُصِفَ لي

(١) قال أبو عُبَيْدة : فرسانُ العربِ المُجمَع عليهم : دريدُ بنُ الصَّمة ، وعنترةُ العبسيُّ ، وعمرو بنُ معدِي كَرَب ؛ وقد عدَّ من أَكابرهم : عامرُ بنُ الطَّفيلِ ، وعُتَيْبَةُ بن الحارثِ ، وعَنْسَةَ بنَ الحارثِ ، وزيدُ الفوارسِ ، والحارثُ بنُ ظالمِ ، وعبَّاسُ بنُ مرداسِ ، وعروةُ بنُ الوردِ ، ومن فتاكِ الجاهليةِ : الحارثُ بنُ ظالمِ ، والبرَّاضُ بنُ قيسِ ، وتأبطُ شراً ، وحنظلةُ بنُ فاتكِ الأسديِّ . ومن رجالاتهم : أوفى بنُ مطرَ المازنيِّ ، وسليكَ بنُ سُلَكَة ، والمنتشرُ بنُ وهبِ الباهليِّ ، وكلُّ واحدٍ منهم كَانَ أَشدَّ عدوًّا منَ الطَّيِّبِ ، وربَّما جاعَ أَحدهم فيعدو إلى الطَّيِّبِ فيأخذُ بقرنِهِ ، ولا يحملون زاداً ، ومنهم الشَّنْفَرِيُّ . (محاضرات الأدباء ١٤١/٣)

أعرابيٌّ قطّ فأحببتُ أن أراهُ إلا عنترة»^(١)!!

* وتروي أخبارُ عنترةَ جانباً من عفته التي رسمها في شاعريته الجميلة المِعطاء ، والتي تظهرُ شخصيته النَّادرة في العفافِ والبعدِ عن الفواحشِ .

* لقد حَدَثَ أَنَّ امرأةَ أبيه سُمِّيَ كانت تحتكُ به ، وتدفعُ أباه إلى ضربه ، ولعلَّ مردَّ ذلك إلى الغيرة الموجودةِ عند النساءِ من الأبناءِ الثَّجباءِ من غيرهنَّ ، وربما تَخْتَلِقُ إحداهنَّ حدثاً لتشتفي ممَّا عراها من ابنِ زوجها .

* وتروي الأخبارُ العنتريةُ التي وصلت إلينا عَبْرَ المصادرِ الأدبيةِ وكتب الأخبارِ والأسمار ، أَنَّ سُمَيَّةَ امرأةَ أبيه جاءتْ شداداً مرَّةً وقالت له : إِنَّ عنترةَ يراودني عن نفسي ، فغضبَ والدُّهُ غضباً شديداً ، وضربه ضرباً مبرحاً ، بل ضربه بالسَّيفِ حتى سالتَ دماؤُه ، ولما رأتْ سُمَيَّةَ ما بهِ من جراح ، كفَّته عنه وبكتْ نادمةً عمَّا بدرَ منها من اتِّهامِ عنترةَ بما لا يليقُ به ، فقالَ في ذلك :

| | |
|---|-------------------------------------|
| أمنَ سُمَيَّةَ دمعُ العينِ مذروفُ | لو أَنَّ ذا منكِ قبلَ اليومِ معروفُ |
| كأنَّها يومَ صدَّتْ ما تكلمني | ظبيُّ بعُصفانِ ساجي الطَّرفِ مطروفُ |
| تجلَّلتني إذ أهوى العَصَا قبلي | كأنَّها صنمٌ يُعتَادُ معكوفُ |
| المالُ مالكمُ والعبدُ عبدكمُ | فهلْ عذابك عني اليومَ مصروفُ |
| تنسى بلائي إذا ما غارةُ لقحتُ | تخرجُ منها الطَّوالُ السَّرايفُ |
| يخرجنَ منها وقد بُلَّتْ رحائلُها | بالماءِ يركضُها المُرْدُ الغطاريفُ |
| قد أظعنُ الطَّعنةَ النَّجلاءَ عن عُرْضِ | تصفرُّ كفُّ أخيها وهو منزوفُ |

(١) انظر: الأغاني (٨/ ٢٥٠) ، وألف باء للبلوي (٢/ ٤٩١) . وفي النفس شيء من هذه الرواية على هذه الشاكلة!!!!

لَشَكَّ لِلْمَرْءِ أَنَّ الدَّهْرَ ذُو خَلْفٍ فِيهِ تَفَرَّقَ ذُو الْإِفِّ وَمَأْلُوفُ^(١)

عَنْتَرَةُ وَالْوَقَائِعُ :

* خَصَّ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - الْعَرَبَ مِنَ الشَّجَاعَةِ فِي حُرُوبِهِمْ ، وَالتَّجْدَةِ فِي مَصَابِرَةِ عَدُوِّهِمْ ، مَا شَهِدَتْ بِهِ تَوَارِيخُ الْأُمَمِ ، وَاعْتَرَفَتْ بِهِ أَلْسُنُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ، وَمَنْ قَرَأَ الْكُتُبَ الْمُؤَلَّفَةَ فِي أَيَّامِهِمْ ، وَسِيرِهِمْ فِي سَالِفِ أَعْوَامِهِمْ ، تَبَيَّنَ لَدَيْهِ أَنََّّهُمْ لَمْ يَشْهَرُوا حَرْبًا فِي نِزَاعٍ إِلَّا صَابَرُوا حَتَّى انْجَلَتْ عَنْ ظَفَرٍ أَوْ دِفَاعٍ ، وَهُمْ فِي مَوْقِفِهِمْ لَمْ يَزُولُوا عَنْهُ هَرْبًا ، وَلَا حَازُوا فِيهِ رَغْبًا ، بَلْ ثَبَتُوا بِقَلْبٍ آمِنٍ ، وَجَأَشٍ سَاكِنٍ .

* قِيلَ لِعَنْتَرَةَ : كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَ الْفُرُوقِ^(٢) ؟

(١) انظر: ديوانه (ص ٢٧٠ و ٢٧١) ، والأغاني (٨/ ٢٤٤ و ٢٤٥) ، والفروسيّة العربيّة في العصر الجاهلي (ص ٩٥ و ٩٦) مع الجمع والتصرّف. ومعنى: «مذروف»: التذريف: سَيْلَانُ الدَّمْعِ. و«صَدَّتْ»: أَعْرَضَتْ. و«عُسْفَانٌ»: مِنْهُلَةٌ مِنْ مَنَاهِلِ الطَّرِيقِ بَيْنَ الْجُحْفَةِ وَمَكَّةَ. و«سَاجِي الطَّرْفِ»: فَاتَرِ النَّظَرَ ، و«مَطْرُوفٌ»: الَّذِي طُرِفَتْ عَيْنُهُ بِثُوبٍ. و«تَجَلَّلْتَنِي»: أَي: وَقَعَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ أَبِي ، وَكَانَتْ قَدْ أَلْقَتْ نَفْسَهَا عَلَيْهِ حِينَ أَرَادَ أَبُوهُ ضَرْبَهُ. و«مَعْكُوفٌ»: الَّذِي يُعْكَفُ عَلَيْهِ. و«الْمَالُ مَالَكُمْ وَالْعَبْدُ عَبْدَكُمْ»: يَخْبِرُ عَنْ نَفْسِهِ وَيَعْتَرِفُ لِأَبِيهِ بِالْعُبُودِيَّةِ لِأَنَّهُ كَانَ ابْنَ أَمَةٍ ، وَقَالَ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَدْعِيَهُ أَبُوهُ وَيَعْتَقَهُ وَيُلْحِقَهُ بِنَسَبِهِ. و«تَنَسَّى»: أَرَادَ أَتَنَسَّى. و«الطَّوَالَاتُ»: جَمْعُ طَوَالَةٍ مِنَ الْخَيْلِ. و«السَّرَاعِيفُ»: جَمْعُ سَرَعُوفَةٍ وَهِيَ الْجَرَادَةُ ، شَبَّهَ إِنْثَاءَ الْخَيْلِ فِي ضَمَرٍ مُقَدَّمِهَا وَامْتِلَاءٍ مُؤَخَّرِهَا وَخَفَّتْهَا بِالْجَرَادَةِ. و«رَحَائِلُهَا»: جَمْعُ رَحَالَةٍ وَهِيَ مِثْلُ الرَّحْلِ وَكَانَتْ الرَّحَائِلُ سُرُوجَ الْعَرَبِ. و«الْمَرْدُ»: الَّذِينَ لَمْ تُدْرِكْ لِحَاهُمْ بَعْدَ. و«الْغَطَارِيفُ»: الْأَسْخِيَاءُ الْكَرَامُ ، وَيُقَالُ: هُمْ الطَّوَالُ ، وَاحِدُهُمْ غَطْرِيفٌ ، وَأَصْلُ الْغَطَارِيفِ الْبَازِي فَاسْتَعِيرَ لِلرَّجُلِ. و«النَّجْلَاءُ»: الْوَاسِعَةُ ، وَالنَّجْلُ سَعَةُ الْعَيْنِ. و«عَرَضِي»: أَيِ اعْتَرَضَ الْفَارِسَ فَاطْعَنَهُ. و«مَنْزُوفٌ»: الَّذِي فَنِيَ دَمُهُ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلسُّكْرَانِ نَزِيفٌ ، لِأَنَّ السُّكْرَ يَسْتَخْرِجُ عَقْلَهُ وَيَسْتَنْفِذُ قُوَّتَهُ.

(٢) «الْفُرُوقُ»: هُوَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ الشَّهِيرَةِ.

قال: كُنَّا مئةً كالذهب ، لم نكثر فننكل^(١) ، ولم نقل فنذل^(٢) .

* هذا وقد كان لعنترة حروبٌ مشهورةٌ خلّدها التاريخ ، منها ما هو داخلُ الجزيرة العربية ، ومنها ما هو خارجُها ، فقد كان عنترة فارساً في جميع المعارك التي خاضها ، من مثل: يوم المريقب ، أو يوم شعب جبلة^(٣) .

* وقد برزت فروسيّة عنترة في يومٍ أقرن ، وهو يومٌ مشهورٌ في تاريخ الحروب بين عبسٍ وبني تميم ، فقد ذكر عنترة هذا اليوم ، وخلّده بقصيدةٍ منها هذه الأبيات :

سَتَذْكُرُنِي الْمَعَامُ كُلَّ وَقْتٍ عَلَى طُولِ الْحَيَاةِ إِلَى الْمَمَاتِ
وَإِنِّي الْيَوْمَ أَحْمِي عَرْضَ قَوْمِي وَأَنْصُرُ آلَ عَبْسٍ عَلَى الْعُدَاةِ
وَأَخْذُ مَالَنَا مِنْهُمْ بِحَرْبٍ تَخْرُ لَهَا مُتَوْنُ الرَّاسِيَاتِ^(٤)

* وفي واحدةٍ من غاراته على كندةٍ وخثعم يوردُ شجاعته ، ثم يذكرُ محبوبته عبلةً بفعله ، وإقناعها بجدارته وأحقّيته في قبولها به زوجاً لها فيقولُ :

أَلَا يَا عَبْلَ قَدْ عَايَنْتِ فِعْلِي وَبَانَ لِكَ الضَّلَالُ مِنَ الرَّشَادِ
طَرَقْتُ دِيَارَ كَنْدَةَ وَهِيَ تَدْوِي دَوِيَّ الرَّعْدِ مِنْ رُكُضِ الْجِيَادِ
وَبَدَدْتُ الْفَوَارِسَ فِي رَبَاهَا بَطْعِنٍ مِثْلَ أَفْوَهِ الْمَزَادِ

(١) «ننكل»: نجبن وتناخر.

(٢) انظر: بلوغ الأرب (١/١٠٧).

(٣) «يوم شعب جبلة»: من أعظم أيام العرب ، كان قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة فيما قيل.

(٤) هاتان القصيدتان لم تردا في ديوان عنترة طبعة المكتب الإسلامي بدمشق ، ونشأ فيهما.

وخشعُمُ قد صبحناها صباحاً بكوراً قبل ما نادى المُنادي
وعُدْنَا بالنَّهاب وبالسَّرايا وبالأُسرى تكبَّلُ بالصَّفادِ
* ويومُ ذي قارِ يومٌ مشهودٌ منْ أيامِ العربِ في الجاهليَّةِ الذي اجتمعَ
العربُ فيه لأوَّلَ مرَّةٍ لحربِ العجمِ كأمةٍ واحدةٍ ، ويقالُ : إنَّ عنترَةَ قد شاركَ
في هذه الوقعة ضدَّ الفُرسِ . . . وهذا اليومُ مُتعالَمٌ في التَّاريخِ ، وهو منْ
أشهرِ أيامِ العربِ معِ العجمِ ، وقد افتخرَ فيه الشُّعراءُ ؛ من ذلك ما قاله
العديل بن الفرخ العجليّ :

مَا أَوْقَدَ النَّاسُ مِنْ نَارٍ لِمَكْرَمَةٍ إِلَّا اضْطَلِينَا وَكُنَّا مُوقِدِي النَّارِ
وَمَا يَعْدُونَ مِنْ يَوْمٍ سَمِعْتُ بِهِ لِلنَّاسِ أَفْضَلَ مِنْ يَوْمِ بَذِي قَارِ
جئنا بأسلابهم والخيْلُ عايِسةَ لما استلبنا لكسرى كلَّ إِسوارِ^(١)
* وقال أبو كلبة التيميّ :

لَوْ لَا فَوَارِسُ لَا مِيلٌ وَلَا عَزْلٌ مِنَ اللَّهَازِمِ مَا فُزْتُمْ بِبَذِي قَارِ
إِنَّ الْفَوَارِسَ مِنْ عَجَلٍ هُمْ أَنْفَوَا مِنْ أَنْ يَخْلُوَا لِكَسْرِي عَرَصَةَ الدَّارِ^(٢)
* ويروى أنَّ عنترَةَ قد ساهمَ في يومِ ذي قارِ ، وفي بعضِ المصادرِ
قصائد قالها أثناء خروجه لحربِ العجمِ ، ولكن دون أن يذكرَ موقعةَ ذي
قار صراحةً كقوله المنسوب إليه :

كَأَنَّ دِمَاءَ الْفُرسِ حِينَ تَحَدَّرَتْ خَلُوقُ الْعِذَارِي أَوْ قَبَاءُ مَدَبَجٍ
فَوَيْلٌ لِكَسْرِي إِنْ حَلَلْتُ بِأَرْضِهِ وَوَيْلٌ لَجَيْشِ الْفُرسِ حِينَ أَعْجَجُ
وَأَحْمَلُ فِيهِمْ حَمْلَةً عَنَتْرِيَّةً أَرُدُّ بِهَا الْأَبْطَالَ فِي الْقَفْرِ تَنْبِجُ!!
* ويعتزُّ عنترَةُ بفروسيَّتهِ وشجاعتهِ في معاركه ، ويهددُ الفُرسَ بالويلِ
والثُّبورِ ، فيقولُ :

(١) انظر: العقد الفريد (٥/٢٢٦) ، وأيام العرب (ص ٣٧) .

(٢) أيام العرب (ص ٣٧) .

وَلَقَدْ لَقِيتُ الْفَرَسَ يَا بَنَّةَ مَالِكٍ وجيوشها قد ضَاقَ عنها البيدُ
وَتَمَوْجُ مَوْجِ الْبَحْرِ إِلَّا أَنَّهَا لَاقَتْ أَسوداً فوقهنَّ حديدُ

* وفي قصيدة أخرى يتوعد فيها جموع الفرس بالحرب فيقول :

يَا عِبْلَ لَا تَحْشَى عَلَيَّ مِنَ الْعِدَا يوماً إذا اجتمعتْ عليَّ جموعُها
إِنَّ الْمَنِيَّةَ يَا عُيْلَةَ دَوْحَةٌ وأنا ورمحي أصلُها وفروعُها
وَعَدَا يَمُرُّ عَلَى الْأَعَاجِمِ مِنْ يَدِي كأسٌ أَمُرُّ مِنَ السُّمُومِ نَقِيعُها
وَإِذَا جِيوشُ الْكِسْرِيِّ تَبَادَرَتْ نَحْوِي وَأَنْبَتُ مَا تَكُنُّ ضُلُوعُها
قَاتَلْتُهَا حَتَّى تَمَلَّ وَتَشْتَكِي كَرَبَ الْغُبَارِ رَفِيعُها ووضِيعُها
يَا عِبْلُ لَوْ أَنَّ الْمَنِيَّةَ صُوِّرَتْ لغدا إلي سجدُها وركوعُها

* هذا وقد اشتهر كثيرٌ من فرسانِ عبسٍ غيرِ عنترة ، إلا أنَّ شهرةَ عنترة قد غطَّتْ أخبارَ غيره ، وفاقتْ شهرته كلَّ شهرةٍ في دنيا الفروسية ، وفي دنيا البطولة ، ترى هل كلَّ ما جاءنا عن عنترة نسلمُ به؟! وهل كلَّ ما وصلَ إلينا عن عشقِ عنترة لعبلة نسلمُ به أيضاً؟ هذا ما ستجلو بعضه الصِّفحات التَّاليات .

عَنْتَرَةُ وَعَبْلَةُ وَالْقَصَصُ الْغَرَامِيُّ :

* دعني - عزيزي القارئ - أحدثُكَ قليلاً عن الغزلِ والقَصَصِ الْغَرَامِيِّ في الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ ، كيما تتوضحَ صورةُ فارسنا وفارسِ التَّاريخِ الْحَرَبِيِّ عنترة بن شداد ، وكيما نأخذَ فكرةً واضحةً عن طبيعةِ الغزلِ عصرِ ذاك .

ودعني أَسْرِّحُ معكَ النَّظَرَ في الغزلِ ، كيما يكونَ الحديثُ أحلى وأشهى أيضاً ، لأنَّ غزلَ الجاهليين يوضحُ معالمَ حياتهم ، ويكشفُ مكنوناتِ نفوسِهِمْ ، بل نجدُهُم يتَحَسَّسونَ جمالَ المرأةِ بِشكْلِ فطريٍ يشيرُ إلى تذوقِهِم للجمالِ بكلِّ ألوانِهِ وأشكالِهِ وأنواعِهِ .

* فمما لاشك فيه أنَّ الغزلَ وَلِيدُ العاطفةِ ، والعاطفةُ أَسْبَقُ في تاريخِ الإنسان - بِعَاقَمةٍ - من الفِكرِ ، بيد أنَّ غزلَ الجاهليين كان في معظمِ الأوقاتِ والأحايين مقدَّمةً لفنونٍ أخرى : كالمدحِ ، أو الهجاءِ ، أو الفخرِ .

* وإذا تصفَّحتَ مجموعةً من مجموعاتِ الأدبِ الجاهليِّ ، أو قرأتَ معلَّقةً من المعلَّقاتِ ، فسترى أنَّ الغزلَ الجاهليَّ هو غزلُ الذَّكرِ بالأنثى ، يتَّسمُ بالقصصِ والحكاياتِ ، كما نقرأُ هذا النَّوعَ في شعرِ امرئ القيسِ وخاصةً في معلَّقةِ الشَّهيرةِ التي يتغزلُ فيها بأُمِّ الحويرث وجارتها أُمِّ الرِّبابِ في مكانٍ يسمى مأسل^(١) .

* وهكذا نجدُ هؤلاء الشعراءَ الذين يتغزلون؛ تَشَابَهُ مقاصدُ غزلهم ، ومعظمهم يتعمَّدُ القصصَ الغراميَّ في شعره وأغزاله ، ولكنَّا نؤكدُ أنَّ ما وصل إلينا من شعرِ عنترة الغزليِّ في محبوبته عبلة بنت مالك ، يظهره لنا شاعراً وفارساً متغزلاً بشيءٍ من مذهبِ العذريين - إن صحَّ القياس - ، ويظهر لنا أنَّ قصةَ عنترة أسطورةٌ مضخَّمةٌ زادَ فيها الرُّوابةُ وأهلُ الأخبارِ ما شاء لهم أن يزيّدوا ، وشرَّفوا وغرَّبوا ، حتى غدت قصَّته من روائعِ الأساطيرِ ، وحتى غدا عنترةُ العاشقُ الولهاني ، والفارسُ الهيماني شخصيّةٌ رسمتها مخيَّلةُ القُصَّاصِ في عصرٍ متأخِّرٍ عن عصرِ الجاهليّةِ ، وصار عنترةُ رمزَ الفرسانِ ورمزَ العشاقِ ، ورمزَ محبي الحريّةِ وعشاقها .

* إنَّنا بدورنا يساورنا الشَّكُّ في كثيرٍ من الشعرِ الغزليِّ الذي وصلَ إليها عن طريقِ المصادرِ المتنوّعةِ ، والذي يُنسبُ إلى عنترة ، بل نكادُ نرفضه رفضاً ولا نقبلُ به ضيفاً على فارسنا عنترة ؛ ودليلنا أنَّ أنفاسَ عنترة بن شداد الشعريّةِ في معلَّقةٍ لا تتشابهُ مع الأغزالِ المنسوبةِ إليه ، وهاهي مُعلَّقةٌ عنترة

(١) انظر: شرح ديوان امرئ القيس لحسن السندوبي (ص ١٢٥) .

مُعَلَّقَةٌ أَمَامَكَ فِي دِيوَانِهِ وَفِي كَثِيرٍ مِنْ كُتُبِ الْحِمَاسَةِ وَدَوَاوِينِ الْأَدَبِ ،
فَتَصَفِّحِ الْمُعَلَّقَةَ وَتَمَعَّنْ فِيهَا ، ثُمَّ تَأْكُلْ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةَ الْمَتَنُوعَةَ وَالْمُلَوَّنَةَ
وَالْمَزْخَرَفَةَ الَّتِي جُمِعَتْ بِاسْمِ : « دِيْوَانِ عَنْتَرَةَ » سَتَرَى بِبَصِيرَتِكَ وَتَذَوِّقُكَ
لِلْأَدَبِ وَفَنُونِهِ أَنْ لَيْسَ ثَمَّةَ وَجْهِ لِّلْمِشَابَهَةِ ، وَأَنْ كُلَّ صَنْفٍ يَخْتَلِفُ عَنِ
الْآخَرِ شَكْلًا وَرُوحًا .

* وَلَكِي لَا يَغْضَبُ مِنَّا مَحْبُو عَنْتَرَةَ نَقُولُ لَهُمْ : إِنَّهُ شَخْصِيَّةٌ ضَمَّنَهَا
الْقِصَاصُ بُعِيدَ صَدْرِ الْإِسْلَامِ مَا شَاءَ لَهُمُ الْخِيَالُ ، إِذْ لَا نَعْرِفُ فِي الْعَصْرِ
الْجَاهِلِيِّ شَاعِرًا تُشَبِّهُ أَغْزَالَ الْعَذْرَاةِ الَّتِي وَضَحَتْ وَتَنَفَّسَ صَبْحُهَا
فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ ، وَلَعَلَّ مُحِبِّي فَارِسِ الشُّعْرَاءِ عَنْتَرَةَ قَدْ انْتَحَلُوا كَثِيرًا مِنْ
الْقِصَائِدِ وَالْمَقْطَعَاتِ وَالْأَغْزَالِ ، وَمِنْ ثَمَّ نَسَبُوا مَا زَعَمُوا إِلَى عَنْتَرَةَ لِسَيُورَةِ
قِصَّتِهِ بَيْنَ الْعَامَّةِ وَبَعْضِ الْخَاصَّةِ .

* وَالْآنَ دَعْنِي أَهْمِسُ فِي أُذُنِكَ شَيْئًا عَنْ غَزَلِ فَارِسْنَا عَنْتَرَةَ بِشَيْءٍ مِنْ
التَّفْصِيلِ ، وَنَضَعُ النِّقَاطَ عَلَى الْحُرُوفِ لِتَتَوَضَّحَ الْمَعَانِي وَالْكَلِمَاتُ .

* فَالْحَدِيثُ عَنِ الْغَزَلِ فِي حَيَاةِ فَارِسْنَا عَنْتَرَةَ أَمْرٌ شَبَّهَ طَبِيعِي ؛ مَا دَامَ
عَنْتَرَةُ رَجُلًا يَحْسُ بِمِيلِهِ إِلَى الْأُنْثَى وَإِلَى ابْنَةِ عَمِّهِ عِبِلَةَ .

* وَالَّذِي يَعِيشُ مَعَ شَعْرِ عَنْتَرَةَ يَجِدُ أَنَّهَا يَتَغَنَّى فِي إِبْرَازِ شَخْصِيَّتِهِ أَمَامَ
الْمُحِبَّةِ ، لَعَلَّهَا تَبَادَلَهُ حُبًّا بِحُبٍّ ، وَعَاطِفَةً بِعَاطِفَةٍ ، وَنَلْمُحُ جَانِبًا مِنْ
غَزَلِهِ الَّذِي يُعْنَى بِالْأَخْلَاقِ أَكْثَرَ مِنَ التَّغَزُّلِ بِجَمَالِ الْمُحِبَّةِ الْمَادِي أَوْ
الْحَسَنِيِّ ، اللَّهُمَّ إِلَّا شَذَرَاتٍ لَطِيفَةٍ وَرَدَتْ فِي مَعْلَقَتِهِ حَيْثُ يَقُولُ مَصُورًا
جَمَالَ عَيْنَيْهَا ، وَطِيبَ فَمِهَا ؛ فَاسْمَعْ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الِهْمَسَاتِ :

دَارُ لَانِسَةٍ غَضِيضٍ طَرَفُهَا طَوْعِ الْعَنَاقِ لَزِيدَةِ الْمُتَبَسِّمِ
إِذْ تَسْتَبِيكَ بِأَصْلَتِي نَاعِمِ عَذْبِ مُقَبَّلِهِ لَزِيدِ الْمُطْعَمِ

وَكَاثِمًا نَظَرْتُ بَعَيْنِي شَادِنٍ رَشَاءٍ مِّنَ الْغَزَلَانِ لَيْسَ يَتَوَعَّمُ^(١)

* وَيَبْلُغُ عَنْتَرُهُ مَحْبُوبَتَهُ بِأَنَّهَا أَخَذَتْ مِنْ نَفْسِهِ الْمَسَاحَةَ الْكُبْرَى ، وَأَنَّهَا

اِحْتَلَتْ قَلْبَهُ وَنَزَلَتْ مِنْ نَفْسِهِ مَنَزَلَةُ الْمُحِبِّ الْمُكْرَمِ الْمُخْلَصِ :

وَلَقَدْ نَزَلَتْ فَلَا تَظَنِّي غَيْرَهُ مَنِّي بِمَنَزَلَةِ الْمُحِبِّ الْمُكْرَمِ

* وَفِي غَزَلِهِ يَظْهَرُ عَنْتَرُهُ أَنَّهُ لَا يَرِيدُ غَيْرَ عِبِلَةٍ ، بَلْ إِنْ عِبِلَةٍ نَفْسَهَا تَخْبِرُ

بِأَنَّهُ لَا يَرِيدُ غَيْرَهَا :

وَلَئِنْ سَأَلْتَ بِذَاكَ عِبِلَةً خَبَّرْتُ أَنَّ لَا أَرِيدُ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهَا

* نَعَمْ إِنْ سَأَلْتَ عِبِلَةَ الْمَحْبُوبَةِ لَمَّا وَصَفْتُ مِنْ خِصَالِي^(٢) ، إِلَّا

مَا حَقَّقْتُ وَمَا وَصَفْتُ ، فَأَخْبَرْتُ أَنِّي مُسْتَمْسِكٌ بِحَبْلِ الْخَلِيلِ ، وَاصِلٌ

لَهُ ، وَأَنِّي لَا أَرِيدُ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهَا ، وَلَا أَخْصَنُّ بِهَوَايَ غَيْرَهَا .

* نَعَمْ فَعِبِلَةُ امْرَأَةٍ نَادِرَةٌ فِي الْوَفَاءِ ، وَكَانَتْ مِنْ أَسْبَابِ شَهْرَةِ عَنْتَرَةٍ ،

كَمَا كَانَ هُوَ مِنْ أَسْبَابِ شَهْرَتِهَا .

* وَيُمْكِنُ لَنَا أَنْ نَقُولَ : لَقَدْ تَمَثَّلَ فِي الْمَرْأَةِ عَصْرُ ذَاكَ الْجَمَالِ الْحَيِّ ،

فَكَانَ لَهَا سِحْرُهَا الرُّوحِيُّ فِي نَفُوسِ الرِّجَالِ ، وَكَانَ لَهَا سُلْطَانُهَا عَلَى

مُشَاعِرِهِمْ وَهَمَسَاتِهِمْ وَأَحَاسِيْسِهِمْ ، لِذَلِكَ كَانَتْ مَلْهَمَتَهُمْ فِي رِوَايَتِهِمْ ،

(١) ديوانه (ص ١٩٤ و ١٩٥) . ومعنى «الآنسة» : ذات الأنس . و«غضيض طرفها» :

فاتر . و«تستيك» : تذهب بعقلك . و«أصلتي» : الثغر البراق والناعم الشديد البياض

الكثير البريق . و«لذيذ المطعم» : إذا قبلته وجدت له طعماً لذيذاً وريحاً طيبة .

«وشادن» : الغزال . و«رشأ» : هو الغزال الحسن .

(٢) يقصدُ عنترة بخصاله ما جاء في قصيدته نفسها قوله يصف عفته وأخلاقه :

أَغْشَى فِتَاةَ الْحَيِّ عِنْدَ حَلِيلِهَا وَإِذَا غَزَا فِي الْجَيْشِ لَا أَغْشَاهَا

وَأَغْضُ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَاؤَاهَا

إِنِّي أَمْرُؤُ سَمَحُ الْخَلِيقَةِ مَا جَدُّ لَا أُتْبِعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا

(ديوانه ص ٣٠٨)

وباعثة عواطفهم الصّافية الرقراقة التي خلّدوا لنا فيها أدباً يحمل كلّ معاني الجمال .

* إنّ إعجاب الفارس العربيّ والشاعر الجاهلي بالمرأة كان مُتكاملاً ، فلم يقف عند الاحتفاء بجمالها الجسديّ ، بل يتعدّى ذلك إلى الاحتفاء بجمالها الرّوحي ذي الأثر العميق .

* وفي تقديرنا أنّ عنترة قد وَجَدَ في محبوبته عبلة المثل الأعلى الذي يصوّره ، فهو يتوجّه إليها بأجمل أغانيه ، ويقدم لها كل ما يقوم به من أعمال بطوليّة ، فهو ينادي باسمها في سويقات القتال الحرجة ، وأويقات اشتجار الرّماح ، وسماع صليل السيوف وصهيل الخيول .

* إنّ الحبّ العنثريّ مقرونٌ بالفروسيّة والعفاف ، وهو حبٌّ فيه حرصٌ على الأعراض ، ومحافظةٌ على القيم النبيلة ، وسعيٌّ إلى إعلاء شأن عبلة ؛ ولهذا يقول :

هَلَّا سَأَلْتُ الْخَيْلَ يَا بَنَةَ مَالِكٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
يَخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّنِي أَغْشَى الْوَغَى وَأَعَفْتُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ
* ولم يكن عنترة وحده في هذا الميدان ، بل كان هناك فرسان آخرون تحدّثوا عن بطولاتهم في الحرب^(١) ، وثباتهم في المعارك ، وأخبروا

(١) من هؤلاء الشعراء الفرسان عامرُ بنُ الطفيل العامريّ الذي يُخاطب المرأة فيقول :

إِنْ تَسْأَلِي الْخَيْلَ عَنَّا فِي مَوَاقِفِهَا يَوْمَ الْمُشَقِّرِ وَالْأَبْطَالِ فِي زَعَجِ
يَخْبِرُكَ أَنِّي أَعِيدُ الْكَرَّ بَيْنَهُمْ إِذَا الْقَنَا حُطِمَتْ فِي يَوْمٍ مُّغْتَلَجِ
وَقَالَ عامرٌ أيضاً مفتخراً ببسالته وقوّته ، ويوجّه قوله إلى الحبيبة :

هَلَّا سَأَلْتُ بَنَاتِ بَنَاتِ حَفِيَّةَ يَالْقَاعَ يَوْمَ تَوَرَّعَتْ نَهْدُ
أَيُّ الْفَوَارِسِ كَانَ أَنَّهُكَ فِي الْوَغَى لِلْقَوْمِ لَمَّا لَاحَهَا الْجَهْدُ
لَمَّا رَأَيْتُ رِيسَهُمْ فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السَّبَاعِ كَأَنَّهُ لَهْدُ
(ديوان عامر ص ٤١) . ومعنى «حفية» : مشفقة بارة . و«تورعت» : تأخرت وجبت =

المحبوبة بما يشرفُ الفارس ، ويرفعُهُ إلى مصافِّ الأبطالِ الشُّجعانِ من حمايةٍ لها ، ورفعٍ لشأنها .

* إِنَّ حُبَّ عنترةَ يمثِّلُ الفروسيَّةَ الشَّريفةَ التي هيأت له الشهرة في عالمِ الفُرسانِ ، والقُدوةَ لدى الشُّجعانِ ، حيث كان لكلِّ فارسٍ محبوبته التي تُوحى إليه أمثلةُ الشَّجاعةِ ، فكانت فروسيَّةُ العربِ عصر ذاك فروسيَّةً نبيلةً تمتازُ بالتَّفاني ، وتتسمُ بالإخلاص .

* ومن المتوقع أن يكونَ عنترةُ ممن جَمَحَ به حبُّه ، وألهبَ عواطفه ، فرقت كلماته وراقَتْ ، ودفعه هذا الحبُّ إلى اقتحامِ المعاركِ الضَّاريةِ ، فخرجَ منها عالي الهامةِ ، منشراحَ الصدرِ ، مُسجِّلاً لقبيلته عُبس أيامها الخالدة في سجلِّ مفاخرها وأيامها .

* وأما حديثُ عبلةَ ابنة عمِّه التي شُغِفَ فؤاده بها حبًّا ، وأكثرَ من الأشعارِ فيها ، فكان يمثِّلُ عواطفه الملوَّنة من حرمانٍ ولوعةٍ وتظلمٍ ، كما كان يمثِّلُ غزله الرِّفيعَ في أبلغِ صُوره ، وأجلى معانيه ، وأسمى عواطفه ، لأنَّه نمطٌ طبيعيٌّ من أنماطِ حياته ومعيشته التي اختلطت فيها ألفاظُ الحربِ بألفاظِ الحبِّ .

* ويبدو أنَّ عبلةَ قد لعبت دوراً كبيراً في حياةِ عنترةَ بكلِّ صُورها ، فقد كانت ملهمته في ساحاتِ الحربِ ومقارعةِ الفُرسانِ ، وكان موحية الرِّقةِ

= وهابت . و«نهد» : قبيلة من قضاة . و«أنهك» : أشد . و«لاحها» : أضمرها وغير لونها و«لهد» : الورم .

- وقال المرقش الأكبرُ مخاطباً حبيته ، وواصفاً لها جدَّه وجُهدَه في الحرب :
هَلَا سَأَلْتِ بِنَا فَوَارِسَ وَائِلٍ فَلنَحْنُ أَسْرَعُهَا إِلَى أَعْدَائِهَا
وَلنَحْنُ أَكْثَرُهَا إِذَا عَدَّ الْحَصَى وَلَنَا فَوَاضِلُهَا وَمَجْدُ لَوَائِهَا
(المفضليات ٣ / ٣٤)

واللطف في لحظات الهدوء والاستقرار ، منحها الله طبيعة صافية فعرفت معاني الحياة الجميلة ، وأصبحت بهذا أغنية عذبة وأهزوجة نشوى تتردد على أنغام عنتره وأنفاسه ، فكان وهو في ذروة الحرب تعزُّ له ذكرها ، وتمرُّ صورتها في خياله ، ويتألق محيّاها في خاطره ، فيدفعه هذا كله لأن يطبع قبلة على صفحات السيف التي تكاد تنوشه ، وتعلوه النشوة ، ويتملكه الفخر ، فإذا به ينشدُ :

ولقد ذكرْتُكَ والرِّمَاحُ نواهِلُ مَنِيَّ وَيِيضُ الهِنْدُ تَقْطُرُ من دَمِي
فوددتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لَأَنَّهُا لَمَعَتْ كِبَارِقِ ثَغْرِكَ المَتَبَسِّمِ
* لقد أحبَّ عنتره عبلةً ، وقاتلَ في سبيلِ هواها ، فكان حُبُّه لها حبًّا خالصاً مجرداً ، تمثّلت فيه روحه الصادقة ، وتجسّدت أمانيه الروحية ، فعبرَ عن حُبِّه في نفسه ، وصدقه في عاطفته ، وجاءت كلماته مضمخة بالآمالِ العَبَلِيَّةِ .

* فعبله عاشت حياته كلها ، تمثّل له في كلّ سبيلٍ ، بل في جميع مسالكه ، وتشخصُ أمامه في دروبه وفي جَبَلِهِ وسَهْلِهِ ، ويتحمّلُ من أجلها أقسى المظالم ، ويتجرعُ بسببها أفظع أنواع العذاب ؛ ومع هذا كله لم يملِّ هواها ، بل يظلُّ مخلصاً لحبّها وفيّاً لهواها ، أميناً لذكرها ، لقد كانت عبلةً سبيلَ عنتره إلى معاني البطولة ومعالي الفروسيّة . . . :

ولئن سَأَلْتَ بِذاكِ عبلةً أَخْبَرْتُ أَنْ لَا أُرِيدُ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهَا
* والحبُّ الصّافي الخالصُ أهزوجةُ الوجودِ منذ كان الوجود ، فهو اللحنُ الجميلُ الذي ينسابُ من الأعماقِ ، ليظلَّ لطيفاً إلى النّهاية ، تختلجُ به الأعماقُ ، وتسمو بصفائه الأرواحُ ، ويطلقه المحبّون على شفاههم ، كلّما همست أنفاسُ العشّاق ، وخفقت قلوبهم بالأشواق .

* وهكذا داعبَ حبُّ عبلةٍ عنتره ، ولا مَسَّ حُبُّها شغافَ قلبه ، فكان

شاعراً رقيقَ الكلماتِ ، نديَّ الهمَّساتِ ، رفعه حبه لعلبةً إلى مراتبِ
الشُّعراءِ الفُرسانِ المجيدين ، ورافقه في جميع مواقفه ، فكان حافِزاً له على
الشَّجاعةِ والإقدامِ ؛ فعنترةُ عاشقٌ محبٌّ وامقٌ ، نفذَ الحبُّ إلى أغوارِ قلبه
فأزَّقه ، وعملت عبلَةٌ في تلك الرُّوح العنترية الجبَّارة عملها السَّحري
الأنثوي ، فأكسبتها لطفاً وجمالاً ، وليس كالمراةِ المحبوبةِ في تغذية الرُّوح
بالجمالِ واللفظِ ؛ فهي قد فجَّرتُ في نفسه ينابيع التَّسامي ، وألهمته أرقَّ
المعاني ، فعاشَ محلّقاً في سماءِ المُثل العُليا ، يناجي عبّلاً بِالطَّفِ كلمات
الودِّ ، وأعذبَ أناشيد الحياة ، فكان فارساً في حبه ، متألقاً في عاطفته .

* إِنَّ حَبَّ عنترة لعلبةٌ جعلَ منه رجُلاً فوقَ الرِّجال ، فمن أجَلِها خاضَ
غمارَ الحروبِ ، وسبى ما سبى من أبطالٍ ، ومن أجَلِها حمى حمى قومِه ،
ومن أجَلِ حبه لها طلبَ الحريةَ بكلِّ الوسائلِ كيما يتساوى مع مَنْ أحبَّ ،
فبدا شاعرَ المعامعِ وفارسها من ناحيةٍ ، وشاعرَ الحبِّ الدَّيِّحِ والغزلِ
الحزين من ناحيةٍ أخرى ، أليسَ هو الذي يقول عن هذا :

يا عَبلُ كَمْ مِنْ غَمرةٍ باشرتها بالنَّفسِ ما كادتُ لعمرِكَ تَنجَلِي
فيها لوامعُ لو شهدتِ زهاءَها لَسَلَوْتُ بعدَ تَخَضُّبٍ وتَكُحُّلٍ
إِما تَريني قد نَحَلْتُ ومن يَكُنْ غَرَضاً لأَطرافِ الأُسنةِ يَنحَلِ^(١)

* ومن الواضح أنَّ اسمَ عنترة ارتفعَ عالياً حتى وصلَ إلى أعظمِ درجاتِ
البطولةِ ، وازدانَ اسمُه بأسمى فضائلِ الفروسيةِ من شجاعةٍ وعطفٍ ، فكان
يتسامى في خُلُقِه ، وفي حبه ، لأنَّه كانَ يؤمِّنُ بهذا الحبِّ ، ويؤمِّنُ بأنَّ
حبيبته نزلت من قلبه منزلةً مَنْ يُحِبُّ ويُكرَّمُ .

* لقد ظلَّ عنترةُ يتغنَّى بعلبةٍ طوالَ حياتِه غناءَ المحبِّ الولهانِ ، فقد

(١) انظر : ديوانه (ص ٢٥٥ و ٢٥٦) ، ومختار الشعر الجاهلي للأعلم الشنمري (ص ٣٩٠) .

كانت نفسه خصبه ، فشدا بالشعر ، ومضى يتغنى بحبه غناء رائعاً ، فاقترنت الحماسة بالحب ، والألم بالشعر ؛ وقد كان عنتره يبرهن لعله بين الفينة والأخرى في كثير من أشعاره على أنه وإن كان قد فاته شيء من جمال الصورة ، فإنه لم يفتته جمال الشجاعة والخلال التي تستأثر بالقلوب وتأسر النفوس .

* لقد شغل الحبّ قسماً كبيراً من معلّقة عنتره ومن شعره ، وتراءت لعله في أشعاره عروساً من عرائس الشعر الخالد ، يغني لها أرق غناء ، وينشدّها أعذب ما تجيش به نفس وامقة عاشقة ، وينبض به قلب .

* ومن الغريب الذي نلمسه في السيرة العنترية ، والحبّ الشديد لعله ، أننا لم نجد معظم المؤرخين والرواة قد خصّوا لعله بجانب كبير من أخبارهم وآثارهم وذلك من خلال حديثهم عن عنتره ، بل تكاد تخلو روايات بعضهم من حبّها ، على الرغم من تردّد اسمها عشرات في شعره ، وفي معلّقة خاصّة ، فهم يكثرّون من الحديث عن جوانبه الأخرى ، ويهتمّون بالحديث والتحدّث عن وقائعه ، وأحواله وسواد بشرته وعبوديته وبطولته في حرب داحس والغبراء وغيرها ، وإذا ما قيض لهم المرور باسم لعله ، كان مرورهم لماماً ، وذكرهم عرضاً .

* والتاريخ يحدثنا عن محاولة عمّه مالك العبسي منعه من زواج ابنته لعله ، وإكراهها على الزواج من رجل آخر ، ليعدها عن عنتره ، بيد أنّ قلب عنتره يظلّ خافقاً بهمسات حبّها ، مشدوداً إلى نظراتها الحالمة ، وهو في كلّ هذا الفيض العاطفي ، لا يتناسى بطولته الحربية ، ولا ينسى سلاحه ، لأنّه وسيلته في الفروسيّة ، وطريقه إلى المجد ، ولكنّ هذه المحاولة التي حاولها عمّه لم تزده إلا تعلقاً بحبّ لعله ، ولم تفجّر في نفسه

إلا يبايع الحبّ العذبة التي لوّنت قصائده ، فكانت قلائد تحليّ جند الأدب العربي^(١).

* ومن الواضح أنّ عبلّة لم تكن ترافقُ عنترة في أغزاله وأشعار حبه ، بل رافقته في شعره الحماسيّ أيضاً ، وكثر ذكرها فيه ، ولا غرابة في هذا الأمر ، خصوصاً إذا عرفنا أنّ النضالَ العنيفَ الذي خاضه عنترة في حياته كان في سبيل حبه ، وعنترة كما يبدو لي يدركُ أغوار نفسِ النساء ، فهو يذكرُ لعبلة عفته وجوده وإبائه وشمائله كيما يستميل قلبها ، وكيما ينسيها سوادَ لونه الذي أثارَ في أعماقه الآلامَ الممضّة التي قضّت على الآمالِ الحلوة ، فكان لذلك الألمُ صدى في نفسه ، تمثّل في الحسرة والشجن ، ودفعته أحواله إلى صنعِ مالا يصنعه أكابرُ الفرسان :

هلاً سألتِ الخيلَ يا بنة مالك إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي
إذ لا أزالُ على رحالةٍ سابحٍ نهدي تعاوُرهُ الكُماةُ مُكَلِّمِ
يُخبرُك مَنْ شَهِدَ الوقائعَ أنني أغشى الوغى وأعفتُ عند المغنم^(٢)

* وعلى الرّغم ممّا فعله عنترة ، وممّا سجّله لقومه في ديوانِ مفاخرهم وسجّل مآثرهم ، وما فعلت كفّه في نحور أعدائهم ، إلا أنّ هذا كلّهُ لم يغيّر من حقيقة عنترة شيئاً في نظرهم ، فكان له معهم شكايّة ، وكان له منهم عتاب .

* لقد كانت عقدة اللونِ عند عنترة واضحةً في بعض أشعاره ، وكانت هذه العقدة سبباً من أسبابِ مأساته التي عاناها ، فقد كان المجتمعُ الجاهليُّ قاسياً على أولادِ الإماء ، فهم أغربةُ العربِ كما نعتوهم ؛ وما ذنبُ هؤلاء؟ بل ما حيلتُهم إذا خلقهم الله بهذا اللون ، ووسمهم بهذه السّمة؟!

(١) انظر: الفروسية في الشعر الجاهلي (ص ٢٩٣) بتصرف .

(٢) انظر: ديوانه (ص ٢٠٩) .

* ولكنَّ نفسَ عنترة الكبيرة لم تقفُ أمامها جميعُ هذه العوائقِ والعوائقِ ، ولم تحدِّدْ خطواتها تلكم العراقيلُ ، واستطاع عنترةُ أنْ يحققَ المعجزاتِ ، وأنْ يكسبَ الفخرَ ، ويخلدَ لعبس المناقبِ والمفاخرِ الحميدة .

* لقد كانت عظمَةُ نفسه تتجلَّى من خلالِ تلكِ القصائد التي جعلت منه علماً من أعلام الشَّجاعة والعِفَّة وعنواناً للحبِّ الصَّادق ، فتغنَّى به العشاقُ والأبطالُ الكرامُ ، وأصبح قصَّةُ تُروى على الأجيالِ وأحدوثه تُسمَعُ على مدى الأعوام .

* نعم لقد ملأَ حبُّ عبلة قلبه ، فجاشتْ نفسه غراماً ، وملك عليه جوانحه ، ومن خلالِ ذلك كانت ترسمُ لنا الصُّورة النَّادرة لعنترة ، التي تميَّزه عن جميعِ فرسانِ عصره .

* لقد أعطانا عنترةُ صورةً للعشقِ بمعناه الرُّوحي الذي يجعلُ منَ الفارسِ البطل إنساناً رقيقاً ، تسعده البسمةُ أكثر منَ اللمسةِ ، فعنترةُ محبٌّ صادقُ الحبِّ ، وليس ممن يطلبُ لذَّةً عابرةً ؛ وعنترةُ مصرٌّ على هذا الحبِّ ، مهما لاقى في سبيله من عقباتٍ ومصاعبٍ ومتاعبٍ ، ومن هذا المبدأ ظلَّ أدبه في محبوبته عبلة خالداً ، وحبُّه لها كان نموذجاً للعشاق العذريين فيما بعد ، لقد كان حبُّه عذباً صادقاً ، وعاطفته دفاقةً ، فكان مثلاً للخُلُقِ الرِّفيع ، والأدبِ السَّامي والفروسيَّة النَّادرة .

عَبْلَةٌ فِي هَمَسَاتِ عَنْتَرَةٍ :

* ألهمتْ فروسيَّةُ عنترة ابنة عمِّه عبلة ابنة مالك العبسيَّة ، تلك المحبوبة التي فجَّرت ينباعَ الإقدامِ في داخله ، وجعلته أسطورةً فرسانِ عصره ، حتى غدا اسمُها يقتَرَنُ باسمِه ، وحتى غزا اسمُها معظمَ أشعاره ، وظهرَ

على جميع أوتارِه ، فلا تكادُ تخلو مناسبة من ذكرِ اسمها^(١) .

* فلقد أصبحت فروسيته وحُبها شيئاً واحداً ، فهو عندما يشدو ويغني حُبّه ، فإنما يترنّم ويغني حُبّه ، وعندما يدخلُ المعركة فعبلةٌ هي المحبوبة الجميلة التي ترتسمُ في قلبه ومخيّلتَه ، وعلى بيضِ السُيوف ، ولها يهَبُ بطولته وإقدامه ، ويجعلها منى أمله وأملَ مناه ، وحبّ شوقه وشوقَ حُبّه ، لنستمعُ إلى همساتِ فؤاده وهو يترنّم متشوقاً إلى عبلة ، يتغنى بجمالها ، ولكنه لا ينسى شجاعته وسيفه وسانه :

أعبلّة قد زادَ شوقي ومَا أرى الدّهْرَ يُدْني إليّ الأحبّة
وكَمْ جُهدٍ نائبةٍ قد لَقِيت لأجلك يا بنتَ عمّي ونكبّه
فلو أنّ عينيّك يومَ اللّقاء ترى موقفي زدتِ لي في المحبّة
يفيضُ سناني دماءَ الثُّحور ورُمحي يشكُّ مع الدّرعِ قلبه
وأمرحُ بالسّيف تحت الغبارِ إذا ما ضربتُ به ألفَ ضربه
وتشهدُ لي الخيلُ يومَ الطّعان بأنّي أفرّقها ألفَ سرّبه
وإنْ كان جِلدي يُرى أسوداً فلي في المكارم عزٌّ وربّه^(٢)

(١) لقد تمثّل في عبلة - على ما يبدو - جمالُ المرأةِ الحيّ ، الذي جعلَ عنترةَ فارسَ الفرسانِ ، فقد كانت عبلة ذاتَ طبيعةٍ هادئةٍ ، وشكلٍ ساحرٍ ، وطلعةٍ بهيّةٍ ، ناهيك بالأناقة والملاحة ، فكانَ لها سحرها الرُّوحي في نفسِ الفارسِ الكمي عنترة ، وكانَ لها سلطانها العنيف على أضالعِ قلبه وحنياه ، وعلى أوتارِ أحاسيسه ومشاعره ، فكانت ملهمته فيما ينثثُ من بدائعَ وروائعَ ووقائعَ ، وباعثة عواطفه الرقيقة الأنيقة الصّافية التي جعلت من أدبه حليةً جميلةً لكلِّ معاني الفضائل ، وحصائل الأخلاق والسمو والإباء .

(٢) انظر: الفروسيّة العربيّة (ص ١٠٠) ، ومنَ الجديرِ بالذّكر أنّ هذه الأبيات لا تُوجد في ديوان عنترة طبعة المكتب الإسلاميّ بدمشق ، ويُستَم منها رائحة الوضع في عصر متأخّر ، ولعلّ ناسخها وواضعها أحدُ المعجبين بعنترة وسيرته!!!

* وتقفُ الحياةُ الاجتماعيةُ والعاداتُ أمامَ هذا الحبِّ غيرِ المتكافئِ ،
 فعنترةُ - في الحقيقةِ والعُرفِ - هَجِينٌ ، وعبلةُ من الحرائرِ النَّبيلاتِ
 الجميلاتِ ، وهاهو ذا عنترةُ يقطعُ الصَّحراءَ ليلَ نهارٍ^(١) وصباحَ مساءٍ^(٢)
 يبثها أشجانَه ، وينشدُها خفقاتِ قلبِه ، ولكنَّ سلاحَه هو أنيسُه وجليسهُ
 وصاحبُه ، ولهذا يقول :

كَمْ لَيْلَةٍ سَرْتُ فِي الْبِيدَاءِ مُنْفَرِداً وَاللَّيْلُ لِلْغَرْبِ قَدْ مَالَتْ كَوَاكِبُهُ
 سَيْفِي أَنْيْسِي وَرُمَحِي كُلَّمَا نَهَمْتُ أَسْدُ الدَّحَالِ إِلَيْهَا مَالَ جَانِبُهُ
 يَا طَامِعاً فِي هَلَاكِي عُدْ بِلَا طَمَعٍ وَلَا تَرُدْ كَأْسَ حَتْفٍ أَنْتَ شَارِبُهُ^(٣)
 وفي نفحةٍ وجدانيَّةٍ يعاتبُ عنترةُ الفارسُ الشُّجاعُ قومَ عبلةَ الذين وقفوا
 أمامَ حبِّه الصَّادقِ :

أَلَا يَا عِبْلُ قَدْ زَادَ التَّصَابِي وَلَجَّ الْيَوْمَ قَوْمُكَ فِي عَذَابِي
 وَظِلَّ هَوَاكِ يَنْمُو كُلَّ يَوْمٍ كَمَا يَنْمُو مَشْيِي فِي شَبَابِي
 عَتَبْتُ صُرُوفَ دَهْرِي فِيكَ حَتَّى فَنَى وَأَبْيَكَ عُمْرِي فِي الْعِتَابِ
 وَلَا قَيْتُ الْعِدَا وَحَفِظْتُ قَوْمًا أَضَاعُونِي وَلَمْ يَرْعُوا جَنَابِي
 * ويهمسُ عنترةُ في أذنِ التَّارِيخِ همساتَ حُبِّه ، ويفخرُ بهذا الحبِّ

-
- (١) «لَيْلَ نَهَارَ» : ظرفُ مركَّبٍ مبنيٍّ على فَتْحِ الْجُزْءَيْنِ فِي محلِّ نصبٍ مفعولٍ فيه نحو :
 أَتَذْكُرُ لَيْلَ نَهَارَ ، فَإِذَا حُلَّ التَّرْكِيبُ ، وَعُطِفَ الْأِسْمُ الثَّانِي عَلَى الْأَوَّلِ ، نُصِبَ
 كِلَاهُمَا مَنْوَنًا فِي نحو : أَتَذْكُرُ لَيْلًا وَنَهَارًا .
- (٢) «صَبَاحَ مَسَاءَ» : ظرفُ زَمَانٍ مبنيٍّ على فَتْحِ الْجُزْءَيْنِ فِي محلِّ نصبٍ ، تقولُ : جِئْتُه
 صَبَاحَ مَسَاءَ ، أَي لَازِمَتُهُ ، وَهُوَ مِنَ الظُّرُوفِ غَيْرِ الْمُنْتَصَرِفَةِ ، فَلَا يَأْتِي إِلَّا ظَرْفًا .
- (٣) هذه الأبيات لم تَرُدْ فِي ديوانِ عنترةَ المحقِّق طبعةَ المكتبِ الإسلاميِّ بدمشق ،
 ويبدو أنَّها كسابقتها مِنَ الشَّعْرِ المنحولِ الَّذِي صُنِعَ فِيما بَعْدَ ، وَهُوَ كَمَا يَرَى الْقَارِئُ
 لَا يَرْقَى إِلَى مُسْتَوَى شَعْرِ عنترةَ ، وَلَا يَجْرِي مَجْرَى أَنْفَاسِهِ فِي مَعْلَقَتِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ
 أَقْرَبُ إِلَى النِّظْمِ وَرِصْفِ الْقَوَافِي مِنَ الْعَاطِفَةِ الصَّادِقَةِ .

الجميل ، ويعجبُ من تضاحك حبيبته التي تبادلته عواطف الحب
والإعجاب والترابط القلبي ، والحب الصادق الذي يكتنفه الإعجاب ،
ترى ماذا يقول عنتره؟! :

عَجِبْتُ عُيْلُهُ مِنْ فَتَى مُتَبَذِّلٍ عَارِي الْأَشَاجِعِ شَاحِبٍ كَالْمُنْصَلِ
شَعَثِ الْمَفَارِقِ مُنْهَجٍ سِرْبَالُهُ لَمْ يَدَّهْنْ حَوْلًا وَلَمْ يَتَرَجَّلِ
لَا يَكْتَسِي إِلَّا الْحَدِيدَ إِذَا اكْتَسَى وَكَذَاكَ كُلُّ مَغَاوِرٍ مُسْتَبْسِلِ
قَدْ طَالَ مَا لَبَسَ الْحَدِيدَ فَإِنَّمَا صَدَأَ الْحَدِيدُ بِجَلْدِهِ لَمْ يَغْسَلِ

* إِنَّ عِبْلَةَ الرَّعْبُوبَةِ الْمَحْبُوبَةِ تَعْجُبُ مِنْ حَبِيبِهَا الْفَارِسِ الصَّنِيدِ ، فَهِيَ
تَهْتَمُّ بِهِ ، وَتَعِيبُ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يَغْتَسِلُ ، وَأَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ شَاحِبَ الْوَجْهِ نَحِيفَ
الْجِسْمِ مُتَغَيِّرَ الشَّعْرِ ، لَا يَتَطَيَّبُ ، وَلَيْسَ مَعْنَى هَذَا أَنَّهَا تَأْخُذُ عَلَيْهِ ذَلِكَ
الشَّكْلَ وَتِلْكَ الْهَيْئَةَ ، وَإِنَّمَا تَمْرَحُ وَتَمْرَحُ وَتَضْحَكُ مَعَهُ وَتَدُلُّ عَلَيْهِ :

فَتَضَاحَكْتُ عَجَبًا وَقَالَتْ قَوْلَةٌ لَا خَيْرَ فَيْكَ كَأَنَّهَا لَمْ تَحْفَلِ
* وَهَاهُنَا يَصْحَحُ عَنْتَرَةُ لِعِبْلَةَ مَفْهُومَهَا الْخَاطِئَةَ ، وَيَرُدُّ عَلَيْهَا رَدًّا

الْفَارِسِ الْمَاجِدِ الشَّرِيفِ ، فَهِيَ تَهْتَمُّ بِالْأَشْيَاءِ التَّافِهَةِ ، وَهُوَ يَهْتَمُّ بِأَشْيَاءِ
أَسْمَى مِنَ الْاِغْتِسَالِ ، أَوْ الْحَرَصِ عَلَى أَنْ يَكُونَ مُمْتَلَأًا بِادْنَاءٍ ، فَهُوَ يَهْتَمُّ
بِالْحَرْبِ وَالْجِلَادِ ، وَبِمَا تَتَطَلَّبُهُ مِنْ سِلَاحٍ ، وَإِعْدَادِ خَيْلٍ وَجَرَأَةِ قَلْبٍ :

فَعَجِبْتُ مِنْهَا حِينَ زَلَّتْ عَيْنُهَا عَنْ مَاجِدٍ طَلَّقَ الْيَدَيْنِ شَمَرْدَلِ
لَا تَصْرِمِينِي يَا عُيْلُ وَرَاجِعِي فِي الْبَصِيرَةِ نَظْرَةَ الْمَتَأَمِّلِ
فَلَرُبَّ أُمْلَحَ مِنْكَ دَلًّا فَاعْلَمِي وَأَقْرَّ فِي الدُّنْيَا لَعِينِ الْمُجْتَلِي
وَصَلَتْ جِبَالِي بِالَّذِي أَنَا أَهْلُهُ مِنْ وَدَّهَا وَأَنَا رَخِي الْمَطْوَلِ

* ثُمَّ يَذْكُرُهَا بِفُرُوسِيَّتِهِ وَبَسَالَتِهِ وَخَوْضِهِ الْمَعَامِعَ فَيَقُولُ :

يَا عَيْلُ كَمْ مِنْ غُمْرَةٍ بَاشَرْتُهَا بِالنَّفْسِ مَا كَادَتْ لِعَمْرِكَ تَنْجَلِي
فِيهَا لَوَامِعُ لَوْ شَهِدَتْ زَهَاءَهَا لَسَلَوْتُ بَعْدَ تَخَضُّبٍ وَتَكْخُلِ

إِذَا تَرِينِي قَدْ نَحَلْتُ وَمَنْ يَكُنْ غَرَضاً لِأَطْرَافِ الْأَسْنَةِ يَنْحَلْ
فَلَرَبَّ أَبْلَجَ مِثْلَ بَعْلِكَ بَادِنِ ضَخِمَ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ مُهَبِّلِ
غَادِرْتُهُ مَتَعَفِّراً أَوْصَالَهُ وَالْقَوْمُ بَيْنَ مُجَرَّحٍ وَمُجَدَّلِ
فِيهِمْ أَخُو ثِقَةٍ يَضَارِبُ نَازِلاً بِالْمَشْرِفِيِّ وَفَارِسٍ لَمْ يَنْزَلِ
وَلَقَدْ لَقِيتُ الْمَوْتَ يَوْمَ لَقِيتُهُ مُتَسَرِّبِلاً وَالسَّيْفُ لَمْ يَتَسَرَّبِلِ^(١)

* وَقَصَّةُ حَبِّ عَنْتَرَةَ لَعْبَلَةٌ مِنْ قَصَصِ الْحُبِّ الشَّهِيرِ فِي عَالَمِ الْعُشَّاقِ
الْفَرَسَانِ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ ، وَلَعَلَّهَا أَشْهُرُ قِصَّةِ حَبِّ عَرَفَهَا ذَلِكَ
التَّارِيخُ ، أَوْ شَهَرَهَا التَّارِيخُ أَوْ الرِّوَاةُ أَوْ أَهْلُ الْأَخْبَارِ وَالْأَسْمَارِ ، وَلَعَلَّ
عَبْلَةً أَجْمَلُ امْرَأَةٍ^(٢) رَأَاهَا عَنْتَرَةُ مِنْ نِسَاءِ دُنْيَاهُ ، فَخَلَّدَهَا بِشَعْرِهِ .

وَرَسَمَهَا بِكَلِمَاتِ حَبِّهِ عَلَى أَوْرَاقِ الْأَيَّامِ ، بِأَحْلَى الْأَلْحَانِ وَالْأَنْغَامِ .

* وَإِذَا مَا رُحْنَا نَصُولُ وَنَجُولُ فِي مِيَادِينِ حَبِّ عَنْتَرَةَ ، وَفِي سَاحَاتِ
أَغْزَالِهِ ، لَمْ نَجِدْ مَا يَسُدُّ الْفَرَاغَ الَّذِي مَلَأَتْهُ قِصَّةُ عَنْتَرَةَ وَعَبْلَةُ فِي دُنْيَا
الْأَشْوَاقِ وَالْعُشَّاقِ ، بَلْ لَمْ نَجِدْ أَخْبَاراً وَافِيَةً فِيمَا بَيْنَ أَيْدِينَا مِنْ مَصَادِرِ .

* وَالَّذِي يَدْعُو إِلَى الْعَجَبِ أَنَّ الْقِصَّةَ وَالرِّوَايَةَ الشَّعْبِيَّةَ الْمَعْرُوفَةَ لِعَنْتَرَةَ

(١) انظر القصيدة كاملة في ديوانه (ص ٢٥٣ - ٢٦٢) وهي تعدّ (٣١ بيتاً) وهي من الشعر
الجيد الجميل .

(٢) لَا جَرَمَ أَنَّ الْفَارِسَ الْعَرَبِيَّ فِي عَصْرِ الْجَاهِلِيَّةِ ، قَدْ عَاشَ فِي بَيْتَةٍ غَنِيَّةٍ بِالْجَمَالِ
الْأَصِيلِ ، مَلِيَّةٍ بِالْمَحَاسَنِ الْمَطْبُوعَةِ ، فَهُوَ يَسْرَحُ طَرَفَهُ فِي امْتِدَادِ الصَّحْرَاءِ ،
فَلَا يَجِدُ إِلَّا اتِّسَاعاً فِي الطَّبِيعَةِ ، وَصَفَاءً فِي اللَّوْنِ ، وَانْطِلَاقاً فِي الْحَيَاةِ .
وَالْإِنْسَانُ بِطَبِيعَتِهِ مِيَالٌ لِلْجَمَالِ ، مَدْرُكٌ لِأَصَالَتِهِ يَعْجَبُ بِكُلِّ كَائِنٍ يَمْلِكُ هَذِهِ
الصِّفَةَ ، وَيَعْتَبِرُ بِمَا يَمْلِكُهُ مِنْ وَسَائِلِ التَّعْبِيرِ عَنْ إِعْجَابِهِ .
إِنَّ حِكَايَةَ الْحَبِّ الْعَنْتَرِيِّ ، وَالْجَمَالَ الْآتَاخَ لَعْبَلَةٍ قَدْ أَخَذَ مِنْ حَيَاةِ عَنْتَرَةَ بْنِ شَدَادٍ
وَشَعْرِهِ وَقَلْبِهِ مَكَاناً رَحِيباً ، فَحَفَلَ تَرَاتُّهُ بِالشَّعْرِ الْغَنَائِيِّ الْمَطْرَبِ الْجَمِيلِ ، وَذَلِكَ فِي
أَبْسَطِ صُورِهِ ، وَأَحْلَى حُلُلِهِ ، وَأَرْقَ مَعَانِيهِ .

ابن شداد ، تجعلُ منه فارسَ الحبِّ والمغامراتِ ، كما تجعلُ منه مَتيماً دَنَفاً ، وتصورُ معاناةَ عبلةَ في حبِّها ، وأنَّ والدها قد رفضَ هذا الحبَّ لابنته ، لأنَّ عنترةَ هجينٌ ، ليس له نسبٌ عريقٌ كغيره من فرسانِ عيس وسائرِ القبائلِ .

* ومنَ الجديرِ بالذكرِ أنَّ عدداً منَ الأفلامِ التي مُثِّلَتْ في السَّينما - أو منَ المسلسلاتِ الكثيرة - تجعل من والدِ عبلةَ يطلبُ مَهراً لا يطيقه أحدٌ ، ولا يقدِرُ أن يأتي به أحدٌ ، حيث طلبَ ألف ناقةٍ حمراءَ من النُّوق العصافيرِ للملكِ النُّعمانِ .

* وتعرضُ الأفلامُ ، كما تروي الأخبارُ أنَّ عنترةَ قد خرجَ يطلبُ تلكمُ النُّوق العصافيرِ ، فلقِيَ الأهوالَ ولاقَى من المصاعبِ ما لم يلقه فارسُ عاشقٍ محبٍّ وامقٍ ، ويزدادُ الأمرُ تعقيداً ، والطَّينُ بلَّةُ أنَّ عنترةَ وقعَ في أسرِ النُّعمانِ ، وصارَ رهينَ المحبِّسينَ : الغربه ، وسجنَ النُّعمانِ ، ثمَّ إنَّ عنترةَ أبدى بطولاتٍ خارقةً ونادرةً ، كيما يرضى عنه مَنْ أسره ، وكيما يحرِّره مَنْ قيده الذي أدمى معصمه وقدمه ، وغربته التي أدمت قلبه ، وفي نهايةِ هذه المحنةِ يحصلُ عنترةُ على الحرِّيةِ ، وينجحُ في مهمته ويأتي قبيلته ومعه النُّوق العصافيرِ .

* بيد أنَّ المشكلةَ لم تُحلَّ ، وأخذَ والدُ عبلةَ يُماطلُ عنترةَ في تزويجِ عبلةَ له ، فيعرضُ ابنته على فرسانِ القبائلِ الأخرى وساداتِها مشروطاً عليهم رأسَ عنترةَ مَهراً لها .

* وتبدأُ رحلةَ المنافسةِ بينَ الفرسانِ ، فيبارزهم عنترةُ ويقهرهم ، فيقتلُ فريقاً ، ويأسرُ فريقاً ، ويتخذُ بعضهم أصدقاءً ، فيقتلُ مسحلاً بنَ طراق ، ويأسرُ عروةَ بنَ الورد ، ويصادقُ بسطامَ بنَ قيسِ الشَّيباني فارسَ بكر ، وأحدُ شُجعانِ العرب ، بعد أن كادَ عنترةَ يقتله ويجعله كأمسِ الدَّابرِ .

* أمّا المصادِرُ فلا تذكرُ أو تؤكّد أنّ عنترةَ قد تزوّجَ عبلَةَ^(١) ، ولا نعلمُ هل تحقّق حلمُ عنترةَ أم لم يتحقّق .

* وأمّا السّيرةُ الشّعبيّةُ الشهيرةُ ، فتجعلُ من عُرْسِ عنترةَ مهرجانَ الشّعْرِ والأدبِ والفصاحةِ ، ومن ثمّ نَحَرَ الإبلِ وأشياءَ كثيرةَ تقتربُ من مئةِ صفحةٍ في وصفِ العُرسِ ؛ وما رافقَ ذلكَ من أحداثٍ ومفاجآت ، وكلّ ذلكَ في أسلوبٍ يحملُ عنصرَ الإثارةِ والتّشويقِ والتّلفيقِ .

* بيدَ أنّنا كثيراً من الشّعْرِ أو النّظم الذي نُسبُ لعنترةَ قد تكررَ فيه ذكرُ عبلَةَ بعدّةِ وجوهٍ مثل : عُبْلَة ، عُبيلة ، يا عُبْلُ ، يا بنةَ مالك ، أمّ الهيثم

* وهناك بعضُ الأشعار التي تدلُّ على أنّ عبلَةَ هي منيّةُ الفؤادِ ، ومنى الرّوح ، وحبّيةُ القلبِ ، وأهزوجةُ عنترة في جميعِ الحالات :
أَلَا يَا عُبْلُ قَدْ عَايَنْتِ فَعَلِي وَبَانَ لَكَ الضَّلَالُ مِنَ الرَّشَادِ

(١) إنّ القدماءَ الذين ترجموا لعنترةَ من مثل : ابن قتيبة ، والأصمعيّ ، والمفضل الضّبيّ ، وابن حبيب ، وأبي عبيدة لم يتطرّقوا لذكرِ أمرِ زواجِ عنترةَ من عبلَةَ . والذي يجعلُنا في حيرةٍ أنّ أبا هلال العسكريّ يشيرُ إلى زواجهِ منها يومَ أن استردَّ حرّيته حيث قال : فاستلحقه أبوه يومئذٍ وزوّجه عمّه عبلَةَ ابنته .

(ديوان المعاني ١ / ١١٠)

ونجدُ كذلك السيّوطيّ فيما بعد يوردُ قولاً ينقلُ ما ذكره عمّ عنترةَ يومَ حَصَلَ على حرّيته : إِنَّكَ ابْنُ أَخِي وَقَدْ زَوَّجْتُكَ ابْنَتِي عبلَةَ . (شرح شواهد المغني ص ١٦٥) .
ونجدُ خيراً ثالثاً نقله الميدانيّ في المناسبةِ عينيها على لسانِ والدِ عنترة وهو : وقال له : كُرُّ وَقَدْ زَوَّجْتُكَ عبلَةَ فَكُرُّ وَأَبْلَى ، ووفّى له أبوه بذلك فزوّجه عبلَةَ .

(مجمع الأمثال ٢ / ٢٤٤)

بيدَ أنّ هناك أخباراً أخرى تشيرُ إلى عكسِ ذلك ، بل هناك قصيدة يثبتُ فيها عنترة أنّ لعبلَةَ زوجاً :

فلربّ أبلجَ مثلَ بعلِكِ بادنٍ ضخيمٍ على ظهْرِ الجوادِ مهَبَّلٍ
والأخبارُ في هذا متضاربةٌ ، ولا طائلَ الآن من البحثِ وراءِ الصّوابِ منها .

* ونلاحظ هنا أنَّ عنترة يريدُ أن يقنعَ عبلة بمقدرته في المعارك ، وبفروسيته النادرة ، وبطولته الخارقة ليكسبَ قلبها وودّها؛ كما يريدُ أن يريها إخلاصه وتعلقه بها:

ولئن سَأَلْتَ بِذَاكَ عَبْلَةً أَخْبَرْتُ أَنْ لَا أَرِيدُ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهَا
* وفي موضعٍ آخر يذكرُ اسمَها ويخاطبُها وهو يتوعّد جموعَ الفُرس بالحرب:

يا عبل لا تخشي عليَّ من العِدا يوماً إذا اجتمعتُ عليَّ جموعُها
إِنَّ المنيّةَ يا عُبيلة دوحَةٌ وأنا ورمحي أصلُها وفروعُها
يا عبل لو أَنَّ المنيّةَ صُوِّرَتْ لَغَدَا إِلَيَّ سَجُودُهَا وَرُكُوعُهَا^(١)
* وهنا يحلّقُ عنترة في الفضاء ، ويأخذُ معه صورة عبلة ليخبرها بأنّه خَلَقَ للحرب ، ولا يخشى الأعداء ولا يرهبُ الموت .

* ويكثر ذكرُ عبلة في مواطنَ كثيرة ، وفي أحدها يؤكّد لها حبّه ، ويطمئنّها على نفسِها بألا تخافَ ولا تحزن ، ولتقرَّ عينها آمنةً ، فدونها أسدٌ تحملُ العوالي وآلات الحرب :

يا عبل قرّي بوادي الرَّمْلِ آمنةً من العُدّةِ وإنْ خُوفَتْ لا تخفي
فدونَ بيتِكَ أُسدٌ في أناملِها بيضٌ تَقْدُ أعالي البيضِ والحجفِ^(١)
* فعنترةُ كما ترى غيورٌ على حبيبة القلبِ ، يعتدُّ بنفسه ، ويمتدحُ شجاعته ، ويبثُ الطمأنينة في جوانبِ نفسِها وجوانحها .

* وعبلة ابنة مالك من أرقّ الأسماء لدى عنترة ، وهو الوترُ الرئيسيُّ في أنغامه ، فاسمعُ إليه يخاطبها بهذه الأبيات الدالّة التي يعتزُّ بها بفروسيته وفتوته ، ويهددُ جموعَ الفُرس الغزيرة الكثيرة التي فرّقها فرسانُ العرب :

(١) هذه الأبيات ليست مثبتة في ديوانه المحقق ، ولعلها من الشعر المنحول عليه .

ولقد لقيتُ الفُرسَ يا بنة مالكِ وجيوشها قد ضاقَ عنها البيدُ
وتموجُ موجَ البحرِ إلا أنَّها لاقتُ أسوداً فوقهنَّ حديدُ
يا عبل كم من جَحْفَلٍ فرقته والجوُّ أسودُ والجبالُ تميدُ
فَسَطَا عليَّ الدهرُ سطوةً غادرٍ والدهرُ يبخلُ تارةً ويجودُ^(١)

* ويظهرُ من الشعرِ المنسوبِ لعنترةَ أنَّه كان حريصاً على ذكرِ عبلةَ في جميع مجالاته ، حتى عندما يخرجُ إلى قتال العجم يذكرها متشوقاً متغزلاً :
أشاقك من عَبل الخيالِ المبهجُ فقلبك منه لاجع يتوهج
فويلٌ لكسرى إن حلتُ بأرضه وويلٌ لجيشِ الفُرس حين أعجعُ^(١)
* وفي معلقته يخاطب عنترةَ عبلةَ ودارها ، ويكرّر اسمها ليشيرَ إلى حبّها ، فيقول :

يا دارَ عبلةَ بالجواءِ تكلمي وعمي صباحاً دارَ عبلةَ واسلمي
وتحلُّ عبلةُ بالجواءِ وأهلنا بالحزنِ فالصَّمانِ فالمتلّم
* ويخصُّ عنترةَ الأطلالَ^(٢) بالتحية ، ويذكرُ أمَّ الهيثم التي هي كنية عبلة :

حُيِّتَ من طَلَلٍ تقادمَ عهدُه أقوى وأقفرَ بعدَ أمِّ الهيثم
* كما أنَّه يخاطبُ عبلةَ بأنَّها قد نزلت من قلبه منزلةً علياً كريمةً ، وهي المحبوبةُ المكرمة ، فلتكنْ عليّ يقينٌ بذلك ولا تظنّ الظنون :
ولقد نزلتِ فلا تظنّي غيرَه منّي بمنزلةِ المُحبِّ المكرم

(١) هذه الأبيات ليست موجودة في ديوانه وظاهر الصنعة موجود فيها .

(٢) يذكرُ عنترةَ عبلةَ والأطلالَ في قصيدة أخرى فيقول :

ألا يا دارَ عبلةَ بالطَّويِّ كرجع الوشم في رُسُغِ الهدى
كوحى صحائفٍ من عهدِ كسرى فأهداها لأعجم طُمطُويِّ
(ديوانه ص ٢٦٨)

* ويطلبُ عنترةً من الحبيبة^(١) أن تثني على محامده ومناقبه ، فهو سهلُ
المخالطة والمخالقة إذا لم يُهضم حقه ، ولم يبخن حقه ، يقول :

أثني عليّ بما علمت فإثني سَمَحُ مخالَقَتِي إذا لم أُظَلَم
هَلَا سَأَلْتُ الخيلَ يا بنةَ مالكِ إن كنتِ جاهلةً بما لم تَعلمي
يخبركِ من شهد الواقعة أنني أغشى الوغى وأعفُ عند المغنمِ

* لقد وجدَ عنترةً في محبوبته عبلةَ المثل الأعلى الذي يصوّره ، فهو يتوجّه
إليها بأجمل أغانيه ، ويقدم لها كلّ ما يقومُ به من أعمالٍ حربيّة وبطوليّة في
معانٍ رقيقة ، وهو ينادي اسمها في ساعات القتال الحرجة ، وفي المبارزة ،
وعند اشتداد البأس بين احمرارِ الحدق ، وبريقِ السيف ، واشتجارِ الرّماح ،
ودويّ النبل ، فإذا رضيته عنه ، فكأنما رضيَ النَّاسَ جميعاً ، فهو يقدمُ لها
كلّ بطولاته وأمجادِه قرباناً عند ساحتها ، وهديةً لقلبها ، وترجماناً
لعواطفه ، فيقول وهو خارجٌ إلى العراقِ يرسمُ لها هذه اللوحة المِغناج :

أيا عبل ما كنتُ لولا هواكِ قليلُ الصديقِ كثيرُ الأعداي
وحقّك لا زالَ ظهرُ الجوادِ مقبلي وسيفي ودرعي وسادي
إلى أن أدوسَ بلادَ العراقِ وأفني حواضرها والبوادي
إذا قامَ سوقُ لبيعِ الثّفوسِ ونادى وأعلنَ فيها المُنادي
وأقبلتِ الخيلُ تحتَ الغبارِ بوقعِ الرّماحِ وضربِ الجِدادِ
هنالكَ أصدُمُ فرسانها فترجعُ مخذولةً كالمعادِ
وأرجعُ والنّوقُ موفورةً تسيّرُ الهوينى وشيبوبُ حادي
وتسهرُ لي أعينُ الحاسدين وترقدُ أعينُ أهلِ الودادِ^(٢)

(١) إنّ الحبّ المقرون بالفروسية والعفاف كان المثل الأعلى في حياة عنترة ، لما فيه من
الحرص على الأعراض ، والمحافظة على القيم النبيلة ، والسعي إلى إعلاء شأن المرأة .

(٢) ديوان عنترة (ص ٥٣) تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شليبي - مصر .

* وفي لوحة فنيّة أخرى اسمَ عبلة بكلماته ويطلبُ منها أن تسألَ عن مواقفهِ وأفعالهِ وخصوصاً عندما أغار على بني ضبّة وفعلَ الأفاعيل ؛ فيقول من قصيدة طويلة :

فلئن صرمتَ الحبلَ يا بنة مالكِ وسمعتَ فيّ مقالةَ العُدالِ
فَسلي لَكَيْما تُخْبِري بفعالِنَا عند الوغى ومواقِفِ الأهوالِ
والخيلُ تعثرُ بالقنا في جَاحِمِ تهفو بهِ ويجلُن كلَّ مجالِ
وأنا المجرَّبُ في المواطنِ كلِّها من آلِ عبسٍ منصبي وفَعالي^(١)
نَهايةَ عَنترَةَ ومَوْتُهُ :

* من المتوقع أن يتابع الرّواةُ ومحبو الأخبارِ عن عنترة رحلتهم مع عنترة إلى النّهاية المحتومة على كلّ إنسانٍ ، بيد أننا نطلعُ على كثيرٍ من الخلافِ في أخبارِ حياته وموته كذلك ، ولا يكادُ الرّواةُ يتفقون إلّا في نقطةٍ واحدة هي الإجماعُ بأنّ أمّه زبيبة ، وهذا قد أشارَ إليه عنترة نفسه في أكثر من مناسبة في شعره .

* وقد اختلفَ الرّواةُ في نهايةِ ووفاةِ عنترة ، فمنهم من زعمَ أنّه ماتَ مقتولاً ، ومنهم من زعمَ أنّه ماتَ برّداً ، بعد أن بلغَ من الكبر عتياً ، وأصبح شيخاً كبيراً .

* والمصادرُ التي ذكرتُ أنّ عنترة ماتَ برّداً ، نقلتُ هذا الخبرَ عن أبي عُبيدة وفيه يروي قصّةَ موته فيقول : إنّ عنترة بعدما تأوّت - عادت - عبسُ إلى غطفانَ بعد يومِ جَبَلَة ، وحملتِ الدّماءُ ، احتاجَ ، وكان صاحبُ غاراتٍ ، فكبرَ فعجزَ عنها ، وكان له بَكَرٌ على رجلٍ من غطفانَ ، فخرجَ قبله يتجارّاه ، فهاجتُ رائحةٌ من صَيِّفٍ - المطرُ الذي يجيءُ في الصَّيْفِ -

(١) ديوانه (ص ٣٣٦) طبع المكتب الإسلامي بدمشق . وديوانه (ص ١٢٩) تحقيق عبد المنعم شلبي - مصر .

وَهَبْتُ نَافِحَةً - بَارِدَةً - وَهُوَ بَيْنَ شَرْجٍ وَنَازِظَةٍ - مَاءَانٍ لِعَبْسٍ - ، فَأَصَابَتِ الشَّيْخَ فَهَرَأَتْهُ فَوَجَدُوهُ مَيِّتًا بَيْنَهُمَا^(١) .

* وذكر أبو عثمان الجاحظ خبراً قريباً مما ذكرناه آنفاً حيث قال: قال أبو عبيدة في ميتة عنتر: طعنت عبس لبعض الأُمُر ، وخلفت عنتر في الدار شيخاً كبيراً لا حراك به ، فعصفت ريح فمات فيها خُفَاتاً^(٢) .

* قال أبو الوجيه العكلي: بل مرَّ به نَفَرٌ من طيء ، فلما رأوه مخلفاً في الدار أثبتوه معرفة ، قال بعضهم لبعض: في قتل هذا شرف! فلما خبطوه بأسيا فمات عنتر: أي حَفَصَ يَجْزِرُونَ^(٣) .

* وهناك مصادر تزعم أن عنتر مات مقتولاً ، قال ابن دُرَيْدٍ في «الاشتقاق»: قَتَلَتْهُ طِيءٌ فيما تزعم العرب وعامة العلماء ، وكان أبو عبيدة ينكر ذلك ويقول: مات برداً ، وكان قد أَسَنَ .

* ونُقِلَ عن أبي عبيدة أيضاً: أَنَّ طِيئاً تَدَّعَى قَتَلَ عَنْتَرَ ، ويزعمون أَنَّ الذي قتله الأسد الرهيص وهو القاتل:

أَنَا الْأَسَدُ الرَّهِيصُ قَتَلْتُ عَمْرًا وَعَنْتَرَ الْفَوَارِسَ قَدْ قَتَلْتُ^(٤)

(١) الشعر والشعراء (٢٥٢/١) ، والأغاني (٢٥٣/٨) .

(٢) انظر كتاب: البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ (ص ٤٢١) ، ومعنى «عصفت ريح»: تعصف عصفاً وعصوفاً ، فهي عاصفة وعصوف: اشتدت ، وفي لغة أسد أعصفت فهي معصفة ، وفي القرآن الكريم: ﴿فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا﴾ [المرسلات: ٢] ومعنى الآية: الرياح الشديدة الهبوب المهلكة .
و«خفَاتاً»: الخفَات: موت البغته . قال الشاعر:

ولست وإن عزوا عليَّ بهالكِ خفَاتاً ولا مستهزماً ذاهبُ العقلِ
(٣) انظر البرصان والعرجان (ص ٤٢٢) ، و«الحفص»: شبل الأسد ، وقال ابن الأعرابي: هو السَّيِّعُ أيضاً . وقال صاحب العين: الأسد يكنى أبا حفص ، ويسمى شبله حفصاً .

(٤) انظر: خزانة الأدب (١/١٣٩) ، وبلوغ الأرب (٢/١٢٧) . وفي الاشتقاق ما مفاده:

* ويقول ابنُ الكلبيّ : وكانَ الذي قتلَهُ يلقَّبُ بالأسدِ الرهيص^(١) .

* وهناك شاهدٌ أوردَه الأصفهانيُّ يشيرُ إلى أنَّ الأسدَ الرَّهيصَ هو الذي قَتَلَ عنترةَ ، وذلك في مجلسِ رسولِ الله ﷺ حيثُ يسألهُ عمر بن الخطَّاب - رضي الله عنه - ؛ يقولُ الأصفهانيُّ في ماملخصه : دخلَ زيدٌ على رسولِ الله ﷺ ، وعنده عمرٌ - رضي الله عنه - ، فقال عمرٌ لزيدٍ : أخبرنا يا أبا مُكْنِف عن طييءٍ وملوكٍ نَجَدْتِها وأصحابٍ مرابعها . . . وكان ممَّا أجاب به زيدٌ قوله : وممَّا الأسدُ الرَّهيصُ سيِّدُ بني جديلةَ ، ومدوِّخُ كلِّ قبيلةَ ، قاتِلُ عنترةِ فارس بني عبس ، ومكشَّفُ كلِّ لبس^(٢) .

* ويروى أنَّه أغارَ على بني نبهان ، وكان مُسنّاً ، فرموه بسهمٍ ، فأصابوا منه مقتلاً ، فقد أوردَ الأصفهانيُّ هذا الخبرَ مفصّلاً في أغانيه بسنده عن المفضّل وعن ابن الكلبيّ قالا : أغارَ عنترةُ على بني نبهانَ من طييءَ ، فأطرَدَ لهم طريدةً وهو شيخٌ كبيرٌ ، فجعلَ يرتجزُ وهو يطردها ويقول :
آثارُ ظُلْمانٍ بقاعٍ مجدِبٍ

وكان وزرُ بنُ جابرِ النَّبْهانيّ في فتوةٍ ، فرمَاهُ وقال : خُذْهَا وأنا ابنُ سلمى ، فقطعَ مطَاهُ ، فتحاملَ بالرَّمِيَةِ حتى أتى أهلهُ ، فقال وهو مجروحٌ :
وإنَّ ابنَ سلمى عنده فاعلَمُوا دمي وهيهاتَ لا يُرجى ابنُ سلمى ولا دمي

= الأسدُ الرهيص . . . قيل : إنّه قَتَلَ عنترةَ بنَ شدادِ العبسيّ . (الاشتقاق ص ٤٠٠) ملخصاً .

(١) ذكر ابنُ دريد في الاشتقاق أيضاً في حديثه عن رجالِ طييءَ فقال : ومنهم وزرُ بنُ جابر ، وهو الذي قَتَلَ عنترةَ العبسيّ ، وقد أتى النبيّ ﷺ فلم يسلم ، والوزرُ : الملجأ . (الاشتقاق ص ٣٩٦) .

وقال الأصفهاني : وأسلموا جميعاً - أي بنو طييء - جميعاً إلا وزر .

(الأغاني ١٧/٢٧٣)

(٢) انظر : الأغاني (١٧/٢٥٥) بتصرف .

إِذَا مَا تَمْشَى بَيْنَ أَجْبَالِ طِيٍّ مَكَانَ الثُّرَيَّا لَيْسَ بِالْمُتَهَضِّمِ
رَمَانِي وَلَمْ يَدْهَشْ بِأَزْرَقِ لَهْذَمٍ عَشِيَّةَ حَلَّوْا بَيْنَ نَعْفٍ وَمَخْرَمِ
قَالَ ابْنُ الْكَلْبِيِّ: وَكَانَ الَّذِي قَتَلَهُ يَلْقَبُ بِالْأَسَدِ الرَّهِيصِ^(١).

* وذكر الأصفهاني أيضاً عن أبي عمرو الشيباني أنه قال: غزا - عنتره -
طيئاً مع قومه فانهزمت عبسٌ ، فخرَّ عن فرسه ، ولم يقدر من الكبر أن يعودَ
فيركب ، فدخل دغلاً ، وأبصره ربيثة - طليعة - طيىء ، فنزل إليه ، وهابَ
أن يأخذه أسيراً فرماه وقتله^(٢).

* ولعلَّ أرجح الروايات أنَّ عنتره ماتَ مقتولاً حيث جُرِحَ بسهمٍ أو
ضُرِبَ بسيفٍ ، وهكذا كانت نهاية الفارس العربي الشهير عنتره الذي عاشَ
للفروسيَّة ، وماتَ كما يموتُ الفرسان .

* وظلَّ عنتره فارساً مشهوراً في سماءِ الفرسان ، وترجعُ السَّماتُ
الأساسية لسيرته إلى ما جاءَ عن حياته في كتابِ الأغاني من مادَّة قصصية -
وإن كانت قليلة - وبمرورِ الوقت حدثَ لهذه المادَّة تضخُّمٌ وإضافةٌ وتعديلٌ
وزياداتٌ وتزويرٌ وتهويلٌ .

* وتتكوَّن هذه المادَّة من ثلاثة محاورَ وثلاثِ سمات: فعنتره بطلٌ
مغوارٌ ، وفارسٌ كَرَّارٌ ، لا يُقْهَرُ أبداً . وهو عاشقٌ وفِيٍّ مخلصٌ مُدْنَفٌ شَفَّهَ
الحبَّ . وهو شاعرٌ لا يُجارى .

* ومن هنا نسجتْ حولَ هذه السَّماتِ أقاصيصُ المغامراتِ المتنوعة ،

(١) انظر: الأغاني (٢٥٢/٨) . ويُروى أنَّ قاتله قال :

فإن تجزَعْ بنو عبسٍ عليه فإنِّي لا وجدك ما جزَعْتَ
ضربتُ قذالَه بالسَّيفِ صلتاً وكانت عادتي ذات استعدت
(المؤتلف والمختلف ص ٩٩)

(٢) الأغاني (٢٥٢/٨) .

في روايات مختلفة ، ومن ثمَّ ظهر لعنترة متعصِّبون ، حتَّى في قرون متأخرة عن عصره ، وصاروا يدافعون عنه ولا يرضون له المذلة والصغار ، بل لا يرضون أن يُصاب بأي شيء يشينه ، ففي الأخبار أنَّ ابن سلمي قد رماه بِسَهْمٍ فسَترَ عينه^(١) - أي حرقها - بيد أنَّ عصبياً شديد التَّعصُّب لعنترة لم يرضَ بهذا ، وقد أوردَ النَّهروانيُّ في كتابه «الجليس الصَّالح الكافي» قصَّةً طريفةً عن هذا الموضوع فقال : حدثنا يزدادُ بنُ عبد الرحمن ، قال : حدثنا أبو موسى ، قال : حدَّثنا القحذمي عن ابن دأب قال :

* جاءني أعرابيٌّ من عَبَس ما رأيتُ قط أشدَّ عصبيةً منه ، فقال : يا أبا الوليد ، ما شيءٌ بلغني عنك؟

قال : قلتُ : وما هو؟

قال : بلغني أنَّك تقول : إنَّ عنترة فُقئت عينه قبل أن يموتَ .

قلتُ : نعم .

قال : ومنَ فقَّأها؟

قلتُ : غلامٌ من بني قبال .

قال : عندك في ذلك شاهد؟

قلت : نعم .

قال : فأنشدني ، فأنشدته :

| | |
|---|--|
| غَزَا ثُمَّ آبَ الْعَبْدُ خَائِبَ جَدِّهِ | إِلَى ضَخْمَةِ الْأُذْنَيْنِ وَالْكَفِّ شَهْبَرَهُ |
| فَبَاتَ إِلَيْهَا كَاسِرًا شَقَّ عَيْنَهُ | فَقَالَتْ لَهُ مَنْ عَارَ عَيْنَكَ عَنْتَرَهُ |
| فَقَالَ لَهَا لَا ضَيْرَ إِنْ مُلِمَّةٌ | أَلَمْتُ وَإِنَّ الدَّهْرَ يَقْلُبُ أَعْصَرَهُ |
| وَإِنَّ غُلَامًا مِنْ قِبَالٍ أَصَابَهَا | وَمَا كَانَ عَنْ كَفِّ الْقِبَالِيِّ أَهْدَرَهُ |

(١) انظر : ديوانه (ص ٣١٨) ، والمعنى أن عينه فُقئت .

فقال لي : أمعك غير هذا؟

قلت : نعم :

أَمَا بَنُو عَبَسَ فَإِنَّ دَعِيَّهُمْ وَلَّتْ فَوَارِسَهُ وَأُفْلَتَ أَغُورًا
سَمِعَ التَّدَامَرَ وَالتَّوَاصِي بَيْنَهُمْ لَا يَفْلَتَنَّ الْعَبْدُ عُنْتَرَ عُنْتَرًا

فقال لي : يا أبا الوليد ، قد صحَّ هذا عندك؟

قلت : قد حدثتك الحديثَ وأنشدتك الشُّعْرَ .

قال : والله ما تفقَّت عينُه في قبره ، كيف تزعم أنها تفقَّت قبل

موته^{(١)؟!!}

* وهكذا لاحظنا هذا التَّعَصُّبَ الشَّدِيدَ لعنترة من رجل عسبي ، بيد أنَّ
الذي يدعو إلى العجب تعصُّب بعض الناس في عصرنا لعنترة ، وبأنَّه فارسٌ
لا يُقهر ، ولعلَّ الأفلام ، والسَّيْرَةَ الشَّعْبِيَّةَ قد أثَّرا في ذلك .

* إِنَّ ثَمَّةَ حَقَائِقَ تَارِيخِيَّةَ مِنْ عَصْرِ الْجَاهِلِيَّةِ حَتَّى الْحُرُوبِ الصَّلَيبِيَّةِ
تَتَضَحُّ مِنْ أَحْدَاثِ السَّيْرَةِ ، وَتَثْبِتُ أَنَّ السَّيْرَةَ ظَلَّتْ تَتَطَوَّرُ حَتَّى الْقَرْنِ
السَّادِسِ الْهَجْرِيِّ ، ثُمَّ اسْتَقَرَّ شَكْلُهَا إِلَى عَهْدٍ قَرِيبٍ .

* وَهَنَاكَ رَوَايَةٌ تُعْرَفُ بِالرَّوَايَةِ الْحِجَازِيَّةِ ، وَهَنَاكَ الرَّوَايَةُ الشَّامِيَّةُ ،
وَالرَّوَايَةُ الْعِرَاقِيَّةُ .

* وَمِنْ الْعَجِيبِ حَقًّا أَنَّ الرَّوَايَةَ الشَّامِيَّةَ وَالْعِرَاقِيَّةَ مَنَسُوبَتَانِ لِلأَصْمَعِيِّ!!
وَرَوَايَةُ عُنْتَرَةَ مَطْبُوعَةٌ فِي عِدَّةِ مَجَلَّدَاتٍ ، وَفِي عَدَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ قَدِيمًا
وَحَدِيثًا ، وَتَجَدُّ لَهَا رَوَاجًا بَيْنَ الْقُرَّاءِ فِي أَنْحَاءِ الْعَالَمِ .

(١) انظر: المجلس الصالح الكافي (٣/ ١٨٩ - ١٩١) . ومعنى : «شهبرة» : عجوز ،
ويقال : شهبرة . و«تفقَّت» : تفتَّت ، حذف الهمز .

* بقي أن نعرف أن موتَ عنترَةَ كان قَبْلَ الإسلامِ بقليلٍ حوالي سنة (٦٠٨ م) ، وعنترَةُ منَ الفرسانِ المُعَمَّرين ، ولعلَّ حياته تجاوزتِ الثمانين .

* أخيراً أرجو أن أكونَ قد وفقتُ في رسمِ شخصيَّةِ عنترَةَ ونظُمِها بين فرسانِ التاريخ .

* * *

الباب الثاني
فرساي مخضرمو

زيد الخيل بن مهلهل
عمرو بن معدي كرب
ضرار بن الخطاب

زَيْدُ الْخَيْلِ بْنِ مُهْلِلٍ

* فارس صنديد ، ومن أكابر فرسان طييء ، وبطلها
العملاق المظفر.

* أوتي بسطة في الجسم والشجاعة ، وكان كلما غزا كان
النصر حليفه.

* حليم ، حكيم ، ذو مروءة ، وكان سيد قومه.

* أسلم بين يدي رسول الله ﷺ وسمّاه «زيد الخير».

فَتَى الصَّبَاحِ :

* كَانَتْ حَيَاةُ الْعَرَبِيِّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ صِرَاعاً دَائِماً بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَيْتِهِ الْقَاسِيَةِ ،
لَأَنَّ كُلَّ مَا فِيهَا يُوحِي بِالْقُوَّةِ ، وَيَنْطَقُ بِأَنَّ الْبَقَاءَ لِلْأَصْلَحِ وَالْأَقْوَى فِي
الصَّحَرَاءِ الْوَاسِعَةِ .

* وَمِنْ هَذَا الْمَنْطَلِقِ ظَهَرَتْ فِي حَيَاةِ الْعَرَبِ الْغَارَاتُ وَالْحُرُوبُ ،
وَالْحَرْبُ ظَاهِرَةٌ بَشَرِيَّةٌ صَحِبَتْ الْإِنْسَانَ مِنْذُ فَجْرِ التَّأْرِيخِ ، إِلَى أَنْ يَرِثَ اللَّهُ
الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .

* وَكَانَ بَعْضُ فِرْسَانِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَشْنُو الْغَارَةَ^(١) عَلَى قَبِيلَةٍ مِنْ
الْقَبَائِلِ ، وَقَدْ حَفَلَتْ الْأَخْبَارُ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْنَا عَنِ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ بِصُورٍ
رَاضِيَةٍ لَغَارَاتِ الْفِرْسَانِ وَالْأَبْطَالِ ، وَخَوَارِقِ بَطُولَاتِهِمْ وَتَضَحِيَّاتِهِمْ ،
وَصَوَابِ آرَائِهِمْ فِي الْغَارَةِ وَالْحَرْبِ ، وَطَرَائِقِ هَجْمَاتِهِمْ ، وَفَنُونِ قِتَالِهِمْ
وَأَسَالِيِبِ إِبْغَارَتِهِمْ عَلَى الْقَبَائِلِ الْآخَرَى .

* وَكَانَتْ بَوَاعِثُ الْغَارَاتِ رَغْبَةً فِي سَلْبِ الْأَمْوَالِ وَنَهْبِهَا ، وَسَبِي
النِّسَاءِ ، وَأَسْرَ الرِّجَالِ طَمَعاً فِي الْفِدْيَةِ ، أَوْ مِنْ أَجْلِ إِظْهَارِ الشَّجَاعَةِ
وَالْبَاسِ وَالْقُوَّةِ كَيْمَا يَرْهَبُ النَّاسُ بِأَسَ الْفِرْسَانِ الْمَغِيرِينَ ، وَيَخْشَوْنَ
جَانِبَهُمْ ، وَيَهَابُونَهُمْ مَا عَاشُوا .

* وَكَانَ الْهَجُومُ فِي الْغَارَةِ يَحْدُثُ عَادَةً فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فِي الصَّبَاحِ
الْمُبَكَّرِ ، حَتَّى إِنَّهُمْ سَمُّوا الْغَارَةَ «الصَّبَاحِ» ، بَلْ أَطْلَقُوا عَلَى كُلِّ فَتَى شِجَاعٍ
اسْمَ «فَتَى الصَّبَاحِ» .

(١) «الغارة»: الغارة هُجُومٌ سِرِّيٌّ مَبَاغَتْ يَعْملُ الْمُهَاجِمُونَ عَلَى إِخْفَائِهِ مَا وَسَعَهُمْ خَشْيَةً
أَنْ تَنْسَرِبَ أَخْبَارُهُمْ إِلَى الْقَوْمِ الْمَقْصُودِينَ بِالْغَارَةِ فَتَحْبِطَ مُحَاوَلَاتُهُمْ .

* وفارسُ هذه الصّفحات فتى الصّباح ، وبطلُ الغاراتِ ، وفارسُ الأبطال ، وبطلُ الفرسان ، وعاهُ تاريخُ الفرسان ، وخلّدَ اسمَه بين أبطالِه وشجاعانه .

* كان هذا الفارسُ الصّنديدُ ذا شأنٍ في قومه ، وفي قبائلِ العربِ جميعاً في الجزيرة العربيّة ، فهو من قبيلة طيء ، قبيلة الفرسانِ والفتيانِ ، وقبيلة الأجواد والأسخياء ، وقبيلة الشعراء والبلغاء .

* إذّا ، لقد تحدّدتْ بعضُ معالمِ وملامحِ شخصيّةِ فارسِ هذه المجموعة منُ فرسانِ التّاريخِ العربيّ ، ترى منُ هذا الفارسُ الذي ملأ الدّنيا وشغلَ النَّاسَ ؟

* تفصّحُ المصادرُ عن بطاقته فتقول : هو زيدُ الخيل بنُ مُهلhel بن زيد بن مُنهب الطّائي^(١) ، وأمُّ زيدِ الخيل تُدعى قوشة بنت الأَزم الكلبية .

* كان زيدُ الخيل من فرسانِ الجاهليّةِ الأكابر ، ومن أكابرِ فرسانِ طيء ، وهو بطلُها المُعلّمُ العِملاق ، وكان فارساً مظفّراً بعيدَ الصّيت ، أضيفتِ الخيلُ إلى اسمه لشغفه بها ، ولكثرة ما اجتمعَ لديه من الخيل الأصيلة ، وكان لا يفتني الخيل إلاّ الفارسُ الموسرُ ، وإلاّ الفارسُ الذي أوتيَ بسطةً في الجسم والشّجاعة .

* قال أبو عبيد البكريّ : وإنّما سُمّي زيدُ الخيل لكثرة خيله ، لأنّه لم

(١) سمطُ اللّالي (٦٠/١) ، وسرّحُ العيون (ص ١١٩ - ١٢٥) ، وخزانة الأدب (٢/٤٤٦ - ٢٤٨) وانظر الفهارس للخزانة (١٣/٦٦) طبعة بيروت ، والاستيعاب (١/١٩٩) ، وأسدُ الغابة (٢/٢٤١ و ٢٤٢) ، والإصابة (٣/٣٤ و ٣٥) ، والأغاني (١٧/٢٤٧ - ٢٧٢) ، وبلوغُ الأرب (١/١٢٧ و ١٢٩) ، وجمهرةُ أنساب العرب (ص ٤٠٣) ، والبرصانُ والعرجان والعميان والحولان (ص ١٨) ، والمعارف (ص ٣٣٣ و ٦٥٠) ؛ وغير ذلك من مصادر .

يكن لأحد من قومه ، ولا لكثير من العرب إلا الفرس والفرسان ، وكانت
لزيد خيل كثيرة ، فالتى ذكر منها في شعره ستة : الهطال ، والكميت ،
والورد ، والكامل ، وذؤول ، ولاحق^(١) .

وكان زيد الخيل كثير الغارات على أحياء العرب ، فكان يسير في
الليل ، ويصل إلى مَنْ يقصدهم بالغارة صباحاً ، وفي هذا يقول في معرض
حديثه عن إغاراته على بني الصيداء :

بِتْنَا نَزَجِي نَحْوَهُمْ ضُمَرًا مَعْرُوفَةَ الْأَنْسَابِ مِنْ مَنَسِرٍ
حَتَّى صَبَحْنَاهُمْ بِهَا غَدَوَةً نَقْتُلُهُمْ قَسْرًا عَلَى ضُمَرٍ^(٢)

* ولعل اختيار زيد الخيل للصباح المبكر وقتاً لغاراته وهجومه ، لأنَّ

(١) انظر : سمط اللآلي (١/ ٦٠) ؛ وفي فرسه الهطال يذكر زيد الخيل أنه يسويه بابنه
مكنف ، بل بعياله كلهم :

أَقْرَبُ مَرْبُطِ الْهَطَالِ إِنِّي أَرَى حَرْبًا تَلْقَحُ عَنْ حِيَالٍ
أَسْوِيهِ بِمَكْنَفٍ إِذْ شَتُونَا وَأَوْثَرُهُ عَلَى جِلِّ الْعِيَالِ
- وفي فرسه الورد يقول :

أَبَتْ عَادَةً لِلْوَرْدِ أَنْ يَكْرَهُ الْقَنَا وَحَاجَةُ نَفْسِي فِي تَمِيرٍ وَعَامِرٍ
- وفي فرسه ذؤول أو دؤول يقول :

فَأَقْسَمُ لَا يُفَارِقُنِي دُؤُولٌ أَجُولُ بِهِ إِذَا كَثُرَ الضَّرَابُ
- هذا وقد اشتهرت أسماء خيل عند فرسان العرب ، وألف العلماء كثيراً من
المصنفات في أسماء الخيل وصفاتها ، ومن أشهر أسماء الخيل التي وردت في
المصادر الخيل الآتية : «الأبجر - أثال - الأدهم - أسبل - أعوج - جروة - جلوى -
الجون - حذفة - الحماله - الحنفاء - خصاف - داحس - دؤول - ذو العقال - الرقيب -
سبحه - سبل - السلس - الشموس - الشيط - العباب - العرادة - الغراب - العطاف -
الغبراء - فياض - فزول - كامل - الكميت - لاحق - اللطيم - المذهب - المزنوق -
معروف - مكتوم - ناصح - التحام - النعامة - الوجيه - الورد - الهطال - اليعموم»
وغيرها كثير جداً تكفلت المصادر بذكرها .

(٢) انظر : الأغاني (١٦/ ٤٧) .

القوم في ذلك الوقت يكونون مستغرقين في النوم ، لأنَّ النومَ عادةً يلدُّ حينئذٍ ، هذا إلى أنَّ الصُّبحَ يكونُ قد بدأ يتنفسُ ، وينشرُ أشعةَ الثُّورِ على الأرض ، ويأخذُ ظلامُ الليلِ بالانجلاءِ والتلاشي ، وعندها تسهّلُ رؤيةُ الأنعامِ والمواشي ، ناهيك بأنَّ الجوَّ في هذا الوقتِ يكونُ في غايةِ الهدوءِ والسُّكونِ ، وهذا يساعدُ الفارسَ المغيرَ على سَماعِ حركاتٍ أو أصواتٍ من جانبِ القومِ المقصودينَ بالغارةِ .

* ومن جانبٍ آخر ، فإنَّ القومَ المهجومَ عليهم لو تيقَّظوا حينئذٍ ، فلنْ يكونوا في حالةٍ عاديةٍ من النشاط ، بل يكونوا كسالى خامدةً أجسامُهم ، هامدةً عزائمُهم ، تملأُ أعينُهم آثارُ النومِ ، هذا بالإضافةِ إلى مفاجأةِ المغيرينَ للقومِ وهم على تلكِ الحالةِ التي ربّما تسبَّبُ لهم صدمةً قويّةً تملأُ قلوبَهم فزعاً ورعباً ، وتجعلُ الدَّهشةَ تستولي عليهم ، فيقعونَ في حيرةٍ وارتباكٍ ، ولا يدرونَ ما يفعلونَ في وجهِ المغيرينَ في الصُّباحِ الباكرِ .

* ولهذا كان زيدُ الخيلِ من أشهرِ فرسانِ تاريخِ الجاهليّةِ في غاراتِهِ وفي خَيْلِهِ^(١) ، وقلّما غزا قوماً إلا كان النّصرُ حليفه .

(١) «الخيّل» : كانَ للخيّل شأنٌ عظيمٌ عندَ العربِ قديماً - وربما حديثاً - ، فقد اهتمَّ فرسانُ العربِ بالجاهليّةِ في الخيّل ، وبلغَ من اهتمامهم بها وعنايتهم باقتنائها مبلغاً عظيماً حتّى كادتْ تكونُ عصبَ حياتهم ، لأنّها المحورُ الرئيسي في الحرب . - وكانَ العربُ يعتزّونَ بالخيّل ، ويحفظونها قريباً من منازلهم ، ولا يرسلونها مع بقيّةِ أنعامهم ترعى بعيداً عنهم حبّاً فيها ، ومبالغةً في المحافظةِ عليها ، وكانَ بعضُ فرسانِ العربِ يسقيها اللبن ، كما تُهيأُ لها أحسنُ الأطعمةِ شتاءً وصيفاً ، بل كانوا يُعنونَ بها عنايةً تفوقُ عنايتهم بأنفسهم وأولادهم ، قال رجلٌ من تميم :
مفدّةٌ مكرّمةٌ علينا يُجاع لها العيالُ ولا تُجاعُ
- وكانت تُصنعُ لها النُّعالُ لتقيَ حوافرها ضدَّ الصُّخورِ والأرضِ الصّلبة ، كما كانوا دائمي العنايةِ بها لتكونَ بحالةٍ حسنَةٍ ، وكانَ الفارسُ العربيُّ يجريها صباحاً ومساءً لتظلَّ نشيطَةً وقويّةً .

* وكان زيد الخيل قد أدرك الإسلام ، وأسلم ، وسمّاه رسول الله ﷺ : «زيد الخير» ، وهو شاعرٌ مفلقٌ ، معدودٌ من الشعراء الفرسان^(١).

فروسيّةٌ وشيمّةٌ كريمةٌ:

* ظاهرة الفروسيّة مظهرٌ متميّزٌ من مظاهر الفتوة والقوة في عصر

= - كما اهتمّ الفارسُ العربيُّ بأن تكون الخيلُ أصيلةً كريمةً ، ذاتَ نسبٍ وكرمٍ أصليٍّ ، ونقاءٍ عنصريٍّ ، قال علقمة:

وقد أقودُ أمامَ الحيّ سلْهبةً يهدي بها نَسَبٌ في الحيّ معلومٌ
- وكانَ الأبطالُ والفرسانُ يطلقونَ على خيولهم أسماءَ خاصّة تُعرفُ بها ، فحصانُ عامرِ بنِ الطفيلِ اسمُهُ «المزنوق» ، وحصانُ والده اسمه «قُزل» ، وحصانُ مالكِ بن نُيرة اسمه «ذو الخمار» ، وحصانُ طفيلِ الغنوي اسمه «الحذواء» ، وفرساً قيس بن زهير العيصيّ اسمهما: «داحس والغبراء» ، وفرساً حذيفة بن بدر الفزاري اسمهما: «الخطار والحنفاء» ، وفرسٌ عنترَةَ العيصيّ اسمها «جروّة» ، وفرس عمرو بن معدي كرب اسمها «العطاف»؛ ولشدة أهمية الخيل عند فرسان العرب نراها قد شغلت جزءاً مهماً من حياتهم وأدبهم وآثارهم .

(١) قال ابنُ حزم عن زيد الخيل: زيدُ الخيلِ بنُ مُهلِهل بنِ زيد بن مُنْهب بن عبد رُضي بن المختلس بن ثوب بن كنانة بن غوث ، له صحبةٌ محمودةٌ ونيةٌ في الإسلام ، أثنى عليه رسولُ الله ﷺ ثناءً عالياً رضي الله عنه ، وسمّاه زيدَ الخير ، ماتَ رضي الله عنه بنَجْدٍ مُنْصَرَفَهُ من رسولِ الله ﷺ قبل أن يبلغَ منزله بالجبلين ؛ وبنوه ؛ مكنفٌ ، وعروةٌ ، وحنظلةٌ وحريثُ بنو زيد الخير ، وحريثُ هذا هو الذي قَتَلَ أبا سُفيانَ الفهريّ ، رجلاً كان عمرُ أميرِ المؤمنين رضي الله عنه بعثه يستقرئُ أهلَ البادية القرآن ، فاستقرأَ أوسَ بنَ خالد بن يزيد بن منهب بن عبد رُضي ، فلم يدْرِ شيئاً من القرآن ، فضربه فماتَ ، فوثبَ حُريثُ على أبي سُفيان فقتله ، ثم هربَ فلحقَ بأرضِ الرُّوم ، فماتَ هنالك . وأمّا عروةُ بنُ زيد الخيل ، فبعثه عمارُ بنُ ياسر رضي الله عنه بأمرِ عمر رضي الله عنه وعن جميعهم إلى قتالِ الرّي والدَّيلم ، فكانت له فيهم فتوحٌ عظيمةٌ ، ثم وفدَ على عمرَ رضي الله عنه ، واستخلفَ مكانه أخاه حنظلةُ بن زيد الخيل . (جمهرة أنساب العرب ص ٤٠٣ و ٤٠٤)=

الجاهليّة ، إذ هي ظاهرة اجتماعيّة دعت إليها الحياة التي يحيونها ، والإقليم الذي ينزلونه .

* ومن الواضح في أخبار مشاهير فرسان التّاريخ العربيّ القديم ، أنّ الفارسَ منهم كان يمثّلُ القبيلة ، ولم تكن القبيلةُ تمثّلُهُ إلّا في نطاقِ انتسابه إليها ، لذلك نلاحظُ أنّ الفارسَ كان يشيّدُ معظمَ الأحايين بنفسه وقدرته ، وفي هذا تمجيدٌ لقبيلته وعشيرته الأقربين ، وهذا السّببُ أثرى العصبيةَ الجاهلية التي سبّبت عدداً من الحروبِ بين القبائل ، وبالتالي ظهرتُ أسماءُ لامعةٌ في ميدانِ الفروسيةِ وسماءِ الشّجاعة ، وفي مقدمتها اسمُ زيدِ الخيل الطّائي فارسُ الأبطال وعلمُ الشّجعان .

* ولزيدِ الخيلِ أخبارٌ جميلةٌ في مجالِ الشّجاعةِ وميدانِ الفروسيةِ تشهدُ له بكمالِ هيئته وإقدامه ، فقد ذكروا أنّه كانَ من عمالقةِ الفرسانِ ومشاهيرهم .

* وتروي الأخبارُ أنّ زيدَ الخيلِ كان طويلاً ، عالي القامة ، عريضاً ، وبطلاً شجاعاً في المعاركِ الفرديّة ، ومعاركِ قبيلته مع القبائلِ المجاورة .

* ومن أخبارِ قصصِ الفروسيةِ الجميلةِ ما رُوي أن عامرَ بنَ الطّفيّل - أحدَ فرسانِ العرب المشهورين بالبسالةِ والقوّة وشدّةِ البأس - كان قد أغارَ على بني فزارة ، فسبى امرأةً يُقال لها هند ، واستاقَ نعماً كثيرةً لهم .

* فاتّفقَ أن يخرجَ زيدُ الخيلِ يومذاك إلى بني بدرٍ - وهم بطنٌ من فزارة - يطلبُ نعماً لهم عندهم ، فقالوا : ما كنّا قطُّ إلى نعمك أحوجَ منّا اليوم ! وأخبروه بما فعلَ بهم عامرُ بنُ الطّفيّل آنفاً .

* هنالك انطلقَ زيدُ الخيلِ في إثرِ عامرٍ يبحثُ عنه في الفيافي والقفار ، فأدركه وهو يسوقُ النّعمَ مطمئناً ، ورآه عامرُ بنُ الطّفيّل فأدهشه طوله وضخامته ، وبرزَ إليه زيدُ الخيل ، وناداه : خلّ عن الطّعينة والنّعم .

فسأله عامرٌ: مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الْفَارِسُ الْمَلِيحُ؟

قال: فزارِيٌّ أَنَا.

قال عامرٌ: وَاللَّهِ مَا أَنْتَ مِنَ الْقُلُحِ أَفْوَاهاً - أَيِ صَفَرِ الْأَسْنَانِ - يَرِيدُ بَنِي

فَزَارَةَ.

فقال زَيْدُ الْخَيْلِ: خَلَّ عَنْهَا وَيْحَكَ!

قال عامرٌ: لَا ، أَوْ تَخْبِرْنِي مَنْ أَنْتَ.

قال زَيْدُ الْخَيْلِ: أَسَدِيّ.

قال: لَا وَاللَّهِ مَا أَنْتَ مِنَ الْمَتَكَوِّرِينَ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ - يَرِيدُ بَنِي

أَسَدَ -.

قال زَيْدُ الْخَيْلِ: وَيْحَكَ ، قُلْتُ لَكَ: خَلَّ سَبِيلَهَا ، ثُمَّ انْجُ بِنَفْسِكَ.

قال عامرٌ: لَا وَاللَّهِ ، أَوْ تَخْبِرْنِي مَنْ أَنْتَ ، فَاصْدَقْنِي.

قال: أَنَا زَيْدُ الْخَيْلِ بْنُ مَهْلَهْلِ الطَّائِي فَارِسُ الْهَطَّالِ وَالْوَرْدِ وَدَوُولِ.

قال عامرٌ: صَدَقْتَ يَا بَنَ الْكَرَامِ ، فَمَا تَرِيدُ مِنْ قِتَالِي؟ فَوَاللَّهِ لئن قَتَلْتَنِي

لَتَطْلُبَنَّكَ بَنُو عَامِرٍ ، وَلَتَذْهَبَنَّ بَنُو فَزَارَةَ بِالذِّكْرِ.

* وَاسْتَأْسَرَ لَهُ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ ، فَجَزَّ نَاصِيَتَهُ ، وَأَخَذَ رَمَحَهُ ، وَرَدَّ هِنْدًا

وَالنَّعْمَ إِلَى بَنِي بَدْرِ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ زَيْدُ الْخَيْلِ مَفْتَخِرًا:

إِنَّا لَنُكْثِرُ فِي قَيْسٍ وَقَائِعَنَا وَفِي تَمِيمٍ وَهَذَا الْحَيِّ مِنْ أَسَدِ

وَعَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ قَدْ نَحَوْتُ لَهُ صَدَرَ الْقَنَاةِ بِمَاضِي الْحَدِّ مُضْطَرِدِ

لَمَّا أَحَسَّ بِأَنَّ الْوَرْدَ مُدْرِكَهُ وَصَارِمًا وَرَبِيطَ الْجَاشِ ذَا لَبَدِ

نَادَى إِلَيَّ بِسَلْمٍ بَعْدَمَا أَخَذَتْ مِنْهُ الْمَنِيَّةُ بِالْحِيْزُومِ وَاللُّغْدِ

* وَرَجَعَ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ إِلَى قَوْمِهِ مَجْزُوزًا ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا وَقَعَ لَهُ ،

فغضبوا غضباً شديداً ، واثتمروا بينهم ، ثم قالوا له : لا ترأسنا أبداً . ثم إنهم خرجوا عن قيادته ورئاسته لهم .

* ودارت الأيام ، فإذا بهم يتجهّزون ليغزوا على بني طيء ، وجعلوا عليهم رئيساً علقمة بن عُلَاثة ، منافس عامر في الرئاسة ؛ فبعث عامراً إلى زيد الخيل يخبره أنّهم خرجوا لغزوهم ، فجمع زيد الخيل قومه وأعلمهم بغزو بني عامر لهم ، فتربّص للعامريين في مضيق جبلّين ، حتى إذا أقبلوا قاتلهم ، فأسر منهم جماعة ، وهرب الباقيون .

* وكان من بين المأسورين الشّاعران المشهوران عَصْر ذاك : الحُطَيْيئة ، وكعب بن زهير^(١) ، فمدحه الحُطَيْيئة بشعر ، وقال فيه أبياتاً منها :

فإِلَّا يَكُنْ مَالِي بَاتٍ فَإِنَّهُ سَيَأْتِي ثَنَائِي زَيْدًا بَنَ مُهْلَهْلٍ

* وأما كعب بن زهير فإنه أعطاه فرسه الكُميت^(٢) ، فخلّى سبيلهما ، واستبقى بقيّة بني عامر في الأسر .

* وطالَ أسرهم زمناً طويلاً ، فسألوا زيد الخيل أن يقبل الفداء منهم ،

(١) كعب بن زهير بن أبي سلمى الذي مدح رسول الله ﷺ بقصيدته المشهورة «بانت سعاد» ولكعب وأخيه بُجَيْر صُخْبَة ، وهما من عداد الصّحابة الكرام رضي الله عنهم جميعاً .

(٢) قال ابن قتيبة : كان زيد الخيل قد أخذ فرساً لكعب بن زهير ، فقال كعب :

لقد نال زيد الخيل مال أخيكم فأصبح زيدٌ بعد فقرٍ قد اقتنى

فأجابه زيد الخيل بأبيات منها :

أفي كل عام ماتم تبعثونه
أرى زيدا وقد كان مقترا
على مخمر عود أئيب وما رضى
أراه لعمري قد تمول واقتنى
مشمة يوماً إذا قلص الخصى
لقاذعت كعباً ما بقيت وما بقي
فلولا زهير أن أکدر نعمة

(الشعر والشعراء ١/ ٢٨٧ و ٢٨٨)

ويطلق سراحهم ، فقال لهم : الأمرُ في هذا إلى أبي عليّ عامرِ بنِ الطفيل ؛ يريدُ بذلك أن يعيدَ مكانته عندهم .

* ورفضَ بنو عامر طلبه ، ولكنهم اضطروا آخرَ الأمرِ إلى أن يهبهم لعامرِ بنِ الطفيل الذي أطلقَ سراحهم ، ومن ثمَّ استعادَ مكانته لديهم .

الفارسُ الحكيمُ :

* كانَ زيدُ الخيلِ منَ أكثرِ الفرسانِ الطائيين الذين يحبّون الغزوات ، بل كانتِ الغزواتُ ديدنه ، وتروي أخبارُهُ أنّه كان يخصُّ بني أسدَ بأكثرِ غاراته وأعنفها .

* وكانَ زيدُ الخيلِ يمتلكُ كلّ صفاتِ البطولةِ والرَّجولةِ والرَّئاسةِ والحكمةِ ، فكان لا يغفلُ عن حقِّه في الرئاسةِ وأخذَ رُبْعَ الغنيمَةِ في كلّ غزوةٍ يغزوها ؛ وكانت قبيلتهُ تقدِّرُ مكانته وتضعُ لشروطه ، لأنّها تعلمُ أنّها تعودُ معه ظافرةً غانمةً .

* حدّثَ أن غزتُ بنو نبهان ، ومعهم زيدُ الخيلِ قبيلةَ بني فزارة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزمتُ فزارةُ ، وساقَتُ بنو نبهانَ الغنائمَ .

* ولكنَّ بني فزارة حشدتُ فرسانها ، ومن ثمَّ استعانتُ بأحياء من قيس ، وفيهم رجلٌ من بني سُليم شديدُ البأسِ يُقالُ له : عبّاسُ بنُ أنسٍ كان نازلاً في بني فزارة ، فأغاروا على بني نبهان ، ولم تكنِ الرئاسةُ حينذاك لزيدِ الخيلِ التَّبهاني الطَّائي ، فامتنعَ عن القتالِ ، ووقفَ ينظرُ إلى المعركةِ ، وإلى الفرسانِ وهم يتصادمون .

* وحدثَ أن ثقلتِ الوطأةُ على بني نبهان ، وراحتُ فزارةُ تشخُنُ فيهم الجراح ، وكادتِ الدَّائرةُ تدورُ عليهم ، وكادوا يولّون الأدبار . فلمّا رأى زيدُ الخيلِ ما حلَّ بهم ناداهم : يا بني نبهان ، أحملُ وَلِيَّ المِرباعِ ؟

قالوا: نعم!

* هنالك همَّ زيدُ الخيل ، وألقى عزمه بين عينيه ، وحملَ حملةً شديدةً على بني سُليم ، فلم يثبُت في وجهه أحد ، وهزمهم وأخذَ أُمَّ الأسودِ امرأةَ عباسِ بنِ أنس ، ثم شدَّ على بني فزارة ، ومنَّ معهم فهزمهم شرَّ هزيمة ، وفي ذلك يقولُ قصيدةً منها - كما جاء في الأغاني -:

أَلَا وَدَّعْتُ جِيرَانَهَا أُمَّ أَسْوَدَا وَضَنْتُ عَلَى ذِي حَاجَةٍ أَنْ يُزَوِّدَا
وَسَائِلُ بَنِي نَبْهَانَ عَنَّا وَعِنْدَهُمْ بَلَاءٌ كَحَدِّ السَّيْفِ إِذْ قَطَعَ الْيَدَا
* وهكذا كانتِ المعركةُ تثيرُ زيدَ الخيل ، وتبعثُ في نفسه الحماسَ والقوَّةَ ، يقولُ زيدُ الخيلُ يصفُ نفسه وقد علا غبارُ المعركةِ وجهه ، فشمرَّ عن ساقه استعداداً لها:

رَأَيْتُنِي كَأَشْلَاءِ اللَّجَامِ وَلَنْ تَرَى أَخَا الْحَرْبِ إِلَّا سَاهِمَ الْوَجْهِ أَغْبَرَا
أَخَا الْحَرْبِ إِنْ عَضَّتْ بِهِ الْحَرْبُ عَضَّهَا وَإِنْ شَمَّرْتُ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ شَمَّرَا
* ومن الأخبارِ الجميلةِ التي تدلُّ على حكمةِ زيدِ الخيلِ وحنكته ، أنَّه كَانَ لَا يَحِبُّ لِقَوْمِهِ أَنْ يَتَحَارَبُوا وَيَخْتَلَفُوا ، وَكَانَ كَثِيراً مَا يَنْصَحُ أَبْنَاءَهُ أَلَّا يَدْخُلُوا تِلْكَ الْحَرْبَ الَّتِي تَفْتِكُ فِي بَطُونِ الْقَبِيلَةِ الْوَاحِدَةِ .

* وفي ذاتِ مرَّةٍ دَبَّ النِّزَاعُ وَالتَّخَاصُّمُ فِي قَبِيلَتِهِ فِي يَوْمٍ يَسَمَّى «يَوْمَ الْيَحَامِيمِ» ، فَدَعَا زَيْدُ الْخَيْلِ ابْنِيهِ: مُكْنِفٌ^(١) وَحُرَيْثٌ ، وَقَالَ لَهُمَا: أَيُّ

(١) قَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ: مُكْنِفُ بْنُ زَيْدِ الْخَيْلِ الطَّائِي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، كَانَ مُكْنِفُ أَكْبَرَ وَلَدِ أَبِيهِ ، وَبِهِ كَانَ يُكْنَى ، وَأَسْلَمَ وَصَحِبَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَشَهِدَ قِتَالَ الرَّدَّةِ مَعَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ؛ وَكَذَلِكَ أَخُوهُ حُرَيْثُ بْنُ زَيْدِ الْخَيْلِ ، صَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ ، وَشَهِدَ قِتَالَ الرَّدَّةِ . فَأَمَّا زَيْدُ الْخَيْلِ ، فَإِنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ ، وَسَمَّاهُ زَيْدَ الْخَيْرِ ، وَقَطَعَ لَهُ أَرْضَيْنِ . وَكَانَتْ الْمَدِينَةُ وَبَيْتُهُ ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَنْ يَنْجُو زَيْدٌ مِنْ أُمَّ مَلْدَمٍ» ، فَلَمَّا بَلَغَ بَلَدَهُ مَاتَ .

ابني ، ابقياً على قوميكما ، فإنَّ اليومَ يومَ التَّفاني ، فإن يكن هؤلاء
أعماماً ، فهؤلاء أحوال .

* وتروي أخبارُ زيد الخيل أنَّه قد اضطرَّ يوماً إلى الابتعادِ عن قومه حين
يُسَّ من الإصلاحِ بينهم ، وخرجَ ونزلَ على بني تميم حذر الفتنة .

* ولما خرجتْ بنو تميم لغزوِ البكريين بقيادةِ قيسِ بنِ عاصم^(١) ، خرجَ
زيدُ الخيل معهم ، ونشبتِ الحربُ ، وكشفتُ عن ساقِها ، واقتلتِ القبائلُ
فترةً ، وزيدُ الخيل واقفٌ ينظرُ إلى المعركةِ ، فلما رأى أنَّ كفةَ بني بكرٍ
وبني عجلٍ قد رجحتْ ، وأوشكَ التَّميميون أن ينهزموا ، عزَّ عليه ألا
ينجدها ، فحملَ حملةَ الأبطالِ على البكريين ، وراحَ يضربُ أعناقَهم ،

= وحمَّادُ الرَّواية مولى مكنف . (المعارف ص ٣٣٣) .

وقيل : إنَّ ثلاثةً من أبناءِ زيد الخيل كانوا شعراءَ وهم : عروة ، وحُرَيْث ،
والمهلهل ، وكانَ عروة أكثرَهم شعراً ، وقد اشتركَ في معركةِ القادسية وصفين .
ولا ننسى أنَّ زيدَ الخيل كان من الشعراء الفرسان .

(١) قيسُ بنُ عاصم بن سنان المِنقرِي التَّميمي ، يكنى أبا عليٍّ ، وفدَ على النَّبي ﷺ في
وفدِ بني تميم سنةَ تسعَ من الهجرة فأسلمَ ، وقال فيه النَّبي ﷺ لما رآه : « هذا سيِّدُ
أهلِ الوبر » . وكان قيسٌ عاقلاً حليماً مشهوراً بالحلم ، وكان سيِّداً شريفاً ، وفيه
يقولُ الشاعرُ :

فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلُكُهُ هَلَكَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بَنِيَانُ قَوْمٍ تَهَلَّدَ مَا
وَكَانَ قَيْسٌ مَمَّنْ حَرَّمَ الْخَمْرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ جَوَاداً ، وَيُقَالُ إِنَّهُ خَلَفَ ثَلَاثَةَ
وِثْلَيْنِ ابْنًا . رَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَحَادِيثٌ ، رَوَى عَنْهُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ وَالْحَسَنُ
الْبَصْرِيُّ وَابْنُهُ حَكِيمٌ بْنُ قَيْسٍ وَآخَرُونَ ، نَزَلَ قَيْسُ الْبَصْرَةِ ، وَقَالَ عِنْدَ مَوْتِهِ :
لَا تَنُوحُوا عَلَيَّ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَنْحُ عَلَيَّ .

وقيسٌ شاعرٌ فارسيٌّ جاهليٌّ إسلاميٌّ ، وهو أحدُ حلَماء العرب وسادتهم . (تهذيب
الأسماء واللغات ٣٧٢ / ٢ و ٣٧٣) ، و(سمط اللآلي ٤٨٧ / ١ و ٤٨٨) ، و(المعارف
ص ٣٠١) ، مع الجمع والتصرف .

ويخرقُ صفوفهم يميناً وشمالاً ، ولا يتكّنُ بكنتيه حتى لا يعرفوه ، فيشيرُ
العداء بين قبيلته وبينهم .

* ولما انتصرَ بنو تميم وغلبوا بني بكر وبني عجل ، جاء زيدُ الخيل إلى
قيس بن عاصم ، فقال له : اقسم لي يا قيس نصيبي من الغنائم .

فقال قيسٌ متعجباً : وأي نصيب؟ فوالله ما وليَ القتالَ غيري وغيرُ
أصحابي ، وما هزمهم غيري ؛ ورفضَ أن يعطيه شيئاً لكيلا يظهر له فضلُ
عليه أو على بني تميم .

* فغضبَ زيدُ الخيل من قيس بن عاصم ، وخرجَ وهو ينشدُ ويقول
- كما جاء في الأغاني :-

| | |
|--------------------------------|--|
| ألا هل أتاهما والأحاديثُ جمّةٌ | مغلغلةٌ أنباءُ جيشِ الهَازِمِ |
| فلستُ بوقافٍ إذا الخيلُ أحجمتُ | ولستُ بكذابٍ كقيس بن عاصم ^(١) |
| يخبّرُ من لا قيتُ أن قد هزمتهم | ولم تدّر ما سيماهم لا وعائم ^(٢) |
| بل الفارسُ الطائيُّ فضّ جموعهم | ومكّةَ والبيتِ الذي عندها هاشم |
| إذا ما دعوا عجلًا عجلنا عليهم | بمأثورةٍ تشفي صداعَ الجماجم |

* ولما علمَ بنو عجل أن زيدَ الخيل بن مهلهل هو سببُ هزيمتهم - وبنو
عجل بطنٌ من بكر - أغاروا على بني نبهان ، وأخذوا نعمهم انتقاماً منه ،
وبلغَ ذلك زيدُ الخيل ، فانطلقَ في فوارسٍ من بني نبهان ، فقاتلَ بني
عجل ، واستنقذَ بعضَ ما كان بأيديهم ، ولكنه لم يرجعْ إلى منازلِه ،
خجلاً من أنه لم يستطعْ أن يسترجعَ كلَّ النعم ، فأغارَ على قبيلةِ تيم الله من

(١) هذا البيت أصبح مثلاً أنظر : جمهرة الأمثال (٢/ ١٤٥) ، ومجمع الأمثال (٢/ ٨٧) .

(٢) «عائم» : صنم لأسد الشراة ، وله يقول زيد الخيل هذا البيت .

قبيلة النمر بن قاسط أقراء البكرين فغنم وسبى ، ورجع إلى قومه وهو يقول :

إذا عركت عجلٌ بنا ذنبَ غيرنا عركتنا بتيم الله ذنبَ بني عجلٍ
* وهكذا كان زيد الخيل شجاعاً بُهمةً مهيباً ، طار صيْتُ شجاعته في
الآفاق ، وتمنى لقاءه الأبطالُ الأشداءُ ليجربُوا قوتهم ، وعندما كانوا يرونه
يهابونه ، لأنه كان طويلاً جسيماً مديدَ القامة ، يركبُ الفرسَ العظيمَ
الطويلَ ، فتخطُّ رجلاه في الأرض^(١).

* ومن سِيرِ الفروسيّةِ الراقصةِ الجميلة ، أنه كان هناك فارسٌ من بني
أسد يسمى «مزيّداً» يتمنى لقاء زيد الخيل ، فلما لقيه زيد الخيل طعنه فهرَبَ
منه ، وولّى مدبراً ولم يعقب.

* وكان - أيضاً - هناك رجلٌ من بني غطفان يتمنى أن يلقى زيد الخيل ،
حتى صبحه زيد الخيل يوماً ، فقالت له امرأته نُويرة : يا جابر ، كنتَ تتمنى
زيداً ، فعندك.

فالتقيا ، فاختلفا طعنتين وهما دارعان ، فاندقَ رمحُ جابرٍ ولم يُغنِ
شيئاً ، وطعنه زيد الخيل برمحٍ له كان على كعبٍ من كعابه ضربةٌ من حديد ،
فانقلبَ ظهراً لبطن ، وانكسرَ ظهره ، فقالت امرأته وهي ترفعه منكسراً
ظهره : كنتَ تتمنى زيدا فلاقيتَ أخا ثِقَةٍ . فقال زيد الخيل :

(١) قال الثعالبي : قيلَ له : زيد الخيل لطول طراذه بها ، وقيادته لها ، وكان جسيماً
وسيماً يقبلُ المرأةَ على الهودج ، ويخطُّ رجله على الأرض إذا ركب ، وكان
شاعراً . (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ١٠١) .
وقال ابن نباتة : وكان زيد الخيل عظيم الخِلقة طويلاً جداً ، ويسمى مقبِلُ الظعن ،
لأنه كان يقبلُ المرأةَ من الأرض وهي في الهودج ، وكذلك أبو زبيد الطائي ، وابن
جدل الطعان ، كما ذكره الرواة . (سرح العيون ص ١١٩ و ١٢٠)

تمنى مزيّد زيدا فلاقى
 كمنية جابر إذ قال ليتي
 تلاقينا فما كنا سواء
 ولولا قوله يا زيد قدني
 شككت ثابته لما التقينا
 بمطرِد المهزّة كالخِلال^(٢)
 أختلِف العوالي
 أصادفُه وأتلفُ بعضَ مالي^(١)
 ولكن خرّ عن حالٍ لحالٍ
 لقد قامت نُويرةٌ بالمالي
 مُروءةٌ زَيدِ الخيلِ وحُلْمه :

* عرفَ تاريخُ الفرسانِ لزيدِ الخيلِ كرمَ منبتهِ ، وعراقه محتده ، وكمالَ مروءته ، ممّا جعله في قائمةِ المشاهيرِ في دنيا الشّهرة في فضاءِ المكارمِ والفضائلِ .

* ورسمتُ كتبُ الأدبِ صورةً طيبةً لمروءةِ زيدِ الخيلِ ، فقد روى الشّيباني عن شيخٍ من بني عامرٍ جرّت له قصّةٌ مثيرةٌ مع زيدِ الخيلِ في الجاهليّةِ ، فوجدَ الشّيخَ العامريّ من زيدِ الخيلِ مروءةً وحلمًا ونبلًا .

* يقولُ الشّيخُ العامريّ ما مفاده : أصابتنا سنّةٌ لا مطرَ فيها ولا نبات ، هلكَ فيها الزّرعُ والضّرْعُ ، وذهبتْ بالأموالِ ، فخرَجَ رجلٌ منّا بعياله إلى الحيرةِ ، وتركهم فيها ، وقال لهم : انتظروني ها هنا حتى أعودَ إليكم .

(١) هذا البيتُ من شواهدِ النّحويين في كتبهم ، فهو في خزّانةِ الأدب (٣٧٥/٥) و (٣٧٧) ، وشرح أبيات سيبويه (٩٧/٢) ، وشرح المفصل (١٢٣/٣) ، والكتاب (٣٧٠/٢) ، ولسانِ العرب (٨٧/٢) ، والمقاصدِ النحويّة (٣٤٦/١) ، وغيرها كثير من كتب النحو .

و«المُنْيَة» : ما يتمناه المرءُ . ويروى : «جُلّ مالي» بدلًا من «بعض مالي» . والشّاهدُ في البيتِ قولُه : «لَيْتِي» ، حيث حذفَ نونَ الوقاية ، وهذا الحذفُ عند سيبويه للضرورة . وفي أشعارِ العربِ شواهدُ كثيرةٌ لحذفِ نونِ الوقاية للضرورة ، ومن أرادَ الاستزادةَ فليرجعْ إلى كُتُبِ النّحو المتخصّصة .

(٢) بلوغ الأرب (١٢٨/٢) ؛ وانظر ديوان زيد الخيل (ص ٨٧) .

* وخرجَ وأقسمَ ألا يرجعَ إليهم إلا إذا كانَ ذا مالٍ ، أو يموتَ دون ذلك .

* ثمَّ تزودَ ذلك الرَّجلُ زاداً ، ومشى يومه كله حتى إذا أقبلَ الليلُ ، وأرخى سدوله على الدنيا ، ألقى أمامه خيمةً ، وبالقربِ من الخيمةِ مَهْرٌ مقيّدٌ ، فقالَ في نفسه: هذا واللهِ أوَّلُ الغنيمةِ ؛ ثمَّ اقتربَ منه وأخذَ يحلُّ قيده ، ولما أنْ همَّ بركوبه ، سمعَ صوتاً يناديه : ويحكْ خلِّ عنه وانجُ بنفسك ، وإلاَّ يعلو مفرقك الحسامُ . فتركه ومضى وسارَ سبعةَ أيَّامٍ ولياليها ، فبلغَ مكاناً فيه خباءٌ عظيمٌ ، وفيه قبةٌ من جلدٍ ، ومكانٌ للإبلِ بالقربِ منه ، يدلُّ على المالِ والغنى والنعمة ، فقال الرَّجلُ في نفسه : لا بدَّ لهذا الخباءِ من أهلٍ ، وهذا المكان من إبل .

* ثمَّ إنَّ الرَّجلَ تأمَّلَ الخباءَ ، فوجدَ رجلاً كبيراً فانياً في وسطه ، فجلسَ خلفه وهو لا يشعرُ به ؛ وما هو إلاَّ قليلٌ حتَّى ودَّعتِ الشَّمْسُ النَّهارَ ، وغابت وراءَ رمالِ الصَّحراءِ ، وبعدَ إذْ أقبلَ فارسٌ عظيمٌ جسيمٌ على جوادٍ عالٍ ، ومعه عبدان يمشيان إلى جانبه ، ومعه قرابة مئة من الإبلِ يتقدِّمها فحلٌّ كبيرٌ ، فبركَ الفحلُّ ، فبركتْ حوله الثَّوَقُ .

* ونادى الفارسُ أحدَ عبديه ، وأمره أنْ يحلبَ ناقَةَ وأن يسقي الشَّيخَ الكبيرَ ، ففعلَ ووضعَ الإناءَ أمامَ الشَّيخِ وخرجَ ، فأخذَ الشَّيخُ منه قليلاً وتركه .

* قال الرَّجلُ : فتقدَّمتُ نحو الشَّيخِ ، وشربتُ جميعَ ما في الإناءِ ، فرجعَ العبدُ وأخذه وقال : لقد شربَ الإناءَ كله يا مولاي ففرحَ الفارسُ وقال للبعد : احلبْ ثانيةً واسقِه ، ففعلَ العبدُ ، فجرعَ منه الشَّيخُ جرعةً وتركه ، فأخذتهُ وشربتُ شطره .

* ثم أمرَ الفارس عبده الآخر أن يذبحَ شاةً ، ففعلَ ، فقام الفارسُ وشوى وأطعمَ الشَّيخَ حتى شبعَ ، ثم أكلَ مع عبديه ، وبعد ذلك أخذَ جميعهم مضاجعَهم ، وراحوا في سُبَاتٍ عميقٍ .

* قال الرَّجُلُ : فقلتُ : هذه غنيمةٌ عظيمةٌ ، ولعلَّ فيها الفرج ممَّا أنا وأهلي فيه من الضَّيقِ ؛ ثمَّ إنِّي توجَّهْتُ نحو الفحل ، فحللتُ عقاله وركبته ، فاندفعَ ، ومن ثمَّ تبعته الإبلُ ، ومشيتُ ليلتي جميعها ؛ ولما تنفَّسَ الصُّبحُ ، وأرسلتِ الشَّمْسُ نورَها على الأرض ، نظرتُ من حولي ، ومن كلِّ جهةٍ ، فلم أرَ أحداً يتبعني ، فأخذتُ في السَّيرِ حتى مضى شطرٌ من النَّهارِ .

* ثمَّ إنِّي نظرتُ إلى الخلفِ ، فإذا أنا بشيءٍ كأنه نسْرٌ ، فما زال يقتربُ مِنِّي حتى بدتُ معالمه ، فإذا هو فارسٌ على فرسٍ ، وإذا هو صاحبي جاء يطلب إبله .

* عندها ربطتُ الفحلَ ، وأخرجتُ سهماً من جعبتي ، فوقفَ الفارسُ بعيداً ، ثمَّ قال لي : احلِّلْ عقالَ الفحلِ ويحك . فقلتُ : لن أفعلَ ؛ لقد تركتُ ورائي نسوةً جائعاتٍ بالحيرة ، وأقسمتُ ألا أعودَ إليهنَّ إلا معي مال أو أموت دون ذلك .

قال : ويلك ، إنَّك ميِّتٌ ، احلِّلْ عقالَ الفحلِ لا أبا لك .

فقلتُ : لن أحلِّله ، وافعلْ ما تريد .

فقال : ويحك ، إنَّك لمغرور .

* ثمَّ قال : دلَّ زمامَ الفحل - وكانت فيه ثلاث عُقَد - ثم سألتني في أيِّ عقدةٍ منها أريدُ أن يضعَ لي السَّهمُ . فأشرتُ إلى الوسطى ، فرمى السَّهمُ ، فأدخله فيها ، حتى لكأُتْمَا وضعه بيده ، ثم إنَّه أصاب الثانية والثالثة .

* وعندئذ أعدت سَهْمِي إلى كِنَانَتِي ، ثمّ وقفتُ مستسلماً ، فاقترَبَ مِنِّي ، وأخذَ سيفي وقوسي ، وقال لي : اركبْ خلفي .

* فركبتُ خلفه ، وأنا أتوجَّسُ خيفةً منه ، فقال لي : كيف تظنُّ أنِّي فاعِلٌ بك ؟!

فقلتُ : أسوأ الظَّنِّ يا فارسَ الخيلِ وسيّدَ الفرسان ، فقد فعلتُ وفعلتُ بك ، وقد أظفركَ اللهُ بي .

فقال : ويحك ما أسوأ ظَنِّكَ ! أو تظنُّ أنِّي أفعلُ بك سوءاً وقد شاركتَ مُهلِهلاً في شرابهِ وطعامهِ ؟!

* فلمّا سمعتُ اسمَ مهلهلٍ ، قلتُ : إنَّكَ لزيد الخيلِ أنتَ . قال : نعم ، أنا زيدُ الخيل ، وفارسها المعلم .

فقلت : يا هذا ، كنْ خيراً أسِرْ .

فقال : اهدأ ، لا بأسَ عليك .

* ثمّ إنّه عادَ بي إلى موضِعِهِ وقال لي : واللهِ لو كانت هذه الإبلُ لي لسلَّمْتُها إليك ، ولكنّها لأختٍ من أخواتي ، فأقمُ عندنا أيّاماً ، فإنِّي على وشك غارةٍ ، وقد أغنمُ منها .

* ومضتُ بضعةً أيّام ، فأغارَ على بني نُمير ، وغنم قرابة مئة ناقة ، فأعطانيها جميعَها ، وبعثَ معي رجالاً من عنده لحمايتي ، حتّى وصلتُ الحيرة^(١) .

(١) انظر: الأغاني (٤٩/١٦ و ٥٠) ، وشرح العيون (ص ١٢١ - ١٢٤) ، وصور من حياة الصحابة (ص ١٢٤ - ١٢٨) ، مع الجمع والتصرف ، وانظر القصة كاملة في الأغاني (١٧/ ٢٥٥ - ٢٥٧)

* وبهذا التصرف دلَّ زيدُ الخيلِ على مروءته وطيبِ أصله ، ووفائه لمن غدر به .

صِفَاتُهُ وَأَخْلَاقُهُ :

* عندما رحلَ أتابعُ رحلةَ هذا الفارسِ في بطون الأسفارِ المتنوعةِ ، ألفيتُ بعضَ أخباره متناثرةً هنا وهناك ، وبعد الرُّجوعِ إلى مصادرٍ كثيرةٍ ، استطعتُ أن أرسِمَ بعضَ صفاته وملامحه من خلالِ أخبارهِ القصيرةِ .

* كانَ زيدُ الخيلِ رئيسَ قومه - قبائلِ الغوث - وعندما قدَّمَ وفدَ طيءَ على رسولِ الله ﷺ كانَ سيِّدَ قومه ورأسهم ورئيسهم .

* وكانَ زيدُ الخيلِ فارساً مغواراً مظفراً شجاعاً بعيدَ الصَّيتِ في الجاهليةِ ، وكانَ جسيماً وسيماً من أتمِّ النَّاسِ ، وهو من فرسانِ الجاهليةِ المعدودين ، موصوفاً بحسنِ الجسمِ ، وطولِ القامةِ ؛ وقيل : كانَ زيدُ الخيلِ عظيمَ الخلقةِ طويلاً جداً ، ويسمَّى مُقَبَّلَ الظعنِ ، لأنَّه كانَ يقبِّلُ المرأةَ مِنَ الأرضِ وهي في الهودجِ ، وكانتُ رجلُهُ تخطُّ الأرضَ إذا ركب .

* ومن خلالِ القصصِ والأخبارِ والوقائعِ ترسمُ لنا صفاتُ وصورةُ زيدِ الخيلِ ، ذلكَ الفارسُ الذي يعتمدُ على ما آتاه اللهُ من قوَّةٍ ، ومن بسطةٍ في الجسمِ ، كما تظهرُ صورةُ الفارسِ صاحبِ الأخلاقِ الكريمةِ^(١) ، الذي

(١) كانتُ أخلاقُ زيدِ الخيلِ تجمعُ المكارمَ والفضائلَ التي يتَّصفُ بها فرسانُ العربِ ، فالفارسُ شجاعٌ وكريمٌ وعزيزُ النَّفسِ ، يحترُمُ المرأةَ ، ويدافعُ عنها ، ويجيرُ المستجيرَ ، ويغيثُ الملهوفَ ، ويعملُ على رفعِ الظُّلمِ عنِ المظلومين ، وهو يخلصُ لعشيرتهِ القريبةِ قبلَ إخلاصهِ لقبيلتهِ الكبيرةِ ، فإذا تعارضتْ مصالحهما ، انضمَّ في أغلبِ الأحيانِ إلى جانبِ عشيرتهِ القريبةِ ، فهي أولىُ بإخلاصِهِ وحمايتهِ . - ويزهو الفارسُ - الجاهلي خصوصاً - بالنِّساءِ والخمرةِ وتبذيرِ ماله ، ثمَّ هو شاعرٌ وخطيبٌ يدافعُ عن قبيلتهِ بلسانهِ وسنانهِ ، ويفتخرُ بمآثرها في شعره ، ويردُّ =

يَمُنُّ عَلَى الْفَرَسَانِ ، بَعْدَ أَنْ يَأْسِرَهُمْ وَيَجْزَّ نَوَاصِيَهُمْ ، وَبِذَلِكَ يَبْنِي الْمَكْرَمَاتِ لِنَفْسِهِ وَالْمَجْدَ لِقَوْمِهِ .

* وَكَانَ زَيْدُ الْخَيْلِ بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ شَاعِراً مُحَسِّناً ، وَهُوَ أَحَدُ شُعْرَاءِ الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ وَفَرَسَانِهِمِ الْمَعْدُودِينَ ، وَقِيلَ : مَنْ الْمَخْضَرَمِينَ الْمُقْلِينَ ، كَانَ يَتَرَنَّمُ بِالشَّعْرِ ، وَيَقُولُهُ فِي مَغَامِرَاتِهِ وَغَارَاتِهِ وَمَغَازِيهِ وَأَيَامِهِ .

* وَمِنَ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَنَّ شِعْرَهُ يُعْتَبَرُ وَثِيقَةً مُهِمَّةً ، حَيْثُ سَجَّلَ فِيهِ وَقَائِعُهُ وَوَقَائِعُ قَوْمِهِ ، وَذَكَرَ الْفَرَسَانَ الَّذِينَ نَازَلَهُمْ فَهَزَمَهُمْ أَوْ أَسَرَّهُمْ ، كَمَا يَتَحَدَّثُ عَنْ شِمَائِلِهِ وَأَخْلَاقِهِ وَعَمَّا صَنَعَهُ مِنْ أَمْجَادٍ فِي مَيَادِينِ الْفُرُوسِيَّةِ .

«بَلْ أَنْتَ زَيْدُ الْخَيْرِ» :

* أَجْمَعَ الَّذِينَ تَرَجَمُوا لَزِيدِ الْخَيْلِ أَنَّهُ جَاهِلِيٌّ ، وَأَدْرَكَ الْإِسْلَامَ ، وَوَفَدَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَفْدٍ طَيِّبٍ وَسَمَّاهُ «زَيْدَ الْخَيْرِ» .

* وَكَانَ زَيْدُ الْخَيْرِ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ ^(١) ، ثُمَّ أَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ ،

= أَمْجَادَهَا فِي قِصَائِدِهِ . وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَمَثَلَ لِأَخْلَاقِ الْفَرَسَانِ ، فَسَنَجِدُ أَنَّ افْتِخَارَهُمْ بِالشَّجَاعَةِ يَشْمَلُ مَعْظَمَ أَشْعَارِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ ، فَهَمَّ يَتِمَادِحُونَ بِالمَوْتِ فِي الْقِتَالِ ، وَيَتَهَاجُونَ بِالمَوْتِ عَلَى الْفَرَاشِ وَيَقُولُونَ فِيهِ : مَاتَ فُلَانٌ حَتَفَ أَنْفَهُ ، وَقَدْ جَاءَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَلَغَهُ قَتْلُ أَخِيهِ فَقَالَ : إِنْ يُقْتَلُ فَقَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَأَخُوهُ وَعَمُّهُ ، وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا نَمُوتُ حَتْفَنَا ، وَلَكِنْ قَعْصًا بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ ، وَمُوتًا تَحْتَ ظِلَالِ السَّلَاحِ .

(بلوغ الأرب ١/ ١٠٤) بتصرف

(١) لَقَدْ أَبْعَدَ النَّجْعَةُ مَنْ ذَكَرَ زَيْدَ الْخَيْلِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ ، لِأَنَّ هَذَا الْوَصْفَ لَمْ يُعْرَفْ إِلَّا بَعْدَ غَزْوَةِ حُنَيْنٍ حِينَ أُعْطِيَ مِنْ غَنَائِمِهَا الْغَامِرَةُ قَوْمًا مِنْ رُؤُوسِ قُرَيْشِ الطُّلُقَاءِ ، وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ مِنْ زَعَمَاءِ الْقِبَائِلِ ، يَتَأَلَّفُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ الْمُثْنِ وَمَا فَوْقَهَا وَمَا دُونَهَا .

- وَغَزْوَةُ حُنَيْنٍ إِنَّمَا كَانَتْ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَقَبْلَ غَزْوَةِ تَبُوكَ ، وَقَدُومِ زَيْدِ الْخَيْلِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عَلَى رَأْسِ وَفْدٍ قَوْمِهِ وَإِسْلَامِهِ وَإِسْلَامِهِمْ كَانَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَهِيَ سَنَةُ الْوُفُودِ ، وَقَدْ نَقَلَ هَذَا الْخَطَأَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ عَنْ تَلْقِيحِ فَهْرٍ الْأَثَرِ لِابْنِ =

ووفدَ زيدُ الخيرِ على رسولِ الله ﷺ ومعه زيدُ بنُ سدوس النّبّهاني ،
وقبيصةُ بنُ الأسودِ الحرَميّ ، ومالكُ بنُ جبيرِ المغني ، وقُعينُ بنُ خليل
الطّريفيّ في عدّة من طيّء ، فأناخوا رُكائبهم ببابِ المسجدِ ، ودخلوا
ورسولُ الله ﷺ يخطُبُ النَّاسَ ، فلمّا رآهم قال : «إني خيرٌ لكم من العُزّي ،
وممّا حازتُ مَناعٌ»^(١) من كلّ ضار غير يفاع ، ومن الجملِ الأسودِ الذي
تعبّدونَه من دونِ الله عزَّ وجلَّ» .

* فقامَ زيدُ ، وكانَ منْ أجملِ الرّجالِ ، وأتمّهم ، وكان يركبُ الفرسَ
المُسرفَ ، ورجلاه تخطّان الأرضَ ، كأنّه على حمارٍ ، فقال : أشهدُ أنْ
لا إلهَ إلّا الله وأنّك محمّدُ رسولُ الله^(٢) .

قال : «ومَنْ أنْتَ؟»

قال : أنا زيدُ الخيلِ بنُ مهلهل .

فقال رسولُ الله : «بل أنْتَ زيدُ الخيرِ» .

فقال : «الحمدُ لله الذي جاءَ بك مِنْ سَهْلِكَ وَجَبَلِكَ ، ورقّقَ قلبَكَ على

= الجوزي في سردِ أسماءِ المؤلّفة قلوبهم . (محمّد رسول الله لمحمد صادق عرجون
٥٨٥/٤) .

(١) «مَناع» : اسمٌ لأجأ ، سُمّي بذلك لامتناعهم به من فلولِ العجم .

(٢) قال ابنُ إسحاق : وقدمَ على رسولِ الله ﷺ وفدُ طيّء ، وفيهم زيدُ الخيل ، وهو
سيّدُهم ، فلمّا انتهوا إليه كَلّمُوهُ ، وعرضَ عليهم رسولُ الله ﷺ الإسلامَ فأسلموا ،
فحسنَ إسلامُهم .

وقال ابنُ سعد : قدّمَ وفدُ طيّء على رسولِ الله ﷺ ، خمسة عشر رجلاً ، رأسُهم
زيد الخيل ، وهو سيّدُهم وسريّهم ، فدخلوا المدينةَ ورسولُ الله ﷺ في المسجدِ ،
فعقلوا رواحِلهم بفناء المسجدِ ، ثمّ دخلوا فدنوا من رسولِ الله ﷺ فعرضَ عليهم
الإسلامَ فأسلموا ، وجازاهم ﷺ بخمس أواق فضة كل رجل منهم ، وأعطى زيد
الخيل اثني عشر أوقية ونشأ ، وسماه زيد الخير .

الإسلام ، يا زيد ؛ ما وُصفَ لي رجلٌ قطَ فرأيتُهُ إلا كان دون ما وُصفَ به
إلا أنت ، فإنَّك فوق ما قيل فيك . وأقطعة فيّداً ، وقيل : أرضاً وأرضين .

* وكانت المدينةُ وبيئَةُ فقالَ رسولُ الله ﷺ لما خرجَ من عنده : «لن
ينجو زيدٌ من أمِّ ملدم»^(١) ، فلما بلغَ بلدَهُ مات .

* وقيل : إنَّه عندما قفلَ زيدُ الخيلُ من عند رسول الله ﷺ ومن معه قال :
إنِّي قد أثرتُ في هذا الحيِّ من قيسٍ أثراً ، ولستُ أشكُ في قتالِهِم إياي إنْ
مررتُ بهم ، وأنا أعطي اللهَ عهداً ألا أقاتلُ مسلماً أبداً ؛ فتنكبوا عن أرضِهِم
وأخذوا به على ناحيةٍ من طريق طيِّء ، حتى انتهوا إلى فردةٍ - وهو ماءٌ من
مياهِ حَرَمٍ - فأخذته الحمى ، فمكثَ ثلاثاً ، ثمَّ مات . وقال قبل موته :

أمرتُ حلَّ صحبي المشارَ غُدوةً وأتركُ في بيتٍ بفردةٍ منجدٍ
سقى اللهُ ما بينَ القفيلِ فطابةً فما دون أرماءٍ فما فوق مُنشدٍ
هنالكَ لو أني مرضتُ لعادني عوائدُ مَنْ لم يُشَفْ منهم مُجهَدٍ
فليت اللواتي عُدنني لم يعدنني وليت اللواتي غبنَ عني عُودي^(٢)

* ماتَ زيدُ الخيرِ وهو في عدادِ الصَّحابة ، وفي سلكِ دُررِهِم ، ماتَ
وهو يشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وأنَّ محمّداً رسولُ الله ، ماتَ زيدُ الخيرِ وخلفَ
لفرسانِ التَّاريخِ كلَّ خيرٍ ، فتعالوا نقرأ هذه الأهزوجةَ الجميلةَ التي تحكي
إسلامَ زيدِ الخيرِ أمامَ رسولِ الله ﷺ :

معَ وفدِ طيِّءٍ جاءَ زيدُ دُ الخيلِ خيرُ الوافدينِ
هوَ سيِّدُ فيهِم وكا ن من الرِّجالِ البارزينِ

(١) «أم ملدم» : كنية الحمى .

(٢) انظر المصادر الآتية مع الجمع والتصرف بينها : الشعر والشعراء (١/٢٨٦) ، وثمار
القلوب (ص ١٠١) ، والسيرة النبوية (٢/٥٧٧) ، والاشتقاق (ص ٣٩٥) ، وأسد
الغابة (٢/٢٤١) ، وشرح العيون (ص ٦١) .

| | |
|--------------------------|------------------------------|
| الوفد فوراً أسلموا | قد قاتلوا الهادي الأمين |
| قد قال خيرُ الخلق عن | زيدٍ مقالِ المُعْجِبِينَ |
| تالله زيدٌ فاقَ فضَّ | لأ عن ثناءِ المادِّحِينَ |
| هو فوقَ ما قد قيلَ عند | هُ فنعمتَ الرَّجُلُ الفطِينُ |
| المصطفى سَمَاه «زيد | دَ الخير» دونَ القَادِمِينَ |
| أعطاه أرضاً مع كتَا | ب فيه حقَّ المالِكِينَ |
| زيدٌ يعودُ بقومِهِ | صاروا جميعاً مسلمِينَ |
| حمَّى المدينةَ إنَّها | لا تخطئنَ الزَّائِرِينَ |
| من جاءها فلقد يُصَا | ب بدائها المرَّ المهينُ |
| إنَّ ينبُجُ من حمى المدي | نة فهو ناجٍ عن يقينِ |
| لكنَّ زيداً قد أُصي | بَ بدائها للسَّائِلِينَ |
| قد ماتَ زيدُ الخيرِ عند | د رجوعِهِ في العائِدِينَ |

* هذه صورةٌ من صورِ الفرسانِ العربِ الذين طار صيتُهم في البلادِ ،
وأدركتهم السَّعادةُ الحقيقيَّةُ ، فحفظوا بالصُّحبةِ النَّبويَّةِ ، فكان زيدُ الخيرِ في
عدادِ الصَّحابةِ الكرامِ ، رضي الله عنهم جميعاً ، وكان من فرسانِ التَّاريخِ .

* * *

ضرائبُ الخطّاب

* فارس قرشي ، مخضرم ، شاعر ، له أثرٌ واضح
باللسان والسنان.

* صحابي كبير ، أسلم يوم الفتح ، ومدح النبي ﷺ.

* مجاهد فاتح ، مقاتل في سبيل الله حتى آخر لحظات
حياته.

الفَارِسُ الْمُخَضَّرُ:

* هذا فارسٌ مخضَّرٌ من مشاهير فرسانِ الدُّنيا في عَصْرِهِ ، كما أنَّه أحدُ فرسانِ قُرَيْشٍ المعدودين عند العربِ ، والذين أقرَّ لهمُ الأبطالُ بالفروسية والإقدام.

* فارسُنا اليوم هو ضرارُ بنُ الخطَّابِ بنِ مرداسِ القرشيِّ الفِهريِّ^(١).

* قال ابنُ دُرَيْدٍ في «الاشتقاق»: كانَ ضرارُ فارسَ قُرَيْشٍ في الجاهليةِ ، وأدركَ الإسلامَ ، وكانَ شاعراً فارساً ، وقد أخذَ مِزْبَاعَ بني فِهْرٍ في الجاهليةِ^(٢).

* وقال ابنُ عبد البرِّ في «الاستيعابِ»: ضرارُ بنُ الخطَّابِ القرشيِّ الفِهريِّ؛ كان أبوهُ الخطَّابُ بنُ مرداسِ رئيسَ بني فِهْرٍ في زمانه ، وكان يأخذُ المِزْبَاعَ لقومه ، وكانَ ضرارُ بنُ الخطَّابِ يأخذُ المِزْبَاعَ لقومه... وكان ضرارُ من فرسانِ قُرَيْشٍ وشجعانِهِم وشعرائِهِم المطبوعين ، حتَّى

(١) المصادر التي تحدّثت عن ضرارِ بنِ الخطَّابِ كثيرةٌ جداً ، ومنها: الاستيعابُ بهامش الإصابة (٢٠١/٢ و ٢٠٢) ، والإصابة (٢٠١/٢) ، ومختصرُ تاريخِ مدينةِ دمشق (١١/١٥٦ - ١٥٨) وطبقاتُ ابنِ سعد (٢/٦٧ و ٦٨ و ٧٠) و (٣/٢١٧ و ٤٣٦) ، والبدايةُ والنهاية (٣/٣٤١) و (٤/١٣١) و (٧/٧٢) ، والمفصلُ في تاريخ العرب قبل الإسلام (٩/٢٥٣ - ٦٩٦ - ٧٠٦ - ٧٠٨ - ٧١١ - ٧١٢ - ٧٣٦ - ٧٤٧) ، ومغازي الواقدي (ص ٢٥٥ - ٢٨١ - ٢٨٢ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٤٦٧ - ٤٦٨ - ٤٧٠ - ٤٧١ - ٤٩٦ - ٨٢٢) ، والمنمق في أخبار قُرَيْشٍ (ص ١٧٢ - ٢٠٤ - ٢٠٨ - ٣٣٢ - ٣٦٦ - ٣٩٦ - ٤١٠ - ٤١٤ - ٤٢٠) ، والسيرة النبوية ، وأسَدُ الغابة ، وغيرها كثير جداً.

(٢) الاشتقاق (ص ١٠٣).

قالوا: ضرائُ بنُ الخطَّابِ فارسُ قريش^(١) ، وشاعرهم . . . ولم يكن في قريش أشعر منه ، ومن عبد الله بن الزُّبَيْرِ ، ويقدمونه على ابنِ الزُّبَيْرِ لأنَّه أقلُّ منه سقطاً وأحسنُ صنعة^(٢) .

* ولعلَّ ضرارَ بنَ الخطَّابِ من أفرسِ المخضرمين في قومه ، والمخضرمون^(٣) مَنْ أدركوا الجاهليَّةَ والإسلامَ . والشُّعراءُ المخضرمون هم الذين عاشوا في الجاهليَّةَ وفي الإسلامَ ، ونظَّمُوا الشُّعْرَ في العَهْدَيْنِ: الجاهليَّةَ والإسلامَ . والمخضرم : مَنْ يدركُ عهْدَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ .

* ولا نستطيعُ تحديدَ فترةِ المُخضرمين تماماً ، والزَّمنَ الذي شهدَه المخضرمون ، ويمكننا أنْ نقولَ بأنَّه يمتدُّ نحوَ قرنٍ من الزَّمانِ ، ومن المخضرمين الذين يوضحونَ ما ذهبنا إليه حسنُ بنُ ثابت ، فهو معلَّمٌ واضحٌ لتعيينِ العَصْرِ؛ فقد شاركَ حسنُ في أحداثِ العَصْرِ الجاهليِّ مع ملوكِ آلِ غَسَّانَ ، وفي العَصْرِ الإسلاميِّ مع سيِّدنا وحبیبنا رسولِ اللهِ ﷺ ،

(١) قال محمدُ بنُ حبيب: فُرسانُ قريش هم: حمزةُ بنُ عبد المطلب ، والزُّبيرُ بنُ العوام ، وهُبيرةُ بنُ أبي وهب ، وخالدُ بنُ الوليد ، وعكرمةُ بنُ أبي جَهل ، وعمرو فارسُ يَلِيل بن عبد وَدَ العامريِّ كان فارسَ قريش ، قتله عليُّ بنُ أبي طالب - رضي الله عنه - يومَ الخندق ، ويسرُّ بنُ أبي أرطاة ، وقطفةُ بنُ ربيعة ، وقطبةُ العاقدُ فارسُ البلقاء البيضاء ، وضرائُ بنُ الخطَّاب ، وحبيبُ بنُ مسلمة ، والحارثُ بنُ هشام ، وأبيُّ بنُ خلف الجمحي ، وأبولبيد بنُ عبدة ، وأبو العجلان بن الحليس ، والوليدُ بنُ يزيد بن عبد الملك ، وإبراهيمُ بنُ عائشة العباسي ، والمعتصمُ أمير المؤمنين . (المنمَّق ص ٤١٩ و ٤٢٠) بتصرف يسير

(٢) الاستيعاب (٢٠١ / ٢ و ٢٠٢) باختصار .

(٣) عصرُ المخضرمين هو عصرُ الصِّراع بين القيمِ الإنسانيَّةِ الحقَّةِ الخالصة التي جاء بها الإسلامُ ، وبينَ القيمِ التي كوَّنتها الجاهلَّةُ والنَّظْمُ الفاسدةُ والأهواءُ الضَّالة ، خلالَ الآمادِ البعيدةِ والعصورِ المتطاولةِ التي عاشتْ في غواشي الأوهام ، وضلالات ما أنزلَ اللهُ بها من سُلطان .

وخلفائه الراشدين ، وأدركَ خلافةَ معاويةَ بنِ أبي سُفيان - رضي الله عنهما - ، ويقال : إنَّ حسَّاناً قد عاشَ ستينَ سنةً في الجاهلية ، وستينَ في الإسلام ؛ وبهذا نكونُ قد قربنا إلى المفاهيم عَصْرَ المخضرمين الذي نشأ فيه فارسُ هذه الصَّفحات ضرارُ بنُ الخطَّاب القرشيِّ الفِهريِّ .

* ومنَ الطَّبيعي أن يتأثَّرَ ضرارُ بنُ الخطَّاب بتلكمِ الفترتين المختلفتين اللتين شهدهما ، وشهدَ أولاهما مُشركاً على دينِ قومه ، بينما فتحَ اللهُ على بصيرته يومَ الفَتْحِ الأعظم يومَ فتحِ مكة ، يومَ جاء نصرُ اللهِ ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [النَّصْر : ٢] .

* ولكي تتوضَّحَ صورةُ ضرارِ بنِ الخطَّاب أكثر ، لا بدَّ أن نعطيَ لمحةً عن العصرَين اللذين قضى حياته خلالهما ، وعن المؤثَّرات التي تركت بصماتها في حياته ، وخصوصاً بعد أن انتظمَ في سلكِ فُرسان الصَّحابة ، وغدا ممنَ حظيَ بالصُّحبة النَّبوية ، وأمسى منَ السُّعداء الفائزين ، فهل هناك مرتبةٌ أعظمُ من مرتبةِ الصُّحبة النَّبوية ؟ .

* فالعصرُ الجاهليُّ هو ذلك العهدُ الذي كان يسودُ معظمُهُ السَّفَه والطَّيشُ والضَّلَال ؛ بيد أنَّنا لو عمَّنا هذه الصِّفات لظلمنا العربَ ، لأنَّ واقعَ حالِ العرب قبلَ الإسلام لا ينطبقُ عليه كلُّ هاتيكُم الأشياء التي رَوَّجَ لها المستشرقون وبعضُ المُستغربين . فالعربُ أُمَّةٌ منَ النَّاسِ لها نصيبُها الموفورُ العريقُ من الحضارةِ الممتدةِ في أعماقِ الزَّمان ، ويكفي من مفاخرها ومآثرها أنَّ لها لغتها الجميلةَ الحَصانَ الرِّزان التي لم تلحقْ شأوها لغةٌ على مرِّ الزَّمان ، ناهيك بآثارهم العقليَّة والفكريَّة والعمرائيَّة .

* إذاً فلعلَّ معنى الجاهليَّة كان ينصرفُ إلى الحالةِ الخُلقيَّة التي كانت قائمةً في نفوسِ العربِ ، وجماعها الغلوُّ في تقديرِ الأمور ، والإسرافُ ، والتَّهوُّر . فقد كانَ العربيُّ يفرطُ في الكرمِ حتَّى يكونَ سَرَفاً وتبذيراً ، ويغلو

في الشَّجَاعَةِ والفُروسِيَّةِ حتَّى تصبَحَ طيشاً وتهوراً ، ويبالغُ في النُّصْرَةِ والنَّجْدَةِ حتَّى تُمسي ظُلماً ، ومن هنا فالكلمةُ تحملُ معنى الجَهْلِ الذي هو ضِدُّ الحِلْمِ والأناةِ ، لا ضِدُّ الجَهْلِ - كما سادَ في بعضِ المفاهيم - ، وإلى هذا ذهبَ عمرو بنُ كلثومٍ في معلقتهِ :

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجَهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلَيْنَا

* وقد كان للعربِ في الجاهليَّةِ نصيبٌ وافٍ من الحضارةِ والعمرانِ ، وأشارَ القرآنُ الكريمُ إلى ذلك في عدَّةِ مواضع^(١) ، كما كان للعربِ آثارٌ متنوِّعةٌ في الحياةِ الاجتماعيَّةِ من غِنَى وفقرٍ وعاداتٍ مُتوارثةٍ .

* ومن الناحيةِ الاعتقاديَّةِ ، كان لهم عقائدٌ مختلفةٌ ، وشاعتُ عندهم الوثنيَّةُ ، والشُّركُ ، وعبادةُ الأصنامِ من دونِ اللهِ الواحدِ القهارِ ؛ ولكنَّهم كانوا يؤمنونَ باللهِ الواحدِ ، ويتخذونَ الأصنامَ على أنَّها وسائطٌ تقربُهم إلى اللهِ ؛ وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى هذا في أكثرِ من موضعٍ فقال : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣] .

وكان هذا شأنُ كثيرينَ من عربِ الجاهليَّةِ ، ولكنَّ هناك فئةٌ من المستبصرين الذين كانوا يتطلَّعون إلى دينِ التَّوْحِيدِ ، دينِ إبراهيم - عليه السَّلام - ، واشتهرَ منهم جماعةٌ معروفون في المصَادِرِ المتنوِّعةِ .

* وأمَّا الإسلامُ ، فاسمُهُ يدلُّ على معناه ، إذ إنَّ الإسلامَ هو انقيادٌ وخضوعٌ وطاعةٌ لله عزَّ وجلَّ ؛ وفي القرآنِ الكريمِ أدلَّةٌ كثيرةٌ على ذلك من مثلِ قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [الزمر : ٥٤] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

وجاءَ الإسلامُ بعقيدةِ أساسها التَّوْحِيدُ ، والإيمانُ باللهِ واحدٍ ، فنقضَ

(١) انظر مثلاً : سورة الشعراء الآيات (٤٦ - ١٤٩) ، وسورة سبأ الآية (١٥) .

كلَّ معتقداتِ الجاهليَّةِ المتعلِّقةِ بالأصنام والمعبوداتِ ، وتعدّدها وتقديسها ، وقد وصفَ الإسلامُ اللهَ عزَّ وجلَّ بأنَّه ربُّ العالمين وربُّ كلِّ شيءٍ ، كما أوضح الإسلامُ وأشارَ إلى الحياةِ الأخرى ، ونظَّمَ حياةَ النَّاسِ ، وحدَّدَ واجباتِهِم ومسؤولياتِهِم . وعُني بالحياةِ الخلقيةِ ، وتناولَها بالصَّقلِ والتَّهذيبِ ، ووجَّهَ أنظارَ النَّاسِ نحوَ الآدابِ العامَّةِ ، وحَفِظَ حقوقَ الإنسانِ بجميعِ أشكالِها وألوانِها .

* في هذه البيئَةِ كانتْ نشأةُ ضرارِ بنِ الخطَّابِ ، فقد شهدَ منابعَ الأنوارِ تنبعثُ من مكَّةَ ، بيَّدَ أنَّه كانَ منَ المعاندينَ المُعارضينَ باديةِ الأمرِ ، وعادى الإسلامَ عداءً شديداً ، وقاتَلَ المسلمينَ في الوقائعِ أشدَّ القتالِ ، إلى أنْ منَّ اللهُ عليه بالإسلامِ فأسلمَ .

* وفي الصَّفحاتِ التَّالِيَاتِ نشهدُ بعضَ المواقِفِ التي تشهدُ بفروسيَّةِ ضرارِ ، وإنْ كانَ في صفٍّ غيرِ المسلمينَ ، لأنَّه ورِثَ الفروسيَّةَ كابراً عن كابرٍ ، فقد ذكَرَ ابنُ عساکر أنَّ جدَّ ضرارِ الأعلى عمرو بنَ حبيبٍ هو آكلُ السَّقْبِ - ولد الثَّاقَةِ - ، وذلكَ أنَّه أغارَ على بني بَكْرِ ، ولهم سَقْبٌ يعبدونه ، فأخذَ السَّقْبَ فأكله . وكانَ عَمُّ ضرارِ حفصُ بنُ مرداسٍ شريفاً ، وكانَ ضرارُ فارسَ قريشٍ وشاعرهم^(١) .

ضَرَارُ الْفَارِسُ الْمُحَارِبُ :

* لم يكنْ ضرارُ بنُ الخطَّابِ بمعزِلٍ عن الأحداثِ التي عاشَتْها أسرُهُ وقبيلتُهُ ، بل كانَ فارساً له أثرُهُ وخطَرُهُ في النُّضالِ والقتالِ ضدَّ الدِّينِ الإسلاميِّ وأصحابِهِ المسلمينَ من قريشٍ وغيرِهِم من العَرَبِ .

* ونستطيعُ أنْ نستخلصَ منَ الأخبارِ التي وصلتْ إلينا عن ضرارٍ أنَّه كانَ

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١١/١٥٦) .

من ظواهر قريش ، ولا يكاد يكون في البطحاء إلا قليلاً ، وقد عُرِفَ في أول أمره بحياته العابثة الالهية ، وربما كان يتصعلك أحياناً ، فيغيّر ويسبي ويأخذ الأموال ، وكان قد جمع من حلفاء قريش ، ومُرَاقِ كنانة وشذاذها ناساً اتخذهم أعواناً يأكل بهم ، وله في ذلك أحداث وأخبار وأشعار سنذكر بعضها - إن شاء الله - .

* وتذكر المصادر أن ضرار بن الخطاب قد شهد معركة أحدٍ مُشركاً ، وأقبلَ في كتيبة خشناء مع ثلثة من الفرسان فيهم : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل ، وجعلوا يناوشون نفراً من الأنصار ، فيهم ثابت بن الدحاحه يصيح ويقول لأصحابه الأنصار - وكان أشيع أن رسول الله قد قُتِلَ - : إن كان محمد قد قُتِلَ ، فإن الله حي لا يموت ! فقاتلوا عن دينكم ، فإن الله مظهركم وناصركم .

* وأسرع إليه نفر من الأنصار ، وأخذ يحمل بمن معه من المسلمين ، فكان ضرار وصحبه لهم بالمرصاد ، فطعن خالد بن الوليد ثابت بن الدحاحه بالرُمح فأنفذه ، فوقع ميتاً ، وقُتِلَ مَنْ معه من الأنصار^(١) .

* وكان لضرار بن الخطاب فرسٌ اسمها الحوَاء^(٢) ، وأقبلَ يوم أحدٍ فارساً يمتطيها ، ويجرّ قناة له طويلة ، فطعن عمرو بن معاذ الأشهليّ أخا سعد بن معاذ فقتله ، ومشى عمرو إليه حتى غلب ، فوقع لوجهه ، يقول ضرار : لا تعد من رجلاً زوجك من الحور العين .

وكان يقول : زوجت عشرة من أصحاب محمد .

* وكان من بر ضرار بقومه أنه ألى على نفسه ألا يقتل قرشياً ، فقد ورد

(١) انظر المغازي للواقدي (ص ٢٨١) بتصرف .

(٢) المنمق (ص ٤١٠) .

أَنَّ ضَرَاراً لِحَقِّ عَمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي يَوْمٍ أَحَدٍ عِنْدَمَا جَالَ الْمُسْلِمُونَ تِلْكَ الْجَوْلَةَ ، وَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِعَرَضِ الرَّمْحِ وَيَقُولُ لَهُ : انْجُ يَا بْنَ الْخَطَّابِ ، إِنَّهَا نِعْمَةٌ مُشْكُورَةٌ ، وَاللَّهُ مَا كُنْتُ لِأَقْتُلَكَ . . . فَكَانَ عَمَرُ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ - يَعْرِفُهَا لَهُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ ^(١) .

* وما زلنا مع ضرارٍ في غزاةٍ أحدٍ وهو في صفِّ المشركين ، وما زالَ الحديثُ موصولاً معه عن ذلكَ اليومِ ، وما زالتِ الذِّكْرِيَّاتُ تَجُولُ فِي مَخِيلَتِهِ - بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْإِسْلَامِ - ، فَقَدْ كَانَ ضَرَارٌ يَحْدُثُ وَيَذْكُرُ وَقَعَةً أَحَدٍ ، وَمَا فِيهَا مِنْ أَحْدَاثٍ جِسَامٍ ، وَيَذْكُرُ بِطَوَلَاتِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَشِيرُ إِلَى فُرُوسِيَّةِ الْأَنْصَارِ الْأَبْطَالِ ، وَيَتَرَحَّمُ عَلَيْهِمْ ، وَيَذْكُرُ غِنَاءَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ وَشَجَاعَتَهُمْ وَتَقَدُّمَهُمْ وَإِقْدَامَهُمْ عَلَى الْمَوْتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ ، وَفِي مُحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ ، ثُمَّ يَقُولُ مَا مَفَادُهُ :

لَمَّا قُتِلَ أَشْرَافُ قَوْمِي وَصَنَادِيدُهُمْ وَفِرْسَانُهُمْ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ ، جَعَلْتُ أَقُولُ مُتَعَجِّباً : مَنْ قَتَلَ أَبَا الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ - يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ قَتَبَهُ اللَّهُ وَأَخْزَاهُ - ؟
فَيُقَالُ : قَتَلَهُ وَأَزْدَاهُ ابْنَا عَفْرَاءَ بِنْتِ عُبَيْدِ الْأَنْصَارِيَّةِ .

وَأَقُولُ : مَنْ قَتَلَ أُمَيَّةَ بْنَ خَلْفِ الْجُمَحِيِّ ؟

فَيُقَالُ : قَتَلَهُ وَأُورِدَهُ شَعُوبُ خُبَيْبِ بْنِ يَسَافٍ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ الْأَبْطَالِ .

وَأَقُولُ : مَنْ قَتَلَ عَقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ ؟

فَيُقَالُ : عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ بْنُ أَبِي الْأَفْلَحِ حَيْثُ أَطَاعَ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَتَلَ عَقْبَةَ وَمَحَا فُجُورَهُ مِنْ عَلَى الْأَرْضِ ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ خُبَيْثِهِ .

وَأَقُولُ : مَنْ قَتَلَ فُلَاناً وَفُلَاناً ؟

(١) انظر : المغازي (ص ٢٨٢) والسيرة النبوية (١/ ٤١٥) وطبقات الشعراء (ص ٢١١) بتصرف .

فيقال: فلانٌ وفلانٌ؛ ويُسمّى لي قاتلوهم.

وأقول: مَنْ أَسَرَ سَهيلَ بنَ عمرو؟!

فيقال: أَسَرَهُ مالِكُ بنُ الدُّخْشَمِ.

* فلَمَّا خرجنا إلى أَحَدٍ ، كُنْتُ أنا جِي نَفْسي وأقول: إن أَقامَ المسلمون في صَيَاصِيهِمْ - حصونهم - فهي منيعةٌ ، ولا سَبِيلَ لنا إليهم ، نَقِمْ أَيَّاماً ثُمَّ نَنصَرِفْ ، وإنْ خَرَجُوا إلينا من صَيَاصِيهِمْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ ، معنا عَدَدٌ كَثِيرٌ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِهِمْ؛ وَنَحْنُ قَوْمٌ مَوْتُورُونَ خَرَجْنَا بالنِّسَاءِ وَالطُّعْنِ كَيْمَا يُذَكِّرُنَا قَتْلَنَا وَأَشْرَافَنَا فِي بَدْرٍ ، وَمَعَنَا خَيْلٌ وَلَا خَيْلَ مَعَهُمْ ، وَمَعَنَا سِلَاحٌ أَكْثَرُ مِنْ سِلَاحِهِمْ ، وَعَتَادٌ أَكْثَرُ مِنْ عَتَادِهِمْ.

* وَقَضِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ خَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ الْمَنُورَةِ ، فَالتَقِينَا عِنْدَ سَفْحِ جَبَلٍ أَحَدٍ؛ فَوَاللَّهِ مَا أَقَمْنَا لَهُمْ حَتَّى هُزِمْنَا ، وَمِنْ ثَمَّ انْكَشَفْنَا مَوْلِينَ الْأَدْبَارِ ، فَقُلْتُ فِي نَفْسي: وَاللَّهِ وَقَعَةُ أَحَدٍ هَذِهِ ، أَشَدَّ مِنْ وَقَعَةِ بَدْرٍ! ثُمَّ جَعَلْتُ أَقُولُ لَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ الْمَخْزُومِيِّ وَكَانَ قَرِيباً مِنِّي: كَرَّرْ عَلَى الْقَوْمِ يَا أَبَا سُلَيْمَانَ - كَنِيَّةَ خَالِدٍ -.

فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقُولُ لِي: وَتَرَى وَجْهًا نَكُرُ فِيهِ يَا ضَرَارُ؟!

* وَسَكْتُ قَلِيلًا ، ثُمَّ حَانَتْ مِنِّي التَّفَاتَةُ ، فَنَظَرْتُ إِلَى الْجَبَلِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الرُّمَاءُ خَالِيًا مِنْهُمْ إِلَّا بَضْعَةً نَفَرٍ مِنْهُمْ ، فَقُلْتُ: أَبَا سُلَيْمَانَ ، انْظُرْ وَرَاءَكَ فَالْجَبَلُ خَالٍ ، وَفِيهِ ثَغْرَةٌ يُمْكِنُ أَنْ نَصِلَ إِلَى أَعْلَاهُ. . . فَعَطَفَ خَالِدٌ عِنَانَ فَرَسِهِ ، ثُمَّ كَرَّرَ وَكُرِّرْنَا مَعَهُ ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْجَبَلِ ، فَلَمْ نَجِدْ عَلَيْهِ أَحَدًا لَهُ بَالٌ ، وَجَدْنَا نَفِيرًا فَأَصَبْنَاهُمْ وَقَتَلْنَاهُمْ مَعَ أَمِيرِهِمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ^(١)؛ ثُمَّ

(١) لَعَلَّهُ مِنَ الْمَفِيدِ هُنَا أَنْ نَشِيرَ إِلَى أَنَّ سَيِّدَنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ جَعَلَ أَحَدًا خَلْفَ ظَهْرِهِ مُسْتَقْبِلًا الْمَدِينَةَ الْمَنُورَةَ ، وَأَقَامَ عَلَى جَبَلٍ أَحَدٍ الرُّمَاءَ ، وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا =

إننا دخلنا العسكر ، والمسلمون غافلون غارثون ينتهبون العسكر ، فأقحمنا عليهم خيلنا ، فتطايروا في كُلِّ وجهٍ ، ووضعنا السُّيُوفَ فيهم حيثُ شئنا ، وجعلتُ أطلبُ أكابرَ فُرسانِ الأوسِ والخزرجِ قَتَلَةَ الأُحْبَةِ من قومي ، فلا أرى أحداً منهم ، قد تفرَّقوا ، فما كان قَدْرُ حَلْبِ ناقةٍ حتى تداعتِ الأنصارُ

= أميرهم عبدُ الله بنُ جُبَيْرٍ ، فوعظهم محذراً ومُنذراً ، وأوصاهم فقالَ لهم : «قومُوا على مصافِّكم هذه واحمُوا ظهورنا ، فإنْ رأيتُمونا انتصرنا فلا تُشركُونَا ، وإنْ رأيتُمونا نُقتل فلا تَنْصُرُونَا» .

- ولما رأى الرِّمَاءُ الهزيمةَ تحيِّقُ بالمُشركينَ ، اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا ، هل يظلُّون ثابتينَ في مقامهم الذي أقامهم فيه رسولُ الله ﷺ على الجبلِ ، أو ينزلون لمشاركةِ إخوانهم المُجاهدين في أخذِ الغنائمِ ، وكانت كثرتهم تجنُّحُ إلى النزولِ للغنائمِ لئلا يستأثِّرَ بها جامعوها .

- بَيِّدَ أَنَّ رَئِيسَهُم عبدُ الله بن جُبَيْر - رضي الله عنه - كَانَ يرى الثَّباتَ في مقامِهِ الذي أقامَهُ فيه رسولُ الله ﷺ ، ونصحَ إخوانه ووعظهم ، وذكرهم بأمرِ رسولِ الله ﷺ ، ووصيَّتِهِ وتحذيرِهِ بآلٍ يبرحوا من مكانِهِم حتى يرسلَ إليهم ، وأنَّ المُسلمينَ ما يزالون غالِبينَ ما بُثِمَ في مكانِكُم ، فردُّوا عليه وَعَظَهُ لهم وقالوا متشَبِّهينَ بالتأويلِ : لم يُرِدْ رسولُ الله ﷺ ذلك ، قد انهزمَ المُشركون ، فما مقامنا هاهنا؟! .

- وفي صحيحِ البخاري عن البراءِ بنِ عازب - رضي الله عنه -: فقال أصحابُ عبدِ الله بن جُبَيْر : الغنيمةُ ، الغنيمةُ ، ظهرَ أصحابُكُم ، فما تنتظرون؟! فقال عبدُ الله بنُ جُبَيْر : أنسيتم ما قالَ لكم رسولُ الله ﷺ؟ وفي الصَّحيحِ في كتابِ المغازي : فقال عبدُ الله بنُ جُبَيْر : عهدَ إليَّ رسولُ الله ﷺ أن لا تبرحوا ، فأبوا؛ وقالوا : والله لنأتينَّ النَّاسَ فلنصيبنَّ من الغنيمة .

- فلما صمَّموا على مخالفتهم لرئيسهم وأميرهم ، وأتوا النَّاسَ ليأخذوا معهم من الغنيمة ، حَوَّلَتْ وجوههم عن اتِّجاهها وقصديها ، وعادوا من حيث أتوا منهزمينَ عقوبةً لهم لمخالفتهم أَمْرَ القائِدِ الأعظمِ رسولِ الله ﷺ ، وقوله لهم حين أقامهم مقامهم قبيلِ نشوبِ المعركة : «لا تبرحوا» .

- قال ابنُ حجر : وفيه شؤمٌ ارتكابِ النَّهي ، وأنَّه يعمُّ ضرره مَنْ لم يقعْ منه لقوله تعالى : ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ ، وأنَّ مَنْ آثرَ دُنياهُ أضرَّ بآخِرته ، ولم تحصلْ له دُنياهُ .

بينها ، فأقبلت فرسانهم فخالطونا ونحنُ فرسان ، فصَبَرنا لهم ، فصَبَرُوا لنا؛ وأظْهَرُوا منَ الفروسيَّةِ والبسالةِ ما حَيَّرني ، وبذلوا أنفُسَهم حتَّى عقروا فرسي وترجَلْتُ ، فقتلتُ منهم عشرةً ، ولقيتُ منَ رَجُلٍ منهم الموتَ النَّاقِعَ حتَّى وجدتُ ريحَ الدِّمِ ، وهو مُعانقي ، ما يفارقني حتَّى أخذته الرِّمَاح من كلِّ ناحية ، ووقعَ ، فالحمدُ لله الذي أكرَمهم بيدي ، ولم يهني بأيديهم^(١) .

* ويظهرُ أنَّ ضِراراً قد أصابَ أحدَ المهاجرين يومَ أُحُدٍ في رأسِهِ ، وهذا المهاجرُ هو الكريمُ السَّخي الجوادُ طلحة بن عُبَيْد الله - رضي الله عنه -؛ يقولُ ضِرار: نظرتُ إلى طلحةَ قد حلقَ رأسَهُ عند المروةِ في عمرةٍ ، فنظرتُ إلى المُصَلِّبةِ^(٢) في رأسِهِ ، وأنا واللهِ قد ضربتُهُ هذه الضَّربة ، استقبلني فضربتُهُ ثمَّ أكرُّ عليه وقد أعرضَ فأضربُهُ أخرى^(٣) .

* وقد لَخَصَ ابنُ عساكر - رحمه الله - بعضَ أعمالِ ضِرار في غزاةِ أُحُدٍ فقال: وكانَ ضِرارُ بنُ الخطَّابِ فارسَ قريش وشاعرهم؛ وحضرَ معهم المشاهدَ كُلَّها ، فكان يقاتلُ أشدَّ القتالِ ، ويحرِّضُ المشركينَ بشعرِهِ ، وهو الذي قتلَ عمرو بنَ معاذَ أخا سعد بن معاذَ يومَ أُحُدٍ؛ وقال حينَ قتله: لا تعدمنَّ رجلاً زوّجك منَ الحُورِ العِينِ . وكان يقولُ: زوجتُ عشرةً من أصحابِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وأدركَ عمرَ بنَ الخطَّابِ فضربه بالقنّاةِ ، ثمَّ رفعها عنه وقال: يا بنَ الخطَّابِ ، إنّها نعمةٌ مشكورةٌ ، واللهِ ما كنتُ لأقتلكَ ، وهو الذي نظرَ يومَ أُحُدٍ إلى خلاءِ الجبلِ من الرُّمّةِ ، فأعلمَ خالدَ بنَ الوليدَ ، فكَّرًا جميعاً بمنَ معهما ، حتَّى قتلُوا مَنْ بقي من الرُّمّةِ على

(١) انظر: المغازي للواقدي (ص ٢٨١ و ٢٨٢) بشيء من التصرف .

(٢) «المصلبة»: أي صارت الضربة التي في رأسه كالصليب . (النهاية ٣/ ٢٧٠)

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٢١٧) ، والمغازي (ص ٢٥٥) مع الجمع والتصريف .

الجُبَيْل ، ثم دخلوا عسكر المسلمين مِنْ ورائهم^(١) . وكان يذكرُ ما كان مِنْ مشاهدته القتال ، و يترخَّمُ على الأنصار ، و يذكرُ بلاءهم و مواطنهم ، و بذلهم أنفسهم لله في تلك المواطن الصَّالحة ، وكان يقولُ: الحمدُ لله الذي أكرمنا بالإسلام ، و منَّ علينا بمحمدٍ ﷺ^(٢) .

* و منْ أخبارِ ضرارٍ في غزاةِ أُحُدٍ أنَّه لما التقى عبد الله بن جحش - رضي الله عنه - يومها ، و عندما عرفه ضرارٌ و عرف أنَّه قرشيٌّ ، قال له : إليك يا بن جحش عني - وكان ضرار قد آلى ألا يقتلَ مُضَرِيًّا - .

فقال له عبد الله بن جحش - رضي الله عنه - : ما كان دُمك - يا عدوَّ الله - أعجب إليَّ منه الآن حينَ جمعتَ كفرًا و عصبيةً .

ولكنَّ ضراراً لم يلتفتْ إليه ، ثم نادى بأعلى صوتِهِ : يا معشرَ قريش ، اكفوني ابنَ جحش ما كنتُ لأقتلَ مُضَرِيًّا؛ فجاءتْ ثلَّةٌ من فرسانِ المشركين ، فانظموهُ برماحهم ، فسقطَ شهيداً فكانَ من السُّعداء^(٣) .

* وقال ضرارُ بنُ الخطَّاب لأبي بكر الصِّديق مازحاً : نحنُ كنَّا لقريش خيراً منكم ، نحنُ أدخلناهم الجنَّة ، وأنتم أدخلتموهم النَّارَ^(١) .

* وقال الضَّحَّاك بنُ عثمان : امترى مجلسٌ من الأوسِ والخزرجِ أيَّهم كان أحسنَ بلاءً يومَ أُحُدٍ ، فمرَّ بهم ضرارُ بنُ الخطَّاب فقالوا : هذا ضرارٌ قد قاتلنا يومئذٍ ، وهو عالمٌ بما اختلفتُما فيه ، فأرسلوا إليه فتى منهم ، فسأله : مَنْ كان أشجعَ يومَ أُحُدٍ : الأوسُ أم الخزرجُ؟ قال : والله ما أدري ما أوسُكم

(١) مختصر تاريخ دمشق (١١/١٥٦) بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق عينه .

(٣) المصدر السابق (١١/١٥٧) .

من خزر جكم ولا خزر جكم من أوسكم ، ولكنني قد زوجتُ يومئذٍ أحد عشر منكم من الحُور العِين^(١) .

* وذكرَ الدكتورُ «جواد علي» أنَّ لِضَرَارٍ شَعْرٌ قاله في يوم بدرٍ ، وشَعْرٌ في رثاء أبي جَهلٍ ، وأشعارٌ أخرى في أحدٍ ، وفي الوقائع الأخرى تجدُها في سيرة ابن هشام^(٢) .

* ولما عدتُ إلى سيرة ابن هشام أُلْفِيتُ أنَّ أَوَّلَ ذِكْرٍ وَرَدَ لِضَرَارِ بْنِ الْخَطَّابِ فِي الْإِسْلَامِ ، شِعْرُهُ الَّذِي قَالَهُ فِي عُدْوَانِ قَرِيشٍ عَلَى أَهْلِ الْعَقْبَةِ - الْعَقْبَةِ الثَّانِيَةِ - ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : وَكَانَ أَوَّلُ شَعْرِ قِيلَ فِي الْهَجْرَةِ بَيْتَيْنِ ، قَالَهُمَا ضَرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ بْنِ مُرْدَاسٍ ، أَخُو بَنِي مُحَارِبٍ بْنِ فِهْرٍ ، فَقَالَ :
تَدَارَكْتَ سَعْدًا عَنُوءَةً فَأَخَذْتَهُ وَكَانَ شِفَاءً لَوْ تَدَارَكْتَ مُنْذِرًا
وَلَوْ نَلْتُهُ طُلْتُ هُنَاكَ جِرَاحَهُ وَكَانَ حَرِيًّا أَنْ يُهَانَ وَيُهْدَرَا^(٣)

فَأَجَابَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ فِيهِمَا فَقَالَ :

لَسْتُ إِلَى سَعْدٍ وَلَا الْمَرْءِ مُنْذِرٍ إِذَا مَا مَطَايَا الْقَوْمِ أَصْبَحْنَ ضُمَرَا
فَلَوْلَا أَبُو وَهْبٍ لَمَرَّتْ قَصَائِدُ عَلَى شَرَفِ الْبَرْقَاءِ يَهْوِينَ حُسْرَا
أَتَفَخَّرُ بِالْكَتَّانِ لَمَّا لَبَسْتَهُ وَقَدْ تَلَبَّسُ الْأَنْبَاطُ رِيطًا مُقْصَرَا
فَلَا تَكُ كَالْوَسْنَانِ يَحْلُمُ أَنَّهُ بِقَرْيَةٍ كَسْرَى أَوْ بِقَرْيَةٍ قَيْصَرَا
وَلَا تَكُ كَالثُّكْلَى وَكَانَتْ بِمَعَزِلٍ عَنِ الثُّكْلِ لَوْ كَانَ الْفَوَادُ تَفْكَرَا

(١) مختصر تاريخ دمشق (١٥٧/١١) بشيء من التصريف .

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٧١٢/٩) .

(٣) السيرة النبوية (١/٤٥٠ و ٤٥١) ، ويقصدُ بـ «سَعْدٍ وَمُنْذِرٍ» : سعد بن عبادة ، ومنذر بن عمرو . و«عَنُوءَةً» : قَسْرًا وَقَهْرًا . و«طُلْتُ» : يُقَالُ : طُلْتُ دُمُهُ : بِالْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ وَالْبِنَاءِ لِلْمَعْلُومِ ، وَالْأَوَّلُ أَكْثَرُ : إِذَا هَدَرَ وَلَمْ يَثَارْ بِهِ . وَانْظُرْ كِتَابَ الْأَوَائِلِ لِلْعَسْكَرِيِّ .

وَلَا تَكُ كَالشَّاةِ الَّتِي كَانَ حَتْفُهَا بِحَفْرِ ذِرَاعَيْهَا فَلَمْ تَرْضَ مَحْفَرًا
وَلَا تَكُ كَالْعَاوِي فَأَقْبَلَ نَحْرَهُ وَلَمْ يَخْشَهُ سَهْمًا مِنَ النَّبْلِ مُضْمَرًا
فَانَّا وَمَنْ يُهْدِي الْقَصَائِدَ نَحُونًا كَمُسْتَبْضِعٍ تَمْرًا إِلَى أَرْضِ خَيْرٍ^(١)

* ولكن في ديوان حسان لم يرد إلا أربعة أبيات في الرد على ضرار ،
فقد ورد في الديوان ما نصه : وقال - حسان - في ليلة العقبة يجيب ضرار بن
الخطاب أحد بني مُحارب بن فُهر :

تَمْنَى ضِرَارٌ وَالْأَمَانِيُّ جَمَّةٌ مَنِ الْجَهْلِ أَنْ يَلْقَى بَضْجَنَانَ مُنْذِرًا
فَلَيْتَ وَرَبَّ الرَّاقِصَاتِ إِلَى مَنِ خَوَارِجَ مَنْ تَقَفَ الْكَدِيدَيْنِ ضُمْرًا
فَدَعُ عَنْكَ سَعْدًا إِنَّ سَعْدًا وَمُنْذِرًا سَوَاءٌ إِذَا شَدَّا لِحَرْبِكَ مِئْزَرًا
فَلَوْلَا أَبُو وَهْبٍ لَمَرَّتْ قَصَائِدُ عَلَى طَرَفِ الْبَرْقَاءِ يَهُوِينَ حُسْرًا^(٢)

* ومن العجيب أن هناك بعض الأشعار التي نسبت إلى ضرار بن

(١) السيرة النبوية (١/ ٤٥١ و ٤٥٢) ومعنى: «ضمرا»: هزيلة قليلة اللحم.
و«أبو وهب»: مُطْعِمُ بْنُ عَدِي. و«البرقاء»: موضع في البادية. و«حسرا»: أضناها
الإعياء. و«الأنباط»: قوم من العجم. و«الريط»: الملاحف البيض ، الواحدة:
ريطة. و«الوسنان»: النائم. و«كسرى»: لقب ملك الفرس. و«قيصر»: لقب ملك
الروم. و«الثكلي»: التي فُقدَتْ وَلَدَهَا. و«تك كالشاة التي كان حتفها»: يشير بهذا
البيت إلى المثل القديم فيمن أثار على نفسه شراً: كالباحث عن المذبة ، وأنشد
أبو عثمان الجاحظ :

وَكَا أَنْ يَجِيرُ النَّاسَ مِنْ سَيْفِ مَالِكٍ فَأَصْبَحَ يَبْغِي نَفْسَهُ مَنْ يَجِيرُهَا
وَكَا كَعَنْزِ الشَّوْءِ قَامَتْ بِظَلْفِهَا إِلَى مَدِينَةٍ تَحْتَ التَّرَابِ تَتِيرُهَا
و«مستبضع تمرأ.». : يشير إلى المثل المعروف : كمستبضع تمرأ إلى أرض خير ،
وخير : موطن التمر. وفي معنى هذا البيت يقول النابغة الجعدي :

وإن امرأ أهدى إليك قصيدة كمستبضع تمرأ إلى أرض خيرا
(٢) انظر: ديوان حسان بن ثابت (ص ٢٦٣) و«ضجنان»: واد بين مكة والمدينة وهو
إلى مكة أقرب. و«الكديد»: الأرض الغليظة ، والكديد: موضع بين مكة
والمدينة .

الخطّاب يعترّيها الوهنُ ، ولا تنطبقُ على ميوله أحياناً ، فقد عُرِفَ عن ضرارٍ أنّه من الشُّعراءِ الفُرسانيّ القرشيّين الذين كانوا حريصين أشدَّ الحرصِ على نُصْرِ قومهم بشتّى الوسائلِ ، والفخر بهم في المحافلِ ، وكان يغمّ أشدَّ الغمِّ والحزنِ بانخذالهم وانكسارهم ، ويهجو مَنْ ينالُ منهم ، ويرسلُ عليه شواظً من لسعاتِ لسانه وسنانه إن استطاعَ إلى ذلك سبيلاً ، وقد عبّر عن ذلك كلّهُ إِبَّانَ الأحداثِ الدائرة بين مكّة والمدينة ، وكان همُّه حينما يريدُ أن يهجوَ المسلمين أن ينالَ من الأوسِ والخزرجِ ، وكان يحزنه أن يكونَ القرشيّون قومه بين أولئك .

* ومن الملفتِ للنّظر أن بعضَ القصائدِ التي أوردتها المصادرُ ، يحومُ من حولها الشكُّ والوهم ؛ فقد رُوِيَ له في بدرٍ قصيدتان كلتاهُما لا تثبتُ له ، ففي القصيدة الأولى التي مطلعُها :

عَجِبْتُ لِفَخْرِ الأوسِ والحَيْنِ دائِرُ عَلَيْهِمَ غَدَاً والدَّهْرُ فِيهِ بصَائِرُ
وفَخْرُ بني النَّجَارِ إِنْ كَانَ مُعْشَرُ أَصَيُّوا بِبَدْرِ كُلُّهُمْ ثُمَّ صَابِرُ

* وهي قصيدةٌ تعدُّ (١٥ بيتاً) ، نجدُ فيها مدحاً لرسولِ الله ﷺ ، ولأصحابهِ الأكابرِ من مثل أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ وحمزةَ وسعدٍ ، فيقولُ :

فَإِنْ تَظَفَرُوا فِي يَوْمِ بَدْرِ فَإِنَّمَا بِأَحْمَدَ أَمْسَى جَدَّكُمْ وَهُوَ ظَاهِرُ
وَبِالْفَرِّ الأَخْيَارِ هُمْ أَوْلِيَاؤُهُ يُحَامُونَ فِي اللّأَوَاءِ والمَوْتُ حَاضِرُ
يَعْدُ أَبُو بَكْرٍ وَحَمْزَةُ فِيهِمْ وَيُدْعَى عَلِيٌّ وَسَطُ مَنْ أَنْتَ ذَاكِرُ
وَيُدْعَى أَبُو حَفْصٍ وَعُثْمَانُ مِنْهُمْ وَسَعْدُ إِذَا مَا كَانَ فِي الحَرْبِ حَاضِرُ
هُمْ الطَّاعِنُونَ الخَيْلَ فِي كُلِّ مَعْرَكٍ غَدَاةَ الهَيَاجِ الأَطْيَبُونَ الأكابرُ^(١)

(١) السيرة النبوية (٢/١٣ و ١٤) باختصار وانتقاء .

* وَمَنْ الْوَاضِحَ لِكُلِّ ذِي بَصِيرَةٍ وَتَبْصُرٍ بِالشَّعْرِ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الشَّعْرِ - بِلِ النَّظْمِ - لَا يَقُولُهُ ضَرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ ذَلِكَ الْفَارِسُ الشَّاعِرُ الَّذِي عُرِفَ بِعَصْبِيَّتِهِ وَشِدَّتِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ - وَخُصُوصاً بُعِيدَ غَزَاةِ بَدْرٍ - ، وَلَا يُمْكِنُ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَنْ يَنْطِقَ بِمَدْحِ الرَّسُولِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ مُوتَوِّرٌ قَدْ أُصِيبَ بِأَهْلِهِ وَقَوْمِهِ ، وَإِنَّمَا الرَّأْيُ عِنْدِي أَنَّ هَذَا الشَّعْرَ مَنْحُولٌ عَلَى ضِرَارٍ ، وَقَدْ رَصَفَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى لِسَانِهِ أَحَدُ الْمُعْجِبِينَ بِأَحْدَاثِ السَّيِّرَةِ النَّبَوِيَّةِ فِيمَا بَعْدَ عَصْرِ ضِرَارٍ بِعُصُورٍ وَقُرُونٍ . وَمَنْ الْغَرِيبِ فِي أَحْدَاثِ السَّيِّرَةِ وَحَوَادِثِهَا وَأَشْعَارِهَا أَنَّ ابْنَ هِشَامٍ لَمْ يَسَاوِزْهُ الشَّكُّ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ الرَّائِيَّةِ - الضَّرَرِيَّةِ - ، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّهُ قَدْ شَكَّ وَشَكَّكَ فِي الْقَصِيدَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي يَرِثِي بِهَا أَبَا جَهْلٍ لَعَيْنَ الْكُفْرِ وَفِرْعَوْنَ الْأُمَّةِ ، وَهِيَ قَصِيدَةٌ عَدَدُ أَبْيَاتِهَا (١٢ بَيْتاً) وَيَقُولُ فِيهَا :

أَلَا مَنْ لَعَيْنٍ بَاتَتْ اللَّيْلَ لَمْ تَنْمِ تُرَاقِبُ نَجْماً فِي سَوَادٍ مِنَ الظُّلَمِ

ومنها:

فَالَيْتُ لَا تَنْفُكُ عَيْنِي بِعَبْرَةٍ عَلَى هَالِكٍ بَعْدَ الرَّئِيسِ أَبِي الْحَكَمِ

إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ الْمِيمِيَّةِ الَّتِي يَعْدُّ وَيَذْكُرُ خِلَالَهَا بِطَوْلَةٍ وَمَآثِرَ وَصِفَاتِ الْخَبِيثِ أَبِي جَهْلٍ ؛ وَيَعْقُبُ ابْنُ هِشَامٍ عَلَى الْقَصِيدَةِ بِقَوْلِهِ : وَبَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَنْكَرُهَا لِضِرَارٍ^(١) .

* وَفِي مَعْرَكَةِ أَحَدٍ يَشَارِكُ ضَرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ قَوْمَهُ فِيهَا ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ ، وَفِي هَذِهِ الْمَوْقِعَةِ لَمْ يَكْتَفِ بِالْمُشَارَكَةِ بِسَنَانِهِ وَفِرُوسِيَّتِهِ وَسَيْفِهِ وَقَنَاتِهِ ، وَإِنَّمَا شَارَكَ بِلِسَانِهِ حَيْثُ كَانَ لِسَانُ قَوْمِهِ النَّاطِقُ بِمُفَاخِرِهِمْ ، حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ يَوْمَ أَحَدٍ حَلِيفَ قُرَيْشٍ ، وَلِذَا فَقَدْ كَانَ ضَرَارٌ يَزْهُو وَيَفْخَرُ وَيَفْتَحِرُ وَيَتَغَنَّى بِهَذَا النَّصْرِ بِهَذِهِ الْعَيْنِيَّةِ ؛ وَمِنْهَا :

(١) انظر: السَّيِّرَةُ النَّبَوِيَّةُ (٢/٢٨) .

إِنِّي وَجَدَكَ لَوْلَا مُقَدَّمِي فَرَسِي إِذْ جَالَتِ الْخَيْلُ بَيْنَ الْجِزْعِ وَالْقَاعِ
 إِنِّي وَجَدَكَ لَا أَنْفَكُ مُتَطَقًا بِصَارِمٍ مِثْلِ لَوْنِ الْمَلْحِ قَطَاعٍ
 وختَمَهَا بقوله :

شَمُّ بَهَائِلُ مُسْتَرَحِّ حَمَائِلُهُمْ يَسْعَوْنَ لِلْمَوْتِ سَعِيًّا غَيْرَ دَعْدَاعٍ^(١)
 * ولضرارِ بنِ الخطَّابِ قصيدةٌ قافيةً أيضاً ، أنشدَهَا يومَ أحدٍ ، وقد ذكر
 خلالها عدَّةَ قومهٍ وصبرَهُمْ في الحربِ ، وعزمَهُمْ على أنْ ينالوا في هذا
 اليومِ النَّصرَ والثَّارَ لبدرٍ ، ويحرِّضُ مَنْ خَلَّاهَا النَّاسَ على الصَّبْرِ والثَّباتِ
 والإقدامِ ، كما أشارَ إلى خوضِهِ المِعمعةِ بِمُهرِهِ ، ووصفَ فروسِيَّتِهِ فقال :
 لَمَّا أَتَتْ مِنْ بَنِي كَعْبٍ مُزَيَّنَةٌ وَالْخَزْرَجِيَّةُ فِيهَا الْبَيْضُ تَأْتَلِقُ
 وَجَرَدُوا مَشْرِفِيَّاتٍ مُهَنَّدَةً وَرَايَةً كَجَنَاحِ الشَّسْرِ تَخْتَفِقُ
 فَقُلْتُ يَوْمَ بَأْيَامٍ وَمَعْرَكَةٍ تُنْبِي لَمَّا خَلَفَهَا مَا هُزْهَزَ الْوَرَقُ
 ومنها :

أَكْرَهْتُ مُهْرِي حَتَّى خَاضَ غَمْرَتَهُمْ وَبَلَّهْ مِنْ نَجِيعِ عَانِكٍ عَلَقُ
 لَا تَجْزَعُوا يَا بَنِي مَخْزُومٍ إِنَّ لَكُمْ مِثْلَ الْمَغِيرَةِ فِيكُمْ مَا بِهِ زَهَقُ
 صَبْرًا فَدَى لَكُمْ أُمِّي وَمَا وَلَدَتْ تَعَاوَرُوا الصَّرْبَ حَتَّى يُدْبِرَ الشَّفَقُ^(٢)

(١) السِّيرة النَّبَوِيَّة (٢/ ١٤٤ و ١٤٥) ، ومعنى «الجِزْع» : منعطفُ الوادي . و«القَاع» : المنخفض من الأرض . و«منتطقٌ» : محتزَمٌ . و«الصَّارِم» : السَّيفُ القاطع . و«بَهَائِلُ» : السَّادَةُ . و«مسترخ حمائلهم» : يعني حمائل سيوفهم ، وفيه إشارةٌ إلى طولهم . و«دَعْدَاع» : الضَّعِيفُ البَطِيءُ .

(٢) انظر : السِّيرة النَّبَوِيَّة (٢/ ١٤٥ و ١٤٦) بتصرف واختصار ، وانظر كتاب : شِعْر المَخْضَرَمِينَ للدكتور يحيى الجُبُورِي (ص ١٣٦ - ١٤٣) . ومعنى «مُزَيَّنَةٌ» : يعني كَتِيبةٌ فيها ألوانٌ مِنَ السَّلَاحِ وأشكاله وأنواعه ، و«تَأْتَلِقُ» : تضيءُ وتلمعُ . و«مَشْرِفِيَّاتٍ» : سيوفٌ منسوبةٌ إلى المَشَارِفِ وهي قُرَى الشَّامِ . و«تُنْبِي» : تنبئُ ، خَفَّفَ وحذفَ الهمزة . و«هُزْهَزَ» : بالبناء للمجهول : حَرَّكَ . و«غَمْرَتَهُمْ» : =

* وهكذا كان ضرارٌ فارساً في الحربِ وفارساً في معركةِ الكلامِ والشَّعرِ ، وقد خطَّ بسانِه ولسانِه مآثرٌ في الفروسيَّة ، ولكنَّه إلى الآن لم يوفِّق في الإيمانِ ، ولم يَهْتدِ ، بل كان له ذِكْرٌ وصَوْتُ في غزاةِ الخندقِ ، بل كان أحدَ الفرسان الذين وثبوا الخندقَ ، وهذا ما سنعرِّفه بعد قليل بإذنِ الله .

ضِرَارٌ وَعَزْوَةُ الْخَنْدَقِ :

* في غزوةِ الأحزابِ كان لضرارِ بنِ الخطابِ دورٌ بارزٌ فيها ، وفي أحداثها ، فهو أحدُ الذين وثبوا الخندق من فرسانِ قُريش .

* وقصَّةُ حفرِ الخندقِ متعلِّمةٌ معروفةٌ في أحداثِ السَّيرةِ النَّبويَّةِ ، وكان المسلمون قد ضاعفُوا جهودهم للدِّفاعِ عن كيانهم وعقيدتهم ؛ وأكثرُوا من تشديدِ الحراسةِ على المواقعِ الضَّيِّقةِ مِنَ الخندقِ ، والتي يُحْتَمَلُ أَنْ يقتحمها بعضُ فرسانِ العربِ مِنَ الأحزابِ المتجمِّهَةِ حِيالَ المدينةِ ، حتَّى إِنَّ رسولَ الله ﷺ قد رابطَ بنفسه حولَ أخطرِ نقطةٍ يتوقَّعُ المسلمون اقتحامها من قِبَلِ خَيْلِ الأحزابِ .

* وتضاعفَ خوفُ المسلمين ، واشتدَّ الفزعُ ، واضطربتِ القلوبُ حتَّى بلغتِ الحناجرَ ، ومعَ هذه الأوقاتِ الحرجةِ ، فقد ثبتَ المؤمنون الأبرارُ ، وظلُّوا بجانبِ النَّبيِّ الكريمِ ﷺ ؛ وممَّا زادَ الطَّينَ بِلَّةً والأمرَ شِدَّةً أَنَّ يهودَ بني قُريظة قد نقضُوا العهدَ مع المسلمين ، وانضمُّوا إلى جموعِ الأحزابِ الجائمةِ حِيالَ الخندقِ ، لكي يسحقُوا المسلمين ، أو يوهنُوا من عزيمتهم .

* وأخذَ المشركون يضاعفونَ من محاولاتهم لاقتحامِ الخندقِ وعبره

= جماعتهم . و«نجيع» : الدم . و«عانك» : أحمر . و«علق» : من أسماءِ الدم . و«الزَّهَق» : العيب . و«تعاوروا» : تداولوا .

نحو المسلمين ، وضاعفوا من دورياتهم على طول الخندق لإرهاب المسلمين ، وتشتيت معنوياتهم ، ومن ثمَّ ينقضون عليهم بالاشتراك مع يهود بني قريظة من داخل المدينة .

* ولذلك فقد اتفق بعض فرسان قريش وقادتهم من مثل : أبو سفيان بن حرب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وضراؤ بن الخطاب ، وعكرمة بن أبي جهل ، وهبيرة بن أبي هبيرة ، ونوفل بن عبد الله ؛ اتفقوا على أن يقودوا عملية مناوشة المسلمين وإزعاجهم بأنفسهم ؛ وراحوا ينفذون عمليات بسيطة لا تتعدى الجولان بالخيال للإرهاب من جانب قريش ، وترام بالنبل ، إلى أن تطور القتال قليلاً من جانب الأحزاب ؛ حيث قام فريق من فرسانهم الأشداء ، وأبطالهم المغامرين باقتحام الخندق بخيلهم من ناحية ضيقة به ؛ فقد اقتحم عمرو بن عبدود العامري ، وعكرمة بن أبي جهل ، وضراؤ بن الخطاب ، وهبيرة بن أبي وهب ، ونوفل بن عبد الله ، اقتحم هؤلاء الفرسان - وكلهم من قريش - بخيلهم مضيقاً من الخندق ، وسارع إلى ملاقاتهم ذوو البأس والفروسيّة من المسلمين ، وقطعوا عليهم خط الرجعة ، واشتبكوا معهم في معركة سريعة وعنيفة وحاسمة أبادوا فيها رأسهم ، وأجبروا الباقين على الفرار ، ومنهم ضراؤ بن الخطاب الذي هرب من سيوف المسلمين وأبطالهم .

* وأمّا كبش الكتيبة عمرو بن عبدود العامري فكان قد حضر معركة بدر ، وذاق مرارة الهزيمة ، وجرح في المعركة ، ونذر ألا يمس رأسه دهنًا حتى يقتل محمّداً ، ولهذا كان أول الفرسان المقتحمين بخيلهم الخندق نحو المسلمين ، فالتقاء علي بن أبي طالب فبارزه حتى قتله .

* قال ابن إسحاق : وكان عمرو بن عبدود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة ، فلم يشهد يوم أُحُد ، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً - عليه

علامةٌ يُعرفُ بها - ليرى مكانه ، فلما وقف هو وخيله ، قال : مَنْ يبارز؟
فبرز له عليُّ بنُ أبي طالب^(١).

* وعندما توجهُ عليٌّ إلى عمروٍ لىبارزه ، قال له عليٌّ : يا عمرو إنك
كنت تقولُ : لا يدعوني أحدٌ إلى واحدٍ من ثلاثٍ إلا قبلتها .
فقال له عمرو : أجل ؛ هذا صحيحٌ .

فقال له عليٌّ : إني أدعوك أن تشهدَ أن لا إلهَ إلا الله وأنَّ محمدًا
رسولُ الله ، وتُسَلِّمَ لِرَبِّ العالمين .

فقال عمرو : يا بن أخي ؛ أخر عني هذه .

قال عليٌّ : وأخرى ؛ ترجعُ إلى بلادك ، فإن يك محمدٌ رسولُ الله صادقاً
كنت أسعدَ الناسِ به ، وإن يك كاذباً كان الذي تُريد .

فقال عمرو : هذا ما لا تتحدّثُ به نساءُ قريش أبداً ، كيفَ وقد قدّرتُ
على استيفاء ما نذرتُ .

ثم قال عمرو : فالثالثةُ ما هي؟

فقال عليٌّ : البراز .

* فضحك فارسُ قريش عمرو - وكان فارساً مشهوراً مُعَمَّراً قد جاوزَ
الثمانين - ثم قال لعلّي : إنّ هذه لخصلَةٌ ما كنتُ أظنُّ أحداً من العرب
يروّ عني بها .

* ثم قال لعلّي : لِمَ يا بن أخي؟ فوالله ما أحبُّ أن أقتلك . فقال عليٌّ
- رضي الله عنه - : ولكنّي والله أحبُّ أن أقتلك . فغضبَ عند ذلك عمرو
غضباً شديداً ؛ ولما كان عمرو فارساً وعليٌّ راجلاً ، نزلَ عمرو عن فرسه ،

(١) السيرة النبوية (٢/ ٢٢٤ و ٢٢٥).

فَعَقَرَهُ ، وَضَرَبَ وَجْهَهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيٍّ فَتَنَازَلَ بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهُ وَأَرَاخَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِ ، وَقَدْ جُرِحَ عَلِيٌّ بِنِ أَبِي طَالِبٍ جُرْحًا بَسِيطًا فِي رَأْسِهِ أَثْنَاءَ الْمُبَارَزَةِ^(١) .

وَقَالَ عَلِيٌّ فِي ذَلِكَ أَبْيَاتًا مِنْهَا :

نَصَرَ الْحِجَارَةَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأْيِهِ وَنَصَرْتُ رَبَّ مُحَمَّدٍ بَصَوَابِي
لَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ خَاذِلَ دِينِهِ وَنَبِيِّهِ يَا مَعْشَرَ الْأَحْزَابِ^(٢)

* وَبَعْدَ أَنْ تَمَّ الْقَضَاءُ عَلَى فَارِسِ قُرَيْشٍ ، وَقَائِدِ الْفِدَائِيِّينَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ فَرَسَانِهِمْ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وَدٍّ ، فَرَّ بَاقِي الرِّعَالِ الْقُرَشِيِّينَ ، وَخَرَجَتْ بِهِمْ خَيْلُهُمْ مَسْرَعَةً تَسَابِقُ الرِّيحِ مِنْهَزِمَةً نَحْوَ الْمَضِيقِ الَّذِي اقْتَحَمُوهُ مِنَ الْخَنْدَقِ ، فَطَارَدَهُمْ بَعْضُ فَرَسَانِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَحَقَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَامِ نَوْفَلَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، فَضْرَبَهُ بِالسَّيْفِ ضَرْبَةً زُبَيْرِيَّةً وَاحِدَةً شَقَّتْهُ نِصْفَيْنِ حَتَّى وَصَلَتْ تِلْكَ الضَّرْبَةُ إِلَى كَاهِلِ الْفَرَسِ . فَقِيلَ لِلزُّبَيْرِ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِثْلَ سَيْفِكَ ؟!

فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا هُوَ السَّيْفُ ، وَلَكِنَّهُ السَّاعِدُ الَّذِي يَحْمِلُ السَّيْفَ . وَلَقَدْ صَدَقَ الزُّبَيْرُ فَلَقَدْ كَانَ بِحَقِّ فَارِسَ الشَّجْعَانِ وَلَيْثَ الْمِيدَانِ وَحَوَارِي النَّبِيِّ ﷺ .

* وَلَقَدْ حَاولَ فَارِسَانِ فِدَائِيَّانِ مِنْ فَرَسَانِ قُرَيْشٍ الْإِنْتِقَامَ لِعَمْرُو بْنِ عَبْدِ وَدٍّ ، وَهُمَا ضَرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَهَبِيرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ ، حَاولَ هَذَانِ الْفَرَسَانِ الْفَتْكَ بِعَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَلَكِنَّهُ ثَبَتَ أَمَامَهُمَا ، وَقَاتَلَهُمَا حَتَّى

(١) انظر: غزوة الأحزاب لمحمد أحمد باشميل (ص ٢١٥ و ٢١٦).

(٢) السيرة النبوية (٢/ ٢٢٥) ، قال ابن هشام: وأكثر أهل العلم بالشعر يشك فيها لعلِّي .

هزَمَهُمَا وَوَلِيَا الْأَدْبَارَ وَبَصَحَبَتُهُمَا عَكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ الَّذِي أَلْقَى بِرُمَحِهِ
عِنْدَمَا فَرَّ مِنَ الْمَعْرَكَةِ .

* وَهَكَذَا فَشَلَ ضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَمَنْ مَعَهُ مِنْ ثَلَاثَةِ الْفِدَائِيِّينَ مِنْ
فِرْسَانَ مَكَّةَ ، وَعَادَ يَجْرُرُ أَذْيَالَ الْهَزِيمَةِ وَالْخَبِيَّةِ بَعْدَ أَنْ قَتَلَ الْمُسْلِمُونَ
نَفَرَيْنِ مِنْ أَبْطَالِ قَرِيشٍ . وَعِنْدَهَا كَفَّتْ فِرْسَانُ الْأَحْزَابِ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ
الْمَغَامِرَاتِ الْحَرْبِيَّةِ ، وَتَوَقَّفَتْ عَمَلِيَّاتُ قَفْزِ الْفِرْسَانِ الْأَشْدَّاءِ بِخَيْلِهِمْ عَبْرَ
الْخَنْدَقِ ، وَلَمْ يَعُدْ يَسْتَطِيعُ فِرْسَانُ الْمُشْرِكِينَ الْقِيَامَ بِأَيِّ مَغَامِرَةٍ مِنْ هَذَا
النَّوعِ .

* وَطَالَ الْوَقْتُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي حِصَارِهِمْ ، وَمَضَى أَكْثَرُ مِنْ عَشْرَةِ
أَيَّامٍ عَلَى الْحِصَارِ دُونَ أَنْ يَحْزِرُوا تَقْدَمًا ، وَبَدَأَتْ الْأَطْعَمَةُ تَنْضُبُ وَتَقِلُّ
- حَيْثُ ظَنَّ أَبُو سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهَا مَعْرَكَةٌ يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ
يَوْمٍ ، ثُمَّ يَعُودُ كُلُّ إِلَى بَلَدِهِ بِالْخَيْرِ الْوَفِيرِ وَالتَّصَرُّ الْعَزِيزِ - ، وَهَذَا مَا جَعَلَ
الْخَبِيثَ حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبٍ يَلْبِي طَلَبَ أَبِي سُفْيَانَ ، فَيَحْمِلُ لَهُ عَشْرِينَ بَعِيرًا
كَانَ أَرْسَلَهَا لَهُ مَعَ ضِرَارِ بْنِ الْخَطَّابِ ، حَمَلَهَا لَهُ شَعِيرًا وَتَمْرًا وَتِينًا ،
وَلَكِنَّهَا وَقَعَتْ فِي يَدِ إِحْدَى دُورِيَّاتِ الْمُسْلِمِينَ ، فَأَتَوْا بِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ،
فَكَانَتْ طَعَامًا لَهُمْ حَتَّى نِهَايَةِ الْمَعْرَكَةِ ، وَعَادَ ضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ لِيُخْبِرَ
أَبَا سُفْيَانَ بِمَا حَدَثَ ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : إِنَّ حُيَيًّا لِمَشْؤُومٍ ، قَطَعَ بِنَا مَا نَجِدُ
مَا نَحْمِلُ عَلَيْهِ إِذَا رَجَعْنَا^(١) .

* وَلَمْ تَكُنْ غَزَاةُ الْخَنْدَقِ لِمُتَمَّرٍ دُونَ أَنْ يَسْجَلَ ضِرَارُ فِيهَا بَعْضَ نَفَثَاتِهِ ،
فَفِي الْخَنْدَقِ يَقُولُ ضِرَارُ قَصِيدَتَهُ التَّوْنِيَّةَ ، حَيْثُ يَفْتَخِرُ بِقُوَّةِ جَيْشِهِمْ ،
وَحُسْنِ عُدَّتِهِ ، وَشِدَّتِهِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَتَسَلَّطِهِ عَلَيْهِمْ ، يَقُولُ :

(١) شرح الزرقاني (٢/١٢٢) .

وَمُشْفِقَةٍ تَظُنُّ بِنَا الظُّنُونَا
كَأَنَّ زَهَاءَهَا أَحَدٌ إِذَا مَا
تَرَى الْأُبْدَانَ فِيهَا مُسْبِغَاتٍ
وَجُرْدًا كَالْقِدَاحِ مُسَوَّمَاتٍ
كَأَنَّهُمْ إِذَا صَالُوا وَصُلْنَا
بِبَابِ الْخُنْدَقَيْنِ مُصَافِحُونَا^(١)

* ثُمَّ إِنَّ ضَرَارَ يَتَابِعُ قَصِيدَتَهُ هَذِهِ بِهَجَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَيَصِفُ الْحَصَارَ ،
وَيَذْكُرُ سَعْدًا ، وَيَتَوَعَّدُهُمْ بِجَوْلَةٍ قَادِمَةٍ ، وَزِيَارَةِ حَرْبِيَّةٍ عَمَّا قَرِيبٍ فَيَقُولُ :

أَنَاسٌ لَا تَرَى فِيهِمْ رَشِيدًا
فَأَخَجَرْنَاهُمْ شَهْرًا كَرِيثًا
نُراوِحُهُمْ وَنَعْدُو كُلَّ يَوْمٍ
بِأَيْدِينَا صَوَارِمُ مُرْهَفَاتٍ
وَمِنْهَا :

فَلَوْلَا خُنْدُقٌ كَانُوا لَدَيْهِ
وَلَكِنْ حَالَ دُونَهُمْ وَكَانُوا
فَإِنْ نَرَحُلْ فَإِنَّا قَدْ تَرَكْنَا
إِذَا جُنَّ الظَّلَامُ سَمِعَتْ نَوْحِي
وَسَوْفَ نَزُورُكُمْ عَمَّا قَرِيبٍ
يَجْمَعُ مِنْ كِنَانَةٍ غَيْرِ عُزْلِ
لَدَمَّرْنَا عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ
بِهِ مِنْ خَوْفِنَا مُتَعَوِّذِينَ
لَدَى أَيْبَاتِكُمْ سَعْدًا رَهِينًا
عَلَى سَعْدٍ يَرْجِعُنَ الْحَنِينَا
كَمَا زُرْنَاكُمْ مُتَوَازِرِينَ
كَأُسْدِ الْغَابِ قَدْ حَمَتِ الْعَرِينَا^(٢)

(١) انظر: السيرة النبوية (٢/ ٢٥٤ و ٢٥٥). ومعنى: «العُرْدَسَةُ»: شدة القوة. يريد: كتيبة. و«زهاءها»: تقدير عددها. «الأبدان»: معناها هنا: الدروع. و«مسبغات»: كاملة. و«اليلب»: الترس أو الدرق. و«الجرْد»: الخيل العتاق. و«القِدَاح»: السهام. و«مسومات»: مرسلّة. و«نؤم»: نقصد.

(٢) السيرة النبوية (٢/ ٢٥٥)؛ ومعنى «أَخَجَرْنَاهُمْ»: حَصَرْنَاهُمْ. و«شَهْرًا كَرِيثًا»: تاماً كاملاً. و«المدجج»: الكامل السلاح. و«الصّوارم»: السيوف. و«مرهفات»: =

إِسْلَامُهُ وَمَذْحُهُ النَّبِيِّ ﷺ :

* كان ضَرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ شَدِيدَ الْعَدَاوَةِ لِلَّذِينَ الْحَنِيفَ ، وَلرَسُولِ الْهَدْيِ ﷺ ، وَلأَصْحَابِهِ الْكَرَامِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - ، فَكَانَ عَنِيفاً فِي خُصُومَتِهِ ، شَدِيداً فِي عَدَاوَتِهِ ، وَعِنْدَمَا يَسْكُتُ سَيْفُهُ عَنِ الْحَرْبِ ، يَنْطَلِقُ لِسَانُهُ فِي الْحَرْبِ ، وَإِذَا شَارَكَ فِي الْحَرْبِ شَارَكَ بِلِسَانِهِ وَسِنَانِهِ ، وَسَحَّرَ فُرُوسِيَّتَهُ فِي حَرْبِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، فَقَدْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَكْتُمَ أَنْفَاسَ الْإِسْلَامِ الْمَتَرَدِّدَةَ فِي الْمَدِينَةِ ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرَادَ بِهِ خَيْراً ، وَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِي سَلَكِ دُرَرِ الصَّحَابَةِ وَمِمَّنْ رَضِيَ عَنْهُمْ .

* وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ ، فَتَحَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِ ضَرَّارٍ ، وَامْتَلَأَتْ جَوَانِحُهُ حُبّاً لِلْإِسْلَامِ ، وَخُصُوصاً لِمَا رَنَّ فِي أَعْوَارِ نَفْسِهِ صَوْتُ الْحَقِّ يَنَادِيهِ أَنْ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ، وَهَمَسَ فِي وَجْدَانِهِ هَامِسٌ يَقُولُ لَهُ : هَيَّا إِلَى الْإِسْلَامِ ، إِلَى النَّجَاةِ ، إِلَى السَّعَادَةِ ، فَهَاهُمْ الْكِبَرَاءُ قَدْ انْضَمُّوا إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَمِنْهُمْ : عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، وَأَبُو سَفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلِبِ ، وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلِبِ ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْكِبَرَاءِ الْأَعْلِيَاءِ ، الَّذِينَ غَدَوْا مِنْ أَنْصَارِ الْحَبِيبِ الْمُصْطَفَى ﷺ .

* وَيَوْمَ الْفَتْحِ الْأَعْظَمِ ، فَتَحَ اللَّهُ قُلُوباً عَمِيّاً ، وَأَذَاناً صَمّاً ، وَدَقَّتْ

= قاطعة . و«تقدّ» : تقطع . و«المفارق» : جمع مفروق ، وهو حيثُ ينفرقُ الشعرُ في أعلى الجبهة . و«الشؤون» : معناها هنا : مجمع العظام في أعلى الرأس . و«جنّ الظلام» : اسودّ وادلهم . و«نوحى» : جماعة النساء اللاتي يُنْحَنُ على الميت . و«متوازيين» : متعاونين . و«العزل» : الذين لا سلاح معهم ؛ الواحد : أعزل . و«العاب» : جنم غابة ، وهي الأجمة والعرين ، موضع الأسد .
ومن الجدير بالذكر أنّ كعب بن مالك قد ردّ على ضَرَّارِ بْنِ الْخَطَّابِ بقصيدة بنفس الوزن والقافية .
انظر (السيرة النبوية ٢/ ٢٥٥ و ٢٥٦)

الْقُلُوبُ فِي شِدَّةٍ دَاخِلَ الصَّدُورِ ، وَتَعَلَّقَتِ الْأَعْيُنُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي دَخَلَ مَكَّةَ عَلَى رَاحِلَتِهِ مُعْتَجِراً بِشِقَّةِ بُرْدٍ حُمْرَاءَ ، وَإِنَّهُ لَيَضَعُ رَأْسَهُ تَوَاضِعاً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، حِينَ رَأَى مَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْفَتْحِ الْأَعْظَمِ ؛ وَهَنَا رَاحَ ضَرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ يَرْنُو إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَبِّ بَعْدَ أَنْ قَالَ ﷺ لِأَبِي سُفْيَانَ : «يَا أَبَا سُفْيَانَ الْيَوْمُ يَوْمُ الْمَرْحَمَةِ ، الْيَوْمَ أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ قَرِيشاً»^(١) .

* وَهَزَّتْ أُرَيْحِيَّةَ الْحَبِيبِ الْمُصْطَفَى ﷺ عَدُوَّ الْأُمْسِ ضَرَارَ بْنَ الْخَطَّابِ الَّذِي فَعَلَ بِالْمُسْلِمِينَ الْأَفَاعِيلَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَنَالُوا مِنْ لِسَانِهِ وَسِنَانِهِ شَيْئاً كَثِيراً ، وَهَنَالِكَ رَقَّتْ عَاطِفَتُهُ وَرَاقَتْ سَجِيَّتُهُ الشَّعْرِيَّةُ بِأَرْقِ الْكَلِمَاتِ الْمُنْدَاةِ بِرَحِيقِ الْإِيمَانِ وَالْإِعْتِذَارِ ، فَقَالَ يَوْمَئِذٍ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمَ وَضَقَلَتْ نَفْسَهُ هَمْسَاتُ الْإِيمَانِ :

| | |
|--|--|
| يَا نَبِيَّ الْهُدَى إِلَيْكَ لَجَا | حَيُّ قُرَيْشٍ وَأَنْتَ خَيْرُ لَجَاءٍ |
| حِينَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ سَعَةُ الْأَر | ضٍ وَعَادَاهُمْ إِلَهُ السَّمَاءِ |
| والتَّقَتْ حَلَقَتَا الْبَطَانِ عَلَى الْقَو | مٍ وَنُودُوا بِالصِّلَمِ الصَّلْعَاءِ |
| إِنَّ سَعْدًا يَرِيدُ قَاصِمَةَ الظُّه | رِ بِأَهْلِ الْحُجُونِ وَالْبَطْحَاءِ |
| خَزْرَجِيٍّ لَوْ يَسْتَطِيعُ مِنَ الْغَيْدِ | ظِ رَمَانًا بِالتَّسْرِ وَالْعَوَاءِ |
| وَعِزُّ الصَّدْرِ لَا يَهُمُّ بِشَيْءٍ | غَيْرِ سَفْكِ الدِّمَاءِ وَسُبْيِ النِّسَاءِ |
| قَدْ تَلْظَى عَلَى الْبِطَاحِ وَجَاءَتْ | عَنْهُ هُنْدٌ بِالسَّوَةِ السَّوَاءِ |
| إِذْ تَنَادَى بَذُلٌ حَيُّ قُرَيْشٍ | وَابْنُ حَرْبٍ بَدَا مِنَ الشُّهْدَاءِ |
| فَلَنْ أَقْحَمَ اللَّوَاءَ وَنَادَى | يَا حِمَاةَ اللَّوَاءِ أَهْلَ اللَّوَاءِ |
| ثُمَّ ثَابَتْ إِلَيْهِ مِنْ فَهْمِ الْخَزْ | رَجِ وَالْأَوْسِ أَنْجُمُ الْهَيْجَاءِ |

(١) الاستيعاب (٣٦/٢) ، وقال النبي ﷺ هذه العبارة لأبي سفيان حينما قال سعدُ بنُ عبادَةَ رضي الله عنه : اليومَ يومُ الملحمة ، اليومَ تُسْتَحَلُّ المَرْحَمَةُ ، اليومَ أَذَلَّ اللَّهُ قَرِيشاً . (الاستيعاب ٣٥/٢ و ٣٦) وانظر تفاصيل ذلك في كتب السيرة .

لتكوننَّ بِالْبِطَاحِ قَرِيْشٌ فَعَقَةُ الْقَاعِ فِي أَكْفِ الْإِمَاءِ
فَانْهَيْتَهُ فَإِنَّهُ أَسَدُ الْأُسْدِ لَدَى الْغَابِ وَالْغُ فِي الدَّمَاءِ
إِنَّهُ مَطْرَقٌ يَدِيرُ لَنَا الْأُمَ رَ سُكُونًا كَالْحَيَّةِ الصَّمَاءِ^(١)

* ولما سمع الحبيب المصطفى ﷺ هذه الهمزية من ضرار بن الخطاب الذي جاءه مُسْلِماً مُسْلِماً ، وعندها أرسل النَّبِيُّ ﷺ إلى سعد بن عبادة فنزع اللواء من يده ، وجعله بيد قيس ابنه ، ورأى النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللواء لم يخرج عنه إذ صارَ إلى ابنه قيس بن سعد بن عبادة - رضي الله عنهما -^(٢).

* وهكذا غدا ضرار من المسلمين ، وتهلَّل وجهه بالبشر ، وامتلاً فؤاده راحةً ، وانشرح صدره ، لأنَّ رسولَ الله ﷺ استجابَ له ، ونزعَ الرايةَ من سعد بن عبادة ، ورأفَ بأهلِ مَكَّةَ وقالَ لهم: ﴿ لَا تَزِرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ [يوسف: ٩٢] ، وعفا عنهم .

* وصدقَ اللهُ عزَّ وجلَّ عندما وصفَ رسولهَ بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] ؛ وهذا ما جعلَ ضراراً ممن حَسَنَ إسلامهم ، وأحبَّوه . ولما التحقَ رسولُ الله ﷺ بالرَّفِيقِ الْأَعْلَى ، ارتدتْ بعضُ قبائل العرب عن الإسلام ، بينما ثبتَ ضرارُ بنُ الخطاب على الإسلام ، ولم تهزَّ تلكم الحركات التي قامَ بها بعضُ المرتدين ، كما ثبتَ معه أهلُ مَكَّةَ المَكْرَمَةِ ، لذا كانوا جميعاً من الدِّعَامَاتِ الْقَوِيَّةِ التي دافعتْ عن حياضِ الإسلام ، وعن عقيدةِ المسلمين ، ثمَّ لم يَقِفْ ضرارٌ مكتوفَ الأيدي ، وإتَّما جاهدَ بِلِسَانِهِ وَلِسَانِهِ ، وله وقفاتٌ وآثارٌ وضيئةٌ في تاريخِ الفُرسَانِ المجاهدين

(١) الاستيعاب (٣٦/٢) . و«البطان»: حزام يُجعل تحت بطن البعير . و«الصَّيلم»: الدَّاهية الشَّديد . و«النسر والعواء»: كوكبان . و«الفقعة»: نوع من الكمأة البيضاء الرخوة يشبه بها الرجل الذليل .

(٢) انظر: الاستيعاب (٣٦/٢ و ٣٧) بشيء من التصرف اليسير .

المُسلمين. وفي الفقرة التَّالِيَةِ نشهدُ جانباً من الإِشْرَاقَاتِ الضَّرَاريَّةِ تحت لواءِ الإسلام.

ضِرَارُ الْفَارِسِ الْمُجَاهِدِ الْفَاتِحُ:

* توفيَ سَيِّدُنَا وَحْيِينَا رَسولُ اللَّهِ ﷺ وهو راضٍ عن ضِرَارِ بْنِ الْخَطَّابِ ، وظلَّ ضِرَارٌ على العهدِ ، فكانَ فارساً من فرسانِ المسلمين الذين وضعُوا ما يملكون تحتَ أمرِ الإسلامِ ، وشَهِدَ سلسلةً من المعاركِ شَهِدَ له فيها فرسانُ الفُتُوحَاتِ بكمالِ الفُروسِيَّةِ وجمالِ البُطولةِ .

* ففي رحلَةِ الجِهَادِ والجلادِ شَهِدَ ضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ معركةَ اليمامةِ ، وأبلى بلاءً حسناً تحتَ رايةِ خالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ - رضي الله عنه -؛ وقاتَلَ المرتدينَ قتالاً شديداً ، حتى ثابَ مَنْ ثابَ رَشَدُهُ منهم وعادَ إلى حياضِ الإسلامِ ، ولما انتهتْ معاركُ الرَّدَّةِ وحروبُها ، توجَّهَ خالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إلى بلادِ العِراقِ ، وكان ضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ مع قَوَاتِ خالِدِ ، فشَهِدَ كُلٌّ معاركِ العِراقِ التي خاضَها خالِدٌ هناك ، ولم يتأخَّرَ عن واحدةٍ منها ، بل كانَ من السَّوابِقِ إليها ، وكان هو الذي حاصَرَ «قَصْرَ الْغَرَيِّينَ» في فَتْحِ الحيرةِ؛ ويُقال اسمُ القَصْرِ «قصر العدسيين».

* وتحَرَّكَ ضِرَارٌ مع خالِدِ - رضي الله عنهما - إلى أرضِ الشَّامِ بعد نَقْلِهِ إليها مِنَ العِراقِ ، فقد كان ضِرَارٌ من جملَةِ الفُرسانِ الذين اختارَهم خالِدُ ليعاونوه في مهمَّتِهِ الجديدةِ^(١) التي أوكلَتْ إليه في بلادِ الشَّامِ ، فقد شَهِدَ ضِرَارٌ تحتَ لواءِ خالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ كافَّةَ معاركِهِ في طريقِهِ مِنَ العِراقِ إلى أرضِ الشَّامِ ، كما تذكُرُ المصادرُ أنَّه شَهِدَ معه معركةَ اليرموكِ الحاسمةِ ، وشَهِدَ مع سَيِّدِنَا أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ - رضي الله عنه - فَتَحَ الشَّامِ .

(١) انظر: أسد الغابة (٣/٤٠)؛ وانظر: تاريخ الطبري (٢/٦٠٥).

* وتشير المصادرُ أيضاً إلى أنَّ ضرارَ بنَ الخطَّابِ قد عادَ إلى العراقِ مع هاشمِ بنِ عتبةَ الزُّهري ، فشهِدَ القادسيَّةَ ، وفي هذه المعركةِ الشَّهيرةِ غنمَ ضرارٌ علَّمَ الفُرسَ الأكبرَ ، فعُوِّضَ منه ثلاثين ألفاً ، وكانت قيمتهُ ألفَ ألف - مليون - ومئتي ألف^(١) .

* كما شهدَ ضرارُ بنُ الخطَّابِ فَتَحَ المدائنِ القديمةِ على الضُّفَّةِ الغربيَّةِ من النَّهرِ ؛ فلَمَّا رأى ضرارٌ من المدائنِ القديمةِ إيوانَ كسرى في الضُّفَّةِ المقابلةِ من النَّهرِ ، نادى بأعلى صوتِهِ : «اللهُ أكبرُ ! هذا أبيضُ كسرى هذا ما وعدَ اللهُ ورسوله» . وكَبَّرَ ضرارٌ وكَبَّرَ النَّاسُ معه^(٢) .

* وما زلنا مع الفارسِ ضرارِ في بطولاتِهِ وفروسيتهِ مع الأبطالِ الفرسانِ ، فقد شهدَ تحتَ لواءِ هاشمِ بنِ عتبةَ الزُّهري معركةَ «جلولاء» ، فلَمَّا رجعَ هاشمُ منتصراً من جلولاءِ إلى المدائنِ ، بلغَ الأسدُّ في برائتهِ سعدُ بنَ أبي وقَّاص - رضي الله عنه - أنَّ الهرمزانَ قد جمعَ جمعاً من القوَّاتِ الفارسيَّةِ في سَهْلٍ «ماسبذان»^(٣) ، وهنا كتبَ سعدُ بنُ أبي وقَّاصِ إلى القائدِ الأعلى لقوَّاتِ المسلمين أميرِ المؤمنين الفاروقِ عمرَ بنِ الخطَّابِ في المدينةِ المنورةِ يعلمُهُ بالأمرِ والحالِ ؛ وهنا جاءتِ الأوامرُ العمريةُ الفاروقيةُ باختيارِ ضرارٍ ليكونَ قائداً ، فكتبَ عمرُ إلى سعدٍ : ابعثْ إليه ضرارَ بنَ الخطَّابِ في جنْدٍ ، واجعلْ على مقدمتهِ الهذيلَ الأسديَّ ، وعلى

(١) انظر: الكامل لابن الأثير (١٨٦/٢) .

(٢) انظر: قادة فتح بلاد فارس - إيران - (ص ٩١) نقلاً عن الكامل لابن الأثير (١٩٧/٢) .

(٣) «ماسبذان»: مدن عدة منها: أريوجان ، وهي مدينة حسنةٌ في الصحراءِ بين الجبال ، ومدينة الرَّد والسيروان . وهي منطقةٌ واسعةٌ أطلقَ عليها اسم مدينة ماسبذان ، وهي مدينةٌ مشهورةٌ بقربِ السيروانِ كثيرةِ الشجر .

مجنبتيه عبد الله بن وهب الرّاسبيّ حليف بجيلة ، والمضارب بن فلان العجليّ^(١) .

* وامثّل سعدُ الأمرِ العُمريّ ، وأرسلَ ضراراً بمن معه حتّى انتهى إلى سهّلِ ماسبذان ، والتقى هناك جنودَ الفرسِ وأبطالهم ، ولم يمهل المسلمون الفرسَ بل أسرعوا في الهجوم عليهم ، ورأى ضرارٌ بعين بصيرته وخبرته الحربيّة أنّ الأمرَ ينتهي إذا قُضي على قائدِ الفرس ، فما كان منه إلّا أن أسرعَ إلى مكان وجوده ، وانقضّ عليه وأخذه أسيراً ، ولمّا علم جيشه بأسره ، انهزموا عنه ، وولوا الأدبارَ ، وتفرّقوا في الجبالِ المحيطة بالمنطقة ، فدعاهم ضرارٌ فاستجابوا له .

* وأقامَ ضرارٌ بماسبذان حتّى تحوّل سعدُ بنُ أبي وقاص من المدائن إلى الكوفة ، فأرسلَ إلى ضرار فنزلَ الكوفة ، واستخلفَ على ماسبذان ، وكان فتحُ ماسبذان بعد فتحِ حُلوان^(٢) .

* وهكذا ظلَّ ضرارُ بنُ الخطّابِ غازياً يقاتلُ في سبيلِ الله ، يصلُ الليلَ في النّهار بطاعةِ الله في هذا الميدانِ ، ليحظى بالرضوان من المَلِكِ المَنَّان .

شَذَرَاتُ رَائِعَاتٍ مِنْ أَخْبَارِهِ :

* أخبارُ ضرارِ بن الخطّابِ جميلةٌ ومتنوعةٌ ، وتجمّعُ إلى الطّرافَةِ شيئاً من فروسيّته وشجاعته التي شهدَ له الأصدقاءُ والأعداءُ ؛ فقد كان ضرارٌ من الفُرسانِ الأبطالِ الذين يهتمّون بالحربِ وآلاتِهِ وعدّته ، فكان يقتني الخيلَ العتاقَ المشهورةَ ، وقد سبقَ أن أشرنا إلى أنّ ضراراً كانت له فرسٌ تسمّى

(١) انظر: تاريخ الطبري (١٤٣/٣) .

(٢) انظر: قادة فتح بلاد فارس (إيران) (ص ٩١ و ٩٢) بتصرف يسير .

«الحواء» ، وكان يعتني بها عنايةً فائقةً ، فهي ذخيرته عندما تستعزُّ الحرب ، وتشبُّك القنا ، وتلمعُ السُّيوف بين الأُسنة ، وغبارِ السَّنابك .

* ومنَ الطَّرِيفِ في الشُّذراتِ الضَّراريَّةِ الجميلةِ أنَّ ضراراً - رضي الله عنه - كان له سيفٌ مشهورٌ من سيوفِ قريشِ المشهورة ، وكان يسمِّيه «السَّحاب» وفيه كان ينشدُ ويتغنَّى قائلاً مخاطباً مَيَّةَ :

فَمَا السَّحَابُ غَدَاةَ الْحَرِّ مِنْ أَحَدٍ بِنَاكِْلِ الْحَدِّ إِذْ عَايَنْتُ غَسَّانَا
غَادَرْتُ مِنْهُمْ بِجَنْبِ الْقَاعِ مَلْحَمَةً صَرَعْتُ فَمَا عَدَلُوا يَا مَيِّ قَتَلْنَا
فَلَوْ رَأَيْتَهُمْ وَالْخَيْلُ تُبْتِهُمُ وَالْبَيْضُ تَأْخُذُهُمْ مَثْنَى وَوَحْدَانَا
أَيَقْنَتِ أَنَّ بَنِي فَهْرٍ وَإِخْوَتَهُمْ كَانُوا لَدَى الْقَاعِ يَوْمَ الرُّوْعِ فُرْسَانَا^(١)

* ولعلَّه منَ المفيدِ هنا في رحلةِ الفروسيَّةِ وذكرِ السُّيوفِ أنْ نشيرَ إلى السُّيوفِ الشَّهيرةِ في قريشِ والتي خلَّدها أدبُنا الوضيءُ وتاريخُنا المجيدُ التَّليدُ .

* فمن أشهرِ السُّيوفِ القرشيَّةِ سيفُ سيِّدنا وحبیبنا رسولِ الله ﷺ المعروف باسم : «ذو الفقار» ؛ كان هذا السَّيفُ للعاصِ بنِ منبه بن الحجاج السَّهمي ، فقتله عليُّ بنُ أبي طالب - رضي الله عنه - يوم بدرٍ ، وجاء بسيفه إلى رسولِ الله ﷺ ، فنقله إياه وفيه يقول :

لَا سَيْفَ إِلَّا ذُو الْفَقَّارِ وَلَا فَتَى إِلَّا عَلَيَّ !!

* ومن السُّيوفِ القرشيَّةِ «اللياح» سيفُ أسدِ اللهِ وأسدِ رسولهِ سيِّدنا حمزة بن عبدِ المطلب - رضي الله عنه وحشرنا في معيَّته - ، وقال رضي الله عنه يوم أحد ، وقتلَ عثمان بن أبي طلحةٍ ومعه اللِّواء :

(١) انظر: المنمق (ص ٤١٤) . ومعنى «غسانا» : يعني الأنصارَ وهم من غسان . و«القاع» عدة مواضع ، والمراد هنا : القاع الذي بالمدينة . و«مي» : ترخيم مية . و«بني فهر» : يعني قريشاً .

لَقَدْ ذَاقَ عَثْمَانُ يَوْمَ الْحَرِّ مِنْ أُحُدٍ وَقَعَ اللَّيَاحُ فَأَوْدَىٰ وَهُوَ مَذْمُومٌ^(١)
وَذَاقَ عَتَبَةُ فِي بَذْرِ وَقِيعَتِهِ تَبَّأَ لِمَصْرَعٍ شَيْخٍ ثُمَّ مَذْمُومٌ^(٢)

* سَيْفُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ بْنِ هَاشِمٍ جَدِّ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ مِنَ السُّيُوفِ الْقَرْشِيَّةِ
الْمَشْهُورَةِ ، وَاسْمُهُ : «الْعَطْشَانُ» : وَقَالَ :

مَنْ خَانَهُ سَيْفُهُ فِي يَوْمٍ مَلْحَمَةٍ فَإِنَّ عَطْشَانَ لَمْ يَنْكُلْ وَلَمْ يَخُنْ
كَمْ قَطٌّ مِنْ سَاعِدٍ يَوْمًا وَجَمِجَمَةٍ وَمَغْفَرٍ «قُرْدُمَانِي» وَمَنْ بَدَنٍ^(٣)

* وَسَيْفُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَتَّابِ بْنِ أَسِيدِ بْنِ أَبِي الْعَيْصِ اسْمُهُ :
«وَلُولُ» ، وَقَالَ يَوْمَ الْجَمَلِ :

أَنَا ابْنُ عَتَّابٍ وَسَيْفِي وَلُولٍ وَالْمَوْتُ دُونَ الْجَمَلِ الْمُجَلَّلِ
* وَسَيْفُ هُبَيْرَةَ بْنِ أَبِي وَهْبٍ الْمَخْزُومِيِّ اسْمُهُ : الْهَذْلُولُ ، وَقَالَ
يَخَاطِبُ هُنَيْدَةَ :

كَمْ مِنْ كَمِيٍّ قَدْ سَلَبْتُ سِلَاحَهُ وَغَادَرَهُ الْهَذْلُولُ يَكْبُو مَجْدَلًا
وَحَرْبُ عِقَامٍ قَدْ شَهِدْتُ مَرَاسِمَهَا وَطَاعَنْتُ فِيهَا يَا هُنَيْدَةُ مُقْبِلًا
* وَسَيْفُ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامِ بْنِ الْمَغِيرَةِ اسْمُهُ : «الْأَخْيَرِسُ» ، وَقَالَ فِي
زَمَنِ عَمْرِو بْنِ الْوَلَدِ :

فَمَا جَنَّبْتُ خَيْلِي بِفَيْحَلٍ وَلَا وَنَتْ وَلَا لِمْتُ يَوْمَ الرَّوْعِ وَقَعَ الْأَخْيَرِسُ^(٤)

(١) «يوم الحر» : اشتداد الحرب .

(٢) «عتبة» : يعني عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أحد سادات قريش ومجرميهم من الكفار .

(٣) «قُرْدُمَانِي» : القردمان بالفارسية أصل الحديد وما يعمل منه .

(٤) «فَيْحَلُ» : بكسر الفاء وسكون الحاء المهملة : موضعٌ بالأردن كان مسرحَ وقعةٍ عنيفةٍ بين الروم والمسلمين في أوائل خلافةِ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه وحشرنا في معيته .

* ومن السُّيُوفِ المشهورة ، سيفُ عِكرمةَ بنِ أبي جهل واسمه «النزيف» ، وله فيه شعر .

* وسيف عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - اسمه : «ذو الوشاح» كانت نعله^(١) فضّة .

* وسيفُ عمرو بن عبد وُدّ العامريّ المقتول يوم الخندق - كما مرّ معنا - اسمه «الملدّ» ، وقال عمرو :

إِنَّ الْمِلْدَّ لَسَيْفٌ مَا ضَرَبْتُ بِهِ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا حَزَّ أَوْ كَسَّرَا
كَمْ مِنْ كَبِيرٍ سَقَاهُ الْمَوْتُ ضَاخِيَةً وَيَافِعٍ قَطَّ لَمْ يُدْرِكْ بِهِ كَبْرًا^(٢)
* وسيفُ عمرو بن العاص - رضي الله عنه - اسمه : «الليج» ، وله به رَجَزٌ فِي حُرُوبِ الشَّامِ .

* وسيفُ عمر بن سعد بن أبي وقاص اسمه : «الملاء» .

* وسيفُ خالد بن يزيد بن معاويةَ اسمه : «الغمر» ، وله فيه شعر .

* وكان لخالد بن الوليد - رضي الله عنه - ثلاثةُ أسياف وهي :
«المرسب» وهو ذو القرط ، و«الأدلق» ، و«القرطبي» ، وقال يوم مؤتة :
أَنَا أَبُو سُلَيْمَانَ سَيْفِي الْمَرْسَبِ ابْنُ الْوَلِيدِ مُنْجِبٌ لِمُنْجَبٍ
أَعْلُو بِهِ كُلَّ امْرَأٍ مَكْذَبٍ بِأَحْمَدَ الْمُطَهَّرِ الْمُطَيَّبِ
* وله أشعارٌ أخرى كثيرة في أسيافه ، لا يتسع المقام لذكرها .

* وسيفُ زمعةَ بنِ الأسود بن المطلب ، اسمه : «لسان الكلب» .

* وسيفُ جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - اسمه «الغمام» ، يُقال :

(١) «نعله» : ما يكون أسفل غمد السَّيْفِ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ فَضَّةٍ .

(٢) «ضاخية» : الدَّاهِيَةُ .

لما قدم جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - على النجاشي أعطاه الغمام ،
فقاتل به يوم مؤتة .

* وسيفُ عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب
اسمه : «الشقيق» ، أرادته معاوية على بيعه وأُثْمِنَ له به فأبى ، وقال :
أَلَيْتُ لَا أَشْرِي الشَّقِيقَ بِرَغْبَةٍ مَعَاوِيَ إِنِّي بِالشَّقِيقِ ضَنِينُ
* وسيفُ خالد بن سعيد بن العاص اسمه «ذُعْلُوق» وله فيه رجزُ قاله
بالشَّام في قتال الرُّوم .

* وكان لسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل - رضي الله عنه - سيفان
اسمهما : «الفائز والخليل» ، وقال :
أَضْرَبُ بِالْفَائِزِ وَالْخَلِيلِ ضَرْبَ كَرِيمٍ مَاجِدٍ بُهْلُولِ
يَنْوِي رِضَا الرَّحْمَنِ وَالرَّسُولِ حَتَّى أَمُوتَ أَوْ أَرَى سَبِيلِي
* وسيفُ خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد اسمه : «ذو الكف» له به
شِعْر .

* وسيفُ أبي دَهْبَلِ الجُمَحِيِّ الشَّاعِرِ المشهور اسمه : «المستلب»
وقال :
أَنَا أَبُو دَهْبَلٍ وَهَبُ بْنُ وَهْبٍ أَوْرَثَنِي الْمَجْدَ أَبٌ مِنْ بَعْدِ أَبِ
رَمَحِي زُدَيْنِيَّ وَسَيْفِي الْمُسْتَلْبُ

* وسيفُ محمد بن أبي الجهم العدوي اسمه : «القائم القاعد»^(١) .

* وبعد هذه الجولة في أسماءِ سُيُوفِ قريش ، وما قيل فيها ، نتابعُ
الرَّحْلَةَ الضَّرَّارِيَّةَ ، فقد كان ضَرَارٌ من فرسانِ العربِ الذين استخدموا كَافَّةَ

(١) انظر : المنمق (ص ٤١١ - ٤١٩) بتصرف واختصار .

أنواع السلاح في معاركهم ، كالسيف ، والرّمح ، والقوس^(١) ، وغيرها من سائر أنواع السلاح الذي يستخدمه الفارس .

* ومن شذرات أخبارِ ضرارِ قصّة وفاءِ أمّ غيلان التي صارت بحمايتها لضرارِ بن الخطّاب إحدى النساءِ الموفيات في العصر الجاهليّ .

* وقصّة ما ذكرته المصادُر أنّ هشام بن المغيرة كان قد قتل أبا أزيهر

(١) القوسُ: جمعُها قِسيّ: والقِسيّ من الأسلحةِ المستخدمةِ في الحربِ في الجاهليّة والإسلام ، وهي أعوادٌ من الخشبِ اللينِ المتين ، تُقوَسُ كالهِلالِ ، ويثبتُ فيها وترٌ من جلدِ الإبل ، تُرمى به السّهام ، وأجودُ أنواعِها العصفوريّة . وقد نُسبتِ القِسيّ إلى «ماسخ» أو «ماسخة» ، وهو قوَسٌ أزديّ ، ويُقال إنّه أوّلُ من عمل القِسيّ عند التحامِ المعركة ؛ قال طُفيل الغنوي :

فَمَا بَرَحُوا حَتَّى رَأَوْا فِي دِيَارِهِمْ لَوَاءً كظَلِّ الطَّائِرِ الْمُتَقَلِّبِ
رَمَتْ عَنْ قِسيِّ الماسخِ رِجَالُنَا بِأَجودَ مَا يُبتاعُ مِنْ نَبَلٍ يَشْرِبُ
كما نُسِبَتْ إلى «رضوى» ، وهي امرأةٌ مشهورةٌ بَصْنَعِها .

وكانتِ القوسُ رمزَ الرُّجولةِ ودليلَ الشرفِ ، لأنّها رفيقُ البدوي ، ووسيلةُ عيشه ، وقد بلغتْ منزلةَ القوسِ عند العربيّ أنّه إذا أرادَ أن يلتزمَ بتنفيذِ أمرٍ ولم يستطعْ رَهْنَ قوسه ، وحَتّى في قضايَا الديات ، فهم يرهنونها حتى يتمّ دفعها ، وإلى ذلك يشيرُ قرادُ بن حنش :

ونحنُ رَهْنَا القوسَ تَمَثَّ فُودَيْتُ بِأَلْفٍ عَلَى ظَهْرِ الفَزَارِيِّ أَقْرَعَا
- وكانَ للعربِ مهارةٌ عظيمةٌ في استخدامِها ، لِما كانوا عليه من حَدّةِ البَصَرِ ، فقد جاءَ في العَقْدِ الفريدِ أنّ العربيّ كانَ يستطيعُ أن يرميَ بالنبالِ ، فيصيبُ إحدى عيني الغزالِ دونَ العينِ الأخرى ، وكانَ أحدهمُ يعلّقُ ظبياً بشجرةٍ ويرميه بالنبالِ ، فيصيبُ أيّ عضوٍ شاءَ مِنْ أَعْضائِهِ ، حتى يرميَ فِقْرَتَهُ فِقْرَةً فِقْرَةً ، فلا يخطئُ واحدةً منها .

- وقد تردّدت أسماءُ القوسِ على ألسنةِ الشعراءِ في جميعِ مجالاتِ حياتهم ، وكانَ الحديثُ يدورُ عن صنعيها وصنّاعيها ، والخشبِ الذي تتخذُ منه ، وإنْ غلبَ شجرُ النَّبَعِ على جميعِ الأنواعِ الأخرى التي كانت تُصنعُ منها . واهتمَّ العربُ كذلك بصوتِها ولونها ، وللشّماخِ بنِ ضرارِ قصيدةٌ طويلةٌ ومشهورةٌ بوصفِ قوسه فلترُاجع .

الدّوسي ، فبلغَ قبيلة دوس ذلك ، فوثبوا على مَنْ كان فيهم من قريش فقتلوه ، وحدث أن خرجَ ضرارُ بنُ الخطّاب في نفرٍ من قريش إلى أرضِ ذي يمن ، فنزلَ على امرأةٍ يُقال لها أمّ غيلان مولاة لدّوس ، وكانت تمشط النّساء ، وتجهّزُ العرائس ، فأرادتُ دوس قتلَهم بأبي أزيهر ، فقامت دونهم أمّ غيلان ونسوة عندها ، وأدخلته في دِرْعها ، وذبتُ قومها حتى منعتهُم .

* ويقال : إنّ دوساً لحقوا بضرار ، فاستجار بامرأة من دوس يُقال لها أمّ غيلان ، فأدخلته منزلها وأجارته ، وأقبلت دوس فلمّا رأتهُم أمّ غيلان ، أخرجتُ بناتها حُسراً دونه وقالت : إنّني قد أجرتُه وحُرُماتكم حُسراً دونه ، فإنّ شتتم فاهتكوا سِتراً ، واستحلّوا حُرمةً ، فتركوه لها ، فانصرفَ وهو يقولُ :

جَزَى اللهُ عَنَّا أُمَّ غَيْلَانَ صَالِحاً ونسوتها إذْ هُنَّ شُعْتُ عَوَاطِلُ
فَهُنَّ دَفَعْنَ الْمَوْتَ بَعْدَ اقْتِرَائِهِ وَقَدْ بَرَزْتَ لِلشَّائِرِينَ الْمَقَاتِلُ
دَعَتْ دَعْوَةً دَوْساً فَسَالَتْ شَعَابُهَا بِرَجُلٍ وَأَدَّتْهَا الشَّرَاجُ الْقَوَابِلُ
وَعَمَراً جَزَاهُ اللهُ خَيْراً فَمَا وَنَى وَمَا بَرَدَتْ مِنْهُ لَدَيَّ الْمَفَاصِلُ
فَجَرَدْتُ سِيفِي ثُمَّ قَمْتُ بِنَصْلِهِ وَعَنْ أَيْ نَفْسٍ بَعْدَ نَفْسِي أَقَاتِلُ^(١)

* قال ابنُ هشام : حدثني أبو عبيدة : أنّ التي قامتُ دونَ ضرار أمّ جميل ، ويُقال أمّ غيلان ، قال : ويجوزُ أن تكونَ أمّ غيلان قامتَ مع أمّ جميل فيمن قامَ دونه^(٢) .

(١) «شعث» : جمع شعثاء ، وهنّ المتغيّرات الشّعور . و«عواطل» : جَمْعُ عَاطِلَة ، وهي التي لا حُلِيَّ لها . و«دوس» : اسم قبيلة عربية . و«الشّعاب» : جمع شِعْب . و«الشّراج» : جمع شرجة : وهي مسيلُ الماءِ مِنَ الحرّةِ إلى السَّهْلِ . و«القوابل» : التي تقابل بعضها بعضاً . و«وفى» : برد وفتّر . و«نصل السيف» : حده .

(٢) انظر المصادر التالية مع الجمع بينها : السيرة النبوية (١/ ٤١٤ و ٤١٥) ، والمنمق (ص ٢٠٤) ، وديوان حسان بن ثابت (ص ٣٥٦ و ٣٥٧) ، ومختصر تاريخ دمشق =

وبهذا التصرف الجميل من أم غيلان سجلها تاريخ النساء في عصرها ،
وسميت أم غيلان ، إحدى الموفيات اللواتي ضربَ بهنَّ المثلُ في الوفاء^(١) .

* وظلت حماية أم غيلان لضرار بن الخطاب ماثلة أمام عينيها زمناً طويلاً إلى أن أصبح عمرُ بن الخطاب - رضي الله عنه - خليفة المسلمين ، فظننت أنه أخوه الشقيق ، فأتته بالمدينة المنورة ترجو نواله ، فلما كلمته وقصت عليه القصص ، أدرك أنها قد وهمت ، وعرف القصص ، فقال لها : يا أم غيلان لست بأخيه إلا في الإسلام ، وهو غازي الآن بالشام ، وقد عرفنا منك عليه ، فأعطاها على أنها بنت سبيل^(٢) .

* ومن شذرات أخبار ضرار أنه كان من شعراء قريش المطبوعين

= (١١/١٥٦ و ١٥٧) ، والإصابة (٢/٢٠١) . ومجمع الأمثال (٣/٤٥٠) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وغير ذلك كثير .

(١) من اللواتي ضربَ المثلُ بوفائهنَّ : خُماعة بنت عوف بن محلم التي أجارت مروان القرظ ، فيقال : أوفى من خُماعة .

- ومن الموفيات أيضاً فُكيهة حيث يقال : أوفى من فُكيهة . وهي امرأة من بني قيس بن ثعلبة . قال حمزة : هي فُكيهة بنت قتادة بن مشنوء خاله طرفة بن العبد ، لأن أم طرفة هي وردة بنت قتادة .

- وكان من وفائها أن السليك بن سلعة غزا بكر بن وائل ، فأبطأ ولم يجد غفلة يلتمسها ، فرأى القوم أثر قدم على الماء لم يعرفوها ، فكمنوا له ، وأمهلوه حتى وردَ وشرب فامتلاً ، فهاجوا به ، فعدا ، فأثقله بطنه ، فولج قبة فكيهة ، فاستجارها فأدخلته تحت درعها ، فجاؤوا في أثره فوجدوه تحت ثوبها ، فانتزعوا خمارها ، فنادت إختوها وولدها ، فجاؤوا عشرة ، فمنعهم عنه ، وفيها قال سليك :

لعمري أيبك والأنباء تنمي لنعم الجار أخْتُ بني عوارا
عنيتُ بها فُكيهة حين قامت كنصل السيف فانتزعوا الخمارا
من الخفريات لم تفضح أخاها ولم ترفع لوالدها سَنارا
(مجمع الأمثال ٣/٤٥٢ و ٤٥٣)

(٢) انظر : مختصر تاريخ دمشق (١١/١٥٧ و ١٥٨) .

المجودين ، بل كان فارسَ قريش وشاعرهم ، ولم يكن في قريش أشعر منه ، حتى إنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب - رضي الله عنه - كان يُعجِبُ بشعرِه لما فيه من حماسية ومروءة ومعانٍ وفضائل؛ فقد قال السَّائب بنُ يزيد: بينما نحنُ مع عبدِ الرحمن بنِ عوف - رضي الله عنه - في طريقِ الحجِّ ، ونحنُ نؤمُّ مَكَّةَ اعتزلَ عبدُ الرحمن بنُ عوف الطَّرِيقَ ، ثمَّ قال لرباح بنِ المغترِف: غَنِّنا يا أبا حَسَّان - وكان يحسن النِّصَبَ - ، فبينما رباحٌ يغنيهم ، أدركهم عمرُ بنُ الخطاب في خلافتِه ، فقال: ما هذا؟!!

فقال عبدُ الرحمن بنُ عوف: ما بأس بهذا ، نلهو نقصِّرُ عَنَّا سَفَرنا.

فقال عمرُ: فَإِنْ كُنْتَ آخِذاً ، فعليكَ بشعرِ ضرارِ بنِ الخطَّاب^(١) وهذا يدلُّ على إعجابِ النَّاسِ بشعرِ ضرار ، وفي مقدمتهم عمر بن الخطَّاب ، وعبد الرَّحمن بن عوف.

* ومن أشعاره الجميلة التي تزيّن سيرته ، وتشيرُ إلى بطولته وفروسيّته ، وتدلّ على أنّه كان فارساً وفاتحاً وشجاعاً يحمي الدّمار ، تلك الأبيات اللامية التي قالها عندما قادَ جيشاً من المسلمين لفتح منطقة ماسبذان وأسرَ قائدَ الفرس:

ويومَ حبَسنا قومَ «آذين» جنده وقطراته عند اختلافِ العوامِلِ
وزرَدَ وآذينا وفَهْداً وجمعهم غداةَ الوغى بالمرهفاتِ الصّواقلِ
فجاؤوا إلينا بعد غب لقائنا بماسبذان بعد تلك الزلازلِ

* ولضرار أشعارٌ أخرى مثورةٌ في المصاادر^(٢) ، وهي تدلُّ على فحولته ، وشهرته ، وفروسيّته.

(١) انظر مثلاً: البصائر والذخائر (١/٤٦ و ٤٧). والوافي بالوفيات (١٦/٣٦٣).

* أمّا عن وفاته فمن المرجّح أنّه توفي في خلافة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه حوالي سنة (١٧ هـ) أو بعدها بقليل . ولئن سكّت التّاريخُ بعد ذلك عن ذكر أخبارِ ضرار ، لقد روى كثيراً من محاسنِه في الفروسيّة والفتوحات ونصرة الإسلام ، فرضيَ الله عن ضرار بن الخطّاب ، وجعلَه في مستقرِّ رحمته .

* * *

عمرو بن معدي كرب

- * شاعر مشهور ، وفارس مغوار قبل الإسلام وبعده.
- * شُهِد له بالقوة والشجاعة والبأس الشديد.
- * صحابي معروف، يتصف بأخلاق فاضلة، وقوة نفس لا تُضاهى.

الفارسُ السَّيِّدُ :

* هذا الفارسُ الشَّاعِرُ واحدٌ من أئمةِ المشهورينَ من فرسانِ الطَّبَقَةِ الأولى من المُخَضْرَمِينَ الذينَ اشتهروا في الجاهليَّةِ والإسلامِ ، وهو صاحبُ الغاراتِ والوقائعِ المذكورةِ في تاريخِ الفرسانِ في الجاهليَّةِ والإسلامِ ؛ وهو من مَدْحَجٍ ، وفارسُ زَبِيدٍ وسيِّدُها وشاعرُها قبلَ الإسلامِ وبعدهُ ، وله وفادةٌ على رسولِ الله ﷺ ، وكان شجاعاً من فرسانِ العربِ المذكورينَ ، إنَّه عمرو بنُ معدي كرب بنِ عبدِ الله بنِ عمرو الزَّبيدي^(١) ، وكنيتهُ أبو ثور ، ينتهي نسبُه إلى قَحْطانٍ ، وهو ابنُ خالَةِ الزُّبرقان بن بدر التَّميميِّ .

* قالَ أبو نُعيم عن عمرو: له الوقائعُ المذكورةُ في الجاهليَّةِ ، وأدركَ الإسلامَ ، فقدمَ على النَّبيِّ ﷺ وعَلَّمَهُ التَّلْبِيَّةَ ، وله في الإسلامِ بالقاديَّةِ بلاءٌ حَسَنٌ حينَ بعثه عمرُ - رضي الله عنه - إلى سعدِ بنِ أبي وقاصٍ - رضي الله عنه - ، وكتبَ إليه أنْ يصدُرَ عن مشورتهِ في الحربِ^(٢) .

* وقالَ ابنُ سعدٍ : كان عمروُ فارسَ العربِ .

(١) الإصابة (١٤٤/٧ - ١٤٨) ، وطبقات ابن سعد (٥/٥٢٥ و ٥٢٦) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٣٠١/١٩ - ٣١٠) ، وسمط اللآلي (١/٦٣) ، وخزانة الأدب (٢/٤٤٤) ، والاشتقاق (ص ٤١١) ، والمفضليات (ص ٤٠٥) ، والشعر والشعراء (١/٣٧٢ - ٣٧٥) ، وقطوف الرياحان (ص ٧٢ - ٧٤) ، وشرح العيون (ص ٤٣٦ - ٤٤٥) ، والأخبار الموفقيات (ص ١٦٦ و ٤٨٠ و ٤٨٢ و ٦٢٦) ، ومعاهد التنصيص (٢/٢٤٠ - ٢٥١) ، وبلوغ الأرب (١/١٣١ - ١٣٤) ، والأغاني (انظر الفهارس) وغير ذلك من مصادر لا تحصى .

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٣٠٢/١٩) .

* وقال ابنُ قُتيبةَ : وكان عمرو منُ فرسانِ العربِ المشهورين بالبأسِ في الجاهليّة ، وأدركَ الإسلام^(١) .

* كانتُ شجاعهُ عمرو بن معدي كِرب مُعترفاً بها بين فرسانِ العربِ في الجزيرة العربيّة جميعها ، فقد كان طائرَ الصّيتِ في الفُروسيّة ، وقُدّمَ على كثيرٍ من مشاهيرِ فرسانِ عصرِه ؛ قال أبو عُبَيْدة : كان عمرو بنُ معدي كِرب فارسَ اليمنِ وهو مقدّمٌ على زيدِ الخيلِ أحدِ فرسانِ العربِ المشهورين في الشّدّة والبأس^(٢) .

* وعمرو هذا تحيطُ به السيّادةُ والفُروسيّةُ والرّفعةُ من جميعِ الجوانب ، وتدلُّ أخبارُهُ على أنّ معدي كِرب كان سيّداً خطيراً وجيهاً في قومه ، ومن ذوي الرّتاسَةِ والزّعامةِ فيهم ، وكان معروفاً بالنّجدةِ والفُروسيّةِ ؛ وأمّ عمرو وأمّ أخيه عبد الله امرأةٌ من جِرم ، من قُضاعة ، من بني الحارثِ بنِ كعب ، وكانت قد ارتحلتُ مع قومها إلى بني زَبِيد هرباً من ثأرِ لبني الحارث^(٣) ، وأمّ عمرو هذه معدودةٌ من المُنجبات^(٤) .

* ويظهرُ من الأخبارِ التي وصلتْ إلينا عن فارسنا اليوم ، أنّه قد نشأ نشأةً لاهيّةً ناعمةً في حجرِ أمّه ، فلم يكنْ يلتفتُ إلى الفُروسيّةِ ولا إلى صهواتِ الجيادِ ، وإنّما كانت حياةُ الشّرابِ روحَ حياتِه وحياةَ روحِه ، بالإضافةِ إلى أنّه كانَ نهماً أكُولاً ، لذلك لم يجدْ فيه والدُهُ بغيته ، ولم

(١) انظر : الشعر والشعراء (١/٣٧٢) .

(٢) الأغاني (١٤/٢٤) ، وانظر : الفُروسيّة العربيّة في العصر الجاهلي (ص ٦٤) لسيد حنفي ، سلسلة اقرأ رقم (٢١١) ، واقرأ سيرة زيد الخيل في هذا الكتاب .

(٣) خزانة الأدب (٢/٤٢٢) ، ومعاهد التنصيص (٢/٢٤٠) .

(٤) معاهد التنصيص (٢/٢٤٠) .

يتوسم فيه نجابة الفرسان ، وأطلق عليه لقب «المائق»^(١) ، فكان أن عُرف بمائق بني زبيد .

* ترى هل بقي عمرو بن معدي كرب مائق بني زبيد؟! هذا ما ستكشفه لنا سطور الصفحات التالية .

فارس زبيد :

* ظلَّ عمرو بن معدي كرب لاهياً عابثاً أكلوا منصرفاً إلى اللهو والشراب ، لا يأبى لعظائم الأمور أو صغائرها ، إلى أن تعرّض ذات مرّة لتجربة صقلته ، وعجمت عوده ، وجعلت اسمه عالياً في فضاء الفروسيّة ، وفسيح الشجاعة والبأس ، بعد أن كان اسمه مائق بني زبيد^(٢) .

* ففي قصّة مفادها أن قبيلة خثعم أرادت أن تغزو بني زبيد ، وبلغ معدي كرب ذلك ، فجمع قومه بني زبيد ، وتأهّب القبيلة جميعها لصدّ الخثعميين وردّهم وردع عدوانهم .

* ونمي الخبر إلى عمرو ، فجاء إلى أخيه فقال : أشبعيني فإنّ غداً الكتيبة! .

* فلما جاء والد أخبرته ابنته بقول عمرو ، فاستنكر أبوه ذلك ، واستكثر عليه اهتمامه بالكتيبة فقال : هذا المائق يقول ذلك؟! .

قالت : نعم يا أبي ، يبدو أنّه مستعدّ لذلك .

قال : يا بُنيّة ، إذا سلّيه ما يشبعه .

* فسألت عمراً فقال : فرّق من ذرّة ، وعنّز رباعيّة . فصنّع له ذلك ،

(١) «المائق» : الأحمق الذي لا رجاء فيه .

(٢) معاهد التنصيص (٢/ ٢٤٠) .

وَذَبَحَ الْعَنْزُ ، وَهُيَّءَ لَهُ الطَّعَامُ^(١) ، فَجَلَسَ حَتَّى أَتَى عَلَيْهِ جَمِيعُهُ ، ثُمَّ نَامَ .

* وَجَاءَ الصَّبَاحُ ، وَأُرْسِلَتِ الشَّمْسُ أَشْعَثَهَا الْفَضِيَّةُ عَلَى دِيَارِ بَنِي زَبِيدَ ، فَإِذَا بِخَثْعَمٍ قَدْ أَتَتْهُمْ مَغِيرَةً ، وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ ، وَاشْتَجَرَتِ الرِّمَاحُ ، وَاشْتَبَكَتِ السُّيُوفُ ، وَمَنْ ثُمَّ اسْتَعَرَتِ الْحَرْبُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ؛ فَاسْتَيْقَظَ عَمْرُو ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ ، وَنَظَرَ فَرَأَى لَوَاءَ أَبِيهِ مَرْفُوعاً ، فَعَادَ وَنَامَ .

* وَبَعْدَ فِتْرَةٍ رَفَعَ رَأْسَهُ مَرَّةً ثَانِيَةً وَنَظَرَ ، فَإِذَا بِلَوَاءِ أَبِيهِ قَدْ زَالَ وَنَزَلَ ، فَهَبَّ مَنْدَفِعاً نَحْوَ سَاحَةِ الْقِتَالِ كَالنَّارِ الْمُسْتَعْرَةِ ، فَلَقِيَ أَبَاهُ مَنهَزِماً فَقَالَ لَهُ :
انْزِلْ عَنْ فَرَسِكَ فَالْيَوْمَ ظَلَمَ .

فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ : إِلَيْكَ عَنِّي يَا مَائِقُ ، وَاللَّهِ لَا تَصْلُحُ لَشَيْءٍ ! فَنَصَحَهُ جَمْعٌ مِنَ الْعَشِيرَةِ وَقَالُوا لَهُ : خَلِّهِ أَثِيهَا الرَّجُلُ وَمَا يَرِيدُ ، فَإِنْ قُتِلَ كَفَيْتَ مَوْوَنَتَهُ ، وَإِنْ ظَهَرَ فَهُوَ لَكَ وَشَرَفٌ لَهُ وَلِلْعَشِيرَةِ .

* فَالْقَى أَبُوهُ إِلَيْهِ سِلَاحَهُ ، فَركَبَ وَرَمَى خَثْعَمَ بِنَفْسِهِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ

(١) جَاءَ فِي أَخْبَارِ عَمْرُو بْنِ مَعْدِي كَرَبَ أَنَّهُ كَانَ أَكُولاً نِهْمًا ، وَقَدْ جَاءَ مَرَّةً عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، وَكَانَ عَمْرُو بْنُ يَغْدِي النَّاسَ ، وَقَدْ جَفَنَ لِعَشْرَةِ عَشْرَةٍ ، فَأَقْعَدَهُ عَمْرُوٌّ مَعَ عَشْرَةٍ ، فَأَكَلُوا وَنَهَضُوا ، وَلَمْ يَقُمْ عَمْرُو ، فَأَقْعَدَ مَعَهُ تَكْمَلَةَ عَشْرَةٍ ، حَتَّى أَكَلَ مَعَ ثَلَاثِينَ ثُمَّ قَامَ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّهُ كَانَتْ لِي مَآكِلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَنَعَنِي مِنْهَا الْإِسْلَامُ ، وَقَدْ صَرَزْتُ فِي بَطْنِي صَرَّتَيْنِ ، وَتَرَكْتُ بَيْنَهُمَا هَوَاءَ فَسَدَّهُ . فَقَالَ عَمْرُو : عَلَيْكَ حَجَارَةٌ مِنْ حَجَارَةِ الْحَرَّةِ فَسَدَّهُ بِهِ يَا عَمْرُو .

(الأغاني ٣١/١٤)

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَضَضَ لِعَمْرُو بْنِ مَعْدِي كَرَبَ فِي الْفِيءِ الْفَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَلْفَ هَهْنَا ، وَأَوْمًا إِلَى شَقِّ بَطْنِهِ الْأَيْمَنِ ، وَأَلْفُ هَهْنَا ، وَأَوْمًا إِلَى شَقِّ بَطْنِهِ الْأَيْسَرِ ، فَمَا يَكُونُ هَهْنَا؟ وَأَوْمًا إِلَى وَسْطِ بَطْنِهِ . فَضَحِكَ عَمْرُوٌّ مِنْ كَلَامِ عَمْرُو بْنِ مَعْدِي كَرَبَ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمَا وَزَادَهُ خَمْسَمِئَةً .
(معاهد التنقيص ٢/٢٤٣)

أظهرهم ، ثمَّ كرَّ عليهم ، وفعلَ ذلك مراراً ، فتشجَّعَ بنو زبيد وحملوا ، وهُزِمَتْ خثعمٌ ولادوا بالفِرار ، وقُهِروا ، فقبلَ لعمرو يومئذٍ «فارسُ زبيد»^(١) .

* وهكذا أصبحَ عمرو فارسَ زبيدَ والعربِ ، كأنَّما اشترى نفسه وكرامته بهذه التجربة الحقة التي غيَّرت مجرى حياته ومكانته في قومه ، وجعلته فارسهم ومقدّمهم بلا منازع .

* ومنذ تلكم الواقعة أخذت أخبارُ عمرو بنِ معدي كرب تنتشرُ في الآفاقِ ، وراحتْ وقائعُه ومغامراتُه ومغازيه تغزو قبائلَ العرب ، حتى أصبحَ الفارسَ المَعْلَمَ المعروفَ الذي يخشى لقاءَه الشُّجعانُ ، وغدا لا يَهَابُ أحداً من فرسانِ العربِ وصناديدهم .

* ولعلَّ عمراً قد جرَّب ألوانَ الفروسيَّة مع شجعانِ العربِ وفرسانهم ، وبارزَ مشاهيرهم حتى عَلِمَ مقدارَ شجاعته ، وعُلِمَ مقدارَ ثباته ، وكان يقولُ في الجاهلية : لو سرتُ بظعينةٍ وحدي على مياهٍ معدَّةٍ كُلِّها ، ما خفتُ أنْ أُغْلِبَ عليها ، ما لم يلقني حُرَّاهَا أو عَبْدَاهَا ، فأما الحرَّان : فعامرُ بنُ الطُّفيلِ وعُتَيْبَةُ بنُ الحارثِ بنِ شهاب ؛ وأما العبدان : فأسودُ بنُ عَبْسٍ - يعني عنترة - والسُّلَيْك بن سَلَكَة ؛ وكلُّهم قد لقيتُ ، فعامرُ سريعُ الطَّعنِ على الصَّوت ، وعُتَيْبَةُ أوَّلُ الخيلِ إذا غارتْ وآخرُها إذا آبَتْ ، وعنترةٌ قليلُ الكبوةِ شديدُ الجلبِ ، والسُّلَيْك بعيدُ الغارةِ كالليثِ الصَّاري^(٢) .

* وقد شهدَ لعمرو بالقوَّة فرسانُ أولو قوَّةٍ ، وأولو بأسٍ شديدٍ ، وقد

(١) انظر : الأغاني (٢٤/١٤ و ٢٥) بتصرف ، وانظر : معاهد التنصيص (٢٤٠/٢) و (٢٤١) .

(٢) انظر : الأغاني (٢٧/١٤) ، ومعاهد التنصيص (٢٤٣/٢) .

أثنى على شجاعته العباس بن مرداس السلمي^(١) ، وعندما سُئل عمرو عن العباس : ماذا تقول في العباس بن مرداس ؟

قال : أقول فيه ما قال في :

إِذَا مَاتَ عَمْرُو قُلْتُ لِلْخَيْلِ أَوْطِئُوا زَبِيداً فَقَدْ أَوْدَىٰ بِنَجْدِيهَا عَمْرُو^(٢)
شَجَاعَتُهُ وَأَخْلَاقُهُ :

* لا شك في أَنَّ الشَّجَاعَةَ عِمَادُ الْفَضَائِلِ ، وَذُرْوَةُ الْمَكَارِمِ ، وَمَنْ فَقَدَهَا لَمْ تَكْتَمَلْ فِيهِ فَضِيلَةٌ ، وَيَعْبُرُ عَنْهَا بِالصَّبْرِ وَقُوَّةِ النَّفْسِ .

* وقد وصفَ لنا الأخباريون جانباً من شجاعة عمرو بن معدي كرب الزبيدي ، وذكروا أَنَّهُ كَانَ ذَا قُوَّةٍ جَسَدِيَّةٍ خَارِقَةٍ وَضَعَتْهُ بَيْنَ مَصَافِّ الشُّجْعَانِ الَّذِينَ شَهِدَتْ عِمَالِقَةُ الْفُرُوسِيَّةِ لَهُم بِالْبَسَالَةِ وَالْقُوَّةِ وَالضَّخَامَةِ . وقد رُوِيَ عَنْ شَجَاعَةِ^(٣) عمرو أخبارٌ أَشْبَهَ بِالْأَسْطُورَةِ مِنْهَا بِالْحَقِيقَةِ وَالْوَاقِعِيَّةِ ،

(١) العباس بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة السلمي ، يكنى أبا الهيثم ، وإياه يعني أخوه سُراقَة بقوله يرثيه :

أَعْيَنُ أَلَا ابْكِي أَبَا الْهَيْثَمِ وَأَذْرِي الدَّمْعَ وَلَا تَسْأَمِي
وَأُمُّهُ الْخَنْسَاءُ الشَّاعِرَةُ بَنَتْ عَمْرُو بْنُ الشَّرِيدِ السُّلَمِيَّةَ . وَكَانَ الْعَبَّاسُ فَارِساً شَاعِراً
شَدِيدَ الْعَارِضَةِ وَالْبَيَانِ ، سَيِّداً فِي قَوْمِهِ مِنْ كِلَا طَرَفَيْهِ ، وَهُوَ مَخْضَرُمٌ أَدْرَكَ الْجَاهِلِيَّةَ
وَالْإِسْلَامَ ، وَوَفَدَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمَّا أُعْطِيَ الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ فَضَّلَ عَلَيْهِ عُيَيْنَةَ بْنَ
حِصْنٍ وَالْأَقْرَعُ بْنَ حَابِسٍ ، فَقَامَ وَأَنْشَدَهُ شِعْراً قَالَ فِي ذَلِكَ ، فَأَمَرَ بِلَالاً فَأَعْطَاهُ
حَتَّى رَضِيَ . وَأَخْبَارُ الْعَبَّاسِ بْنِ مَرْدَاسٍ مَشْهُورَةٌ مُمْتَدَّةٌ فِي كُتُبِ الْأَدَبِ وَالتَّارِيخِ
وغيرها ، وقد استوفى الأصفهاني في أغانيه معظمها . (الأغاني ١٤ / ٢٩٤ - ٣١٢) .

(٢) انظر : الأغاني (٢٧ / ١٤) .

(٣) الشَّجَاعَةُ عِنْدَ اللَّقَاءِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ :

الْأَوَّلُ : رَجُلٌ إِذَا تَقَيَّ الْجَمْعَانِ ، وَتَزَاخَفَ الْعَسْكَرَانِ ، وَاکْتَحَلَتِ الْأَحْدَاقُ بِالْأَحْدَاقِ ،
بَرَزَ مِنَ الصَّفِّ إِلَى وَسْطِ الْمُعْتَرِكِ ، يَحْمِلُ وَيَكْرُ وَيُنَادِي : هَلْ مِنْ مَبَارِزٍ ؟
الثَّانِي : إِذَا نَشَبَ الْقَوْمُ وَاخْتَلَطُوا ، وَلَمْ يَذَرِ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ ، يَكُونُ =

ومعظمها تدلُّ على شدَّته وضخامته ونهمه حتى بعد أن جاوز مئة عام .

* رُوي أنَّ رجلاً جاءه وهو واقفٌ على فرسٍ له بالكُناسة ، بعد أن جاوز المئة ، فقال الرَّجُلُ في نفسه : لأنظرنَّ ما بقيَ من قوَّةِ أبي ثور ، وأدخلَ يده بين ساقَيْهِ وبين السَّرجِ ، وفَطَنَ عمرو فضمَّهما عليه ، وحرَّكَ فرسه ، فجعلَ الرَّجُلُ يعدو مع الفرس ، وهو لا يقدرُ أنَّ ينتزعَ يده ، حتى إذا بلغَ منه ، قال عمرو : يا بنَ أخي ، ما لك ؟ !

قال : يدي تحتَ ساقِك !

فخلَّى عنه وقالَ له : يا بنَ أخي ، إنَّ في عمِّك لبقيةً^(١) .

* وقد هيأتْ لعمرو خلائقه الجسمانيَّة إلى جانبِ شجاعته وجرأته ، وحبَّه للمغامرة أن يكونَ الفارسَ الذي لا يُفْضَلُ عليه فارسٌ من العرب^(٢) . ولذا فقد كانَ سيِّدنا عمرُ بنُ الخطَّاب - رضي الله عنه - مُعجَباً بشخصيَّته وهيكله ، وكان إذا رآه عجبٌ وتعجَّب منه ويقولُ : الحمدُ لله الذي خلقنا وخلقَ عمرأ ، تعجَّباً من عِظَمِ خلقه^(٣) .

= رابطُ الجأش ، ساكنُ القلب ، حاضرُ اللَّبِّ ، لم يخالطه الدَّهش ، ولا تأخذه الحيرة ، فيتقلَّبُ تقلبَ المالكِ لأُموره ، القائم على نفسه .

الثَّالث : إذا انهزم أصحابُه يلزمُ السَّاقةَ ، ويضربُ في وجوهِ القوم ، ويحولُ بينهم وبينَ عدوِّهم ، ويقوِّي قلوبَ أصحابه ، ويُرَجِّي الضَّعيفَ ويمدِّهم بالكلام الجميل ، ويشجِّع نفوسَهم ، فمَنْ وقعَ أقامه ، ومَنْ وقفَ حملَه ، ومن كَبَا به فرسه حِماءُ حتى ييأسَ العدوُّ منه ، وهذا أحمدهم شجاعةً . وعن هذا قالوا : إنَّ المقاتلَ من وراءِ الفارينِ كالمستغفر من وراءِ العَافلين ، ومن أكرمَ الكرمَ الدِّفاعُ عن الحرم . (المستطرف ٥٦/٢ و ٥٧) طبعة دار صادر المحققة

(١) انظر : الأغاني (٣٠ / ١٤) طبعة دار الكتب بمصر عام ١٣٢٢ هـ ، وانظر : معاهد التنصيص (٢٤٨ / ٢) ، وبلوغ الأرب (١٣٢ / ١) .

(٢) الإصابة (٢ / ٥) .

(٣) الأغاني (٢٧ / ١٤) .

* وكانت لعمرو أخلاق البدوي في الشجاعة والنجدة ، مع بعض الإسراف في تصوير بطولته إلى درجة التهويل .

* وترسم كتب الأدب والأسمار والأخبار قصصاً طريفة في مبالغة عمرو في ذكر شجاعته وفروسيته ، ومنها أنه كان يذهب مع الأشراف إلى الكوفة يتناشدون الأشعار ، ويتذكرون أيام الناس كعادتهم .

* وقف مرة إلى جانب خالد بن الصقعب النهدي ، وأقبل عليه يحدثه ويقول: أغرت على بني نهدٍ ، فخرجوا إليّ مسترعفين بخالد بن الصقعب وهو يتقدمهم ، فطعنته طعنة فوقع ، وضربته بالصمصامة حتى فاضت روحه .

فقال له الرجلُ: يا أبا ثور: أنا مقتولك الذي تحدثُ!

فقال عمرو: اللهم غفرأ ، إنما أنتِ بمُحدثِ فاستمعْ ؛ إنما نتحدثُ بمثلِ هذا وأشباهه ، لترهبَ هذه المعديّة^(١) .

* ومن الجدير بالذكر أن الروايات التي وصلت إلينا عن عمرو قد بالغت في تصويره كاذباً ؛ ويبدو أن حبّ الفخر كان يدفعه إلى شيء من المبالغة في القول ، خصوصاً أن الصراع والتنافس كان مستمراً بين القحطانية واليمانية في العصر الجاهلي ، ولهذا كان عمرو يُغالي في وصف فروسيته وجراته ، ومن هنا سُئل خَلْفُ الأحمر - الراوية المشهورة - عن ذلك فقال: كان عمرو يكذب باللسان ويصدق بالفعال^(٢) .

* ولهذا يتألف شعره الذي وصل إلينا في المقام الأول من شعر في الحرب ، وشعر في الفخر بقبيلته . قال عنه ابن قتيبة: وعمرو أحد من

(١) الأغاني (١٤ / ٣١) ، ويريد بالمعدية : العدنانيين من العرب أبناء معد بن عدنان .

(٢) معاهد التنصيص (٢ / ٢٤٨) .

يَصْدُقُ عَنْ نَفْسِهِ فِي شِعْرِهِ^(١). وَكَانَ الْمَرْزَبَانِي يَرَاهُ مِنَ الْفُحُولِ ، بَيْنَمَا الْأَصْمَعِيُّ لَمْ يَجْعَلْهُ مِنَ الْفُحُولِ .

* وَلَعَلَّ عَمْرَأَ قَدْ أَثَّرَتْ فِيهِ عَصَبِيَّتُهُ الْقَحْطَانِيَّةُ ضِدَّ الْمُضَرِّيَّةِ ، فَدَفَعَهُ ذَلِكَ إِلَى التَّهْوِيلِ وَالْإِغْرَاقِ وَالْمِبَالِغَةِ .

* وَمَنْ الطَّبِيعِيُّ أَنَّ فَارِسًا كَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ يَعْرِفُ مَقْدَارَ الْفُرْسَانِ ، فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَنْكَرَ شَجَاعَتَهُمْ وَمَقْدَرَتَهُمْ أَوْ تَغْلِبَهُمْ عَلَيْهِ إِنْ جَمَعَتْ بَيْنَهُمَا الْأَيَّامُ .

* فَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ رَبِيعَةَ بْنَ مُكْدَمٍ أَحَدَ فُرْسَانِ الْعَرَبِ وَفَتِيَانِهِمْ وَصَنَادِيدِهِمْ ، قَدْ طَعَنَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ فَأَلْقَاهُ عَنْ فَرَسِهِ وَأَخَذَ فَرَسَهُ ، وَأَنَّهُ لَقِيَهُ مَرَّةً أُخْرَى فَوَقَعَتِ الضَّرْبَةُ فِي قَرْبُوسِ السَّرَجِ ، فَقَطَعَتْهُ حَتَّى عَضَّ السَّيْفُ بِكَائِبَةٍ - جَسَدَ - الْفَرَسِ ، فَسَأَلَمَهُ عَمْرُو وَانْصَرَفَ^(٢) .

(١) الشَّعْرُ وَالشُّعْرَاءُ (١/ ٣٧٣) .

(٢) ذَكَرَ هَذِهِ الْحَادِثَةَ الزَّيْبُرِيُّ بْنُ بَكَّارٍ فِي «الْمَوْفَقِيَّاتِ» فَقَالَ مَا مَفَادُهُ: أَغَارَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ عَلَى كَنَانَةٍ ، وَانْتَهَى إِلَى قَبَابٍ عَظِيمَةٍ ، وَإِبِلٍ وَغَنَمٍ ، وَانْتَهَى إِلَى قَبِيَّةٍ عَظِيمَةٍ ، وَكَشَفَ عَنْ جَارِيَةٍ مِثْلَ الْمَهَاةِ ، فَبَكَتْ وَقَالَتْ لِعَمْرُو وَقَدْ عَرَفْتَهُ: أَبْكِى عَلَى جَوَارِ أَتْرَابِ لِي وَهُنَّ فِي هَذَا الْوَادِي ، فَهَبْطَ عَمْرُو الْوَادِي عَلَى فَرَسِهِ ، فَأَلْفَى رَجُلًا يَخْصِفُ نَعْلَهُ ، فَلَمَّا رَأَاهُ عَلِمَ أَنَّ الْجَارِيَةَ قَدْ خَدَعْتَهُ ، وَلَمَّا رَأَاهُ الرَّجُلُ قَامَ غَيْرَ مَكْتَرٍ إِلَيْهِ وَحَمَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ:

قَدْ عَلِمْتُ إِذْ مَنْحَتْنِي فَاهَا وَلِحَقْتَنِي بِكَرَّةٍ رَدَاهَا
إِنِّي سَأَحْمِي الْيَوْمَ مِنْ حَمَاهَا يَا لَيْتَ شَعْرِي مَا الَّذِي دَهَاها
فَأَجَابَهُ عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ:

عَمْرُو عَلَى طَوْلِ السَّرَى دَهَاها بِالْخَيْلِ يَزْجِيهَا عَلَى وَجَاهَا
حَتَّى إِذَا حَلَّ بِهَا احْتَوَاهَا

ثُمَّ حَمَلَ عَمْرُو عَلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ:

أَنَا ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الشَّيْمِ مُؤْتَمِنُ الْغَيْبِ وَفِيَّ بِالْذَّمِّ
مِنْ خَيْرٍ مَنْ يَمْشِي بِسَاقٍ وَقَدْ مِ

فَحَمَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ:

* وهكذا تخلص عمرو من الغرور في أكثر من موقف ، ولم يكن متهوراً رغم شجاعته وقوته؛ يروى أن الصمة بن بكر الجشمي - أبو دريد بن الصمة - قد أغار في بني قيس على بني زيد ، فاستاق أموالهم وإبلهم ، وسبى فيمن سبى أخت عمرو ريحانة ، فتبعه عمرو ومعه أخوه عبد الله ابنا معدي كرب ، ثم رجع عبد الله وأتبعه عمرو وحده ، وأخذ يناشد الصمة بن بكر أن يخلي عن أخته فلم يفعل ولم يستجب له ، فلما يسر رجع وهي تناديه بأعلى صوتها: يا عمرو! يا عمرو! ولم يقدر على انتزاعها من أسرها ، فقال وصوتها يتردد في نفسه وسمعه:

أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع
سبأها الصمة الجشمي غضباً كأن بياض غررتها صديع
وحالت دونها فرسان قيس تكشف عن سواعدها الدروع
إذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
وكيف تريد أن تدعى حكيماً وأنت لكل ما تهوى تبوع
أشاب الرأس أيام طوال وهم ما تبلغه الضلوع^(١)

* ومن الملاحظ في هذه الأبيات الجميلة أنها من الشعر المغنى ، ولعله قد زيد في أبياتها ، حيث تحفل بالعاطفة الصادقة الجياشة ، وإن كانت مسربة بالحزن واليأس ، ولكننا مع هذا كله نلمح صدق عمرو مع

= أنا ابن ذي الأفيال أفيال البهم من يلقيني يود كما أودت إرم
أتركه لحماً على ظهر وضم

ثن تشابكا ، وكاد الرجل يظهر على عمرو ، ثم عرف عمرو أنه ربيعة بن مكرم ، فتسالما وانصرفا راجعين كل إلى قومه. (الأخبار الموفقيات ص ٤٨٢-٤٨٥) بتصرف واختصار.

(١) الإصابة (٢٠/٢) ، والأغاني (٣١/١٤) ، والشعر والشعراء (٣٧٤/١) وغيرها كثير.

نفسه وعواطفه ، كما نلمح الصّراحة الواضحة دون مغالطة ، إذ لا يمتلك النّجاة لأخته الأسيرة ، لذلك يلقي هذه التجربة الحياتية من خلال هذه الحكمة :

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَمْرًا فَدَعُهُ وَجَاوِزُهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

* ولعلّ من أخلاق عمرو الصّراحة المطلقة ، وهذه أخلاق الفارس العربيّ الذي يعرف أقدار الفرسان ومقدار شجاعتهم ، فهاهو يتحدث بصراحة تامّة عن فراره ، حيث لم يجد بذلك عيباً أو نقصاً ، إذ المقام يقتضي ذلك ، لأنّه يشعر بأنّه لا يستطيع أن يستمرّ في قتال بضعة فوارس أولي بأسٍ شديد وشجاعة نادرة .

* فالحرب تستوجب في بعض الأحيان الفرار والهزيمة إذا شعر الفارس بدائرة الحرب تدور عليه ، وعلم أنّ بقاءه في المعركة لا يكسبه إلا القتل أو الأسر ، وهذا ما يدفعه إلى الفرار من المعركة .

* وكان بعض الفرسان يدافعون عن فرارهم هذا ، ويضفون عليه طابعاً من الشّرعية ، ويدعمون دفاعهم بالحجج والبراهين ليسوّغوا لأنفسهم ذلك دون أن يجدوا في هذا الدّفاع غضاضةً أو أمراً يدعو إلى الخجل ، فقالوا : الفرار في وقته خير من الثّبات في غير وقته^(١) . وقالوا أيضاً : الحِمَامُ في الإقدام ، والسّلامة في الإحجام^(٢) . فهم لا يفرّون لأنّهم جُبْناء ، فهم شجعان ، ولكنّهم يروّون أنّ القتال لا يجديهم نفعا ، وإنّ استمرارهم في القتال يعني ورودهم مورد الهلاك ، وذلك لاستحالة مقاومتهم أو كثرة خصومهم .

(١) انظر : نهاية الأرب للتّويري (٣/ ٣٥٠) .

(٢) المصدر السابق بنفسه .

* فقد كان عمرو لا يجدُ غضاضةً من فراره في يومٍ من الأيام ما دامت له مآثرُهُ في الأيامِ الماضيةِ . فقد حدّثوا أنّه لقيَ مرّةً بني عبس في أبطالهم ، ففرّ هارباً وولّى ولم يعقب ، وقد سجّلَ هذا التّصرّفَ بقوله يخطبُ أخته ريحانةً وقد فرّ من بني عبس :

أَجَاعِلُهُ أُمَ الثُّوِيرِ خَزَايَةَ عَلَيَّ فِرَارِي إِذْ لَقِيتُ بَنِي عَبْسِ
لَقِيتُ أَبَا شَاسٍ وَشَاساً وَمَالِكاً وَقَيْساً فَجَاشَتْ مِنْ لِقَائِهِمْ نَفْسِي
لَقَوْنَا فَضْمُوا جَانِبَيْنَا بِصَادِقٍ مِنَ الطَّعْنِ مِثْلَ النَّارِ فِي الْحَطَبِ الْيَسْرِ
وَلَمَّا دَخَلْنَا تَحْتَ فِيءٍ رَمَاحِهِمْ خَبِطْتُ بِكَفِّي أَطْلُبُ الْأَرْضَ بِاللَّمْسِ
وَلَيْسَ يُعَابُ الْمَرْءُ مِنْ جُبْنِ يَوْمِهِ إِذَا عُرِفَتْ مِنْهُ الشَّجَاعَةُ بِالْأَمْسِ^(١)

(١) انظر العقد الفريد (١/١٤٦).

يقول الجاحظُ : وقد يفرُّ الأعرابيُّ في الحربِ ، فلا يفرُّ بالجبن عن الأعداء ، وبالتكول عن الأكفاء ، بل يُخرجُ لذلك الفرار معنى ، ويجعلُ له مذهباً ، ثم لا يرضى حتّى يجعلَ ذلك المفخر شعراً ، ويشهره في الآفاق ، قال مالكُ بنُ أبي كعب الخزرجي - شاعر جاهلي - في الفرار :

مَعَاذَ الْإِلَهِ أَنْ تَقُولَ حَلِيلَتِي أَلَا فَرَّ عَنِّي مَالِكُ بْنُ أَبِي كَعْبٍ
أَقَاتَلْتُ حَتَّى لَا أَرَى لِي مَقَاتِلًا وَأُنْجُو إِذَا عُمَّ الْجَبَانُ مِنَ الْكَرْبِ
يقول : أنا وإنّ وليتُ هارباً حين لا أجدُ مقاتلاً ، فقد وليتُ ومعِي عقلي .

- وأتمُّ الفرسانِ في الحربِ آلةٌ مَنْ عَرَفَ الْمَفْرَّ كَمَا يَعْرِفُ الْمَكْرَّ ، فَلَسْتُ كَمَنْ يَسْتَفِرُّهُ وَهْلُ الْجَبَانِ ، وَلَا كَالَّذِي يُعْجَلُ فَيَلْجَأُ ذَنْبَ فَرَسِهِ وَيَرْكَبُهُ مَشْكُولاً - شدَّ قوائمه بحبل - ويركله برجله وهو مقيدٌ ، وينزلُ عن ظهره ، ويظنُّ أنّ سعيه على رجله أبلغُ من ركضِ فرسه في النجا ، قال زيدُ الخيل :

أَقَاتَلْتُ حَتَّى لَا أَرَى لِي مَقَاتِلًا وَأُنْجُو إِذَا لَمْ يَنْجُ إِلَّا الْمَكْيَسُ
وَلَسْتُ بِذِي كُهْرُورَةٍ غَيْرِ أَنْتَنِي إِذَا طَلَعَتْ أُولَى الْمَغِيرَةِ أَعْبَسُ
وقال الحارثُ بنُ هشام :

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى رَمَوْا فَرَسِي بِأَشْقَرِ مُزْبِدٍ
فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَالْأَحْبَةَ فِيهِمْ طَمَعاً لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمِ مُفْسِدٍ=

* ولعلنا نعرف شيئاً من خلائق عمرو من خلال قوله :

لَيْسَ الْجَمَالَ بِمُزْرٍ فاعْلَمْ وَإِنْ رُدِّيتَ بُرداً
إِنَّ الْجَمَالَ مَآثِرٌ وَمَنَاقِبٌ أَوْرَثَنَ حَمْداً^(١)

* فلقد أراد عمرو من قوله هذا بأنَّ الجمال ليس فيما يُلبس من الثياب والخزّ والحريز، ولكنَّ الجمال الحقيقي للإنسان في أصوله الزكية الزاكية، ومنبته الطيب الكريم، وأفعاله الفاضلة التي تورث الشرف والمجد والرِّفعة.

عَمْرُو الصَّحَابِيِّ الْفَارِسُ :

* عمرو بنُ معدي كرب الزبيديُّ واحدٌ من الذين رضي الله عنهم ، وهداهم إلى الإسلام والدين الحنيف ، فقد كان له وفادةٌ على رسول الله ﷺ حيث قَدِمَ المدينة فأسلم^(٢) ، ثم ارتدَّ بعد وفاته ﷺ فيمن ارتدَّ باليمن ، ثم

= وعلمتُ أنّي إنْ أقاتل واحداً أَقْتُلُ ولا يضرُّ عدوّي مشهدي يقول: ليسَ من الصَّواب أنْ أَقَفَ موقفاً أَقاتلُ فيه باطلاً. وقال عمرو بنُ معدي كرب :

ولَقَدْ أَمَلْتُ رَجُلِي بِهَا حَذَرَ الْمَوْتِ وَإِنِّي لَغَرُورٌ
ولَقَدْ أَعْطَفْتُهَا كَارِهَةً حِينَ لِلنَّفْسِ مِنَ الْمَوْتِ هَرِيرٌ
كُلُّ مَا ذَلِكَ مِنِّي خَلْقٌ وَبِكُلِّ أَنَا فِي الرَّوْعِ جَدِيرٌ
فَزَعَمَ أَنَّ الْفِرَارَ مِنْ أَخْلَاقِهِ ، كَمَا أَنَّ الْإِقْدَامَ مِنْ أَخْلَاقِهِ .

(البرصان والعرجان ص ١٧ - ١٩)

(١) انظر: سرح العيون (٤٤٣).

(٢) ذكر العباسيُّ قصّة إسلام عمرو بنِ معدي كرب ومفادها: أَنَّ عَمْرَأَ قَدِمَ فِي رَجَالٍ مِنْ بَنِي زَيْدٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ: حَيَّاكَ إِلَهُكَ أَيُّبَتَ اللَّعْنِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ وَمَلَائِكَتَهُ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَأَمِنْ بِاللَّهِ يَوْمَ الْفُرْعِ الْأَكْبَرِ» فقال عمرو: وما الفُرْعُ الْأَكْبَرُ؟! فشرح ﷺ لَهُ أَهْوَالَ الْقِيَامَةِ.

فقال عمرو: إِنِّي أَسْمَعُ أَمْرًا عَظِيمًا.

هاجرَ إلى العراقِ فأسلمَ ، وشهد القادسيّة ، وله بها أثره وبلاؤه^(١) ، كما كان له يومها اليد البيضاء والبلاء الحسن والذكر المشهور ، حمل على فيل الأعاجم وعليه رستم كبير جيش الفرس ، فجدّم عرقوبيّه ، وسقط الفيل إلى الأرض ، وقُتِلَ رستم ، وتمّت الهزيمة ، وكان الفتح^(٢) .

* وتروي كتب السيرة النبوية قصّة إسلام عمرو بن معدي كرب ، فتقول ما مفاده: إنّ وفد زبيد قدّموا على رسول الله ﷺ وعلى رأسهم عمرو بن معدي كرب ، فأسلم وأسلم قومه ، وكان عمرو قال لقيس بن مكشوح المُرادي: يا قيسُ ، إنّك سيّد قومك ، فانطلق بنا إلى محمّد لنبلو أمره ونعلم علمه ، فإن كان نبياً كما يقول ، فإنّه لَن يخفى عليك ، فأبى عليه قيسٌ وسفّه رأيه ، فجاء عمرو وأسلم ، فلمّا علم قيسٌ قال: خالفني وترك أمري ورأيي ، وتوعّد قيسٌ عمراً ، فقال عمرو من أبيات:

فَمَنْ ذَا عَاذِرِي مَنْ ذِي سَفَاهٍ يريد بنفسه شدّ المِزَادِ
أُرِيدُ حَيَاتَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي عذيرك من خليلك من مُرَادِ

* ولنستمع إلى قصّة إسلام عمرو بن معدي كرب في هذه الأبيات الرّقيقات:

وفد الفارسُ الذي تفرّق الأبط الُ منه وتفرّع الفرسانُ
جاء عمرو وأبى قَرم كعمرو حين تُدعى القُروم والشُّجعانُ
ماله في الرّجال كفؤ إذا ما حمي الضّرب واستحرّ الطّعانُ

= فقال رسول الله ﷺ: «يا عمرو أسلم تسلم» .

فأسلم وبايع لقومه على الإسلام ، وكان ذلك منصرف رسول الله ﷺ من تبوك ، وكانت في رجب سنة تسع من الهجرة (معاهد التنصيص ٢/ ٢٤١) بتصرف .

(١) انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة (١/ ٣٧٢) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق

(١٩/ ٣٠١) مع الجمع والتصرف .

(٢) قطوف الريحان (ص ٧٢) .

قَالَ يَا قَيْسُ أَنْتَ سَيِّدُ قَوْمٍ
 سِرٌّ مَعِيَ نَنْظُرُ الَّذِي رَاحَ يَنْهَى
 إِنَّهُ إِنْ يَكُنْ نَبِيًّا فَلَنْ يَخُ
 وَمَنْ الْحَقُّ أَنْ يَكُونَ مُطَاعاً
 قَالَ يَا عَمْرُو هَلْ أَصَابَكَ مَسٌّ
 مَا أَنَا بِالَّذِي يَلِينُ عِنَانِي
 ذَهَبَ الْفَارِسُ الزَّبِيدِيُّ فَرْداً
 يَطْلُبُ السَّاحَةَ الَّتِي يُطْلُبُ الْخَيْدُ
 مَهْطُ الْوَحْيِ يَرْتَعُ الرُّوحُ فِيهَا
 رَضِيَ الْبِرَّ وَالْمَرْوَةَ دِيناً
 زَالَ عَنْهُ الْأَذَى فَمَا خَطْبُ قَيْسٍ
 قَالَ يَا وَيْحَهُ أَمْرُهُ أُمْدٌ
 لِأَذِيقَتِهِ الْجَزَاءُ أَلِيمٌ
 هَكَذَا تَصْنَعُ الْجَهَالَةُ بَالِنَّا
 وَمَنْ النَّاسِ مُبْصِرُونَ يَرَوْنَ الْحَ

* وتعالَ معي أيضاً، نقرأ قصّة إسلام عمرو في هذا النظم الأنيق الجميل :

أَخْبَارُ خَيْرِ الْخَلْقِ فِي سَمْعِ الْجَزِيرَةِ أَجْمَعِينَ
 وَصَلْتُ إِلَى أَسْمَاعِ عَمِ رَوْ هَبَّ كَيْمَا يَسْتَبِينَ

(١) انظر : ديوان مجد الإسلام لأحمد محرم (ص ٤٥٥ و ٤٥٦) بتصرف يسير .
 و«القرم» : السّيد العظيم الكريم . و«استحّر» : اشتد . و«الهراء» : الكلام الكثير
 الفاسد . و«الهديان» : التكلم بغير معقول . «لان عنانه» : انقاد . «تقضى البدء» :
 انتهى الفحش والسفه . «الروح» : جبريل . «الجنان» : القلب . «يدان» : يُجازى
 ويحاسب .

نَادَى عَلَى قَيْسِ بْنِ مَكٍ
قَدْ قَالَ يَا قَيْسُ أَلَمْ
رَجُلٌ أَتَتْ أَخْبَارُهُ
فِيهِ النُّبُوَّةُ يَدْعِي
يَا قَيْسُ إِنَّكَ سَيِّدٌ
فَلَنَنْطَلِقَ حَتَّى نَرَا
إِذْ مَا عَلِمْنَا صِدْقَهُ
لَكِنَّ قَيْسًا قَدْ أَبَى
عَمْرُو أَتَى لِلْمُصْطَفَى
قَدْ أَعْلَنُوا الْإِسْلَامَ يَبِ
وَأَقَامَ عَمْرُو فِي زَبِ
الْمُصْطَفَى لَبَّى نَدَا
فَارْتَدَّ عَمْرُو بَعْدَ مَوِ
لَكِنَّهُ قَدْ عَادَ لِ
هُوَ شَاعِرٌ وَمُقَاتِلٌ

شَوْحِ زَعِيمِ الْحَاضِرِينَ
تَسْمَعُ مَقَالَ الْقَائِلِينَ
مِنْ مَكَّةَ الْبَلَدِ الْأَمِينِ
هَهَا مِنْ إِلَهِ الْعَالَمِينَ
فِي الْقَوْمِ ضِمْنِ الْمُكْرَمِينَ
ه وَنَعْلَمُ الْعِلْمَ الْيَقِينِ
فَلَنَتَّبِعْهُ مُبَادِرِينَ
أَنْ يَسْتَجِيبَ وَيَسْتَكِينِ
فِي قَوْمِهِ كَالْوَافِدِينَ
نَ يَدِيهِ صَارُوا مُسْلِمِينَ
سِ قَوْمِهِ فِي الْأَمِينِ
ءَ الْحَقُّ بَيْنَ الْخَالِدِينَ
تِ مُحَمَّدٍ فِي الْكَافِرِينَ
لِإِسْلَامِ عَوْدَ التَّائِبِينَ
فِي الْحَرْبِ لَيْسَ لَهُ قَرِينِ

* وعمر بن معدى كرب قد روى حديثاً عن رسول الله ﷺ ، وروى عنه شراحيل بن القعقاع ، وشهد اليرموك^(١) .

* عن شراحيل بن القعقاع قال : قال عمرو بن معدى كرب : الحمد لله ، لقد كُنَّا من قريبٍ إذا حججنا قلنا : لبيك اللهم ، لبيك تعظيماً إليك عذراً ، هذى زبيد قد أتتك قسراً ، يقطعن خباً ، وجبالاً وعرأ ، قد تركوا الأنداد خلوا صفراً ، يقطعن من بين غضى وسمراً .

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٣٠١/١٩) ؛ وقال الهيثم بن عدي : أصيبت عينه يوم اليرموك .

* ونحنُ اليوم نقولُ كما علّمنا رسولُ الله ﷺ: «لييكَ اللهم لييكَ ، لا شريكَ لكَ لييكَ ، إنّ الحمدَ والنّعمة لكَ والمُلْكُ ، لا شريكَ لكَ» .

* وإن كُنّا لنمنعُ النَّاسُ أنْ يقفُوا بعرفةَ - وذاك في الجاهليّةِ - وإن كانَ موقفُهم ببطنِ مُحَسَّرٍ عشيةَ عرفةَ فَرَقاً مَنْ أنْ يخطفنا الجَنُّ ، فقال لنا رسولُ الله ﷺ: «أجيزوا بطنَ عُرنةٍ فإنّما هم إذا أسلموا إخوانكم»^(١) .

* وقالَ أبو نعيم عن عمروٍ وإسلامه: له الوقائعُ المذكورةُ في الجاهليّةِ ، وأدركَ الإسلامَ ، فقدمَ على النَّبيِّ ﷺ وعَلّمه التَّلبيّةَ ، وله في الإسلامِ بالقادسيّةِ بلاءٌ حَسَنٌ حينَ بعثه عمرُ إلى سعد بنِ أبي وقاص ، وكتبَ إليه أنْ يصدرَ عن مشورته في الحربِ^(٢) .

* وخاضَ عمرو بنُ معدي كرب غمارَ القادسيّةِ ، وشرى وباعاً ، وكانَ لسيفه غناءٌ وأيَّ غناء ، وقد شهدَ له بذلك أحدُ فرسانِ القادسيّةِ قال: فنزلنا يوماً اشتدَّ فيه القتالُ بيننا وبينَ الفُرس ، فرأيتُ رجلاً يفعلُ بالعدوِّ يومئذٍ الأفاعيلَ ، قلتُ: مَنْ هذا جزاهُ اللهُ خيراً؟! قيل: عمرو بنُ معدي كَرِب^(٣) .

* ويروي أبو عُبيدة أنَّ عمرو بنَ معدي كرب حملَ يومَ القادسيّةِ على مرزبانٍ ، وهو يرى أنّه رُسُومٌ ، فقتله ، فقال في ذلك :
أَلَمْ بَسَلْمَى قَبْلَ أَنْ تَظْعَنَا إِنَّ لَسَلْمَى عُنْدَنَا دَيْدَنَا
قَدْ عَلِمْتُ سَلْمَى وَأَشْيَاعُهَا مَا قَطَّرَ الْفَارِسَ إِلَّا أَنَا
شَكَّتُ بِالرُّمَحِ حَيَازِمَهُ فَالْخَيْلُ تَعْدُو رَهْباً بَيْنَنَا^(٤)

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٣٠١/١٩) .

(٢) المصدر السابق (٣٠٢/١٩) .

(٣) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٣٠٤/١٩) .

(٤) المصدر السابق (٣٠٥/١٩) .

* ويوم القادسية فعلَ عمرو الأفاعيل بالفرس ، فقد كان عمرو يخطبُ
النَّاسَ يومَها ويقول: أيُّها النَّاسُ ، كونوا أشدَّ حذراً إذا برزَ إلى أحدكم
قرنه ، فلا يَكِلْهُ إلى غيره ، إنَّ هؤلاء - معشرَ الأعاجم - إذا لقي أحدَهم قرنه
فهو تيس!

فبينما هو يحرضُهم ويرتجزُ ويقولُ:
أنا أبو ثور وسيفي ذو النون أضربُهم ضربَ غلامٍ مجنون
يالَ زبيد إنَّهم يموتون

إذ جاءته نَشَابَةٌ أصابتَ قِربوسَه فحملَ على صاحبها ، فأخذه أخذَ
الجارية ، فوضعه بين الصَّفين ، ثمَّ احتزَّ رأسَه ، وقال: اصنعُوا هكذا^(١).

* ويروي عمرو نفسه فروسيته وما صنعَ بالفرسِ وبالفيلةِ يوم
القادسيَّة ، فيقول: كانت خيلُ المسلمين تنفرُ من الفيلةِ يومَ القادسية ،
وخيلُ الفرسِ لا تنفرُ ، فأمرتُ رجلاً فترسَ عني ، ثمَّ دنوتُ من الفيلِ
فضربتُ خَطْمَه ، فقطعته ، فنفرَ ونفرتِ الفيلةُ ، فحطمت العسْكرَ ، وألحَّ
المسلمون عليهم حتَّى انهزموا^(٢).

* وكانَ عمرُ بنُ الخطَّاب - رضي الله عنه - يعدُّه بمقام ألفِ فارس ،
وذكرَ ابنُ حجر في «الإصابة» أنَّ عمرأَ حملَ يومَ القادسيَّة وخدَه ، وجعلَ
يضربُ الفرسَ حتَّى لحقَ به المسلمون ، وقد أحدقَ به الأعداءُ وهو يضربُ
فيهم بسيفه ، فنحَّوهم عنه^(٣).

* وكانَ لعمرو طريقةٌ بارعةٌ وعجيبةٌ في قتالِ الفرسِ ، فقد كان يقاتلُ

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٩/٣٠٦).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) الإصابة (١٩/٥).

فارساً ، ثم يقتحم عن فرسه ، فيربط مقوده في حقوه ، فيقاتل آخر ، وهكذا كان يفعل بالعدو الأفاعيل^(١).

* ومن الجدير بالذكر أن عمراً كان في هذه الفروسيّة ، وقد بلغ من العمر عتياً ، وعمره يقترب من قرن أو تجاوزه بقليل ، فقد كان ضخماً الجثّة ، وكان آخر قومه في عبور نهر القادسيّة ، وفرسه تئن من ثقله^(٢).

* وكان سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - يثني على عمرو مع إعجاب بفروسيته ، فقد أوفده سعد بعد فتح القادسيّة إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فسأله عمر عن سعد ، فقال عمرو: يا أمير المؤمنين ، هو لهم كالأب ، أعرابي في نمرته ، أسد في تامورته^(٣) ، نبطي في حبوته ، يقسم بالسوية ، ويعدل في القضية ، وينفر في السرية ، وينقل إلينا حقنا ، كما تنقل الذرة^(٤). فقال عمر - وقد كان كتب إليه سعد يثني على عمرو -: لشد ما تقارضتما الثناء^(٥).

عمرو والحرب والسلاح:

* عمرو بن معدي كرب من فرسان العرب المشهورين بالبأس والشدّة والنّجدة وقوة الشّكيمة ، وقد خاض وقعات كثيرة في حياته ، حتى دعي فارس العرب لكثرة ما علم بواطن الحرب وخباياها وزواياها.

* وفي ثنایا الحديث عن المعارك والوقائع سأل عمر بن الخطاب عمراً - رضي الله عنهما - عن الحرب فقال: يا أمير المؤمنين ، هي مرّة المذاق ،

(١) الأغاني (٢٨/١٤).

(٢) الأغاني (٢٨/١٤).

(٣) «تامور»: عرين الأسد.

(٤) «الذرة»: النملة الحمراء الصغيرة.

(٥) انظر: الشعر والشعراء (٣٧٣/١).

إذا قَلَصْتُ^(١) عن ساق ، مَنْ صَبَرَ فيها عُرِفَ ، ومن ضَعُفَ عنها تَلَفَ ،
وهي كما قال الشاعر :

الْحَرْبُ أَوَّلُ مَا تَكُونُ فِتْيَةً تسعى بزيتها لكلِّ جَهُولٍ
حتَّى إذا استعرتْ وشبَّ ضِرامُها عادت عجوزاً غير ذاتِ خليلٍ
شَمطاءُ جَزَتْ رَأْسَها وتَنَكَّرَتْ مكروهةٌ لِلثَمِّ والتَّقْيِيلِ^(٢)

* وفي نفحةٍ أخرى من نفحاتِ المعرفةِ الحربيَّةِ يسألُ سيِّدنا عمرُ بنُ
الخطَّابِ عمرو بن معدي كرب عن السِّلَاحِ وألوانهِ وأنواعهِ وأشكالهِ وصفاتهِ
ومهمَّاتِهِ في الحربِ واستخداماتِهِ ، حيث إنَّ السِّلَاحَ روحُ حياةِ الفارسِ
وحياةُ روحِهِ ، والسِّلَاحُ عمادُ قوَّتِهِ وبقائِهِ في الباديةِ .

* ومن الواضح أنَّ العربَ قد عَمِلُوا على تحسينِ أسلحتهم سعيًا إلى
المنفعةِ ، ومحافظةً على أنفسهم ، ومقارعةً لأعدائهم ، وقد جاءَ اهتمامُهم بها
لأسبابٍ التي دفعتهم إلى الاهتمامِ بالخيْلِ - كما مرَّ معنا في بعضِ مواضعِ هذا
الكتاب - . فالسِّلَاحُ عند العربي موضعُ تقديرٍ وإجلالٍ ، ومثارُ احترامٍ وتقديسٍ .

* ومن الطَّبِيعي أن يتحدَّثَ الفرسانُ عن أسلحتهم ، لأنَّها القوَّةُ التي
يستندون إليها في حياتهم ، والعنصرُ الأساسُ الذي تعتمدُ عليه بطولاتهم ،
والأسلحةُ التي يتحدَّثُ عنها الفرسانُ لا تخرجُ عن نطاقِ الأسلحةِ التي
عرفها العَصْرُ الجاهليُّ ، سواء أكانت أسلحة هجوم : كالسِّيفِ والرُّمَحِ
والقوسِ والسَّهْمِ ؛ أم أسلحة دفاع : كالدرعِ والتَّرسِ والمِغْفَرِ والبيضةِ .

* ولم يكنِ الحديثُ الذي يتحدَّثُ به الفرسانُ عن هذه الأسلحةِ حديثاً
عابراً ، وإنَّما هو حديثُ المناجاةِ والإعجابِ ، حديثُ الاهتمامِ بكلِّ جزءٍ

(١) «قلصت» : شمريت .

(٢) الشعر والشعراء (١/ ٣٧٣) ، وانظر : سرح العيون (ص ٤٣٩) .

من أجزائها ، وبكلّ ميزة من ميزاتها ، الحديث الذي يصفُ مضاءها وقوتها ، ويصفُ عنصرها وجوهرها ، ويتحدّثُ عن حبّه لها ، وقيمتها بالنسبة لحياته ، هذا الحديث الذي كان يخرجُ من قلبه خالصاً دقيقاً ، فيصبُحُ أغنيةً عذبةً يتمثلها في مواضع الشدّة ، ويتغنّى بها في ساحات القتال ، ويسمرُ بها في مجالس الرّجال .

❖ لذلك أجاب عمرو بن معدي كرب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن السّلاح بقوله : يا أمير المؤمنين ، الرّمح ^(١) أخوك وربّما خانك ؛ والنّبلُ منايا تخطىءُ وتصيبُ ، والثّرْسُ هو المِجَنُّ وعليه تدورُ الدّوائر ، والدّرع

(١) «الرّمح» : إنّ الرّمح مِنْ أسلحة الفارس الحَذِق ، وقد كان الحبيب الأعظم ﷺ يقول : «عليكم بالقنأ والقسيّ ، فيها نصير نبيكم ، وفُتِحَ لكم في البلاد» . وسُئِلَ أعرابيٌّ عن أحبِّ الرّماح إلى نفسه فقال : المارنُ المثقّف ، المقومُ المخطفُ ، الذي إذا هزّزته لم يتعطّف ، وإنّ طعنْتَ به لم يتقصّف . ثم سُئِلَ عن أبغضِ الرّماح إليه فقال : الأعصلُ عند الطّعان ، المثلّم السّنان ، الذي إذا هزّزته انعطف ، وإذا ضربت به انقصف .

وللرّمح أوصافٌ عدّة تبعاً لأوصافه : فهو صعدة إذا كانت العصا قد نبتت مستوية ، وهو لدنٌ ومارنٌ إذا كان ليناً ؛ وسمهريٌّ إذا كان شديداً ؛ وصدقٌ إذا كان صلباً ، وكذلك فضّل العربُ أجزاءه ، وأعطوا الكلّ جزءاً اسماً .

فالرّمحُ يضارعُ السّيفَ رفعةً وتعظيماً ، ولم تكن أهميته أقلّ من أهمية السّيف بالنسبة للفارس في المعركة ، فهو كثيراً ما يُذكرُ مع السّيف ، قال عمرو بن كلثوم :
نطاعنُ ما تراخى النَّاسُ عَنَّا ونضربُ بالسّيفِ إذا غشنا
بُسْمُرٍ مِنْ قَنَا الْخَطِيّ لَدُنْ ذوابِلُ أَوْ بِيضٍ يَخْتَلِينَا
وقال عنترة :

فطعنته بالرّمحِ ثم علوته بمهندي صافي الحديدِ مخدّم
وقال عمرو بن معدي كرب :

أعددتُ للحربِ فضفاضةً دِلاصاً تتنّى على الرّاهش
وأجردَ مطرداً كالرّشاء وسيف سلامة ذي فائش

مَشْغَلَةٌ لِلْفَارِسِ ، متعبَةٌ لِلرَّاجِلِ ، وإنَّهَا لِحَصْنٌ حَصِينٌ^(١) .

* لقد كَانَ اهْتِمَامُ الْفَرَسَانِ وَاضِحاً بِالرَّمَحِ ، وَلِذَلِكَ بَدَأَ فِيهِ عَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ وَشَبَّهَهُ بِالْأَخِ ، وَبِهَذَا يَظْهَرُ اهْتِمَامُ الْعَرَبِ بِالرَّمَاكِ ، وَأَصُولُهَا فَقَالُوا: رِمَاحاً يَزْنِيَّةٌ ، وَهِيَ الرَّمَاكِ الَّتِي تُنْسَبُ إِلَى ذِي يَزْنَ^(٢) ، وَقَالُوا: رِمَاحاً خَطِيَّةً ، وَهِيَ الرَّمَاكِ الَّتِي تُنْسَبُ إِلَى الْخَطِّ ، وَهُوَ مَوْضِعٌ بِالْيَمَامَةِ^(٣) ، أَوْ مَرْفَأُ الشُّفَنِ بِالْبَحْرَيْنِ . وَقَالُوا: رِمَاحاً رُذِينِيَّةً ، وَهِيَ الرَّمَاكِ الَّتِي تُنْسَبُ إِلَى امْرَأَةٍ تَسْمَى رُذِينَةً كَانَتْ تَقْوُمُ الْقَنَا بِخَطِّ هَجَرَ ، وَكَانَ زَوْجُهَا سَمَّهَرٌ يَقْوُمُ الرَّمَاكِ أَيْضاً وَنُسِبَ إِلَيْهِ نَوْعٌ مِنْهَا^(٤) .

* وَقَدْ كَانَتِ الْعَرَبُ تَذْكُرُ الْقَنَاةَ الصُّلْبَةَ الَّتِي لَا تَلِينُ ، وَلَا تَقْبَلُ التَّقْوِيمَ وَالتَّثْقِيفَ ، لِتَضْرِبَ بِهَا الْمِثْلَ فِي الْخِلَافِ وَالْإِبَاءِ وَالْامْتِنَاعِ وَالتَّعَشُّرِ عَلَى مَنْ يَرِيدُ إِكْرَامَهُمْ ، وَالتَّعَصُّبِ عَلَى مَنْ يَرِيدُ تَلْيِينَهُمْ ، أَوْ الْغَضِّ مِنْهُمْ . أَمَّا حَدِيثُهُمْ عَنْ صِفَاتِ الرَّمَاكِ فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى تَفْضِيلِهِمُ الرَّمَاكِ الْأَصَمَّ اللَّيِّنَ عَلَى الرَّمَاكِ الْأَجُوفِ . وَكَانَ الْفَرَسَانُ يَمِيلُونَ إِلَى الرَّمَاكِ مَتَوَسِّطَةِ الطُّوْلِ ، حَتَّى يَتِمَكَّنُوا مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَيْهِ . وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الرَّمَاكِ الطَّوِيلَةِ .

* وَمِنْ شِدَّةِ إِعْجَابِ الْفَرَسَانِ بِالرَّمَاكِ وَضَعُوا لَهَا أَسْمَاءَ كَثِيرَةً ، فَإِنْ كَانَ الرَّمَاكِ مُضْطَرَباً فَهُوَ عَاسِلٌ ، وَإِنْ كَانَ شَدِيدَ الْاضْطِرَابِ فَهُوَ عَسَّالٌ

(١) اشتهرت أسلحة منسوبة إلى أصحابها من مثل: سيف علي ، صمصامة عمرو ،

سيوف الخوارج ، قوس حاجب ، سهام الترك ، عصا الأعرج .

(٢) المخصص لابن سيده (٣٣/٦) .

(٣) صحاح الجوهري (١١٢٣/٣) .

(٤) الصحاح (٦٨٩/٢) و(٢١٢٢/٥) .

وعراصر؛ وإن كان لنا فهو لَدِن ، وإن كان شديداً فهو سَمْهريّ ، وإن كان صُلباً لا ينثني فهو صدق .

* وكان عمرو بنُ معدي كرب يجيّد القتالَ بجميع أنواع الأسلحة التي عُرِفَتْ في عَصْرِهِ ، بل إننا نلمحُ في تاريخ الأسلحة الحربيّة عند فرسان العربِ صمصامته التي أخذت مساحةً واسعةً من الشهرة ، حتى نُسِبَتْ إليه فقيلاً : صمصامةُ عمرو^(١) .

* وصمصامةُ عمرو بن معدي كرب أشهرُ سيوفِ العرب ، وبها يضربُ المثل في كرمِ الجواهرِ ، وحُسْنِ المنظرِ والمخبرِ ، والمضاء والتّصميم ، وكان عمرو - وهو فارسُ اليمن - حسنَ الاستعمالِ له في الجاهليّة ، كثيرُ العناية به في الإسلام ، وفيه يقولُ من شعر :

سَنَانٌ مَاحِقٌ لَا عَيْبَ فِيهِ وَصَمْصَامِي يَصُمُّ إِلَى الْعِظَامِ
* لقد كان السَّيْفُ أَقْرَبَ الأسلحةِ إلى نفسِ العربيّ ، لأنّه لا يستطيعُ الاستغناء عنه ، ولأنّه يستعملُهُ في معظم الأغراضِ ، لذا فإنَّ سيفَ عمرو قد اشتهرَ في الجاهليّة حتى ضُرِبَ به المثل في شدة المضاء وكرمِ الجواهرِ وحسنِ المنظر .

* قال عبدُ الله بنُ عَبَّاس - رضي الله عنهما - لبعضِ اليمانيّين : لكم من السَّماءِ نجمُها ، ومن الكعبةِ ركنُها ، ومن السُّيُوفِ صمصامُها - يعني سُهيلاً ، والركن اليماني ، وصمصامةُ عمرو - .

* وممن تمثّل بها من المتقدّمين عَمَيْثَلُ بن جزيّ في قوله :

(١) يروى أنه كان مكتوباً على الصمصامة هذا البيت :

ذَكَرٌ عَلَى ذَكَرٍ يَصُولُ بِصَارِمٍ ذَكَرٌ يَمَانٍ فِي يَمِينِ يَمَانِي
(المستطرف ٢ / ٨٤)

أَغْرُ كَمَصْبَاحِ الدُّجَنَّةِ يَتَّقِي قَذَى الزَّادِ حَتَّى يُسْتَفَادَ أَطَايُئِهِ
 أَخْ مَا جَدُّ مَا خَانَنِي يَوْمَ مَشْهَدٍ كَمَا سَيْفُ عَمْرٍو لَمْ تَخُنْهُ مَضَارِبُهُ
 * ولما وهبها عمروُ بنُ معدي كرب لخالد بن العاص عاملِ
 رسولِ الله ﷺ على اليمن قال فيه عمرو:

خَلِيلٌ لَمْ أَخُنْهُ وَلَمْ يَخْنِي إِذَا مَا الْخَطْبُ أَنْحَى بِالْعِظَامِ
 خَلِيلٌ لَمْ أَهْبُهُ عَنْ قِلَاءٍ وَلَكِنَّ التَّوَاهِبَ لِلْكَرَامِ
 حَبَوْتُ بِهِ كَرِيمًا مِنْ قُرَيْشٍ فَسُرَّ بِهِ وَصَيْنَ عَنِ اللَّئَامِ
 وَوَدَّعْتُ الصَّفِيَّ صَفِيَّ نَفْسِي عَلَى الصَّمْصَامِ أَضْعَافَ السَّلَامِ^(١)
 * قال ابنُ عساكر: كان لعمرو سيفٌ يسمّيه الصَّمْصَامَةَ^(٢).

* وَلِحُسْنِ اسْتِخْدَامِ عَمْرٍو لِلسَّلَاحِ فِي الْحُرُوبِ ، كَانَ سَيِّدَنَا عَمْرُ بْنُ
 الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - شَدِيدَ الْإِعْجَابِ بِذَلِكَ ، وَبِفُرُوسِيَّةٍ وَشَجَاعَةٍ
 عَمْرٍو^(٣) ، فَعَدَّهُ بِأَلْفِ رَجُلٍ ؛ فَقَدْ أَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَلَامِ
 الْجُمْحِيِّ قَالَ: كَتَبَ عَمْرُ إِلَى سَعْدٍ: إِنِّي أَمَدَدْتُكَ بِأَلْفِي رَجُلٍ ، عَمْرٍو بْنُ

(١) ثمار القلوب (ص ٦٢١ و ٦٢٢) ، وقطوف الرياحان (ص ٧٣) ، والجلس الصالح (٥٦٦/١). وممن وصف شجاعته بضرب السيف والرمح زيد بن علي حيث قال:

السَّيْفُ يَعْرِفُ عِزْمِي عِنْدَ هَزَّتِهِ وَالرَّمْحُ بِي خَيْرٌ وَاللَّهُ لِي وَزَّرُ
 إِنَّا لَنَأْمَلُ مَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا مِنْ قَبْلُ تَأْمَلُهُ إِنْ سَاعَدَ الْقَدَرُ
 وَفِي السَّيْفِ قَالَ ابْنُ الرُّومِي:

يَقْضِي لَهُ الدَّرْهَمَ حَاجَاتِهِ وَالسَّيْفَ يَحْمِيهِ مِنَ الْحَيْفِ
 (ديوان ابن الرومي ١٥٨٥/٤)

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٣٠٢/١٩).

(٣) حُكِيَ أَنَّ سَيِّدَنَا عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ لِعَمْرٍو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ: ابْعَثْ
 لِي الصَّمْصَامَةَ.

فَبَعَثَ بِهِ إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَرَهُ كَمَا بَلَغَهُ ، فَقَالَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ: إِنِّي بَعَثْتُ إِلَيْكَ
 الصَّمْصَامَةَ ، وَلَمْ أَبْعَثْ لَكَ بِالْيَدِ الَّتِي تَضْرِبُ بِهِ. (شرح العيون ص ٤٤٤)

معدي كرب ، وطليحة بن خويلد^(١) .

وفاة فارس العرب:

* كَانَ عمرو بْنُ معدي كرب صحابياً جليلاً ، وفارسياً باسلاً ، ومؤمناً مسلماً ، وشجاعاً مقداماً ، عملَ على إعزاز الإسلام ، ونَصْر دينِ الله ، وأوذى في الله ، قال ابنُ عباس - رضي الله عنهما -: عمرو بن معدي كرب ذَهَبَتْ عينُهُ يومَ اليرموك^(٢) .

* نعم أبلَى عمرو بلاءً حسناً يومَ اليرموك ، وقيل عنه يومها: إِنَّهُ كَانَ أَشْرَفَ رجلٍ برزَ ، ذلك أَنَّهُ خَرَجَ إِلَيْهِ عَلَجٌ فقتله ، ثُمَّ آخَرَ فقتله ، وهكذا وانهزمَ الرُّومُ ، ولم يتوقفْ ، وتبعَهُم حتى أَفْنَى جمعاً عظيماً منهم ، وعلى الرّغم من أَنَّ عينَهُ قد أُصِيبَتْ يومَ اليرموك ، فَإِنَّ ذلك لم يثنِهِ عن مواصلةِ الجهاد^(٣) .

* أما عن وفاة عمرو ، فتذكرُ بعضُ الروايات أَنَّهُ قد استشهدَ بالقادسية ، أو ماتَ عطشاً بها^(٤) ، وقيل: قُتِلَ في وقعةِ نهاوند . وقيل: أُصِيبَ يومَ نهاوند بجراحةٍ أثبتته فأخذَ عمرو ينشدُ شعراً يفخرُ به ببلائه وهو يُحْتَضِرُ ، ودهمهُ الفالجُ أثناءَ ذلك ، فماتَ به عند قرية تُدعى «رودة» من قرى نهاوند ، ودُفِنَ على قارعةِ الطَّرِيق ، فقالت امرأته الجُعْفِيَّةُ ترثيه :

لَقَدْ غَادَرَ الرِّكْبُ الَّذِينَ تَحَمَّلُوا بِرَوْدَةِ شَخْصاً لَا جَبَاناً وَلَا غَمراً
فَقُلْ لَزَيْدٍ بَلْ لَمَذَجَحَ كُلُّهَا رُزِئْتُمْ أَبَا ثَوْرٍ قَرِيعَ الْوَعَى عَمراً

(١) الإصابة (١٤٦/٧) .

(٢) مختصر تاريخ مدينة دمشق (٣٠٢/١٩) .

(٣) الإصابة (١٩/٥) .

(٤) الأغاني (٣١/١٤) ، ومعاهد التنصيص (٢/٢٥١) ، وقطوف الريحان (ص ٧٣) ،

والإصابة (١٤٧/٧) .

فَإِنْ تَجْزَعُوا لَا يَغْنِ ذَلِكَ عَنْكُمْ وَلَكِنْ سَلُّوا الرَّحْمَنَ يَعْقِبُكُمْ صَبْرًا^(١)
 * ومات فارسُ العربِ عمرو بن معدي كرب وعمره يزيدُ عن مئةِ
 عام^(٢) ، ماتَ فارسُ العرب الذي قال عنه أبو عمرو بن العلاء: لا يفضلُ
 عليه فارسٌ في العرب ، وماتَ الفارسُ المسلم المجاهدُ بعد أن رضيَ
 الإسلام ديناً ، فرضيَ اللهُ عَنْهُ وأَرْضَاهُ .

* * *

-
- (١) انظر: معاهد التنصيص (٢/٢٥١). وقال السيوطي: كان عمرو شاعراً مُحَسِّناً مشهوراً بالشَّجَاعَةِ ، قُتِلَ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ ، وقيل: ماتَ عطشاً يومئذ ، وقيل: جُرِحَ في وقعةِ نهاوند ، فحُمِلَ فماتَ بقريةٍ من قُرَاهَا يُقَالُ لَهَا: روضة سنة (٢١ هـ). (شرح شواهد المغني ١/٤١٩)
- وقال ابن عبد البر: كَانَ شَاعِراً مُحَسِّناً ، وهو فحلٌّ في الشَّجَاعَةِ وَالشُّعْرِ .
- (٢) قال المرزباني: ماتَ عمرو بن معدي كرب في خلافةِ عثمان - رضي الله عنه - وقد جاوزَ المئةَ بعشرين سنةً ، وقيل: بخمسين .
- وفي كتاب «المُعَمَّرِينَ» لابن أبي الدنيا ، أَنَّهُ بَلَغَ المئةَ والخمسين . وهناك أقوالٌ وآراءٌ وردت في المصادر وتجمعُ على أَنَّ عمرًا من المعمرين .

الباب الثالث
فرسان من العصر الإسلامي

جَاحِدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ
سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْحَمْدَانِي
عَبْدُ الرَّحِيمِ مُحَمَّدُ
قَطَرِي بْنُ الْفُجَاءَةِ
الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو
مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ
يَزِيدُ بْنُ مَرْيَدَ

جَاحِدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ

- * بطل شجاع ، وفاتك شاعر ، وأريب متصعلك.
- * كان فارساً في اليمامة وما حولها ، وجمع حوله ثلّة من الصعاليك.
- * دخل السجن مراراً ، ثم طواه الحجاجُ تحت جناحه.

الفارسُ الجريُّ الْمُتَصَعِّلُ:

* هذا فارسٌ شهدَتْ له فوارسُ عَصْرِهِ بالجرأةِ والفروسيَّةِ والإقدامِ ،
وكانَ بطلاً شجاعاً فاتِكاً فقيراً شاعراً لَسِناً أريباً متَصَعِّلِكاً.

* عاشَ في العَصْرِ الأمويِّ ، ذلك العَصْرُ الذي ظهرَ فيه فرسانُ خلدَهمُ
التَّاريخُ ، وأرَخَ أفعالهمُ الزَّمنُ .

* ومنَ العجيبِ في سيرةِ هذا الفارسِ الصَّمدِ ، أنَّه اشتهرَ باللصوصيَّةِ
في عالمِ اللصوصِ الذين اخترَقَتْ أعمالُهمُ الآفاقَ في شتَّى البقاعِ .

* وهذا الفارسُ الجريُّ هو جَحْدَرُ بْنُ معاويةَ بنِ جعدةِ العكليِّ^(١) ،
وقد غلبَ عليه في معظمِ الرِّواياتِ لقبُ جَحْدَرِ^(٢) اللصِّ ، ممَّا يدلُّ على
شهرةِ باللصوصيةِ ، وخطورتهِ فيها ، ومكانتهِ بينَ اللصوصِ وشذاذِ
الآفاقِ ، وقطَّاعِ الطُّرُقِ في العَصْرِ الأمويِّ .

* وصفه أبو عليّ القالي بقوله: وكان لَصّاً مبرّاً. وفَسَّرَ القالي كلمة
المبرِّ: بِالْغَالِبِ.

(١) الأُمالي للقالي (١/٢٧٧ و ٣٧٨) و (٣/٥٣) ، والمحاسن والأضداد للجاحظ (ص ١٠٤ - ١٠٨) ومعجم ما استعجم (١/١١٤١) ، وألف باء (٢/٥٠١) ، والحماسة البصرية (٢/٤٨٨) ، وخزانة الأدب (٤/٤٨٣) طبعة مصر . وخزانة الأدب أيضاً (٧/٤٣٥ - ٤٣٨) و (١١/٢١٨ و ٢١٩) طبعة بيروت ، وشرح شواهد المغني (١/٤٠٧ - ٤١٠) والأخبار الموفقيات (ص ١٧١ - ١٧٥) ، والمستطرف (٢/٧٩ - ٨١) طبعة دار صادر المحققة ، والتذكرة الحمدونية (٢/٤٨٦) وغيرها كثير .

(٢) «جَحْدَرُ»: الرَّجُلُ القَصِيرُ الجَعْدُ ، والأُنثى جَحْدَرَةٌ . وجَحَدَ له: إذا صَرَعَه ، وجَحْدَر: اسمُ رجلٍ . (لسان العرب ٤/١١٨)

* وعندما رَحْنَا نَسْتَدْلُ عَلَى نَسَبِ جَحْدَرٍ هَذَا ، أَلْفِينَا أَنَّهُ يَنْسَبُ نَفْسَهُ فِي شَعْرِهِ إِلَى بَنِي كَعْبِ بْنِ عَمْرٍو ، يَبْدَأَنَّ مَعْظَمَ الْمَصَادِرِ تَنْسِبُهُ إِلَى بَنِي حَنِيفَةَ .

* وَتَشِيرُ أَخْبَارُ جَحْدَرَ إِلَى أَنَّهُ كَانَ مِنْ صَعَالِيكِ عَصْرِهِ الَّذِينَ دَوَّخُوا الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ ، وَمَنْ الْمَعْرُوفِ أَنَّ الصَّعَالِيكَ طَائِفَةٌ قَدِيمَةٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، كَانَ لَهَا خَطَرُهَا وَأَدْبُهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ .

* وَتَمْتَازُ الصَّعْلَكَةُ - خُصُوصاً فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ - بِتَحْلُلِهَا مِنْ الْإِلْتِمَازَاتِ الْقَبْلِيَّةِ ، وَبِمَسْئُولِيَّتِهَا وَخُذَهَا عَنْ جَرَائِرِهَا ، وَبِتَخَلِّي قِبَائِلِهَا عَنْهَا ، وَرَفْضِهَا سُلُوكِيتِهَا وَتَبَعَاتِهَا^(١) .

* وَالصِّفَةُ الْعَامَّةُ لَهَا ، هِيَ الْفَقْرُ وَالتَّشَرُّدُ وَالاعْتِمَادُ عَلَى الذَّاتِ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ ، حَيْثُ إِنَّ الصُّعْلُوكَ مَنْ لَا مَالَ لَهُ وَلَا اعْتِمَادَ ، لِذَلِكَ عَمِلُوا عَلَى انْتِهَاجِ الْغَارَةِ وَالنَّهْبِ سَبِيلاً إِلَى الْحَيَاةِ وَالْمَعَاشِ ، فَكَانَ طَائِعُ الصَّعْلَكَةِ - عَلَى الْأَغْلَبِ - عُدَوَانِيّاً سَيِّئَ الْأَثَرِ فِي نَفُوسِ الْعَرَبِ لَمَّا فِي أَعْمَالِ الصَّعَالِيكِ مِنَ السَّلْبِ وَالْفَتْكِ وَالضَّرَاوَةِ وَالْعُدْوَانِ ، فَكَانَ النَّاسُ إِذَا نَجَّوْا مِنْهُمْ أَعْلَنُوا فَرَحَتَهُمْ ، وَمَنْ ذَلِكَ مَا أوردَهُ «البكريُّ» مِنْ أَنَّ بَعْضَ الثَّجَّارِ فِي مَطْلَعِ الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ قَدْ أَعْلَنَ فَرَحَهُ بِنَجَاتِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الصَّعَالِيكِ قُطَّاعِ الطُّرُقِ ، بِرَجَزٍ قَالَ فِيهِ :

| | |
|---|------------------------------------|
| وَبَطْنِ فَلَجٍ وَبَنِي تَمِيمٍ | اللَّهُ نَجَّيَاكَ مِنَ الْقَصِيمِ |
| وَمِنْ أَبِي حَزْدَبَةَ الْأَثِيمِ | وَمِنْ غُوَيْثٍ فَاتِحِ الْعُكُومِ |
| وَمِنْ شَطَاظِ الْأَحْمَرِ الزَّيْنِمِ ^(٢) | وَمَالِكِ وَسَيْفِهِ الْمَسْمُومِ |

(١) اِقْرَأْ هَذَا بِتَوْسِعٍ فِي سِيرَةِ عُرْوَةَ بْنِ الْوَرْدِ فِي هَذَا الْكِتَابِ .

(٢) مَعْجَمٌ مَا اسْتَعْجَمَ (١٠٢٧/٣) بِتَصْرِفٍ يَسِيرٍ . وَ«الْقَصِيمُ وَفَلَجٌ» : أَمَاكِنُ مَعْرُوفَةٌ فِي =

* وإذا كانت أهداف بعض الصّعاليك على جانب من التُّبَل - كعروة بن الورد العبسيّ الذي عُرِفَ بتعاذه الفقراء ومساعدتهم - فإنّ الغالبية منهم كانت نفوسُهُم تنطوي على شرٍّ عظيمٍ وخطرٍ جسيم ، إذ كانوا لُصُوصاً وقطّاعاً يباغتون النَّاسَ ، ويصيبون الطَّرِيقَ ، ويعتدون على أموالهم وعلى حياتهم أحياناً ، ولذلك اقترنت في حياة بعض الرِّجال الجاهليّين والأمويّين الصِّلَكة باللّصوصية حتى لا تفريق بينهما ، وبالجرّيمة والشرِّ أحياناً.

* وتدلُّ أخبارُ اللّصوصيّة على نشاط هؤلاء ، وعلى أعمالهم الخطيرة ، وآثارهم المربّة ، فقد كان فريقٌ منهم يوغلُ في السَّرقة ، واستئصالِ أموال النَّاسِ حتى لا يكادُ يَبْقَى لمن يباغتهم شيئاً ، وكان بعضهم قد اختصَّ بأنواعٍ من السَّرقة ، ودَرَبَ عليها ، وتمرَّسَ بأساليبها وخبرها ، كالخاربِ الذي يسرقُ الإبلَ خاصّةً ، والممترس الذي يسرقُ الإبلَ والغنمَ .

* وكان آخرونَ منهم يعتدون على الأعراضِ مع عدوانهم على النُّفوسِ والأموالِ ، ويسمّى مَنْ يفعلُ هذه الجريمة: الطَّمْلُ ، ومعناه: اللّصّ الفاسق .

* وقد عَظُمَ خَطَرُ هؤلاء ومَهَرُوا في صناعتهم حتّى صار لها فنٌّ متقنٌ متخصّصٌ ، وحتى تحاماهم النَّاسُ وخشوا غدراتهم .

* وليست هذه النزعة قاصرةً على عصرٍ وعلى أمةٍ دون غيرها ، فهي من نزعاتِ الإنسانِ قديماً وحديثاً ، وكان لها أنصارُها في العصورِ الإسلاميّة ، فقد عَرَفَ العصرُ العبّاسيّ طائفةً من المُجَّانِ الذين كانوا في حقيقتهم

= الجزيرة . و«أبو حردبة ومالك بن الربيع»: لسان مازنيان . و«شظاظ وغويث» من اللصوص المشهورين . و«العكوم» جمع عكم: الحبل يشد به المتاع .

صعاليك فيما يتّصلُ بجانبِ الإنفاقِ واللّهو ؛ أمّا غيرُ هؤلاء فكانَ منهم - في مختلفِ العُصورِ الإسلاميّةِ في المُدنِ وفي خارجِها - جماعةُ الفتيانِ الشُّطّارِ العيّارينِ .

* وقد نمّت ظاهرةُ الصَّعلَكةِ وترعرعتُ في محيطٍ ساعدَ على نموّها وبقائها ، فالصَّعلَكةُ الموسومةُ بالفتكِ والإجرامِ تحتاجُ إلى بيئةٍ يسهلُ فيها الكرُّ والفرُّ والاختفاءُ ، وتكثرُ المادّةُ ، والجزيرةُ العربيّةُ عالمٌ كبيرٌ متنوّعٌ يجمعُ الأضدادَ من الخصبِ والجذبِ ، والسَّهلِ والجبلِ ، والرَّحْلِ والحَضَرِ . وفيها الطُّرُقُ التي تودّي إلى الأماكنِ المقدّسةِ وإلى الموانئِ التجاريّةِ . ومن ثمّ كانت في الجاهليّةِ والإسلامِ خيرَ مَسَرَحٍ للصَّعاليكِ واللصوصِ . ولعلَّ أحداثها وما يحصلُ فيها من نزعاتٍ وخلافاتٍ وثوراتٍ قد وفّرَ للصَّعاليكِ حظّاً من النّشاطِ في عدلهم ، مع فتورِ الطَّلَبِ عنهم أحياناً ، فكانوا يسرحونَ ويمرحونَ ، وإذا ما طُلبوا فإنّهم سرعانَ ما يختفون في مغاراتِ الجبالِ ، أو في الواحاتِ ، أو في مجاهلِ الصَّحراءِ .

* ويمكننا أن نقولَ: إنّ من أسبابِ هذه الصَّعلَكةِ هو الجوعُ والفقرُ والحرمانُ في الدّرجةِ الأولى ، وهناك أسبابٌ أخرى ذاتيةٌ ، فثمّةُ أناسٍ فُطِرَتْ نفوسُهُم على شيءٍ من الأنفةِ والعزّةِ ، ولم يرتفعوا إلى مناصبٍ مرموقةٍ بالطُّرُقِ الحميدةِ ، فتمرّدوا وسلكوا سبيلَ الصَّعلَكةِ وقطعوا الطُّريقَ ، وخالفوا العُرفَ والقانونَ ، وأظهروا البأسَ والقوّةَ ، بيد أن هذه الفرقةَ من الرّجالِ لم تفقدهم الصَّعلَكةُ مزاياهم الأصيلةَ ، ولم تقضِ اللّصوصيّةُ على نوازعِ الخيرِ عندهم ، خصوصاً إذا جاءهم الظُّرفُ المُناسبُ ، عندها نجدُ معظمهم قد استقامت سيرتهُ ، كما سنقرأ في سيرةِ جحدرِ الذي هزّتهُ الظُّروفُ الصّالحةُ فلانَ واستقامَ ، وخرجَ بعد محنتِهِ

إنساناً مُسْتَصْلِحاً مأموناً يَعْمَلُ في خدمةِ الخلافةِ الأمويةِ بَعْدَ أَنْ خَافَتْهُ الْبِلَادُ
والتَّجَارُ .

* ولا بأس أن نشيرَ إلى بعضِ مشاهيرِ اللصوصِ والصَّعاليكِ المحترفينِ
في عَصْرِ جَحْدَرِ الْعُكْلِيِّ ، حتَّى تتوضَّحَ الصُّورَةُ أَكْثَرُ ، وحتَّى تعمَ الفائدةُ
بِإِذْنِ اللَّهِ ، وحتَّى نعرفَ بعضَ صُورِ حَيَاةِ هَؤُلَاءِ النَّاسِ فيما خَلا مِنْ الزَّمانِ ،
فإنَّ المعرفةَ تزيْدُ المرءَ أدباً وعِلْماً .

* فقد ظهرتْ طائفةٌ مِنَ الصَّعاليكِ اللصوصِ في عَصْرِ بني أميةَ ، وكان
فريقٌ منهم يُؤْثرونَ الموتَ على مذلةِ الْفَقْرِ ، ومنهم صعلوكٌ خطيرٌ يُدعى
«أبو النَّشْنَش» ، وكانَ أبو النَّشْنَشِ هذا لصاً من لُصوصِ بني تميمَ ،
يعترضُ القوافِلَ في شُذَازٍ مِنْ أمثاله بين طريقِ الحجازِ والشَّامِ فيجتاحُها ،
فظفَرَ به بعضُ عَمالِ مروانَ ، فحبَسَه وقَيَّدَه مدَّةً فقال :

وَسَائِلَةُ أَيْنَ ارْتَحَالِي وَسَائِلُ وَمَنْ يَسْأَلِ الصُّعْلُوكَ أَيْنَ مَذاهِبُهُ
مَذاهِبُهُ أَنَّ الْفِجَاجَ عَرِيضَةٌ إِذَا ضَنَّ عَنْهُ بِالنَّوَالِ أَقَارِبُهُ
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَسْرُخْ سَواماً وَلَمْ يَرْخ سَواماً وَلَمْ يَبْسُطْ لَهُ الْوَجْهَ صَاحِبُهُ
فَلَلَمَوْتَ خَيْرٌ لِلْفَتَى مِنْ قَعُودِهِ عَدِيماً وَمَنْ مَوْلَى تُعَافِ مِشَارِبُهُ

* ولكن ثَمَّةُ فَتَةٍ غَلَبَ عَلَيْهَا الشَّرُّ وَالْإِيذَاءُ ، وَذَهَبَتْ فِي طَرِيقِ التَّصَعُّلِ
وَاللُّصُوصِيَةِ مِنْ غَيْرِ ارْعَواءٍ أَوْ شَعُورٍ بِالْإِثْمِ ، حتَّى غدا ذلكَ عندهم جَبَلَةً
وَهَوًى ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُحترفينِ رَجُلٌ يُدعى «تَلِيدُ الضَّبِّي» ، فَقَدْ دَخَلَ
السَّجْنَ فِي أَيَّامِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ، وَبُسِّلَ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ،
وَلَا يُزْفَعُ عَنْهُ حتَّى يَجْهَرَ بِالتَّوْبَةِ ، وَهُوَ مُشْغُولُ النَّفْسِ بِغَيْرِ هَذَا الْمَطْلَبِ ،
حَيْثُ كَانَ يَحْلُمُ أَنْ يُطْلَقَ سَراحُهُ ، وَيَقُودَ عَصَابَتَهُ ، فَيَغِيرَ عَلَى أَصْحَابِ
الْإِبْلِ وَالنَّعَمِ يَسْرِقُ وَيَسْتَأْثِرُ مِنْهَا مَا اسْتَطَاعَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلاً ، وَقَدْ عَبَّرَ تَلِيدُ
الضَّبِّي هَذَا عَنْ نَوَازِعِهِ فِي أَبْيَاتٍ قَالَ فِيهَا :

يَقُولُونَ جَاهَرْنَا تَلِيدُ بِتَوْبَةٍ وَفِي النَّفْسِ مَنِّي عَوْدَةٌ سَاعُودَهَا
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقُودَنَّ عُصْبَةً قَلِيلٌ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ سُجُودَهَا
وَهَلْ أَطْرُدَنَّ الدَّهْرَ مَا عَشْتُ هَجْمَةً مَعْرُضَةً الْأَفْحَاذِ سَبْحاً خَدُودَهَا
قَضَاعِيَّةٌ حَمَّ الدُّرَى فَتَرْبَعْتُ حَمَى جَرَشٍ قَدْ طَارَ عَنْهَا لِبُودَهَا^(١)

* وهناك متصعلكون كانوا مستعدين للجريمة نتيجة الفقر ، فاحتضنوا
الآثام ، وكرهوا الناس ، ومالوا إلى التفرد والتوحش خوفاً ونفوراً منهم ،
ولذلك كان موقفهم ممن يلقون خالياً من الرحمة ، يأمر فيه الحق ويُنهي ،
ومن مشاهير هؤلاء : المُرَّارُ الفَقْعَسِيُّ ، والسَّمْهَرِيُّ الأَسَدِيُّ ، وتليدُ
الضَّبِّي ، وعطارْدُ بنِ قران ، والأُصَيْمِرُ السَّعْدِيُّ ، واشتهر كذلك طهمان
الدَّارِمِيُّ الذي كان لصاً مشهوراً في خلافة سيّدنا معاوية بن أبي سفيان
- رضي الله عنهما - وسُجِنَ في نجران ، وأسرهُ الخَوَارِجُ وقطعوا يده ؛ ومن
شِعْرِهِ - وهو في سجنِ نجران ما تذكّره مع تأبّده مع زميلٍ له لصٍّ من بني
عَبَسٍ - قوله :

وَإِنِّي وَالْعَبْسِيُّ فِي أَرْضٍ مَذْجَحٍ غَرِيبَانِ شَتَّى الدَّارِ مُخْتَلِفَانِ
غَرِيبَانِ مَجْفُوعَانِ أَكْثَرُ هَمِّنَا وَجِيفُ مَطَايِنَا بِكُلِّ مَكَانِ
فَمَنْ يَرِ مَمْسَانَا وَمَلَقَى رَكَابَنَا مِنَ النَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّ سَبْعَانَ

* وممن اشتهر في هذا المِضْمَارِ أيضاً ، واشتهر له بيت في الوَحْشَةِ مِنَ
النَّاسِ : الأُصَيْمِرُ السَّعْدِيُّ ، حيثُ كان لصّاً متفرداً مُطَارِداً فِي صَدْرِ الدَّوْلَةِ
الْعَبَّاسِيَّةِ ، يقول الأُصَيْمِرُ :

عَوَى الذُّبُّ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذُّبِّ إِذْ عَوَى وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكَذْتُ أَطِيرُ
رَأَى اللَّهُ أَنِّي لِلْأَنْبَسِ لَشَانِيٌّ وَتَبَغْضَهُمْ لِي مَقْلَةٌ وَضَمِيرُ

(١) انظر : معجم البلدان : جرّش .

* ومن قَبْلِ الأَصِيْمِرِ بَزْمٍ نَلْمُسُ هَذِهِ الْمَشَاعِرَ نَفْسَهَا عِنْدَ صُعْلُوكِ لَصٍّ يُدْعَى «عَبِيدُ بْنُ أَيُّوبَ الْعَنْبَرِيِّ» وَكَانَ مِنَ اللَّصُوصِ زَمَنَ بَنِي أُمَيَّةَ ، يَقُولُ عَبِيدُ :

لَقَدْ خَفْتُ حَتَّى لَوْ تَمَرُّ حَمَامَةٌ لَقُلْتُ عَدُوًّا أَوْ طَلِيعَةً مَعْشَرٍ
فَأَصْبَحْتُ كَالْوَحْشِيِّ يَتَّبِعُ مَا خَلَا وَيَتْرُكُ مَأْنُوسَ الْبِلَادِ الْمُدَعَّشِرِ
إِذَا قِيلَ خَيْرٌ قُلْتُ هَذَا خَدِيعَةٌ وَإِنْ قِيلَ شَرٌّ قُلْتُ حَقٌّ فَشَمَّرِ

* هَذَا وَأَخْبَارُ هَؤُلَاءِ كَثِيرَةٌ تَكْفَلْتُ كُتُبُ الْأَدَبِ بِذِكْرِهَا ، وَاکْتَفَيْنَا بِهَذَا الْقَدْرِ ، كَيْمَا نَعُودَ إِلَى سِيرَةِ جَحْدَرِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْعُكْلِيِّ الَّذِي بَدَأْنَا مَعَهُ رَحَلَتَنَا فِي رَحَابِ فَرَسَانِ التَّارِيخِ .

الْفَارِسُ الْفَاتِكُ :

* فِي سِيرَةِ جَحْدَرِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ لِفَرَسَانِ الصَّعَالِيكِ فِي الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ ، فَقَدْ كَانَ مِنْ قُطَاعِ الطُّرُقِ ، وَكَانَتِ الْيَمَامَةُ وَمَا حَوْلَهَا مَسْرَحًا لِسَرَقاتِهِ وَصُعْلُكَتِهِ ، وَكَانَ يُؤْمِنُ أَنَّ الْقُوَّةَ وَالسَّطُوَ خَيْرٌ سَبِيلٍ لِتَأْمِينِ الْمَعَاشِ ، وَأَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ فُرُوسِيَّةٍ أَوْ حَرْبٍ نَوْعٌ مِنَ الْعَجْزِ ، وَلِذَلِكَ زَعَمَ جَحْدَرُ أَنَّهُ كَانَ لَا يَسْرِقُ إِلَّا عِنْدَ الْحَاجَةِ الْمَاسَّةِ ، فَإِذَا بَلِيتَ ثِيَابُهُ ، سَرَقَ نَاقَةً لِيَبْتَاعَ ثَمَنَهَا كِسُوءَةً ، ثُمَّ يَعُودُ فَقِيرًا ، وَكَانَ يَرَى أَنَّ هَذَا شَرِيعَةَ الْحَيَاةِ ، يَقُولُ جَحْدَرُ فِي هَذَا :

وَإِنَّ أَمْرًا يَعْدُو وَحَجَرٌ وَرَاءَهُ وَجُوًّا وَلَا يَعِزُّوهُمَا لَضَعِيفُ
إِذَا حَلَّةٌ أَبْلَيْتُهَا ابْتَعْتُ حَلَّةً بِسَانِيَةٍ طَوْعُ الْقِيَادِ عَلِيفُ
سَعَى الْعَبْدُ أَثَرَى سَاعَةً ثُمَّ رَدَّهُ تَذَكَّرْتُ نَوْرَ لَهُ وَرَغِيفُ^(١)

* وَكَانَتْ بَطُولَةُ جَحْدَرِ وَفُرُوسِيَّتُهُ مَثَارَ إِعْجَابِ الصَّعَالِيكِ فِي الْيَمَامَةِ

(١) معجم البلدان : جو .

وما حولها ، فالتفتوا حوله ، وجعلوه زعيماً لهم يخطط لهم السرقات ، ومن ثمَّ يتقدّمهم في تنفيذها ، وكان على ما يبدو محبباً إليهم مُطاعاً فيهم ، فكان لهم مكانة كبيرة في نفسه ، حتى إنّه ذكرهم في أحلك لحظات حياته وهو في سجن الحجاج .

* وتدلُّ أخبار جحدر أنّه لما وقع في سجن الحجاج وقبضته ، أحسَّ بالذنب ، وعادَ إلى سجيّة المسلم ، وتخلّى عن الصّعلة وطرقها .

* إنّ الشعور بالذنب إحساسٌ روحيّ دينيّ ، كان نتيجة لمخالطة الدّين الإسلاميّ نفوس بعض المارقين على الدّولة الأمويّة في عصر جحدر ، فقد تذوّقوا لذّة الإيمان بالله ، وتأثّروا بالتّشريع الإسلاميّ وحكمه وحكمته ، فعادوا إلى جادة الصّواب لما زهق الباطل الذي كانوا يسلكون دَرَبه ، وهذا ما حدث للفارس الفاتك جحدر الذي آب وتاب لما وقع في طائلة الحجاج بن يوسف الثّقفيّ وأودعه السّجن . ومن بين جدران سجن الحجاج تفجّرت ينباع المودّة والشّاعريّة اللطيفة الهامسة من نفس هذا الفاتك الجريء الذي ملأ الدّنيا وشغل النّاس بأفعاله .

* ونحن مرسلو القول في ذلك ، لنعلم أيّ نفس كان يحملها جحدر بن مالك بطل اليمامة وفارس نواصيها .

* تروي المصادر المتنوّعة التي رسمت قصّة جحدر ، وأبانت شجاعته فقالت :

* كان بأرض اليمامة رجلٌ من بني حنيفة يُقال له : جحدر بن معاوية - أو ابن مالك - العكليّ ، وكان جحدر بطلاً شجاعاً فاتكاً شاعراً ، وكان شديد البأس والمراس ، قويّ الشّكيمة ، طار صيته في البلاد حتى عمّ

اليمامة وما حولها من البلاد ، وكان قد غلبَ على أهل حجر^(١) وناحيتها وما يليها ، فقهرهم وأخافهم حتى استولى على قلوبهم .

* وبلغَ ذلك من أمره أن عاثَ في أرضِ اليمامةِ فساداً ، ورتَعَ دونَ أن يخشى شوكَةَ الوالي أو السُلطان .

* ونُمِيتَ أخبارُ جَحْدَرٍ وقَصَصُ بطشهٍ إلى الحجاج ، فكتبَ إلى إبراهيمَ بنِ العربي^(٢) عامِله على اليمامةِ يؤثِّبه ويلومُه ويوبِّخُه على تلاعبِ جَحْدَرٍ به ، وبأهلِ اليمامةِ ومنَ حولها ، وبتغلُّبه عليهم ؛ ثمَّ إنَّ الحجاجَ أمره أن يعدَّ العدةَ وأن يتجرَّدَ في طلبِ جَحْدَرٍ ، ويجهتدَ في إنهاءِ أمره بأي وسيلةٍ يقدرُ عليها ، وأن يبعثَ به أسيراً إن ظفرَ به ، أو قدَّرَ عليه .

(١) «حجر» : عاصمة اليمامة وأم قراها ، وبها ينزل الوالي . (معجم البلدان : حجر) .

(٢) إبراهيمُ بنُ العربي كِنَانِيٌّ ، وأُمُّهُ أنصاريَّة فاطمةُ بنتُ شريك ، ربَّتْ مروانَ بنَ الحكم ، وأنقذت حياته يومَ الدَّار ، يومَ مقتلِ عثمانَ بنِ عفان رضي الله عنه ، وكان ابنُها إبراهيمُ مع آلِ مروان ، واشترك في حروبهم ، وكان بصيراً بالإدارة ، ذا درايةٍ بالطُّرقِ والتَّواحي ، وأنقذَ حياةَ الوليدِ بنِ عبد الملك في عهدِ أبيه يومَ كادَ أنصارُ عمرو بن سعيد الأشدق يقضونَ عليه ، ولما استتبَّ الأمرُ لعبدِ الملك ولأه اليمامة . وقبضَ إبراهيمُ على جَحْدَرٍ ، فمدَّحَه فلم يخلُ سبيلَه وأرسلَه إلى الحجاج . وكان إبراهيمُ والياً شديداً الضَّبْطَ لولايته اليمامة ، وهي مخوفةٌ بعيدةٌ عن عاصمةِ الخلافةِ ، فكافَحَ فيها للصَّوص ، ونشرَ الأمنَ ، وأقرَّ الأمنَ حتى خشِيَه العُصاة ، وكان أميراً عليها مدَّةَ عبدِ الملك وابنه الوليد ، فلما استخلفَ سُليمان بن عبد الملك وثبَّ عليه أعداؤه وأنقلوه بالحديد ، وسبَّروه إلى سجنِ المدينة ، وكان آسروه هم خصومه الشَّاغِبون عليه ، وليس للخليفةِ أَرْبُ من سجنِه ، فتمنَّى لو توارى عن الأنظار في الأرض وهو الخبيرُ بدروبِها ومجاهلُها ، ولم يستسلم لأعدائه ، وفي ذلك يقولُ من أبيات :

لعمركَ إنِّي يومَ سلَّعَ للائم
أأمكنتُ من نفسي عدوي ضلَّةً
لنَفْسي ولكن ما يُردُّ التَّلَوُّمُ
ألَهفي على ما فات لو كنتُ أعلمُ
لعمري لقد كانت فجاجُ عريضة
وليلُ سخامي الجناحين أدهمُ
(معجم البلدان : سلع)

* ولما أن أتى العامل إبراهيم بن العربي كتاب الحجاج وقرأه وفهم مقصده، راح يفكر في وسيلة يستطيع من خلالها أن ينهي أمر جحدر العكلي، هنالك لمعت في خاطره فكرة هدته إلى طريق قصير ميسر، ربما يقدر من خلاله على الإيقاع بجحدر في شباكه التي رسمها له ونصبها كيما يقع في شركها ويكون داخلها، ويأمن هو غضب الحجاج، إذ كان تابعاً لإشرافه.

* وفي ليلة طاب هواؤها، وتألق نجمها، أرسل إبراهيم بن العربي إلى فتية يثق بهم من بني حنظلة، وقص عليهم القصص الذي شغل باله، وألهب جوفه، وأرقه وجعله كاسف البال، ثم أوعز إليهم أن يجرّدوا أنفسهم لخدمة الناس والتجار والقوافل، وذلك بالإيقاع بجحدر، ومن ثم وقف اعتدائه على المازة، وعدوانه على أهل حجر. فقال الفتية: وما عسانا أن نصنع أيها الأمير؟ قال: انطلقوا إلى ناحية جحدر، ثم ابعثوا إليه أحدكم وأعلموه أنكم تريدون الانضمام إليه، وشق عصا الطاعة وإرهاب الناس.

* ثم إن إبراهيم بن العربي جعل لهم جُعلاً عظيماً إن هم قتلوا جحدرًا، أو إن أتوا به أسيراً مكبلاً بالسلاسل، ومقروناً بالحيال، كما أنه وعدهم أن يوفدهم إلى الحجاج بن يوسف إن هم ظفروا بجحدر وأتوا به مكبلاً.

* وانطلق الفتية من حجر، حتى إذا كانوا قريباً من جحدر، أرسلوا إليه أنهم يريدون صحبتته، والكينونة معه، والانقطاع إليه، والتحرّز به، والارتفاق معه، فقد ملّوا حياة المدن والحضارة المجلوبة، وطاعة الولاة، ورغبوا في حياة الحرية بين الوديان والتلال والجبال.

* وانطلبت الحيلة على جحدر، وانخدع وسكن إلى قلوبهم التي أظهرت له الودّ والحب، وركن إلى قولهم المعسول، فاطمأن إليهم، ووثق بهم، وظنّ كل الظنّ أنهم مخلصون له، أوفياء في خدمته.

* وظلُّوا على حالهم هذه مدَّة من الزَّمان لا يرتابُ منهم ، ولا يشعرُ بما تكنه له نفوسُهم من الإيقاع به ، حتى كان ذات يومٍ من الأيام ، رأوا منه ثقةً زائدةً بهم ، وأصابوا منه غرَّةً ، فانقضوا عليه انقضاض الأسد على فريسته ، ومن ثمَّ شدُّوه كتافاً ، وأوثقوه في السَّلاسل ، ولما علمَ بغدرهم ، وعرفَ خطَّتَهم وما يرمونَ إليه ، لم يلتفت إليهم ولا توسَّل لأحدٍ منهم ، بل ثَبَّت كالجبلِ الأشم.

* وقدمَ الفتيةُ بجَحْدَرٍ على عاملِ اليمامةِ ، وهم فرحونَ مستبشرون بما حقَّقوه من نجاحٍ ومن مكافأةٍ ومالٍ ، فلما وصلُوا ، أعطاهم ما وعدهم به ، ووجَّهَ حَجْدراً معهم إلى الحجاجِ بنِ يوسفَ الذي بهرته أخبارُ جَحْدَرٍ.

* وسارَ الفتيةُ نحوَ العراقِ ومعهم جحدُرُ بنُ معاوية وهو مشدودٌ عليه وثاقه ، فلما جازوا به حَجراً ، أنشأ يقولُ ويتغنى بهذه النونية التي تسيلُ رقةً وعذوبةً :

| | |
|---|---|
| أَلَا قَدْ هَاجَنِي فَازْدَدْتُ شَوْقاً | بكاءَ حَمَامَتَيْنِ تَجَاوَيَانِ |
| تَجَاوَبَتَا بِلَحْنٍ أَعْجَمِيٍّ | على غصنَيْنِ مِنْ غَرْبٍ وَبَانِ |
| فَقُلْتُ لِصَاحِبِي وَكُنْتُ أَخْدُو | بِبَعْضِ الْقَوْلِ مَاذَا تَحْدُوَانِ |
| فَقَالَا الدَّارُ جَامِعَةٌ قَرِيباً | فَقُلْتُ بَلْ أَتُّمَّا مَتَمِّيَانِ |
| فَكَانَ الْبَانُ أَنْ بَانَ سُلَيْمِي | وفي الغَرْبِ اغْتَرَابٌ غَيْرُ دَانِي |
| إِذَا جَاوَزْتُمَا نَخْلَاتِ حَجْرٍ | وأوديةَ اليمامةِ فأنْغِيَانِي |
| وَقُولَا جَحْدَرُ أَمْسِ هِيناً | يعالِجُ وَقَعَ مَضْقُولِ يَمَانِي |
| كَذَا الْمَغْرُورُ فِي الدُّنْيَا سَيَرْدِي | وتهلكهُ المطامعُ والأَمَانِي ^(١) |

(١) الأخبار الموفقيات (ص ١٧٠ - ١٧٢) ، وشرح شواهد المغني (١/ ٤٠٧ - ٤٠٩) مع الجمع والتصرف. وانظر: خزانة الأدب (١١/ ٢١٨ و ٢١٩) ، وغير ذلك من مصادر.

* وظلَّ جَحْدَرُ يترنُّمُ بالأشعارِ ، وبمثلِ هذه الرِّقائِقِ والهمساتِ حتَّى
قدَّم بهِ الفتيةُ على الحجاجِ بنِ يوسفَ ، وهناكَ ظهرتْ فروسيَّةُ جحدرٍ التي
أدهشتِ الحجاجَ ومَنْ حوله ، ترى كيفَ كانَ ذلكَ؟!

جَحْدَرُ وَالْحَجَّاجُ:

* قلنا: إِنَّ أخبارَ جَحْدَرٍ قدَّ أدهشتِ الحجاجَ وبهرتهُ ، حتَّى غدا اسمُ
جَحْدَرٍ يرنُّ في سَمْعِ الحجاجِ صباحَ مساءً ، لأنَّ جَحْدراً قد رَوَّعَ النَّاسَ
وخرقَ الأَمْنَ ، فجَدَّ الحجاجُ في طلبه وأرسلَ إلى عامله على حَجَرِ فقبضَ
عليه بالحيلةِ ، فلبثَ في سجنِ دَوَّارٍ^(١) حَقْبَةً ، وكان دخوله السَّجْنَ أوَّلَ
الصَّدْمَةِ ، إذ وجَدَ نفسَه في وَسْطٍ يزخرُ بالأشْرارِ ، وكان عندَ نفسِه كَريماً
كبيراً على ما كانَ يحترِفُ مِنَ اللصوصيةِ ، وذا قضيةٍ ، جديراً بالإكْبارِ ،
فكأنَّ غاراتِه وسرقاتِه كانتْ عنده نوعاً مِنَ الثَّورَةِ على الظُّلمِ والفقرِ
والاستثْثارِ ، وتعبيراً عن سَخَطِ السَّاخِطينِ يقودُهُم للحصولِ على أرْزاقِهِم
وحقوقِهِم بالقوَّةِ .

* لهذا كلِّه صَعُبَ عليه أنْ يُلقَى مع ثَلَّةٍ مِنَ الأَشْرارِ ، وقد عبَّرَ عن هذا
بقوله في سجنه بالبيضاء فقال :

أَقولُ لِلصَّحْبِ في البِيضاءِ دونكمُ محلَّةٌ سوَّدَتْ بيضاءَ أَقْطاري
مأوى الفتوةِ للأندالِ مذْ خُلِقَتْ عندَ الكرامِ محلَّ الدُّلِّ والعارِ^(٢)

(١) «دوار»: اسم سجن؛ ذاق الضيق فيه عددٌ من الشُّعراء الذين انتهجوا الصَّلَكةَ
معاشاً ، وخرجوا على المتَّبِعِ مِنَ العُرفِ والنَّظامِ ، فكانَ هذا الحبسُ يجمعُهُم من
أطرافٍ وقبائلٍ شتَّى على غيرِ ميعادٍ ؛ قال جحدر :

كانتْ منازلُنا التي كُنَّا بها شتَّى وألَّفَ بيننا دَوَّارُ
(معجم البلدان : ٤٧٨/٢)

(٢) معجم البلدان : البيضاء .

* ونجده يأسى لحاله ، ولنفسه الكبيرة فيقول من نونيته :

ستبكي كل غانية عليه وكل مخضب رخص البنان
وكل فتى له أدب وحلم معدي كريمة غير وان^(١)

* ولذا فإن جحدرأ تصعلك وسخط على من يستولي على أرزاق
الناس ، وعندما قبض عليه شعر بأنه قد سجن مظلوماً ، وكان جحدر - على
ما يبدو - رجلاً حراً ثقل عليه السجن وأشقاه خسران الحرية ، ومن هنا كان
عذابه النفسي الذي أسهم إنهماً عظيماً في عودته إلى نقائه^(٢) ، واستيقن
أن لا سبيل إلى الحرية والأمن إلا بالمتاب والاستقامة ، فلاذ بأمير اليمامة
يمدحه مخلصاً ، ويستجير به من السجن والعذاب ، ويبدو أن لم يكن
مدحاً عابراً بل نية صادقة بتحول نفسي سلوكي ، فلاذ جحدر بخالقه يسأله
العفو والتوبة والعصمة من الزلل بلسان صدق ، ونية صادق نادم راغب في
البراءة ، فيقول في هذه الرائية البديعة :

يا نفس لا تجزعي إني إلى أمد وكل نفس إلى يوم ومقدار
لله أنت فإن يعصمك فاعتصمي وإن كذبت فحسبي الله من جار
ادعيه سرّاً وناديه علانية والله يعلم إعلاني وإسراري
وما السعادة في الدنيا لذي أمل إن السعيد الذي ينجو من النار

(١) معجم البلدان : حجر .

(٢) كثيراً ما تكون الأزمات سبباً للتخفف من الأوزار وتناسي سلوكية غريبة عن النفس
ألزمتها بها أحوال خاصة ، فإذا حلت الأزمة أتيح للمنحرف أن يتعرف على نفسه من
جديد ، وكذلك كان الحبس لجحدر أزمة خانقة ، غير أن ما لقي فيها من الضيق
والخوف أعاد إلى نفسه صفاءها حتى خرج منها إنساناً قادراً على الاستقامة ، وقد
عبّر مرة بأنه لو كان هناك عدل ما مكث في سجن دوار :

لو يتبع العدل فيما قد منيت به أو يتبع الحق ما عمّرت دوارا

* وبذلك نجدُ أنَّ جحدراً في هذه الهمسات قد حظيَ بحظٍّ معيّنٍ من طهرِ النَّفسِ ونقاءِ السَّريرة ، ولكن هل نفعَتْ هذه الهمساتُ جحدراً؟! وهل علمَ الحجاجُ حقيقة أمرِهِ وخبيئةِ نفسِهِ؟!

* ففي ساحةِ قَصْرِ الحجاجِ وقفَ جحدراً شامخَ الرَّأسِ أمامَ الحجاجِ ورهطِهِ ، غيرِ آبهٍ بِمَنْ حوله ، تظهرُ على محيَّاه علائمُ الشَّجاعةِ والشَّهامةِ .

* وبدأ الحجاجُ التَّحقيقَ معه ، فقالَ له : مَنْ أَنْتَ؟ قال جحدراً بثباتٍ وعزمٍ وهدوءٍ : أنا جحدراً بنُ مالك .

قال : أَنْتَ جَحْدَرُ؟

قال : نعم - أصلحَ اللهُ الأمير - أنا جحدراً .

فقال الحجاجُ : فما الذي حَمَلَكَ على ما كانَ منك ، وما صنَعْتَ في اليمامةِ وفي حَجْرٍ؟!

قال جحدراً بفصاحةٍ بَيانٍ وثباتٍ جنانٍ : جراءةُ الجنانِ ، وجفاءُ السُّلطانِ ، وكَلْبُ الزَّمانِ ، وقَلَّةُ الإِخوانِ ، وغَدْرُ الأَعوانِ!!

* وتعجَّبُ الحجاجُ مِنْ ثباتِ عقلِهِ ورجاحَتِهِ وَمِنْ منطقِهِ وشجاعَتِهِ ، فقال له : ويحك يا جحدراً ، وما الذي بلغَ من أَمْرِكَ فيجترىءُ جنانَكَ ، ويجفوكَ سُلطانَكَ ، ويكلِّبُ زمانَكَ ، ويقلِّ إخوانَكَ وأَعوانَكَ؟!

قال جحدراً وعلاماتُ الشَّجاعةِ تشهدُ له : لو بلاني الأميرُ - أكرمهُ اللهُ ورعاه - لوجدني مِنْ صالِحِي الأَعوانِ ، وبُهِمِ الفُرسانِ ، ولألفاني مِنْ أنصحِ رعيته له . وأمَّا جراءةُ جناني فَأَني ما لقيتُ فارساً قطَّ مِنَ الفُرسانِ إلا كُنْتُ عليه في نفسِي مُقتَدِراً ، ولأمرِهِ مُهْمِلاً ، ولفُروسيته مُحتقِراً .

قال الحجاجُ: يا جحدرُ ، إِنَّا قاذفونَ بك في حَيْرٍ^(١) فيه أسدٌ عاقرٌ ضارٌّ ، فإنْ هو قَتَلَكَ كفانا مؤونتك ، ولم نظلمكَ بما اقترفتْ يداكَ ، وإنْ أَنْتَ قَتَلْتَهُ خَلِينَا سبيلَكَ ، وأَحْسَنَّا جائزتك ، وأَكْرَمْنَا مثواكَ ورفعناكَ وجعلناكَ مِنَ المقرَّبِينَ .

قال جحدرُ: نعم - أصلحَ اللهُ الأمير - قَرَّبْتَ المحنةَ ، وأعظمتَ المنَّةَ ، فافعلْ ذلك إذا شئتَ ، فأنا جحدرُ بنُ مالكِ العكليِّ . . .

قال الحجاجُ: يا جحدرُ ، إِنَّا لسنا بتاركيكَ تقاتله إلا وأنتَ مكبَّلُ بالحديدِ .

قال جحدرُ: رضيتُ بهذا أيُّها الأميرُ ، واللهُ المُستعان . . وقد قَرَّبَ الفرجُ إنْ شاء اللهُ .

* وأمرَ الحجاجُ بجحدرٍ ، فَعُلَّتْ يمينُهُ إلى عنقه ، وصُفِّدَ بالحديدِ ، وأرسلَ به إلى الحبسِ ، كيما ينظرَ فيما قالَ له واشترطَ عليه . فقال جحدرُ لبعضِ مَنْ يخرجُ إلى اليمنِ: تحملُ عني شعراً؟
قال: نعم .

فأنشأ جحدرُ يقولُ هذه القصيدة التي تُعدُّ من غُررِ القصائدِ:

| | |
|--|----------------------------|
| تأوَّبني فَبْتُ لها كَنِيْعاً ^(٢) | همومٌ لا تفارقُني حَواني |
| هي العُودُ لا عوداً قومي | أطلنَ عيادتي في ذا المكانِ |
| إذا ما قُلْتُ قد أَجَلَيْنَ عني | نَئى رِيعانهنَّ عليَّ ثاني |

(١) «الحير»: شبه الحظير ، أو الحمى .

(٢) «تأوَّبني»: أتاني ليلاً . «كنيعاً»: من كنع الرجل ، إذا خضع ولان . و«حوان»: من الحين وهو الهلاك . و«النفهة»: من نفهت نفسه: أعيت وكلت . و«آن»: انتهى حرّه .

فَإِنَّ مَقَرَّ مَنْزِلِهِنَّ قَلْبِي فَقَدْ أَنْفَهَنَهُ فَالْقَلْبُ آنِ
 أَلَيْسَ اللَّهُ يُعْلَمُ أَنَّ قَلْبِي يَحْبُكُ أَتَيْهَا الْبَرْقُ الْيَمَانِي
 وَأَهْوَى أَنْ أَعِيدَ إِلَيْكَ طَرْفِي عَلَى عَدَوَاءٍ مِنْ شُغْلٍ وَشَانِ
 * ومنها يتحدث عن زوجه في شوقٍ لها وهو في حبسه ، فيقول في
 هداة الليل :

أَلَيْسَ اللَّهُ يَجْمَعُنَا أَمْ عَمْرٍو وَإِنَّا فِذَاكَ لَنَا تَدَانِي
 بَلَى وَتَرَى الْهَلَالَ كَمَا أَرَاهُ وَيَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلَانِي
 فَمَا بَيْنَ التَّفَرُّقِ غَيْرُ سَبْعٍ بَقِيْنَ مِنَ الْمَحْرَمِ أَوْ ثَمَانِ
 * ومنها يذكر أصحابه :

فَيَا أَخُوِيَّ مِنْ جُشْمِ بْنِ سَعْدٍ أَقِلَّا اللَّوْمَ إِنْ لَمْ تَنْفَعَانِي
 وَقُولَا جَحْدِرُ أَمْسَى رَهِينَا يَحَاذِرُ وَقَعَ مَضْقُولِ يَمَانِي
 يُحَاذِرُ صَوْلَةَ الْحَجَّاجِ ظُلْمًا وَمَا الْحَجَّاجُ ظَلَامًا لَجَانِي
 * ثُمَّ يُلْحِصُ شَجَاعَتَهُ وَمَا يؤولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُ فيقول :

أَلَمْ تَرْنِي عَدَيْتُ أَخَا حُرُوبٍ إِذَا لَمْ أَجْنِ كُنْتُ مِجَنَّ جَانِ
 فَإِنْ أَهْلِكَ فَرَبِّ فَتَى سِيكِي عَلَيَّ مَهْذَبِ رُخْصِ الْبَنَانِ
 وَلَمْ أَكُ مَا قَضَيْتُ دِيونَ نَفْسِي وَلَا حَقَّ الْمَهْنَدِ وَالسَّنَانِ^(١)

* ونلاحظ في نونية جحدِر هذه ألواناً من الوجدانيات ، حيث تبدأ
 قصيدته بنغماتٍ حزينة ، إذ استحضر همومه وآلامه وجسدها وأضفى روحه
 عليها ، ثُمَّ أَخَذَ يَتَوَجَّهَ بِهَمْسَاتِهِ إِلَى الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ إِلَى الطَّبِيعَةِ الْجَمِيلَةِ بِمَا
 فِيهَا مِنْ بَرَقٍ وَنِيرَانٍ ، ثُمَّ إِلَى الْأَهْلِ ، فيستدني زوجه أَمَّ عمرو منه لأنهما

(١) انظر: ألف باء للبلوي (٢/٥٠١) ، وشرح شواهد المغني (١/٤٠٧ - ٤٠٩) وخزانة
 الأدب (١١/٢١٨ و ٢١٩) باختصار وتصرف .

على البعدِ يطلعُ عليهما قمرٌ واحدٌ ونهارٌ واحدٌ ، ويرسلُ مع الرّكبانِ تحيةً عطرةً مندّاةً بحرارةِ الوجدانِ ، فهم الذين ينتظرون عودةَ الفارسِ الحبيسِ على خوفٍ منهم أن تبطشَ به يدُ الحجاجِ التي لا ترحمُ ؛ ثم إن جحدرأ يرتدُّ إلى ذاته ليحدّثَ النَّاسَ ويتحدّثَ عن نفسه التي خُلِقَتْ للبطولةِ ، وأدّت رسالةَ الفروسيّةِ الحقّةَ .

* ونلاحظُ في نونيّةِ جحدر هذه تلکم المشاعرَ الغنيّةَ العاليةَ الملوّنةَ بالهممِ والشّوقِ والخوفِ والكبرياءِ ، ففيها رقةُ الإنسانِ الحساسِ ، وخشونةُ البدويِّ الشرسِ معاً ، كما أن فيها حقيقةَ الشّاعرِ وسجاياه الطّيبةَ . لذلك يظهرُ لنا أن الحجاجَ ربّما سمعَ هذه الهمساتِ الحرّى من جحدر وهو في سجنه ، فاستشفّ في شعره سماحةً وخُلُقاً ورجولةً وشجاعةً وإباءً ورياسةً ، فتغيّرتْ نظرتهُ إليه ، والحجاجُ كما نعلمُ خيرٌ بالرّجالِ خبرةً الصّائغِ بالذهبِ ، يعرفُ حقيقةَ الرّجالِ من خلالِ عقله وذكائه وتجربته في العراقِ ، ومن خلالِ معاملته للأمرء والخلفاء والشّجعان والعُلماء والشّعراء وشتى أنواع النَّاسِ .

جَحْدَرُ يَقْتُلُ أَسَدًا ضَارِيًا :

* بعد أن ألقى الحجاجُ بنُ يوسفَ جحدرَ بنَ معاوية - أو مالك - العكليّ في سجنه^(١) مكبلاً مشدوداً عليه وثاقه ، ويده مغلولة إلى عنقه ،

(١) لعلُّه من المفيد هنا أن نشيرَ إلى فائدةٍ مهمّةٍ في هذا المجال ، وهي كثرةُ السّجونِ والحبوسِ في عصرِ الحجاجِ وبنو أميّة ، وذلك لما نجمَ في زمنهم من الخلافِ والأحزابِ ، ويشهدُ على صحّة قولنا عددُ المحبوسين الهائلُ في عهدِ بعضِ الولاةِ بحاجتهم إلى عددٍ من الحبوسِ ، حتى كان بعضها في أيّامِ الحجاجِ أشبهَ بالمعسكراتِ المكشوفةِ تضمُّ عشراتِ الآلافِ لحافهم العراء ، وقد بنى الحجاجُ عدداً منها ، وأطلقَ عليها أسماءَ مختلفةً ، فقد بنى سجناً سمّاه لعلعاً في مكانٍ بالعراقِ يطلق عليه هذا الاسمُ ، ومن سجونِ الحجاجِ أيضاً الدّيماس ، وقد ذكره =

كَتَبَ إِلَى عَامِلِهِ عَلَى كَسْكَرٍ^(١) يَأْمُرُهُ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِأَسَدٍ ضَارٍ وَرَدٍ ، إِذَا مَا زَارَ وَرَدَ زَيْرُهُ الْفَرَاتَ وَالنَّيْلَا ، فَامْتَثِلَ الْعَامِلُ الْأَمْرَ ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِأَسَدٍ شَرَسٍ قَدْ تَغَلَّبَ عَلَى أَهْلِ كَسْكَرٍ وَتِلْكَ النَّاحِيَةِ ، وَجَعَلَ الْأَسَدُ فِي صَنْدُوقٍ يَجْرُهُ ثُورَانِ ضَخْمَانِ عَلَى عَجَلٍ ، فَلَمَّا وَرَدَ الْأَسَدُ عَلَى الْحَجَّاجِ ، أَمَرَ بِهِ فَأُدْخِلَ فِي حَيْرٍ ، وَسُدَّ بَابُ الْحَيْرِ ، وَجُوعَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ كَوَامِلَ ، حَتَّى غَدَا زَيْرُهُ يُسْمِعَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ، وَقَدْ اسْتَكَلَبَ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ .

* ثُمَّ إِنَّ الْحَجَّاجَ أَرْسَلَ إِلَى جَحْدَرٍ ، فَاتَى بِهِ مِنَ السَّجَنِ ، وَيدِهِ الْيَمْنَى مَغْلُولَةٌ إِلَى عُنُقِهِ ، ثُمَّ أَمَكْنَ جَحْدَرٌ مِنْ سَيْفٍ قَاطِعٍ صَقِيلٍ ، وَجَلَسَ الْحَجَّاجُ وَالنَّاسُ فِي مَنْظَرَةٍ لَهُمْ يَشْهَدُونَ هَذَا اللَّقَاءَ النَّادِرَ فِي تَارِيخِ الْفُرُوسِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى الْأَسَدِ مَا هُوَ صَانِعٌ بِجَحْدَرٍ .

* وَلَمَّا نَظَرَ الْأَسَدُ إِلَى جَحْدَرٍ قَدْ أَقْبَلَ ، وَمَعَهُ السَّيْفُ ، وَهُوَ يَرْسِفُ فِي قِيودِهِ ، تَهَيَّأَ وَتَمَطَّى . . . فَلَمَّا شَاهَدَ جَحْدَرَ الْأَسَدَ عَلَى تِلْكَ الْهَيْئَةِ أَنْشَأَ يَقُولُ :

لَيْتُ وَلَيْتُ فِي مَجَالِ ضَنْكِ كَلَاهُمَا ذُو أَنْفٍ وَفَنْكِ

= جَحْدَرُ عِنْدَمَا نَجَا مِنْهُ فَقَالَ :

إِنَّ اللَّيَالِي نَجَتْ بِي فَهِيَ مُحْسَنَةٌ لَا شَكَّ فِيهِ مِنَ الدِّيمَاسِ وَالْأَسَدِ - وَيُظْهَرُ أَنَّ الْحَجَّاجَ قَدْ اسْتَصْلَحَ بَعْضَ الْأَمَكْنَةِ الْقَدِيمَةِ ، وَصَيَّرَهَا سُجُونًا ، وَزَحَمَ فِيهَا الْمَحْبُوسِينَ ، وَكَانَتْ بَعْضُ حُبُوسِهِ عِرَاءً مَكْشُوفَةً ، فَقَدْ ذَكَرَ يَاقُوتُ الْحَمُويُّ هَذَا فَقَالَ : قِيلَ : إِنَّهُ أَحْصَى فِي مَحْبَسِ الْحَجَّاجِ ثَلَاثَةً وَثَلَاثُونَ أَلْفَ إِنْسَانٍ لَمْ يُحْبَسُوا فِي دِمٍ وَلَا تَبَعَةٍ وَلَا دَيْنٍ ، وَأَحْصَى مَنْ قَتَلَهُ صَبْرًا فَبَلَّغُوا مِثَّةَ وَعِشْرِينَ أَلْفًا .

(معجم البلدان : واسط)

- وَقَالَ الْمَسْعُودِي : تَوَفَّى الْحَجَّاجُ وَفِي مَحْبَسِهِ خَمْسُونَ أَلْفَ رَجُلٍ وَثَلَاثُونَ أَلْفَ امْرَأَةٍ ، وَكَانَ حَبْسُهُ حَائِرًا لَا شَيْءَ فِيهِ يَكْتُبُهُمْ مِنْ حَرٍّ وَلَا بَرْدٍ وَيُسْقَوْنَ الْمَاءَ مَشُوبًا بِالرَّمَادِ . (التنبيه والإشراف ص ٧٥)

(١) «كسكر» : كورة واسعة ، قصبتها واسط بين الكوفة والبصرة .

وشدة في نفسه ومحك إن يكشف الله قناع الشك
من ظفري بحاجتي ودرك فذاك أحرى منزل بتزك^(١)

* ولما نظر الأسد إلى جحدر زار زارة شديدة ، وتمطى ، ونهض وزئيره قد ورد الفرات والنيل لقوته وشدته ، وزعق زعقة دوت منها الجبال ، وارتاع أهل أرض تلك الناحية من عظمة تلكم الزعقة المدوية ، وأقبل نحوه بحدري كأنه الطبيب الماهر الذي يجس عيلاً ، ولما صار من جحدر على قدر رمح ، وثب إليه وثبة شديدة ، فتلقاها جحدر بالسيف المصقول الذي ادخره لمثل هذه اللحظة الحاسمة ، فضربه ضربة على هامته ففلقها حتى خالط ذباب السيف لهواته ، فخر الأسد معفراً كأنه خيمة قد صرعتها الريح ، وسقط جحدر بن مالك على ظهره من شدة وثبة الأسد ، وموضع الكبول والحديد ، وتخضبت ثيابه من دم الأسد ، فصرخ الحجاج والناس أجمعون: الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، وهتف جميعهم: لا شئت يمينك أيها الفارس البطل الصنديد... بينما طارت نفوس الجنباء شعاعاً لمأروا هذه الفروسية النادرة.

* وأعجب الحجاج بن يوسف ذلك الفارس الأيد وقال له بلسان الحق والإعجاب: لله درك ما أنجبك!

(١) جاء الرجز في أشعار اللصوص (٩٦/٢) على النحو الآتي:
ليث وليث في مجال ضنك كلاهما ذو قوّة وسفك
وصولة وبطشة وفك إن يكشف الله قناع الشك
فأنت لي في قبضتي وملكلي
وجاء عند الجاحظ في المحاسن والأضداد (ص ١٠٦) شطراً زائداً هو:
* الذئب يعوي والغراب يبكي *

بينما أخذ جحدر العكلي يترنم ويقول واصفاً قتل الأسد المعفر بالصّارم

المصقول أمامه :

يا جُمْلُ إِنَّكَ لو رأيتِ بَسَّالتي في يوم هيج مُرْدَفٍ وعَجَّاج
وتقدّمي لِلْيَثِ أرسفُ نحوَه حتّى أكابرُهُ عَنِ الأَحْرَاجِ
جَهْمٌ كَأَنَّ جبينَه لما بدا طَبَقُ الرِّحَا متفجّرُ الأَثْبَاجِ
يرنو بناظرتين تحسبُ فيهما لَمَّا أَجَالَهُمَا شُعَاعُ سِرَاجِ
وكأنّما خيَطَت عليه عِباءٌ بَرَقَاءُ أو خَلَقَ مِنَ الدِّيَاجِ
قِرْنَانِ مُحتَضِرَانِ قد ربّتهما أُمُّ المنيّةِ غيَرَ ذَاتِ نِتَاجِ
وعلمتُ أنّي إنْ أبيتُ نِزالَه أنّي مِنَ الحَجَّاجِ لستُ بِنَاجِ
فمشيتُ أرسفُ في الحديدِ مكبلاً بِالموتِ نَفْسِي عند ذاكِ أَنَا جِي
ففلقْتُ هامته فخرّاً كأنّه أَطْمُ تَسَاقُطَ مَائِلِ الأَبْرَاجِ
ثم انثيتُ وفي ثيابي شاهِدٌ مِمَّا جَرى مِنْ شاحِبِ الأَوْدَاجِ
أيقنتُ أنّي ذو حفاظٍ ماجدٌ مِنْ سرٍّ أُمْلَاكِ ذَوِي أَتَوَاجِ
ممن يغارُ على النِّساءِ حفيظةً إذ لا يثقنَ بغيرِ الأزواجِ^(١)

* ثم إنَّ الحجاجَ أمرَ به ، فأخرجَ مِنَ الحَيْرِ ، وفكَّ عنه قيودَه ،
وأكرمه ، وأحسنَ جائزته ، وقالَ له : يا جحدرُ ، أنتَ فارسٌ بطلٌ تستحقُّ
التَّكريمَ والاحترامَ ، فإنْ أحببتَ المقامَ معنا فأقمْ ، وإنْ أحببتَ أنْ نأذنَ لك
بالانصرافِ إلى بلادِكَ كيما تلحقَ بأهلكَ وصحبكَ على أنْ تضمنَ لنا ألا

(١) «يا جُمْلُ» : جُمْلُ : اسم امرأة . و«البَسَّالة» : الشَّجاعة . و«أرسفُ» : أمشي بالقيد .
و«الجَهْمُ» : العبوس ، و«الأَثْبَاجُ» : ما بين الكاهلِ إلى الظَّهر . و«يرنو» : ينظر .
و«برقاء» : لماعة متلاثلة . «قِرْنَانِ» : مثني قرن ، وهو المساوي لصاحبه في الشَّجاعة
وغيرها . و«مُحتَضِرَانِ» : ميتان . و«أُمُّ المنيّة» : الحياة والأعوام . و«الأوداج» :
مفردُها ودُجٌ : عرقٌ في العنق . و«ذو حفاظ» : ذو الذَّبِّ عن المحارم والمنع لها .
و«أُمْلَاكُ» جمع ملوك . و«أتَوَاجُ» جمع تاج .

تحدثَ بها حَدَثًا ، ولا تؤذي بها أَحَدًا ، ولا عابرَ سبيلٍ ، فأقم عندنا ، فنكرمك ، ونقرب من منزلتك ، ونحسنُ جائزتك . فقال جحدرُ: بل اختارُ صحبةَ الأميرِ ، والكينونةَ معه .

ففرَضَ له الحجاجُ في شرفِ العطاء ، وأقامَ ببابه وسخرَ قوّته وفروسيّته لحمايةِ الدّولةِ وفعلِ الخيراتِ ، وجعله من سُمّاره وخواصّه^(١) ، حتى ماتَ حتفَ أنفه^(٢) .

* ولا بأسَ بنا ونحنُ نُودّعُ سيرةَ جحدر بن معاوية أن نُودعَ في هذا السّفَرِ بعضَ القصصِ التي حيكت حولَ مقتلِ الأسود من قِبَلِ فرسانِ العربِ وشجعانهم ، كما نشيرُ إلى بعضِ مَنْ وصفَ الأسدَ وأجادَ في ذلك .

* فقد شاعتْ قصصٌ كثيرةٌ في تراثنا حولَ مقتلِ الأسود ، ومما يعذّبُ ذكرُهُ هنا ويُستَحلى ، ما ذكرَهُ الجاحظُ في كتابهِ المنسوبِ إليه «المحاسنُ والأضداد» عن قصّةِ عاشقٍ لابنةِ عمّه ميّ كانتْ تأتيهِ ليلاً فيتناجيان ساعةً ، ثمّ تنصرفُ ، وذاتَ يومٍ أبطأتِ الفتاةُ عن ابنِ عمّها ، وما كانتْ تتأخّرُ ، فأوجسَ خيفةً في نفسه ، وقال : واللهِ ما أظنُّ ذلكَ التّأخيرُ من ابنةِ عمي ميّ إلا لأمرٍ حادثٍ ، ثمّ إنّه أنشأ يتشاغلُ بهذه الأبيات :

مَآبَالُ مَيَّةَ لَا تَأْتِي كَعَادَتِهَا هَلْ هَاجَهَا طَرَبٌ أَوْ صَدَهَا شُغْلُ
لَكِنْ قَلْبِي لَا يَعْنِيهِ غَيْرُكُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ وَلَا لِي غَيْرُكُمْ أَمَلُ
لَوْ تَعْلَمِينَ الَّذِي بِي مِنْ فِرَاقِكُمْ لَمَا اعْتَذَرْتُ وَلَا طَابَتْ لَكَ الْعِلَلُ
نَفْسِي فِدَاؤُكَ قَدْ أَحْلَلَتْ بِي حُرْقًا تَكَادُ مِنْ حَرِّهَا الْأَحْشَاءُ تَنْفَصِلُ

(١) انظر: المستطرف (٢/ ٧٩ - ٨١) ، والجلس والآنيس (٣/ ٨٧) ، والأخبار الموفقيات (ص ١٧١ - ١٧٥) مع الجمع والتصرف . وانظر: خزانة الأدب (٧/ ٤٣٥ - ٤٣٩) ، والمحاسن والأضداد (ص ١٠٤ - ١٠٨) وديوان جحدر (ص ١٧٠) والجلس الصالح الكافي (٣/ ٨٧ - ٩٠) .

(٢) انظر: التذكرة الحمدونية (٢/ ٤٨٧) .

* وقامَ الليلَ كلّه ساهراً حتّى انفجرَ عمودُ الصُّبحِ ، ثمّ قامَ ومَرَّ نحوَ الحيّ ، فوجدَ ابنةَ عمّه قد افترسَها السَّبُعُ فأكلَ بعضها وتركَ بعضها الآخرَ ، ثمّ تناولَ سيفاً وأنشد :

كُنَّا عَلَى ظَهْرِهَا وَالْعَيْشُ فِي مَهْلٍ وَالدهرُ يَجْمَعُنَا وَالِدَارُ وَالْوَطَنُ
فَخَانَنَا الدهرُ فِي تَفْرِيقِ الْفِتْنَا وَالْيَوْمَ يَجْمَعُنَا فِي بَطْنِهَا الْكَفَنُ
* وانطلقَ العاشقُ الوامقُ يبحثُ عن الأسدِ الضَّاري الذي فَجَعَهُ بِأَحَبِّ
النَّاسِ إِلَيْهِ ، فوجدَهُ فِي أَجْمَتِهِ ، فانقضَّ عَلَيْهِ وضربَهُ بِالسَّيْفِ ضَرْبَةً
فَصَرَعَهُ ، ثمّ التفتَ إِلَيْهِ وَقَالَ :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْثُ الْمَدَلَّ بِنَفْسِهِ هُبِلْتَ لَقَدْ جَرَّتْ يَدَاكَ لَنَا حُرْنَا
وَعَادَرْتَنِي فَرْدًا وَقَدْ كُنْتُ أَلْفًا وَصَيَّرْتَ آفَاقَ الْبِلَادِ لَنَا سَجْنَا
أَصْحَبُ دَهْرًا خَانَنِي بِفِرَاقِهَا مَعَادَ إِلَهِي أَنْ أَكُونَ لَهُ خِذْنَا^(١)
* هذا وقد استهوتَ قَصَصُ مَقْتَلِ الْأَسُودِ وَقِصَّةُ جَحْدَرِ بْنِ مَعَاوِيَةَ
العُكْلِيِّ أَبِي الْفَضْلِ أَحْمَدَ بْنِ الْحُسَيْنِ الْمَشْهُورِ بِاسْمِ بَدِيعِ الزَّمَانِ
الْهَمْدَانِيِّ^(٢) المتوفى في سنة (٣٩٨ هـ) ، حيثُ خَصَّ مِنْ مَقَامَاتِهِ الْبَدِيعَةَ

(١) المحاسن والأضداد (ص ١٠٨ - ١١١) ، وإعلام الناس (ص ١٧٨ - ١٨١) مع الجمع والتصرف والاختصار .

(٢) أبو الفضل أحمد بن الحسين بدیع الزمان الهمداني ، صاحبُ المقامات المشهورة والرسائل الرائعة ، كان فصيحاً مفوهاً وشاعراً مقلّماً ، وهو الكاتبُ المترسِّلُ ، والشاعرُ المجيدُ ، قدوةُ الحريرِيّ ، وقريع الخوارزمي ، ووارثُ مكانته ، وهو معجزة همدان ، ونادرةُ الفلّك ، وفريدُ دهره روايةً وحفظاً ، وغرّةُ عصره بديهةً وذكاءً .
نشأ بهمدان ، ودرس العربية والأدب وبرعَ فيهما ، وروى عن ابن فارس كتابه «المُجمل» ، وطافَ في البلاد ، وألّفَ المقاماتِ بلفظٍ رشيقٍ وسجعٍ رقيقٍ ، ونسجَ الحريريّ على منوالها ، ومن رسائله : الماء إذا طال مكثهُ ظهرَ خبثُهُ ، وإذا سكنَ متنه تحركَ نثتهُ ، وكذلك الضيفُ يسمجُ لقاءه ، إذا طال ثوابه ، ويثقل ظله إذا انتهى محله ، ومن كلامه : البديعُ شاعرٌ ناثِرٌ ، وهو في كليتهما قد ضربَ بسهمٍ بعيدٍ =

المخترعة مقامة خيالية جميلة سمّاها: المقامة البشرية^(١) ، وتخيل بطلها رجلاً يسمّى بشر بن عَوانة العبدى ، ووسمه بأنّه كَانَ صُغْلُوكًا^(٢) لصّاً فاتكاً وفقيراً معدماً ، وأنّه أغارَ وسطاً على ركبٍ فيهم امرأة جميلة ، فتزوج بها ، وأعجبَ بها إعجاباً شديداً ، ولكنّها زعمت أنّ له ابنة عمّ تُدعى فاطمة أجملَ منها وأملح ، فبعثَ يخطبها فرفضَ عمُّه بادية الأمر ، فكثرت مضراته لهم ، ووصلَ أذاه إليهم ، فاجتمع رجالٌ من الحيّ وقالوا لعمّه: كفّ عنّا هذا المجنون ، فقال: أمهلوني حتى أهلكه ببعض الحيل ، ثمّ إنّ عمّه استدناه وقال له: أزوّجك ابنتي فاطمة بشرط أن تسوقَ لها ألف ناقةٍ من نوق خُزاعة - وكان غرضُ العمّ أن يسلكَ بشرُّ الطريق بينه وبين خُزاعة فيفترسه الأسدُ ، لأنّ العربَ قد كانت تحامت ذلك الطريق ، وكان فيه أسدٌ يسمّى داذاً ، وحيةٌ تدعى شجاعاً.

= المرمى ، واغترفَ من بحرٍ عميقٍ الغور ، إلا أنّه البحر العذبُ الفراتُ. وهو في شعره لا يقلُّ عن نثره ، وله من قصيدة بائنة في المديح :

أبى المقامُ بدار الدُلّ بي كرمٌ وهمةٌ تصلُ التَّوحيدَ والخَيْبا
والدهرُ لو لم يخُنْ والشمسُ لو نطقتْ والليثُ لو لم يُصدْ والبحرُ لو عذبا
توفي في (١١ جمادى الآخرة سنة ٣٩٨) وعمره (٤٠ سنة). (وفيات الأعيان ١٢٨/١) و(شذرات الذهب ٥١٢/٤).

(١) المقامة البشريّة هي المقامة الواحدة والخمسون والأخيرة من المقامات المطبوعة الموجودة بين أيدينا ، بيد أنّ الهمدانيّ قد أملى بنيسابور أربعمئة مقامة ، وضاع معظمها ، ولم يبقَ منها إلا واحداً وخمسين وهي الموجودة بين أيدي الناس .

(٢) «الصُّغْلُوك»: الفقيرُ المُعْدَم ، وسمّوا ذُوبانَ العرب ولصوصها صعاليك ، وصعالكة ، لأنّ الفقرَ كثيراً ما يحملُ على السرقة ، وفي كلامهم: الحَلَّةُ تدعو إلى السِّلَّة. أي الفقرُ يدعو إلى التَّسَلُّلِ والسرقة. وصعالكة العرب وذُوبانُها وفتاكُها كثيرون منهم: المنتشر بنٌ وهب الباهلي ، وأوفى بن مطر المازني ، والشنفرى ، وتأبط شراً ، وعمرو بن براق ، والسليك بن السلّكة ، وعروة بن الورد المعروف بعروة الصّعاليك ، وغيرهم كثير في العصر الجاهلي .

* ثُمَّ إِنَّ إِشْرَاءَ سَلَكَ ذَلِكَ الطَّرِيقَ فَمَا نَصَفَهُ حَتَّى لَقِيَ الْأَسَدَ ، فَفَزَعَ حِصَانَهُ وَقَمَصَ ، فَنَزَلَ وَعَقَرَهُ ، ثُمَّ اخْتَرَطَ سَيْفَهُ ، وَدَلَفَ بِهِ إِلَى الْأَسَدِ وَاعْتَرَضَهُ وَضَرَبَهُ ضَرْبَةً وَاحِدَةً قَطْعَةً عَرْضاً ، ثُمَّ كَتَبَ بِدَمِ الْأَسَدِ عَلَى قَمِيصِهِ إِلَى ابْنَةِ عَمِّهِ فَاطِمَةَ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ :

أَفَاطِمُ لَوْ شَهِدْتَ بِبَطْنِ خَبْتٍ وَقَدْ لَاقَى الْهَزْبُ أَخَاكَ بَشْرًا^(١)
إِذَا لَرَأَيْتِ لَيْثًا زَارَ لَيْثًا هَزْبَرًا أَغْلَبًا لَاقَى هَزْبَرًا^(٢)

(١) «أَفَاطِمُ»: «أَ» الهمزة: حرفٌ وُضِعَ لنداء القريب. والهمزة لا صورةَ لها، وذلك لأنَّ قُرَيْشًا لم تكن الهمزة في كلامهم، فلم يصوّروها، فما كُتِبَ بلغة قُرَيْشٍ تُرِكَ فيه الهمزُ، وما كُتِبَ بلغة غيرهم كُتِبَ على حسبِ حروفِ العِلَّةِ، أو على حسبِ الحركاتِ، والكسرُ أقواها، ثم الضَّمُّ، ثم الفتح. و«فَاطِمُ»: منادى مَرَّحَمٍ، والترخيم: هو حذفُ آخرِ الكلمةِ حقيقةً أو تنزيلاً في النداء على وجهٍ مخصوص. وقد حَذَفَ الشَّاعِرُ هُنَا التَّاءَ المربوطةَ من فَاطِمَةَ فأصبحت «فَاطِمُ» وقال امرؤ القيس: أَفَاطِمُ مَهْلًا بَعْضُ هَذَا التَّدْلِيلِ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَزْمَعْتَ صَرْمِي فَأَجْمَلِي و«خَبْتٌ» اسمٌ لعدةٍ مواضعٍ منها خَبْتٌ بِلْدَةُ بِالْيَمَنِ مِنْ قُرَى زَبِيدَ، وَخَبْتُ مَاءٍ مَعْرُوفٍ لِكَلْبٍ.

- وقد نسب بعضُ الرّواةِ هذه الأبياتَ لعمرو بنِ معدي كرب الزبيدي، حيث كتب عمرو إلى أخته كبشةً، وكان له ابنة عمّ اسمها لميس:

أَكْبَشَةُ لَوْ شَهِدْتَ بِبَطْنِ خَبْتٍ وَقَدْ لَاقَى الْهَزْبُ أَخَاكَ عَمْرًا
تَظُنُّ لَمَيْسُ أَنَّ اللَّيْثَ مِثْلِي وَأَقْوَى هَمَّةً وَأَشَدُّ صَبْرًا
لَقَدْ خَابَتْ ظَنُونُ لَمَيْسٍ فِيهِ وَأُضْحَى الْبُرُّ خَالِيًا مِنْهُ قَفْرًا
إِنَّ الْوَاقِعَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَانِ ، وَلَعَلَّ الْهَمْزَانِيَّ قَدْ اسْتَوْحَى قَصِيدَتَهُ هَذِهِ مِنْ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرَبٍ وَاللَّهِ أَعْلَمُ .

(٢) «الليث»: الأسدُ، ومثله: الهزبر، وللأسد فوق الثلاثمة اسم، أصل معظمها صفات، وقد أوردَ اللَّمِيرِيُّ فِي كِتَابِهِ حَيَاةَ الْحَيَوَانَ مُعْظَمَهَا، كَمَا أَصْدَرَ الْأَدِيبَ السَّعُودِي هَزَاعَ عِيدِ الشَّمَرِيِّ كِتَابًا سَمَّاهُ: «مَعْجَمُ أَسْمَاءِ الْأَسَدِ». وَمِنْ أَسْمَاءِ الْأَسَدِ: الْبَيْهَسُ، الْبَهْنَسُ، الْعَرَبُضُ، الْمُرْمَلُ، الشَّيْظَمُ، النَّجِيدُ، الْبَسُورُ، الْحَيْدَرُ، الْحَيْدَرَةُ، الْغَضَنْفَرُ، الْمُهْتَصِرُ، الْجَهْمُ، الْغُضُوبُ، الْأَغْلَبُ، الْقِرْضَابُ، =

تَبْهَنْسَ إِذْ تَقَاعَسَ عَنْهُ مُهْرِي
 أَنْلَ قَدَمِي ظَهَرَ الْأَرْضِ إِنِّي
 وَقَلْتُ لَهُ وَقَدْ أَبْدَى نِصَالاً
 يُكَفِّكَ غِيلَةً إِحْدَى يَدَيْهِ
 يَدُلُّ بِمَخْلَبٍ وَبِحَدِّ نَابٍ
 وَفِي يُمْنَايَ مَاضِي الْحَدِّ أَبْقَى
 أَلَمْ يَلْغُكَ مَا فَعَلْتَ ظُبَاهُ
 وَقَلْبِي مِثْلُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَخْشَى
 وَأَنْتَ تَرُومُ لِلْأَشْبَالِ قُوتاً
 فَكَيْفَ تَسُومُ مِثْلِي أَنْ يُوَلِّي
 نَصَحْتُكَ فَالْتَمَسْ يَا لَيْثُ غَيْرِي
 فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّ الْغِشَّ نَضِجِي
 مَشَى وَمَشَيْتُ مِنْ أَسَدَيْنِ رَامَا
 هَزَزْتُ لَهُ الْحُسَامَ فَخَلْتُ أَنِّي
 وَجُدْتُ لَهُ بِجَائِشَةٍ أَرْتَهُ
 وَأَطْلَقْتُ الْمَهْنَدَ مِنْ يَمِينِي
 فَخَرَّ مَجْدَلاً بِدَمٍ كَأَنِّي
 وَقَلْتُ لَهُ يَعِزُّ عَلَيَّ أَنِّي
 وَلَكِنْ رُمْتُ شَيْئاً لَمْ يَرْمُهُ
 تَحَاوَلُ أَنْ تَعْلَمَنِي فِرَاراً
 فَلَا تَجْزَعُ فَقَدْ لَاقَيْتَ حُرّاً

مُحَاذَرَةً فَقَلْتُ عُقِرْتَ مُهْرَا
 رَأَيْتُ الْأَرْضَ أَثْبَتَ مِنْكَ ظَهْرَا
 مُحَدَّدَةً وَوَجْهًا مُكْفَهْرَا
 وَيَبْسُطُ لِلوُثُوبِ عَلَيَّ أُخْرَى
 وَبِاللَّحْظَاتِ تَحْسَبُهُنَّ جَمْرَا
 بِمَضْرِبِهِ قِرَاعُ الْمَوْتِ أَثْرَا
 بِكَاطِمَةِ غَدَاةٍ لَقِيتُ عَمْرَا
 مُصَاوِلَةً فَكَيْفَ يَخَافُ ذَعْرَا
 وَأَطْلُبُ لَابِنَةَ الْأَعْمَامِ مُهْرَا
 وَيَجْعَلُ فِي يَدَيْكَ النَّفْسَ قَسْرَا
 طَعَاماً إِنَّ لِحَمِي كَانَ مُرّاً
 وَخَالَفَنِي كَأَنِّي قُلْتُ هُجْرَا
 مَرَاماً كَانَ إِذْ طَلَبَاهُ وَعُرَا
 سَلَلْتُ بِهِ لَدَى الظَّلْمَاءِ فَجْرَا
 بِأَنْ كَذَبْتُهُ مَا مَتَّئْتُهُ غَدْرَا
 فَقَدْ لَهُ مِنَ الْأَضْلَاعِ عَشْرَا
 هَدُمْتُ بِهِ بِنَاءً مُشْمَخِرَا
 قَتَلْتُ مُنَاسِبِي جَلَدًا وَفَخْرَا
 سِوَاكَ فَلَمْ أَطِقْ يَا لَيْثُ صَبْرَا
 لَعَمْرُ أَيْبِكَ قَدْ حَاوَلْتُ نُكْرَا
 يَحَاذِرُ أَنْ يُعَابَ فَمُتَّ حُرّاً

= والقَرَشْب ، ومن كناه: أبو العباس ، أبو ضيغم ، أبو الأشبال ، وأبو الأبطال .
 و«الهزبر»: في الأصل وصفٌ لا اسمٌ ، وهو الغليظ الضخم والشديد الصلب .

فَإِنْ تَكُ قَدْ قُتِلْتَ فَلَيْسَ عَارًا فَقَدْ لَاقَيْتَ ذَا طَرَفَيْنِ حُرًّا^(١)

* ولعلّه من نافلة القول وزيادة الفائدة أن نشير إلى أن العرب قد أبدعوا في وصف الأسد بشعرهم ونثرهم ، وممن أجاد وصفه نثراً وشعراً أبو زيد الطائي ، ولنفقطف فقراتٍ من وصف أبي زيد للأسد ، فقد ورد أنه دخل على سيّدنا عثمان بن عفّان - عليه سحائب الرضوان - فقال له : بلغني أنك تجيّد

(١) انظر : مقامات الهمداني (ص ٢٦٢-٤٧٨) وقد أوردت القصيدة كاملةً لجمالها وندرتها في المصادر ، ولما فيها من معان جميلة تبعث على الإعجاب بالهمداني الذي ابتكرها . ومعنى «تَبَهَّنَسَ» : تبختر واختال في مشيته . و«محاذرة» : من أجل الحذر . و«عُقرت مُهراً» أي قُطعت قوائمك . و«أنلُ قديمي» : مكنتها من ظهر الأرض . و«أبدى» : أظهر وأبان . و«التّصال» : جَمع نَصْل وهو حديدُ السّيف والسّهم والرّمح والسّكين و«مكفهرًا» : الوجهُ المكفهر ، القليل اللحم الغليظ الجلدة . و«يكفكف» : يقبض . و«غيلة» : خدعة أو اغتيالاً . و«يدلّ» : يتيه ويظهر تكبّره . و«ماضي الحد» : السيف . و«ظباه» : الطّبة : حد السيف . و«كاظمة» : اسم موضع . و«دعرا» : بفتح الدال : الخوف والفرع . و«تروم» : تطلب . و«الأشبال» : جمع شبل وهو ولد الأسد ، ويجمع على أشبل . و«ففيم» : استفهام عن السبب . و«تسوم» : تفاوض . و«قَسرا» : قهراً . و«هُجراً» : الهُجر : بالضّم : الهذيان والخرافة كما يكون من الأبله والنائم . و«هزرت الحسام» : حرّكته . و«سللت» : شققت . و«جائشة» : الجائشة : النفس . و«متته» : أطعمته . و«المهند» : السيف الصارم . و«قذّ» : قطع . و«خرّ» : سقط . و«مجدلاً» : مصروعاً . و«مشمخر» : شامخ عال مرتفع . و«يعزّ عليّ» : يصعب عليّ . و«مناسبي» : مشابهي ومشاكلي . و«رمت» : طلبت . و«نكرا» : المنكر . و«تجزع» : الجزع : انخلاع القلب وتألّم النّفس من حادثٍ فظيع ، أو أمرٍ شنيع ينزل بالمرء فيفقده صوابه ويضيع عليه تجلده وصبره . و«يحاذر» : يخشى ويعمل جهّداً طاقته وبمقدار وسعه . والمعنى : لا يؤلمك ولا تذهب نفسك حشرات ولا تحزن على ما نالك متي ، وأصابك من حدّ حُسامي ، والذي اصطدمت به رجلٌ حرّ كريم يأبى الضيم و«ذا الطّرفين» : رجلٌ ذو الطّرفين : أي أبوين معروفين أصيلين ، والمعنى : إن كنت قد قُتِلْتَ ، فما ذلك بعارٍ عليك ، فليس من الشّين أن تُقتلَ بيدي فإنني رجل ذو أبوين أصيلين معروفين ، فأنا عريق في النسب ، شريف الحساب ، طيب الأصل حرّ ، وإنما العارُ أن يؤخذ المرء بيد رجلٍ دنيء .

وَصَفَ الْأَسَدَ . فقال له أبو زبيد: لقد رأيتُ منه منظراً ، وشهدتُ منه خبراً ما يزالُ ذكره يتجددُ على قلبي ، قال عثمان: هاتِ ما مرَّ على رأسِكَ منه .

فشرعَ أبو زبيد يصفُ الأسدَ ، وكانَ ممَّا قاله : فَأَقْبَلَ يَتَظَالَعُ فِي مَشِيَّتِهِ كَأَنَّهُ مَجْنُوبٌ أَوْ فِي هَجَارٍ ، لَصَدْرِهِ نَحِيطٌ وَلِبْلَاعِيْمِهِ غَطِيطٌ ، وَإِذَا هَامَةٌ كَالْمَجَنِّ ، وَخَذٌ كَالْمِسَنِّ وَعَيْنَانِ سَجَرَاوَانِ كَأَنَّهُمَا سِرَاجَانِ يَقْدَانِ وله سَاعِدٌ مَجْدُولٌ ، وَعُضْدٌ مَفْتُولٌ ثُمَّ ضَرَبَ بِذَنْبِهِ فَأَرْهَجَ ، وَكَثَّرَ فَأَفْرَجَ عَنْ أُنْيَابٍ مَصْقُولَةٍ غَيْرِ مَغْلُولَةٍ ، وَفَمٍ أَشْدَقَ ، كَالْغَارِ الْأَخْرَقِ ، ثُمَّ تَمَطَّى فَأَسْرَعَ بِيَدَيْهِ ، وَحَفَرَ وَرَكَيْهِ بِرَجْلَيْهِ حَتَّى صَارَ ظِلُّهُ مِثْلَيْهِ ، ثُمَّ أَقْعَى فَاقْشَعَرَ ، ثُمَّ مِثْلُ فَكَفْهَرٍ ، ثُمَّ تَجَهَّمُ فَازْبَارَ . . . ثُمَّ أَنْشَأَ أَبُو زَبِيدُ يَصِفُهُ شِعْراً وَيَقُولُ :

| | |
|---|---|
| عَبُوسٌ شَمُوسٌ مُصْلَخِذٌ خُنَابِسٌ | جَرِيٌّ عَلَى الْأَزْوَاحِ لِلْقَرْنِ قَاهِرٌ |
| مَنْعٌ وَيَحْمِي كُلَّ وَادٍ يَرُومُهُ | شَدِيدٌ أَصُولِ الْمَاضِغِينَ مُكَابِرٌ |
| بَرَاثُهُ شَتْنٌ وَعَيْنَاهُ فِي الدُّجَى | كَجَمْرِ الْغَضَا فِي وَجْهِهِ الشَّرُّ ظَاهِرٌ |
| يُدِلُّ بِأُنْيَابٍ حِدَادٍ كَأَنَّهَُا | إِذَا قَلَّصَ الْأَشْدَاقَ عَنْهَا الْخَنَاجِرُ |

* فقال عثمان: اكفُفْ لَا أَمَّ لَكَ ، فَلَقَدْ أَرَعَبْتَ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ ، وَوَصَفْتَهُ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَرِيدُ يُؤَاثِبُنِي ^(١) .

* وَفِي وَصْفِ الْأَسَدِ يَقُولُ ابْنُ الرُّومِي مِنْ قَصِيدَةٍ رَائِيَةٍ طَوِيلَةٍ مِنْهَا :

| | |
|--|---|
| فَمَا أَسَدٌ جَهْمٌ الْمَحْيَا شَتِيمُهُ | خَبَعَثَنَّهُ وَرَدُّ السَّبَالِ غَضَنْفَرُ |
| مُسَمًّى بِأَسْمَاءٍ فَمِنْهُمْ ضَيْغَمٌ | وَمِنْهُمْ ضِرْغَامٌ وَمِنْهُمْ قَسُورُ |
| تَظَلُّ لَهُ غَلْبُ الْأَسْوَدِ خَوَاضِعاً | ضَوَارِبَ بِالْأَذْقَانِ حِينَ يَزْمَجِرُ |
| لَهُ ذَمَرَاتٌ حِينَ يُوعَدُ قِرْنُهُ | تَكَادُ لَهُ صَمُّ السَّلَامِ تَفْطَرُ |

(١) انظر: المحاسن والأضداد (ص ١١٦ - ١١٩) بتصرف واختصار .

يراه سَرَاة الليل والدَّؤْدُؤُهُ قَرِيباً بِأَدْنَى مَسْمَعٍ حِينَ يَزَارُ
إِذَا مَا عَلَا مِثْنَ الطَّرِيقِ بِبَرْكِهِ حَمَى ظَهْرَهُ الرُّكْبَانُ فَالَسَّفَرُ أَزْوَرُ
أَخُو وَحْدَةٍ تُغْنِيهِ عَنْ كُلِّ مُنْجِدٍ لَهُ نَجْدَةٌ مِنْهَا وَنَصْرٌ مُؤَزَّرٌ^(١)

* وَمِمَّنْ وَصَفَ الْأَسَدَ فَأَبْدَعَ فِي وَصْفِهِ وَأَجَادَ ابْنُ الْمَعْتَزِ أَيْضاً ، فَقَدْ
وَصَفَ أَسَدًا فِي قَصِيدَةٍ رَائِيَةٍ مِنْ أَجْمَلِ شِعْرِهِ ، حَيْثُ وَصَفَ الْأَسَدَ الَّذِي
يَهْزُمُ الْجَيْشَ وَيَأْتِي لِأَشْبَالِهِ كُلِّ يَوْمٍ بِصَيْدٍ مِنَ الْبَشَرِ أَوْ الْوَحْشِ ، أَمَّا صَوْتُهُ
فَيَزْعَزِعُ أَحْشَاءَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ وَيَذْهَلُ الْأَبْطَالُ ، وَإِذَا مَا ضَمَّ شَبِيهَا لَهُ بَيْنَ
كَفَيْهِ ، حَسِبْتَ أَنَّهُ يَدَاعِبُ عَرُوساً وَلَكِنَّ غَلَائِلَهَا حُمْرٌ ، اسْمَعْ إِلَيْهِ يَقُولُ :

وَمَا لَيْتُ غَابَ يَهْزُمُ الْجَيْشَ خَوْفُهُ بِمَشِيَةٍ وَثَابَ عَلَى النَّهْيِ وَالزَّجْرِ
يَجُرُّ إِلَى أَشْبَالِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ عَفِيرَةً وَحْشٍ أَوْ قَتِيلًا مِنَ السَّفَرِ
إِذَا مَا رَأَوْهُ طَارَ جَمْعُهُمْ مَعاً كَمَا طَيَّرَ النَّفْخُ الثَّرَابَ عَنِ الْجَمْرِ
جَرِيءُ أَبِي يَحْسَبُ الْأَلْفَ وَاحِدًا بَعِيدٌ إِذَا مَا كَرَّ يَوْمًا مِنَ الْفَرِّ
يُزْعَزِعُ أَحْشَاءَ الْبِلَادِ زَيْبُورُهُ وَيَذْهَلُ أَبْطَالُ الرُّجَالِ مِنَ الدُّعْرِ
إِذَا ضَمَّ قَرْنًا بَيْنَ كَفَيْهِ خِلْتَهُ يُعَانِي عَرُوساً فِي غَلَائِلِهَا الْحُمْرُ
فَحَرَّمَ أَرْضَ الْحَائِرَيْنِ وَمَاءَهَا فَهَيْهَاتَ مَنْ يَعْدُو عَلَيْهَا وَمَنْ يَسْرِي
بَأَجْرًا مِنْهُ حَدَّ بَأْسٍ وَعِزْمَةٍ إِذَا مَا نَزَا قَلْبُ الْجَبَانِ إِلَى النَّحْرِ

* وَلِلشَّرِيفِ الرَّضِيِّ قَصِيدَةٌ طَوِيلَةٌ فِي وَصْفِ الْأَسَدِ مِنْهَا :

نَهَيْتُكَ عَنْ شِعْبٍ عَسِيرٍ وَلَوْجُهُ بِذِي الرَّمْثِ قَدْ أَعْيَا عَلَى النَّاسِ صَلُّهُ
فَلَا تَقْرَبَنَّ الْغَابَ يَحْمِيهِ لَيْثُهُ وَدَعْ جَانِباً وَعِزّاً عَلَى مَنْ يَحُلُّهُ
كَأَنَّ عَلَى الْأَطْوَادِ مِنْ جَزَعٍ بَيْشَةٍ رَصِيدَ طَرِيقٍ ضَلَّ مَنْ يَسْتَدْلُهُ
تَلَفَعَ فِي ثِنْتَيْ عَبَاءٍ مُشْبَرِّقٍ أَصَابِيغُ أَلْوَانِ الدِّمَاءِ تَبْلُهُ

(١) ديوان ابن الرومي بتحقيق د. حسين نصار؛ وانظر هناك القصيدة كاملة.

أُخْوَقَنْصِي كَفَّاهُ كِفَّةُ صَيْدِهِ إِذَا جَاعَ يَوْمًا وَالذَّرَاعَانِ حَبْلُهُ
يُشَقِّقُ عَنْ حَبِّ الْقُلُوبِ بِمُخَصَّفٍ أزلَ كَمَا جَلَّى عَنْ الرَّمَحِ نَضْلُهُ
قَلِيلُ ادَّخَارِ الزَّادِ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَتَى مَا يُعَايِنُ مَطْعَمًا فَهُوَ أَكَلُهُ^(١)

* وَإِنْ كُنَّا نَنْسِي وَصْفَ الْأَسَدِ ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَنْسِيَ لَامِيَّةَ أَبِي الطَّيِّبِ
الْمُتَنَبِّيِ الَّتِي أَخَذَتْ مَسَاحَةً كَبِيرَةً مِنْ صُدُورِ الْكُتُبِ وَالنَّاسِ عَلَى مَرِّ
العُصُورِ ، تِلْكَ الْقَصِيدَةُ الْجَمِيلَةُ التِّيَاهَةُ عَلَى غَيْرِهَا وَالتِّي مَدَحَ فِيهَا بَدْرَ بَنِ
عَمَّارٍ ، وَذَكَرَ الْأَسَدَ وَقَدْ أَعْجَلَهُ بَذْرٌ ، فَضَرَبَهُ بِسُوطِهِ ضَرْبَةً عَفْرَةً وَخَضَبَهُ
بِالدَّمَاءِ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ الْأَسَدُ مُتَخَضِّبًا بِدَمِ الْفَوَارِسِ ، وَلَنَسْمَعُ وَلَنَقْرَأُ مَعًا
مَطْلَعَ قَصِيدَتِهِ الشَّهِيرَةِ حَيْثُ يَقُولُ :

فِي الْخَدِّ أَنْ عَزَمَ الْخَلِيطُ رَحِيلًا مَطَرٌ يَزِيدُ بِهِ الْخُدُودُ مُحُولًا
يَا نَظْرَةً نَفَتِ الرُّقَادَ وَغَادَرَتْ فِي حَدِّ قَلْبِي مَا حَيِّتُ فُلُولًا
وَأَرَى تَدُلُّكَ الْكَثِيرَ مُحَبِّبًا وَأَرَى قَلِيلَ تَدُلُّ لِي مَمْلُولًا
حَدِّقْ الْحِسَانَ مِنَ الْغَوَانِي هِجْنَ لِي يَوْمَ الْفِرَاقِ صَبَابَةً وَعَلِيلًا
حَدِّقْ يُذِمُّ مِنَ الْقَوَاتِلِ غَيْرَهَا بَذْرُ بَنِ عَمَّارٍ بَنِ إِسْمَاعِيلَا
الْفَارِجُ الْكُرْبُ الْعِظَامَ بِمِثْلِهَا وَالتَّارِكُ الْمَلِكَ الْعَزِيزَ ذَلِيلًا
نَطِقْ إِذَا حَطَّ الْكَلَامُ لثَامَهُ أَعْطَى بِمَنْطِقِهِ الْقُلُوبَ عُقُولًا
أَعْدَى الزَّمَانَ سَخَاؤُهُ فَسَخَا بِهِ وَلَقَدْ يَكُونُ بِهِ الزَّمَانُ بِخِيلًا

* ثُمَّ يَأْتِي الْمُتَنَبِّيُّ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ لِيَصِفَ الْأَسَدَ ، وَيَذْكُرُ أَنَّ
بَدْرَ بَنِ عَمَّارٍ أَهَاجَ أَسَدًا عَنْ بَقْرَةٍ افْتَرَسَهَا ، فَوَثَبَ الْأَسَدُ عَلَى كَفْلِ دَابَّتِهِ
فَأَعْجَلَهُ ، فَضَرَبَهُ بِسُوطِهِ ، وَدَارَبَهُ الْجَيْشُ ، فَقَتَلَ الْأَسَدَ :
أُمْعَفَّرَ اللَّيْثَ الْهَزْبَرَ بِسُوطِهِ لَمَنِ ادَّخَرَتِ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا

(١) انظر القصيدة كاملة في ديوان ابن المعتز .

وَقَعَتْ عَلَى الْأُرْدَنْ مِنْهُ بَلِيَّةٌ نَضَدَتْ بِهَا هَامَ الرَّفَاقِ تُلُولا
وَرَدُّ إِذَا وَرَدَ الْبُحِيرَةُ شَارِباً وَرَدَ الْفُرَاتِ زَيْرُهُ وَالْيَيْلَا
مَتْخَضِبٌ بِدَمِ الْفَوَارِسِ لَا بَسُّ فِي غَيْلِهِ مِنْ لِبْدَتَيْهِ غَيْلَا
مَا قُوبِلَتْ عَيْنَاهُ إِلَّا ظُنَّتَا تَحْتَ الدُّجَى نَارَ الْفَرِيقِ حُلُولَا
فِي وَحْدَةِ الرُّهْبَانِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ التَّحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلَا
يَطْأُ الثَّرَى مَتَرَفَقاً مِنْ تَيْهِهِ فَكَأَنَّهُ آسِي يَجْسُسُ عَلَيَا

* ثُمَّ يَصِفُ شَجَاعَةَ بَدْرِ بْنِ عَمَّارٍ فَيَقُولُ :

سَبَقَ التَّقَاءُ كَهُ بُوْثِيَّةٍ هَاجِمٍ لَوْ لَمْ تَصَادَمْهُ لَجَازَكَ مَيْلَا
سَمِعَ ابْنُ عَمَّتِهِ بِهِ وَبِحَالِهِ فَجَا يَهْرُولُ مِنْكَ أُمْسٍ مَهُولَا

* وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ :

مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ الْمَعَالِي نَافِذاً فِيهَا وَلَا كُلُّ الرَّجَالِ فُحُولَا^(١)

* وَمَعْذَرَةٌ مِنَ الْقَارِئِ الْكَرِيمِ ، فَلَعَلْنَا قَدْ أَطْلَنَّا فِي هَذَا الْمَجَالِ ،
وَاسْتَطَرَدْنَا ، وَلَكِنْ عَذَرْنَا عَذُوبَةَ الْأَدَبِ وَجَمَالِهِ ، وَكُلٌّ مِنْ يَتَذَوَّقُ الْأَدَبَ
تَنْدِبُهُ عَذُوبَتَهُ أحياناً .

* وَنَعُودُ إِلَى جَحْدَرِ بْنِ مَعَاوِيَةَ الَّذِي فَتَحَ بَابَ قَتْلِ الْأَسْوَدِ لِمَنْ بَعْدَهُ ،
بَيِّنَةً أَنَّ التَّارِيخَ أَغْلَقَ سِتَارَتَهُ بَعْدَ تَلَكُمِ الْحَادِثَةِ أَمَامَ الْحِجَّاجِ ، وَلَمْ نَعُدْ نَسْمَعْ
لِجَحْدَرٍ أَثْراً وَلَا خَبَراً ، إِلَّا أَنَّ أُنْ أُنْ التَّارِيخِ الْوَاعِيَةِ قَدْ نَقَلَتْ لَنَا أَنْبَاءَ
فُرُوسِيَّتِهِ ، فَكَانَ مِنْ فُرْسَانِ التَّارِيخِ ، وَبَطْلاً بَارِزاً فِي تَارِيخِ الْفُرْسَانِ .

* * *

(١) انظر : ديوان المتنبي (٣/ ٢٣٢ - ٢٤٥) بانتقاء واختصار والقصيدة تعدّ (٤٩ بيتاً) .

سيف الدولة الحمداني

* فارس مجاهد ، وأديب مليح النظم ، وفصيح بليغ ،
وكريم جواد.

* اجتمع عنده من الأمراء والأدباء ما لم يجتمع بباب أمير
أو ملك.

* قال المتنبي في سيف الدولة:
فيوماً بخيلٍ تطرد الرومَ عنهم
ويوماً بجودٍ تطردُ الفقرَ والجدا
سراياك تترى والدمستقُ هاربٌ
أصاحبُه قتلَى وأمواله نُهبى

حَامِلُ لَوَاءِ الْجِهَادِ:

* مَنْ هَذَا الَّذِي كَانَ مَقْصِدَ الْوَفُودِ ، وَكَعْبَةَ الْجُودِ ، وَفَارِسَ الْإِسْلَامِ ،
وَحَامِلَ لَوَاءِ الْجِهَادِ؟!

* وَمَنْ هَذَا الَّذِي تَمَّ لَهُ مِنَ الرُّومِ أَرْبَعُونَ وَقْعَةً ، أَكْثَرُهَا يَنْصُرُهُ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ؟

* وَمَنْ هَذَا الْفَارِسُ الْمَعْلُومُ ذُو الْأَدَبِ الرَّفِيعِ وَالنَّظْمِ الْمَلِيحِ؟!
* بَلْ مَنْ هَذَا الَّذِي اجْتَمَعَ بِبَابِهِ مِنَ الشُّعْرَاءِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ بِبَابِ مَلِكٍ فِي
عَصْرِهِ؟

* وَمَنْ هَذَا الَّذِي شَجَّعَ الْمَعْرِفَةَ وَيُدْعَى مَشَجَّعَ الْعُلُومِ وَالْآدَابِ وَالْفُنُونِ؟
* وَمَنْ هَذَا الَّذِي جُمِعَ لَهُ مِنَ الْمَدَائِحِ مَجْلَدَانِ ، وَمَدَحُهُ شَاعَرُ الْعَرَبِيَّةِ
وَمَالِيءُ الدُّنْيَا وَشَاغِلُ النَّاسِ؟!

* هَذَا الْفَارِسُ الشَّاعِرُ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ ، حَسَنَةُ الزَّمَانِ ، وَهُوَ أَحَدُ
الْأَمْرَاءِ الشَّجْعَانِ ، وَالْمَلُوكِ الْكَثِيرِيِّ الْإِحْسَانِ ، سَيْفُ الدَّوْلَةِ بَنُ
حَمْدَانَ . . . أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمْدَانَ الْحَمْدَانِيُّ التَّغْلِبِيُّ
الجزري^(١) ، الْمَوْلُودُ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ (٣٠٣ هـ) .

* افْتَتَحَ الذَّهَبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - تَرْجَمَتَهُ فَقَالَ: سَيْفُ الدَّوْلَةِ عَلِيُّ بْنُ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمْدَانَ صَاحِبُ حَلَبَ ، مَقْصِدُ الْوَفُودِ ، وَكَعْبَةُ الْجُودِ ، وَفَارِسُ

(١) سير أعلام النبلاء (١٨٧/١٦ - ١٨٩) ، وشذرات الذهب (٢٩٣/٤ - ٢٩٥) ،
والبداية والنهاية (٢٦٣/١١ و ٢٩٤) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق
(١٠٧/١٨ - ١٠٩) ووفيات الأعيان (٤٠١/٣ - ٤٠٦) ، وبيتمة الدهر
(١٥/١ - ٣٤) والنجوم الزاهرة (١٦/٤ - ١٨) ، والعبر (٣٠٥/٢ و ٣٠٦) ،
وغيرها كثير جداً جداً جداً.

الإسلام ، وحاملُ لواء الجهاد ، كان أديباً مليحَ النَّظم ، فيه تشيُّع^(١) .

* وهذا الفارسُ الشهيرُ في ميادين الفروسية والأدبِ قد اجتمعَ له أشياء نادرة ، قال ابنُ كثير - رحمه الله - : واتفقَ له أشياء غريبة ، منها أنَّ خطيبه كان مصنّفُ الخطبِ النباتية أحدُ الفصحاءِ البلغاء ؛ ومنها أنَّ شاعره كان المتنبي ، ومنها أنَّ مطربه كان أبو نصر الفارابي ، وكان سيفُ الدولة كريماً جواداً مُعطيّاً للجزيل^(٢) .

* وفي عَصْرِ سيفِ الدولة في القرن الرابع الهجري برزَ فرسان مجلّون ، كان سيفُ الدولة أشهرهم في بلادِ الشَّام ، وما أدراك ما فرسانُ بلادِ الشَّام؟! وبذلك لا نكادُ نتحدّثُ عن الأمراءِ الفُرسانِ ، والملوكِ الشُّجعانِ ، إلا وجدنا لسيفِ الدولة النَّصيبَ الأوفى من الحديثِ عن بطولاته وغزواته وفروسيته ، ومكارمه وأخباره ، وناهيك بالمتنبي^(٣) الذي خلّده في قصائده وملاحمه .

(١) انظر : سير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/١٨٧) .

(٢) البداية والنهاية (١١/٢٦٣) .

(٣) «المتنبي» : شاعرُ الزَّمان ، أبو الطَّيِّب ، أحمدُ بنُ الحسين بنِ حسن الجُعفي الكوفي الأديب ، الشهير بالمتنبي .

وُلِدَ سنة (٣٠٣ هـ) ، وأقامَ بالبادية ، يقتبسُ اللغة والأخبار ، وكانَ من أذكياءِ عصره . بلغَ الذُّروة في النَّظم ، وأربى على المتقدِّمين ، وسارَ ديوانه في الآفاقِ ، ومدحَ سيفَ الدولة ملكَ الشَّام ، والخدامَ كافوراً صاحبَ مصر ، وعضدَ الدولة ملكَ فارس والعراق . وكان يركبُ الخيلَ بزي العرب ، وله شارةٌ وغلمانٌ وهيئةٌ . وقد نالَ بالشُّعرِ مالاً جليلاً ، يُقالُ : وصلَ إليه من ابنِ العميد ثلاثون ألفَ دينار ، ونالَه من عضدِ الدولة مثلاً ؛ وكان يُبَحِّلُ ، وهو القائلُ :

لَوْلا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ الْجُودُ يَفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَّالٌ
وَلَهُ هَكَذَا عَدَّةُ آيَاتٍ فَائِقَةٍ ، يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ ، وكان معجباً بنفسه ، كثيرَ البأو والتَّيه ، فَمُتَّ لَذلك ، قُتِلَ هو وولده مُحَسَّدٌ وفتاه في رمضان سنة (٣٥٤ هـ) .

(سير أعلام النبلاء ١٦/٢٠٠ و ٢٠١) بتصرف =

الفارسُ السَّيِّدُ:

* لئن كان سيفُ الدَّولةِ فارسَ الحلباتِ ، لقد كان فارساً في كلِّ المكرماتِ ، فهو أحدُ أفرادِ الدَّهرِ ، وأمراءِ النَّظْمِ والنَّثرِ ، خَلَعَ عليه أبو منصور الثَّعالبي من فواضِلِ كلامهِ حُللاً سندسيَّةً ، أظهرَ فيه خلائقَهُ ومكارمَهُ في الجودِ والفروسيَّةِ فقال :

* كان بنو حمدان مُلوَكاً وأمراءَ ، أوجهُهم للصَّباحةِ ، وألسنتُهم للفضَّاحةِ ، وأيديهم للسَّماحةِ ، وعقولُهم للرجاحةِ ، وسيفُ الدَّولةِ مشهورٌ بسيادتهم ، وواسطةُ قلاذيتهم .

* وكان غرةُ الزَّمانِ ، وعمادُ الإسلامِ ، ومَن به سَدادُ الثَّغورِ وسدادُ الأمورِ ، وكانت وقائعُهُ في عَصاةِ العربِ تكفُّ بأسها ، وتنزَعُ لباسُها ، وتفلُّ أنيابها ، وتذلُّ صعابها ، وتكفي الرعيَّةَ سوءَ آدابها ، وغزواته تدركُ من طاغيةِ الرُّومِ الثَّارَ ، وتحسُّمُ شرهم المُثارَ ، وتحسنُ في الإسلامِ الآثارَ ، وحضرته مقصدُ الوفودِ ، ومطلعُ الجودِ ، وقبلَةُ الآمالِ ، ومحطُّ الرِّجالِ ، وموسمُ الأدباءِ ، وحلبةُ الشُّعراءِ .

* ويُقالُ: إنَّه لم يجتمع قطَّ ببابِ أحدٍ من الملوِكِ - بعد الخُلفاءِ - ما اجتمعَ ببابه منُ شيوخِ الشُّعر^(١) ، ونجومِ الدَّهرِ؛ كان أديباً شاعِراً ، محبّاً

= أقول: عني القدماءُ والمحدثون بديوانِ المتنبي عنايةً فائقةً ، وأخذَ حظَّهُ وحظَّ غيره ، ونالَ شهرةً لم ينلها شاعر قطَّ .

(١) من شُعراء سيفِ الدَّولةِ الحمدانيّ :

أبو فراس الحمدانيّ واسمه الحارثُ بنُ سعيد بنِ حمدان التَّغَلبي ، وُلِدَ سنة (٣٢٠ هـ) وماتَ سنة (٣٥٧ هـ) .

لجيد الشعر ، شديد الاهتزاز لما يُمدح به^(١) .

* وكان كلُّ من أبي محمّد عبد الله بن محمّد الفيّاض الكاتب ، وأبي الحسين عليّ بن محمد الشمشاطي ، قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت ، كقول أبي الطيّب المتنبّي^(٢) :

= وأبو المطاع وجيه الدولة ، واسمه الحسين بن الحسن ناصر الدولة بن عبد الله بن حمدان المعروف أيضاً بذي القرنين ، كان ابن أخي سيف الدولة ، كان أديباً شاعراً مات بمصر سنة (٤٢٨ هـ) .
والمتنبّي أبو الطيّب أحمد بن الحسين ، وُلِدَ سنة (٣٠٣ هـ) ، ومات سنة (٣٥٤ هـ) .
والوأواء الدمشقي ، وهو أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني ، توفي حوالي سنة (٣٧٠ هـ) .
وكشاجم ، وهو أبو الفتح محمود بن الحسين السّندي ، الكاتب الشاعر ، والنديم لسيف الدولة ، توفي حوالي سنة (٣٥٠ هـ) .
والصنوبري ، وهو أبو بكر أحمد بن محمد الصّبي الأنطاكي ، كان أميناً لخزانة كتب سيف الدولة ، توفي عام (٣٣٤ هـ) ، وكان الصنوبري زهّاراً حيث وصف في شعره الحقائق والنباتات والطبيعة ، وتحولها في فصول السنة .
وأبو الفرج البيغاء ، واسمه عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي ، وُلِدَ سنة (٣١٣ هـ) ، كان شاعراً وناثراً ذا مكانة ، مات سنة (٣٩٨ هـ) .
والثامي ، وهو أبو العباس أحمد بن محمد المصيصي الدارمي الثامي ، وُلِدَ نحو سنة (٣٠٩ هـ) ، مات بحلب سنة (٣٩٩ هـ) ، وكان من فحول شعراء عصره ، وله مصنفات في الأدب ، وكان عالماً باللغة . وهناك شعراء آخرون لا يتسع المقام لذكرهم .

(١) انظر: يتيمة الدهر (١/١٥ و ١٦) .

(٢) وصف الثعالبي المتنبّي بقوله: نادرة الفلك ، وواسطة عقد الدهر في صناعة الشعر ، ثم هو شاعر سيف الدولة المنسوب إليه ، المشهور به ، إذ هو الذي جذب بضبعه - أخذ بيده - ، ورفع من قدره ، ونفق سحر شعره ، وألقى عليه شعاع سعادته ، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر ، وسافر كلامه في البدو والحضر ، وكادت الليالي تنشده ، والأيام تحفظه .
(يتيمة الدهر ١/ ١١٠)

خَلِيلِي إِنِّي لَا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ فَلِمَ مِنْهُمْ الدَّعْوَى وَمَنِي الْقَصَائِدُ
فَلَا تَعْجَبَا إِنَّ السُّيُوفَ كَثِيرَةٌ وَلَكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدٌ
لَهُ مِنْ كَرِيمِ الطَّبَعِ فِي الْحَرْبِ مُنْتَضٍ وَمِنْ عَادَةِ الْإِحْسَانِ وَالصَّفْحِ غَامِدٌ
وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ دُونَ مُحَلِّهِ تَيَقَّنْتُ أَنَّ الدَّهْرَ لِلنَّاسِ نَاقِدٌ^(١)

* وَمِنْ أَبْيَاتِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ الَّتِي تَفْصَحُ عَنْ فُرُوسِيَّةِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَأَنَّهُ
مَطْبُوعٌ عَلَى الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَمَجْبُولٌ عَلَيْهِمَا ، يَنْهَبُ أَعْمَارَ أَعْدَائِهِ ، وَأَنَّهُ
حُسَامُ الْمَلِكِ وَلِوَاءِ الدِّينِ ، فَيَقُولُ :

وَكُلُّ يَرَى طُرُقَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَلَكِنَّ طَبَعَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ قَائِدٌ
نَهَبَتْ مِنَ الْأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ لَهَنَّتِ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ خَالِدٌ
فَأَنْتَ حُسَامُ الْمَلِكِ وَاللَّهُ ضَارِبٌ وَأَنْتَ لِوَاءِ الدِّينِ وَاللَّهُ عَاقِدٌ
قَاهِرُ الرُّومِ وَحَامِي الثُّغُورِ :

* لَمَّا كَانَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ فِي عِزِّ الشَّبَابِ وَسَنِّ الرَّجُولَةِ وَالْفَتَوَةِ وَالْقُوَّةِ ،
اسْتَوْلَى عَلَى أَكْثَرِ الشَّامِ ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ (٣٣٧ هـ) وَعَمْرُهُ إِذْ ذَاكَ لَا يَزِيدُ
عَنْ (٣٤ سَنَةً) .

* وَقَدْ وَقَفَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ لِلرُّومِ وَقَفَةَ الْأَبْطَالِ الْأَشْدَاءِ الشُّجْعَانِ ، يَرُدُّ
غَارَاتِهِمُ الْمُتَتَالِيَةَ عَلَى أَطْرَافِ بِلَادِهِ ، وَيُدْفَعُ عَدْوَانَهُمْ عَنْ أَرْضِ اللَّهِ ،
وَيُوقِعُ بِهِمْ إِيقَاعاً شَدِيداً ، وَكَانَتْ مَقْدَرَتُهُ الْحَرْبِيَّةُ وَالْقِتَالِيَّةُ قَدْ غَلَبَتْ كُلَّ مَنْ
كَانَ فِي عَصْرِهِ مِنَ الْقَوَادِ وَالرُّؤَسَاءِ ، وَأَمْرَاءِ الْمَقَاتِعَاتِ الَّذِينَ كَانَتْ تَهْمُهُمْ
نَفُوسُهُمْ وَمَطَامِعُهُمْ ، وَيَعْمَلُونَ عَلَى انْتِكَاسِ الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَهَلَاكِهَا .

* وَكَانَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ يُؤَمِّلُ لَهُ أَنْ يَتَسَعَ مَلِكُهُ اتِّسَاعاً عَظِيماً ، لَوْلَا مَا كَانَ
مِنَ الْأَحْدَاثِ الْعَظِيمَةِ ، ثُمَّ مَا كَانَ فِي الدَّوْلَةِ مِنْ دَسَائِسِ الْأَعَاجِمِ الَّتِي

(١) انظر: يتيمة الدهر (١/ ١٦ و ١٧) وديوان المتنبي (١/ ٢٧١ و ٢٧٢).

فَرَّقَتِ الْقُلُوبَ ، فلم تدعُ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ إِلَّا دَخَلَتْ بَيْنَهُمْ فَمَزَّقَتْهُمْ شَرَّ مَمَزَّقٍ ، وجعلتُ بعضَهُم على بعضٍ حرباً وفساداً^(١).

* وكان بنو حَمْدَانَ فِي الشَّامِ يرون فَسَادَ الْأَعَاجِمِ ، وما يبذرونه مِنْ بذورٍ وسمومٍ لتفرقةِ العربِ ، فانحازوا إلى الدَّولَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ينصرونها ، وينصرون^(٢) الخليفةَ الْعَبَّاسِيَّ النَّائِمَ على كُرْسِيِّ الْخِلَافَةِ ، والذي لا يقدرُ على التصرفِ وحده في الْأُمُورِ ، وقد أبدى بنو حَمْدَانَ مِنَ الدَّهَاءِ وَالذَّكَاةِ ، وَسَعَةِ الْحِيلَةِ ، وحسنِ السِّيَاسَةِ وَالتَّدْبِيرِ ، وإدارةِ الْأُمُورِ ما لا قِبَلَ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْعَصْرِ فِي الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ ، وقد أثبتَ بنو حَمْدَانَ بِسِيَاسَتِهِمْ وَحَصَافَتِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرِيدُونَ إِنْقَاذَ الْعَرَبِ وَالْإِسْلَامِ مِنَ الْفِتَنِ الْبَاغِيَةِ الَّتِي فَعَلَتْ أَفَاعِيلُهَا لِعَهْدِهِمْ فِي تَضْيِيعِ السُّلْطَانِ الْعَرَبِيِّ ، وافتعالِ الشُّوْكَةِ وَالْعِزَّةِ إِلَى الْحَكْمِ الْعَجْمِيِّ الشَّعُوبِيِّ الْفَاسِدِ الطَّوِيَةِ ، الْبَاغِي بِكَيْدِهِ الْإِيقَاعَ بِالْعَرَبِ وَدِينِهِمْ وَلِسَانِهِمْ^(٣).

* وَكَانَ سَيْفُ الدَّولَةِ الْحَمْدَانِيَّ دَرَّةَ بَنِي حَمْدَانَ ، وَكَانَ مِنْ أَكْثَرِهِمْ دِهَاءً ، وَمِنْ أَوْسَعِهِمْ حِيلَةً ، بَلْ وَمِنْ أَشَدَّهُمْ حُبًّا لِلْعَرَبِ وَدِينِهِمْ ،

(١) انظر: المتنبّي لمحمود شاكر (ص ٣٠١) مكتبة الخانجي - مصر - ١٩٨٧ م.

(٢) قال ابنُ كثير - رحمه الله -: وَكَانَ الْخَلِيفَةُ أَرْسَلَ وَهُوَ بِبَغْدَادَ إِلَى نَاصِرِ الدَّولَةِ بْنِ حَمْدَانَ نَائِبِ الْمُوصِلِ يَسْتَمُدُّهُ وَيَسْتَحِثُّهُ عَلَى الْبَرِيدِيِّ ، فَأَرْسَلَ نَاصِرُ الدَّولَةِ أَخَاهُ سَيْفَ الدَّولَةِ عَلِيًّا فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ ، وَخَدَمَ سَيْفَ الدَّولَةِ الْخَلِيفَةَ خَدَمَةً كَثِيرَةً ، وَلَقَّبَ الْخَلِيفَةُ ابْنَ حَمْدَانَ أَخَا سَيْفَ الدَّولَةِ بِنَاصِرِ الدَّولَةِ ، وَجَعَلَهُ أَمِيرَ الْأُمَرَاءِ ، وَخَلَعَ عَلَى أَخِيهِ أَبِي الْحَسَنِ وَلَقَّبَهُ سَيْفَ الدَّولَةِ .

(البداية والنهاية ١١ / ٢٠٢) بتصرف

وإلى هذا أشارَ أَبُو فَرَّاسٍ الْحَمْدَانِيَّ بِقَوْلِهِ :

فَفِينَا لِدِينِ اللَّهِ عِزٌّ وَمَنْعَةٌ وَمَنَا لِدِينِ اللَّهِ سَيْفٌ وَنَاصِرٌ

(٣) انظر: المتنبّي (ص ٣٠٢) بشيء من الاختصار والتصرف.

وأكثرهم سعيًا في ردّ الحكومة والسُّلطان إلى العرب ، كما كان من أعظمهم
همةً في مساعي المجد لنفسه ولقومه ، وأكرمهم خُلُقاً آسراً .

* ويُضاف إلى تلكم المكارم والمحاسن أنَّ سيفَ الدَّولةِ كان واسطةَ
العقدِ الفريدِ لبني حَمْدان ، فقد كان من بينهم محبّاً للأدب والمعرفة ، قائماً
على خدمته بإخلاصٍ ، وكان بطبيعته شاعراً حُلُوَ اللسانِ ، فصيحَ الكلامِ ،
خفيفَ الرُّوحِ ، بيانيّ الفِكرِ ، جيّد القريحةِ ، يحبُّ العربَ والعربيّةَ حبّاً
مَلَكَ عليه مجامعُ فؤاده ، وكان مبغضاً للأعاجم وورطانيّهم ولسانيهم الذي
أرادوا أن يغلبوا به على فارس وغيرها .

شَذَرَاتُ مَنْ بَطُولَاتِهِ وَإِقْدَامِهِ :

* كان سيفُ الدَّولةِ عالي الهمة ، بعيدَ المنال ، يحبُّ معالي الأمور ،
ويكرهُ سفاسفها ، وكان بطلاً مغواراً لا يقرُّ له قرار ، ولا يركنُ ولا يستريحُ
من معركةٍ إلا يفتتحُ معركةً أخرى مع الرُّوم ، ويقرعُهم برجاله وسيفه ،
حتى إنَّ أبا فراس الحَمْدانيّ قد امتدحه بقصيدةٍ تحدّثَ فيها عن همّته وكثرةِ
غزواته ، وأنَّ المخلوقاتِ من رجالٍ وخيلٍ وإبلٍ قد ضجّت لطولِ القتالِ
فقال :

قَدْ ضَجَّ جَيْشُكَ مِنْ طُولِ الْقِتَالِ بِهِ وَقَدْ شَكَّتْكَ إِلَيْنَا الْخَيْلُ وَالْإِبِلُ
وَقَدْ دَرَى الرُّومُ مَذْجَاوَرَتَ أَرْضَهُمْ أَنْ لَيْسَ يَعِصِمُهُمْ سَهْلٌ وَلَا جَبَلُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ تَزُورُ الثَّغَرَ لَا ضَجَرَ يَثْنِيكَ عَنْهُ وَلَا شَغْلٌ وَلَا مَلَلُ
فَالنَّفْسُ جَاهِدَةُ وَالْعَيْنُ سَاهِرَةٌ وَالْجَيْشُ مِنْهُمْكَ وَالْمَالُ مَبْتَذَلُ^(١)

* وتروي أخبارُ سيفِ الدَّولةِ شذرات من بطولاته التي هي غرّة في جبينِ
الدَّهرِ ، وواسطةٌ في عقدِ ثمين ، فقد غزا الرُّومَ أربعينَ غزوةً كانت له ،

(١) انظر : يتيمة الدهر (١/٢٨) .

وكانت عليه ، ومع هذا لم يفتّر عزمه ، ولم تثنّ همته ، بل صلبت قنائه ، وقويت شوكته ، فمن غزواته أنّه أغارَ على زبطرة ، وعركة ، وملطية ونواحيها ، فقتلَ وأحرقَ وسبى ، وانشئ قافلاً إلى دَرْبِ موزار فوجدَ عليه قسطنطينَ بنَ فردس الدّمستق ، فأوقعَ به ، وقتلَ صناديدَ رجاله ، وعقبَ إلى بلدانه ، وقد تراجعَ من هرب منها ، فأعظمَ القتلَ ، وأكثرَ الغنائمَ .

* ومنَ الجديرِ بالذكرِ أنّ سيفَ الدّولةِ قد فعلَ ما لم يفعله أحدٌ قبله ، إذ عبّر نَهْرَ الفُراتِ إلى بلدِ الرّوم ، حتى أغارَ على بطنِ هنزيط ، فلما رأى فردس بُعدَ مغزاه ، وخلوَ بلادِ الشّامِ منه ، غزا نواحي أنطاكية ؛ فأسرى سيفُ الدّولةِ يطوي المراحلَ لا ينتظر متأخراً ، ولا يلوي على متقدّم ، حتّى عارضه بمرعش ، فأوقعَ به وهزمه ، وقتلَ رؤوسَ البطارقة ، وأسرَ قُسطنطينَ بنَ الدّمستق ، وأصابَتِ الدّمستقُ ضربةً في وجهه ، وأكثرَ الشّعراءُ في هذهِ الوقعة ، فقالَ أبو الطّيبِ المتنبّي قصيدته الدّاليةَ الجميلةَ الشّهيرة :

| | |
|-------------------------------------|---|
| لِكُلِّ امرئٍ من دهرِهِ ما تَعوّدَا | وعاداتُ سيفِ الدّولةِ الطّعنُ في العِدا |
| وربّ مريدٍ ضرّهُ ضرٌّ نفسَه | وهادٍ إليه الجيشُ أهدى وما هدى |
| تظللُ ملوكُ الأرضِ خاشعةً له | تفارقُه هلكى وتلقاهُ سُجّداً |
| سريتُ إلى جيحانٍ من أرضِ آمِد | ثلاثاً لقد أدناكَ رُخْصٌ وأبعدا |
| عرضتُ له دونَ الحياةِ وطرفه | وأبصرَ سيفَ اللهِ منك مجرّداً |
| وما طلبتُ زُرُقَ الأسنةِ غيره | ولكنّ قسطنطينَ كانَ له الفِدا |

* ويستمرُّ المتنبّي في قصيدته الجميلةِ يذكرُ انتصارَ سيفِ الدّولةِ وفوزه حتى يصلَ إلى هذهِ الحِكمِ الجميلة :

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكته وإنّ أنتَ أكرمتَ اللّيثمَ تمرّداً
ووضعُ النّدَى في موضعِ السّيفِ بالُعلا مضرٌّ كوضعِ السّيفِ في موضعِ النّدَى

وما الدَّهْرُ إلا من رُؤاةٍ قَلائدي إذا قُلْتُ شِعْراً أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدا
ودَعَّ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَإِنِّي أنا الصَّائِحُ المحْكِيُّ والآخر الصَّدَى^(١)

* وأما أبو فراس ، فقد نسجَ رائعةً أخرى لا تقلُّ جمالاً عن داليةِ
المتنبِّي أفصح فيها عن شجاعةِ سيفِ الدَّولة ، ورسمِ خصائلهِ الحربيَّةِ ،
وانتصارهِ على قسطنطين فقال :

وَأَبَ بِقُسْطَنْطِينَ وَهُوَ مُكَبَّلٌ تحفٌ بطاريقٌ بهِ وزرازُرُ
وَوَلَّى عَلَى الرَّسَمِ الدُّمَسْتَقُ هارباً وفي وجههِ عَذْرٌ من السَّيْفِ عاذُرُ
فَدَى نَفْسَهُ بَابِنٍ عَلَيْهِ كَنَفِهِ ولِلشَّدَةِ الصَّمَاءِ تُقْنَى الذَّخَائِرُ
وقد يُقَطَّعُ العَضْوُ النَّفِيسُ لغيرهِ وتُدْفَعُ بِالْأَمْرِ الكَبِيرِ الكَبَائِرُ^(٢)

* وسار سيفُ الدَّولةِ كي يَبْنِي الحَدَثَ^(٣) في بلادِ الرُّومِ ، فعظمَ ذلك
على مَلِكِ الرُّومِ ، واشتدَّ عليه الأَمْرُ ، وأقامه المقيمُ المُقْعِدُ ، فجمعَ
عظماءَ أهلِ مملكته وقوادِه ، ومن يعتمدُ عليهم ، ثمَّ جهزهم بالصَّليبِ
الأعظمِ الذي يدَّخره لمهماتِ الأمورِ وعظائمِ الأحداثِ وجلالِ الأعمالِ ،
ثمَّ جعلَ عليهم فردسَ الدَّمَسْتَقِ ثائراً بابنهِ قسطنطين في عددٍ منَ الجنودِ
لا يُحْصَى ، وساروا حتى سدُّوا الأفقَ ، وأحاطوا بعسكرِ سيفِ الدَّولةِ
الحَمْداني .

* وبدأتِ المعركةُ ، والتهبَتِ الحربُ ، واشتدَّ الخَطْبُ ، واحمرتِ
الحدقُ ، وضاحتِ الأنفاسُ ، وكثر الرُّومُ على جيشِ سيفِ الدَّولةِ ، وبلغتِ

(١) ديوان المتنبِّي (١/ ٢٨١ - ٢٩١) .

(٢) انظر : يتيمة الدهر (١/ ٢٩) . و«الزَّرازِرُ» : جمعُ الزَّرَازِرِ ، وهو الذَّكي الخفيف .
و«تقنى» : تُدْخِرُ . و«الذَّخَائِرُ» : جمع ذخيرة : ماتذخره لوقت الحاجة .

(٣) «الحَدَثُ» : القلعةُ المشهورةُ التي بناها سيفُ الدَّولةِ ، وهي في بلادِ الرُّومِ ، وعليها
كانت الوقعة المشهورة بينه وبينهم .

القلوب الحناجر ، وساءت ظنون المسلمين ، وكادت تزيغ قلوبهم ، ثم أنزل الله عز وجل نصره على المسلمين ، وهنالك حمل سيف الدولة حملة حمداً صادقة ، أظهر فيها براعته الحربية ، وبسالته القتالية ، وراح يخرق صفوف الروم طلباً للدمستق ، فألقى الله الرعب بقلب الدمستق ، فولى هارباً ، ولم يعقب ، وأسِرَ صهره وابن بنته ، وقُتِلَ في هذه الموقعة كثير من الروم وأعلاجهم ، وأكثر الشعراء في هذه الموقعة ، ووصفوها ورسموها وخلدوها ، وخلدوا انتصار سيف الدولة ، فقال أبو الطيّب ، وذكر الحديث :

عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعِزِّ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدَرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
يَكْلِفُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْجِيْشَ هَمَّهُ وَقَدْ عَجَزَتْ عَنْهُ الْجِيُوشُ الْخِضَارِمُ
وَيَطْلُبُ عِنْدَ النَّاسِ مَا عِنْدَ نَفْسِهِ وَذَلِكَ مَا لَا تَدَّعِيهِ الضَّرَاغِمُ
هَلِ الْحَدُثُ الْحَمْرَاءُ تَعْرِفُ لَوْنُهَا وَتَعْلَمُ أَيَّ السَّاقِيَيْنِ الْغَمَائِمُ

* ومنها يذكرُ بناء الحديث :

بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنِيَا حَوْلَهَا مِتْلَاطِمُ
وَكَانَ بِهَا مِثْلَ الْجَنُونِ فَأَصْبَحَتْ وَمِنْ جَثِّ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمُ
وَكَيْفَ تَرْجِي الرُّومَ وَالرُّوسُ هَدَمَهَا وَذَا الطَّعْنِ أَسَاسٌ لَهَا وَدَعَائِمُ

* ثم يذكرُ كثرة الروم :

أَتَوْكَ يَجْرُونَ الْحَدِيدَ كَأَنَّهُمْ سَرَوْا بِجِيَادٍ مَا لَهْنٌ قَوَائِمُ
خَمِيسٌ بِشَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبُ زَحْفُهُ وَفِي أُذُنِ الْجُوزَاءِ مِنْهُ زَمَائِمُ

* ثم يصفُ شجاعته وثباته :

وَقَفْتَ وَمَا فِي الْمَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفِ كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ الرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ
تَجَاوَزْتَ مِقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالنُّهَى إِلَى قَوْلِ قَوْمٍ أَنْتَ بِالْغَيْبِ عَالِمُ
نَشَرْتَهُمْ فَوْقَ الْأَحْيَادِ نَشْرَةً كَمَا نُثِرَتْ فَوْقَ الْعُرُوسِ الدَّرَاهِمُ

* ثم يذكر فرار الدّمستق ، وقَتْل ولده وصهره فيقول :

أفي كلّ يومٍ ذا الدّمستقُ مقدّمٌ قَفاه على الإقدامِ للوجهِ لائِمُ
وقد فجّعتَه بابنه وابنِ صهرِه وبالصّهرِ حملاتُ الأميرِ الغواشمِ^(١)

* وهكذا كانت غزواتُ سيفِ الدّولة وحروبه كثيرةً مع الرّوم الذين أجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم ، وكانت نيّة سيفِ الدّولة ضمّ أشتات البلاد الشّامية تحت سُلطانِه ، ولكنّ الحروبَ قد استهلكت كلّ قوّته ، فلم يجد متسعاً لنيّته في توطيد حكمه في الشّام ، ولكنّه استجمع قوّته فمالَ على العراق ، وردّ أمرَ الحكمِ إلى نصّابه .

* يقولُ محمود محمّد شاكر : ونحنُ نظنُّ أنّ السّببَ في كثرةِ غزواتِ الرّوم في عهدِ سيفِ الدّولة لبلاد الشّام وأطرافها أنّ الذين كانوا يفتنون النّاسَ ببغدادَ من الأعاجم والرّوم والترك والديلم لينالوا ما يريدون ، علموا بأمرِ سيفِ الدّولة ، وما اعتزَمَ من الميلِ عليهم ميلاً رابيةً ، فأوعزوا إلى ملكِ الرّوم أنّ يقاتلَه ، وأوقعوا في قلبه أنّ سيفَ الدّولة إنّما يريدُ أن يزيلَ الملِكَ من بين يديه ، ويغلبه على بلادِه ، فتمّ لهم بذلك ما أرادوا من صرفِ

(١) انظر : ديوان المتنبي (٤/ ٣٧٨ - ٣٩٠) باختصار وتصرف واختيار .

قال ابنُ خالويه : لما لحقَ الدّمستقُ ما لحقَه ، وأسرَ ابنُه وابنُ أخيه ، وماتَ في حبسِ سيفِ الدّولة ؛ جَمَعَ عساكره ، وقصدَ الثّغور ، فسارَ إليه سيفُ الدّولة ، والتقوا عند الحدثِ ، وسيفُ الدولة نازلٌ عليهم ، فلما أشرفَ الدّمستقُ على الأحيَدب - وهو جبلٌ مطلٌّ عليها - هالَ المسلمين ما رأوا وتسلّلوا عن سيفِ الدّولة ، وكان في عدّةِ يسيرةٍ ممن بقيَ معه ، فحملَ عليهم سيفُ الدّولة فيمن ثبَتَ معه ، وكانَ له بصيرةٌ ، فأنزلَ اللهُ الصّبرَ والنّصرَ ، فولّى الدّمستقُ هارباً ، وأسرَ صهره وابنُ بنته وقرابات له ، فاستبقاهما سيفُ الدّولة وقَتَلَ الباقي .

ويدلُّ كلام ابن خالويه أنّ ذلك كان سنة ٣٤٣ هـ . وكذلك قال ياقوت : إنّ خروجَ سيفِ الدّولة لبناء الحدث كان سنة ٣٤٣ هـ .

سيف الدولة عن غزوهم وتمزيقهم ، واحتلال أرضهم ، وانتزاع السلطان من أيديهم ، وكان سيف الدولة على علم بما يبيتون له من المكر ، فكان ينزل الروم ويواقعهم ، ويعُدُّ انتصاره وهزيمة الروم انتصاراً لدعوته العربية ، وهزيمة للأعاجم أصحاب هذا المكر ، وهزيمة لمن وقع في حبالهم من العرب الذين لهم سلطان هؤلاء ؛ ولذلك كان وقع انتصاره في العراق ، وما وراء دجلة كوقع الصّاعقة على رؤوس الفتنة ، وعلى الذين تولّوا كبر هذا المكر السيئ والكيد الخفي .

* وأجدت هذه الوقائع - التي انتصر فيها سيف الدولة على جيوش الروم - عداوة أصحاب السلطان من الأعاجم لدولة بني حَمْدان ، فطفقوا يعملون على تفريق شمل من اجتمع إلى سيف الدولة ، وآزره ونصره ممن كان بالموصل والشّام وغيرهما ، وبذلوا في مسعاتهم أموالاً وذخائراً ، ولولا ما كان عليه سيف الدولة من الكرم والسّخاء وبسط اليد للعافين والمريدين طبيعةً مركّبةً في أصل خلقه لأعيوه ، ولأخرجوا من سلطانه أكثر من دان له ، ورضي به وبحكمه ، ولأعانهم على ذلك ما يرون من المظالم التي ارتكبتها سيف الدولة مدّة حكمه وسلطانه^(١) .

* وهكذا كان سيف الدولة سيفاً مُصلّتاً على أرباب الفتن وأعلام المكائد ، وكبراء الأعاجم وكُبّار المفسدين ، مدركاً للمكايد التي كانوا يحيكونها ، خبيراً بما تكنّه نفوسهم ، ولذا فقد كان مضطّلاً بأعباء كثيرة منها: إيقاظ الهمم العربية ، ومنها: القضاء على الفتن التي أوهت قوّة الدولة العربية ، وفَتّت في عضدها .

* وكان سيف الدولة الرّجل الصّرب الشّجاع المستبسل الذي لا يهابُ

(١) انظر: المتنبي (ص ٣٠٣ و ٣٠٤) .

ولا يفتر ، بل يتقحّم ولا يزداد على البلاء إلا مضاءً وعزيمة وإقداماً ، وهو الرجل الذي ينفذ في بصره وبصيرته إلى عواقب الأمور ، فلا يغفل ولا ينام ولا تغمض له عين ، ولا يصبر على ضيم . فهو الرجل العربي المخلص الذي أعمل فكره في إنقاذ أمته ، وجاهد في سبيل ذلك بقلبه ولسانه وفكره وسنانه ، فقد انطوت جراحه على الجهاد وقاتل الروم وإزاحتهم عن البلاد العربية ، وإراحة العباد من شرهم ومن حقدهم الدفين .

مَجْدٌ وَشُهْرَةٌ :

* لعل سيف الدولة الحمداني أشهر أمير عربي خلّدت مَدائحُ أمير شعراء عصره وهو أبو الطيّب المتنبّي ، فقد رسم أبو الطيّب في قصائده سيف الدولة أبدع رسم وأحلاه ، وكأن صورة سيف الدولة ماثلة في الأذهان في كل عصر وأوان ، ولعل سرّ خلود الرجلين أنّ سيف الدولة كان أمير العرب في الشام ، فأحبّه المتنبّي وأمل فيه الخير والبركة والنصر لآرائه وأفكاره التي تلتقي مع آراء سيف الدولة ، كما أنّ المتنبّي كان أمير شعراء عصره ، وفارس اللسان والسنان ، فراح يسبغ على سيف الدولة حُللاً فواضلها من ألوان البيان وروائع الأشعار ، ورائق النظم .

* وتلاً مجد سيف الدولة في شعر المتنبّي فقرّبه ، وزاد عطاء وإقطاعاً ، وأسبغ عليه نعمة ظاهرة الجود ، فتفجّرت حيالها عبقرية المتنبّي التي كان يلحظها سيف الدولة بحسن فراسته وذكاؤه ، حيث علّم أنّ أبا الطيّب هذا سيكون مخلّد ذكره ، وحافظ عهده وأخباره وصفاته في شعره الذي يبلغ أذن الجوزاء ، ويُشرّق ويغرّب ويحظى بمساحة واسعة من نفوس الناس بمختلف البلدان .

* إنّ سيف الدولة رجل آتاه الله فهماً وذكاءً ، فليس مثله يغفل عن عبقرية المتنبّي الصارخة ، فقد كان سيف الدولة أديباً شاعراً ، قد اجتمعت

لَهُ مِنْ أَدَاةِ الْأَدَبِ وَالشُّعْرِ أَدَاةٌ كَامِلَةٌ مَتَقَنَةٌ ، وَكَانَ بَصِيرًا بِنَقْدِ الشُّعْرِ ، نَافِذًا فِي إِدْرَاكِ أَسْرَارِ الْبَيَانِ ، مِمَّا جَعَلَ الْمُتَنَبِّيَ يَجِيدُ الشُّعْرَ ، وَيَقْلُبُ الْمَعَانِي ، وَيَخْتَارُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ ، وَيَصْطَفِي مِنَ الْأَلْفَاظِ مَا يَتَنَاسَبُ مَعَ الْمَعَانِي وَالْمُنَاسَبَةِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا أَشْعَارَهُ وَقَصَائِدَهُ .

* لَذَلِكَ فَقَدْ بَقِيَ الْمُتَنَبِّيُ فِي ظِلِّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ بَضْعَةَ عَشَرَ عَامًا^(١) يَقُولُ فِيهِ الشُّعْرَ مُمَجَّدًا لَهُ ، وَرَافِعًا مِنْ ذِكْرِهِ ، وَذَكَرَ غَزَوَاتِهِ وَحُرُوبِهِ ، وَوَصَفَهُ وَوَصَفَ انتصاراته على الروم .

* وَقَدْ رَوَوْا أَنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ أَنْفَذَ هَدِيَّةً إِلَى الْمُتَنَبِّيِّ سَنَةَ (٣٥١ هـ) ، فَأَهْدَاهُ قَصِيدَةً لَامِيَّةً كَتَبَهَا مِنَ الْكُوفَةِ إِلَى حَلَبَ يَذْكُرُ فِيهَا بَطُولَاتِهِ الْخَارِقَةَ ، وَغَزَوَاتِهِ الْمُتتَالِيَةَ لِلرُّومِ وَمِنْهَا :

لَيْسَ إِلَّاكَ يَا عَلِيُّ هُمَامٌ سَيْفُهُ دُونَ عَرْضِهِ مَسْلُورٌ
أَنْتَ طَوَّلَ الْحَيَاةِ لِلرُّومِ غَاوِ فَمَتَى الْوَعْدُ أَنْ يَكُونَ الْقُفُولُ
وَسَوَى الرُّومِ خَلَفَ ظَهْرَكَ رَوْمٌ فَعَلَى أَيِّ جَانِبِكَ تَمِيلُ
قَعَدَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَنْ مَسَاعِي كَ وَقَامَتْ بِهَا الْقَنَا وَالنُّصُولُ^(٢)

* وَهَكَذَا سَجَّلَ الْمُتَنَبِّيُّ مَجْدَ وَشَهْرَةَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، فَكَانَ فَارِسَ التَّارِيخِ الْحَمْدَانِيَّ ، وَفَارِسَ بَنِي حَمْدَانَ ، وَفَارِسَ الْفُرْسَانَ فِي عَصْرِهِ .
مِنْ مَزَايَا سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

* هُوَ ذَا سَيْفِ الدَّوْلَةِ الْحَمْدَانِيَّ قَدْ عَرَفْنَا شَيْئًا عَنْ فُرُوسِيَّتِهِ وَشُهْرَتِهِ وَمَكَانَتِهِ بَيْنَ فُرْسَانَ التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ ، بَلْ وَرَجَالِهِ الْمَشَاهِيرِ الْمِيَامِينَ الَّذِينَ عَمَلُوا عَلَى إِثْرَاءِ بَنِي يَعْرَبَ بِكُلِّ مُحَاسَنِ الْفَضَائِلِ وَفَضَائِلِ الْمُحَاسَنِ .

(١) (من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٤٦) .

(٢) انظر : ديوان المتنبي (٣/ ١٤٨ - ١٥٨) والقصيدة مؤلفة من (٤٢ بيتاً) .

* وكان سيفُ الدَّولةِ من طلابِ العُلا ، ومن المتَّيِّمين ببيضِ المَعالي ، سَطَعَ نجمُه ، وصَعِدَتْ همَّتُه في سماءِ المكارم ، وكانَ سَيْفًا أَقامَ عمودَ الدِّينِ بهمَّتِه القَعَسَاءَ ، وكانتِ المَنايا خَدماً لَه في أَيَّامِ وقائِعِه ، وإذا انتَضَى أَسِيفَه في المِعارِكِ ، فَإِنَّ غُمودَهِنَّ هَامُ الكُماةِ مِنَ الرُّومِ .

* لقد كان سيفُ الدَّولةِ البطلَ العربيَّ الأَبَيَّ الكَمِيَّ الذي ثَبَتَ في وَجْهِ الرُّومِ مَدَّةً مِنَ الزَّمنِ ، وردَّ عاديَتَهُم عن بلادِ الشَّامِ مِنْ غاراتِهِم وحكَمَهُم ، فقد أنشأَ دولَتَه في ظَرْفِ حَرَجٍ مِنْ ظُرُوفِ العَرَبِ والمُسلمين ، وذلك حينَ قامَ «نَقْفُورُ فُوقاسِ الثَّاني» يَلُوحُ بِمِطامِيعِ الهُوجاءِ ، ويزمجرُ بِأمانِيهِ الواسِعَةِ في استردادِ بلادِ الشَّامِ ، والنَّفاذِ مِنْها حتَّى إلى الحِجازِ ، وكانَ ضَعْفُ الخِلافةِ في بَغدادَ ، وتَشَتَّتْ قُواها ، ممَّا أَغْرَاهُ على الطَّمعِ وشَجَّعَهُ على الإقدامِ ، بيدَ أَنَّهُ لَقِيَ الجَبَلَ الشَّامِخَ الذي تحطَّمتْ عليه آمالُه وتبعثرتْ فيه مطامِعُه ؛ هذا الجَبَلُ هو سيفُ الدَّولةِ الذي واجَهه بفُروسِيَّتِه وشِجاعَتِه وبسالَتِه ، فلوى عزمه وردَّه خائبًا ، وتغلَّغلَ في صَمِيمِ بلادِه ، واشتَبَكَ مَعَه بِمِعارِكِ كانَتْ مِنْ أَجْمَلِ ما سَطَّرَتْهُ صَفحاتُ تاريخِنا الحربيِّ والأدبيِّ والسِّيَاسيِّ ، وحسْبُكَ أَنَّها أَظهَرَتْ بَطْلاً مُغَوَّراً ، وفارساً مِنْ طرازِ فَرِيدِ كَسيفِ الدَّولةِ الحَمْدانيِّ ، كما أَبرزَتْ بضعةَ شُعراءَ مِنْ مشاهيرِ شُعراءِ الدُّنيا وفي مُقدِّمتِهِم : أبو الطَّيِّبِ المِنتَبيّ ؛ وأبو فِرَاسِ الحَمْدانيِّ ، وكانتَ تَلْكمُ المِعارِكُ كَفيلاً بِحِمايَةِ البلادِ وحَفْظِها مِنْ كيدِ وغَدْرِ الرُّومِ إلى ما شاءَ اللهُ .

* ومنَ العَجيبِ أَنَّ سيفَ الدَّولةِ كانَ فارساً في مُعْظَمِ المِيادينِ النَّافِعةِ ، فقد كانَ مُجَلِّياً سَبَّاقاً في المِيدانِ الحربيِّ ، كما كانَ سابِقاً في مِيادينِ العُلُومِ والآدابِ والفُنونِ ، حيثَ جُمِعَ في بِلادِه ثَلَّةٌ مِنْ أَعْلِياءِ عُلَماءِ عَصْرِه ، وأكابرِ مُضَرِّهِ مِنَ الشُّعراءِ والأدباءِ والفلاسِفةِ ، وكُلُّهُم كانَ مِنَ الأَخيارِ

الذين حافظوا وساعدوا على توثيق تراث الأمة العربيّة ، وجعلَ ثقافتها الأولى بين معارف دنيا ذلك العصر .

* ولعلّ من أبرز مزايا سيف الدولة التي جذبت إليه أفراد الدَّهر ، وأفذاذ العَصْر ، تلك الشَّجاعةُ والجرأةُ والإقدامُ ، كذلك حروبه المتعدّدة ، وجوده الفياض ، وحبّه للأدب ، وبصره بالشَّعر والشُّعراء ، فكان يعزّز فيهم روح المنافسة ، وروح العِلْم ، فغدا قصره - إن صحَّ القول - دائرة معارف ، وبيت حكمة ، وكعبة العِلْم في دنيا العلم عصر ذاك .

* ولقد كانت شجاعة سيف الدولة تشهد له وهو في ريعان الصِّبا وزمن الفتوة ، فقد بدأ غزو الرُّوم ومحاربتهم في سنّ مبكرة لا يتجاوز عمره عقدين من الزمن في الوقت الذي كان أقرانه ينعمون بالنوم ، والتلذذ برياحين البساتين ، ولهو الشباب .

* وكان سيف الدولة بطلاً مقدّماً ، لم يكفّ عن المعارك أبداً ، وإنما كان يباشرها بنفسه ، راكباً وماشياً فارساً وراجلاً ، وظلّ كذلك قرابة ثلث قرْن من الزمن حتى وافته المنية ، فلا يكاد يمرُّ عليه عامٌ أو بعضُ عامٍ إلّا نراه في سَيْر إلى الحرب إمّا غازياً أو مُدافعاً ، وكان مُنتصراً مرّاتٍ منهزماً مرّة .

* قال عنه الإمامُ الدَّهبي - رحمه الله - : وله غزو ما اتَّفَقَ لملكٍ غيره ، وكان يُضْرَبُ بشجاعته المثل ، وله وَقَعٌ في الثُّغُوسِ فالله يرحمه ^(١) .

* وعن كثرة مغازيه تروي الأخبارُ أنّه كان كلّما رجعَ من غزوةٍ نفَضَ ما علَقَ بِشِيايِهِ من غبارٍ حتّى جمعه قَدَرٌ لَبَنَةٍ ؛ قال الدَّهبي : وكان قد جمعَ من

(١) سير أعلام النبلاء (١٦/١٨٨) .

الغبار الذي يقع عليه وقت المصافاة ما جُبِلَ في قَدْرِ الكَفِّ ، وأوصى أن يوضع على خَدِّهِ^(١).

* ومهما يكن من أمرٍ في هذا ، فإنَّ في هذا القولِ دليلٌ جميلٌ على كثرة غزواتِ سيفِ الدولة وحروبه مع الرُّوم .

* ومن الطَّبِيعِي - بعد أن عرفنا هذا كله - أن تقترنَ شجاعة سيفِ الدولة بفروسية ماهرة ، فيظهرُ سيفُ الدولة من أشهر فُرسانِ عَصْرِهِ ، وربما يصلح أن نسمِّيه : «سيفُ دَوْلَةِ الخَيْلِ» لكثرة ركوبه إياها ، فقد كان يُرى راكباً الخيل ، غازياً عليها ، وكان يطاعنُ بالرَّمح ، ويجالذُ بالسَّيف ، ويستعملُ أحياناً نوعاً من السَّلاح يعرف بالمُسْتَوْفِي^(٢).

* وقد عُرِفَ سيفُ الدولة بفروسية عربيةٍ مُحَضَّةٍ ، كما عُرِفَ بِحُبِّهِ وعصبية للعرب ، ولعلَّه كان ممثلاً العروبة الوحيد ذا الصَّوتِ المسموع في ذلك العَصْر ؛ وهذه أقوالُ شعراءِ عَصْرِهِ تشهدُ له بذلك ، بل إنَّ عروبتَهُ هذه كانت من الأسبابِ الرئيسيَّة التي جعلتِ المتنبِّي - وهو شاعرُ العربيَّة الأكبر والأشهر - يتَّصلُ به ذاك الاتِّصال الوثيق ، فمثلاً في عَصْرِهِما التزعة العربيَّة سياسةً وأدباً ظلَّ محفوظاً في الأذهانِ إلى هذا الزَّمان .

* وممَّا هو جديرٌ بالذكرِ أن نشيرَ إلى مملكةِ سيفِ الدولة الواسعة التي حمَّاهَا بفروسيته وشجاعته ، فقد كانت مملكته تمتازُ بكثرة المُدن المهمَّة في بلاد الشَّام من مثل : حلب ، وأنطاكية ، وقنسرين ، ومنبج ، وبالس ، ومعرة النعمان ، ومعرة مصرين ، وسرمين ، وكفر طاب ، وأفاميا ، وإعزاز ، وحماة ، وحمص ، وطرطوس ، وغيرها ؛ كما أنَّها كانت تمتازُ بكثرة

(١) سير أعلام النبلاء (١٦/١٨٩).

(٢) «المستوفي» : عمودٌ من حديدٍ طوله ذِراعان ، مربَّع الشَّكل ، له مقبضٌ مستدير .

الثُّغُور التي تسمّى : الثُّغُور الجزريّة ، لأنّ أكثرَ المِرابطين بها من أهلِ الجزيرة .

* ومن الثُّغُور المهمّة أيضاً : المُصَيَّصَة ، وأدنة ، ومرعش ، وطرطوس ، والحدّث ، وزبطرة ، وملطية ، وسميساط ، ورعبان ، ودلوك ، يُضاف إلى ذلك كلّهُ : ديار بكر التي وُلِدَ فيها سيفُ الدَّولة ، ثم دُفِنَ في إحدى مدنها وهي ميفارقين ، وديار مُضَر التي كانت الرِّقَّة عاصمةً لها ، ثم ما تمّ له فتحه من بلاد أرمينية .

* وفي سيرة سيفِ الدَّولة وبطولته وقفاتٌ تلفتُ النَّظَرَ ، حيث نلمحُ أنّه قائدٌ محاربٌ جريٌّ جرأةً واضحةً ، دفعته إلى أن يغزو البيزنطيين أكثر من مرّة ، وكان ما يزالُ في منتصفِ العقدِ الثالث من عمره ، فقد أوغلَ بجيشه ذي العددِ المحدود داخلَ الأراضي البيزنطيّة ، فاضطر الدّمستقُ أن يخرجَ إليه على رأسِ مئتي ألف محارب وهم في أحسنِ تجهيز حربي ، فأنزلَ الله نَصْرَهُ على سيفِ الدَّولة ، وأسرَ سبعينَ بطريقاً ، واستولى على سريرِ الدّمستق وكرسيه .

* ومما يدلُّ على شجاعةٍ وجرأةٍ سيفِ الدَّولة أيضاً ، ما قام به من غزو الروم ، ولم يكذُ يمضي على الغزوة السَّابقة سنتان ، وتوغَّله في أراضي الإمبراطورية البيزنطيّة ، ووصله إلى مواضع لم تطأها قدماً مُسلم من قبلُ ، وتحديده للإمبراطور ، ونزوله إلى قلوئيّة .

* وقد التقى سيفُ الدَّولة أباطرة مشهورين في عصرهم بالفروسيّة ، فتغلَّب عليهم ، ومنهم : برداس فوكاس ، وأخوه نقفور فوكاس ، ومن قبلهما قسطنطين ليكابينيوس الذي تحدّاه سيفُ الدَّولة في غزواته قبل الملك .

* فأما القائدُ الفارسُ البيزنطي برداس ، فقد التقى سيفَ الدَّولة في بضعة معارك ، ولم يحرزُ نصراً واحداً رغم كثافة جيوشه وكثرة جنوده ، وإنّما

كان يفقد في كل معركة جانباً كبيراً من جيشه ، وعدداً خطيراً من بطارقه وقواده ، وكان سيء الحظّ حينما التقى سيف الدولة قرب مرعش سنة (٣٤٢ هـ) ، وفي هذه المعركة جرح برداس في وجهه ، ووقع ابنه قسطنطين أسيراً في يد سيف الدولة ، فضلاً عن أسرى آخرين من القواد .

* وكانت هذه المعركة من أكبر النكبات التي مرّت على الرّوم ، حيث حزن برداس حزناً شديداً على أسر ولده ، ودخل الدير مترهباً ، وتسابق شعراء سيف الدولة فوصفوا هذه الحادثة وصفاً بارعاً ، ومنهم المتنبي الذي شدّا بقصيدة لامية رائعة مطلعها :

لياليّ بعد الظّاعنين شكول طوالّ وليلّ العاشقين طويل
* ومنها يذكر قسطنطين بن الدّمستقّ مقدم الرّوم وكيفية أسره ، وكيف هرب الدّمستقّ ، وسلّم ابنه للرّماح الخطيّة هارباً عنه ، وتركه في قبضة الأسر ، فيقول :

على قلب قسطنطين منه تعجّب وإن كان في ساقيه منه كبول
لعلّك يوماً يا دمستقّ عائد فكم هارب ممّا إليه يؤول
نجوت بإحدى مهجتك جريحة وخلفت إحدى مهجتك تسيل
أسلم للخطيّة ابنك هارباً ويسكن في الدنيا إليك خليل^(١)
سيف الدولة شخصيّة بطوليّة :

* في رحاب فرسان التاريخ وأبطالهم وبطولاتهم ، تطلع علينا بطولات سيف الدولة الفذة التي كان لها شأن خطير في دفع العدوان البيزنطي عن الأرض العربية .

* وتروي الأخبار «السيفيّة» أنّ سيف الدولة قد وقف متحدّياً متصدّياً في

(١) انظر : ديوان المتنبي (٣/ ٩٥ - ١٠٦) والقصيدة طويلة تعد (٦٥ بيتاً) .

الميدان يناجُ ويحاربُ جيوشَ الإمبراطورية البيزنطية الكبرى في تلكم الفترة الحرجة التي كانت فيها قوة الدولة العباسية أوهى من خيط العنكبوت، وكانت قد تمزقت شذراً مذراً، وتقاذفتها أطماعُ الطامعين من كل مكان، حتى إنّ النزعة الشعبية قد برزت بروزاً واضحاً، وأخذت تتحكم وتفرضُ رأيها، وتعمل جهدها كي تقضيَ على العنصر العربي والروح العربية التي تشرفت بالإسلام.

* وفي هذه الفترة العصيبة الحرجة، نهض سيف الدولة الحمداني نهضة الغيورين، وأسس الدولة الحمدانية في حلب، ومن ثمّ اتخذ من قلعتها الحصينة معقلاً ليردّ الغزاة عنها، وليصون الأرض العربية من الغزوات البيزنطية^(١).

* نعم إنّ سيف الدولة له عادات حلوة منها الطعنُ في العدا، كلما كرّر العدا العدوان على العرب والمسلمين، فسيف الدولة والحمدانيون بطن من تغلب بن وائل، أي أنهم ينحدرون من أصل عربي صميم صريح من العدنانية التي ولدت العربية، ونشأت في كنفها.

* وخاض سيف الدولة المعارك المتواصلة مع البيزنطيين للحفاظ على ذياك المجدي الأثيل العريق، حتى إنّ معاركه وغزواته كانت أغاريد نشوى على أفواه الشعراء وشفة الزمن ولحن الخلود.

(١) لعل دور البطولة الرائع الذي صنعه سيف الدولة في ردّ البيزنطيين عن جسم الدولة العربية الإسلامية، قد جاء من بعده فرسان أشداء صنعوا مجداً مؤثلاً، فقد جاء عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وردّوا حملات الغزاة الأوربيين الذين تجلببوا في رداء الصليبيين، ودحروهم في أكثر من معركة شهيرة من المعارك الإسلامية في التاريخ، وحسبك حطين اسماً لامعاً في جبين التاريخ.

* وكان يروى لسيف الدولة أن يصحب معه الشعراء^(١) كيما يروا معاركه وانتصاراته ، فإذا وصفوا أعماله ، وصفوا معاركه ، وحقيقة غزواته وبطولاته ، ولم يهيموا في أودية الخيال ، أو يسيروا على جناحين فوق السحاب ، يسمعون ولا يرون ، لذا جاءت أوصافهم تطابق واقع سيف الدولة.

* ولعل قصائد المتنبي التي تسمى «السيفيات» ، والتي جاوزت ثمانين قصيدة^(٢) ، هي روائع عالمية في تصوير المعارك الحمداية بقيادة الشخصية الفذة الحربية سيف الدولة .

* فقد رافق المتنبي سيف الدولة في غزواته ، وشهد بعض معاركه فوصف البطولة العربية وصفاً دقيقاً ، كما وصف شخصية سيف الدولة أدق وصف ، اسمع إليه يقول :

فيوماً بخيلٍ تطرد الرُّومَ عنهمُ ويوماً بجودٍ تطردُ الفقرَ والجُدبَا
سراياك تترى والدمستقُ هاربُ أصاحبه قتلَى وأمواله نهبى^(٣)

(١) قال ابن العماد الحنبلي: وأخباره كثيرةٌ مع شعراء وقته ، كالمتنبي ، والسري الرفاء ، والنامي ، والأواء ، وتلك الطبقة . (شذرات الذهب ٤ / ٢٩٤)

(٢) ظل المتنبي تسع سنين كواًمل لم يفارق سيف الدولة ، ولا سيما في فترات الجهاد التي مرّت في حياته ، وقد ذهب الدكتور طه حسين إلى أن شعر المتنبي في سيف الدولة إن لم يكن من أجمل شعره وأروع وأحقه بالبقاء ، فهو من أجمل الشعر العربي كله ، وأحقه بالبقاء .

(٣) لازم المتنبي سيف الدولة تسع سنين أتحف الأدب العربي بأجمل ما يتحف به شاعر ، وضمت إلى قائمة فحول شعراء العربية شاعراً عجمت العربية أن تلد مثله .

وقد خلّد المتنبي سيف الدولة بقصائده الحسان ، وخلّد سيف الدولة المتنبي بعطاياه الحسان .

* هذا ولو رحتُ أستقصي لك مثل هذه الأخبار ، لما وسع المجال هنا ، وحسبنا بما علمنا من هذه الأخبار والصّور التي ترسمُ معالمَ شخصيّة سيف الدّولة ، وتقربها إلى الأذهان ، وخصوصاً بما وصفه المتنبّي^(١).

* وكانت دولته نيفاً وعشرين سنة ، وبقي بعده ابنه سعدُ الدّولة في ولاية حلبَ خمساً وعشرين سنة^(٢) ، وبعده ولده أبو الفضل ، وبموته انقرضَ مُلك بني سيفِ الدّولة ، وغربت شمسُها ، وأفل نجمُها^(٣).

الشّجاعُ الجَوادُ وشذراتُ من أخبارِه :

* وجودُ علينا التّاريخُ بأخبارِ جُودِ سيفِ الدّولة بما يربطُ الأسماعَ والقلوبَ ، فقد قيل : إنّه في عيدٍ نفَّذَ إلى النّاس ضحايا لا تُعدُّ كثرةً ، فبعثَ إلى اثني عشر ألف إنسانٍ ، فكان أكثرُ ما يبعثُ إلى الكثير منهم مئة رأسٍ ، وتوفيت أخته ، فخلّفت له خمسمئة ألف دينار ، فافتك بجميعها أسرى^(٤).

* وجودُ سيفِ الدّولة مُتعالماً مشهوراً معروفً ، وانفجارُ ينابيع جوده

(١) عطفَ الأميرُ العربيُّ الجَوادُ سيفُ الدّولة الحمدانيّ على الشّاعر العربي الكبير أبي الطّيب المتنبّي ، وأُعجبَ بمزايه وأدناه وقربه إليه وأغدقَ عليه .

وكانت عطايا سيفِ الدّولة الحمدانيّ وهباته وصِلاته لأبي الطّيب المتنبّي عظيمةً وذات شأنٍ وقيمةً ، فقد ذكرَ البغداديّ في «خزائنه» أنّ ما ناله المتنبّي من سيفِ الدّولة في أربع سنين بلغَ خمسةً وثلاثين ألف دينارٍ ، وكان يعطيه في كلّ سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاثِ قصائد ما عدا العطايا الخاصّة .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (١٦/١٨٩) وشذرات الذهب (٤/٢٩٣) .

(٣) شذرات الذهب (٤/٢٩٣) .

وللمزيد من سيرة سيفِ الدّولة الحمداني تُراجِعُ كتب التّاريخ المتخصّصة حيث استوفت كثيراً من أخبارِه .

(٤) سير أعلام النبلاء (١٦/١٨٨) .

على الشعراء معروفٌ لدى الناس ، ذكرَ الثعالبيُّ في «يتيمة الدهر» قال :
 حدَّثني أبو الحسن عليُّ بنُ محمد العلويِّ الحُسَيني الحمداني قال : كنتُ
 واقفاً في السَّماطين بين يدي سَيْفِ الدَّولة بحلب ، والشُّعراء ينشدونه ،
 فتقدَّم إليه أعرابي رثَ الهَيْئَةِ ، فاستأذَنَ الحجابَ في الإنشادِ ، فأذنوا له ،
 فأنشدَ :

أَنْتَ عَلِيٌّ وَهَذِهِ حَلْبُ قَدْ نَفَدَ الزَّادُ وَانْتَهَى الطَّلَبُ
 عَبْدُكَ الدَّهْرُ قَدْ أَضَرَّ بِنَا إِلَيْكَ مِنْ جُورِ عَبْدِكَ الْهَرَبُ
 فقال سيف الدولة : أحسنت ، والله أنت ! وأمر له بمئتي دينار^(١) .

* ومن أخباره المُطربة التي تدلُّ على أدبه وفهمه للشعر ، ما ورد أنَّ
 أبا فراس الحمداني^(٢) ، كان يوماً بين يديه في نَفَرٍ من ندمائه ، فقال لهم

(١) يتيمة الدهر (٢٠/١) .

(٢) أبو فراس ؛ الأميرُ أبو فراس الحارث بنُ سعيد بن حمدان التَّغَلبيُّ هو ابنُ عمِّ سيفِ
 الدَّولة الحمداني .

قال عنه الذهبي : الأميرُ أبو فراس الشَّاعرُ المفلِّحُ ، وكانَ رأساً في الفروسية والجودِ
 وبراعةِ الأدب .

وقال عنه الثعالبيُّ : كانَ فردَ دهره ، وشمسَ عصره أدباً وفضلاً ، وكَرَمًا ونُبلاً ،
 ومجداً وبلاغَةً وبراعةً ، وفروسيةً وشجاعةً ، وشعرُهُ مشهورٌ سائرٌ بينَ الحسنِ
 والجودةِ ، والسُّهولةِ والجزالةِ ، والعذوبةِ والفخامةِ ، والحلاوةِ والامتانةِ ، ومعه
 رواءُ الطَّبعِ ، وسمَةُ الظَّرْفِ ، وعِزَّةُ المُلْكِ ، وكانَ الصَّاحبُ يقول : بُدِيَءَ الشُّعْرُ
 بملكٍ ، وخُتِمَ بملك . يعني امرأَ القيس وأبا فراس . وكانَ المتنبِّي يشهدُ له بالتقدمِ
 والتَّبريزِ ، ويتحامى جانبه ، فلا ينبري لمباراته ، ولا يجترىءُ على مجاراته ، وإنَّما
 لم يمدحْهُ ومدحَ مَنْ دونه من آل حمدان تهيُّباً له وإجلالاً ، لا إغفالاً وإخلالاً . وكان
 سيفُ الدَّولة يُعْجَبُ جدًّا بمحاسنِ أبي فراس ، ويميِّزه بالإكرام عن سائرِ قومه ،
 ويصطنعه لنفسه ، ويصطحبه في غزواته ، ويستخلفه على أعماله .

أسرتهُ الرُّومَ جريحاً ، فبقيَ بقسطنطينية أعواماً ، ثمَّ فداه سيف الدولة منهم
 بأموال ، وأعطاهُ أموالاً جزيلةً وخيلاً ومماليك .

سَيْفُ الدَّوْلَةِ : أَيْكُمْ يَجِيزُ قَوْلِي ، وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا سَيْدِي - يَعْنِي أَبُو فِرَاسٍ - :
لَكَ جِسْمِي تُعَلِّهُ فَدَمِي لِمَ تَحُلُّهُ
لَكَ مِنْ قَلْبِي الْمَكَانَ فَلِمَ لَا تَحُلُّهُ
فَارْتَجَلَ أَبُو فِرَاسٍ وَقَالَ :

أَنَا إِنْ كُنْتُ مَالِكًا فَلِي الْأَمْرُ كُلُّهُ
فَاسْتَحْسَنَهُ وَأَعْطَاهُ ضِيعَةً بِمَنْبَجِ تَغْلٍ أَلْفِي دِينَارًا^(١).

* وَمِنْ الطَّرَائِفِ الْجَمِيلَةِ فِي مَجَالِسِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ مَا قَالَهُ أَبُو الْحَسَنِ
السَّلَامِيُّ الشَّاعِرُ : مَدَحَ الْخَالِدِيَانِ سَيْفَ الدَّوْلَةِ بِنَ حَمْدَانَ بِقَصِيدَةٍ أَوَّلُهَا :
تَصُدُّ وَدَارُهَا صَدْدٌ وَتَوْعَدُهُ وَلَا تَعُدُّ
وَقَدْ قَتَلْتَهُ ظَالِمَةً فَلَا عَقْلٌ وَلَا قَوْدُ
وَمِنْهَا فِي مَدَحِهِ :

فَوَجَّهَ كُلُّهُ قَمَرٌ وَسَائِرُ جِسْمِهِ أَسَدٌ
فَأَعْجَبَ بِهَا سَيْفُ الدَّوْلَةِ ، وَاسْتَحْسَنَ هَذَا الْبَيْتَ مِنْهَا ، وَجَعَلَ يَرُدُّ
إِنْشَادَهُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الشَّيْظُمِيُّ الشَّاعِرُ ، فَقَالَ لَهُ : اسْمَعْ هَذَا الْبَيْتَ ،
وَأَنْشُدْهُ إِتَاهُ ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْظُمِيُّ : أَحْمَدُ رَبِّكَ ، فَإِنَّهُ جَعَلَكَ مِنْ عَجَائِبِ
الْبَحْرِ^(٢).

* وَمِنْ الطَّرَائِفِ أَيْضًا مَا رَوَاهُ أَبُو الْقَاسِمِ عُثْمَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْعِرَاقِيُّ
قَاضِي عَيْنِ زَرْبَةٍ فَقَالَ : حَضَرْتُ مَجْلِسَ الْأَمِيرِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ بِحَلَبَ ، وَقَدْ

= قُتِلَ أَبُو فِرَاسٍ سَنَةَ (٣٥٧ هـ) وَعَمُرُهُ (٣٧ سَنَةً).

(سِيرَ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ ١٩٦/١٦ وَ ١٩٧) وَ (يَتِيمَةُ الدَّهْرِ ٣٥/١) مَعَ الْجَمْعِ وَالتَّصْرِيفِ .

(١) يَتِيمَةُ الدَّهْرِ (٢١/١) ، وَشَذَرَاتُ الذَّهَبِ (٢٩٥/٤) ، وَوَفَايَاتُ الْأَعْيَانِ (٤٠٣/٣) .

(٢) مُخْتَصَرُ تَارِيخِ دِمَشْقَ (١٠٨/١٨) .

وافاه القاضي أبو نصر محمد بن محمد النيسابوري ، فطرحَ من كُتْمه كَيْساً فارغاً ودُرجاً فيه شعرٌ استأذن في إنشاده ، فأذنَ له ، فأنشدَ قصيدةً أولُها :
حِباؤُكَ مُعتادٌ وأمرُكَ نافِذٌ وعبدُكَ محتاجٌ إلى ألفِ درهمٍ
فلما فرغَ من إنشاده ، ضحكَ سيفُ الدولة ضحكاً شديداً ، وأمرَ له بألفِ درهم ، فجُعِلَتْ في الكيسِ الفارغِ الذي كان معه ^(١).

* ولسيفِ الدولة أخبارٌ جميلةٌ مع علماء عَصْره ومع الأدباء ، فقد نشطت حركة التَّأليف في ظلِّه نشاطاً رائعاً ، وقصّة كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني معروفة ، فقد ألَّف أبو الفرج هذا الكتاب بعيداً عن حلب ، وأهداه إلى الأميرِ الأديبِ سيفِ الدولة فأعطاه ألف دينار .

* وهناك كُتُبٌ ومعارفٌ كثيرة أُلِّفَتْ في ظلالِ سيفِ الدولة من مثلِ كُتُب الطِّبِّ والهندسةِ والرياضيات واللغة وعلومها والجغرافية وغيرها ؛ وظهرَ علماء مشهورون منْ مثْلِ : ابن خالويه ، وابن جنِّي ، وأبو عليِّ الفارسي ، وابن حوقل ، والخلديان ، والسري الرفاء ، وكشَّاجم وغيرهم كثيرون لا يُحْصَوْنَ .

* وكان سيفُ الدولة ذا خصائص أدبيّة عظيمة ، من عمقِ المعرفة وعلوِ الثَّقافة ، وطولِ الباع في الأدب ونقْدِه ، وسمو المنزلة مع نفاذ النَّظر ، وكلِّ هذه الخصائص كانت حافزاً على نشاطِ الحركةِ العلميّة حتى أصبحت حلب عَصْرَ ذاك عاصمة العِلْم والأدبِ والثَّقافة ، ومركزاً لأثريِّ المكاتب لا سيما مكتبة سيفِ الدولة التي كان الأخوانِ الخالديان قِيَمَيْنِ عليها .

* وكان سيفُ الدولة شاعراً حسنَ النِّظم له من الأشعار الرائعة ما يشبه قلائد الدُّرِّ في الثُّحور ، من ذلك أنَّه كانت له جاريةٌ منْ بناتِ ملوكِ الرُّوم في

(١) وفيات الأعيان (٣/ ٤٠٤) .

غاية الجمال ، فحَسَدَهَا بَقِيَّةُ الحِطَايَا لقربها منه ، ومحَلُّها من قلبه ،
وعَزَمَنْ عَلَى إيقاعِ مَكْرُوهِ بها من سَمٍّ أو غيره ، فبلغه الخبرُ ، وخافَ
عليها ، فنقلها إلى بعضِ الحصونِ احتياطاً وقال :

راقَبْتَنِي العُيُونُ فَيَكُ فاشْفَقْتُ تٌ وَلَمْ أَخْلُ قَطُّ مِنْ إِشْفَاقِ
ورَأَيْتُ العدوَّ يحْسُدُنِي في كِ مجداً يا أَنْفَسَ الأعْلاقِ
فتمنيتُ أَنْ تكونِي بعيداً والذي بيننا مِنَ الوَدِّ باقِ
رَبِّ هجرِ يكونُ من خوفِ هجرِ وفراقِ يكون من خوفِ الفراقِ
* ومن شعره أيضاً :

أَقْبَلَهُ عَلَى جَزَعٍ كَشَرِبِ الطَّائِرِ الفَزَعِ
رَأَى مَاءً فَأَطْمَعَهُ وخافَ عواقِبَ الطَّمَعِ
وَصَادَفَ خَلْسَةً فدَنَا ولم يَلْتَذْ بِالْجُرْعِ^(١)

* ومن رائي شعره ورقائق نظميه قوله :

تَجَنَّى عَلَيَّ الذَّنْبُ والذَّنْبُ ذَنْبُهُ وعَاتَبَنِي ظُلماً وفي شَقِّهِ العَتَبُ
وأعرضَ لما صارَ قلبي بكفِّهِ فهلا جَفَّانِي حينَ كانَ لي القلبُ
إذا بِرِمَ المولى بِخُدْمَةِ عبْدِهِ تَجَنَّى لَهُ ذَنْباً وإنْ لم يَكُنْ ذَنْبُ^(٢)
* وله أيضاً :

قَدْ جَرَى فِي دَمْعِهِ دُمُهُ فإِلَى كَمْ أَنْتَ تَظْلُمُهُ
رَدَّ عَنْهُ الطَّرْفَ مِنْكَ فَقَدْ جَرَحَتْهُ مِنْكَ أَسْهُمُهُ
كَيْفَ يَسْطِيعُ التَّجَلَّدُ مَنْ خَطَرَاتُ الوَهْمِ تُؤْلِمُهُ^(٣)

(١) وفيات الأعيان (٤٠٢/٣) .

(٢) يتيمة الدهر (٣٣/١) ، ومعاني الحمداني هذه تشبه قول الآخر :

وإذا ما الجفَاءُ جَهَّزَ جيشاً سَبَقَتْهُ طليعةٌ مَنْ تَجَنَّى

(٣) المصدر السابق نفسه ، وانظر البداية والنهاية (٢٦٤/١١) .

* ولسيفِ الدَّولةِ شِعْرٌ جَميلٌ في الإخوانيات يرتقي إلى درجةِ
الفحول ، ومنه أَنَّهُ قد جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ ناصِرِ الدَّولةِ وَحِشَّةٌ ، فكتبَ إليه
من شعره :

لَسْتُ أَجْفُو وَإِنْ جَفَوْتَ وَلَا أَتُ رَكَ حَقًّا عَلَيَّ فِي كُلِّ حَالٍ
إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالْأَبُ الْجَا فِي يَجَازِي بِالصَّبْرِ وَالْاحْتِمَالِ

* وكتب إليه مرةً أخرى :

رَضِيتُ لَكَ الْعُلْيَا وَقَدْ كُنْتَ أَهْلَهَا وَقُلْتُ وَهَلْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَخِي فَرْقٌ
وَلَمْ يَكُ بِي عَنْهَا نَكُولٌ وَإِنَّمَا تَجَافَيْتُ عَنْ حَقِّي لِيَقَى لَكَ الْحَقُّ
وَلَا بَدَّ لِي مَنْ أَنْ أَكُونَ مُصْلِيًّا إِذَا كُنْتُ أَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ السَّبْقُ^(١)

* ومن محاسنِ شِعْرِ سَيْفِ الدَّولةِ ، قَوْلُهُ فِي وَصْفِ قَوْسٍ قَزَحَ ، وَقَدْ
أَبْدَعَ فِيهِ كُلَّ الْإِبْدَاعِ :

وَسَاقٍ صَبِيحٍ لِلصَّبُوحِ دَعْوَتُهُ فَقَامَ وَفِي أَجْفَانِهِ سِنَّةُ الْغُمُضِ
يَطُوفُ بِكَاسَاتِ الْعُقَارِ كَأَنجَمٍ فَمَنْ بَيْنَ مَنْقُضٍ عَلَيْهَا وَمَنْقُضٍ
وَقَدْ نَشَرَتْ أَيْدِي الْجَنُوبِ مُطَارِفًا عَلَى الْجَوِّ دُكْنًا وَالْحَوَاشِي عَلَى الْأَرْضِ
يَطْرَزُهَا قَوْسُ السَّحَابِ بِأَضْفَرٍ عَلَى أَحْمَرٍ فِي أَخْضَرٍ إِثْرُ مُبَيِّضٍ
كَأَذْيَالِ خُودٍ أَقْبَلْتُ فِي غَلَائِلِ مَصْبَغَةٍ وَالْبَعْضُ أَقْصَرُ مِنْ بَعْضِ

* وَهَذَا مِنَ التَّشْبِيهَاتِ الْمَلُوكِيَّةِ الَّتِي لَا يَكَادُ يَخْطُرُ مِثْلُهَا لِغَيْرِهِمْ ،
وَلَا يَكَادُ يَحْضُرُ مِثْلُهَا لِلسَّوْقَةِ^(٢) .

وَعَابَ النَّجْمُ :

* عَاشَ سَيْفُ الدَّولةِ الْحَمْدَانِي فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ ، وَكَانَ عِلْمَ

(١) انظر : يتيمة الدهر (٣٣/١) ، وشذرات الذهب (٢٩٤/٤) .

(٢) شذرات الذهب (٢٩٥/٤) ، ويتيمة الدهر (٣١/١) مع الجمع .

الفرسان وفارس الأعلام ، وظلَّ نجمُه يتألَّق قرابة نصف قرنٍ من الزَّمان ، إلى أن وافته المنيَّة وله بضْعٌ وخمسونَ سنة .

* قال ابنُ العماد: وفيها - أي سنة ٤٥٦ هـ - سيف الدولة عليُّ بن عبد الله بن حمدان بن حمدون التغلبي الجزري ، صاحب الشام بحلب ، في صفر ، وله بضْعٌ وخمسون سنة ، وكان بطلاً شجاعاً كثيرَ الجهاد ، جيِّد الرأْي ، عارفاً بالأدب والشَّعر ، جَواداً ممدِّحاً^(١).

* أما كيف ثوى البطلُ ، فتذكُرُ أخباره أنَّه مات بالفالج ، وقيل بعُسْرِ البول^(٢).

* قال الذهبي: ولما احتضِرَ أخذَ على الأمراء العهدَ لابنه أبي المعالي ، مات يوم الجمعة قبل الصَّلَاة وغُسِّلَ ثمَّ عمل بصبرٍ ومُرٍّ ، وقنوين كافور ، ومئة مثقال غالية ، وكفَّنَ في أثواب قيمتها ألف دينار ، وكبَّرَ عليه القاضي العلوي خمساً ، ولما بلغَ معزُّ الدولة بالعراق موته ، جزع عليه وقال: أيامي لا تطولُ بعده ، وكذا وقع ، ثمَّ نقلوه إلى ميفارقين ، فدُفِنَ عند أمِّه^(٣).

* قال ابن خَلِّكان: وكان قد جُمِعَ من نَفْضِ الغبار الذي يجتمع عليه في غزواتِه شيئاً ، وعمله لبنةٌ بقدرِ الكفِّ ، وأوصى أن يُوضَعَ خَدُّه عليها في لحده ، فنَفَّذَتْ وصيَّته في ذلك^(٤).

* وقال ابن كثير عن وفیات سنة (٣٥٦ هـ): توفي - سيف الدولة -

(١) شذرات الذهب (٤/٢٩٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٦/١٨٨) ومختصر تاريخ مدينة دمشق (١٨/١٠٩) والبدایة والنهاية (١١/٢٦٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٦/١٨٨ و ١٨٩).

(٤) وفیات الأعيان (٣/٤٠٥).

بحلب ، وحُمِلَ تابوته إلى ميفارقين فدفنَ بها وعمره ثلاثٌ وخمسون سنة^(١).

* هذا هو الفارسُ سيفُ الدولة الحمداني الذي بنى بفروسيته مَجْداً مؤثلاً لبني حَمْدان ولبني العروبة ، فكان من خيرِ فُرسانِ تاريخِ عَصْرِهِ الذين فازوا بالصِّيتِ الحَسَنِ ، فكانوا من عمالقةِ التَّاريخِ العربيِّ الوضيءِ .
* فرحم اللهُ سيفَ الدولة ، وكلَّ مَنْ نصَحَ للإسلامِ وبلادِ المُسلمين .

* * *

(١) البداية والنهاية (١١/٢٦٤).

عبد الرحيم محمود

- * واحد ممن باعوا نفوسهم لله تعالى؛ لتكون راية الحق خفاقة ، فحظي بالشهادة بعد جهادٍ طويل.
- * هو صاحب البيت المشهور:
- سأحملُ روعي على راحتِي
وألقي بها في مهاوي الردى
- * شاعر مقاتل ، قدّم روحه لتحيّا فلسطين حرة كريمة.

هَذَا الْبَطْلُ الشُّجَاعُ الشَّاعِرُ:

* ممّا لا شكّ فيه أنّ الشُّعْرَ الصَّادِقَ الصَّافِي شعورٌ ينبعثُ منْ أعماقِ القلبِ ، فيحدثُ في نفوسِ سامعيه منَ الأثرِ ما أحدثه في نفسِ قائله قبل أن يتجاوزَ فؤاده ومن ثمّ لسانه ؛ إذ:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفؤَادِ دليلاً

* ومنَ المعلومِ أنّ بواعثَ الشُّعْرِ تتعدّدُ ، لا لتعددِ البواعثِ الخارجيّةِ فحسبَ ، وإنّما طبيعَةُ الشَّاعِرِ وتربيتهُ ، وتكوينه النفسي ، تؤثرُ في استجابة الشَّاعِرِ للبواعثِ الخارجيّةِ ، فالشَّاعِرُ الفارسُ تهزُّه مواقفُ الحربِ والبطولةِ ، فيستجيبُ لها؛ والشَّاعِرُ الذي لم يؤتِه اللهُ - عزَّ وجلَّ - القلبَ الشُّجاعَ يستجيبُ لصدىِ المعركةِ ولا يخوضُها؛ والشَّاعِرُ الذي يرى متعتهُ في زقٍّ ومزمارٍ ، يستجيبُ لما يحققُ له شهوتهُ ، ولذلك تباينتِ الشُّعراءُ في أقوالهم وأفعالهم ، وانعكسَ هذا على أشعارهم ، وهذا ما نلاحظُه عندما نتتبّعُ الشُّعراءَ عبرَ العصورِ ، لندرسَ اهتماماتهم واتجاهاتهم . فإذا استعرضتِ أسماءَ الشُّعراءَ في العصرِ الجاهليِّ ، وصدرِ الإسلامِ ، فإنَّك واجدٌ عدداً كبيراً منَ الشُّعراءِ الفرسانِ ، أو الفرسانِ الشُّعراءِ ، ولكنْ هل استمرَّ هذا المدُّ الشعري الفروسيّ إلى عصورٍ أخرى؟! وخصوصاً العصرِ الحديثِ .

* ممّا لا شكّ فيه أنّ الفروسيّة قد ضعُفتُ قليلاً بعيدَ العصرِ العبّاسي ، ولكنْ إذا وصلنا إلى العصرِ الحديثِ وجدنا الفروسيّة الأولى تعودُ إلى الشُّعراءِ ، ولعلَّ الطُّروفَ التي رافقتْ إحياءها تشبهُ الطُّروفَ التي جمعت بين الفروسيّة والشُّعر في صدرِ الإسلامِ وعصرِ بني أميّة .

* ففي العصرِ الحديثِ ابتليت بعضُ الأقطارِ العربيّةِ ، بل معظمُ الأقطارِ العربيّةِ بالغزو والاحتلالِ الأوربيّ بعد زوالِ الدّولةِ التّركيّةِ بُعيدَ انتهاءِ الحربِ العالميّةِ الأولى ، فهبَّ الشّعبُ لطردِ الأعداءِ فكانت ثورةٌ عارمةٌ ، يشاركُ فيها كلّ إنسانٍ قادرٍ على الجهادِ .

* وكانت فلسطينُ من بين البلادِ العربيّةِ التي خُصّصَتْ بدهيتينِ اثنتينِ تسيلانِ سُمّاً ناقعاً زعافاً ، وهاتان الدّهيتان هما : الإنكليزُ ، واليهودُ ، وما أدراك ما هما ؟!

فكان لابدّ من مضاعفةِ الجهدِ والجهادِ ، وكان الشّعراءُ في الطليعةِ ، كلّ يشاركُ بما يقدرُ عليه ، فتولّى عددٌ منهم الجهادَ باللسانِ والدّعوةَ إلى النّفيرِ وتنويرِ الأذهانِ ، وجمعَ بعضهم بين الشّعْرِ والسّيفِ ، أو بين الشّعْرِ ونارِ البنادقِ .

* وكان ممّن شاركَ بسيفهِ وقلمهِ ضيفُ هذه الصّفحات الذي كتبَ اللهُ له الشّهادةَ في سبيلهِ .

* ففي همساتِ الأبطالِ ، وفي عزماتِ الشّجعانِ ، كانت تردّدُ الكلماتِ الحماسيّةِ من لسانهِ ، وتنثالُ عبقّات التّوحيدِ من فؤادِهِ العامرِ بمحبّةِ اللهِ عزّ وجلّ ، وحبّ الأرضِ المقدّسةِ ، أرضِ الثّبواتِ ، والإسراءِ ، كان ينشدُ ويقول :

نحنُ لمْ نحملِ السُّيُوفَ لهذِرِ بل لإحقاقِ ضائعٍ مهْدورِ
نحنُ لمْ نرفعِ المشاعلَ لحرِّ قٍ ولكنْ للهُدى والتّنويرِ
نحنُ لمْ نطعنِ الضّميرَ ولكنْ بِقَنانِ احتمى طعينُ الضّميرِ
كانَ فينا نَصْرُ الضّعيفِ المعنّى وأنْجبارُ المُحطّمْ المكسورِ

* وهذا البطلُ الكريمُ ، واحدٌ ممن باعوا نفوسَهُم لهُ عزّ وجلّ ، لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العُليا ، ورايةُ الحقّ هي المرفوعةُ الخفّاقةُ ، فخطي بالشّهادةِ

بعد أن جاهدَ بسلاحِهِ ولسانِهِ أمّا سلاحُهُ فقد أغمده في صدور اليهود الصّهاينة الغاصبين ؛ وأمّا شعرُهُ فقد غدا أنشودةً نشوى ترتسم على شفة الزّمن ، وملحمةً جذلى يتغنّى بها الأبطالُ والنّاسُ في كلّ مكانٍ وزمانٍ وعُصرٍ ومُصرٍ . فتعالوا - أحبائي - نستمعُ ونقرأُ هذه القصيدة الجميلة العطرة الحماسيّة ، كيما نقترَبَ من شخصيّة قائلها ، وكيما نعرفَ بطولته وجرأته :

| | |
|---|--|
| سَأَحْمِلُ رُوحِي عَلَى رَاحَتِي | وَأُلْقِي بِهَا فِي مَهَاوِي الرَّدَى |
| فإِذَا حَيَاةٌ تَسُرُّ الصَّدِيقَ | وَأَمَّا مَمَاتٌ يَغِيظُ الْعِدَا |
| وَنَفْسُ الشَّرِيفِ لَهَا غَايَتَانِ | وَرُودُ الْمَنَايَا وَنَيْلُ الْمُنَى |
| وَمَا الْعَيْشُ لَا عِشْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ | مَخُوفَ الْجَنَابِ حَرَامَ الْحِمَى |
| إِذَا قُلْتُ أَصْغَى لِي الْعَالَمُونَ | وَدَوَى مَقَالِي بَيْنَ الْوَرَى |
| لَعَمْرُكَ إِنِّي أَرَى مَضْرَعِي | وَلَكِنْ أَغْدُ إِلَيْهِ الْخُطَا |
| أَرَى مَقْتَلِي دُونَ حَقِّي السَّلِيبِ | وَدُونَ بِلَادِي هُوَ الْمُتَبَغَى |
| يَلْدُ لِأَذْنَى سَمَاعِ الصَّلِيلِ | وَيُبْهِجُ نَفْسِي مَسِيلُ الدِّمَا |
| وَجِسْمٌ تَجَدَّلَ فِي الصَّحَصَحَانِ | تَنَاوَشَهُ جَارِحَاتُ الْفَلَا |
| فَمَنْهُ نَصِيبٌ لِأُسْدِ السَّمَاءِ | وَمِنْهُ نَصِيبٌ لِأُسْدِ الشَّرَى |
| كَسَا دُمُهُ الْأَرْضَ بِالْأَرْجَوَانِ | وَأَثْقَلَ بِالْعِطْرِ رِيحَ الصَّبَا |
| وَعَفَّرَ مِنْهُ بَهْيَ الْجَبِينِ | وَلَكِنْ عَفَاراً يَزِيدُ الْبَهَا |
| وَبَانَ عَلَى شَفْتَيْهِ ابْتِسَامُ | مَعَانِيهِ هَزْءٌ يَهْذِي الدَّنَا |
| وَنَامَ لِيَحْلُمَ حُلْمَ الْخُلُودِ | وَيَهْنَأُ فِيهِ بِأَحْلَى الْمُنَى |
| لَعَمْرُكَ هَذَا مَمَاتُ الرِّجَالِ | فَمَنْ رَامَ مَوْتاً شَرِيفاً فَذَا |
| فَكَيْفَ اضْطَبَّارِي لِكَيْدِ الْحُقُودِ | وَكَيْفَ احْتِمَالِي لِسَوْمِ الْأَذَى |
| أَخُوفاً وَعِنْدِي تَهُونُ الْحَيَاةِ | وَذِلّاً وَإِنِّي لِرَبِّ الْإِبَا |

بَقْلَبِي سَأْرَمِي وَجَوَةَ الْعُدَاةِ وَقَلْبِي حَدِيدٌ وَنَارِي لَظَى
وَأَحْمِي حِيَاظِي بِحَدِّ الْحُسَامِ فَيَعْلَمُ قَوْمِي بِأَنِّي الْفَتَى^(١)

* وهذا البطلُ الشَّاعِرُ لم يَكُنْ قَوَّالاً ، بل حَمَلَ رَوْحَهُ عَلَى رَاحَتِهِ ،
وَخَاضَ غَمَارَ الْحَرْبِ وَحَظِيَ بِالشَّهَادَةِ ، وَغَاطَ الْأَعْدَاءَ ، إِنَّهُ عَبْدُ الرَّحِيمِ
الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْحَلِيمِ وَكُنْيَتُهُ أَبُو الطَّيِّبِ^(٢) .

عَبْدُ الرَّحِيمِ وَالنَّشْأَةُ الصَّافِيَّةُ :

* فِي وَاحِدَةٍ مِنَ الْقُرَى الْجَمِيلَةِ مِنْ أَعْمَالِ نَابِلِس ، وَفِي قَرْيَةٍ وَادِعَةٍ
جَمِيلَةٍ تُدْعَى «عَنْبَتًا» أَوْ «عَنْبَتَه» وُلِدَ عَبْدُ الرَّحِيمِ مُحَمَّدٌ سَنَةَ (١٩١٣ م) ؛
وَفِي عَنْبَتَا أَبْصَرَ عَبْدُ الرَّحِيمِ النَّوْرَ ، فَهَذِهِ الْقَرْيَةُ الْجَمِيلَةُ كَانَتْ سَاحِرَةً
الطَّبِيعَةِ ، تَحْفُ بِهَا الْأَشْجَارُ الْمَثْمَرَةُ ، وَخَاصَّةً أَشْجَارُ اللُّوزِ وَالزَّيْتُونِ .

* وَفَوْقَ أَرْضِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الْوَادِعَةِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي تَقَعُ بَيْنَ نَابِلِس
وَطُولِ كَرَمٍ ، كَانَتْ نَشْأَةُ عَبْدِ الرَّحِيمِ مُحَمَّدٍ ، حَيْثُ كَانَتْ نَبْعَتُهُ مِنْ أَسْرَةٍ
اشْتَهَرَتْ بِالْعِلْمِ وَالْفَقْهِ ، فَسَمِيَتْ لَذَلِكَ «عَائِلَةُ الْفُقَهَاء» .

* وَكَانَ وَالِدُهُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ مِمَّنْ حَبَاهُ اللَّهُ الْعِلْمَ ، وَكَانَ قَدْ دَرَسَ فِي
الْأَزْهَرِ ، حَيْثُ تَبَحَّرَ فِي عُلُومِ الدِّينِ وَاللُّغَةِ وَأَصُولِ الْفَقْهِ الْإِسْلَامِيِّ ،
وَعِنْدَمَا تَخَرَّجَ فِي الْأَزْهَرِ عَمَلَ فِي الْقَضَاءِ الشَّرْعِيِّ ، ثُمَّ مَفْتَشًا فِي الدَّوْلَةِ

(١) ديوانه (ص ١٢٠ و ١٢١) والبيت الأخير: وأحمي حياضي... يذكرنا بقول
طرفة بن العبد في معلقته:

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى خَلْتُ أَنَّنِي عَنِيتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَلَبَدِ
(٢) الشاعر عبد الرحيم محمود بطل معركة الشجرة؛ وديوان عبد الرحيم محمود تقديم
وجمع د. كامل السوافيري - دار العودة بيروت ط ٢ ١٩٨٠ م والبطولة في الشعر
العربي لشوقي ضيف (ص ١٤٣) ، والأدب العربي المعاصر في فلسطين (ص
١٦١ - ١٦٧) ، وشاعران من جبل النار (ص ٢٢٩ - ٣٧٩) وكتب وصحف
ومقالات كثيرة لا تحصر .

العثمانيّة ، ثمّ عملَ محامياً شرعياً في أواخرِ حياته .

* وقد عُرِفَ الشيخُ محمود في قريةِ عنبتا بالطَّيِّبِ والورعِ والتَّقوى ، كما كانَ شغوفاً بالأدبِ والنَّظمِ وقولِ العتابا في المناسباتِ الاجتماعيّةِ ، وكان كذلك من الشُّيوخ الطُّرفاءِ النَّاقدين لبعضِ العاداتِ الاجتماعيّةِ .

* وحينما بلغَ عبدُ الرحيم ربيعَه السَّابعَ ، دخلَ مدرسةَ القريةِ الابتدائيّةِ ، وفيها تلقَّى معارفَه الأولى ، وتخرَّجَ فيها سنةَ (١٩٢٥ م) ، حيث كانتِ الشَّهادةُ الابتدائيّةُ يومذاك في الصَّفِّ الخامسِ الابتدائي . وخلال هذه المرحلةِ كان الفتى عبد الرحيم قد تأثَّرَ بالأدبِ ، وظهرتْ ميولُه إلى حبِّ الأدبِ ونظمِ الشعرِ وهو في عمر الزَّهر .

* ولما تخرَّجَ عبد الرحيم من المرحلةِ الابتدائيّةِ ، فرحَ به أهلهُ وذووه ، لا سيما أنَّه كانَ من المتفوقينَ ، فقد كانتِ علائمُ الذِّكاءِ والنَّجابهِ تشعُّ من عينيه ، إذ حفظَ القرآنَ الكريمَ وختمه وهو ما يزالُ طريّاً العُودَ ، فاحتفلَ أهلهُ بذلكَ ، وأقاموا له حفلاً ، وأركبوه فرساً ، وأحاطوا به وهم مستبشرون بحفظه للقرآنَ ، وبحصوله على الشَّهادةِ الابتدائيّةِ .

* ولما شبَّ عبدُ الرحيم عن الطُّوقِ قليلاً ، كبرتِ أحلامُه وآمالُه معه ، ولم يكتفِ بشهادتهِ الابتدائيّةِ الأولى ، وأحبَّ أن يواصلَ الطَّرِيقَ العلميَّ ، فأتَّجهَ لإكمالِ تحصيله حيث ذهبَ إلى طولكرم^(١) ابنةِ نابلس ، كيما يتابعَ

(١) شدّا أحدُ أبناءِ طولكرم بهذه الأبياتِ الجميلةِ يحيي فيها بلدتهِ السَّاحرةَ المغنَّجَ ، فقال من قصيدةِ بائئةٍ لطيفةٍ عنوانها «إلى طولكرم» :

| | |
|---------------------------|----------------------------|
| أطلّي على الكونِ لا تغربي | تباركُت من بلدي طيّبِ |
| تبارك فيك ضميرُ الحياةِ | وأفرخ في روجكِ المُخضِبِ |
| وأهدت لك الطيرُ الحانها | أغاريد من وحيكِ المُعجِبِ= |

دراسته في الصَّفَيْنِ: السَّادِسَ والسَّابِعَ في مدرسة طول كرم ، ثم يلتحق بعد ذلك بثانوية النَّجَاح في نابلس ، وكانت هذه الثَّانِيَةُ قد شَهِدَتْ تَخْرُجَ عددٍ من مشاهير رجالاتِ فلسطين من علماء وقادة وشعراء ، وقد التقى عبدُ الرحيم عدداً منهم ، وارتبطَ وإياهم بصداقاتٍ حميمةٍ ، أثَّرت فيهِ وبحياتِهِ كما سنرى فيما بعد إن شاء الله .

ثَقافتهُ وأَسَاتِذَتُهُ:

* لم يكنْ عبدُ الرحيم محمود من الطُّلاب الذين يكتفون بالمناهج الدراسية ، ليحققوا آمالهم بالحصولِ على شهادةٍ علميةٍ ، أو عملٍ وظيفي ، وإنما كانَ عالي الهمة ، شغوفاً بالعلم والمعرفة ، فإلى جانبِ دروسهِ التَّعليميةِ المقرَّرة ، قرأ وحفظَ القرآنَ الكريمَ ، وتأثَّر به وبآيَاتِهِ ، ثم عكفَ على كُتُب التفسيرِ يعُبُّ منها ، ويقرأُ كذلك كُتُب الحديثِ النَّبوي الشريف ، وراح ينهلُ من آدابِ اللغةِ العربيَّةِ وعلومها ما استطاعَ إلى ذلك

= - ومنها يذكرُ شجاعةَ أبنائها:

صمودَ كريمٍ شجاعِ أبي
سُهلِكَ يا للثَّرى المُخْضَبِ
سفحتِ دَمَها على السَّبَبِ

صمدتِ على زعزعِ النَّائباتِ
ورويتِ من دَمِكَ العبقريِّ
قوافل من مُهَجِ حرَّةٍ - ومنها:

أطلِّي على الكونِ لا ترهبي
وأخنوا على سهلِكَ المُعْشَبِ
وليسَ لهم بَعْدُ من مَهْرَبِ
لسوفَ يَفِرُّونَ كالأزْنَبِ

أفيقي على الدَّهرِ يا طولكرمِ
فإن سَلْبوكِ ثراكِ الخصيبِ
فإنَّا سنلفظُهم كالنَّواةِ
فإن أقبُلوا في إهابِ الأسودِ - ثم يختتمها بقوله:

أطلِّي على الكونِ في موكبِ
وفي خافِقِكَ صلاةُ نبي
(ديوان أمطار الحزن والدم ص ٧٧ - ٧٩) لراضي صدوق

فإن أسدلَّ الليلُ أَسْتارَه
ففي وجنتيك شروقُ الحياةِ

سبيلاً ، وشُغِفَ بالشُّعْر والشُّعراءِ الأقدمين وكذلك أحبَّ وأعجِبَ بعمالقة المعاصرين ، حيثُ تتلمذَ على يدِ عددٍ من الأدباءِ والشُّعراءِ ومنهم : قدري طوقان ^(١) ، والشَّاعرُ المِفَنُّ الغرِيدُ إبراهيمُ طوقان ^(٢) وغيرهُما ، وذلك

(١) قدري حافظ طوقان ، وُلِدَ في نابلس سنة (١٩١٠ م) ، درسَ في كليَّةِ النجاح ثم في بيروت إذ حصلَ على إجازةِ الرِّياضيات سنة ١٩٢٩ م ، وعادَ إلى نابلس ، حيثُ أوكلتُ إليه عدَّةُ مَهامٍ ومنها إدارةُ كليَّةِ النِّجاح التي تخرَّجَ فيها معظمُ مشاهيرِ الأدباءِ من مثل : إبراهيم طوقان ، ومحمَّد العدناني ، وعمر فروخ وغيرهم . شاركَ قدري طوقان في أحداثِ بلادِهِ ، وفي المظاهراتِ ، ونُفيَ عن بلدِهِ ، ولما حدثتْ كارثةُ (١٩٤٨ م) اختيرَ عضواً في البرلمانِ الأردنيِّ ، ثم اختيرَ وزيراً للخارجيةِ للأردن في مصرَ ، وعاشَ قدري أعزبَ مترهباً في محرابِ العِلْمِ والمعرفةِ يَجُوبُ آفاقَ العالمِ ، ويوالي نشرَ الآثارِ ، ويزيحُ الترابَ عن تراثِ العربِ في الرِّياضياتِ والعلومِ والفلكِ إلى أن توفِّيَ في (٢٦ شباط عام ١٩٧١ م) في بيروت ، ثم نُقِلَ جثمانُهُ إلى نابلس حيثُ رقدَ إلى جوارِ ابنِ عمِّهِ إبراهيم طوقان . وقد جمعَ قدري بينَ العلمِ والأدبِ وآثاره تشهدُ له بذلك . (الأدب العربي المعاصر في فلسطين ص ٣٣٥ - ٣٤٠) باختصار .

(٢) إبراهيمُ عبد الفتاح طوقان؛ وُلِدَ في مدينةِ نابلس سنة (١٩٠٥ م) ، وفيها تلقَّى دراستَهُ الابتدائيةَ ، ثم في مدرسةِ الرِّشادِ الغربيَّةِ ، ثم في القُدس حيثُ درسَ المرحلةَ الثَّانويَّةَ ، وهناك تعلَّقَ باللغةِ العربيَّةِ وشُغِفَ بها حبّاً ، وخُصُوصاً في الشُّعْرِ العربيِّ القديمِ ، ثم ذهبَ إلى بيروت سنة (١٩٢٣ م) وقضى فيها ستَّ سنواتٍ نالَ في نهايتها شهادةَ الجامعةِ في الآدابِ سنة (١٩٢٩ م) ثم سافرَ إلى مصرَ ، ولم يمكثْ بها طويلاً ، حيثُ عادَ إلى نابلس وعملَ مدرِّساً للغةِ العربيَّةِ في مدرسةِ النِّجاحِ الوطنيَّةِ ، ولم يكنْ يحبُّ مهنةَ التَّعليمِ ، بيدَ أنَّه حَبَّبَ إلى طلابهِ حبَّ الأدبِ والشُّعْرِ ، وقد عارضَ أحمد شوقي في قصيدتهِ الشهيرةِ «المعلِّم» فقال إبراهيم قصيدةً تبلغُ (١٤ بيتاً) ومنها هذه الأبياتُ التي تَظْهَرُ خُفَّةُ ظِلِّهِ وفَتَّةُ الشعري :

شوقي يقولُ وما درى بمصيبي «قم للمعلِّم وفِّهِ التَّجِيلاً»
 اقعُدْ فديتك هل يكونُ مبجلاً مَنْ كانَ للنَّشْءِ الصُّغارِ خليلاً
 لو جرَّبَ التَّعليمَ شوقي ساعةً لقضى الحياةَ شقاوةً وخمولا
 وختمها بقوله :

وأرى حماراً بعد ذلك كلِّه رفع المضافَ إليه والمفعول =

قراءة خَمْسَ سَنَوَاتٍ من عام (١٩٢٨ م) إلى عام (١٩٣٣ م).

* وكان إبراهيم طوقان آنذاك أستاذاً للأدب العربي في ثانوية نابلس ، وقد تعلَّم عبد الرحيم محمود منه ألوانَ الشعر وفنونه ، والأدب العربي بجميع أشكاله ، وتوثَّقت عرا الصداقة وأواصرها بين إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود ، وقويت هذه الصداقة مع مرور الأيام وتوالي الأعوام .

* ولما اشتدَّ ساعدُ عبد الرحيم محمود في الشعر ، وتعلَّم القوافي ، أخذَ ينظمُ القصائدَ الشعرية في مختلف المناسبات ، ويقرأ ما ينظمه أمام أستاذه إبراهيم طوقان ، وأمام أصدقائه وزملائه ، فأخذوا يشجعونه على المُضي في هذا الطريق .

* وكان عبد الرحيم قد تعلَّم وهو في المدرسة ضرورةً مجابهة الأخطار التي تُصيبُ فلسطينَ والعربَ ، ومن هنا بُذرت في نفسه أصولُ تحدّي

= لا تعجبوا إن صحت فيكم صيحة
ووقعْتُ ما بين البنوك قتيلا
يامنْ يريد الانتحارَ وجدته
إنَّ المعلمَ لا يعيشُ طويلا
وإبراهيم طوقان شاعرُ فلسطين ، حيث صوَّرَ آلامها وآمالها وأحلامها ، وقد نالَ حظاً من الشهرة ، حيث برعَ في جميع فنون الشعر ، ومن مشاهير قصائده السائرة بين الناس قصيدة الشهيد ومنها:

عَبَسَ الخطبُ فابتسم
وطغى الهولُ فاقتحم
رابطُ الجأشِ والتهوى
ثابتُ القلبِ والقدم
لم يبال الأذى ولم
يثنَّه طاريءُ الألم
نفسُه طوعُ همة
وجمَّتْ دونها الهمة
ومن شعره يخاطبُ زعماء فلسطين:

أنتم المخلصون للوطنية
أنتم العاملون من غير قول
بارك الله في الزنود القوية
أتم الحاملون عبء القضية
هذا وأخباره كثيرة جداً لا يستطيع الباحثُ إجمالها هنا ، توفي إبراهيم في (٢ أيار سنة ١٩٤١ م) ودُفن في نابلس عن (عدة مراجع ومقالات وأبحاث).

المستعمرين ، وردّ كيدِ الخائنين ، فانخرطَ في سلكِ الشرّطة الفلسطينية ، وكانت ترتبطُ إدارياً بسلطةِ الانتدابِ البريطاني .

* وذاتَ يومٍ طلبتُ منه إدارةُ الشرّطة أن يلاحقَ أحدَ الثّوار ويأتي به إلى السّلطة الإنكليزيّة ، هنالك رفضَ عبد الرحيم هذا الطّلب ، وأوعزَ إلى البطلِ الثّائر أن يتوارى عن الأعينِ ، وأن يكونَ حذراً يترقّبُ الأخطارَ ويرقّبُها من كلّ مكان .

* وبهذا التّصرّفِ الكريمِ ضربَ البطلُ عبدُ الرحيم محمود أروعَ الأمثلةِ في صدقِ الإيمانِ ، وحبِّ الوطنِ والأبطالِ ، وتركَ عمله غير آسفٍ عليه ، ولا أسفٍ على مورده الضّئيل منه ، على الرّغم من أنّه المصدرُ الوحيدُ لعيشه ، وهذا لعمري لونٌ من ألوانِ البطولةِ والشّجاعةِ الحقّة^(١) ، والجرأةِ النّادرة ، والصدّق في حبِّ الوطن والانتماءِ إليه ، والإخلاصِ لأبنائه؛ بل كان شعاره قوله :

العُربُ ما خضعُوا لِسُلطةٍ قَيسِرٍ يوماً ولا هانُوا أمامَ تجبّرِ

(١) الشّجاعةُ العظمى ليست مقصورةً على ميادينِ التّزالِ والجلادِ ، وليستَ ميزةً من مزايا الأبطالِ والفرسانِ والشّجعانِ وحدهم .

فهناك شجاعةُ الجهادِ السّلميِّ لتحريرِ الوطن ، وشجاعةُ الثّباتِ على العقيدة مهما نزلَ بصاحبها من عذابٍ ، وعُرضَ على مواردِ الهلاك ، وشجاعةُ الرّأي الصّراح حيثُ يُوثرُ الناسُ التّقيّةَ والكتمان ، أو الممالةَ والتّفاق .

وشجاعةُ الدّفاعِ عن حقٍّ مهضوم ، أو عن ضعيفٍ مُستذلٍّ مظلوم .

وشجاعةُ الدّعوةِ إلى الإصلاحِ في مجتمعٍ مستكينٍ إلى ما يعاني من سوءِ الحال .

وشجاعةُ الأوفياء الذين كانت سلامتهمُ مُحققةً في تحلّلهم من الوفاء ، ولكنهم أثروا الوفاءَ بالعهدِ على السّلامة .

فهؤلاء كلّهم شجعانٌ ، بل هم أبطالٌ ، لأنّهم أقدموا ما لم يقدم عليه النّظراء والأقران . وإذا فالبطولةُ كما تكونُ في ميدانِ الحربِ تكونُ في مجالِ السّلام .

(البطولةُ والأبطال لأحمد الحوفي ص ١٠ و ١١) بتصرف يسير .

لا يصبرون على أذى مهما يكن والحز إن يُسم الأذى لم يصبر
رحلة الجهاد والكفاح:

* عندما تخرج عبد الرحيم محمود في ثانوية نابلس ، اختارته إدارتها
كيما يكون محاضراً في الثانوية نفسها ، وأسندت إليه تدريس اللغة العربية
وآدابها .

* وكان عبد الرحيم محمود يربي طلابه على ارتشاف رحيق الأدب وتذوقه ،
كما كان يغرّس فيهم التربية القويمة المبنية على الإيمان والأخلاق الكريمة ، ولم
يتوقف عند هذا المجال فحسب ، وإنما راح يفصح لطلابه ويفضح زيف
الصهاينة ، وتأمّرهم لتهويد الأرض والوطن فاضحاً أساليبهم المُنقّعة
المزيّفة .

* ذكر الشاعر الفلسطيني خالد أبو خالد - وكان أحد تلامذة عبد الرحيم
محمود - بضعة سطور من ذكرياته عن أستاذه الشاعر الشاعر عبد الرحيم
فقال : كنت تلميذاً من تلامذة الشاعر عبد الرحيم محمود ، ولم يكن يعلمنا
الكلمة فقط ، بل كان يدرّبنا ويلقّننا القواعد العسكرية وفنون القتال^(١) .

* وبهذه الروح العذبة الصافية التي تحبّ الفداء كان عبد الرحيم
محمود يحثّ طلابه على حمل السلاح في وجه العدو الرابض المتربّص
بالشعب الآمن الدوائر ، وكانت قصيدته وكلماته السائرة قد ردّدتها جنبات
الريف الفلسطيني ، بل وجنبات البلاد المجاورة :

سأحمل رُوحِي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى
فإمّا حياة تسرّ الصديق وإمّا مماتٌ يغيظ العدا^(٢)

(١) انظر : الشاعر عبد الرحيم محمود (ص ١٩) .

(٢) ديوانه (ص ١٢٠ و ١٢١) والقصيدة (١٩ بيتاً) أوردناها كاملة في مطلع ترجمته .

* وبدأت رحلة الثورة والجهاد ضدَّ الصَّهائنة منذ عام (١٩٢٩ م) ،
ومن أبرزها ثورة البراق الشَّريف ، حيث رفضَ شعبُ فلسطين الصَّهيونيةَ ،
وبادر فحملَ السَّلاحَ في وجهِ بريطانيا والصَّهيونية معاً ، وبعد فترةٍ وجيزةٍ
من ثورة السَّعْبِ وانتفاضتِه ، تمكَّنَ البريطانيون والصَّهائنةُ من إجهاضِ
الانتفاضةِ ، وزجَّ المعتدون النَّاقمون حوالى مئتي فلسطيني في السُّجون ،
وأعدمت بريطانيا ثلاثةً من أبناء السَّعْبِ من المجاهدين ؛ فقد أعدمَتْ «فؤاد
حجازي» من صفد ، و«محمد جمجوم» من الخليل ، «وعطا الزَّير» من
الخليل أيضاً ، وذلك في (١٧ تموز عام ١٩٣٠ م) وتأثَّر لهذه الجريمةِ
المؤلمةِ جميعُ أبناءِ البلاد ، وقد هزَّت هذه الحادثةُ الشَّاعر إبراهيم طوقان ،
فرثاهم بقصيدةٍ جميلةٍ عنوانها «الثلاثاء الحمراء» ، وقد تردَّدت هذه
القصيدةُ على كلِّ الشِّفاه ، حيث صوِّرَ عمليَّةَ الإعدامِ البشعةِ المنافية لحقوقِ
الإنسانِ ، وقصيدتهُ في رثاءِ الأبطال الثلاثة مشهورةٌ معروفةٌ ، ومنها ما قاله
في رثاءِ عطا الزَّير ، ذلك الرَّجلِ الصَّبورِ الجدِّ بلقاءِ ربِّه ، والذي طلبَ
الحِنا قبلَ دنوِّ أجله وإعدامه ، فخصَّبَ بها يديه ورجليه ، ليلقى الله
عزَّ وجلَّ وهو على هيئةِ الشُّهداء الأبرار ، لنسمعَ إلى إبراهيم طوقان ، وهو
يشدو هذه الأبيات بأعذب الألحان :

| | |
|------------------------------|-----------------------------|
| أنا ساعةُ الرَّجلِ الصَّبورِ | أنا ساعةُ القَلْبِ الكبيرِ |
| رمزُ الشَّبابِ إلى النِّها | يةٍ في الخطيرِ من الأمورِ |
| بطلِّي أشدُّ على لقاءِ المو | تِ من صُمِّ الصُّخُورِ |
| جَذْلانَ يرتقب الرَّدَى | فاعجَبَ لموتٍ في سُرورِ |
| يلقى الإلهَ مخضَّبَ الكَفِّ | يُنِ في يومِ النُّشورِ |
| قسماً بروحك يا عطا | ءُ وجنَّةِ الملكِ القَديرِ |
| وصغارك الأشبالِ تب | كي الليثَ بالدَّمعِ الغزيرِ |

ما أنقذَ الوطنَ المفدَى غِرُّ صَبَّارِ جَسُور
* وتأثّر عبدُ الرحيم محمود بقصيدةِ أستاذه إبراهيم طوقان التي رثى فيها الأبطال الثلاثة وخصوصاً قوله :

ما أنقذَ الوطنَ المفدَى غِرُّ صَبَّارِ جَسُور
* وهنا قرّرَ عبدُ الرحيم أن يتركَ عمله في التّعليم ، ثمَّ اشترى بندقيةً ، وتدرّب على السّلاح وفنون القتال ، وانخرطَ مع حركة الشّيخ عزّ الدين القسّام وأبطاله الذين وجدّوا في شخصيّته كلّ عناصرِ البطلِ المناضلِ الثّائر.

* وكان الشّيخُ عزّ الدين القسّام القادم من سورية ، قد كوّن نواةً ممتازةً من المحاربين ضدّ المعتدين الصّهاينة ، وأخذَ في توعية الشّعب في كلّ مكانٍ من أرضِ الثّبوات ، واستطاعَ بأسلوبه المؤثّر الصادق أن يجمعَ حوله الآلاف من الثّوار ، ومن ثمَّ انطلقَ بثورةٍ شعبيةٍ من بلدة «يَعْبُد» قرب «جَنِين» في (١٥/١١/١٩٣٥ م) ، فقامتِ القوّاتُ البريطانيّةُ ، وطوّقتِ المنطقة ، وطلبوا من القسّام والثّوار تسليمَ أنفسهم ، إلّا أنّ البطلَ عزّ الدين القسّام أجابهم بصوتٍ جهوري: إنّنا لن نستسلمَ ، لا . . . لا . . . لن نستسلمَ ، إنّ هذا جهادٌ في سبيلِ الله والوطنِ ؛ الله أكبرُ ، الله أكبرُ ، الله أكبرُ.

* وأطلقَ القسّامُ ، ومعه فتيةٌ آمنوا برّبهم ، الرّصاصَ على جنودِ بريطانیا وهو يُنادي أصحابه بعزّةِ المؤمنِ والفارسِ الشُّجاع: موتُوا شهداء ، موتُوا شهداء ، الله أكبرُ ، الله أكبرُ.

* وظلَّ القسّامُ يقاتلُ حتى سقطَ شهيداً^(١) ، ونالَ الشّهادة أيضاً عددٌ من

(١) اقرأ هذه الأبيات التي تحيي الشّهيد؛ وهي للشّاعر مُحيي الدّين الحاج عيسى الصّفدي المولود سنة (١٩٠٠ م) والمتوفى سنة (١٩٧٤ م): =

أصحابه ، كما أُسِرَ آخرون وكان استشهادهُ القَسَامُ أليماً على النَّاسِ بعامَّةٍ ، وعلى عبدِ الرحيم محمود خاصَّةٍ ، فقد نظم قصيدةً ميميةً طويلةً تبلغُ (٣١ بيتاً) عنوانُها: «عيد الجامعة العربيَّة» ، وأشار في آخرها إلى أنَّ الدَّرَبَ الذي سلكهُ القَسَامُ ، هو الدَّرَبُ القويمُ الصَّحيح :

وَاعْصِبْ حُقُوقَكَ قَطَّ لَا تَسْتَجِدِّهَا إِنَّ الْأَلَى سَلَبُوا الْحُقُوقَ لِنَامٍ
هَذِهِ طَرِيقُكَ لِلْحَيَاةِ فَلَا تَحِذْ قَدْ سَارَهَا مَنْ قَبْلَكَ الْقَسَامُ

* ومنَ الجديرِ بالذكرِ أنَّ البطلَ عبدَ الرحيم محمود لم يكن يتركُ أيَّ مناسبةٍ تضيعُ عليه ، دون أن يتركَ فيها أثراً من همساتِهِ ، أو يتحدثَ عن قضيتِهِ الكبرى ، فقد حدثَ أن مرَّ الأميرُ سعودُ بنُ عبد العزيز آل سعود بقريةٍ عنبتاً ببلدِ المناضل عبد الرحيم محمود في (١٤ آب ١٩٣٣ م) متوجَّهاً إلى مدينةِ القدس ، فاغتنمَ عبد الرحيم محمود هذه الفرصةَ الذهبيةَ ، وانبرى فألقي بين يدي الأميرِ سعود قصيدتهُ الشهيرة «نجم السُّعود» ، أجملَ فيها للأميرِ قضيةَ الشعبِ الفلسطينيِّ ومأساتِهِ ، وهو يتعرَّضُ لأبشعِ عدوانٍ شرسيٍّ حاقِدٍ ، يريدُ أن يجتثَّهُ من جذوره الثَّابتة العميقة ، ثمَّ إنَّه توجَّه بخطابه إلى الأميرِ سعود ليخبرَهُ بأنَّ المسجدَ الأقصى في خطرٍ ، وهل جئتَ أيُّها الأميرُ تزوره ، أم تودَّعُهُ قبل الضَّياع؟ وكأنَّ عبد الرحيم محمود قد أحسَّ بأنَّ هذا المسجدَ العظيمَ هو هدفٌ من أهدافِ الصَّهاينةِ الملاحين ، وكأنَّ إحساسَهُ أخبرَهُ قبل ثلثِ قرنٍ بأنَّ هذا المسجدَ سيُسبى ويباحُ حرْمُهُ ، اسمعْ إلى عبد الرحيم حيث يقولُ :

| | | |
|---|---|--|
| إلى رُوحِ كُلِّ شَهِيدٍ مَضَى | = | يكافحُ والثَّأْرُ مَنْ قَصَدِهِ |
| فَسَالَ الدَّمُ الحُرُّ فَوْقَ الثَّرَى | | وفاءً بما كانَ مِنْ عَهْدِهِ |
| فَقُلْ لِلَّذِي ضَلَّ فِي دَرْبِهِ | | وأذله الخطْبُ عَنْ رَشْدِهِ |
| دماءُ الشَّهِيدِ منارُ الطَّرِيقِ | | لَمَنْ يَحْفَظُ العَهْدَ مِنْ بَعْدِهِ |

نَجْمُ السُّعُودِ فِي جَبِينِكَ مَطْلَعُهُ
سَهْلًا نَزَلَتْ وَلَوْ نَزَلَتْ بِمَمْحِلٍ
وَالْقَوْمُ قَوْمُكَ يَا أَمِيرُ إِذَا التَّوَى
وَمِنْهَا:

يَا ذَا الْأَمِيرُ أَمَامَ عَيْنِكَ شَاعِرُ
شَكْوَى وَتَحَلُّو لِلْمُضِيمِ شَكَاتُهُ
ضُمَّتْ عَلَى الشَّكْوَى الْمَرِيرَةِ أَضْلَعُهُ
عِنْدَ الْأَمِيرِ وَإِنْ تَرَقَّرَقَ أَدْمَعُهُ

* ثُمَّ يَقُولُ هَذَا الْبَيْتَ الرَّائِعَ الَّذِي اسْتَجْلَى فِيهِ حَقِيقَةً ، وَكَأَنَّهُ يَرَى بِأَمِّ
عَيْنِهِ مُصِيرَ الْأَقْصَى ؛ فَأَرْهَفَ سَمْعَكَ - عَزِيزِي الْقَارِئُ - وَتَأَمَّلْ مَعْنَاهُ جَيِّدًا:
الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى أَجِئْتَ تَزْوَرُهُ أَمْ جِئْتَ مِنْ قَبْلِ الضِّيَاعِ تَوَدَّعُهُ
ثُمَّ يَقُولُ مُتَابِعًا تَصْوِيرَ مَا سَيُخْدُثُ:

حَرَمٌ يُيَاحُ لِكُلِّ أَوْكَعَ أَبْقِ
وَالطَّاعِنُونَ وَبُورَكَتْ جَنْبَاتُهُ
وَعَدَا وَمَا أَدْنَاهُ لَا يَبْقَى سِوَى
وَيَقْرَبُ الْأَمْرَ الْعَصِيبَ أَسَافِلُ
وَلِكُلِّ أَفَاكٍ شَرِيدٍ أَرْبُوعُهُ
أَبْنَاؤُهُ أَعْظَمُ بَطْعَنِ يُوجَعُهُ
دَمْعٌ لَنَا يَهْمِي وَسِنْ نَقْرَعُهُ
عَجَلُوا عَلَيْنَا بِالَّذِي نَتَوَقَّعُهُ
* ثُمَّ يَخْتُمُهَا بِقَوْلِهِ:

سِرِّي يَا أَمِيرُ وَرَافَقْتُكَ عَنَاءَةً
نَجْمُ السُّعُودِ فِي جَبِينِكَ مَطْلَعُهُ^(١)
* وَيُرْوَى أَنَّ الْأَمِيرَ سُعُودَ قَدْ انْفَجَرَ بَاكِيًا عِنْدَمَا سَمِعَ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ
الْمَوْثُورَةَ الْبَدِيعَةَ الرَّائِعَةَ ، ثُمَّ طَلَبَ مِنَ الْبَطْلِ الشَّابِّ الْغَضَّ الصَّامِدِ الثَّابِتِ
إِعَادَةَ الْقَصِيدَةِ ، فَامْتَثَلَ عَبْدُ الرَّحِيمِ مُحَمَّدٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ذَلِكَ ، وَأَعَادَ
عَلَى مَسَامَعِ الْأَمِيرِ وَصَحْبِهِ مِنْ قَوْلِهِ:

الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى أَجِئْتَ تَزْوَرُهُ أَمْ جِئْتَ مِنْ قَبْلِ الضِّيَاعِ تَوَدَّعُهُ

(١) انظر ديوانه حيث تجد القصيدة كاملة . وانظر: شاعران من جبل النار (ص ٢٦٠).

* ولعله أعادَ هذا البيتَ مراراً ، لما له من وقع في نفس الأمير سعود الذي زادَ بكاءؤه وهو يسمعُ من عبد الرحيم محمود أبياته المؤثرة .

* وظلَّ البطلُ المجاهدُ الشاب عبد الرحيم محمود يتابعُ رحلةَ الجهادِ ، فانضمَّ إلى كتائبِ المجاهدين في «جَبَل النَّارِ» تحتَ قيادةِ البطلِ المجاهدِ عبد الرحيم الحاج محمد ، وأخذَ يقتحمُ كلَّ الأخطارِ ، ويركُبُ الأهوالَ ، أَمَلًا في أن يظفرَ بشرفِ الاستشهادِ في حومةِ الميدانِ ، بيد أنَّ عنايةَ الله عزَّ وجلَّ كانت ترعاهُ وتحفظُهُ ، وتدّخرُهُ إلى معاركٍ أخرى في سنواتٍ تالية ، بينما استشهد عبد الرحيم الحاج محمد وهو يؤدِّي واجبه الوطنيَّ ضدَّ أعداءِ الله ؛ نعم ماتَ القائدُ عبد الرحيم الحاج محمد شهيداً ، فخلدَ استشهاده ربيُّه في البطولةِ عبد الرحيم محمود في قصيدةٍ داليةٍ طويلةٍ عنوانها «البطلُ الشَّهيدُ» فقال في مطلعِها :

أإذا أنشدتُ يوفيكَ نشيدي حقك الواجبَ يا خيرَ شهيدِ
أيّ لفظٍ يَسَعُ المعنى الذي منك أستوحيه يا وحيَ قصيدي

ومنها :

أقفَر الميدانُ مِنْ فرسانِهِ وخَلَا مِنْ أَهْلِهِ غابُ الأسودِ
حَسرتا للدينِ والمجدِ الذي قد أُصييا فيكَ بالركنِ الوطيدِ
إنَّ يوماً قد رُزنا بك فيه جاعلُ أَيْماننا سُوداً بِسودِ
كلَّ بيتٍ لك فيه مأْتَمٌ يندبُ النَّاسَ بهِ أغلى فقيدِ
برزتَ فيه المصُوناتُ ضحىً صَارخاتٍ قارعاتٍ للخدودِ

ومنها يوجّه كلماتِهِ للشهيد الذي كان يرجو الموتَ في سبيلِ الله :

أيّها القائدُ هَذي مِيتَةٌ طالَما رَجَّيتها منذُ البعيدِ
مَصْرَعُ الأبطالِ ما بينَ القنا في الميادينِ ورقَّاتِ البُنودِ
يا شهيداً قد تخذنا قسماً منه يهدينا إلى التَّهَجِّ السَّديدِ

مَتَّ فِي الْحَرْبِ شَرِيفاً لَمْ تَطِقْ رُبْقَةَ الْأَسْرِ وَلَا ذُلَّ الْعَبِيدِ
هَكَذَا الْعَارُ مَرِيرٌ وَرَدُّهُ وَالرَّدى لِلْحَرِّ مَعْسُولُ الْوُرُودِ

* وهكذا كَانَ الْمُقَاتِلُ الْبَطْلُ عبد الرحيم محمود يرثي قَائِدَهُ وَزَمِيلَهُ فِي
الْكَفَاحِ بِذُوبِ قَلْبِهِ الثَّأْرُ ، الَّذِي لَا يَقْرُّ لَهُ قَرَارٌ إِلَّا فِي مِيَادِينِ الْقِتَالِ ، فَقَدْ
كَانَ عَشْقُهُ لِلْسَّلَاحِ مُسَاوِياً حُبَّهُ لِلْوَطَنِ ، فَإِذَا ابْتَعَدَ عَنْ سِلَاحِهِ ، أَحَسَّ
بِالْأَلَمِ الْمَرِيرِ يَعَصُرُ قَلْبَهُ ، فَكَأَنَّهُ أَضَاعَ إِصْرَارَهُ وَعَزَمَهُ وَتَصْمِيمَهُ ، وَعَنْ هَذَا
الْمَعْنَى يُعَبِّرُ أَبُو الطَّيِّبِ عبد الرحيم محمود؛ وَيَذْكُرُ غَايَتَهُ الْعَظِيمَةَ يَقُولُ :

كَشَّرِي مَا شَتَّتِ يَا سُودَ اللَّيَالِي فَأَبُوا الطَّيِّبَ عَشَّاقَ النَّزَالِ
إِنْ تَقَاعَسْتُ عَنْ الْحَرْبِ فَإِنِّي مُجْرِمٌ يَقْعُدُ عَنْ شَأْوِ الْمَعَالِي
غَايَتِي أَلْقَى الْمَنَايَا عَاجِلاً فِي مَجَالِ الْعِلْمِ أَوْ سَاحِ النَّضَالِ

* وَعِنْدَمَا تَوَقَّفَتِ الثَّوْرَةُ فِي فِلَسْطِينَ سَنَةِ (١٩٣٩ م) وَخَبَثَ نِيرَانُ
الثَّوَارِ ، أَخَذَتْ زَبَانِيَّةٌ بَرِيطَانِيَا تَطَارَدُ عبد الرحيم محمود وَتَضْطَهْدُهُ ،
وَتَحَارِبُهُ فِي رِزْقِهِ ، حَيْثُ رَأَتْ فِي أَشْعَارِهِ وَقَصَائِدِهِ الْحِمَاسِيَّةَ حَافِزاً مِنْ
أَكْبَرِ الْحَوَافِزِ فِي تَحْرِيكِ الْجَمَاهِيرِ الْغَاضِبَةِ نَحْوِ ثَوْرَةٍ عَامَّةٍ عَارِمَةٍ ، كَمَا أَنَّهَا
رَأَتْ فِي سِلَاحِهِ - الَّذِي يَصُوبُهُ إِلَى كُلِّ مُسْتَعْمَرٍ غَاصِبٍ - الْخَطَرَ كُلَّهُ ،
وَحَاطَلَتْ أَنْ تَقْبِضَ عَلَيْهِ بِكُلِّ مَا وَسَعَهَا ، لَكِنَّهُ أَفْلَتَ مِنْهَا ، وَتَمَكَّنَ مِنْ
مَغَادَرَةِ مَسْقَطِ رَأْسِهِ وَمَهْوَى فُؤَادِهِ وَمَرْتَعِ طِفْلُوتهِ فِلَسْطِينَ الْحَبِيبَةِ أَرْضِ
النَّبَّاتِ ، غَادَرَهَا وَذَهَبَ إِلَى الْعِرَاقِ ، حَيْثُ عَمَلَ هُنَاكَ مَدْرَاساً ، وَلَكِنَّهُ
دَرَسَ أَيْضاً الْفُنُونِ الْعَسْكَرِيَّةَ إِذْ التَّحَقَّ بِالْكَلِيَّةِ الْحَرْبِيَّةِ هُنَاكَ ، وَتَخَرَّجَ فِيهَا
بِرْتَبَةِ «مِلَازِمٍ» بَعْدَ تَدْرِيبٍ شَاقٍّ ، جَعَلَ مِنْهُ بَطْلاً لَا يَهَابُ الْمَوْتَ .

* وَقَدْ أَبَتْ هِمَّةُ الشَّاعِرِ وَعَزِيمَتُهُ ، إِلَّا أَنْ يَشَارَكَ فِي ثَوْرَةٍ رَشِيدٍ عَالِي
الْكِيْلَانِي الَّتِي اندلَعَتْ فِي الْعِرَاقِ عَامَ (١٩٤٠ م) ، وَبَعْدَ أَنْ خَمَدَتْ هَذِهِ
الثَّوْرَةُ تَقَلَّبَ عبد الرحيم محمود فِي وَظَائِفِ تَعْلِيمِيَّةٍ كَانَ آخِرُهَا مُعَلِّماً لِللُّغَةِ

العربية في بغداد ، ثم مدرساً في مدرسة العشا بالبصرة ، وقد أفاد منه طلبة العلم هناك بما حباه الله من فصاحة وتمكّن في اللغة العربية وآدابها .

* لقد أقام الشاعر المجاهد ، والبطلُ الغرّيد عبد الرحيم محمود في العراق زهاء ثلاثة أعوام من عام (١٩٣٩ م إلى ١٩٤٢ م) ، وكانت أعواماً سِماناً ، التقى خلالها كبار شعراء العراق وعمالقة مفكريه وأدبائه ، وأفاد منهم ، وكان خلال هذه الأعوام موضع الحفاوة والتكريم من أبناء العراق الأماجيد ، وكانت له مساجلات مع أعلام الشعر العراقي من مثل : معروف الرصافي ، ومهدي الجواهري ، وغيرهما^(١) .

* ومما لا شك فيه أنّ أيام الاغتراب التي قضّاها عبد الرحيم محمود بعيداً عن بلده قد شحذت همّته ، وأعطته دفعا قويا في مواصلة الجهاد ، فهو لم ينسَ وطنه لحظة واحدة ، بل ظلّ أطلال أوطانه مرسومة بين حنايا أضالعه ، وفي سُويداء قلبه ، يرى وطنه في كلّ شيء ، في ضوء الشمس ، ونور القمر ، والنسيم العذب ، كما يراه في فم كلّ زهرة فوّاحة ، وفي خريف الجدول الصّافي ، بل وفي كلّ دمة منسكبة من عين حزينة .

* وخلال إقامته بالعراق كان له نظمٌ رائعٌ ، وأشعارٌ جميلةٌ ، إلّا أنّ تاريخه الأدبي والشعري لم يحفظ ولم يحتفظ له إلّا بقصيدة رائيّة واحدة ، يتشوّق فيها إلى بلده فلسطين ، ويحنّ إلى ترابها ، حيث تكفيه حفنة من تراب الوطن يضعها تحت خدّه إذا مات بعيداً عنه ، يقول البطلُ عبد الرحيم محمود في مطلع رائيته الجميلة :

فكرةٌ قد خالطت كلّ الفكر صورةٌ قد مازجت كلّ الصور
هي في دُنيائي سرّاً مثلما قد غدا اسمُ الله سرّاً في السور

(١) انظر : ديوانه (ص ٢٨) بتصرف يسير .

تلك أوطاني وهذا رسمها
تترأى لي على بهجتها
في ضياء الشمس في نور القمر
في خريز الجدول الصافي وفي
في هتون الدمع من هول النوى
يا بلادي يا منى قلبي إن
ومنها:

مُنيتي في غربتي قبل الردى
ظمئت نفسي لمغناك فهل
خبرٌ ينقله ريح الصبا
ويُلاقي كل ألف ألفه
يا بلادي أرشفيني قطرةً
ليت من ذاك الثرى لي حفنةٌ
تحت خدي إن أمّت فرشتها
فمتى أرجع يا ربّي متى
ليت لي أجنحة البرق فلا
يا تُرى عُشي كما خلّفته
وحبيبي يا حنيني للذي
البطل الشهيد:

في سُويدياء فؤادي مُحفّر
حيثما قلبت في الكون النّظر
في النّسيم العذب في ثغر الزّهر
صخب النّهر وأمواج البحر
واسمها ملء تسايح السّحر
تسلمي لي أنتِ فالديا هدر

أن أُملي من مجاليك البصر
يطفىء الحرقّة بالعود القدر
ويذيع الزّهر أنسام الخبر
ويلمان الشّيت المنتشر
كل ماء غير ما فيك كدر
أتملّى من شذا الثّرب العطر
وإذا عشّت فيكفيني الأثر
لأرى حلم غرامي المُتظّر
أقطع اليد بوغاء السّفر
لم يزل فيه فراخ لم تطر
لم يخن عهد ودادي وصبر^(١)

* بعد أن هدأت الأحوال في فلسطين في أعقاب سنة (١٩٤١ م) ، عاد

(١) انظر: ديوانه (ص ١٣٦ - ١٣٩) وشاعران من جبل النار (ص ٢٧٩ و ٢٨٠) مع الجمع والتصرف.

الشاعر البطل إلى وطنه مبتهَج الفؤاد ، قَريرَ العين ، طَيَّبَ النَّفس ، بعد أن
كَانَ شديدَ الظَّمَا لمغاني بلادِه التي رَوَّاهَا بمعاني فؤادِه ، وهناك أخذَ يسمعُ
غناء الطَّيرِ في أشجارِه بأنغامٍ تُرقصُ أعطافَ الشَّجر ، وهناك لقيَ أحبابَه
وأترابه ومعارفَه وخلَّانَه .

* وفي مدرسة النَّجاح لمعَ نجمُه مرَّةً ثانية ، حيث تابعَ عمله بعد غيابٍ
طويل ، وراحَ يعلمُ طلابَه عيونَ الأدبِ العربيِّ ، ويغرسُ في نفوسِهِمُ حُبَّ
الوطن ، وكانت قريحَتُه الغنيَّةُ بالشُّعرِ تفيضُ بحماسِ الكلمات ، فيرسلُ
أغاريدهُ الوطنية ، وأهازيجَه الحماسيَّةَ في آفاقِ فلسطين ، ويغرِّدُ على
أرواحِها ، ويطربُ القلوبَ ويصقلُ النفوسَ ، فاسمعُ إليه في هذه القصيدةِ
الملتَهبةِ حماساً وشجاعةً ، وهو يدعو خلالها إلى الجهادِ دعوةً إيجابيةً ،
ويرسمُ صورةَ النَّضالِ الحقِّ :

دَعَا الْوَطَنُ الذَّبِيحُ إِلَى الْجِهَادِ فَخَفَّ لِفَرْطِ فَرَحَتِهِ فُؤَادِي
وَسَابَقْتُ النَّسِيمَ وَلَا افْتِخَارُ أَلَيْسَ عَلَيَّ أَنْ أَفْدِيَ بِلَادِي
حَمَلْتُ عَلَى يَدَي زُوحِي وَقَلْبِي وَمَا حَمَلْتُهَا إِلَّا عِتَادِي

* فهذه صورةٌ حقيقيَّةٌ للجهادِ والدِّفاعِ عن الحقِّ السَّليب ، وهذه
الصُّورةُ بعيدةٌ عن عواطفِ الكلمات ، فالمجاهدُ عبد الرحيم محمود لم
يحملُ روحه وقلبه في يدٍ ، وسلاحُه في الأخرى ، ليشيرَ الشفقةَ في
النفوس ، أو يحركَ المشاعرَ الحزينةَ لحالِه ، وإنما يرسمُ طريقَ الجهادِ
الحقيقيِّ ، ويسخرُ منَ الجبانِ الرَّعيدِ الذي قَعَدَ وتكاسلَ وجبُنَ عن مقاومةِ
المحتلِّين ، ثم يدعوهُ ليقعدَ في حضنِ أمِّه كالطُّفل ، وتكفي الجبانَ هذه
الخسَّةُ والمهانةُ ، ويتابعُ عبد الرحيم محمود داليتَه فيقول :

وَقَلْتُ لِمَنْ يَخَافُ مِنَ الْمَنَايَا أَتَفَرَّقُ مِنْ مُجَابَهَةِ الْأَعَادِي
أَتَقَعِدُ وَالْحُمَى يَرْجُوكَ عَوْنًا وَتَجْبُنُ عَنْ مَصَاوِلَةِ الْأَعَادِي

فدونك حُضْنُ أُمَّكَ فاقْتَعِدْهُ وحسبك خَسَّةٌ هذا التَّهَادِي
 فلأوطانٍ أَجْنَادُ شِدَادُ يكيلون الدَّمَارَ لكلِّ عَادِي
 تراهم في الوغى أسداً غضباناً مغاويراً إذا نادى المنادي
 بني وطني دنا يوم الضَّحايا أغرَّ على رُبَى أَرْضِ المَعَادِ
 وَمَنْ للحربِ إنْ هاجَتْ لظَاهَا وَمَنْ إلّاكمو قَدْحُ الزَّنَادِ^(١)

* وفي خلال سِتَّةِ أعوامٍ مِنْ عام (١٩٤٢ - ١٩٤٨ م) ، نظمَ عبد الرحيم محمود أكثرَ قصائده الحماسية البطولية ، ونشرها في صحفِ فلسطين ، وظلَّ كذلك يلتهبُ حماساً إلى أن صدرَ قرارُ التَّقْسِيمِ الجائرِ في (١٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٧ م). وقامتِ الحربُ بينَ العربِ واليهودِ .

* هنالك هبَّ عبدُ الرحيم محمود ليقفَ في وجْهَ اليهود وحلفائهم الذين تآمروا لاغتصاب فردوس بلاد الشَّام وقبلة المسلمين الأولى ، هبَّ الفتى الشاعراً البطلُ الفارسُ كيما يجاهد في سبيلِ الله ، وتركَ التَّدْرِيسَ مرَّةً أخرى ، فقد أزفتْ ساعةُ الجهادِ ، وحنَّ موعِدُ اللقاء ، وعليه أن يلبيَ النِّداءَ ، ليكونَ شهيداً من أحفادِ الأبرار الذين سبقوه من قَبْلِ .

* ووقفَ البطلُ الشَّابُّ أمامَ طلابه يخاطبُهم : أيُّها الإخوان ، لقد انتهتِ الدِّرَاسَةُ في الكليَّةِ بسببِ القرارِ الجائرِ وعدمِ الاستقرارِ ، وإني أرى الحماسَ في وجوهكم ، وإنَّ الكلامَ لا يفيدُ ، ماذا ستعملون بصراحة ؟! هل ستحاربون عدوكم بالعصيِّ؟ الرِّجلُ فينا يجبُ أن يخوضَ المعركةَ

(١) انظر: ديوانه (ص ١٤٠ - ١٤٣) والقصيدة تعد (٢٠ بيتاً) وتشبه هذه القصيدة التي تدعو الشَّعبَ إلى النضالِ قصيدة أخرى لعبد الرزاق الهاشمي العراقي :

وطني العزيزُ إلى متى متكبِّدٌ كلَّ اضطهاد
 يا أيُّها الشعبُ الذي اضطهدوك كم لك من أياد
 رتعو بنعمتك التي درّت على حَسَبِ المراد

بنفسه ، يجبُ أن يتجنَّدَ . . . اتركوا الفوضى أيها الإخوان ، وعليكم بالتنظيم والتدريب والوحدة^(١) .

* وترك عبد الرحيم محمود بلدَه ، وسافرَ في منتصفِ شهر كانون الثاني (عام ١٩٤٨ م) إلى بيروت ، ثمَّ سافرَ إلى الشَّام ، وتدرَّبَ في معسكرٍ «قَطْنَا» جنوبي دمشق ، وعرفَ ما استجدَّ من سلاح ، وتعلَّم أسرار القتال ، والتحقَ بجيشِ الإنقاذِ ، ورابطَ في بلدةٍ «بلعَا» القريبة من طولكرم ، ثمَّ اشترك في معركةٍ «بيار عدس» مع سريةٍ من فوجِ حطَّين ، حيثُ قاتلَ بالبندقيةِ ، وبالشَّجاعةِ الممزوجةِ بالإيمانِ بالله .

* وفي شهر نيسان من عام (١٩٤٨ م) عُيِّنَ عبد الرحيم محمود آمراً للانضباطِ في مدينةِ طولكرم ، متولياً مسؤوليةَ حمايتها والدِّفاع عنها .

* وكان بطلُّنا المقدامُ يدوِّنُ مشاهداته وملاحظاته في مذكراتٍ دأبَ على تدوينها وتسجيلها يوماً بيوم ، ثمَّ إنَّه اشتركَ بعد ذلك في النُّضال الذي قامَ حولَ الرَّملة ، وفي قطاعِ النَّاصرة ، وكان خلال ذلك قد رُقِّيَ إلى رتبة ملازمٍ أوَّل ، وكانَ مساعداً لأميرِ الفوجِ المسؤول عن النَّاصرة .

* وعندما اشتدتْ معاركُ قريةِ الشَّجرة^(٢) ، أمَّها عبد الرحيم محمود ليسهمَ في دَرْءِ الرَّدَى عنها من كيدِ المعتدين .

(١) انظر: الشاعر عبد الرحيم محمود (ص ٥٠) بتصرف يسير .

(٢) «الشَّجرة»: قريةٌ عربيةٌ من أعمالِ طبرية ، كانَ يسكنها حسب الإحصاء الرسمي (سنة ١٩٤٨ ، ٧٧٠ نسمة) معظمُهم من المسلمين ، ومساحتها (١٠٠ دونم) ، وذكرها ياقوت الحموي فقال: الشَّجرة اسمُ قريةٍ بفلسطين ، فيها قبرُ صديق ابن صالح النبي عليه السَّلام ، وقبرُ دحية الكلبي . (معجم البلدان ٣/ ٣٢٥) .
أقول: دحية الكلبي الصَّحابي - رضي الله عنه - سكنَ الوزة ، القرية المعروفة قرب دمشق ، وبقي إلى خلافة سيِّدنا معاوية رضي الله عنهما .

* وفي يوم (١٣ تموز سنة ١٩٤٨ م) نشبت معركةٌ حاميةٌ بين العرب واليهود في قرية الشجرة ، وهبَّ عبد الرحيم محمود ينافحُ ويجاهدُ ويجالِدُ اليهودَ ، هنالك وبومها لقي الأسدُ الباسلُ المجاهدُ مضرعَه في ميدانِ الشرفِ وحومةِ الحقِّ ، فقد أصابته رصاصةٌ في عنقه ووجهه ، فقضت على حياته.

* وسكتَ البطلُ الغرَّيدُ . . . سكتَ البطلُ الشَّهيدُ ، ولكنه كانَ قبلَ أن يلفظَ أنفاسَه الأخيرةَ يهلِّلُ ويكبرُ ويذكرُ اللهَ عزَّ وجلَّ ، وكانَ يردِّدُ - وهو محمولٌ على محفَّةٍ على أكتافِ أصحابِه الذين نقلوه إلى مستشفى الميدان^(١) - هذه الكلمات :

احمِلُونِي احمِلُونِي واخذَرُوا أن تترْكُونِي
يا فلسطيْنُ ودَاعَا خالِصاً من كُلِّ هُونٍ
وخذُونِي لا تخافُوا حيثُما مُتُّ ادفنُونِي

* ثم استمرَّت شفتاه تتحرَّكان بالشَّهادة ، إلى أن تلاشَى صوتهُ ، وصعدتْ روحُه إلى ربِّها راضيةً مرضيةً ، لأنَّها حظيتْ بالشَّهادة العظمى في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ ، بينما كان يردِّدُ زملاؤه وأصحابُه في الجهادِ قوله :

سأحملُ رُوحِي على راحتي وألقي بها في مُهاوي الرَّدَى
فإمَّا حياةٌ تسرُّ الصِّديق وإمَّا مماتٌ يغِيظُ العدا

* ودُفِنَ البطلُ الشَّهيدُ في مدينةِ النَّاصرة حيثُ رغبته ، وذلك قبلَ أن تسقطَ في أيدي الصَّهْيانية الغاشمين دُفِنَ البطلُ الشَّابُّ وهو في ميعةٍ

(١) قال أحدُ أقرباء عبد الرحيم محمود: نُقِلَ عبد الرحيم إلى مستشفى الميدانِ بعد أن حمَلَه أصحابُه على محفَّةٍ ، إلا أنَّ السَّيَّارة التي نقلته قد تدهورت قبلَ أن يَصِلَ .
(شاعران من جبل النار ص ٢٤١).

الصَّبَا ورِيعَانِ الشَّبَابِ حَيْثُ كَانَ عَمْرُهُ (٣٥ عاماً) ، إِلَّا أَنَّ الْبَطْلَ
عَبْدَ الرَّحِيمِ مُحَمَّدَ سَيِّظْلُ شَاباً ، وَاسْتَظْلُ كَلِمَاتِهِ شَابَةً جَمِيلَةً مَدْوِيَّةً مَا دَامَ
هَنَالِكَ جُنُودٌ بِوَاسِلُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

* رَحِمَكَ اللَّهُ يَا أَبَا الطَّيِّبِ^(١) . . . وَطَيِّبَ ثَرَاكَ ، وَأَكْرَمَكَ بِرَحْمَتِهِ مَعَ
الشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ .

* * *

(١) لعبد الرحيم محمود ولدان هما: الطيب ، وطلال . وابنة تسمى: رقية .

قَطْرِي بن الفُجَاءَة

- * سُمِّيَ بأمير الموت لشجاعته ، وفروسيته ، وبسالته.
- * خطيب فصيح ، وبليغ مبين ، وصاحب لسان ذرب ، وشاعر مجيد.
- * رأس الخوارج ، ودُعي أمير المؤمنين عشرين سنة.

أَمِيرُ الْمَوْتِ :

* أَمِيرُ الْمَوْتِ ؛ اسْمٌ غَرِيبٌ وَطَرِيفٌ حَقًّا ، أَمِيرُ الْمَوْتِ اسْمٌ أُطْلِقَهُ النَّاسُ عَلَى فَارِسِ هَذِهِ الصَّفَحَاتِ ، لَشَجَاعَتِهِ وَفُرُوسِيَّتِهِ وَبَسَالَتِهِ فِي سَاحَاتِ الْمِيَادِينِ وَالْمَعَارِكِ ، فَكَانَ يَطَاعُنُ فِي قُبُلٍ ، وَيَحْمِي عَنْ دُبُرٍ .
 * وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ ، فَهُوَ مَعْدُودٌ فِي جُمْلَةِ خُطَبَاءِ الْعَرَبِ الْمَشْهُورِينَ بِالْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ وَالْبَيَانِ وَاللَّسَنِ .

* ذَكَرُوا أَنَّهُ كَانَ فَارِسًا شَجَاعًا شَاعِرًا مَجِيدًا ، وَكَانَ رَئِيسَ الْخَوَارِجِ ، وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَشْرِينَ سَنَةً ، وَكَانَ خُطِيبًا فَصِيحًا ، وَلَهُ خُطْبَةٌ فِي ذِمِّ الدُّنْيَا ، انْتَهَى فِيهَا مِنَ الْبَلَاغَةِ إِلَى الْغَايَةِ^(١) .

* عَاشَ هَذَا الْفَارِسُ الشَّاعِرُ الْخُطِيبُ الْمَقْدَامُ فِي الْقَرْنِ الْهَجْرِيِّ الْأَوَّلِ ، وَبَلَغَ صِيْتُ شَجَاعَتِهِ أَطْرَافَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ حَتَّى سَمَّوْهُ أَمِيرَ الْمَوْتِ .

* وَكَانَ هَذَا الْفَارِسُ ذَا الْمَرَاسِ الشَّدِيدِ مِنْ فَرَسَانِ الْأَزَارِقَةِ الشَّرَاةِ وَشَجَاعَتِهِمْ ، اشْتَرَكَ فِي أَيَّامِهِمْ وَمَعَارِكِهِمْ الْعَدِيدَةِ عِنْدَمَا حَارَبُوا مُصْعَبَ^(٢)

(١) انظر : شرح مقامات الحريري للشريشي (١/ ٢٣٢) .

(٢) مُصْعَبُ بْنُ الزَّبِيرِ بْنِ الْعَوَّامِ الْقُرَشِيُّ الْأَسَدِيُّ ، وَلِيَ الْعِرَاقَ لِأَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَكَانَ شَجَاعًا مَمْدَحًا جَمِيلًا جَوَادًا ، اخْتَصَّه عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسِ الرُّقَيَاتِ بِأَجْمَلِ مَدَائِحِهِ وَخُصُوصًا الْهَمْزِيَّةَ الْمَشْهُورَةَ وَمَنْهَا :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنْ اللَّهِ تَجَلَّاتٌ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
 قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ يَوْمًا لِحُلَسَائِهِ : مَنْ أَشْجَعُ الْعَرَبِ ؟ قَالُوا : شَبِيبُ بْنُ يَزِيدَ
 الشَّيْبَانِيُّ الْخَارَجِيُّ ؛ فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : أَشْجَعُ النَّاسِ رَجُلٌ جَمَعَ بَيْنَ سَكِينَةٍ وَبَنَاتٍ =

ابن الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ في العراقِ ، وخرجُوا عن طاعته وسلطانِه في خلافةِ أخيه عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيْرِ - رضي الله عنهما - .

* وحينما ماتَ قائدُهم وأميرُهم الزُّبَيْرُ بنُ عليِّ السَّلِيطِيِّ سنةَ (٦٨ هـ) ، بايَعَهُ الأزارقةُ بإشارةٍ منه أميراً عليهم^(١) ، وسلَّمُوا عليه بالخلافةِ ، ودعوه أميرَ المؤمنين .

* ترى مَنْ هذا الفارسُ الخطيبُ الصَّنِديدُ الذي دَوَّخَ البلادَ والعبادَ ، وصارت سيرتهُ أحداثُهُ في كُلِّ وادٍ ونادٍ؟

* الإمامُ شمس الدِّينِ الذَّهَبِيُّ يُعْطِينَا اسمَه ومَلامِحَه في مفتتحِ ترجمتهِ لَهُ فيقول ما نصُّه : قطريُّ بنُ الفُجاءةِ الأميرُ أبو نَعَامَةَ التَّمِيمِيّ المازنِيّ ، البَطْلُ المشهورُ ، رأسُ الخوارجِ ، خرجَ زمنَ ابنِ الزُّبَيْرِ ، وهَزَمَ الجيوشَ ، واستفحلَ بلاؤُهُ^(٢) .

* وتقولُ المصادرُ الأخرى : إِنَّهُ أبو نَعَامَةَ قطريُّ بنُ الفَجاءةِ^(٣) واسمُ

= الحسين ، وعائشة بنتُ طلحة ، وليَ العراقَ فأصابَ ثلاثةَ ملايين ، وأُعْطِيَ الأمانَ فأبى ، ومشى بسيفه ؛ ذلك مصعبُ بنُ الزُّبَيْرِ ، لا مَنْ قطعَ الجُسورَ وفرَّ هاهنا مرّةً وهاهنا مرّةً . وكانَ مُصْعَبٌ يسمّى آنيةَ التَّحَلُّ لوجودِه ، وكانَ جميلاً شديدَ العارضةِ ، وكانَ الزُّبَيْرُ - رضي الله عنه - يقفُه ومُضْعَباً فينظرُ أيُّهما أحسنَ ، ثمَّ يقولُ : ما خلَقَ الله شيئاً أحسنَ منكما . قُتِلَ في موقعةِ ديرِ جاثليق ، وكانتَ بينه وبين عبد الملك بن مروان سنةَ (٧٢ هـ) ، وأخباره كثيرةٌ جداً - رحمه الله . (التَّبَيِّن ص ٢٣٧) بتصرف (١) وإلى هذا أشارَ الحريريُّ - رحمه الله - في مقاماته فقال : فقلِّدوه في هذا الأمرِ الزَّعامةَ ، تقليدَ الخوارجِ أباً نَعَامَةَ . (شرح مقامات الحريري ١/ ٢٣٠)

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (١/ ١٥٤) .

(٣) النجوم الزاهرة (١/ ١٩٧) ، والوافي بالوفيات (٢٤/ ٢٤٨ و ٢٤٩) ، وحاشية على شرح بانت سعاد لابن هشام (١/ ٣١٠) ، ووفيات الأعيان (٤/ ٩٣ - ٩٥) ، وسمط اللّالي (١/ ٥٩٠) وأمالِي المُرْتَضَى (١/ ٦٣٦ و ٦٣٧) وخزانة الأدب (١٠/ ١٧٤ - ١٧٩) وسير أعلام النبلاء (٤/ ١٥١ و ١٥٢) ، وزهر الآداب (ص ٧٨٦ =

الفجاءة جعونة بن مازن المازني وقيل التميمي - ، كان أحد رؤوس الخوارج ومشاهيرهم وفرسانهم . والفجاءة: لقب لأبيه ، وسمي الفجاءة لأنه غاب دهرًا باليمن ، ثم جاءهم فجاءة .

* قال البغدادي في «الخزانة» عن قطري: وقطري هو رأس الخوارج ، كان أحد الأبطال المذكورين ، خرج في مدة ابن الزبير ، وبقي يقاتل ويستظهر بضع^(١) عشرة سنة ، وسلم عليه بإمرة المؤمنين ، وجهز عليه

= ١٠٢٧ و ١٠٢٨) والحماسة البصرية (١٣٠/١ و ١٣١) رقم (٨٧) ، والبرصان والعرجان والعميان والحوالان (ص ٩٦ و ٩٧ و ٣٢٦) والعقد الفريد (انظر الفهارس ١٤٣/٧) والكمال للمبرد في مواطن عديدة ، وعيون الأخبار (١٧٣/١) و (٢/٢٥٠) ، وشرح العيون (ص ٢٠١ و ٢٠٢ و ٢٠٤) والأخبار الطوال (ص ٢٧٥ و ٢٧٧ و ٢٨٠ و ٣٠٥) والأغاني (انظر الفهارس ٤٠١/٢٦) وشرح مقامات الحريري (٢٣٢/١ - ٢٣٤) وشذرات الذهب (١/٣٢٤ و ٣٢٥) ومجلة الدرعية - السنة الأولى - العدد الثاني آب ١٩٩٨ م (ص ١٣٠ - ٢٤٧) ، والمعارف (ص ٤١١) وغيرها كثير .

(١) «بضع»: البضع ومثله البضعة ، وهو ما بين الثلاث إلى التسع ، وحكمه تأنيثاً وتذكيراً في الأفراد والتركيب: حكم «تسع وتسعة»؛ تقول: «بضع سنين» و«بضعة عشر رجلاً» و«بضع عشرة امرأة» ولا يُستعمل فيما زاد على العشرين ، وأجازه بعضهم ، وزوي في الحديث: «بضعاً وثلاثين ملكاً» وجعله النحاة كالمصدر فلا يُجمع ولا يُثنى . ويُعرب حسب موقعه في الجملة ، ويُستعمل مفرداً - وهنا يكون معدودُه مُضَافاً إليه - مثل: زارني بضع طالبات . ونعرب «بضع»: فاعلُ زار مرفوع بالضمّة الظاهرة ، وهو مُضَافٌ . و«طالبات»: مُضَافٌ إليه مجرور بالكسرة . ومركباً مع العشرة - وهنا يُعرب كالعدد المركب - ويكون معدودُه منصوباً على التمييز مثل: شاهدتُ بضعة عشر تلميذاً أو بضع عشرة تلميذة . وتعرب «بضعة عشر»: اسم مركب مبني على فتح الجزئين في محل نصب مفعول به ، و«تلميذاً»: تمييز منصوب بالفتحة ؛ ونعرب كذلك: «بضع عشرة تلميذة» إعراب «بضعة عشر تلميذاً» ويكون معطوفاً - وهنا يكون معدودُه منصوباً على التمييز أيضاً - مثل: «أملك بضعة وعشرين ألف دينار» ونعرب «بضعة» مفعولٌ به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره . و«عشرين»: الواو حرف عطف مبني على الفتح لا محل له من =

الحجاجُ جيشاً بَعْدَ جيشٍ وهو يستظهرُ عليهم ، ويكسرُهم ، وتغلبَ على نواحي فارسٍ وغيرها ، ووقائعُه مشهورة^(١) .

* وقال الحصريُّ القيروانيُّ في «زهره» : وكان أطولَ الخوارجِ أياماً ، وأحدهم شوكَةً ، وكان شاعراً جَواداً^(٢) .
فُروسِيَّتَه ومَذْهَبُهُ وخَوْفُ النَّاسِ مِنْهُ :

* كان قطريُّ بنُ الفجاءةِ المازنيِّ واحداً من أشدِّاءِ فرسانِ وأبطالِ عصرِ بني أميَّةَ ، - ذلك العَصْرُ البَهيُّ الذي تمخَّضَ عن مشاهيرِ فرسانِ الدُّنيا وأشدِّائِهِم وفاتحيِ البلادِ في الشَّرْقِ والغربِ - فلقد طارَ صيْتُ قطريِّ في أحشَاءِ البلادِ ، وخشيَ منُ لقائِهِ الأبطالُ الشَّدادِ ، الذين يُسمَعُ صوتُهُم في كلِّ نادٍ وَوَادٍ ، وقد لقي في معاركِهِ وحروبِهِ عدداً منُ صناديدِ الفُرسانِ القادةِ ، وقادةِ الفُرسانِ ، وسادةِ الأبطالِ وأبطالِ السَّادةِ ، من مثلِ البطلِ الصَّنيدِ : عمرُ بنُ عُبيدِ اللهِ بنِ مَعْمَرِ التَّيميِّ ؛ وفارسِ عصرِهِ : المهلبُ^(٣)

= الإعراب ، «عشرين» : اسمٌ معطوفٌ منصوبٌ بالياءِ لأنَّه مُلْحَقٌ بجمعِ المذكَّرِ السَّالِمِ . و«ألف» : تمييزٌ منصوبٌ وعلامةُ نصبِهِ الفتحةُ الظَّاهرةُ على آخرِهِ ، وهو مُضافٌ ، و«دينار» : مُضافٌ إليه مجرورٌ وعلامةُ جرِّهِ الكسرةُ الظَّاهرةُ على آخرِهِ .

(١) خزانة الأدب للبغدادي (١٧٧/١٠ و ١٧٨) طبعة دار الكتب العلمية في بيروت .

(٢) انظر : زهر الآداب للحصري (١٠٢٧/٢) .

(٣) المهلبُ بنُ أبي صفرةِ الأزديِّ أميرُ خراسانِ ، صاحبُ الحروبِ والفتوحِ ، أميرُ عبد الملكِ بن مروانِ على خراسانِ ، وأبو صُفرةٍ هو ظالمُ بنُ سرافِ الأزديِّ الذي نزلَ البصرةَ . وكانَ المهلبُ يكنى أبا سَعِيدٍ ، وكانَ منُ أشجعِ النَّاسِ ، وحمى مدينةَ البصرةِ منَ الشُّراةِ الخوارجِ ، بعدَ جلاءِ أهلِها عنها ، إلَّا مَنْ كانتَ بهِ قوَّةٌ ، فهي تسمَّى بصرَةَ المهلبِ . قال أبو إسحاق السَّبيعيُّ الهمدانيُّ - رحمه الله - : لم أرَ أميراً أَيْمَنَ نقيَّةً ، ولا أشجعَ لقاءً ، ولا أبعدَ ممَّا يكره ، ولا أقربَ ممَّا يحبُّ منَ المهلبِ بنِ أبي صفرةٍ ، ومولدهُ عامَ الفتحِ ، ولأبيهِ صُحبةٌ . ولِيَ المهلبُ خراسانَ خمسَ سنينَ وماتَ بمدينةِ «مرو الزَّوذ» في سنة (٨٢ هـ) ، واستخلفَ ابنه يزيدُ بنُ =

ابن أبي صفرة الأزدي وأولاده الميامين: المفضل ، المغيرة ، يزيد ،
ومذرك ، وغيرهم ممن لا يخصون .

* وكان قطري مع هذا كله وذاك كما قال أبو عثمان الجاحظ: يدين
بالاستعراض ، والسبأ ، وقتل الأطفال^(١) ، ولهذا انتشر صيت الأزارقة
بأنهم من أصحاب الشر والفتك ، وكان قطري من بينهم شديد الغلو في
الدين ، شديد البأس في مواجهة خصومه ، والبطش بهم .

* ومن الجدير بالذكر أن الأزارقة قوم من الخوارج ، ولا بأس أن
نتعرف شيئاً عن الخوارج ، كيما تظهر الصورة بشكل أوضح ، وكما
نتعرف مذهبهم وعقيدتهم .

* فالخوارج طائفة شعارها « لا حكم إلا لله » جمع بينها التطرف في كل
شيء ، في التفكير ، في الشعور ، فهم أقوياء الداء في خصوماتهم .

* وقد لقيت الخلافة الأموية وإماراتها منهم عنتاً وضيقاً وإرهاقاً ، فهم
متطرفون في آرائهم الدينية ، ولهم وجهات نظر خاصة لا تعدو أربة
أنوفهم ؛ منهم من يحكم بالكفر على المسلمين عامة ! والعياذ بالله تبارك
وتعالى ، ويقول غلاتهم والمتعمقون منهم في المذهب : إن العمل جزء من
الإيمان ، فمن ارتكب من المسلمين معصية بتركه فرضاً ، أو إثباته منكرأ
فليس بمنجيه من الكفر اعتقاد الوحدانية والثبوة ؛ واحتجوا على ذلك بقوله
تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] ^(٢)

= المهلب ، ويزيد ابن ثلاثين سنة ، فعزله عبد الملك برأي من الحجاج وولى
قتيبة بن مسلم . (المعارف ص ٣٩٩ و ٤٠٠) و(شذرات الذهب ١ / ٣٣٤ و ٣٣٥)

(١) البيان والتبيين للجاحظ (٣ / ١٣٤) .

(٢) المؤمنون الموصولة قلوبهم بالله ، الندية أرواحهم بروحه ، الشاعرون بنفحاته
المحيية الرخية ، لا ييأسون من روح الله ، ولو أحاط بهم الكرب ، واشتد بهم =

قالوا: فيجوز أن يكون مرتكبُ الكبيرة مؤمناً ، ولكن لا يطمعُ في عفوِ الله ،
وما دامَ المسلمون لا يَرونَ ذلك ، فهم كفّارٌ أوجبَ اللهُ مقاتلتهم ،
متطرفون في كلِّ شيء ، وشِعْرُهُم يقذفُ بالحِمم .

* وأصلُ الخوارجِ قومٌ كانوا مع عليٍّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - في
حَرْبِ صَفِيّين وخرجوا عليه ، والحقيقةُ أَنَّهُم غَدَرُوا به وخرجوا عليه - وليسَ
هنا موضعُ التَّفصيل - ثم نادوا: « لا حُكْمَ إلا لله » ، وقالوا: نحنُ
الشُّراةُ^(١) ، اشترينا الحياةَ الآخرةَ بالدُّنيا ؛ قال الإشكريُّ :

يَهْوَى وتَرْفَعُهُ الرِّمَاحُ كَأَنَّهُ شَلُوْ تَشَبَّ فِي مَخَالِبِ ضَارِ
فَتَوَى صَرِيحاً وَالرِّمَاحُ تَنَوُّشُهُ إِنَّ الشُّرَاةَ قَصِيْرَةُ الْأَعْمَارِ
وقال مَعْدَانُ الْإِيَادِيّ :

سَلَامٌ عَلَى مَنْ بَايَعَ اللهُ شَارِياً وليسَ على الحزبِ المقيمِ سَلَامٌ^(٢)

* ومن شِعْرِ مَعَاذِ بْنِ جُوَيْنِ الْخَارِجِيِّ يَحْرُضُ أَصْحَابَهُ عَلَى الْخُرُوجِ :
أَلَا أَيُّهَا الشَّارُونَ قَدْ حَانَ لِأَمْرِي شَرِي نَفْسَهُ اللهُ أَنْ يَتَرَحَّلَا^(٣)

* وقد سَارَ إِلَيْهِمْ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ - رضي الله عنه - في أَرْبَعَةِ آلَافِ مُقَاتِلٍ
عَقِبَ مَوْقِعَةَ صَفِيّين ، حينَ أَنْكَرُوا التَّحْكِيمَ ، وَاِنْحَازُوا إِلَى حُرُورَاءَ ، وَأَبَا

= الضَّيِّقُ ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَفِي رُوحٍ مِنْ ظِلَالِ إِيْمَانِهِ ، وَفِي أُنْسٍ مِنْ صَلَتهِ بَرَبِّهِ ، وَفِي
ظُمَانِيَةٍ مِنْ ثِقَتِهِ بِاللَّهِ ، وَهُوَ فِي مَضَائِقِ الشَّدَّةِ وَمَخَانِقِ الْكُرُوبِ ، فَمَا أَعْظَمَ نِعْمَةَ
الْإِيْمَانِ بِاللَّهِ وَمَعْرِفَةِ اللهِ !! .

(١) « الشُّرَاةُ » : مَنْ شَرَى بِمَعْنَى غَضِبَ ، أَوْ لَأَنَّهُمْ شَرُّوا أَنْفُسَهُمْ - أَيِ بَاعُوهَا - لِلَّهِ تَعَالَى
أَخْذاً مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ [البقرة :
٢٠٧] ، لِأَنَّ طَائِفَةَ نَشَاطِهِمْ كَانَتْ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَقَتَالَ الَّذِينَ حَكَمُوا الرِّجَالَ
فِي أَمْرِ اللهِ . (الأخبار الطوال ص ٢٠٦)

(٢) انظر: الكامل للمبرّد (٢/ ١٢٢) ، طبعة مكتبة المعارف ببيروت .

(٣) شِعْرُ الْخَوَارِجِ لِإِحْسَانَ عَبَّاسٍ (ص ٨) نقلاً عن تاريخ الطُّبري .

دخول الكوفة مع سيّدنا عليّ - رضوان الله عليه وحشرنا في معيّته - ، فحاول إقناعهم غير مرّة ، فلم يقتنع أكثرهم ، واجتمعوا بالنّهروان ، واستخلفوا عليهم عبد الله بن وهب الرّاسبيّ ، وأخذوا يفسدون في الأرض ، فذهب إليهم عليّ - رضي الله عنه - وقَاتَلهم في موقعة النّهروان حتّى أبادهم^(١) ، وبعد اغتيال سيّدنا عليّ - رضي الله عنه - تصدّعت جبهتهم ، واغرورب أمرهم ، فانقسموا إلى فرق كثيرة^(٢) أشهرها :

الأزارقة : وهم أتباع نافع بن الأزرق من بني حنيفة ، المكنى بأبي راشد ، وكان مقدّماً في فقه الخوارج ، ثمّ انضمّ إليهم كثير من الموالي ، وصاروا مثل العرب حماسة في الدّفاع عن مذهبهم ، وانتهت زعامتهم أخيراً إلى قطريّ بن الفجاءة ، ثمّ انقسموا عليه ، فبقي فريق معه ، وتخلّى عنه فريق إلى عبد ربّه الصّغير . وكان نفوذهم بالقرب من البصرة وبفارس وكرمان ، وهذه الفرقة أكثر فرقهم عدداً ، وأعظمها قوّة ، ولهم تعاليم شتى^(٣) ، وهم أشدّ الخوارج تطرفاً ، اعتبروا سائر المسلمين كفّاراً وحرّموا على أنفسهم الزّواج إلّا منهم ، وحرّموا أكل ذبائح المسلمين ، وحرّموا إرثهم ، قالوا : هم ككفار العرب ، فالإسلام أو القتال ، وبهذا استحلّوا قتل شيوخهم ونسائهم ، واستحلّوا قتل الأطفال ، لأنّهم مشركون كآبائهم مخلّدون في النّار ، لذلك كانت لهم غلظة على مخالفيهم من المسلمين^(٤) ، وبغضاً لهم ، وأشدّهم على أنفسهم أيضاً ؛ فلا عجب في أن

(١) انظر : الشّعر السّياسي لأحمد الشّايب (ص ١٤٦) .

(٢) ذكر البغداديّ في كتابه «الفرق بين الفرق» أنّ عددها عشرون فرقة .

(٣) انظر : الملل والنحل (١/ ١٠٩ و ١٢٢) والفرق بين الفرق (ص ٦٢) ، وشرح نهج البلاغة (١/ ٣٨١) .

(٤) ذكر المبرّد في «كامله» قصّة مفادها أنّ واصل بن عطاء أبا حذيفة أقبل في رُقّة معه ، فوقعوا في أيدي الخوارج ، فقال عطاء لأهل الرُقّة : دعوني وإياهم - وكانوا =

مَقْتَهُمُ الْمُسْلِمُونَ ، وحاربهم المهلبُ بنُ أبي صُفْرة في خلافةِ عبدِ الله بنِ الزُّبير - رضي الله عنهما - لما نَدَبَهُ لحربهم مصعبُ بنُ الزُّبير والي العراق ، ثم حاربهم في ولايةِ الحجاجِ بنِ يوسفِ على العراقِ ، حتى قضى عليهم .

النَّجْدِيَّةُ أو النَّجْدَاتُ : وهم أتباعُ نجدة بنِ عامر الحنفي ، خالفوا الأزارقة ، وقالوا عن المسلمين : إنهم أعداءُ الإسلام ، لكنهم موحدون بالله ، ومؤمنون بالرسول ﷺ ، فلم لا نتزوجُ منهم ، ونتوارثُ وإياهم ؟!

الصُّفَرِيَّةُ : وهم أتباعُ زياد بنِ الأصفر ، ولذلك يسمون صُفْريةً أو زيادية . وهم أقلُّ تطرفاً من الأزارقة ، فهم لا يكفرون العقيدة مثلاً كالأزارقة ، وهم يجتمعون في أشياء كالقول بالقياس . وقد تزعمهم شبيب بنُ يزيد ، ثم شاذب - بسطام الشكري - ، ثم الضحاك بنُ قيس الشيباني .

الإباضية : وهم أتباعُ عبدِ الله بنِ إياض التميمي الذي عاش في النصف الثاني من القرن الهجري الأول ، في عصر سيدنا معاوية - رضي الله عنه - ، ومبادئه أقربُ إلى الاعتدال .

* وكان الخوارجُ يقاتلون عن عقيدة ، ويريدون الجهادَ في سبيلها إيماناً بقولِ قائلهم :
أريدُ ثوابَ الله يوماً بطعنة . . .

* لقد آمنوا بدعوتهم الدِّينية ، وبدعوتهم السِّياسية إيماناً يَقِفُ العقلُ

= قد أشرفوا على العطب - ، فخرج إليهم ، فقالوا : ما أنت وأصحابك ؟ قال : مشركون مستجيرون ليسمعوا كلامَ الله ويعرفوا حدوده . فقالوا : قد أجرناكم . قال : فعلمونا . فجعلوا يعلمونه أحكامهم ، وجعل يقول : قد قبلتُ أنا ومن معي . قالوا : فافضوا مصاحبين فإننا إخوانكم ، قال : ليس ذلك لكم ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمُتًا ﴾ فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن (الكامل ٢/ ١٢٢) بتصرف .

عنده حائراً ، واحتملوا القتلَ والصَّلبَ والشَّهيرَ وأنواعَ العذابِ وألوانه صابرينَ مستبسلينَ ، فاسمعْ لقولِ فروةَ بنِ نوفل الذي يتحدَّثُ عن الموتِ وتقطيعِ الأوصالِ ، ولكنه يَصِلُ إلى نتيجةٍ أنَّ كلَّ هذا يهونُ إذا نجا من النارِ :

مَا إِنْ أُبَالِي إِذَا أَزْوَاحُنَا قُبِضَتْ مَاذَا فَعَلْتُمْ بِأَوْصَالٍ وَأَبْشَارٍ
تَجْرِي الْمَجْرَةُ وَالنَّسْرَانِ بَيْنَهُمَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ السَّارِي بِمَقْدَارٍ
وَقَدْ عَلِمْتُ وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَنْفَعُهُ أَنَّ السَّعِيدَ الَّذِي يَنْجُو مِنَ النَّارِ^(١)

* وكان هؤلاء الخوارجُ كلَّما وجدوا جَوْاً صالحاً لدعوتهم ودعواهم ، طاروا إليه زرافاتٍ طَيْرَ جَرَادٍ مُتَشَرِّفَن فنفخوا فيه ، ومن ذلك أَنَّهُم اسْتَغْلَوْا الرُّوحَ الشُّعْبِيَّةَ . ومن الأمثلة أَنَّهُ في زمنِ هشامِ بن عبد الملك حطَّت الرِّحَالُ بالمغرب جماعاتٌ من الخوارجِ ، وأخذتْ تُولِّبُ البربرَ الذين ثاروا وهزَمُوا جيشاً بعثه هشامٌ لقتالهم ، وانتصروا عليهم في واقعةٍ «مَقْدُور» ، وسَجَّلُوا انتصاراً على العربِ بمساعدةِ الخوارجِ .

* على أَنَّ الخوارجَ على قِلَّةٍ عددهم برعوا في أنواعِ الكرِّ والفرِّ براعةً مدهشةً ، فكانوا يقاتلونَ عشراتَ ومئاتَ ، وتَجَرَّدُ عَلَيْهِمُ الدَّوْلَةُ مِائَاتٍ وَأَلُوفاً فَيَنْتَصِرُونَ عَلَيْهَا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ وَالْأَوْقَاتِ .

* ومن ذلك أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ زِيَادٍ أَمَرَ بِرَجُلٍ مِنْهُمْ هُوَ عُرْوَةُ بْنُ أَدِيَّةٍ فَبَتَّرَ يَدَاهُ وَرَجُلَاهُ ، ثُمَّ سَأَلَهُ : كَيْفَ تَرَى ؟ قَالَ : أَرَى أَنَّكَ أَفْسَدْتَ دُنْيَايَ وَأَفْسَدْتَ آخِرَتَكَ . فَأَمَرَ بِهِ وَبَابَتَهُ فَقَتِلَا . ثُمَّ خَرَجَ أَخُوهُ مُرْدَاسُ بْنُ أَدِيَّةٍ فِي أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنَ الْخَوَارِجِ ، وَرَابَطُوا بِالْأَهْوَازِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ ابْنُ زِيَادٍ أَلْفِي جُنْدِي ، فَهَزَمَهُمُ الْخَوَارِجُ فِي مَعْرَكَةٍ حَاسِمَةٍ فِي «آسِك» ، مِمَّا جَعَلَ شَاعِراً

(١) شعر الخوارج (ص ٥) .

من شعراء الخوارج هو عيسى بن فاتك يشيدُ بهذا الانتصار الذي أحرزهُ عددٌ قليلٌ على جيشٍ منظمٍ بقيادة أسلم بن زُرعة بن حصن التميمي ، وذلك فيما زعم عيسى بأن انتصارهم نتيجة الإيمان وتقوى الخوارج ، فقال عيسى قصيدةً ضمّنها واقتبسَ خلالها آيةً من القرآن الكريم : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَا ذَنَ اللّٰهُ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] :

| | |
|---|---|
| فَلَمَّا أَصْبَحُوا صَلُّوا وَقَامُوا | إِلَى الْجُرُودِ الْعِتَاقِ مُسَوِّمِينَ |
| فَلَمَّا اسْتَجْمَعُوا حَمَلُوا عَلَيْهِم | فَظَلَّ ذُو الْجَعَائِلِ يُقَتِّلُونَا |
| بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى أَتَاهُمْ | سَوَادُ اللَّيْلِ فِيهِ يُرَاوِغُونَا |
| يَقُولُ بَصِيرُهُمْ لَمَّا أَتَاهُمْ | بِأَنَّ الْقَوْمَ وَلُّوا هَارِبِينَ |
| أَلَّا مُؤْمِنٍ فِي مَا زَعَمْتُمْ | وَيَهْزِمُهُمْ بِأَسْكَ أَرْبَعُونَ |
| كَذَبْتُمْ لَيْسَ ذَاكَ كَمَا زَعَمْتُمْ | وَلَكِنَّ الْخَوَارِجَ مُؤْمِنُونَ |
| هُمُ الْفِئَةُ الْقَلِيلَةُ غَيْرَ شَكٍّ | عَلَى الْفِئَةِ الْكَثِيرَةِ يُنْصَرُونَ ^(١) |

* ويتضح لنا أنَّ مذهب الخوارج الديني كان سياسياً ، ثم خلطَ بعضهم بالمذهب السياسي مذهباً دينياً متطرفاً ، وغبشتِ الرؤية على كثيرٍ منهم ، واختلطَ لديهم الحابلُ بالنابل ، وأوّلوا كثيراً من الآيات القرآنية الكريمة وبعضَ الأحاديث الشريفة ، ليبرّروا مذهبهم ، كما تأوّلوا ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلّٰهِ ﴾ [الأنعام : ٥٧] و[يوسف : ٤٠ و ٦٧] ، بأنَّ المراد لا حكومة إلا لله ، أي لا حاجة إلى إمام . وقد سمعهم سيّدنا عليّ - رضوانُ الله عليه - يقولون هذه العبارة فقال : كلمةٌ حقٌّ يُرادُ بها باطل .

(١) انظر : الكامل (١٨٦/٢) وتاريخ الطبري (٣١٤/٥) ، وعيون الأخبار (١٦٣/١) و«الجرّد العتاق» : الخيلُ الجيادُ الكريمة . و«مسومين» : معلّمين ، دلالة على بأسهم وعدم مبالاتهم بمن أمامهم . و«ذو الجعائل» : جنود بني أمية المأجورون . و«أسك» : موضعٌ بهمدان كانت الموقعة فيه .

* فمن البديهي والمُسَلَّم به أنه لا بدَّ للنَّاسِ مِنْ حاكمٍ يرعى مَصَالِحَهُمْ ، ويسوسُ شؤنَهُمْ ، ويحميهم مِنَ العدو ، ويأخذُ لِلضَّعِيفِ مِنَ القويِّ . لذلك نرى أنَّ مذهبَ الخوارج بعامةٍ يتَّصفُ بسداجةِ آرائهم وغلبةِ البدَاوةِ على تعاليمهم^(١) .

* ولكنَّ مع هذا وذاك كانت أخلاقُهم العامَّة تتَّسمُ بالتَّقوى والشَّجاعة .

* أمَّا تقواهم فتظهرُ في العبادةِ والزُّهدِ والتَّأثُّرِ في آياتِ الذِّكْرِ الحكيمِ ، وبما جاءَ فيها مِنَ التَّرييبِ والتَّرهيبِ ، لذا فقد ظهرتْ على وجوههم آثارُ العبادةِ وعلى جباههم لطولُ السُّجود ، لذلك نجدُ هذه الصُّورة في قول عيسى بن فاتك الحبطيِّ عندما رثى مرادسَ بن أدية ، وداودَ بن شَبَث ، ومن قُتِلَ معهما :

أَلا في اللهِ لا في النَّاسِ شالَتْ بِداود وإخوتهِ الجذوعُ
مَضُوا قَتلاً وتمزيقاً وصلباً تحومُ عليهم طيرٌ وقُوعُ
إذا ما الليلُ أظلم كابدوه فيسفرُ عنهم وهم ركوعُ
أطارَ الخوفُ نومَهُم فقاموا وأهلُ الأمنِ في الدُّنيا هُجوعُ

* وأمَّا شجاعتُهم فكانت مضربَ الأمثالِ ، لأنَّهم كانوا يرونَ الاستشهادَ حلَّو المذاقِ ، عطرَ الانتشاقِ ، فتهافَّتوا على القتالِ في غيرِ مبالاةٍ ، وكانت بطولُهم تلفتُ الأنظارَ ، بغَضِّ النَّظرِ عن تعصُّبهم وشططهم .

* وتروي المصادِرُ قصصاً خياليَّة عن صبرِهِم وشجاعتِهِم ، فقد طعنَ أحدهم ، ونفذَ فيه الرُّمَحُ ، فجعلَ يسعى إلى قاتِلِهِ ، والرُّمَحُ فيه ويقول : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ [طه : ٨٤] .

(١) انظر: أدب السياسة في العصر الأموي (ص ١٠٥) بشيء من التصرف .

* ومن قَصَصِ ثَبَاتِهِمْ عَلَى عَقِيدَتِهِمْ وَحَسَنِ تَبَصُّرِهِمْ بِمَوَاقِعِ الْكَلَامِ مَا أوردَهُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّدُ فِي «كامله» قال: ذكروا أن عبد الملك بن مروان أتى برجلٍ منهم ، فبحثه فرأى منه ما شاءَ فهماً وعلماً ، ثمَّ بحثه فرأى ما شاءَ أرباً وذهياً ، فرغبَ فيه ، واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه ، فرأه مستبصراً محققاً ، فزاده في الاستدعاء ، فقال له: لِتُغْنِكَ الْأُولَى عَنْ الثَّانِيَةِ ، وَقَدْ قُلْتَ فَسَمِعْتُ فَاسْمَعْ أَقْلُ . قال: قُلْ . فجعلَ يَبْسُطُ لَهُ مِنْ قَوْلِ الْخَوَارِجِ ، وَيُزَيِّنُ لَهُ مِنْ مَذْهَبِهِمْ بِلِسَانٍ طَلِقٍ ، وَأَلْفَاظٍ بَيِّنَةٍ وَمَعَانٍ قَرِيبَةٍ . فقالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بَعْدَ ذَلِكَ - عَلَى مَعْرِفَتِهِ -: لَقَدْ كَادَ يَوْقَعُ فِي خَاطِرِي أَنَّ الْجَنَّةَ خُلِقَتْ لَهُمْ ، وَأَنِّي أُولَى بِالْجِهَادِ مِنْهُمْ . ثمَّ رَجَعْتُ إِلَى مَا ثَبَّتَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنَ الْحُجَّةِ ، وَقَرَّرَ فِي قَلْبِي مِنَ الْحَقِّ . فَقُلْتُ لَهُ: اللَّهُ الْآخِرَةُ وَالْدُّنْيَا وَقَدْ سَلَّطَنِي اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَمَكَّنَ لَنَا فِيهَا ، وَأَرَاكَ لَسْتَ تَجِيبُ بِالْقَوْلِ ؛ وَاللَّهُ لَا أَقْتُلَنَّكَ إِنْ لَمْ تُطِيعَ .

* وبينما كانَ عَبْدُ الْمَلِكِ يَهْدِدُهُ بِالْقَتْلِ ، إِذَا بَابُهُ مِرْوَانَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ بَاكِياً لِضَرْبِ الْمُؤَدَّبِ إِيَّاهُ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الْخَارِجِيُّ ، فقال له: دَعُهُ يَبْكِي فَإِنَّهُ أَرْحَبُ لَشِدْقِهِ وَأَصْحَحُ وَأَذْهَبُ لَصَوْتِهِ ، وَأَحْرَى أَنْ لَا تَأْبَى عَلَيْهِ عَيْنُهُ إِذَا حَضَرَتْهُ طَاعَةُ رَبِّهِ ، فَاسْتَدْعَى عِبْرَتَهَا . فَأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ قَوْلَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ ، فقال له متعجباً: أَمَا يَشْغَلُكَ مَا أَنْتَ فِيهِ ، وَبِعَرَضِهِ عَنْ هَذَا؟

فقال الخارجيُّ: مَا يَنْبَغِي أَنْ يَشْغَلَ الْمُؤْمِنَ عَنْ قَوْلِ الْحَقِّ شَيْءٌ .

* فَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ بِحَبْسِهِ ، وَصَفَّحَ عَنْ قَتْلِهِ ، وَقَالَ بَعْدَ يِعْتِذُرُ إِلَيْهِ: لَوْلَا أَنْ تَفْسَدَ أَكْثَرُ رَعِيَّتِي مَا حَبَسْتُكَ ، ثُمَّ إِنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ قَالَ: مَنْ شَكَّكُنِي وَوَهَّمَنِي حَتَّى مَالَتُ بِي عَصْمَةُ اللَّهِ ، فَغَيْرُ بَعِيدٍ أَنْ يَسْتَهْوِيَ مَنْ بَعْدِي . وَكَانَ

عبدُ الملك من الرّأي والعِلْم بموضع^(١). وما أدراك ما عبد الملك^(٢).

* وكانت نساء الخوارج مثل رجالهنّ شجاعةً وصلابةً وعزماً وعناداً ،

(١) انظر: الكامل للمبرد (٢/ ١٧٠ و ١٧١).

(٢) عبدُ الملك بنُ مروان بنِ الحكم القرشيّ الأمويّ ، وُلِدَ بالمدينة سنة (٢٦ هـ) ، في خلافة سيّدنا عثمان بن عفّان - رضي الله عنه وأرضاه - ، وولاه سيّدنا معاوية - رضوانُ الله عليه - إمارةَ المدينة سنة (٤٢ هـ) ، وأمره أن يشيّ بالمسلمين بأرضِ الرّوم ، فركبَ بالنّاس البحرَ ، وهو أوّل مَنْ شتّى بهم ، وهو أوّل مَنْ سَمِيَ في الإسلام بعبدِ الملك .

قال عنه ابنُ سعد في «طبقاته»: كَانَ عَبْدًا نَاسِكًا قَبْلَ الْخِلَافَةِ (طبقات ابن سعد ٢٣٤/٥) وقال ابنُ كثير في «بدايته»: كَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ قَبْلَ الْخِلَافَةِ مِنَ الْعُبَادِ الرَّهَادِ الْفُقَرَاءَ الْمَلَاذِمِينَ لِلْمَسْجِدِ وَتِلَاوَةَ الْقُرْآنِ وَكَانَ حَازِمًا فَطِنًا سَائِسًا لَأُمُورِ الدُّنْيَا ، لَا يَكِلُ أَمْرَ دُنْيَاهُ إِلَى غَيْرِهِ . (البداية والنهاية ٩/ ٦٢ و ٦٣) بتصرّف

روى عبدُ الملك الحديثَ عن أبيهِ مروان ، وجابر ، وأبي سعيد الخدري ، وأبي هريرة ، وابنِ عمر ، ومعاوية ، وأمّا أمّ سلمة وبريرة مولاة أمّنا عائشة - رضي الله عنهم جميعاً - .

وروى عنه جماعةٌ منهم: خالد بنُ معدان ، وعروة بنُ الزّبير ، والزّهريّ ، ورجاء بنُ حيوة ، وجريز بن عثمان ، وعمرو بن الحارث . ولذلك عدّه أبو الزّناد في الفقه في طبقة ابن المسيّب .

وشهد له الثّقات بالعِلْم والمعرفة ، قال نافعٌ مولى عبدِ الله بن عمر وهو عالمُ المدينة المنورة في عصره: لقد رأيتُ المدينة ، وما فيها شابٌّ أشدَّ تشميراً ، ولا أفقّه ، ولا أقرأ لكتابِ الله من عبد الملك بن مروان .

وقال الشّعبيّ الفقيه والتّابعي المشهور: ما جالستُ أحداً إلا وجدتُ لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان ، فإنّي ما ذاكرته حديثاً إلا زادني منه ، ولا شعراً إلا زادني فيه . (البداية والنهاية ٩/ ٦٢)

وقال سيّدنا عبدُ الله بنُ عمر - رضي الله عنهما - : وَلَدَ النَّاسُ أَبْنَاءً ، وَلَدَ مَرْوَانُ وَالِدًا . وناهيك بهذه الشهادة الكريمة من أحد نُجباء الصّحابة وعلمائهم .

ولعبدِ الملك أوّليات كثيرة ذكرها العسكري في «الأوائل» وأخباره كثيرة جداً يمكن أن يُفْرَدَ لها عدّة مجلّدات . مات عبدُ الملك بدمشق في يوم الخميس منتصف شهر شوال سنة (٨٦ هـ) وعمره ستون سنة ودُفن بباب الجابية الصّغير (عدة مصادر) .

وَكُنَّ يَشْتَرِكْنَ مَعَ الرِّجَالِ فِي أُمُورِهِمْ ، وَكُنَّ يَرُخْنَ إِلَى الْحُرُوبِ وَالزُّحُوفِ
مَعَهُمْ ، وَيَتَقَدَّمْنَ إِلَى الْحَتُوفِ وَهِنَّ غَيْرُ خَائِفَاتٍ وَلَا وَجِلَاتٍ .

* وَكَانَ ابْنُ زِيَادٍ شَدِيدَ الْغَيْظِ مِنْهُنَّ ، تَكَادُ تَنْشَقُّ مَرَارَتُهُ مِنْهُنَّ ، لِأَنَّ
اشْتِرَاكَهُنَّ فِي الْحُرُوبِ يُلْهَبُ حِمَاسَةَ الرِّجَالِ ، وَيَزِيدُ مِنْ شَجَاعَتِهِمْ . لِذَلِكَ
أَقْسَمَ ابْنُ زِيَادٍ لئنْ ظَفَرَ بِخَارِجِيَّةٍ لِيَجْعَلَنَّهَا نَكَالًا وَعِبْرَةً لغيرِهَا مِنْ جَمَاعَتِهَا
وَحَزْبِهَا وَمَنْ لَفَّ لَهَا .

* وَكَانَ مِنَ الْخَوَارِجِ مِنَ الْمَجْتَهِدَاتِ «الْبَلْجَاءُ» وَهِيَ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي
حَرَامِ بْنِ يَرْبُوعٍ ، وَكَانَتْ تَقِيَّةً عَالِمَةً جَرِيئَةً مُجَاهِدَةً ، وَسَمِعَ مِرْدَاسُ بْنُ
حُدَيْرٍ أَبُو بَلَالٍ مِنْ غِيلَانَ بْنِ خَرْشَةَ الضَّبِّيِّ أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ زِيَادٍ يَذْكُرُ
الْبَلْجَاءَ ، وَأَنَّهُ سَيَقْتُلُهَا . فَمَضَى إِلَيْهَا أَبُو بَلَالٍ وَقَالَ لَهَا : يَا هَذِهِ اسْتَتِرِي مِنْ
هَذَا الْمُسْرِفِ عَلَى نَفْسِهِ ، فَإِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ الْعَنِيدَ قَدْ ذَكَرَكَ وَأَحْسَبُهُ سَيَأْخُذُكَ
وَيَنْكَلُ بِكَ ، وَنَصَحَهَا بِأَنْ تَهْرَبَ . فَقَالَتْ لَهُ بِكَلِمَاتٍ تَفْلُ الْحَدِيدَ : إِنْ
يَأْخُذْنِي فَهُوَ أَشَقُّ بِي ، فَأَمَّا أَنَا فَمَا أَحَبُّ أَنْ يَعْنَتَ إِنْسَانٌ بِسَبْبِي . فَوَجَّهَ
إِلَيْهَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ ، فَاتَى بِهَا ، فَقَطَعَ يَدَيْهَا وَرَجَلَيْهَا وَرَمَى بِهَا فِي
السُّوقِ . فَمَرَّ أَبُو بَلَالٍ وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ فَقَالَ : مَا هَذَا؟
فَقَالُوا : الْبَلْجَاءُ .

فَعَرَجَ عَلَيْهَا ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا ، ثُمَّ عَضَّ عَلَى لَحْيَتِهِ وَقَالَ لِنَفْسِهِ : لَهَذِهِ أَطْيَبُ
عَنْ بَقِيَّةِ الدُّنْيَا مِنْكَ يَا مِرْدَاسُ ^(١) .

(١) انظر: الكامل للمبرد (١٨١/٢ و ١٨٢) وهناك فارقٌ كبيرٌ بينَ الْبَلْجَاءِ هَذِهِ وامْرَأَةٍ
تَصْلُحُ نَفْسَهَا وَتَتَجَمَّلُ وَتَتَصَابَى . فَقَدْ ذَكَرَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمَبْرَدُ قِصَّةَ طَرِيفَةٍ عَنْ هَذَا
الْمَجَالِ فَقَالَ عَنْ أَعْرَابِيٍّ يَدْعَى أَبَا الزَّوَائِدِ كَمَا جَاءَ فِي الْهَادِي (٩٥/٤) : أَنَشِدَنِي
أَبُو زَيْدٍ قَالَ : نَظَرَ شَيْخٌ مِنَ الْأَعْرَابِ إِلَى امْرَأَتِهِ تَتَصَنَّعُ وَهِيَ عَجُوزٌ فَقَالَ :
عَجُوزٌ تَرْجِي أَنْ تَكُونَ فَتِيَّةً وَقَدْ لُحِبَ الْجُنْبَانِ وَاحْدُودَبَ الظَّهْرُ =

* ومنهنَّ أمُّ شبيب بن يزيد الشَّيباني زعيم الصُّفريّة ، وزوجه غزّالة ، وكان لهما شأنٌ في حروب الصُّفريّة عظيم^(١).

* ومنَ المفيدِ هنا في هذا المجالِ خصوصاً أنْ نشيرَ أيضاً إلى تعصُّبهم الذي أسَّسوه على جُرفٍ هارٍ فأنهارَ ، ولم يقرَّ له قرارٌ ، ولعلَّ ذلك يعودُ إلى سداجتهم التي استقوها من بيئتهم ، وكذلك بداوتهم ، وقلة مروتهم وضيق ثقافتهم ، وقد ولَّدَ هذا كلُّه عندهم اعتدادهم بأنفسهم إلى حدِّ الغرور ، وظنُّوا أنَّهم همُ النَّاسِ ، وهمُ همُّ العالمون ، وزادَ الطَّينَ بلةً أنَّهم صدَّقوا ما يعتادهم من التَّوهُمِ ، فتمسَّكوا بظواهرِ النُّصوصِ ، وفهموها كما يريدونَ همُ وحدهم ، ولهذا عَشَّشَ الخلافُ بينهم وفرَّخَ وباضَ ، وصارَ بُغائاً ثمَّ استنَّسِرَ ، وتعدَّدَت فرقتهم ، وحاربهم خصومهم بسلاحِ التَّفَرِّقَةِ الذي سلَّوه على أنفسهم ، لذا فقد كان المهلبُ بنُ أبي صفرة الأزديّ عند محاربته للأزارقة يدسُّ بينهم من يثيرُ الخلافَ والشُّقاقَ ، ويستثيرهم^(٢).

= تدسُّ إلى العطارِ سلعةَ بيتها وهل يُصلِحُ العطارُ ما أفسدَ الدهرُ وما غرّني إلا خضابٌ بكفِّها وكحلٌ بعينها وأثوابها الصُّفُرُ وجاءوا بها قبل المحاقِ بليّة

فقالَت له امرأته :

ألم ترَ أن النَّابَ تحلبُ عُلبَةً ويتركُ ثَلَبٌ لا ضِرابٌ ولا ظَهْرُ ثمَّ استغاثت بالنِّساءِ ، فاجتمعَ النِّساءُ عليه فضرَبْنَه . (الكامل ١/ ١٨٢ و ١٨٣) ومعنى قوله «لَحَبَ الجُنَّبانَ» : قلَّ لحمها . و«تدسُّ إلى العطارِ سلعةَ بيتها» : يريد السَّويق والدَّقِيق وما أشبه ذلك . و«النَّاب» : تريدُ فيها منفعة على كل حال . و«علبة» : إناء من جلد .

(١) قد أفرَدنا في هذا الكتاب باباً خاصاً للفارساتِ من نساءِ الحَوارجِ وغيرهنَّ .

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة (٤٠٠/١) بشيء من التصرف ، والكامل للمبرد في مواضع .

* ومعَ هذا كلّه ظلُّوا متمسِّكينَ بتعصُّبِهِم الهزيلِ المقيتِ ، على الرغمِ منْ أنَّ سيِّدنا عليّاً - رضوان الله عليه - خطبَ فيهم ، وأبطلَ آراءَهُم ، وأبانَ توهُمَهُم ، وأراهمُ الشَّركَ الذي وقعُوا فيه ، بيَّدَ أنَّهم عمُّوا وصمُّوا وأعرضُوا ولم يستجيبوا لَهُ . قال عليٌّ - عليه سحائبُ الرِّضوان - : فَإِنْ أبيتُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ ، فَلِمَ تَضِلُّونَ عَامَّةَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وتأخذونَهُم بخطي ، وتكفرونَهُم بذنوبي؟!

سيوفُكم على عواتِقكم ، تضعونها مواضعَ البُرءِ والسَّقمِ ، وتخلِطُون مَنْ أَذْنَبَ بِمَنْ لَمْ يَذْنِبْ ، وقد علمتم أنَّ رسولَ الله ﷺ رَجَمَ الزَّانِي الْمُحْصَنَ ثُمَّ صَلَّى عليه ، ثُمَّ وَرَّثَهُ أَهْلَهُ ؛ وَقَطَعَ يَدَ السَّارِقِ ، وَجَلَدَ الزَّانِي غَيْرَ الْمُحْصَنِ ، ثُمَّ قَسَمَ عليهما الفَيءَ ، وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ ؛ فَأَخَذَهُم رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِيهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ .

* وبهذا ناقشَهُم عليٌّ - رضوان الله عليه - بأعمالِ رسولِ الله ﷺ - ، لأنَّ العملَ لا يقبلُ تأويلاتَ ، فلا مجالَ فيه للمُناقِشَةِ ، والنَّظَرِ السَّطْحِيّ ، والتَّفكيرِ المتحيِّزِ إلى جانبِ الهوى ، لأنَّهم كانوا يتمسِّكون بظاهرِ النَّصِّ ، ولكنَّهُم استبدَّوا بأرائِهِم ، ولم يستجيبوا لَهُ^(١) .

* ومن أمثلةِ تناقضِهِم أَنَّ عبدَ الرحمن بنَ مُلْجَمٍ قد قَتَلَ عَلِيّاً - رضي الله عنه - ، وبقيَ مع هذا يذكرُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ، فلَمَّا هُمُوا بقطعِ لسانِهِ شَقَّ ذلكَ عليه وجزعَ ، فسُئِلَ عن ذلكَ ، فقال: أَحَبُّتُ أَلَّا يَزَالَ فَمِي بِذِكْرِ اللَّهِ رَطْباً!!! .

* ومنها أنَّهم التقوا عبدَ الله بنَ خَبَّابٍ وهُمُوا بِقَتْلِهِ ، فوثبَ رجلٌ منهم

(١) انظر: أدب السياسة (ص ١١٠ و ١١١) بتصرف يسير .

على رطبة فوضعها في فمِه ، فصاحوا به ، فلفظها تورُّعاً . وعرضَ لأحدهم خنزيرٌ ، فضربه الرجلُ فقتله ، فقالوا: هذا فسادٌ في الأرضِ . فقال عبدُ الله بنُ خَبَّابٍ : مَا عَلَيَّ مِنْكُمْ بِأَسْ إِذَا ، إِنِّي لمسلمٌ ، ولكنهم ذبحوه ، ثمَّ سامُوا نصرانيّاً نخلةً له ، فقال : هي لكم ، فقالوا : ما كنَّا لناخذها إلَّا بثمر .

فقال : ما أعجبَ هذا!!؟! أتقتلون مثل عبدِ الله بنِ خَبَّابٍ ، ولا تقبلون مني ثمر نخلة^(١)!!؟

* وقد مرَّ معنا من قَبْلُ كيفَ مرَّ بهم واصلُ بنُ عطاء ووقعَ بأيديهم ، وادَّعى أَنَّهُ مشركٌ مستجيرٌ ، لأنَّ هذه الدعوى تنجيه أكثر من إسلامه المخالفِ لمذهبهم .

* ومن أمثلة تناقضاتهم المضحكة الساذجة أَنَّ حَطَبَ عبد الجبار إلى ثعلب ابنته - وكلاهما من العجاردة - ، فسأله ثعلبُ أَن يَمهرها أربعة آلاف درهم ، فأرسلَ الخاطبُ إلى أمِّ الفتاة يسألُها : هل بلغت وأقرتَ بالإسلام؟ فَإِنَّ كان ذلك لم أَبالِ بمهرها .

فقالتِ الأمُّ : ابنتي مسلمةٌ بلغت أو لم تبلغُ .

فاختلفَ الخاطبُ وأبو الفتاة وأُمُّها ، وتدخلَ عبد الكريم بن عَجْرَد - رئيسُهم - ، فاختارَ البراءةَ من الأطفالِ ، ونشأت فرقةُ الثَّعالبةِ^(٢) .

* وبمثل هذه الأشياءِ تلاشى الخوارجُ ، وخبَّت نارُهم ، ولكنهم مع هذا كُلِّهِ انتزعوا إعجابَ خصومهم بشجاعتهم وإقدامهم .

(١) انظر : الكامل للمبرد وفيه كثير من أمثلة هذه القصص .

(٢) انظر : ضحى الإسلام (٣/ ٣٣٣) .

* قال البراءُ بنُ قبيصة للمهلب: ما رأيتُ قطّ أصبرَ ، ولا أبأسَ من القومِ الذين يقاتلونك .

* وقالَ للحجاجَ لما عاد إليه : رأيتُ قوماً لا يعينُ عليهم إلا الله . وأمثلةُ هذا كثير فيما وردَ من أخبارِهِم ، ولكنّا نكتفي بهذا القدر ، ونعود لنصحَ قطريّاً في فروسيّته .

* ذكرَ أبو عثمانَ الجاحظُ أنّه كانت لقطري كُنيَتان: كنيةٌ في السّلم؛ وهو أبو محمّد ، وكنيةٌ في الحرب؛ وهو أبو نَعَامَة^(١) ، ونَعَامَة فرسه^(٢) .

* وكان يرتجزُ ويذكرُ كنيته ويقولُ:

أنا أبو نَعَامَة الشَّيْخُ الهَبَلُ أنا الذي وُلِدْتُ في آخرى الإبل

* ويظهرُ من الأخبارِ التي وصلت إلينا عن قطريّ بن الفجاءة ، أنّه كان به شيءٌ من البرصِ ، قال أبو عثمان الجاحظُ في ذلك: ومن البرصانِ السّادةِ والأشرافِ الخطباءِ ، والفرسانِ المذكورين ، والخوارجِ المتقدّمين ابنُ الفجاءة ، وكذلك كان ابنه ، وكذلك كان أخوالُ أبيه ، لا يُعرفُ في البرصِ أعرقُ من ابنِ قطري المذكور في هذا الكتابِ ، فإنّه المُقابلُ المُدابر^(٣) ، والمُعَمُّ المخول^(٤) ، لأنَّ أخواله بنو الحَبْناء ، وأعمامُه آلُ الفجاءة^(٥) .

(١) انظر: البيان والتبيين (٣/ ١٣٤) .

(٢) المصدر السابق (١/ ١٨٥) .

(٣) «المقابل المدابر»: يقال: رجل مقابل مدابر: كريم الطرفين من قبل أبيه وأمه .

(٤) «المعم المخول»: هو الكريم الأعمام والأخوال .

(٥) انظر: البرصان والعرجان والعميان والحولان (ص ٩٦) .

* وفي «المحبر» ذكر محمد بن حبيب قطرياً بأنه من البرص الأشراف^(١).

* ويبدو أنَّ آل الفُجاءة وذريَّتَهُم كانوا بُرصاً وبهم وَضَحٌ ، ويظهرُ ذلك في هذه القِصَّة التي رواها الجاحظُ عن أبي عُبَيْدة وأبي الحَسَنِ قال:

خرجَ جُرْمُوزُ المازنِيِّ - أخو قطريٍّ - إلى قطريِّ بنِ الفُجاءة ، وهو بينَ الصَّفَيْنِ ، فقال له: بلغني أنَّكَ تشتري السَّيفَ بعشرين ألفَ درهمٍ وأكثرَ ، أفلا أبعثُ إليك بني تجبُرُهُم^(٢) وتغنيهم؟ قال قطريُّ: إنَّ بَعَثَ إليَّ بهم ضربتُ أعناقَهُم وبعثتُ إليك برؤوسَهُم! قال جُرْمُوزُ: يا عَجَباً ، بنوك وعيالك في منزلي بالبصرةِ أُمُونُهُم ، وأبعثُ ببني تضربُ أعناقَهُم؟! قال قطري: إنَّ الذي صنعتَ بعيالي شيءٌ تراهُ في دينكَ ، والذي أصنعُ بعيالك شيءٌ أراهُ في ديني .

قال جُرْمُوزُ: هل أصبتَ بَعْدِي وَلَدًا؟

قال: نَعَمْ^(٣).

فدعَا بَغْلَامَ شَابٍ على بِرْدُونٍ؛ فقال جُرْمُوزُ: لعلَّكَ أَفْسَدْتَهُ بشيءٍ من هذه الأعاجم ، وهذه السَّبايا؟!

قال: معاذَ اللهِ ، أُمُّهُ الوَجْنَاءُ بِنْتُ الحَبْنَاءِ .

ثمَّ قال: يا جُرْمُوزُ ، إنَّ بهِ العلامةَ التي بنا أهلَ البيتِ - يعني الوَضَحَ ،

(١) انظر: المحبر .

(٢) «تجبرهم»: جَبَرَهُ: أَغْنَاهُ بَعْدَ فَقْرٍ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ .

(٣) ذكر ابنُ قُتَيْبَةَ أنَّه لا عقبَ لقطريٍّ (المعارف ص ٤١١) بينما تذكرُ هذه الرواية أنَّ له غلاماً شاباً يقاتِلُ معه؛ وقد ذكروا أنَّ له حفيدةً ، وكانت امرأةً برزةً حسناءً ، ولها خبرٌ في الأغاني وغيره . (شرح مقامات الحريري ١/ ٢٣٥ و ٢٣٦) بتصرف

أي البرص - ، يقول: إِنَّ رَأَيْتَهُ فَأَعْرِفُهُ. وهو جُرْمُوزُ بْنُ الْفُجَاءَةِ ، أخو قطريِّ بْنِ الْفُجَاءَةِ^(١).

* ولهذا فقد كانت الجماعة من أهل السُّنَّةِ يسمُّون قطرياً: سيِّدَ الْكُفَّارِ ، وقد أُثِرَ هذا عن رجلٍ من أصحابِ المهلبِ بنِ أَبِي صُفْرَةَ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ أَنَّهُ قال :

سَائِلُ بِنَا عَمَرَوِ الْقَنَا وَجُنُودَهُ وَأَبَا نَعَامَةَ سَيِّدَ الْكُفَّارِ^(٢)
* وسرَّتْ صفاتُ شجاعةِ قطريِّ بينَ رجالِ عَصْرِهِ ، وبينَ فرسانِهِمْ كما تُسْرِي النَّيرَانُ فِي هَشِيمِ الْحِصَادِ ، وخافَهُ الْفِرْسَانُ وَالشُّجْعَانُ وَخُصُوصاً عندما يعلمون أَنَّهُ فِي حُومَةِ الْمِيدَانِ ، حيثُ كَانَ فَارِساً مُلْتَمِماً ، فقد حُكِيَ عنه أَنَّهُ قد خَرَجَ ذَاتَ مَرَّةٍ فِي بَعْضِ حُرُوبِهِ ، وَكَانَ عَلَى فَرَسٍ أَعْجَفَ^(٣) ،

(١) انظر: الْبُرْصَانُ وَالْعُرْجَانُ وَالْعُمَيَّانُ وَالْحَوْلَانُ (ص ٩٦ و ٩٧) وَمِنْ الْمَفِيدِ وَالْجَمِيلِ وَالْمَمْتَعِ هُنَا ، أَنَّ نَسْجَلَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ قِصَّةً طَرِيفَةً حَدَّثَ لِأَخِي قَطْرِيٍّ مَعَ الْحِجَاجِ بْنِ يُوْسُفَ ، لَنَعْلَمَ أَيُّ رَجُلٍ كَانَ قَطْرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ. فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْحِجَاجَ قَالَ لِأَخِيهِ: لَأَقْتُلَنَّكَ.

فَقَالَ: لِمَ ذَلِكَ؟

قال: لَخُرُوجِ أَخِيكَ.

قال: فَإِنَّ مَعِيَ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَلَّا تَأْخُذَنِي بِذَنْبِ أَخِي.

قال: هَاتِهِ.

قال: فَمَعِيَ أَوْكُذٌ مِنْهُ.

قال: مَا هُوَ؟

قال: كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر: ١٨] ، فَعَجَبَ مِنْهُ ، وَخَلَّى سَبِيلَهُ.

(وفيات الأعيان ٩٤ / ٤) و(الوافي بالوفيات ٢٤ / ٢٤٩).

(٢) انظر: الْكَامِلُ لِلْمَبْرَدِ (٣٠٢ / ٢) طَبْعَةٌ دَارِ الْمَعَارِفِ بِبَيْرُوتِ. وَالْكَامِلُ (١٣٥٩ / ٣) طَبْعَةٌ مَوْسَسَةِ الرِّسَالَةِ الْمُحَقِّقَةِ. وَأَبُو نَعَامَةَ هُوَ قَطْرِيٌّ.

(٣) «أَعْجَفَ»: هَزِيلٌ ، وَالْأَنْثَى عَجْفَاءٌ ، وَالْجَمْعُ عِجَافٌ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ [يوسف: ٤٣].

وبيده عمود خشب ، فدعا إلى المبارزة ، فبرز إليه رجلٌ ، فحسّر له قطريٌّ
عن وجهه ، فلمّا رآه الرّجلُ ولّى عنه ، فقال له قطريٌّ : إلى أين ؟
فقال : لا يستحيي الإنسان أن يفرّ منك^(١) .

* وحدث رجلٌ من العرب قال : انهزمنا من قطريٍّ وأصحابه ، فأدركني
رجلٌ على فرسٍ ، فسمعتُ حسّاً منكراً خلفي ، فالتفتُ ، فإذا أنا بقطريٍّ ،
فيئستُ من الحياة ، فلمّا عرفني قال : اشدّد عنانها ، وأوجع خاصرتها ،
قطع الله يديك .

قال : ففعلتُ فنجوتُ منه^(٢) .

* وهكذا كان الفرسان يخافون قطريّاً ويحسبون له ألف حساب ، ومن
كلام العرب في بعض فرسانهم أنّهم قالوا : ما استحيا شجاعٌ قطّ أن يفرّ من
عبد الله بن خازم ، وقطريٍّ بن الفجاءة صاحب الأزارقة^(٣) .

* ولهذا عدّه ابنُ عبد ربّه من فرسان العرب في الإسلام حيث قال : ومن
فرسان العرب في الإسلام : أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، والزبير بن
العوّام ، وطلحة بن عبيد الله - رضي الله عنهم - ، وعبد الله بن خازم
السلمي ، وعباد بن الحُصين ، وعمير بن الحُبّاب ، وقطريّ بن الفجاءة ،
والحريش بن هلال السّعديّ ، وشبيب الحروريّ^(١) .

* وتذكّر أخبار قطريّ أنّ الفرسان كانوا يهابون لقاءه ، حتى إنّ كثيراً

(١) وفيات الأعيان (٩٣/٤) والوافي بالوفيات (٢٤٨/٢٤) .

(٢) عيون الأخبار (١٧٣/١) .

(٣) العقد الفريد (١١٧/١) ، بتصرّف يسير جداً . وكان شبيب الحروريّ يصيحُ في

جناب الجيش فلا يلوي أحدٌ على أحد ، وفيه يقولُ الشّاعر :

إنّ صاح يوماً حسبت الصّخر منحدراً والريح عاصفةً والموج ينحدرُ

منهم قد عَصُوا الولايةَ ، وهرَّبُوا منهم ، لأنَّهم أرادوا بَعْثَهم إلى لقاءِ قطريِّ ، ومنهم سَوَّارُ بْنُ الْمَضْرَبِ السَّعْدِيُّ الَّذِي فَرَّ مِنَ الْحَجَّاجِ ، وأخبره بأنَّه لن يذهبَ إلى قطريِّ ما دامَ قومُه موجودينَ والفلاةُ من ورائِه وأمامِه :

أَقَاتِلِي الْحَجَّاجُ إِنْ لَمْ أَزْرِ لَهُ دَرَابٍ وَأَتْرُكُ عِنْدَ هُنْدٍ فُؤَادِيَا
فَإِنْ كَانَ لَا يَرْضِيكَ حَتَّى تَرُدَّنِي إِلَى قَطْرِيَّ مَا إِخَالَكَ رَاضِيَا
أَيْرِجُو بَنُو مِرْوَانَ سَمْعِي وَطَاعَتِي وَقَوْمِي تَمِيمُ وَالْفَلَاةُ وَرَائِيَا^(١)

* ومن طريف أخبار الخوارج قول قطريِّ بن الفجاءة المازني لأبي خالد القناني ، وكان من قَعَدِ الخوارج :

أَبَا خَالِدٍ إِنْفِرْ فَلَسْتُ بِخَالِدٍ وَمَا جَعَلَ الرَّحْمَنُ عَذْرًا لِقَاعِدٍ
أَتَزْعُمُ أَنَّ الْخَارِجِيَّ عَلَى الْهُدَى وَأَنْتَ مَقِيمٌ بَيْنَ لَصٍّ وَجَاحِدٍ
فَكُتِبَ إِلَيْهِ أَبُو خَالِدٍ :

لَقَدْ زَادَ الْحَيَاةَ إِلَيَّ حُبًّا بِنَاتِي إِنَّهِنَّ مِنَ الضُّعَافِ
أَحَازِرُ أَنْ يَرِيْنَ الْفَقْرُ بَعْدِي وَأَنْ يَشْرِبْنَ رَنْقًا بَعْدَ صَافٍ
وَأَنْ يَعْرِينَ إِنْ كُسِيَ الْجَوَارِي فَتَنْبُو الْعَيْنُ عَنْ كَرَمٍ عِجَافٍ
وَأَنْ يَضْطَرُّهِنَّ الدَّهْرُ بَعْدِي إِلَى غَمْرِ غَلِيظِ الْقَلْبِ جَافٍ
وَلَوْلَا ذَاكَ قَدْ سَوَّمْتُ مُهْرِي وَفِي الرَّحْمَنِ لِلضُّعَفَاءِ كَافٍ
أَبَانَا مَنْ لَنَا إِنْ غَبَتْ عَنَّا وَصَارَ الْحَيُّ بَعْدَكَ فِي اخْتِلَافٍ^(٢)

(١) خزانة الأدب (٧/٥٠ و ٥١) بتصرف ، طبعة بيروت . و«دراب» : يريد دراب جرد . بلد من فارس . و«وراثيا» : بين يدي ، أي : قدامي .

(٢) انظر : الكامل (٢/١٢٤) طبعة مكتبة المعارف ببيروت ، والكامل (٣/١٠٨١ و ١٠٨٢) . ومن الجدير بالذكر أنني قد توسَّعتُ في رعاية الآباءِ للبناتِ في كتابي الشَّهير «الطفُّل في ضوء القرآن والسُّنة والأدب» فليراجع وأرجو الله أن ينفعَ به الخاص والعام .

* ومن طرائف أخبارِ قطريِّ بنِ الفجاءة أنَّ حُصينَ بنَ حفصةَ السَّعدي^(١) قد هجَا قطريَّ بنَ الفجاءة ، وعيَّرهُ بالهربِ مِنَ المهلبِ بنِ أبي صُفرة ، فقال قصيدةً منها:

أيا قَطْرِيَّ بنَ الفُجاءة أَمَا لَنَا مِنْ النَّصْفِ شَيْءٌ غَيْرُ فَعْلِ الْجَبَابِرِ
أَمَا تَسْتَحِي يَا بَنَ الْفُجَاءةِ مِنَ الَّتِي لَبَسْتَ بِهَا عَارًا وَأَنْتَ مَهَاجِرُ^(٢)
أَفِي كُلِّ يَوْمٍ لِلْمَهْلَبِ أَسْلَمْتُ لَهُ شَفَتَاكَ الْغَمِّ وَالْقَلْبُ طَائِرُ^(٣)
فَحَتَّى مَتَى هَذَا الْفِرَارُ مَخَافَةً وَأَنْتَ وَلِيٌّ وَالْمَهْلَبُ كَافِرُ
فَأَنْتَ الَّذِي لَا نَسْتَطِيعُ فِرَاقَهُ حَيَاتِكَ لَا نَفْعَ وَمَوْتِكَ ضَائِرُ
فَمُتْ قَطْرِي إِنْ فِي الْمَوْتِ رَاحَةٌ وَأَنْتَ لَدَيْهِ لَا مُحَالَةَ صَائِرُ
قَطْرِيَّ وَالْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ:

* كَانَ قَطْرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ سَيِّدًا شَرِيفًا ، وَفَارِسًا مِقْدَامًا ، وَفَصِيحًا بَلِيغًا ، نَاهِيكَ بِشَجَاعَتِهِ النَّادِرَةِ بَيْنَ فُرْسَانَ عَصْرِهِ .

* وَكَانَتْ لَهُ مَعَ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ أَخْبَارٌ فِي نَوَاحٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، فَفِي

(١) كَانَ حُصَيْنُ بْنُ حَفْصَةَ السَّعْدِيِّ مِنْ أَصْحَابِ قَطْرِيَّ بْنِ الْفُجَاءَةِ ، ثُمَّ خَالَفَهُ حِينَ قَتَلَ ابْنَ عَمِّهِ عَامِرَ بْنَ عَمْرٍو السَّعْدِي ، لِأَنَّهُ قَالَ لِقَطْرِي ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ يَرِيدُ الْهَرَبَ : إِنْ قَاتَلْتَ قَاتَلْتُ مَعَكَ ، وَإِنْ هَرَبْتَ فَأَنَا أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْكَ . ثُمَّ عَزَمَ قَطْرِيُّ عَلَى قَتْلِ حُصَيْنِ نَفْسِهِ ، فَهَرَبَ مِنْهُ ، وَصَارَ إِلَى الْمَهْلَبِ وَاسْتَأْمَنَهُ ، فَعَفَا عَنْهُ وَأَجَازَهُ .
(وفيات الأعيان ٣/ ٢٥٧)

(٢) وَيُرَوَّى هَذَا الْبَيْتُ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي :
أَيَا قَطْرِيَّ الْخَيْرِ إِنْ كُنْتُ هَارِبًا سَتَلْبَسُنَا عَارًا وَأَنْتَ مَهَاجِرُ
(الأخبار الطوال ص ٢٧٧)

(٣) وَيُرَوَّى هَذَا الْبَيْتُ :
إِذْ قِيلَ قَدْ جَاءَ الْمَهْلَبُ أَسْلَمْتُ لَهُ شَفَتَاكَ الْغَمِّ وَالْقَلْبُ طَائِرُ
(الأخبار الطوال ص ٢٧٧)

الحربِ استظهرَ عليه قطريُّ مرَّاتٍ ومراتٍ .

* كما كانت بينه وبينَ الحجاجِ مكاتباتٌ ورسائلٌ ومخاطباتٌ تدلُّ على قوَّةِ قلبِ قطريِّ ، وشدَّةِ بأسِهِ ، كما تشيرُ إلى تمكِّنِهِ مِنْ بلاغَةِ الخطَابِ .

* فقد وردَ أنَّ الحجاجَ كتَبَ كتاباً إلى قطريِّ قال فيه ، بسم الله الرحمن الرحيم ، منَ الحجاجِ بنِ يوسفَ إلى قطريِّ بنِ الفجاءة ، سلامٌ عليك الموحِّدُ الله ، والمُصلِّيُ عليه محمَّدٌ عليه السَّلام ، أمَّا بَعْدُ :

فإنَّكَ كُنْتَ أعرابياً بدوياً تستطعمُ الكِسرة ، وتخفُّ إلى التَّمرة ، ثم خرجتَ تحاولُ ما ليسَ لك بحقٍّ ، واعترضتَ على كتابِ الله ، ومَرَقْتَ مِنْ سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ ، فارجعْ عَمَّا أَنْتَ عليه ، بما زَيْنَ لك ، فقد آنَ لك .

* وأنفذَ الحجاجُ الكتابَ مع الغضبانِ بنِ القبعثيِّ الشَّيباني ، فلمَّا أوصلَ الغضبانُ الكتابَ إلى قَطْرِي ، قال : يا غلامُ ، ازبُرْ هذه الصَّحيفةَ ، فتلا عليه ما فيها ، فتنهَّدَ قطريُّ الصُّعداء ، فقال : يا غضبانُ ألفتيني محزوناً ، وأنشأَ يقولُ أبياتاً منها :

| | |
|--|--|
| ويا كبدًا مَنْ وَجَدَ أمَّ حَكِيمٍ | فيا كَبِدًا مِنْ غَيْرِ جُوعٍ وَلَا ظَمَا |
| طعانَ فتى في الحربِ غيرِ لئيمٍ | فلو شَهِدْتَنِي يَوْمَ دُولَابٍ أَبْصَرْتُ |
| وعُجْنَا صدورَ الخيلِ نحوَ تَمِيمٍ | غداةَ طِفْتَ عِلْمَاءٍ بَكَرُ بْنُ وائِلٍ |
| وآبَ عَمِيْدُ الْأَزْدِ غَيْرَ ذَمِيمٍ | وكانَ بَعْدَ الْقَيْسِ أوَّلَ حَدْهََا |

يعني المهلَّبَ ؛ وأمَّ حَكِيمٍ هذه امرأةٌ منَ الخوارجِ قُتِلَتْ بين يَدَيْهِ ، ثمَّ قال : يا غلامُ اكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ؛ من قطريِّ بنِ الفجاءة إلى الحجاجِ بنِ يوسفَ ، سلامٌ على مَنْ اتَّبَعَ الهدى . ذَكَرْتُ فِي كتابِكَ أَنِّي كُنْتُ بدوياً أَسْتَطْعِمُ الكَسرةَ ، وأبْدُرُ إلى التَّمرةِ ، وباللهِ لقد قُلْتُ زوراً ، بل اللهُ بَصَّرَنِي

من دينه ما أعماك عنه إذ أنت سائح في الضلالة غرق في غمرات الكفر ،
ذكرت أن الضرورة طالت بي ، فهلاً برز لي من حزبك من نال الشبع واتكأ
فاتدع؟ أما والله لئن أبرز الله صفحتك ، وأظهر لي صلعتك ، لتتكرن
شبعك ، ولتعلمن أن مقارعة الأبطال ليس كتسطير الأمثال^(١) .

الفارسُ الخطيبُ الشاعرُ:

* لم يكن قطريُّ بنُ الفُجاءة متفرّداً في الشُّجاعة في ميادينِ الجلالِ
والتَّزالِ ، وفي ألوانِ الفروسيةِ ، بل حباهُ الله عزَّ وجلَّ لساناً فصيحاً ،
وبلاغةً وبياناً ، فقد كان خطيباً مشهوداً له بالباع الطويلِ بذلك .

(١) انظر: الكامل (٢٢٢/١ و ٢٢٣) طبعة مكتبة المعارف ببيروت ، ومن الطرائف
الجميلة الحلوة المغنّاج أن الحجاج قال لرجلٍ من الخوارج: والله إنّي لأبغضُكم .
فقال له الخارجي: أدخل الله أشدنا بغضاً لصاحبه الجنة . (الكامل ٣٥٥ / ١)
ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من الخوارج كانت تصدر عنهم كلمات تنم عن حكمة
وتجربة وخبرة ، ومنهم المستورد بن علفة الخارجي التميمي الذي أثرت عنه
كلمات سائرات .
قال المبرد: وكان المستورد كثير الصلاة ، شديد الاجتهاد ، وله آداب يوصي بها ،
وهي محفوظة عنه .

كان يقول: إذا أفضيتُ بسري إلى صديقي فأفشأه لم ألمه ، لأنّي أولى بحفظه .
وكان يقول: لا تُفش إلى أحدٍ سراً وإن كان مخلصاً ، إلّا على جهة المشاورة .
وكان يقول: كُنْ أحرصَ على حفظِ سرِّ صاحبك منك على حَقْنِ دمك .
وكان يقول: أول ما يدلُّ عليه عائبُ النَّاس معرفته بالعيوب ، ولا يعيبُ إلّا معيب .
وكان يقول: المالُ غيرُ باقي عليك ، فاشتر من الحمد ما يبقى عليك .
وكان يقول: بذلُ المالِ في حقِّه استدعاءٌ للمزيد من الجوادِ .
وكان يكثرُ أن يقول: لو ملكتُ الأرضَ بحذافيرها ، ثم دُعيت إلى أن أستفيدَ خطيئةً
بها ما فعلتُ . (الكامل ٣/ ١١٦٣) طبعة مؤسسة الرسالة ببيروت
و(الكامل ٣/ ٩٧٧ و ٩٧٨ و ٩٨٠) مصر

* قال ابنُ خَلِّكان في «وفياته»: وهو معدودٌ في جملةِ خطباءِ العربِ المشهورينَ بالبلاغةِ والفصاحةِ^(١).

* وقالَ الذَّهبيُّ في «سيره»: وكانَ خطيباً بليغاً كبيرَ المحلِّ منْ أفرادِ زمانه^(٢).

* وقالَ البغداديُّ في «خزائنه»: وكانَ مع شجاعتهِ منْ البلغاءِ ، وله شعرٌ جيّدٌ^(٣).

* وأشارَ الجاحظُ قبلَهُم إلى أنَّه منْ خطباءِ الخوارجِ ، وأنَّ له خطبةً طويلةً مشهورةً ، وكلامٌ كثيرٌ محفوظٌ^(٤).

* ومنْ روائعِ خُطبهِ تلكَ الخطبةُ الشهيرةُ في ذمِّ الدنيا ، والتي أوردَها الجاحظُ وغيرُه ، وهذه جُمْلُ منها...

* قالَ أبو عثمان الجاحظُ: صَعِدَ قطريُّ بنُ الفجاءةِ منبرَ الأزارقةِ ، فحمدَ اللهَ وأثنى عليه ، ثمَّ قالَ: أمَّا بعد: فإنِّي أحذركمُ الدِّنيا ، فإنَّها حلوةٌ خَصِرَةٌ ، حُفَّتْ بالشَّهواتِ ، وراقَتْ بالقليلِ ، وتحبَّتْ بالعاجلةِ ، وغمرتْ بالآمالِ ، وتحلَّتْ بالأمانِ ، وازيَّنتْ بالغرورِ ، لا تدومُ خُصرتها ، ولا تُؤمِّنُ فجعتها؛ غَدَارَةٌ ضَرَّارَةٌ ، وحائلةٌ زائلةٌ ، ونافذةٌ بائدةٌ ، لا تعدو إذا هي تناهتْ إلى أُمْنِيَةِ أَهْلِ الرِّغْبَةِ فيها ، والرِّضَا عنها ، أنْ تكونَ كما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ كَمَاءٌ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥].

(١) وفیات الأعیان (٩٤/٤).

(٢) سیر أعلام النبلاء (١٥٢/٤).

(٣) خزانة الأدب (١٨٧/١٠).

(٤) البیان والتبيين (١٨٥/١).

* ومنها: اعْلَمُوا ، وأنتم تعلمون ، أنكم تاركوها إلى الأبد ، فإنما هي كما نَعَتْ الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَعَبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠] ، فاتعظُوا فيها بالذين قال الله تعالى فيهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِتَاقُوتًا﴾ [فُصِّلَتْ: ١٥] ، واتعظُوا بِمَنْ رَأَيْتُمْ مِنْ إِخْوَانِكُمْ كَيْفَ حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ. فلا يُدْعُونَ رُكْبَانًا ، وَأُنْزِلُوا الْأَجْدَاثَ فلا يُدْعُونَ ضَيْفَانًا ، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الضَّرِيحِ أَكْنَانٌ ، وَمِنَ التَّرَابِ أَكْفَانٌ ، وَمِنَ الرُّفَاتِ جِيرَانٌ ، فَهَمَّ جِيرَةٌ لَا يَجِيبُونَ دَاعِيًا ، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْمًا ، إِنْ أُخْصِبُوا لَمْ يَفْرَحُوا ، وَإِنْ قُحِطُوا لَمْ يَقْنَطُوا ، جَمْعٌ وَهُمْ آحَادٌ ، جِيرَةٌ وَهُمْ أَبْعَادٌ ، مُتَنَاوُونَ يُزَارُونَ وَلَا يَزُورُونَ . . .

* وهي خطبةٌ جميلةٌ وطويلةٌ تبلغُ بضْعَ صَفَحَاتٍ اختتمها بقوله: فاحذَرُوا ما حَذَرَكُمُ اللهُ ، وانتفعُوا بمواعظِهِ ، واعتصمُوا بحبلِهِ ، عَصَمَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَرَزَقَنَا وَإِيَّاكُمْ أَدَاءَ حَقِّهِ ، ثُمَّ نَزَلَ^(١).

* وهكذا نلاحظُ أَنَّ خُطْبَ قَطْرِيَّ وَرَسَائِلَهُ تنبُؤٌ عن فحولةٍ بلاغيَّةٍ ، وَجُمْلٍ جَيَّاشَةٍ رَنَّانَةٍ ، خَالِيَةٍ مِنْ حُوشِيِّ الْكَلَامِ وَتَكْلُفِهِ ، وَهِيَ مَعَ هَذَا تَدُلُّ عَلَى إِيْمَانٍ عَمِيقٍ زَاهِدٍ بِالدُّنْيَا ، وَمَحَذَرٍ مِنْ عَاقِبَةِ آخِرَوِيَّةٍ ، وَهِيَ أَيْضًا عَلَى نَقِيضٍ تَامٍ مِمَّا أَشِيعَ وَعُرفَ عَنْهُ مِنْ اسْتِحْلَالِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَسَبِي ذُرَارِيهِمْ ، وَتَقْتِيلِ أَطْفَالِهِمْ - وَاللهُ أَعْلَمُ بِحَالِهِ -^(٢).

* وَتَبَدَّى شَجَاعَةُ قَطْرِيٍّ وَفُرُوسِيَّتِهِ مِنْ خِلَالِ أَشْعَارِهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَفِيضُ

(١) انظر: البيان والتبيين (٢/٣٥٠) والعقد الفريد (٤/١٤٣) وعيون الأخبار (٢/٢٥٠) ، ونهاية الأرب (٧/٢٥٠) وصبح الأعشى (١/٢٢٣) ، والكامل للميرد (٣/١٠٨٦) وشرح نهج البلاغة (٧/٢٢٦) ومنسوبة عنده لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه .

(٢) انظر: مجلة الدرعية (ص ٢٤٢) العدد الثاني - السَّنة الأولى - آب ١٩٩٨ م .

حماسةً ولهيئاً وجودةً سَبْكٍ ، ناهيك بفحولته الشَّعْرِيَّةِ ، ومقدرته على نظم الكلام وتأثيره في النفوس . نعم في النفوس التي تتذوق الأدب .

* فقد كان قطريُّ رجلاً مقدماً شجاعاً جريئاً لا يهابُ الأهوالَ ، كثيرَ الوقائع والحروب ، قويَّ النَّفسِ ، رابطَ الجأشِ والنُّهى ، لا يخشى الموتَ ، قال عنه الإمام الذهبي : وله وقائعُ مشهورةٌ ، وشجاعةٌ لم يُسمعُ بمثلها ، وشعرٌ فصيحٌ سائر^(١) .

* وله القصيدةُ الشهيرةُ في عالمِ الحماسةِ والحربِ ومخاطبةِ النَّفسِ ، التي قال عنها ابنُ خَلَّكان : وهي تشجُّعُ أجبنَ خلقِ الله ، وما صَدَرَتْ إلا عن نفسٍ أبيَّةٍ وشهامةٍ عربيَّةٍ^(٢) .

* وقد احتوتُ كثيرٌ منَ المصادرِ هذه القصيدةَ بين دفتيها ، وأشارت إلى قائلها ، فدعونا الآن نقرأ هذه القصيدة التي يخاطبُ فيها نفسه ، ويبثُّ فيها الشَّجاعةَ :

| | |
|------------------------------------|--|
| أقولُ لها وقد طارتْ شِعَاعاً | مِنَ الأبطالِ ويحكِ لَن تُراعي |
| فإنَّكَ لو سَأَلْتَ بقاءَ يومٍ | على الأجلِ الذي لكِ لَن تُطاعي |
| فَصَبِراً في مَجالِ الموتِ صَبِراً | فما نيلُ الخلودِ بمسْتَطاعٍ ^(٣) |
| ولا ثوبُ البقاءِ بثوبِ عزٍّ | فيطوى عن أخي الخنعِ اليراعِ ^(٤) |
| سَبيلُ الموتِ غايةُ كُلِّ حيٍّ | فداعيه لأهلِ الأرضِ داعي |

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥١) .

(٢) وفيات الأعيان (٤/ ٩٤) .

(٣) هذا البيتُ منَ الشَّواهدِ النَّحْوِيَّةِ ، والشَّاهدُ فيه قولُه : «فَصَبِراً» ، حيثُ حذفَ منه فعلُه وهو الطَّلَبُ ، أي اصبري .

(٤) «أخو الخنع» : الدَّلِيلُ . و«اليراع» : الجَبانُ ، وأصلُ اليراع : القَصَبَةُ لا جوفَ لها ، والرجُل الذي لا قَلْبَ له ، أي جَبانٌ ، فاستُعيرَ لَهُ .

وَمَنْ لَا يُعْتَبِطُ يَسْأَمُ وَيَهْرَمُ وَتَسْلُمُهُ الْمَنُونُ إِلَى انْقِطَاعِ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ^(١)

* وَمَنْ شَعْرُهُ الْحَمَاسِيُّ الشَّهِيرُ :

أَبْتُ لِي عَفَّتِي وَأَبَى بِلَائِي وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّيْحِ
وَأَمْسَاكِي عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسِي وَضَرْبِي هَامَةً الْبَطْلِ الْمُشِيحِ
وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأْتُ وَجَاشْتُ مَكَانَكَ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي
لَأَذْفَعَ عَنْ مَآثِرَ صَالِحَاتٍ وَأَحْمِي بَعْدُ عَنْ عَرْضٍ صَحِيحِ

* وَمَنْ شَعْرُهُ يَرْتَجِزُ فِي الْحَرْبِ ، وَيَذْكُرُ الشَّهَادَةَ وَالْمَوْتَ ، وَيَشِيرُ إِلَى
إِقْدَامِهِ وَعَدَمِ فِرَارِهِ مِنَ الزَّخْفِ ، ثُمَّ يَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَهُ مِنَ الْعِبَادِ الْأَتْقِيَاءِ :
حَتَّى مَتَى تَخْطِئُنِي الشَّهَادَةُ وَالْمَوْتُ فِي أَعْنَاقِنَا قِلَادَهُ
لَيْسَ الْفِرَارُ فِي الْوَعْيِ بِعَادَهُ يَا رَبِّ زِدْنِي فِي الثَّقَى عِبَادَهُ

وَفِي الْحَيَاةِ بَعْدَهَا زَهَادَهُ

* وَمَنْ شَعْرُهُ عِنْدَمَا قَتَلَ عَمْرُو بْنُ عَامِرٍ السَّعْدِيَّ الَّذِي أَتَّهُمْ قَطْرِيًّا
بِالْهَرَبِ مِنْ وَجْهِ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ ، فَفَارَقَهُ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنْ
أَصْحَابِهِ ، وَبَقِيَ مَغْمُومًا ، وَضَاقَ بِهِ الْأَمْرُ ، وَلَمْ يَذَرِ مَا يَصْنَعُ ، فَأَنْشَأَ
يَقُولُ قَصِيدَةً مِنْهَا :

أَقُولُ لِنَفْسِي حِينَ طَالَ حَصَارُهَا وَفَارَقَهَا لِلْحَادِثَاتِ نَصِيرُهَا
لَكَ الْخَيْرُ مَوْتِي إِنَّ فِي الْخَيْرِ رَاحَةً فَيَأْتِي عَلَيْهَا حَيْنُهَا مَا يَضِيرُهَا

(١) وردت هذه القصيدة في مصادر كثيرة منها: أمالي المرتضى (١/٦٣٦ و ٦٣٧) ووفيات الأعيان (٤/٩٤) ، والبداية والنهاية (٩/٣٠ و ٣١) ، ونهاية الأرب (٣/٢٢٧) ، وشذرات الذهب (١/٣٢٤) ، وسير أعلام النبلاء (٤/١٥١ و ١٥٢) ، والحماسة البصرية (١/١٣٠) ، وحماسة أبي تمام (١/٢٤) ، والوافي بالوفيات (٢٤/٢٤٩) ، وشعر الخوارج (ص ٤٢ و ٤٣) وغيرها كثير.

فلو أَنَّهَا تَرْجُو الحَيَاةَ عَذَرْتُهَا وَلَكِنَّهَا لِلْمَوْتِ يُخَدِي بِعِيرُهَا
وقد كُنْتُ أُوْفِي للمَهْلَبِ صَاعَه ويشجى بنا والخيْلُ تُثْنِي نَحُورَهَا
إِذَا مَا أَتَتْ خَيْلٌ لَخَيْلٍ لَقِيْتُهَا بِأَقْرَانِهَا أُسْدًا تَدَانِي زَيْرُهَا^(١)

* وَلَقَطَرِيَّ أَيْبَاتٌ تَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ هِمَّتِهِ وَإِقْدَامِهِ ، اخْتَارَهَا أَبُو تَمَامٍ
الطَّائِي فِي حِمَاسَتِهِ^(٢) ، وَالْأَيْبَاتُ تَفِيضٌ بِالْقُوَّةِ ، وَتَدُلُّ عَلَى الشَّجَاعَةِ
الْمَتَأَصِّلَةِ فِي نَفْسِهِ ، كَمَا تَدُلُّ عَلَى النِّهَايَةِ فِي الْإِقْدَامِ ، وَعَدَمِ الرِّكَوْنِ إِلَى
الْجُبْنِ ، وَالتَّعَرُّضِ إِلَى الْمَوْتِ وَمَنَازِلَةِ الْأَبْطَالِ وَالْكُفَاةِ وَالْأَيْبَاتُ
هِيَ :

لَا يَرْكَنَنَّ أَحَدٌ إِلَى الْإِحْجَامِ يَوْمَ الْوَعْيِ مَتَخَوِّفًا لِحِمَامِ
فَلَقَدْ أَرَانِي لِلرَّمَّاحِ دَرِيَّةً مَنْ عَنِ يَمِينِي مَرَّةً وَأَمَامِي^(٣)
حَتَّى خَضِبْتُ بِمَا تَحَدَّرَ مِنْ دَمِي أَكْنَافَ سَرْجِي أَوْ عَنَانَ لَجَامِي
ثُمَّ انصَرَفْتُ وَقَدْ أَصَبْتُ وَلَمْ أُصَبْ جَذَعَ الْبَصِيرَةِ قَارَحَ الْإِفْدَامِ
مَتَعَرِّضًا لِلْمَوْتِ أَضْرَبُ مُعَلِّمًا بُهَمَ الْحُرُوبِ مُشَهَّرَ الْإِغْلَامِ
أَدْعُو الْكُفَاةَ إِلَى التَّزَالِ وَلَا أَرَى نَحَرَ الْكَرِيمِ عَلَى الْقَنَا بِحَرَامِ
* وَقَالَ الْبَغْدَادِيُّ عَنْ قَطَرِي : وَلَهُ حِكَايَاتٌ وَأَشْعَارٌ ظَرِيفَةٌ^(٤) . وَمِنْ

شِعْرِهِ الرَّائِقُ قَصِيدَتُهُ الْمِيمِيَّةُ الْجَمِيلَةُ الَّتِي زَيَّنَتْ جَيِّدَ الْمَصَادِرِ ، وَهِيَ :

لَعَمْرِكَ إِنِّي فِي الْحَيَاةِ لَزَاهِدٌ وَفِي الْعَيْشِ مَا لَمْ أَلْقَ أُمَّ حَكِيمٍ
مَنْ الْخَفَرَاتِ الْبَيْضِ لَمْ يُرَ مِثْلُهَا شَفَاءٌ لَذِي بَثٌّ وَلَا لِسَقِيمٍ
لَعَمْرِكَ إِنِّي يَوْمَ أَطْمُ وَجْهَهَا عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ جِدُّ لَيْسِمٍ

(١) الْفَتْوح لابن أعثم (٢/ ٨٥) .

(٢) حِمَاسَةُ أَبِي تَمَامٍ (١/ ٣٥) حَيْثُ أُوْرِدَ مِنَ الْقَصِيدَةِ أَرْبَعَةُ أَيْبَاتٍ فَقَطْ .

(٣) «عَنْ» : مَعْنَاهَا هُنَا : اسْمٌ بِمَعْنَى جَانِبٍ ، لِدُخُولِ حَرْفِ الْجَرِّ عَلَيْهَا .

(٤) حَاشِيَةٌ عَلَى شَرْحِ بَانْتِ سَعَادٍ (١/ ٣١١) .

ولو شَهِدْتَنِي يَوْمَ دُولَابٍ أَبْصَرْتُ
غَدَاةَ طِفَّتٍ عُلَمَاءٍ بَكَرُ بْنُ وَائِلٍ
وَكَانَ لِعَبْدِ الْقَيْسِ أَوَّلُ جَدِّهَا
وِظَلَّتْ شُيُوخُ الْأَزْدِ فِي حَوْمَةِ الْوَعْيِ
فَلَمْ أَرَ يَوْمًا كَانَ أَكْثَرَ مُقْعَصًا
وَضَارِيَةً خَدًّا كَرِيمًا عَلَى فَتَى
أَصِيبَ بَدُولَابٍ وَلَمْ تَكُ مَوْطِنًا
فَلَوْ شَهِدْتَنَا يَوْمَ ذَاكَ وَخَيْلُنَا
رَأَتْ فِتْنَةً بَاعُوا إِلَاهَهُ نَفُوسَهُمْ

طِعَانٌ فَتَى فِي الْحَرْبِ غَيْرَ ذَمِيمٍ
وَعُجْنَا صَدُورَ الْخَيْلِ نَحْوَ تَمِيمٍ
وَأَخْلَافِهَا مَنْ يَخْضِبُ وَسَلِيمٍ
تَعُومُ وَظَلْنَا فِي الْجَلَادِ نَعُومٍ
يَمُجُّ دَمًا مِنْ فَائِظٍ وَكَلِيمٍ
أَغْرَّ بِجَيْبِ الْأُمَّهَاتِ كَرِيمٍ
لَهُ أَرْضُ دُولَابٍ وَدِيرُ حَمِيمٍ
تَبِيحُ مِنَ الْكُفَّارِ كُلِّ حَرِيمٍ
بَجَنَاتٍ عَدْنٍ عِنْدَهُ وَنَعِيمٍ^(١)

* ومن شعره الحماسي قصيدة يائية جميلة وأولها:

إِلَى كَمْ تَعَادِينِي السُّيُوفُ وَلَا أَرَى
مَضَارِبَهَا تُهْدِي إِلَيَّ حَمَامِيَا

* ومنها:

وَأَدْعُوا الْكُفَاةَ لِلنَّزَالِ إِذَا الْقَنَا
وَلَسْتُ أَرَى نَفْسًا تَمُوتُ إِذَا دَنْتُ
إِذَا اسْتَلَبَ الْخَوْفُ الرِّجَالَ قُلُوبَهُمْ
تَحَطَّمْ فِيمَا بَيْنَنَا مِنْ طِعَانِيَا
مَنْ الْمَوْتِ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ دَاعِيَا
حَبَسْنَا عَلَى الْمَوْتِ النُّفُوسَ الْعَوَالِيَا

* ومما يدلُّ على فحولة قطري وشجاعته ما وردَ عند «الحصري» في
«زهره» قال: قال أبو حاتم: أتيت أبا عبيدة ومعِي شِعْرُ عُرْوَةَ بْنِ الْوَرْدِ ،
فقال لي: ما معك؟

قلت: شِعْرُ عُرْوَةَ بْنِ الْوَرْدِ .

(١) الكامل (١٢٢٦/٣ و ١٢٢٧) و«علماء»: يريدُ على الماءِ ، فإنَّ العربَ إذا التقت في
مثلِ هذا لآمان استجازوا حذفَ إحداهما استئقلاً للتضعيف . و«دولاب» أعجمي
معرب ، وكلُّ ما كانَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْأَعْجَمِيَّةِ نَكْرَةً بغيرِ الْأَلِفِ وَاللَّامِ ، فإذا دَخَلَتْهُ
الْأَلِفُ وَاللَّامُ فَقَدْ صَارَ مَعْرَبًا .

قال: شعرٌ فقيرٌ ، يحملُهُ فقيرٌ ، ليقرأهُ على فقير .

قلتُ: ما معي شعرٌ غيره ، فأُنشِدني أنتَ ما شئتَ ، فأُنشِدني
لقطريّ بنِ الفُجاءة:

| | |
|---------------------------------------|--|
| يا رَبَّ ظلِّ عقابٍ قد وقَّيتُ بهِ | مُهرِي منَ الشَّمسِ والأبطالِ تَجْتَلِدُ |
| وربَّ يومٍ حمى أُرعيتُ عقوته | خيلي اقتساراً وأطرافُ القنا قَصْدُ |
| ويومٍ لَهوٍ لأهلِ الخفضِ ظلٌّ بهِ | لهوي اصطلاءُ الوغى وناره تَقْدُ |
| مُشَهَّراً موقفي والحربُ كاشفةٌ | عنها القناعِ وبحرُ الموتِ يَطْرِدُ |
| وربَّ هاجرةٍ تغلي مَراجِلُها | مخرُتها بمطايا غارةٍ تَخِدُ |
| تجتابُ أوديةَ الأفزاعِ أمانةً | كأنَّها أُسْدٌ تقتادُها أُسْدُ |
| فإنَّ أمتَ حُتَفَ أنفي لا أمتُ كَمداً | على الطَّعانِ وقصرِ العاجزِ الكَمدُ |
| ولم أقلْ لم أُساقِ الموتَ شاربه | في كأسِهِ والمنايا شرَّعُ وُردُ |

ثم قال: هذا والله هو الشعرُ ، لا ما يتعلَّلون بهِ منُ أشعارِ المخانِيثِ^(١).

* هذا وأشعارُ ومقطَّعاتُ قطريّ بنِ الفُجاءة كثيرةٌ منشورةٌ في ثنايا كُتِبَ
الأدبِ والتَّاريخِ واللُّغة وغيرِها ، وكلُّها تشيرُ إلى بسالته وإقدامه ، وأنَّه
معدودٌ أحدَ فرسانِ العَصْرِ الأمويِّ الأشداء ، وأحدُ شُجعانِ الخوارجِ في
القرنِ الهجريِّ الأوَّل ، بل وأحدُ الشُّعراءِ المجيدين والفرسانِ المجلِّين .

* قال عنه «لِيفي ديلافيدا»: كان قطريُّ بنُ الفُجاءة مثلَ عددٍ من مشاهيرِ
الخوارجِ ، ذا موهبةٍ حقيقيَّة في الشُّعْرِ والخطابة ، ذكرَ الجاحظُ خطبةً من
خطبه ، ويتَّضح في القِطْعِ التي وصَلتْ إلينا من شعره أسلوبٌ رفيعٌ ، واحتقارٌ
بطوليٌّ للموتِ ، تجعلُ صاحبها في الصَّفِّ الأوَّلِ من شعراءِ الخوارجِ^(٢).

(١) انظر: زهر الآداب للحصري (٢/ ١٠٢٧ و ١٠٢٨).

(٢) انظر: دائرة المعارف الإسلامية .

مَوْتُهُ وَنَهَايَتُهُ :

* كان قطريُّ قد دوَّخَ البلادَ والعبادَ ، وطارَ صَيْتُهُ في الأصقاعَ ، وتذكُرُ المصادرُ أنَّه أعيَا الحجاجَ بنَ يوسفَ وأعجزَه ، إلى أن عَجَمَ الحجاجُ فوارِسَه ، ورمَاهُ بفارِسٍ مِقْدَامٍ هو سفيانُ بنُ الأبردِ الكلبيِّ ، وأرسلَه في جيشٍ كثيفٍ ، واجتمعَ معه إسحاقُ بنُ محمَّدٍ بنِ الأشعثِ في جيشٍ لأهلِ الكوفةِ ، فأقبلَا في طلبِ قَطْرِي ، فأدرَكُوهُ في شِعْبٍ من شعابِ طبرستانَ ، فقاتلوه ، ففترَّقَ عنه أصحابُه ، وسقطَ عن دابته ، فتَدَهَّدَ - تدحرجَ - إلى أسفلِ الشَّعْبِ ، وأتاهُ علجٌ من أهلِ البلدِ وهو لا يعرفُه ، فقالَ له قطري : اسقِنِي المَاءَ .

فقال العلجُ : أعطيني شيئاً .

فقال : ما معي إلَّا سِلاحِي ، وإنَّ أتيْتَنِي بالماءِ فهو لك . فانطلقَ العِلْجُ حتَّى أشرفَ على قَطْرِي ، ثم حَدَرَ عليه حجراً عظيماً من فوقه ، فأصابَ وركه فأوهنَه ، وصاحَ بالنَّاسِ فأقبلوا نحوه ، وجاءَ نَفَرٌ من أهلِ الكوفةِ فقتلوه ، وكان المباشِرُ لقتلِهِ سُوْدَةُ بنُ أبجرَ بنِ الحارثِ الدَّارميِّ التَّميميِّ ، وجعفرُ بنُ عبد الرحمنِ بنِ مخنفٍ ، والصَّبَّاحُ بنُ محمدِ بنِ الأشعثِ ، وعمرُ بنُ أبي الصَّلْتِ ، وكلُّ هؤلاء ادَّعى قَتْلَه . ثم إنَّهم أرسلوا رأسَه إلى الحجاجِ بنِ يوسفَ ، فسيَّره إلى عبد الملكِ بنِ مروانَ ، وذلك في سَنَةِ (٧٧ هـ) ^(١) .

* وقيل : إنَّ قَتْلَه كان بطبرستانَ في سَنَةِ (٧٩ هـ) .

(١) انظر : خزانة الأدب (١٧٨/١٠) ونهاية الأرب (١٥٩/٢١) ووفيات الأعيان (٩٣/٤) مع الجمع والتصرف . وانظر : الأخبار الطوال (ص ٢٨٠) ، وشذرات الذهب (٣٢٥/١) .

* وقيل: عثر به فرسه ، فاندقت فخذهُ فمات ، فأخذ رأسه ، فجيء به إلى الحجّاج^(١) .

* وانقرضت فرقة الأزارقة بعد مقتل قطري ، فكان أولهم نافع بن الأزرق ، وآخرهم قطري ، واتصل أمرهم بضعا وعشرين سنة .

* وهكذا انتهت حياة فارس من فرسان التاريخ ترك ذكراً ودويّاً في ميدان الفروسيّة .

* * *

(١) وفيات الأعيان (٩٤ / ٤) وسير أعلام النبلاء (١٥٢ / ٤) .

القعقاع بن عمرو

- * بطل صنديد ، وفارس ذو بأس شديد ، وماجد راشد.
- * قال فيه أبو بكر الصديق: لا يُهْزَمُ جيشُ فيه القعقاع. وقال أيضاً: صوتُ القعقاع في الجيش خيرٌ من ألف رجل.
- * صحابي كبير ، وشاعر معروف ، وله أبيات مشهورة.

زَيْنُ الْفُرْسَانِ:

* مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَكُونَ سِيرَةُ هَذَا الْفَارِسِ الْبَطْلِ الْعَبْقَرِيِّ إِمْتَاعاً
لِلْأَسْمَاعِ ، وَنَزْهَةً لِلْمَجَالِسِ ، وَأَنْسَاءً لِلْمَجَالِسِ ، وَمَجَالِسَ الْأَنْسِ ، فَهُوَ
مَثَارٌ إِعْجَابٍ عَبْقَرِيِّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَيِّدِنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - عَلَيْهِ
سَحَائِبُ الرِّضْوَانِ - .

* كَانَ هَذَا الْفَارِسُ الصَّنِيدُ ، ذُو الْبَاسِ الشَّدِيدُ يَحْمِلُ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثِينَ
حَمَلَةً عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَيَقْتُلُ فِي كُلِّ حَمَلَةٍ بَطْلاً مِنْ أَبْطَالِ الشُّرُكِ وَالضُّلَّالِ ،
حَتَّى غَدَا اسْمُهُ مَخِيفاً بَيْنَ صَفُوفِهِمْ ، وَصَوْتُهُ يَجْلَجِلُ فِي آذَانِهِمْ ، وَيَقْرَعُ
قُلُوبَهُمْ ، وَيَهْزُ نَفُوسَهُمْ .

* وَمَنْ الطَّبِيعِيِّ فِي حَيَاةِ هَذَا الْفَارِسِ الْكَرِيمِ أَنْ يَحْفَلَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
وَخَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - ، وَأَنْ يَكُونَ
مَمَّنْ شَمَلَتْهُمْ مَكْرُمَةُ الْخَلِيفَةِ عَمَرَ اعْتِرَافاً بِجَهَادِهِمْ ، وَتَكْرِيماً لِبَسَالَتِهِمْ
وَإِقْدَامِهِمْ ، كَمَا أَنَّ أَخَاهُ عَاصِماً مَمَّنْ نَالَ شَرَفَ التَّكْرِيمِ أَيْضاً ، فَكَانَتْ
هَدِيَّتُهُ سَيْفًا قَاطِعًا ، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَتِ الْخَيْلُ الْعَرَابُ هَدِيَّةً لِبَطْلِ حَلَقَتِنَا
وَضَيْفٍ صَفْحَاتِنَا ، حَيْثُ قَالَ يَذْكُرُ يَوْمَ أَغْوَاثَ :

لَمْ تَعْرِفِ الْخَيْلُ الْعَرَابُ سَوَاءَنَا عَشِيَّةَ أَغْوَاثٍ بِجَنْبِ الْقَوَادِسِ
عَشِيَّةَ رُحْنَا بِالرِّمَاحِ كَأَنَّهَا عَلَى الْقَوْمِ أَلْوَانُ الطُّيُورِ الرَّسَاسِ^(١)

* وَهَذَا الْفَارِسُ الْمَاجِدُ ، قَالَ فِيهِ الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ
الصَّدِيقُ - عَلَيْهِ سَحَائِبُ الرِّضْوَانِ - : لَا يُهْزَمُ جَيْشٌ فِيهِ مِثْلُهُ .

(١) انظر: تاريخ الطبري (٥٤٥/٣) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وطبعة دار
المعارف بمصر ١٩٦١ م . ومعجم البلدان (١/٢٢٥ و ٢٢٦) .

* وإذا قالَ عنه سيّدنا أبو بكرٍ ذلك ، فمعنى هذا أنّ الجيشَ الذي يكونُ فيه بطلُنا جيشٌ ظافرٌ منتصرٌ بإذنِ الله ، فأبو بكرٍ - رضوانُ الله عليه - ينظرُ إلى الأبطالِ بعينِ البصيرة . ومنَ كسيّدنا أبي بكرٍ في معرفةِ الرّجالِ وأحوالِهِم؟! ومنَ كثنائي اثنينٍ الذي يعرفُ مكانةَ الأبطالِ والمجاهدينِ المُخلصين؟!!

* ترى مَنْ هذا الفارسُ الذي أعجَبَ به صديقُ الأُمّةِ الأوّل ، ووزيرُ النّبي المبجل؟ ومنَ هذا البطلُ الذي يرتفعُ صوتهُ عالياً في كلّ معركةٍ ، وهو يستجيبُ لكلِّ دعاءٍ ، ويلبّي كلّ نداء؟!!

* تعالوا - أحبائي - نتعرفُ ملامحَ شخصيته وفروسيّته منَ قوله :
يَدْعُونَ قَعْقَاعاً لِكُلِّ كَرِيهَةٍ فَيَجِيبُ قَعْقَاعٌ دُعَاءَ الْهَاتِفِ
* وهذا الفارسُ العملاقُ نفسه ، كان يرتجزُ في إحدى حملاته في فتح الصّعيد ويقول :

| | |
|--|---|
| أَنَا الْهُمَامُ الْفَارِسُ الْقَعْقَاعُ | لَيْتُ شَجَاعُ ضَيْغَمُ مُطَاعُ |
| وَبُخْسَامِي تَنْشَوِي الْأَضْلَاعُ | وَتُقْطَعُ الْهَامَاتُ وَالْأَضْلَاعُ |
| مَنْ الْحَيَاةُ تُقْطَعُ الْأَطْمَاعُ | وَتُهْدَمُ الْحَصُونُ وَالْقِلَاعُ |
| يَفِرُّ مَنْ أَغْرَى بِهِ النَّزَاعُ | مَنْي إِذَا مَا احتلتِ الْأَدْرَاعُ |
| وَلِلْأَعَادِي طَالَ مَنِّي الْبَاعُ | وَسَيِّدٌ مَهْدَبٌ شُجَاعُ ^(١) |

(١) مَنْ الواضِحُ أنّ للشّعرِ قدرةً على تصوير الأحداثِ ، وأستطيعُ أن أقولَ: إنّ الشّعرَ يَمَكِّننا مِنَ الوصولِ إلى خبايا الزّوايا التي لا تصلُ إليها عيونُ الباحثين ، فمن خلالِ الشّعرِ نستشفُّ أحياناً شخصيّة الفارسِ الذي نترجمُ له ، ونستقرئ منها أخباره ، وقد نتعرّفُ بعضَ الجزئياتِ في تكوينِ صورةِ الفارسِ ، فالشّعرُ صورةُ الحَدَثِ ، ودليلُ الحقيقةِ ، فهو ديوانُ العربِ والمقيّدُ لآيامِها ، والشّاهدُ على أحكامِها ، وهو فخرها العظيم ، وقسطاؤها المستقيم .

* ها قد عرفناه ، وعرفنا صوته الذي يخلعُ قلوبَ الأعداءِ ، ويرطبُ قلوبَ المؤمنين المجاهدين... إِنَّهُ القَعْقَاعُ بْنُ عمرو التَّمِيمِي^(١) ، أحدُ فرسانِ مدرسة الثُّبوةِ المحمديّةِ ، وأحدُ فرسانِ القادسيّةِ ، فقد كانَ مِنَ الفرسانِ الشُّجعانِ في قبيلةِ تميم في الجاهليّةِ والإسلامِ ، حيثُ ذكروا له صُحبةً ، فأكرمَ بها مِنْ خَلَّةٍ !.

* قال ابنُ الأثير: رُوي عنه أَنَّهُ قال: شهدتُ وفاةَ النَّبيِّ ﷺ. رواه سيفُ بن عمر ، وسيفُ متروكُ الحديث^(٢).

* وقال أيضاً عنه: وللقعقاع أثرٌ عظيمٌ في قتالِ الفُرسِ في القادسيّةِ وغيرها ، وكانَ مِنْ أشجعِ النَّاسِ وأعظمهم بلاءً... وهو الذي قال فيه أبو بكر الصّديق - رضي الله عنه -: صوتُ القَعْقَاعِ في الجيشِ خيرٌ مِنْ أَلْفِ رجلٍ^(٣).

«مَاذَا أَعَدَدْتَ لِلْجِهَادِ»؟

* فارسنا القَعْقَاعُ بْنُ عمرو التَّمِيمِيّ فارسٌ مجيدٌ ، نَذَرَ نفسَه وروحَه

= وإنَّ الأبياتِ التي قرأناها أعلاه ، تشيرُ إلى فروسيّةِ قائِلِها وشجاعتهِ ، وتدلُّ على أَنَّهُ فارسُ الملماتِ ، ومفرجُ كرباتِ الذين ينادونه في ساحاتِ القتالِ .

(١) المصادِرُ التي تحدّثت عن القَعْقَاعِ بْنِ عمرو التَّمِيمِيّ كثيرةٌ جداً ومنها: الإصابة في تمييز الصّحابة (١٦٨/٨ و ١٦٩) ترجمة رقم (٧١٢١) ، وأسدُ الغابة طبعة بيروت المحقّقة (٣٩٧/٤) ، ومختصر تاريخ مدينة دمشق (٨٨/٢١ - ٩٠) ، والأغاني (انظر الفهارس) ، والكمالُ في التّاريخ لابن الأثير (انظر الفهارس) وتاريخُ الطبري في مواضع متفرّقة ، وكذلك معجمُ البلدان في مواضع متفرّقة أيضاً ، وأيام العرب في الإسلام (ص ١٨٥ و ١٨٧ و ٢٠١ و ٢١٨ و ٢٧٨ و ٢٨٥ و ٢٩٨ و ٢٩٩ و ٣٢٤ و ٣٢٧ و ٣٥٤ - ٣٥٦) ، والاستيعاب (١٥٩/٩) ترجمة رقم (٢١٢١) ، وغيرها كثير.

(٢) أسدُ الغابة (٣٩٧/٤) ، والاستيعاب (١٥٩/٩) ترجمة رقم (٢١٢١).

(٣) المصدر السّابق نفسه بشيء من الاختصار.

لخدمة وإعلاء دين الله عز وجل ، فقد شارك وساهم في حرب أعداء الله ،
وأعداء الإسلام ، وكان له نصيب وافر من الانتصارات على الفرس في أيام
القادسية ، وهي يوم أغواث ، ويوم عمواس ، ويوم ليلة الهيرير .

* وكان القعقاع^(١) أسداً شجاعاً في الكرّ والفرّ ، مشهوراً بحملاته
الشديدة العاصفة على الأعداء ، حتى بلغت حملاته في أحد الأيام خمسين
حملة ، ولك أن تتصوّر تلك الحملات ، والخوض في صفوف الأعداء ، والخروج
منها ظافراً سالماً ، وهو يرعب الأعداء بصوته الجهوري ، وعزمه المشهور .

* لهذا كله كان سيّدنا أبو بكر الصديق - رضوان الله عليه - شديد
الإعجاب بالقعقاع ، وكم أثنى عليه وعلى صوته الجهوريّ القويّ الذي
يزرعُ الهلع ويخلعُ أفئدة الأعداء فقال : لصوتُ القعقاع في الجيش خيرٌ من

(١) «القعقاع» : من معانيها في معاجم اللغة : القعقة : حكاية أصوات السلاح والترسة
والجلود اليابسة والحجارة والرعد والحلي ونحوها ، قال النّابغة :
يُسَهِّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلْيِ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ
وذلك أنّ الملدوغ يُوضَعُ في يديه شيءٌ من الحلي لئلا ينأى فيدبُ السُّمُّ في جسده
فيقتله . وتقعق الشيء : اضطربَ وتحرك . وققعته وققعته به : حركته .
وفي حديث أم سلمة - رضي الله عنها - : قعقعوا لك بالسلاح فطارَ فؤادك . وفي
المثل : فلان لا يُقعقَعُ له بالشنان ؛ أي لا يُخدَعُ ولا يُروَّعُ . والتقعق : التحرك .
وتقعق الشيء : صوّتَ عند التحريك ، والاسم القعقاع . وفي الحديث : أنّ ابناً
لبنت النبي ﷺ حُضِرَ فدخل النبي ﷺ ، فجاء بالصبي ونفسه تقعقُعُ أي : تضطربُ .
والقعقة : حكاية حركةٍ لشيء يُسمع له صوتٌ ، ومنه حديث أبي الدرداء - رضي
الله عنه - : شرُّ النساءِ السِّلْفعة التي تُسمعُ لأسنانها قَعْقَعَةً .
ورجلٌ قعقاعٌ وققعاني : تسمعُ لمفاصلِ رجله تقعقُعاً إذا مشى . والقعقة : تتابعُ
صوت الرّعد في شدة ، وجمعه القعاقع . ورجل قعاقع : كثير الصوت . وتقعق بنا
الزمان : وذلك من قلة الخير وضيق السّعر وجور السلطان . والقعقاع : الحمر
النّافض تقعقع الأضراس .

انظر (فقه اللغة ص ١٩٩) و(لسان العرب ٨/ ٢٢٦ - ٢٢٨) بتصرف

ألف رجل! . فأكرم بها من شهادة صدق من صديق الأمة ؛ شهادة صديقية كريمة ما يزال أريجها يعطر سَمْعَ الدُّنيا وأسماع النَّاسِ إلى ما يشاء الله .

* ومن الجميل في سيرة القعقاع بن عمرو أنه يُعدُّ من الصَّحابة الكرام - رضي الله عنهم وأرضاهم - ، وتعدُّ صحبتُهُ لرسولِ الله ﷺ مفتاحَ كلِّ خير ، بل الخير كله ، كما كانت مواقفهُ الكريمةُ البدايةَ الوضيئةَ التي وضعتْ حياته على طريقِ المجاهدين الذين همُّهم أن تكونَ كلمةُ الله هي العليا ، وكلمةُ الذين كفروا السفلى . كما أنَّ السُّؤالَ الكريمَ الذي سأله إياه رسولُ الله ﷺ يمثلُ الإعدادَ الكاملَ للفروسيَّةِ الحقَّةِ ، والجهادِ الكريمِ في رحلةِ حياته التي لم يطلبْ فيها سوى مرضاةِ الله عزَّ وجلَّ ، ولم يحققْ بها إلا الحياةَ الكريمةَ لكلِّ المؤمنين الذين وضعُوا أنفسهم في خدمةِ الرِّسالةِ المحمديةِ الكريمةِ وتحقيقِ مبادئها .

* إنَّ السُّؤالَ الكريمَ الذي سأله رسولُ الله ﷺ للقعقاع بن عمرو كان كبيراً في كلِّ المعاني التي دارتْ في نفسِ الفارسِ المؤمنِ ؛ الذي روى لنا صيغةَ ذلك السُّؤال فقال : قال لي رسولُ الله ﷺ : « ما أعددتَ للجهادِ ؟ » قلتُ : طاعةُ الله ورسوله ، والخیلَ . قال : « تلك الغايةُ »^(١) .

* وإذا ما صحَّ الخبرُ ، فقد كانتِ الفكرةُ في روحِ السُّؤالِ بارزةً ، وكانتِ العلامةُ في إعطاءِ الجوابِ واضحةً . . . نعم كان الجوابُ واضحاً قولاً وفعلاً ، وقد أثبتَ القعقاعُ ذلك فقال : ولقد شهدتُ البرقَ برقَ تهامةٍ يهدي المقانِبَ راكبَ العيَّارِ

(١) انظر : الإصابة (١٦٨/٨) ترجمة رقم (٧١٢١) . والحديثُ ذكره سيفُ بنِ عمر عن عمرو بنِ تَمَّام عن أبيه عن القعقاع . وسيفُ هذا متروكٌ ، فبُطِّلَ الحديثُ .

في جُنْدِ سَيْفِ اللَّهِ سَيْفِ مُحَمَّدٍ وَالسَّابِقِينَ بَسْنَةَ الْأَحْرَارِ
 لَمْ تَنْفَرِجْ عَنِّي الْأُمُورُ مَفْتَنًا إِنَّ الْخِيَارَ هُمُ بَنُو الْأَخْيَارِ
 * ويذكر ابن حجر في الإصابة قصّة شهود القعقاع بن عمرو وفاة
 النَّبِيِّ ﷺ فيقول: قَالَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو: شَهِدْتُ وَفَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا
 صَلَّيْنَا الظُّهْرَ جَاءَ رَجُلٌ حَتَّى قَامَ فِي الْمَسْجِدِ ، فَأَخْبَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْأَنْصَارَ قَدْ
 أَجْمَعُوا أَنْ يُوَلُّوا سَعْدًا يَعْنِي ابْنَ عُبَادَةَ ، وَيَتْرَكُوا عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ،
 فَاسْتَوْحَشَ الْمُهَاجِرُونَ^(١).

* ثم ينقل عن ابن عسّاکر قوله: يُقَالُ: إِنَّ لَهُ صُحْبَةً ، كَانَ أَحَدَ فَرَسَانِ
 الْعَرَبِ وَشِعْرَائِهِمْ ، شَهِدَ فَتْحَ دِمَشْقَ ، وَأَكْثَرَ فَتُوحِ الْعِرَاقِ ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ
 أَشْعَارٌ مُوَافِقَةٌ مَشْهُورَةٌ ، وَذَكَرَ سَيْفٌ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ: أَنَّهُ كَانَ مِنْ
 أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ^(٢).

مَآثِرُ وَشَهَادَاتُ:

* هو ذا الفارسُ المؤمنُ يرسمُ لوحةً من لوحاتِ البطولةِ في ميدانِ الجهادِ ،
 وذلك بعد وفاة رسولِ الله ﷺ ، فيقدّمُ دليلَ إيمانه وهو يَمُثِّلُ لأمرِ سيّدنا
 أبي بكر الصّدّيق - رضي الله عنه وأرضاه - ليقود حملةً لتأديبِ علقمة بن
 عُلَاثَةَ^(٣) الذي لم يدخلِ الإيمانُ قلبه ، فارتدّ بعد وفاة رسولِ الله ﷺ ،

(١) الإصابة (١٦٩/٨) ترجمة رقم (٧١٢١). قال ابن السكن: سيف بن عمر ضعيف.

(٢) المصدر السابق عينه. ولفظ ابن عسّاکر: «يُقَالُ»: ليس فيه تثبت ، ولم يذكر من
 ذكر ذلك إلا سيف بن عمر الذي ضعفه. بيد أن أخبار القعقاع انتشرت في العصر
 الراشدي المبارك.

(٣) انظر: الأغاني (٥٦/١٥) طبعة مصر. و(٣١٦/١٦ و ٣١٧) طبعة دار الكتب العلمية
 بيروت. وروى الأصفهانيّ قصّة أسر القعقاع لعلقمة فقال: كَانَ عُلَقْمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ قَدْ
 أَسْلَمَ ، ثُمَّ ارْتَدَّ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ ، ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ فَتْحِ الطَّائِفِ حَتَّى لَحِقَ بِالشَّامِ
 مُرْتَدًّا ، فَلَمَّا تَوَفَّى النَّبِيُّ ﷺ أَقْبَلَ مُسْرِعًا ، حَتَّى عَسَكَرَ فِي بَنِي كَعْبٍ ، مُقَدِّمًا =

ويتحركُ القعقاعُ على رأسِ هذه الحملَةِ ، وهو يضعُ وصيَّةَ أبي بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنه - نصبَ عينيه كيما يعودَ بالمرتدِّ أسيراً^(١) ، ومن ثمَّ يُسَكِّثُ ويخمدُ صوتَ الباطلِ ، ويوقفُ زحفَ المرتدين .

* ويظلُّ القعقاعُ القائدَ الفارسِ ، والفارسُ القائدَ المقاتلَ لإعلاءِ كلمةِ الله ، ويبرهنُ على إيمانه الصَّادقِ ، وعلى وفائه وإخلاصه للإسلامِ والمسلمين بالعملِ المتواصلِ في ساحاتِ الجهاد ، حتى كانتَ قولهُ سيدنا أبي بكر - رضوانُ الله عليه - : « لا يُهْزَمُ جيشٌ فيه مثلُ القعقاعِ » . وذلك عندما طلبَ خالد بنُ الوليدَ مدداً من أبي بكر .

* وظلَّت مقولَةُ الصِّدِّيقِ الصَّادقة الصَّحيحة تتردَّدُ في ديوانِ الأيّامِ على مَسْمَعِ المجاهدينَ عند كلِّ معركةٍ ، فقد وجدوا في القعقاعِ علماً بارزاً من أعلامِ القادةِ ، ومن قادةِ الأعلامِ ، بل ومنَ الفرسانِ الذين سجّلوا في ديوانِ العظائمِ أجملَ الصِّفحاتِ وأكرمَ البطولاتِ في العهدِ الرَّاشديّ ، وجعلوا أعمالهم رمزاً لكلِّ الأبطالِ والفرسانِ في التَّاريخِ الإسلاميِّ والعربيِّ .

* ولعلنا نقترُبُ أكثرَ منَ القعقاعِ بنِ عمرو ، ونفهمُ شخصيَّتهُ الحربيَّةَ

= رجلاً ومؤخراً أخرى ، وبلغ ذلك أبا بكر - رضي الله عنه - ، فبعثَ إليه سريةً ، وأمرَ عليها القعقاعَ بنَ عمرو ، وقال : يا قعقاعُ ، سرَّ حتى تغيرَ على علقمةَ بنِ علاثة ، لعلك تأخذهُ لي أو تقتله ، واعلمْ أنَّ شفاءَ النفسِ الحرصُ ، فاصنع ما عندك .

فخرجَ في تلكِ السَّريَّةِ حتى أغارَ على الماءِ الذي عليه علقمةُ ، وكانَ لا يبرحُ أنْ يكونَ على رَحْلِ ، فسابقهم على فرسيهِ مراكضةً ، وأسلمَ أهلُه وولده ، واستبى القعقاعُ امرأةَ علقمةَ وبناته ونساءه ومنَ أقامَ مِنَ الرِّجالِ ، فاتَّقوه بالإسلامِ ، فقدمَ بهم على أبي بكرٍ - رضي الله عنه - فحدثَ زوجته وولدهُ أنْ يكونوا مالئوا علقمةَ على أمرِهِ ، وكانوا مقيمينَ في الدَّارِ ، ولم يكنْ بلغه عنهم غيرُ ذلك ، وقالوا لأبي بكرٍ : ما ذنبُنا نحن فيما صنَّعَ علقمةُ ؟ فأرسلهم ، ثم أسلمَ علقمةُ ، فقَبِلَ ذلك منه .

(الأغاني ٣١٦/١٦ و٣١٧)

عندما نقرأُ تلكم الأخبارَ الجميلةَ التي تروي شجاعته ، وتنقلُ إلينا شهادةَ
عباقرِ القادة ، وقادةِ العباقرِ ، وَمَنْ مثْلُ عبقرِي الصّحابةِ عمر بن الخطّاب
- رضي الله عنه - الذي كَتَبَ إلى سعدِ بن أبي وقاص - رضي الله عنه - :

أيّ فارسٍ كانَ أفرسَ في القادسيّة؟

فكتبَ إليه: إنّي لم أرَ مثْلَ القعقاعِ بنِ عمرو ، حملَ في يومٍ ثلاثينَ
حملةً ، يقتلُ في كُلِّ حملةٍ بطلاً...!..

* وكانَ القعقاعُ بنُ عمرو قد غنِمَ أدرعَ كسرى وفيها درعٌ^(١) لهرقل ،

(١) «الدَّرع»: لبّوس حديد ، يُذَكَّر ويؤنَّث ، وله أسماء كثيرة... (نهاية الأرب
٦/ ٢٤١ - ٢٤٥). فالدرع إذاً: ثوبٌ ينسجُ من زَرَدِ الحديد ، يُلبَس في الحرب ،
وله أكمَامٌ قصيرةٌ تصلُّ إلى منتصفِ الدَّرع ، ويُصنَعُ أحياناً من حلقاتٍ معدنيةٍ
صغيرةٍ ، متداخل بعضها في بعض ، وجرى لبس الدَّرع على ثوبٍ من النَّسيج
المبطّن أشبه بوسادةٍ تحت حلقاتِ المعدن أو صفائحهِ الرَّفيعَةِ .
وقد استحبَّ الفارسُ العربيُّ الدَّرعَ المضاعفةَ التي تُسجَّت حلقتين حلقتين ،
والتي تغطّي القدم والكفّ والبَنانَ . وكانوا يميلون إلى لبسِ الدَّرع الواسعةِ السَّابِغَةِ
التي تفضلُّ على أطرافِ الفارس ، والصُّلبةِ المتينةِ التي تشتملُ عليها السُّيوفُ ،
وتتكسّر عندها السُّهَامُ ، قال عبدُ قيس بنُ خفاف البرجميّ يصفُ قوّة درعه
واتساعها:

وسابِغَةٌ من جِياذِ الدُّرو ع تسمعُ للسَّيفِ فيها صليلاً
كماء الغدير زفته الدُّبور يجرُّ المدجج منها فضولاً
* ونالت الدُّروعُ احترامَ الفارسِ العربيِّ ، فكانَ يعتزُّ بها ، وكانَ الفرسانُ يتوارثونها
ويحتفظون بها ، وقد رُوي أنَّ امرأَ القيسِ قد ورثَ عن أبيه خمسةَ دروعٍ وهي:
الفضفاضةُ ، والصفّايةُ ، والمحصنةُ ، والخريقُ ، وأُمّ الذّيول . وكان بنو آكلِ المِمار
يتوارثونها ملكاً عن ملك ، وقد اعتنى بها الفارسُ العربيُّ عنايةً فائقةً ، فكان يجلوها
بعد انتهاءِ المعركة ، ويضعها في أماكنٍ خاصّةٍ خشيةَ الصدأ والتَّلَف .

* ومن أسماء الدرع: بصيرة ، جَارِن ، جوشن ، حلقة ، دِلاص ، دُلامِص ،
دِخاس ، دَرمة ، ذائلة ، زَغْفَة ، سُلوقية ، سابريّة ، سابِغَة ، سَكْ ، سَرْد ،
سَنُور ، صَمُوت ، فضفاضة ، قَضَاء ، لَأمة ، لَبُوس ، مَازِيّة ، مسرودة ، نَثرة ، =

ودرعٌ لخاقان ، ودرعٌ للثُعمان ، وغنمٌ كذلك سيف^(١) الثُعمان ، وسيفٌ كسرى ، فأرسلهما سعدٌ إلى سيّدنا عمر^(٢) - رضي الله عنهما وأرضاهما - .

* لقد كان القعقاعُ يداً مؤمنةً قويّةً تُلحِقُ الهزائمَ بأعداءِ الله عزَّ وجلَّ ، فقد شهدَ فتوحَ دمشق ، وأكثرَ فتوحِ العراق ، وكان اسمه يلمعُ في سماءِ العظماءِ ، وكانتِ الكتيبةُ التي يكونُ فيها منَ الكتابِ المهمةِ الظّافِرةِ ، حتى

= ثلّة ، يَلْب . وقد تَفَنَّنَ الشُّعراءُ على مرِّ العُصورِ بوصفِ الدّروعِ في أشعارهم . انظر (نهاية الأرب ٦/ ٢٤٣ - ٢٤٥) ، و(فقه اللغة ص ٢٣٠)

(١) «السَّيْفُ»: يُصْنَعُ من مادّة الحديد ، مشتقٌّ من قولهم : سافَ ماله ، أي هلك ، فلمّا كانَ السَّيْفُ سَبباً لِلهَلَاكِ سَمِيَ سَيْفاً ، والجمعُ: أسيافٌ وسُيُوفٌ ، وهو السِّلَاحُ الرَّئيسيُّ في الحَرْبِ قديماً ، ويستخدمُ للاشتباكِ القريبِ بالعدوِّ ، وله عدّة مسمّيات استناداً لمكانِ صنعِهِ ، أو اسمِ صانِعِهِ ، وأهمّها :

١ - السَّيْفُ اليمانيّ وهو المنسوبُ صناعتُهُ إلى اليمن .

٢ - السَّيْفُ الهنداويّ أو المهتد المصنوعُ في الهند .

٣ - السَّيْفُ المشرفيّ المصنوعُ في مشارفِ الشّام .

٤ - السَّيْفُ البصراويّ المصنوعُ في بصرى الشّام .

٥ - السَّيْفُ القلعيّ المصنوعُ في قلعة موضعٍ بالبادية .

٦ - السَّيْفُ الحاربيّ المصنوعُ في الحيرة .

٧ - السَّيْفُ الحنفيّ المنسوبُ إلى أحنفٍ أوّلٍ عربيّ صنعها .

ولأهميّة السَّيْفِ في الجيشِ المسلم ، فقد ذكّره رسولُ الله ﷺ فقال : «الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلِّهِ السُّيُوفِ» . وقد استوفى التّويريّ أسماءَ السَّيْفِ وما قيل فيه منَ الأسماءِ والتّعويّ والأوصافِ على حروفِ المعجم . (نهاية الأرب ٦/ ٢٠٢ - ٢٠٦)

(٢) لما قُدِمَ بسيفِ كسرى ومنطقته وزبرجته على عمر - رضي الله عنه - قال : إِنَّ أَقْواماً أدّوا هذا لذو أمانة .

فقال عليّ - رضوان الله عليه - : إِنَّكَ عَفَفْتَ فَعَفَّتِ الرَّعِيَةُ .

* وكانَ منَ جملةِ ما أُرسلَ القطفُ ، وهو ستون ذراعاً في ستين ذراعاً بساطاً واحداً مقدار جريب ، فيه طرقٌ كالزّهور ، وفصوصٌ كالأنهار ، وخلال ذلك كالدير ، في حافاتِهِ كالأرضِ المزروعة ، والأرضِ المبقلة بالنّباتِ في الرّبيع ، وكانوا يعدّونه للشتاءِ إذا هبَّت الرّياحُ فكانوا إذا أرادوا الشّراب ، شربوا عليه فكأنّهم في رياض .

إِنَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ - رضي الله عنه - كَانَ مُعْجِباً بِكُتَيْبَةِ الْخَزَّسَاءِ ، وَهِيَ كُتَيْبَةُ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو .

الْقَعْقَاعُ وَبَطُولَاتُ نَادِرَةَ:

* بطولاتُ القَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو مشهورةٌ فِي عَالَمِ الْفُرْسَانِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اشْتَرَى اللَّهُ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، إِذْ عَلِمُوا أَنَّ ثَمَنَ ذَلِكَ الْجَنَّةِ ، فَرَاخُوا يِقَاتِلُونَ وَيُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأَظْهَرُوا مِنَ الْبَطُولَاتِ الْخَارِقَةِ ، وَالْفُرُوسِيَّةِ النَّادِرَةِ الَّتِي رَسَمَتْهَا يَدُ التَّارِيخِ بِأَمَانَةٍ ، لِتَفْصَحَ عَنْ تَضَحِيَّاتِهِمْ ، وَعَنْ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ الْحَرَبِيَّةِ .

* وَالْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو مِنْ مَشَاهِيرِ الْفُرْسَانِ الْمُسْلِمِينَ ، وَوَقَائِعُهُ مَشْهُورَةٌ مُتَعَالِمَةٌ فِي بَطُونِ الْأَسْفَارِ ، وَصُدُورِ الْمَصَادِرِ ، وَصَفَحَاتِ التَّارِيخِ ، بَلْ وَفِي وَجْدَانِ مُحِبِّي الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ جَمِيعِهِمْ ، وَمُحِبِّي أَبْطَالِ الْمُسْلِمِينَ وَفِرْسَانِهِمُ الَّذِينَ فَتَحُوا الْقُلُوبَ وَالْبِلَادَ .

* وَلَنْ أَسْتَطِيعَ - عَزِيزِي الْقَارِئُ - أَنْ أَحَدِّثَكَ عَنْ بَطُولَاتِ الْقَعْقَاعِ جَمِيعِهَا ، وَلَكِنِّي سَأَقْفُ وَإِيَّاكَ عِنْدَ شَذَرَاتٍ مِنْهَا ، وَعِنْدَ مُوَاقِفَ يَظْهَرُ مِنْ خِلَالِهَا الْإِبْدَاعُ فِي فَنُونِ الْقِيَادَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ ، وَالْجَنْدِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَالرُّوحَ الْفِدَائِيَّةِ ، وَكُلَّ أَلْوَانِ الْفُرُوسِيَّةِ الَّتِي تَزِينُ تَارِيخَنَا بِعُقُودِ الدُّرِّ وَدُرِّ الْعُقُودِ .

* وَقَبْلَ أَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْ بَعْضِ بَطُولَاتِ الْقَعْقَاعِ وَقِيَادَتِهِ الْحَكِيمَةِ^(١) ،

(١) إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَقْدَّمَ عَلَى الْجَيْشِ إِلَّا الرَّجُلُ ذُو الْبَسَالَةِ وَالنَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْجَرَاءَةِ ، ثَابِتُ الْجَأْشِ ، صَارِمُ الْقَلْبِ ، صَادِقُ الْبَأْسِ ، مِمَّنْ قَدْ تَوَسَّطَ الْحُرُوبَ ، وَمَارَسَ الرِّجَالَ وَمَارَسُوهُ ، وَنَازَلَ الْأَقْرَانَ ، وَقَارَعَ الْأَبْطَالَ ، عَارِفاً بِمَوَاضِعِ الْفُرُصِ ، خَبِيراً بِمَوَاضِعِ الْقَلْبِ وَالْمِيْمَةِ وَالْمَيْسِرَةِ مِنَ الْحُرُوبِ ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ ، وَصَدَرَ الْكُلُّ عَنْ رَأْيِهِ كَانُوا جَمِيعاً كَأَنَّهُمْ مِثْلُهُ ، فَإِنَّهُ إِنْ رَأَى لِقَاعَ =

دعني أخبرك عن بعض أسرار القيادة وفنونها في عصر القَعَقَاع .

* فالقيادة مصطلحٌ تميّز إنساناً عن سواه في مزايا ومعارفٍ وخصائصٍ متوافقة في مجال الخبرة الحربيّة ، وتؤهّلهُ لقيادة الناس في بيئته ومحيطه ، وتمكّنه من التصرّف الصّحيح والإدارة العسكريّة وتوجيهها لتنفيذ المهمّات الموكولة إليها .

* وكانت الصّحراءُ هي المعهدُ الذي تخرّج فيه القادة العربُ بادیء الأمر ، ومن ثمّ قادوا الجيشَ المسلمَ الذي حطّم الفرسَ والرُّومَ ، وكان الخلفاءُ الرّاشدونَ يختارون الرّجلَ المُناسبَ للمكانِ المُناسبِ .

ولقد استندَ الخلفاءُ في اختيارهم هذا على مبادئ الفروسيّة العربيّة التي ثبّتت أصولها وقواعدها وتقاليدها عبر العصور ، وصقلتها العقيدة الإسلاميّة . فقد كان الفارسُ العربيُّ ذا فكرٍ ثاقبٍ ، وخيالٍ خصبٍ خلاقٍ ، وكانت حياته التي عاشها تجعله في حالة تأهبٍ دائمٍ للدّفاع عن نفسه وعشيرته ، وغرسَتْ فيه روحَ الإقدامِ والبسالةِ والشّجاعةِ والخلقِ المتينِ ، ممّا نتج عنه الحزمُ وسعةُ الفكرِ وعدمُ التّردّد ، والفِراسةِ والصّلابةِ وتحديدِ الغايةِ والبدئية .

* وقد كانت كلّ هذه الصّفات متوفّرةً في شخصيّة ضيفنا القعقاع ، لذلك كان قائداً ، وكان فارساً ، وكان بطلاً ، وكان جندياً ، وكان يمثّل كلّ ألوانِ البطلِ والبُطولة .

* وسأنتقلُ وأنقلُك - عزيزي القارئ - إلى رياضِ بطولاتِ القعقاع ، ونستنشقُ عبيرَ قصصه في معاركٍ ومواقفٍ متعدّدة ، في بلدانٍ متعدّدة ، وأوقاتٍ متعدّدة ، وأماكنٍ متعدّدة ، لنعرفَ أيّ فارسٍ كان هذا الرّجل .

* فمن قصصِ فروسيته وبطولاته العظيمة في بلادِ العراقِ ، أنه كان هناك فارسٌ يدعى غَرْقَدَ ، زالَ عن ظهرِ فرسه ، فوقَعَ في النَّهرِ ، والفرسُ تنفضُ أعرافها عرياً ، والغريقُ طافٍ لا يحسنُ السَّباحةَ . ولما رآه القَعْقَاعُ على تلك الصُّورةِ ، ثنى عنانَ فرسه إليه ، فأخذَ بيده ، فجرَّه حتَّى عبرَ ، ولما نجا الفارسُ - وكانَ من أشدِّ النَّاسِ بطولَةً - ، قالَ لمنقذه : أعجزَ الأخواتُ أن يلدنَ مثلك يا قَعْقَاعُ؟! .

* ومن نوادرِ بطولَةِ القَعْقَاعِ ما جاء في التَّواريخِ التي تقولُ: خرجَ القَعْقَاعُ بَنُ عمرو يومَ المدائنِ في الطَّلَبِ ، فلحقَ بفارسيٍّ يحمي النَّاسَ ، فاقتتلا ، فقتله ؛ فوجدَ مع المقتولِ جنيبةً عليها عيبتانِ وغلافانِ ، في أحدهما خمسةُ أسيافٍ ، وفي الآخرِ ستةُ أسيافٍ ، وإذا في العيبتينِ أدراعٌ: درعُ كسرى ، ومغفرُهُ ، وساقاه ، وساعداه ، ودرعُ هرقل ، ودرعُ خاقانٍ ، ودرعُ داهرٍ ، ودرعُ بهرامِ شوبينٍ ، ودرعُ سياوخشٍ ، ودرعُ النُّعمانِ . وكانوا استلبوا ما لم يرثوا ، استلبوها أيَّامَ غاراتهم خاقانَ ، وهرقلَ ، وداهرَ ، وأمَّا النُّعمانُ وبهرامُ فحين هربا ، وخرجَا على كسرى .

* وأمَّا أحدُ الغلافينِ ، ففيه سيفُ كسرى ، وهرمز ، وقباز ، وفيروز ، فجاء به إلى سَعْدٍ ، فقال : اخترْ إحدىَ الأسيافِ ، فاخترَ منها سيفَ هرقلٍ ، وأعطاهُ درعَ بهرامٍ ، وأمَّا سائرُها فنفلَها في كتيبةِ الخرساءِ ، إلا سيفَ كسرى والنُّعمانِ ، فإنَّه بعثَ بهما إلى عمر مع حلِّي كسرى وثيابه وتاجه .

* ومن روائعِ البطولةِ القَعْقَاعِيَّةِ الفدَّةُ ، ما صنعه بطلنا صبيحةَ يومِ أغواثِ في القادسيَّةِ بالعراقِ ، إذ عهدَ إلى جنده أن يتقطَّعوا أعشاراً ، وهم ألفٌ ، فكلَّما بلغَ عشرةَ في سيرهم مدى البصرِ ، سرَّحوا في آثارهم عشرةَ . وقد أرادَ القَعْقَاعُ بهذا التَّصرُّفَ أن يوقَعَ الرُّعبَ في قلوبِ الفُرسِ .

* وتقدّم القعقاعُ في العَشْرَةِ الأولى ، وأتى الجيشَ ، فسَلَّمَ عليهم ، وبَشَّرَهم بوصولِ الجنودِ ، ثمَّ خطبَهم وحثَّهم وأمرهم أنْ يصنعُوا كما يصنعُ هو .

* ثمَّ تقدَّم إلى ساحةِ القتالِ ، ونادى : مَنْ يبارزُ؟ فقال فيه الجيشُ قولَ أبي بكر - رضي الله عنه - : لا يُهْزَمُ جيشٌ فيه القعقاعُ . وسكنُوا إليه ، فبرزَ إليه ذو الحَاجِبِ ، فسأله القَعْقَاعُ : مَنْ أَنْتَ؟

قال : أَنَا بِهِمَنْ جاذويه .

فنادى القعقاعُ بأعلى صوته : يالْثَارَاتِ أَبِي عُبيد ، وسليط ، وأصحابِ الجِسْرِ .

* واجتلدا ، ولم يمهله القعقاعُ حتَّى جندله وجعله كَأَمْسِ الدَّابِرِ ، واستبشَرَ النَّاسُ بقتلِ الحَاجِبِيِّ ، وانكسرت همَّةُ الفرسِ لذلك ، وتنشَّطَ المُسلمون .

* ثمَّ إِنَّ القعقاعَ نادى بأعلى صوته على الفرس : مَنْ يبارزُ؟ فخرجَ إليه رُجْلَان ، أحدهما البيرُزَانُ ؛ والآخرُ البندوان ؛ فانضمَّ إلى القعقاعِ الحارثُ بنَ ظبيان ، فبارزَ القعقاعُ البيرُزانَ فضربهُ ضربةً عظيمةً أطارَ بها رأسه ، وبارزَ ابنَ ظبيانَ البندوان فضربهُ أيضاً وأطارَ رأسه عن كتفيه .

* وحملَ القعقاعُ على صفوفِ الفرس وجعلَ يقولُ : يا معاشرَ المسلمين ؛ باثروهم بالسُّيُوفِ ، فَإِنَّمَا يُحْصَدُ النَّاسُ بها^(١) .

* واجتلدَ النَّاسُ ، وتحمَّسوا لكلامِ القعقاعِ ، وخرجوا من كلِّ ناحية ، وبدأت الحربُ والطَّعان ، وزادَ النَّاسُ نشاطاً أنْ لم يروا فيلَةَ الفرسِ بينهم ؛ وحملَ بنو عمِّ القَعْقَاعِ يومئذٍ عشرةً من الرِّجَالِ على إبلٍ قد ألبسوها ، فهيَ

(١) انظر : أيام العرب في الإسلام (ص ٢٧٨ و ٢٧٩) بتصرف .

مَجَلَّلَةٌ مَبْرَقَةٌ ، تشبهُ الفيلة ، ولقيَ أهلُ فارسٍ منَ الإبلِ يومَ أغواثِ الشَّدائدِ والأهوالِ .

* ومن شِدَّةِ احتدامِ الحربِ ونشاطِ المسلمينِ ، ظهرتْ همَّةُ النِّساءِ في ذلكَ اليومِ وفي تلكَ الحربِ الصَّاريةِ ، فقد روتِ المصادِرُ أنَّه قد ظَهَرَتْ امرأةٌ في المَيْدانِ من النَّخعِ ، كان لها بنونُ أربعةَ حضروا حربَ القادسيَّةِ ، فخطبتَ فيهمَ تحمَّسهم ، وتضري بخطاياها الجنودَ ، فقالت : أي بني ! إنَّكم أسلمتم فلمَ تبدُّلوا ، وهاجرتم فلمَ تثوبوا ، ولم تنبُ بكم البلادُ ، ولم تقحمكم السَّنةَ ، ثمَّ جئتم بأئكم عجزاً كبيراً ، فوضعتُموها بين يدي أهلِ فارسٍ ، واللهِ إنَّكم لبنو رجلٍ واحدٍ ، كما إنَّكم بنو امرأةٍ واحدةٍ ، ما خُنْتُ أباكم ، ولا فضحتُ خالكُم ، انطلقوا فاشهدوا أوَّلَ القتالِ وآخره ، وموتُوا كراماً^(١) .

* فأقبوا يشتدونَ ، فلمَّا غابوا عنها ، رفعتُ كفيَّها إلى السَّماءِ ، وهي تدعو اللهَ عزَّ وجلَّ وتقولُ في دعائها : اللهمَّ ادفعْ عن بنيّ ، ولا تجعلْ يومهم قَبْلَ يومِي .

* فرجعوا إليها بعد أنْ أبلوا بلاءَ حسناً ، وأحسنوا القتالَ ، ما كَلِمَ رجلٌ كَلِمًا واحدًا^(٢) .

(١) وَهَمَ كثيرٌ منَ الكتابِ والمؤرِّخينَ ، فنسبوا كلماتِ هذه العجوزِ النخعيَّةِ إلى الخنساءِ ، وقد أثبتنا بالدلائلِ القاطعةِ بطلانَ ذلك في كتابنا «نساء من المشرق العربي» ترجمة الخنساءِ ، ولا أدري منَ أين جاءَ وهْمٌ كثيرينَ فنسبوا ذلكَ للخنساءِ ، ومنهم مثلاً : صاحبُ كتابِ أعلامِ النساءِ انظر . (أعلامِ النساءِ ١/ ٣٦٨ و ٣٦٩)

(٢) من العجيبِ أنَّ الذين نسبوا الكلماتِ للخنساءِ ، جعلوا أبناءَها الأربعةَ يموتونَ شهداءَ في معركةِ القادسيَّةِ ، وكلَّ واحدٍ منهم يرتجزُ بضعةَ أبياتٍ ثمَّ يستشهدُ ، ويقولُ الرَّاوي : وعندما بلغها خبرُ استشهادِهِم قالت : الحمدُ لله الذي شرفني بقتليهم ، وأرجو من ربي أنْ يجمعني بهم في مستقرِّ رحمتِهِ . ثمَّ كان عمرُ بنُ الخطَّابِ - رضي =

* وبمثل هذه الشجاعة وهذا الإقدام زرع القعقاع روح البسالة في نفوس الناس ، فما أكرمه من فارس ! وما أعظمها من بطولة !! .

* لقد حمل القعقاع في يوم أغواث ثلاثين حملة ، كلما طلعت فرقة من الفرس حمل عليها ، وأصاب فيها حتى قتل ثلاثين فارساً ، وكان آخرهم : جهمر الهمداني^(١) .

* لقد كان قلب القعقاع وسيفه إلى لقاء العدو أسبق من الخيل التي يركبها ، وكانت مشاعره بواجب الجهاد أسرع من خطوات الطريق التي امتدت بعيدة بعيدة .

* فقد أنيطت بالقعقاع مسؤولية الإشراف على الشؤون العسكرية في الكوفة ، وحفظ الأمن بها ، وذلك في خلافة سيدنا عثمان بن عفان - عليه سحائب الرضوان - .

* وبعد اغتيال سيدنا علي بن أبي طالب - رضوان الله عليه - امتلكت القعقاع رغبة الاعتزال ، وأحب أن يعيش أيام ولحظات بطولته التي كان فيها مثلاً للقائد الجسور ، والفارس الشجاع ، والصوت المؤمن ، بعد أن خاض أشد المعارك ضراوة ، وسجل أروع الانتصارات ، وكان عند حد قول سيدنا أبي بكر - رضي الله عنه - : لا يهزم جيش فيه مثل القعقاع .

= الله عنه - يعطيها أرزاق أولادها الأربعة لكل واحد مئتي درهم حتى قبض . (أعلام النساء ١/ ٣٧٠) . وقد صححنا هذا المفهوم الخاطيء في كتابنا : «نساء من المشرق العربي» فليراجع ، وليتأكد القارئ هل كان للخنساء أربعة أولاد من رجل واحد؟ (١) قال ابن عساكر : كتب عمر إلى سعد - رضي الله عنهما - : أي فارس أيام القادسية كان أفرس ، وأي راجل كان أرجل ، وأي راكب كان أثبت؟ فكتب إليه : لم أر فارساً مثل القعقاع بن عمرو ، حمل في يوم ثلاثين حملة ، ويقتل في كل حملة كميّاً . (مختصر تاريخ مدينة دمشق ٩٠/ ٢١) . و«الكمي» : الشجاع المتكمي في سلاحه .

* لقد حفلت حياة القعقاع بأحداثٍ جسيمةٍ ، وحققت إنجازاتٍ خالدةً تمثلت في الأيّام التي خاضها ، واستطاع أن يسجلَ من خلالها أجملَ آياتِ البطولة في التاريخ الإسلامي والعربي ، بل وفي تاريخ الفتوحات .

* ومن الجدير بالذكر أنَّ القعقاعَ من الشعراء الفرسان الذين رسموا بطولاتهم في أشعارهم وأراجيزهم ومقطعاتهم ، فقد ذكرَ في أشعاره كثيراً من المواقع المهمة من مثل: ذات السلاسل ، والولجة ، والقادسية ، وجلولاء ، ونهاوند ، واليرموك ، وأغواث ، وغيرها من المواقع التي أبلى فيها البلاء الحسن والشجاعة المتميزة^(١) ، والمكيدة في الحرب^(٢) .

* ونلمح في شعر القعقاع جانباً آخر لا يقلُّ أهميّة عن ذكرِ المواقع ، وهو أسماءُ أعلامِ الفُرس الذين جندلهم وهزمهم وسقطوا في المعارك ، أو

(١) يُقال : الشجاعُ محبُّ حتى إلى عدوّه ، والجبانُ مبغضٌ حتى إلى أمّه .

(٢) المكيدة في الحرب والخداع من ألوانِ النجاح والظفر ، روي عن النبي ﷺ أنّه قال : «الحَرْبُ خُدْعَةٌ» - فتح الخاء وضمّها - . وكان ﷺ إذا غزا أخذَ طريقاً وهو يريدُ أخرى ويقولُ : «الحربُ خدعةٌ» .

* وكانَ مالكُ بنُ عبد الله الخثعمي وهو على الصّافّة - الجماعة تُقام وتُصنّف للحرب - يقوم في النَّاسِ ، إذا أرادَ أن يرحلَ ، فيحمدُ اللهَ ويثني عليه ، ثم يقولُ : إني داربٌ في الغداةِ دربَ كذا ، فتفرّقُ الجواسيسُ عنه بذلك ، فإذا أصبحَ سلكَ بالنّاسِ طريقاً غيرها ، فكانتِ الرُّومُ تسميه الثَّعلبَ . (نهاية الأرب ١٧٦/٦)

* وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه : عليكم في الحرب بالمكيدة ، فإنها أبلغُ من النجدة .
* وسئلَ بعضُ أهلِ التمرّس بالحروبِ : أيّ المكاييد فيها أخزمُ؟ فقال : إذكاءُ العيونِ - أي بثُّ الجواسيس - ، وإفشاءُ الغلبةِ ، واستطلاعُ الأخبارِ ، وإظهارُ السرورِ ، وإماتةُ الفرقِ - الخوف - ، والاحتراسُ من البطانةِ ، من غير إقصاءٍ لمستنصَح ، ولا استنصاحٍ لمستغشٍ ، وإشغالُ النَّاسِ عمّا هم فيه من الحرب بغيره . وقال حكيمٌ : اللطفُ في الحيلةِ أجدى الوسيلةِ ، وقيل : مَنْ لَمْ يتأملِ الأمرَ بعينِ عقلِهِ لم يَقَعْ سيفُ حيلتهِ إلّا على مقاتله ، والثَّبتُ يسهلُ طريقَ الرأي إلى الإصابة ، والعجلةُ تضمّنُ العثرة .

لأدوا بالفرار فكان منهم: الفيروزان ، ومهران ، وهرمز ، وقباد ، وقارن ، وكسرى ، وغيرهم كثيرون ، ممن كان يذكر من الفرس والأعاجم ، ولم يغفل الروم الذين قاتلهم في بلاد الشام .

* وكان القعقاع يستمدُّ مفاخره من ماضيه المشرق المتمثل بآبائه الصِّيد الذين عُرفوا بالمكارم ، وكان هذا كله يدفعه إلى أن يتحدث عن شجاعته وفروسيته .

* كما كان القعقاع مُعجباً بالفرسان والفروسيّة ، حتّى في الأحوال الاجتماعية ، كالزواج مثلاً ، فقد كان شديد الإعجاب بشجاعة بُكير بن عبد الله الليثي وفروسيته ؛ ففي قصّة أوردّها الطبري ، ومفادها أنّ أروى بنت عامر الهلاليّة أخت زوجه هُنيدة ، قد خطبها ثلاثة من أكابر القوم وذروة المجد ، وهم : بُكير بن عبد الله الليثي ، وعتبة بن فرقد السلمي ، وسماك بن خرشة الأنصاري ، فقالت أروى لأختها هُنيدة زوج القعقاع : استشيريني زوجك أيّهم يراه لنا . فكان رأيه يميل إلى الفارس الشجاع الذي اشتهر بساحات القتال ، وعُرف عند احتدام المعارك ، واشتجار الرماح ، وهو بكير الليثي ، ولذلك قال القعقاع لزوجته هُنيدة : سأصفهم في الشعر ، فانظري لأختك ، وأنشد :

إِنْ كُنْتَ حَاوَلْتَ الدَّرَاهِمَ فَانْكَحِي سِمَاكَ أَخَا الْأَنْصَارِ أَوْ ابْنَ فَرْقَدٍ
وَإِنْ كُنْتَ حَاوَلْتَ الطَّعَانَ تِيَمِّي بُكَيْرًا إِذَا مَا الْخَيْلُ جَالَتْ عَنِ الرَّدْيِ
وَكُلُّهُمْ فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ نَازِلٌ فَسَأْنَكُمْ إِنَّ الْبَيَانَ عَنِ الْغَدِ^(١)

* ومن هنا وصف ابن عساكر القعقاع بالفروسيّة ، وشهد له بجزالة الشعر وفحولته فقال : يُقال إنّ له صحبةً ، وكان أحد فرسان العرب

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٥٨١) .

الموصوفين ، وشعراءهم المعروفين ، شهدَ اليرموك ، وفتحَ دمشق ،
وشَهِدَ أَكْثَرَ وقائعِ أهلِ العراقِ معِ الفرسِ ، وكانت له في ذلك مواقفُ
مشكورةٌ ، ووقائعُ مشهورةٌ^(١) .

* وذكره ابنُ عبد البرِّ فقال عنه وعن أخيهِ عاصمٍ : هو أخو عاصمِ بنِ
عمرو التَّميمي ، وكان لهما البلاءُ الجميلُ ، والمقاماتُ المحمودَةُ في
القادسيَّةِ لهما ولهاشمِ بنِ عُتْبَةَ ، وعمرو بنِ معدي كرب^(٢) .
شَذَرَاتٌ مِنْ فُروسيَّتِهِ :

* شهدنا بعضَ ألوانِ فروسيَّةِ القَعْقَاعِ في يومِ أغواثَ ، ونعودُ الآنَ
لنشَهِدَ ضروباً من بطولتهِ وفروسيَّتِهِ في هذا اليومِ الأغرِّ المعطَّارِ ، فقد كانَ
القَعْقَاعُ يَكْبُرُ عندما كان يَرى جماعةً من أصحابِهِ ، ثم يَكْبُرُ المسلمونَ
بعده ، ويحملُ على الكفَّارِ ثم يحملونَ .

* ومن المطربِ والجميلِ في فروسيَّةِ فارسنا القَعْقَاعِ وصحبهِ يومِ
أغواثَ ، أنَّه قد حملَ بنو عمِّه عشرةَ عشرةَ على إبلٍ قد ألبسوها وهي
مجلَّلةٌ مبرقعةٌ ، وأطافَتْ بهم خيولُهم تحميهم ، وأمرهم القَعْقَاعُ أَنْ
يحملوها على خيلِ الفُرسِ يتشبَّهونَ بالفيلةِ ، ففعلوا بهم في هذا اليومِ ،
وهو يومُ أغواثَ - كما فعلتْ فارسُ يومَ أرماتَ - ، فجعلتْ خيلُ الفرسِ
تفرُّ منها ، وركبتها خيولُ المسلمين ، فلمَّا رأى النَّاسُ ذلك سُرُّوا بهم ،
فلقيَ الفرسُ يومَ أغواثَ أعظمَ ما لقيَ المسلمونَ من الفيلةِ يومَ أرماتَ .

وظلَّ القَعْقَاعُ وَمَنْ معه من فرسانِ المدرسةِ المحمديَّةِ العظيمةِ ، وأبطالِ
المسلمينِ يقاتلونَ يومَ أغواثَ وليلتهم ، حتى كانت ليلةُ أغواثَ تُدعى ليلةُ

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٨٨/٢١) .

(٢) الاستيعاب (١٥٩/٩) .

السَّوَاد ، وقد قَتَلَ المسلمون فيها عامَّةَ أَعْلَاجِ الْفُرسِ ، وعندما قَتَلَ الْقَعْقَاعُ
بزرجمهرَ الهمداني ارتجزَ فقال :

حَبَوُّهُ جَيَّاشَةً بِالنَّفْسِ هَدَّارَةً مِثْلَ شُعَاعِ الشَّمْسِ
فِي يَوْمِ أَغْوَاثِ قَلِيلِ الْفُرسِ أَنْخَسُ بِالْقَوْمِ أَشَدَّ النَّخْسِ
حَتَّى تَفِيضَ مَعْشَرِي وَنَفْسِي^(١)

* وفي يومِ عمواس أبدَعَ الْقَعْقَاعُ فِي فَنِّ الْفُروسِيَّةِ وَالْقِتَالِ أَيُّمَا إبداع ،
فكان يومها عقلاً مدبراً ، وفارساً مجرباً ، ورجلاً محنكاً ، ومؤمناً
حصيماً ، إذ استخدمَ ذكاءه في إهلاكِ الفيلةِ التي استخدمها الْفُرسُ في
حربِ المسلمين . واستطاعَ الْقَعْقَاعُ وأخوه عاصمُ بْنُ عمرو أَنْ يَضْعَا
رمحيهما في عينِ الفيلِ الأبيضِ ، فاضطربتْ صفوفُ الْفُرسِ ، وَكُتِبَ النَّصْرُ
لِلْمُسْلِمِينَ ، فَلِلَّهِ دُرٌّ أَبْطَالِ الْمُسْلِمِينَ حينَ هَزَّوا الْعَوَالِي وَالرِّمَاحَ وَصَدَّوا
الْعَدُوَّ!! . ولِلَّهِ دُرٌّ فَارسِ الْمَعَامِعِ وَالْوَقَائِعِ الْقَعْقَاعِ بْنِ عمرو الذي أَنشَدَ أَيْبَاتاً
فِي تِلْكَ الْوَقْعَةِ مِنْهَا :

فَإِنْ كُنْتُ قَاتِلْتُ الْعَدُوَّ فَلَلْتُهِ فَإِنِّي لَأَلْقَى فِي الْحُرُوبِ الدَّوَاهِيَا
فِيوَلَا أَرَاهَا كَاللِّيُوثِ مَغِيرَةً أَسْمَلُ أَعْيَاناً لَهَا وَمَاقِيَا^(٢)
* وفي لَيْلَةِ الْهَرِيرِ^(٣) ، أبلى الْقَعْقَاعُ أعْظَمَ الْبَلَاءِ ضِدَّ الْفُرسِ ، فكان

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٥٤٧) .

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٥٥٧) . وَمَنْ الْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ عَاصِمَ بْنَ عمرو أَخَا الْقَعْقَاعِ كَانَ
كَذَلِكَ بَطْلاً فَارِساً شَدِيدَ الْبَاسِ ، سَمَلَ عَيُونََ الْفِيلَةِ كَأَخِيهِ ، وَقَدْ اسْتَنْجَدَ سَعْدُ بْنُ
أَبِي وَقَاصٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْحَرْجَ بِمَهَارَةِ الْقَعْقَاعِ فِي تَخْلِيصِ
الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَدَى هَذِهِ الْفِيلَةِ ، الَّتِي لَمْ يَعْهَدْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ مِثْلَهَا ، حَتَّى وَقَّعَ
اللَّهُ الْقَعْقَاعَ لِهَذِهِ الْحِيلَةِ فِي الْقَضَاءِ عَلَيْهَا .

(٣) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (٢/ ٣٣٤) ، وَسَمِيَتْ لَيْلَةُ الْهَرِيرِ بِذَلِكَ ، لِتَرْكِ
الْكَلَامِ فِيهَا ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَهْرُونَ هَرِيرًا .

أَوَّلَ مَنْ زَاخَفَ الْفُرسَ ؛ وقالَ سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ - رضي الله عنه - عندئذٍ :
اللهم اغفر لها ، وانصره فقد أذنتُ له إذ لم يستأذني .

* وظلَّ القَعَقَاعُ والمسلمون يقاتلون طوالَ تلك الليلة ، وقد أفرغَ اللهُ الصَّبْرَ عليهم إفراغاً ، ولما مضى الليلُ ، وأسفرَ الصُّبْحُ ، انتمى النَّاسُ ، فاستدِلَّ بذلك على أنَّ المسلمين هم الأعلى ، وأنَّ المشركين هم الأسفلون ، وكان أوَّلُ شيءٍ سمعه نصفَ الليل الباقي صوت القَعَقَاعِ وهو يرتجزُ ويقولُ :

نحنُ قتلنا مَعْشَراً وزَئِداً أربعةً وخمسةً ووَاحِداً
تحسبُ فوقَ اللَّبَدِ الأوساودا حتَّى إذا ماتوا دعوتُ جَاهِداً
اللهَ ربِّي واختَرَزْتُ عَامِداً^(١)

* لقد كانَ القَعَقَاعُ - رضي الله عنه - فارسَ الوقائعِ ، وكان يسجِّلُ مآثره بأشعاره العذاب ، ومنها يومُ اليرموك ، ذلك اليوم المشهور في تاريخ المسلمين ، حيثُ أنشدَ قصيدةً قافيةً منها قوله هذه الأبيات :

أَلَمْ تَرْنَا على اليرْمُوكِ فُزْنَا كَمَا فُزْنَا بأيَّامِ العِراقِ
فَتَحْنَا قَبْلَهَا بُصْرَى وكانتُ محرَّمةَ الجَنَابِ لدى البَعاقِ
قتلنا الرُّومَ حتَّى ما تساوي على اليرموكِ ثُفُروقَ الوِراقِ

* وفي يوم دمشق قال :

أقمنا على داري سُلَيْمانَ أشهراً نُجَالِدُ رُوماً قد حمُوا بالصَّوارِمِ
لَمَّا رأوا بابي دمشقَ يجوزُهُم وتَدُمُرُ عَضُوا منهمُ بالأبَاهِمِ

* وقال في حمص الآخرة :

يدعون قَعَقَاعاً لكلِّ كَريهةٍ فيجيبُ قَعَقَاعٌ دعاءَ الهَاتِفِ

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٥٦٢) ، والكمال في التاريخ (٢/ ٤٨٠) .

سَرْنَا إِلَى حَمَصٍ نُرِيدُ عَدُوَّهَا سَيَرِ الْمُحَامِي مِنْ وِرَاءِ اللَّاهِفِ
حَتَّى إِذَا قُلْنَا دَنَوْنَا مِنْهُمْ ضَرَبَ إِلَهُ وَجُوهُهُمْ بِصَوَارِفِ

* وقال في الحيرة وما فعله المسلمون بها :

وَيَوْمَ أَحْطْنَا بِالْقُصُورِ تَتَابَعْتُ عَلَى الْحِيرَةِ الرَّوْحَاءِ إِحْدَى الْمَصَارِفِ
حَطَطْنَا مِنْهَا وَقَدْ كَادَ عَرْشُهُمْ يَمِيلُ بِهِ فِعْلُ الْجَبَانِ الْمُخَالِفِ

* وأشعارُ القعقاع في المعارك التي خاضها كثيرةٌ جداً ، وهي ماثلةٌ في
ثنايا المصادرِ ، وأعطافِ كتبِ الأدبِ ، والتَّاريخِ والتَّراجمِ ، وقد اخترنا
منها ما يفي بالغرضِ .

* وهكذا عاشَ القعقاعُ بنُ عمرو فارساً ألباً سعيداً وماتَ سعيداً وقد
شهدَ انتشارَ الإسلامِ في الشَّامِ والعراقِ وكثيرٍ من البلادِ ، فرحمَ اللهُ
القعقاعَ بنَ عمرو التَّميميَّ ورضيَ اللهُ عنه وجزاهُ عنِ المسلمينَ خيراً^(١) .

* * *

(١) لم تُشرِ معظمُ المصادرِ إلى سَنَةِ وِفَاةِ الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو ، غَيْرَ أَنَّ خَيْرَ الدِّينِ الزَّرْكَلِيَّ - رحمه الله - قال : توفي حوالي سنة (٤٠ هـ) . وقال : سكنَ الكوفةَ ، وأدركَ وقعةَ صفينَ ، فحضرَها مع عليٍّ ، وكان يتقلدُ في أوقاتِ الزَّينةِ سيفَ هرقل ، (مَلِكِ الرُّومِ) ، ويلبسُ درعَ بَهرام (مَلِكِ الفُرسِ) وهما ممَّا أصابَه مِنَ الغنائمِ في حربِ فارس . (الأعلام ٢٠١/٥ و ٢٠٢)



مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ

- * أمير فارس شجاع ، وأحد أفراد الدهر في الجود والسخاء ،
بل هو رأس الأسخياء بين أمراء عصره.
- * له مواقف كثيرة تشهد له بالكرم الأصيل ، والعطاء
الجزيل.
- * رثاه كثير من الشعراء ، وحزنوا لفقده.



شَرَفٌ عَلَى شَرَفٍ:

* قَالَ مروانُ بْنُ حَفْصَةَ يَمْتَدِحُ فَارِسَ حَلَقَتِنَا؛ وَكَانَ قَدْ قَصَدَهُ مِنَ الْيَمَامَةِ إِلَى الْيَمَنِ مِنْ قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ مِنْهَا:

لَوْلَا رَجَاؤُكَ مَا تَخَطَّطْتُ نَاقَتِي عَرَضَ الدَّيْلِيلِ وَلَا قُرَى نَجْرَانِ
مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ الَّذِي زِيدَتْ بِهِ شَرَفًا عَلَى شَرَفِ بَنِي شَيْبَانَ
إِنْ عُدَّ أَيَّامُ الْفَعَالِ فَإِنَّمَا يَوْمَاهُ يَوْمٌ نَدَى وَيَوْمٌ طِعَانٍ^(١)

* وَقَالَ مروانُ أَيْضًا يَمْدَحُهُ:

قَدْ أَمَنَّ اللَّهُ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ عَدَمٍ مَنْ كَانَ مَعْنٌ لَهُ جَارًا مِنَ الزَّمَنِ
مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ الْمُوفِي بَدَمَّتِهِ وَالْمُشْتَرِي الْمَجْدَ بِالْغَالِي مِنَ الثَّمَنِ
يَرَى الْعَطَايَا الَّتِي تَبْقَى مُحَامِدُهَا غُنْمًا إِذَا عَدَّهَا الْمُعْطِي مِنَ الْغَبَنِ
بَنَى لَشَيْبَانَ مَجْدًا لَا زَوَالَ لَهُ حَتَّى تَزُولَ ذُرَا الْأَرْكَانِ مِنْ حَضَنِ^(٢)

* نَعَمْ فَهَذَا فَارِسٌ مِنْ فُرْسَانَ الْعَرَبِ الشُّجْعَانَ ، وَهُوَ أَحَدُ أَفْرَادِ الدَّهْرِ فِي مِيدَانِ الْفُرُوسِيَّةِ وَالسَّخَاءِ ، إِنَّهُ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَبُو الْوَلِيدِ الشَّيْبَانِي^(٣) ، أَمِيرُ الْعَرَبِ ، وَأَحَدُ أَبْطَالِ الْإِسْلَامِ ، وَعَيْنُ الْأَجْوَادِ ، وَرَأْسُ

(١) انظر: شعر مروان بن أبي حفصة (ص ١٠٦) ، والقصيدة تعدُّ (٢١ بيتًا) ، ومعنى «خَطَّطْتُ»: تجاوزت. «الدَّيْلِيلُ»: موضعٌ يتأخَّمُ أعراضَ اليمامة. «نجران»: من مخاليف اليمن. «النَّدَى»: الجود.

(٢) المصدرُ السَّابِقُ عَيْنُهُ (ص ١٠٩) ، و«الْعَدَمُ»: الْفَقْرُ. و«الجور»: الظُّلْمُ. و«الذِّمَّةُ»: الْعَهْدُ. و«الْغُنْمُ»: الْغَنِيمَةُ وَالْخَيْرُ وَالنِّمَاءُ. و«الغبن»: التَّقْصُصُ أَوِ الْجَهْلُ أَوِ الْغَفْلَةُ. و«حَضَنَ»: جَبَلَ بِأَعْلَى نَجْدٍ.

(٣) تاريخ بغداد (١٣/٢٣٥ - ٢٤٤) ، وسير أعلام النبلاء (٧/١٩٧ و ١٩٨) ، والبداية والنهاية (١٠/٣٨ و ٧٦ و ١٠٩ و ١٥٤ و ١٧٩) ، ووفيات الأعيان (٥/٢٤٤ - ٢٥٤) ، وأمالِي الْمُرتَضَى (١/٢٢٢ - ٢٢٧) ، ونوادرُ المخطوطات (٢/١٩٥) ، والمستجد=

الأسخياء بين أمراء عَصْرِهِ ، وفرسانِ دَهْرِهِ .

* كَانَ جَوَاداً شَجَاعاً ، جَزَلَ الْعَطَاءَ ، كَثِيرَ الْمَعْرُوفِ ، مَمْدَحاً مقصوداً ، وَكَانَ مِنْ صَحَابَةِ الْمَنْصُورِ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيِّ بِبَغْدَادَ لَمَّا بَنِيَتْ ، وَكَانَ سَمُحاً جَوَاداً ، مِنْ مَشَاهِيرِ أَجْوَادِ الدُّنْيَا وَأَسْخِيائِهِمْ وَكِرْمَائِهِمْ . وَلَهُ يَقُولُ مِرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ يَذْكُرُ جَوْدَهُ وَشِمَائِلَهُ مِنْ بَائِيَةِ حُلُوةٍ مِنْهَا هَذِهِ الْأَبْيَاتُ :

كَفَى الْقَبَائِلَ مَعْنُ كُلِّ مَعْضَلَةٍ يُحْمَى بِهَا الدِّينُ أَوْ يُرْعَى بِهَا الْحَسَبُ
كَنَزُ الْمَحَامِدِ وَالتَّقْوَى دِفَاتِرُهُ وَلَيْسَ مِنْ كَنْزِهِ الْأَوْرَاقُ وَالذَّهَبُ
إِنَّ الْفَوَارِسَ مِنْ شِيْبَانٍ قَدْ عُرِفُوا بِالصِّدْقِ إِنْ نَزَلُوا وَالْمَوْتِ إِنْ رَكَبُوا
قُلْ لِلْجَوَادِ الَّذِي يَسْعَى لِيَدْرِكَهُ أَقْصَرَ فَمَا لَكَ إِلَّا الْفَوْتُ وَالطَّلَبُ^(١)

* كَانَ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ فِي أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةَ مُتَنَقِّلاً بَيْنَ الْوَلَايَاتِ ، وَمُنْقَطِعاً إِلَى يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيِّ^(٢) أَمِيرِ

= مِنْ فَعَلَاتِ الْأَجْوَادِ (ص ٤ وَ ٧٤ وَ ١٧٥ وَ ١٨٦ وَ ١٩١ وَ ٢٠٠ وَ ٢٠١ وَ ٢٣٦ وَ ٢٥٢) ، وَالْعَبْرُ لِلدَّهْبِيِّ (٢١٧/١) ، وَقُطُوفُ الرِّيحَانِ (ص ٣١٨ - ٣٢٢) ، وَنَوَادِرُ الْخُلَفَاءِ الْمُسَمَّى : إِعْلَامُ النَّاسِ بِمَا جَرَى لِلْبِرَامِكَةِ مَعَ بَنِي الْعَبَّاسِ (ص ٢٧٦ - ٢٨٣) ، وَشَرَحَ دِيوَانَ مِرْوَانَ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ (انظر الفهارس) وَغَيْرَهَا .
(١) شَرَحَ دِيوَانَ مِرْوَانَ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ (ص ٢٠) وَالْقَصِيدَةُ عَشْرَةُ أَبْيَاتٍ . وَمَعْنَى «كَفَى» : أَغْنَى . وَ«الْمَعْضَلَةُ» : الْمَسْأَلَةُ الصَّعْبَةُ ، وَالْخَطَةُ الضَّيْقَةُ . «الْحَسَبُ» : الْفِعَالُ الْحَسَنُ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالْجُودِ وَحَسَنُ الْخُلُقِ وَالْوَفَاءِ . وَ«الشَّغْبُ» : تَهْيِيجُ الشَّرِّ .

(٢) يَزِيدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيِّ أَبُو خَالِدٍ ، أَمِيرُ الْعِرَاقَيْنِ لِمِرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأُمَوِيِّ ، كَانَ شَهْماً طَوِيلاً شَجَاعاً خَطِيباً مَفُوهً جَوَاداً ، مَفْرَطَ الْأَكْلِ ، وَلَمَّا تَوَاقَعَ هُوَ وَبَنُو الْعَبَّاسِ هَرَبَ إِلَى وَاسِطَ ، فَحَاصِرُوهُ بِهَا ، وَثَبَتْ مَعَهُ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ الشَّيْبَانِيُّ ، وَكَانَ أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ أَخُو السَّفَّاحِ يَعْتَبِرُهُ يَقُولُ : ابْنُ هُبَيْرَةَ يَخْنَدُقُ عَلَى نَفْسِهِ كَالنِّسَاءِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ابْنُ هُبَيْرَةَ أَنْ ابْرَزْ إِلَيَّ .

العراقيين^(١) ، ولما تملَّك آلُ العبَّاس ، وانتقلتِ الدَّولةُ إليهم ، وجرى ما جرى بينَ أبي جعفر المنصور ، وبينَ يزيد بن عمرو بن هُبيرة^(٢) ، من محاصرته بمدينة واسط ، ما هو مشهورٌ ومتعلِّمٌ في التَّاريخ ، أبلَى معنٌ يومئذٍ بلاءً حسناً ، فلما قُتلَ يزيد بن عمر رثاهُ معنُ رثاءً حاراً فقال:

أَلَا إِنَّ عَيْنًا لَمْ تَجِدْ يَوْمَ واسطٍ عَلَيْكَ بجاري دمعها لَجَمُودُ
عشيّةَ قامَ النَّائحَاتُ وشُقِّقَتْ جيوبٌ بأيدي مَأمٍ وخُدودُ
فإنْ تُمسِ مهجورَ الفِناء فَطالَما أقامَ بهِ بعد الوفودِ وفودُ

= فقال المنصورُ: خنزيرٌ قالَ لَأَسَدٍ: ابرزْ إليَّ ، فقال الأسدُ: ما أنتَ بكفءٍ لي قالَ الخنزيرُ: لأعرفنَّ السَّبَاعَ أَتُكَّ جَبْنَتْ. فقال الأسدُ: احتمالُ ذلكَ أيسرُ من تَلَطُّخِ براثني بدمِكَ ، ثمَّ أَمَنَهُ المنصورُ وغَدَرَ بِهِ وقالَ: لا يعزُّ مُلْكُ وأنتَ فيه. وقُتلَ ابنُ هُبيرةَ بواسط يومَ الإثنينِ لثلاثِ عشرةَ بقينَ من ذي القعدة سنة (١٣٢ هـ) وأخبارُهُ ومحاسنُهُ كثيرةٌ مشهورةٌ مشورةٌ في كتب التَّراجم والتَّواريخ.

(وفيات الأعيان ٦/٣١٣ - ٣٢١) و(شذرات الذهب ٢/١٤٨)

(١) «العراقان»: أو المِصران: الكوفةُ والبصرةُ. وأوَّلُ مَنْ جُمِعَ لَهُ المِصران: زيادُ بن أبيه ثم ابنه عُبيد الله ، ومصعبُ بنُ الزبير ، وبشرُ بنُ مروان ، والحجاجُ بنُ يوسف ، ويزيدُ بن المهلب ، ومسلمةُ بنُ عبد الملك ، وعمرُ بنُ هُبيرةَ الفزاري ، وخالدُ بنُ عبد الله القسري ، ويوسفُ بنُ عمر الثَّقفي ، وعبدُ الله بنُ عمر بن عبد العزيز ، ويزيدُ بنُ عمر بن هُبيرة ، ولم يُجْمَعْ العراقان لأحدٍ بعد هؤلاء. (المعارف ص ٥٧١)

(٢) لما حاصرَ المنصورُ ابنَ هُبيرة ، بعثَ إليه ابنُ هُبيرة: لأشهرنَّ امتناعك ولأعيرنَّك به. فقال المنصورُ: مثلُنَا كما قيل: إِنَّ خنزيراً بعثَ إلى الأسدِ وقال: قاتلني فقال الأسدُ: لَسْتُ بكفؤي ، ومتى قتلْتُكَ لم يكنْ لي فخرٌ ، وإنْ قتلْتُني لحقَّني وضمُّ عظيم.

فقال الخنزيرُ: لأخبرنَّ السَّبَاعَ بنكولك.

فقال الأسدُ: احتمال العارِ في ذلكَ أيسرُ من التَّلَطُّخِ بدمك.

(التذكرة الحمدونية ٢/٤٩٧)

فإِنَّكَ لَمْ تَبْعُدْ عَلَى مَتَعَهْدٍ بَلَى كُلُّ مَنْ تَحْتَ التُّرَابِ بَعِيدٌ^(١)

* وخافَ معنٌ من أبي جعفر المنصور ، فاستترَ عنه مدَّةً من الزَّمانِ ، واختفى عن الأعينِ ، وكانَ الطَّلَبُ عليه حثيثاً ، وطُلِبَ في كُلِّ مَكَانٍ^(٢) .

* وجرىَ لمعنٍ في مدَّة اختفائه حوادثٌ وغرائب تستحقُّ التَّسجيلَ لجمالِها وطرافتها ، وها نحنُ مرسلو القولِ في بعضها لما فيها من فضائلَ لطيفةٍ ، وفوائدَ جليَّةٍ ، ودروسٍ وعبرٍ في دنيا الجوادِ والسَّخاءِ والفروسيَّةِ الحقَّةِ ، التي تفصحُ عن القوَّةِ الحقيقيَّةِ للمرءِ ، إذا ما تغلَّبَ على الأنانيَّةِ .
وهبْتُكَ لِنَفْسِكَ وَلِجُودِكَ الْمَأْثُورِ :

* هذه قصَّةٌ جميلةٌ مغناجٌ في محاسنِ الجودِ والسَّخاءِ ، حدثتْ لمعنٍ بنِ زائدة الشَّيباني ، وهي تُنبئُ عن فروسيَّةٍ عظيمةٍ في هذا الميدانِ . ودعونا نستمعُ إلى مَعْنٍ نفسه وهو يروي أحداثَ هذه القصَّةِ النَّادرةِ العجيبةِ لشاعره الأثيرِ مروانَ بنِ أبي حفصة ، حيثُ يقولُ مروان :

* أخبرني معنُ بنُ زائدة - وهو يومئذٍ متولِّي بلادَ اليمن - أنَّ الخليفةَ أبا جعفر المنصور قد جدَّ في طَلْبِي وطلَّبتِي ، وجعلَ لمن يحملُنِي إليه مالاَ جزيلاً ، وأعطياتٍ كثيرة .

* ولما علمتُ بشدَّةِ الطَّلَبِ وكثرةِ الطَّالِبين ، اضطررتُ لذلك أنْ تعرضتُ لِلشَّمْسِ حتَّى لوَحَتْ وَجْهي ، ثمَّ خَفَفْتُ عارضي ، ولبستُ جبَّةً صوفٍ ، وركبتُ جَمَلاً ، ومن ثمَّ خرجتُ متوجَّهاً إلى البادية كيما أقيم بها حتَّى يخفَّ عَنِّي الطَّلَبُ .

* وانتَهزتُ الفرصةَ ، وخرجتُ ذاتَ يومٍ من بابِ حَرْبٍ - أحدِ أبوابِ

(١) وتنسب هذه الأبيات لغيره .

(٢) وفيات الأعيان (٥/ ٢٤٥) ، وأمالِي المرتضى (١/ ٢٢٣) مع الجمع والتصرف .

بغداد - ، تبعني أسودٌ وهو متقلدٌ سيفاً حتى إذا ما غبت عن الحرسِ والنَّاسِ
والعامَّةِ ، أخذ بخطامِ الجَمَلِ ، ثمَّ أناخه ، وقبضَ على يدي ، فتوجَّستُ
منه خيفةً وقلتُ له : ما بك يا هذا؟

قال : أنتَ طلبُةُ أميرِ المؤمنين أبي جعفر المنصور .

فقلتُ : هداكَ اللهُ ، ومَنْ أنا حتَّى أُطَلَّبَ وأكونَ بغيةَ أميرِ المؤمنين
المنصور؟

فقال : أنتَ معنُ بنُ زائدة بن عبد الله بن زائدة الشَّيباني .

قلتُ له في هدوءٍ : يا هذا ، اتَّقِ اللهَ عزَّ وجلَّ ، وأينَ أنا من معنِ بنِ
زائدة الذي ترعُم؟!

فقال : دُعُ عَنْكَ هذا ، فواللهِ إني لأَعْرِفُ بكَ مِنْكَ ، فلا تُمارِ ، أو
تحاول الإنكار .

* ولما رأيتُ من هذا العبدِ الأسودِ الجِدَّ وعدمَ الهَزَلِ قلتُ له : يا وَجْهَ
الخيرِ ، هذا جوهرٌ ذو قيمةٍ عظيمةٍ قد حملتهُ معي ، وقيمتُهُ أضعافُ
ما جعله أبو جعفر المنصور لمن يجيئه بي ، فخذهُ ولا تكنُ سَبِيًّا في سَفَكِ
دمي .

قال : هايتِه ، قد قبلتُ ذلك مِنْكَ .

* فأخرجتُ إليه الجواهرَ والذَّهَبَ ، فنظرَ إليه ساعةً ، ثمَّ قال : صدقتَ
يا معنُ في قيمتهِ وثمنه ، ولستُ قابله حتَّى أسألكَ عن شيءٍ ، فإنَّ صدقتني
أطلقْتُكَ تذهبُ حيثما تريد . فقلتُ له والأملُ يتراقصُ أمامي وروحُ الحياةِ
قد رَدَّتْ لي : قلْ ما تشاء يا هذا؟

قال الأسودُ : إِنَّ النَّاسَ - على اختلافِ طبقاتِهِم - قد وصفوكَ بالجوْدِ
والسَّخاءِ والكرمِ والعطاءِ الذي ما بعده عطاءٌ أليسَ كذلكَ يا أبا الوليد؟

قلتُ : بلى يا وَجْهَ الْخَيْرِ .

قال : إِذَا ، أَخْبِرْنِي يَا مَعْنُ ، هَلْ وَهَبْتَ مَالَكَ كُلَّهُ قَطُّ فِي حَيَاتِكَ ؟

قلتُ : لا ، لَمْ أَهَبْ مَالِي ، وَلَمْ يَحْدُثْ ذَلِكَ .

قال : أَخْبِرْنِي ، هَلْ وَهَبْتَ ثُلْثَ مَالِكَ إِذَا ؟

قلتُ : لا ، وَلَا ثُلْثَ مَالِي .

وما زالَ معي حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرَ ، فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ لَهُ : أَظُنُّ أَنِّي قَدْ
فَعَلْتُ هَذَا مَرَّةً ، وَوَهَبْتُ عَشْرَ مَالِي لِأَحَدِ الْمَادِحِينَ .

قال الْأَسْوَدُ فِي هَدْوٍ : يَا مَعْنُ ، وَاللَّهِ مَا ذَاكَ بِعَظِيمٍ وَلَا كَبِيرٍ وَلَا كَثِيرٍ ،
وَأَنَا وَاللَّهِ رَاجِلٌ ، وَرَزَقِي مَنْ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ فِي كُلِّ شَهْرٍ عَشْرُونَ
دِرْهَمًا لَيْسَ غَيْرَ ، وَهَذَا الْجَوْهَرُ الَّذِي لَكَ بَيْنَ يَدَيِ قِيَمَتُهُ أَلُوفُ الدِّنانِيرِ ،
وَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكَ ، وَوَهَبْتَكَ لِنَفْسِكَ ، وَلِجُودِكَ الْمَأْثُورِ عَنْكَ بَيْنَ النَّاسِ ،
وَلِتَعْلَمَ أَنَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَنْ هُوَ أَجودُ مِنْكَ ، وَأَكْثَرُ سَخَاءً وَكِرَمًا وَشِجَاعَةً
نَفْسٍ ، فَلَا تَعْجَبْكَ نَفْسُكَ ، وَلِتُخَفِّرْ بَعْدَ هَذَا كُلِّ جُودٍ فَعَلْتَهُ ، وَلَا تَتَوَقَّفَ
عَنْ مَكْرَمَةٍ .

* ثُمَّ إِنَّ الْأَسْوَدَ رَمَى الْعِقْدَ فِي حِجْرِي ، وَتَرَكَ خَطَامَ الْجَمَلِ ، وَوَلَّى
مَنْصَرِفًا عَنِّي نَحْوَ بَغْدَادٍ ؛ فَقُلْتُ : يَا هَذَا ، قَدْ وَاللَّهِ فَضَحْتَنِي ، وَلَسَفَكَ دَمِي
أَهْوَنُ عَلَيَّ مِمَّا فَعَلْتَ ، فَخُذْ مَا دَفَعْتُهُ لَكَ ، فَإِنِّي غَنِيٌّ عَنْهُ ، وَلَسْتُ فِي
حَاجَةٍ إِلَيْهِ ، وَقَدْ خَرَجْتُ عَنْهُ لَكَ .

* فَضَحَكَ مِنْ قَوْلِي ، ثُمَّ قَالَ لِي : يَا مَعْنُ ، أَرَدْتُ أَنْ تَكْذِبَنِي فِي مَقَالِي
هَذَا ، وَاللَّهِ لَا أَخَذْتُهُ ، وَلَا أَخَذُ لِمَعْرُوفٍ ثَمَنًا أَبَدًا .

* ثُمَّ إِنَّ الْأَسْوَدَ مَضَى لِسَبِيلِهِ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ طَلَبْتُهُ وَبَحَثْتُ عَنْهُ بَعْدَ أَنْ
أُمْنْتُ ، وَبَذَلْتُ لِمَنْ يَجِيءُ بِهِ مَا شَاءَ ، فَمَا عَرَفْتُ لَهُ خَبْرًا ، وَكَأَنَّ الْأَرْضَ

قد ابتلعتة ، أو السَّمَاءَ قد اختطفته ، وخفي عني أثره وخبره^(١) .

فُروسيَّةٌ مَعْنُ يَوْمِ الْهَاشِمِيَّةِ :

* كان معنُ بنُ زائدةَ الشَّيباني أحدَ فرسانِ العربِ الشُّجعانِ والأشدَّاءِ في صَدْرِ الخِلافةِ العَبَّاسِيَّةِ ، وكان لفروسيتهِ وبطولتهِ مقامُ محمودٍ ، وغناءٌ معروفٌ إذا ادلَّهَمَ خطبٌ ، أو عَبَسَ أُمْرٌ ، أو حَزَمَ رأيٌ ، وكان مع هذا كلهَ مايزالُ متوارياً عن عينِ أبي جعفر المنصور ، مُستتراً عن أعوانِهِ الذين يرصدونهَ ويترصَّدونه ، فكان إذا خرجَ من مخبئه ، خرجَ متنكراً ، كيلا يرتابَ منه النَّاسُ ، أو يفطنَ له أحدٌ من القومِ .

* وفي شهرِ ذي القعدةِ من سنةِ (١٣٤ هـ) كان معنُ بنُ زائدةَ مايزالُ متوارياً مُستتراً ، لا يخرجُ إلَّا في غايةِ الحذرِ والحِيطَةِ ، ولكِنَّه كانَ واثقاً من تنكِّره ومن خروجهِ ودخولهِ ، فكانَ قريباً من مكانِ إقامةِ أبي جعفر المنصور ، يترقَّبُ الأخبارَ ، ويتعرَّفُ الأحوالَ ، ويلتقطُ شذراتٍ من حياةِ النَّاسِ ، حتى كان يومَ الهاشميةِ^(٢) ، فإنَّه خرجَ كعادتهِ متنكراً ، معتماً بعمامةٍ ، ملثماً لا يظهرُ منه سوى عَيْنَيْهِ تلوحانِ ، وتشهدانِ له بالشَّجاعةِ والبَسالةِ ، فنظرَ إلى القومِ الخراسانيَّةِ والرَّاونديَّةِ^(٣) ، وقد وثبوا على

(١) انظر: وفيات الأعيان (٥/٢٤٥ و ٢٤٦) ، والتذكرة الحمدونية (٢/٢٧٣ و ٢٧٤) مع الجمع والتصرف . وانظر: قطوف الريحان (ص ٣١٩) ، والأغاني (١٠/٨٨) ، والفرج بعد الشدة (٤/٥١ - ٥٣) ، ومحاضرات الأدباء (١/٥٨٨) ونهاية الأرب (٣/٢١١ و ٢١٢) .

(٢) «الهاشمية»: مدينة بناها أبو العباس السفاح بالقرب من الكوفة .

(٣) «الرَّاونديَّة»: في سنةِ (١٤١ هـ) خرجتُ على المنصور طائفةٌ يقالُ لها الرَّاوندية ، وأصلُهم منُ خراسانَ ، وهم على رأيِ أبي مُسلمٍ الخراساني يقولون بالتَّناسُخِ ، ويزعمون أنَّ ربَّهم الذي يطعمُهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور ، وأنَّ الهيثمَ بنَ معاويةَ هو جبريلُ - قَبَّحهم اللهُ وأخزاهم - .

أبي جعفر المنصور ، وكادوا يبطشون به ، فلما عاينَ معن ذلك طار صوابه ، وتقدّم إلى القوم الخراسانيين ، ومن ثمّ أخذ بلجام بغلة أبي جعفر المنصور ، وجعل يقاتلُ قدام المنصور قتالاً عجيباً أبان فيه عن نجدة وشهامة وفروسيّة ، وجعل يضربهم بسيفه ، ويرميهم بحملاته القوية حتى أفرجوا له ، وتفرّقوا عنه ، فكان النَّصْرُ على يده وهو مقنّع في الحديد .

* ولما أفرجَ عن المنصور ، قال هل : مَنْ أنت ويحك ، ومن تكون؟! !

= فاتوا يوماً قَصَرَ المنصور ، فجعلوا يطوفون به ويقولون : هذا قَصْرُ رَبِّنا ، فحبَسَ المنصورُ مئتين من رؤسائهم فغضبوا ، ثمّ ثاروا ودخلوا السَّجْنَ قَهراً واستخرجوا مَنْ فِيهِ مِنْ أصحابِهِمْ ، وقصدوا نحوَ المنصور وهم في ستمئة ، فتنادى النَّاسُ وغلقت أبوابُ البلدِ ، فخرجَ المنصورُ ، وركبَ دابةً ، وقصدَ نحوَ الرّاوندية ، وجاءَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ ناحية ، وجاءَ معن بنُ زائدة الشَّيباني ، فلما رأى المنصور ، ترجلَ وأخذَ بلجام دابةَ المنصور وقال : يا أميرَ المؤمنين ارجع ! نحنُ نكفيكهم ، فأبى وقامَ أهلُ الأسواقِ ، وجاءت الجيوشُ فحصدوهم عن آخرهم ، ولم يبقَ منهم بقيّة ، وكان كلٌّ ذلك بالمدينة الهاشمية من الكوفة .

ولما فرغَ المنصورُ مِنْ قتالِ الرّاوندية صلى الطَّهر ، ثمّ أتى بالطَّعام فقال : أينَ معن بنُ زائدة؟ وأمَّسَكَ عَنِ الطَّعامِ حتى جاءَ معنٌ فأجلسه إلى جنبه ، ثم أخذَ في شكره ، لما رأى مِنْ شهامته وفروسيّته يومئذٍ . فقال معنُ : والله يا أميرَ المؤمنين لقد جئتُ وإني لوجلٌ ، فلما رأيتُ استهانتك بهم ، وإقدامك عليهم ، قويَ قلبي واطمأنّ ، وما ظننتُ أنّ أحداً يكونُ في الحربِ هكذا ، فذاك الذي شجّعني يا أميرَ المؤمنين .

فأمَرَ له المنصورُ بعشرة آلاف ورضيَ عنه ، وولّاه اليمنَ ، لما رآه صدقَ في قتاله ، وعفا عنه بعد أن كانَ معنٌ مختفياً من المنصور مدّة .

ويقال : إنّ المنصورَ قال عن نفسه : أخطأتُ في ثلاث :

قتلتُ أبا مُسلم الخراساني وأنا في جماعةٍ قليلة .

وحينَ خرجتُ إلى الشَّام ، ولو اختلفَ سَيْفان بالعراقٍ لذهبتِ الخلافةُ .

ويومَ الرّاوندية لو أصابني سَهْمُ غَرْبٍ - طائشٍ - لذهبتُ ضياعاً .

وهذا مِنْ حزمه وصرامته . (البداية والنهاية (١/ ٧٥ و ٧٦) بتصرف

* فكشَفَ معنُ اللثامِ عن وجههِ وقال: أنا طلبْتُكَ معنُ بنُ زائدةَ الشَّيباني ، فَمُرْ أَمْرَكَ يا أمير المؤمنين ، فها أنا بينَ يديكَ ، وطوعَ أَمْرَكَ .

* فابتسمَ أبو جعفر المنصور وسُرَّ به ، وأَمَّنَه ، وقَدَّمَه ، وعظَّمَه ، وأكْرَمَه ، ثم كَسَاه ، وجعل له رتبةً ومرتبةً ، وصار من خواصِّه وقوَّاده ومقدميه ومُستشاريه ، ثم قَلَّده ولايةَ اليمنِ مكافأةً له ، وأحسنَ مَثواه^(١) .
مَعْنُ وَالْمَنْصُور :

* في حياةِ معنِ بنِ زائدةَ الشَّيباني مواقفٌ جميلةٌ رائعةٌ تدلُّ على كرمِ الأَصْلِ ، وطيبِ المَحْتَدِ ، وحسنِ المَخْبِرِ ، كما تَطَرَّبُ لها الأسماعُ ، وتلدُّ الأفواه بذكرِها وقراءتها .

* وهناك بعضُ الأخبارِ اللطيفةِ جَرَتْ لمعنٍ مع أبي جعفرِ المنصور ، تشيرُ إلى ذكائه وجوده ونُبْلِهِ .

* مِنْ ذَلِكَ أَنَّ معنًا دخلَ على المنصورِ في بعضِ الأيَّامِ ، فلما نظرَ إليه ، رَحَّبَ به وقال له : هِيَه^(٢) يا معن ! تعطي مروانَ بنَ أبي حفصةَ مئةَ ألفِ درهمٍ على أن قالَ لك :

معنُ بنُ زائدةَ الذي زِيدَتْ بِهِ شَرَفًا على شرفِ بنو شَيْبَانَ

(١) انظر : شذرات الذهب (١٩٢/٢) وغيره من مصادر عن الرَّاوندية . والرَّاوندية : نسبة إلى ريوند ، كورةٌ من نواحي نَيْسابور . (الأنساب ٦/٢١٢)

حدَّث أبو بكر الهذلي عن فسادِ معتقِدِ الرَّاوندية فقال : اطلَّعَ المنصورُ ، فقال رجلٌ إلى جانبي : هذاربُّ العِزَّةِ يطعمُنا ويرزُقُنا ! . (شذرات الذهب ٢/١٩٢)

(٢) «هِيَه» : هِيَه اسمُ صوتٍ لرجلٍ الحيوانِ مَبْنِيٍّ على الكسر لا محلَّ له من الإعرابِ ، وقد جعلَهَا بعضُهم اسمَ فعلٍ أمرٍ معناه الطَّلَبُ إلى محدِّثِكَ الاستِزادةَ في حديثه .

فقال معنٌ: كلا يا أمير المؤمنين ، لم أعطه لذاك ، وإنّما أعطيته على قوله:

مازلت يومَ الهاشميّة مُعلنًا بالسَّيفِ دونَ خليفةِ الرَّحمنِ
فمنعتَ حوزتَه وكنتَ وقاءَهُ من وقعِ كلِّ مهتدٍ وسِنانٍ
فقال له المنصور: أحسنت يا معنٌ . . . وزادك الله خيراً وجُوداً^(١).

* ويذكرُ الشَّريف المرتضى في «أمالیه» ، في خبرٍ آخر أنَّ معنًا دخلَ على المنصور ذات مرّة ، فقال له: ويلك يا معنٌ ، ما أظنُّ ما يُقال فيك من ظلمك لأهل اليمن ، واعتسافك إياهم إلا حقًّا!

قال معنٌ: وكيف ذاك يا أمير المؤمنين؟

قال: بلغني أنَّكَ أعطيتَ شاعراً كان يلزمك ألفي دينار ، وهذا من السَّرف الذي لا شيء مثله .

فقال معنٌ: يا أمير المؤمنين ، إنّما أعطيته من فضولِ مالي ، وغلّات ضياعي ، وفضلات رِزقي ، ثمَّ إنِّي كففتُه عن عرضي ، وقضيتُ الواجب من حقِّه عليّ ، وقصّده إليّ ، وملازمته لي .

قال: فجعلَ المنصور ينكتُ بقضيبٍ في يده الأرضَ ، ولم يعاوده القول^(٢).

(١) انظر: أمالي المرتضى (١/٢٢٤) ، ووفيات الأعيان (٥/٢٤٦) مع الجمع والتصرّف . وانظر القصيدة كاملة في ديوان مروان . (ص ١٠٦ - ١٠٨)

(٢) انظر: أمالي المرتضى (١/٢٢٤) بتصرّف يسير . ومن الجدير بالذكر أنَّ المنصور كان قد أراد أن يقطع الحلف بين ربيعة واليمن ، فقلّد عقبة بن مسلم الهنائي اليمامة والبحرين والبصرة ، وقلّد معن بن زائدة الشيباني اليمن ، وبسط أيديهما في القتل ، وأخذ الأموال ، فأسرّع كلُّ واحدٍ منهما في قوم صاحبه ، وصارت بينهما الطوائل ، فانقطع الحلف . وكان عقبة ظالماً مهيباً ، فقتله رجلٌ من ربيعة في =

وممّا يُستجَادُ ذَكَرَهُ مِنْ فَعَلَاتِ الْأَجْوَادِ مِنْ مِثْلِ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ ، مَا جَاءَ أَنَّهُ دَخَلَ يَوْمًا عَلَى الْمَنْصُورِ وَقَدْ أَسَنَّ ، وَاشْتَغَلَ رَأْسُهُ شَيْبًا ، فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ: كَبُرْتَ يَا مَعْنُ؛ فَقَالَ: فِي طَاعَتِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ^(١).

فَقَالَ: وَإِنَّكَ لَجَلْدٌ.

فَقَالَ: عَلَى أَعْدَائِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ الْمَنْصُورُ: وَفِيكَ بَقِيَّةٌ..

قَالَ مَعْنُ: هِيَ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.

* وَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ يَوْمًا: يَا مَعْنُ ، مَا أَكْثَرَ وَقُوعِ النَّاسِ فِي قَوْمِكَ!

فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ:

إِنَّ الْعَرَانِينَ تَلْقَاهَا مُحَسَّدَةً وَلَا تَرَى لِلنَّاسِ حُسَّادًا^(٢)

= المسجد ، وَفُتِلَ مَكَانَهُ ، فَضُرِبَ بِهِ الْمِثْلُ فَقِيلَ: أَجْرًا مِنْ قَاتِلِ عَقْبَةٍ .
وَفُتِلَ مَعْنُ بَعْدَهُ غِيلَةً ، قَتَلَهُ قَوْمٌ مِنَ الْخَوَارِجِ ، وَهُوَ يَلِي طَبْرِسْتَانَ ، وَكَانَ قَدْ كَتَبَ إِلَى عَقْبَةٍ: كَفَّ حَتَّى أَكْفَ .
فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَقْبَةُ: لَا وَاللَّهِ أَوْتَعْلَمُ أَتَيْنَا أَسْبَقُ زَوَامِلَهُ إِلَى النَّارِ .

(جمهرة الأمثال ١/ ٢٧٤)

(١) وَفِيَاثُ الْأَعْيَانِ (٢٤٧/٥) ، وَسِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ (٩٧/٧ و ٩٨) ، وَالْمُسْتَجَادُ مِنْ فَعَلَاتِ الْأَجْوَادِ (ص ٢٥٢) . وَعُرِضَ هَذَا الْكَلَامُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ - زَاهِدِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فِي زَمَانِهِ - فَقَالَ: وَيَخَ هَذَا ، مَا تَرَكَ لِرَبِّهِ شَيْئًا .

(٢) قُطُوفُ الرِّيحَانِ (ص ٣٢١) . وَالْحَسَدُ مَرَضٌ عَظِيمٌ يَعْسُرُ عِلَاجُهُ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الْحَسُودَ لَا يَرْضِيهِ شَيْءٌ إِلَّا زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنِ الْمَحْسُودِ ، لِذَلِكَ قِيلَ: الْحَسُودُ غَضْبَانٌ عَلَى الْقَدْرِ ، وَالْقَدْرُ لَا يَعْتَبُهُ ، قَالَ مَنْصُورُ الْفَقِيهِ:

أَلَا قُلْ لِمَنْ بَاتَ لِي حَاسِدًا أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَاءْتَ الْأَدَبَ
أَسَاءْتَ عَلَى اللَّهِ فِي فَضْلِهِ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْضَ مَا قَدْ وَهَبَ
وَاقْرَأْ كِتَابَنَا «الْحَسَدَ» حَيْثُ تَجِدُ فِيهِ أَشْيَاءَ مُفِيدَةً بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

الجَوَادُ السَّخِيُّ الشُّجَاعُ:

* لمعن بن زائدة أخبار مطربة في السَّخَاءِ والكرم ، وفي البأس والشَّجَاعَةِ ، وله نظمٌ جَيِّدٌ^(١) ، وأشعارٌ جَيِّدَةٌ ، وأكثرها في الشَّجَاعَةِ والحماسة. وقد ذكره أبو عبد الله بن المنجم في كتاب «البارع» ، وأورد له عدَّةَ مقاطيع ، ومن ذلك قوله في خطاب ابن أخي عبد الجبار بن عبد الرحمن ، وقد رآه معنٌ يتبخترُ بين السَّماطين ، وكان قبل ذلك قد لقي الخوارج ، ففرَّ منهم ولم يعقب:

هَلَّا مَشَيْتَ كَذَا غَدَاةً لَقَيْتَهُم وَصَبَرْتَ عِنْدَ الْمَوْتِ يَا خَطَّابُ
نَجَّاكَ خَوَّارُ الْعَنَانِ كَأَنَّهُ تَحْتَ الْعَجَاجِ إِذَا اسْتَحْتَّ عَقَابُ
وَتَرَكْتَ صَحْبَكَ وَالرِّمَاحَ تَنُوشُهُمْ وَكَذَاكَ مَنْ قَعَدَتْ بِهِ الْأَحْسَابُ
* وَمِمَّا يَنْسَبُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ:

دَعَيْتَنِي أَنْفِقَ الْأَمْوَالَ حَتَّى أَعْفُ الْأَكْرَمِينَ عَنِ اللَّثَامِ^(٢)

* ومن بدائع روائع أخبار معن وشعره ، ما ذكره أبو عبيدة قال: وقف شاعرٌ بباب معن بن زائدة حَوْلًا لَا يَصِلُ إِلَيْهِ ، وكان معنٌ شديدَ الحجاب ، فلمَّا طَالَ مقامه ، سأل الحاجب أن يوصلَ له رُقْعَةً - وكان الحاجبُ حَدْبًا عليه - فأوصلَ الرُقْعَةَ ، فإذا فيها:

إِذَا كَانَ الْجَوَادُ لَهُ حِجَابٌ فَمَا فَضَّلُ الْجَوَادِ عَلَى الْبَخِيلِ؟
فَأَلْقَى مَعْنُ الرُّقْعَةَ إِلَى كُتَّابِهِ وَقَالَ: أَجِيبُوهُ عَنْ بَيْتِهِ؛ فَخَلَطُوا وَأَكْثَرُوا ،

(١) قالوا: السَّخِيُّ مَنْ كَانَ مُسْرورًا يَبْذُلُهُ ، مُسرِعًا بَعْطَائِهِ ، لَا يَلْتَمِسُ عَرْضَ دُنْيَا فَيَحْبِطُ عَمَلُهُ ، وَلَا طَلَبَ مَكَافَأَةٍ فَيَسْقُطُ شُكْرُهُ ، وَيَكُونُ مِثْلُهُ فِيمَا أُعْطِيَ مِثْلَ الصَّائِدِ الَّذِي يَلْقَى الْحَبَّ لِلطَّيْرِ ، لَا يَرِيدُ نَفْعَهَا ، وَلَكِنْ نَفْعَ نَفْسِهِ . (التذكرة الحمدونية ٢/ ٢٨٥ و٢٨٦).

(٢) انظر: نوادر الخلفاء المسمى إعلام الناس (ص ٢٢٧).

ولم يأتوا بمعنى ، فأخذ الرقعة وكتب فيها :

إِذَا كَانَ الْجَوَادُ قَلِيلَ مَالٍ وَلَمْ يُعْذَرْ تَعَلَّلَ بِالْحِجَابِ
فَقَالَ الشَّاعِرُ : إِنَّا لِلَّهِ ، أَيُّسِنِي مَنْ مَعْرُوفِهِ؟ ثُمَّ ارْتَحَلَ مَنْصَرَفًا ؛ فَسَأَلَ
مَعْنٌ عَنْهُ فَأُخْبِرَ بِانْصِرَافِهِ ، فَاتَّبَعَهُ بِعَشْرَةِ آلَافٍ وَقَالَ : هِيَ لَكَ عِنْدَنَا فِي كُلِّ
زَوْرَةٍ^(١).

* وشاعريَّةٌ مَعْنٍ ومقدرته على النَّظْمِ قد شَهِدَ له بها فحولُ شعراءِ
عَصْرِهِ ، من ذلك ما أورده الخطيبُ البغداديُّ قال : مدحَ مطيعُ بنِ إِيَّاسٍ
معنَ بنَ زائدةٍ ، فقال له معن : إِنْ شِئْتَ مدحتُكَ ، وَإِنْ شِئْتَ أَثَبْتُكَ ،
فاستحيا من اختيارِ الثَّوَابِ ، وكرةِ اختيارِ المدحِ وكتبَ إليه :

ثَنَاءٌ مِنْ أَمِيرٍ خَيْرُ كَسْبٍ لَصَاحِبٍ مَغْنَمٍ وَأَخِي ثَرَاءٍ
وَلَكِنَّ الزَّمَانَ بَرَى عِظَامِي وَمَا مِثْلَ الدَّرَاهِمِ مِنْ دَوَاءٍ
فَأَمَرَ لَهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ^(٢).

* وكان معنٌ يدركُ بواطنَ الكلامِ ، ويعرفُ مواقفه ، وينقدُ ما ضَعُفَ
منه ، أو ما وضعَ في غيرِ موضعه ، فقد وردَ أَنَّ حُسَيْنَ بنَ مطيرٍ - شاعرٌ من
مخضرمي الدَّولَتَيْنِ الأُمَوِيَّةِ والعباسيَّةِ - قد وفدَ على معنِ بنِ زائدةٍ لما وليَ
اليمنَ ، فلما دخلَ عليه أنشدهُ :

أَتَيْتُكَ إِذْ لَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ جَابِرٌ وَلَا وَاهِبٌ يُعْطِي اللَّهُمَّ وَالرَّغَائِبَا
فَقَالَ لَهُ معنٌ : يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ ، لَيْسَ هَذَا بِمَدْحٍ ، إِنَّمَا الْمَدْحُ قَوْلُ
نَهَارٍ بنِ تَوْسَعَةٍ فِي مَسْمَعِ بنِ مَالِكٍ بنِ مَسْمَعٍ :

قَلَّدَتْهُ عُرَا الْأُمُورِ نِزَارٌ قَبْلَ أَنْ يَهْلِكَ السَّرَاةُ الْبُحُورُ^{١)}

(١) تاريخ بغداد (١٣/٢٣٨).

(٢) انظر خزانة الأدب (٥/٤٥٥).

* وأخبارُ جُودٍ^(١) معن ، وأخبارُ شعره وفهمه للشعر تملأ الصَّفحات
بغررِ الفوائد ، ودررِ القلائد ، وتصلُّ النُّفوسَ ، وتهذَّبُ الطُّباعَ ؛ فقد كان
معنُ أجودَ العربِ ، وكان يقال : حدَّث عن معنٍ ولا حرج^(٢) . فما أجمل
الجُودَ وأكرمُ بالأجواد^(٣) .

(١) الظَّاهرُ - والله أعلم - أنَّ الجودَ سَجِيَّةٌ وفطرةٌ قد فطرَ اللهُ النَّاسَ عليها ، ومن ادَّعى
الجودَ ولم تكنْ فيه بذرةُ السَّخاءِ ، فإنَّ الأفعالَ ستفضُّحُه وتكشفُ أحوالَه ، وتنشرُ
مخبرَه .

فقد رُوي أنَّه عَظُمَ على طيءٍ موتُ حاتمٍ ، فادَّعى أخوه أنْ يخلِفَه ، فقالت له أمُّه :
هيهاتَ هيهاتَ ، فستانٌ ما بينَ خلقِكُما ، وضعتُه فبقي سبعةَ أيَّامٍ لا يرضعُ حتَّى
أَلْقَمْتُ أَحَدًا ثديي طفلاً منَ الجيرانِ ، وكنتَ أنتَ راضعاً أحدهُما وآخذاً الآخرَ
بيدِكَ ، فأتَى لك؟!

(٢) انظر : المعارف (ص ٣١٤) .

(٣) حقيقةُ الجودِ بذلُ المالِ ، قال ربُّنا عزَّ وجل : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾
[آل عمران : ٩٢] ، فالجودُ منُ جودِ اللهِ تعالى ، ومَنْ جَادَ فَإِنَّ اللهَ يَجُودُ عليه ،
والسَّخَاءُ منَ الإيمانِ ، والإيمانُ في الجَنَّةِ .

قال عليُّ بنُ عبد الله بنِ عباس : سَادَةُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا الْأَسْخِيَاءُ .

وقال بعضُ الحكماء : الجوادُ مَنْ جَادَ بِمالِهِ وصَانَ نَفْسَهُ عَنْ مالٍ غَيْرِهِ .

وقيل لعمر بن عبيد : ما الكرمُ ؟ فقال : أَنْ تَكُونَ بِمالِكَ مَتَبَرِّعاً ، وعن مالٍ غَيْرِكَ
مَتَوَرِّعاً .

ويقال : مراتبُ السَّخَاءِ ثلاثة : سخاءٌ ، وجودٌ ، وإيثار .

فالسَّخَاءُ إعطاءُ الأقلِّ ، وإمساكُ الأكثرِ .

والجودُ إعطاءُ الأكثرِ وإمساكُ الأقلِّ .

والإيثارُ إعطاءُ الكلِّ من غيرِ إفساكٍ بشيءٍ ، وهو أشرفُ درجاتِ الكرمِ ، وبه استحقَّقوا
ثناءَ اللهِ عزَّ وجلَّ فيهم في قوله : ﴿ وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾
[الحشر : ٩] . فالجودُ زكاةُ السَّعَادَةِ ، والإيثارُ على النَّفسِ موجبٌ لاسمِ الكرمِ .

وقال عليُّ بنُ الحسين : الكريمُ يبتهجُّ بفضله ، واللَّيِّمُ يفتخرُ بمالِهِ .

وقال الحسين بنُ علي - رضي الله عنهما - : مَنْ جَادَ سَادَ ، وَمَنْ بَخَلَ رَذُلَ ، وَإِنَّ
أَجُودَ النَّاسِ مَنْ أَعْطَى مَنْ لَا يَرْجُوهُ .

* ومن أخبارٍ وذَكَاءٍ معنيٍّ ما رواه عمر بنُ شُبَّة قال: اجتمعَ عند معنِ بنِ أبي زائدة ، ابنُ أبي عاصية ، وابنُ أبي حفصة ، والضَّمريِّ ، فقال: لينشدني كل واحدٍ منكم أمدحَ بيتٍ قال فيَّ ، فأنشدهُ ابنُ أبي حفصة:

مَسَحَتْ رِيبَهُ وَجْهَ معنٍ سَابِقاً لَمَّا جَرَى وَجَرَى ذَوو الْأَحْسَابِ
خَلَّى الطَّرِيقَ لَهُ الْجِيَادُ قَوَاصِراً مَنْ دُونِ غَايَتِهِ وَهَنَّ كَوَابِي

فقال له معنٌ: الجود يعثرُ ، فيُمسح وجهه من العثارِ والغبار وغيرهما .
وأنشده الضَّمريُّ :

أَنْتَ امْرُؤٌ هَمَّكَ المَعَالِي ودلو معروفك الرِّيعُ
وَشَأْنُكَ الحَمْدُ نَشْتَرِيهِ يَشِيعُهُ عَنْكَ مَا يُشِيعُ

فقال له: ما أحسنَ ما قُلْتَ! إِنْ أَتَاكَ لَمْ تُسَمِّنِي وَلَمْ تَذَكِّرْنِي ، فمن شاء انتحله ؛ وأنشده ابنُ أبي عاصية :

إِنْ زَالَ معنُ بنِي زِيَادٍ لَمْ يَزَلْ لِنَدَى إِلَى بَلَدٍ بَعِيرُ مُسَافِرٍ
فَفَضَّلَهُ عَلَيْهِمُ ^(١) .

= وقيل ليزيد بن معاوية: ما الجود؟ قال: أَنْ تَعْطِيَ المَالَ مَنْ لَا تَعْرِفُ ، فَإِنَّهُ لَا يَصِيرُ إِلَيْهِ حَتَّى يَتَخَطَّى مَنْ تَعْرِفُ .
وقيل: الجود أنصرُ من الجنود ، وَمَنْ بَخَلَ بِمَالِهِ سَمَحَ بِعَرَضِهِ .
وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه: لو لَمْ يَكُنْ فِي الكَرَمِ إِلَّا أَنَّهُ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، تَسْمَى بِهَا فَهُوَ الكَرِيمُ عَزَّ وَجَلَّ . وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٍ فَأَكْرَمُوهُ» .
وقيل لعبدِ اللَّهِ بنِ جعفر: إِنَّكَ قَدْ أَسْرَفْتَ فِي بَذْلِ المَالِ . قال: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ عَوَّدَنِي بِعَادَةٍ أَنْ يُفَضَّلَ عَلَيَّ ، وَعَوَّدْتَهُ أَنْ أَتَفَضَّلَ عَلَى عِبَادِهِ ، وَأَخَافُ أَنْ أَقْطَعَ العَادَةَ فَيَقْطَعَ عَنِّي .
(١) انظر: أمالي المرتضى (١/٢٢٦) .

* وذكر الصَّاحِبُ بْنُ عِبَادٍ^(١) ، أَنَّهُ قرأَ في أخبارِ معنِ بنِ زائدة الشَّيباني: أَنَّ رجلاً قال له: احملني أيتها الأمير ، فأمرَ له بناقةً وفرسٍ وبغلٍ وحمارٍ وجاريةٍ ثمَّ قال: لو علمتُ أَنَّ اللهَ سبحانه وتعالى خلقَ مركوباً غيرَ هذا لحملتُك عليه ، وقد أمرنا لك مِنَ الخَزْرِجُجَةِ ، وقميصٍ وعمامةٍ ودَّرَاعَةٍ وسراويلٍ ومنديلٍ ومُطْرَفٍ ورداءٍ وكساءٍ وجوربٍ وكيسٍ ، ولو علمنا لباساً آخرَ يتَّخذُ مِنَ الخَزْرِجِ لَأَعْطينَاكَ^(٢).

* وممَّا يُستَحلى ذِكْرُهُ ، وتُسْتَجلى محاسنُهُ ، ويستجَادُ تدوينُهُ ،

(١) الصَّاحِبُ بْنُ عِبَادٍ ، أَبُو القاسمِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي الحَسَنِ عِبَادُ بْنُ العَبَّاسِ الطَّالْقَانِي ، كَانَ نَادِرَةَ الدَّهْرِ ، وَأَعْجوبةَ العَصْرِ في فضائله ومكارمه وكرمه ، قال عنه الثَّعالبيُّ في «الْيَتِيْمَةِ»: لَيْسَتْ تحضُرُنِي عبارةٌ أَرْضَاهَا لِلإفصاحِ عن علوِّ محلِّه في العِلْمِ والأدبِ ، وَجَلَالَةِ شَأْنِهِ في الجودِ والكرمِ ، وتفردَهُ بالغاياتِ في المحاسنِ ، وجمعه أَشْثَاتُ المفاخرِ ، لِأَنَّ هَمَّةَ قَوْلِي تنخفُضُ عن بلوغِ أدنى فضائلِهِ ومعاليهِ ، وَجَهْدٌ وصفي يقصُرُ عن أيسرِ فواضلهِ ومَسَاعِيهِ.

* وقال أَبُو بكرِ الخَوَارزميُّ في حقِّه: الصَّاحِبُ نَشَأَ مِنَ الوِزَارَةِ في حَجْرِهَا ، ودَبَّ وَدَرَجَ مِنْ وَكْرِهَا ، وَرَضَعَ أَفَاوِيقَ دَرَّهَا ، وَوَرِثَهَا عَنْ آبَائِهِ ، كَمَا قال أَبُو سَعِيدٍ الرِّسْتَميُّ في حقِّه:

وَرِثَ الوِزَارَةَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ مَوْصُولَةَ الإِسْنَادِ بِالإِسْنَادِ
يُرَوِّي عَنِ العَبَّاسِ عِبَادٌ وَزَا رُثِيهِ وَإِسْمَاعِيلُ مِنْ عِبَادِ
* واجتمعَ عنده مِنَ الشُّعراءِ ما لَمْ يجتمعْ عند غيره ، ومدحُوهُ بغررِ المدائحِ ، وكانَ حَسَنَ الأجوبةِ سريعتها ، ونوادِرُهُ كثيرةً ، وله مصنفاتٌ تشهدُ بعلوِّ كعبه في العربيَّةِ ، وله رسائلٌ بديعة ، ونظمٌ جيّدٌ ، فمنه:

وَشَادِنِ جَمَالُوه تَقْضُرُ عَنْهُ صِفَتِي
أَهْوَى لَتَقْيِيلِ يَدِي فَقُلْتُ قَبْلَ شَفَتِي
وُلِدَ الصَّاحِبُ بْنُ عِبَادٍ سَنَةَ (٣٢٦ هـ) بِاصْطَخَر ، وتوفي سَنَةَ (٣٨٥ هـ) في الرِّيِّ ، وأخباره مشهورةٌ منشورةٌ في كُتُبِ الأدبِ والتَّراجمِ .

(وفيات الأعيان ١/ ٢٢٨ - ٢٢٣)

(٢) وفيات الأعيان (١/ ٢٢٩) ، والمستجد (ص ٢٣٦).

ويعذَّبُ تكرارُهُ ، وما ورد بأنَّ يحيى بنَ منصور الدُّهليَّ كان قد تنسَّكَ وتركَ
الشَّعرَ ، ولما وليَ معنُ بنُ زائدةَ اليمنَ ، بلغه أفعالُ معنٍ وجودُهُ وكرمهُ ،
فوفدَ إليه ومدَّحه ، فقال مروانُ بنُ أبي حفصةَ في ذلك :

لا تَعْدُمُوا رَاحَتِي مَعْنٍ فَإِنَّهُمَا بِالْجُودِ أَفْتَنَتَا يَحْيَى بنَ مَنْصُورٍ
لَمَّا رَأَى رَاحَتِي مَعْنٍ تَدْفَقَتَا بَنَائِلٍ مِنْ عَطَاءٍ غَيْرِ مَنْزُورٍ
أَلْقَى الْمُسُوحَ الَّتِي قَدْ كَانَ يَلْبَسُهَا وَظِلَّ لِلشَّعْرِ ذَا رَصْفٍ وَتَحْبِيرٍ^(١)

* وذكر مروانُ جودَ معنٍ وسخاءَهُ وشجاعته من قصيدةٍ عينيةٍ طويلةٍ منها :

وَمَا الْغَيْثُ إِذْ عَمَّ الْبِلَادَ بِصُوبِهِ عَلَى النَّاسِ مِنْ مَعْرُوفٍ مَعْنٍ بِأَوْسَعَا
لَهُ رَاحَتَانِ الْحَتْفُ وَالْغَيْثُ فِيهِمَا أَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ تَضُرَّ وَتَنْفَعَا
نَجِيبُ مَنَاجِبٍ وَسَيِّدُ سَادَةٍ ذُرَا الْمَجْدِ مِنْ فَرَعيْ نَزَارٍ تَفَرَّعَا^(٢)

* وتذكَّرُ المصَادِرُ وكتبُ الأَسْمَارِ والأدبِ أَنَّ معنَ بنَ زائدةَ أُتِيَ بثلاثمئةٍ
أسيرٍ ، فأمر بضربِ أعناقِهِمْ ، فقال له شابٌّ منهم : يا أخا بني شيبانَ ،
نناشدُكَ اللهَ ألا تقتلنا عطاشاً! .

فقال : اسقوهم ماءً .

فلما شربوا قال : يا أخا بني شيبانَ ، نناشدُكَ اللهَ أَنْ لا تقتلَ أضيافَكَ .

فقال : أطلقوهم^(٣) .

* ويروي التَّنُوخِيُّ هذه القِصَّةَ على النَّحْوِ الآتِي فقال : أُتِيَ معنُ بنُ زائدةَ
بأسرى ، فعرضَهُمْ عَلَى السَّيْفِ ، فقال له بعضهم : نحنُ أسراك أَيُّهَا الأميرُ

(١) انظر : ديوان مروان (ص ٥٧) ، والأغاني (١٠/ ١١٥) مع الجمع والتصرّف اليسير .

(٢) انظر : ديوان مروان (ص ٦٤ و ٦٥) والقصيدة تعد (٢٨ بيتاً) ومعنى : «الصُّوب» :

المطر . و«المعروف» : الجود . و«النَّجِيب» : الفاضل الكريم السَّخِي .

(٣) أمالي المرتضى المسمى غرر الفوائد ودرر القلائد (١/ ٢٢٦ و ٢٢٧) .

ونحنُ نحتاجُ إلى شيءٍ من الطعام ، فأمر لهم بذلك ، فأتي بأنطاع فبسطت وأُتي بالطعام ، فقال لأصحابه: أمعنوا في الأكل ، ومعنُ ينظرُ إليهم ويتعجبُ منهم ، فلما فرغوا من أكلهم قام فقال: أيُّها الأمير ، قد كُنَّا قَبْلُ أسراك ، ونحنُ الآن أضيافُك ، فانظرُ ماذا تصنع بأضيافِك. فعفا عنهم وخلقُ سبيلهم. فقال له بعضُ مَنْ حضرَ: ما ندري أيُّها الأميرُ أيُّ يومينِكَ أشرف: يومُ ظفرك ، أو يومُ عفوك^(١)!

وذكرَ صاحبُ شرطة معنٍ قال: بينما أنا على رأسِ معن ، إذا براكبٍ يوضع ، فقال معنُ: ما أحسبُ الرجلَ يريدُ غيري ، ثمَّ قال لحاجبه: لا تحبِّبه ، فجاء حتَّى مثلَ بين يديه وقال:

أصلَحَكَ اللهُ قُلَّ ما بيدي فما أطيقُ العيالَ إذ كَثَرُوا
أَلَحَّ دَهْرٌ رَمَى بكَ كُلِّهِ فأرسلوني إليك وانتظروا
فقال معنُ وأخذته أريحيَّةٌ: لا جرمَ ، واللهِ لأعجلنَ أوبتكَ. ثمَّ قال:
يا غلام ، ناقتي الفُلانية ، وألف دينار ، فدفعها إليه وهو لا يعرفه^(٢).

* وأتى أعرابيٌّ إلى معنٍ ومعه نطعٌ فيه صبيٌّ حينَ ولد ، فاستأذنَ عليه ، فلما دخلَ دَهْدَه الصَّبي بين يديه وقال:

سَمَّيْتُ مَعْنًا بِمَعْنٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ هذا سمي فتى في النَّاسِ محمودُ
أَنْتَ الْجَوَادُ وَمَنْكَ الْجَوْدُ نَعْرِفُهُ ما مثلُ جودِكَ معهودٌ وموجُودُ
أَمَسْتُ يَمِينُكَ مِنْ جَوْدٍ مَصَوْرَةٍ لا بلْ يَمِينُكَ مِنْهَا صَوْرَ الْجَوْدِ

قال معن: كم الأبياتُ؟

(١) المستجاد من فعلات الأجواد (ص ١٩١).

(٢) تاريخ بغداد (٢٣٦/١٣) والتذكرة الحمادونية (٧٦/٢) ، وذكر ابنُ حمدون أنَّ القصةَ حدثت مع عمر بنِ هبيرة ، ثم نقل قولَ المبرد قال: بلغني أنَّ الخبرَ لمعن ، وذلك عندي أصح.

قال : ثلاثة .

قال : أعطوه ثلاثمئة دينار ، لو كنت زدت لزدناك .

قال : حَسْبُكَ^(١) ما سمعت ، وحَسْبِي ما أخذت^(٢) .

* وذكر التَّنُوخِي أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ عَلَى بَابٍ مَعْنٍ مَدَّةً لَا يَصِلُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا

طال مقامه ، كَتَبَ إِلَيْهِ رَقْعَةً فِيهَا :

فَمَا فِي يَدَيْكَ الْخَيْرُ يَا مَعْنُ كُلَّهُ وفي الأرضِ أسبابٌ وفيها مَذاهُبٌ
سَتَأْتِي بَنَاتُ الْعُمَرِ مَا أَنْتَ صَانِعٌ إذا فُتِّشَتْ عِنْدَ الْإِيَابِ الْحَقَائِبُ

(١) «حَسْبُكَ» : حَسْبٌ ، تكون :

١ - بمعنى «كفاية» ، فلا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا مُضَافَةً ، وتُعْرَبُ حَسَبَ مَوْقِعِهَا فِي الْجُمْلَةِ ، فتَأْتِي نَعْتًا كَمَا فِي قَوْلِكَ : «مَرَرْتُ بِتَلْمِيزٍ حَسْبُكَ مِنْ تَلْمِيزٍ» . وَحَالًا نَحْوُ : «هَذَا عَبْدُ اللَّهِ حَسْبُكَ مِنْ مَجْتَهِدٍ» . ومبتدأ نحو قوله عز وجل : ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ [المجادلة : ٨] . واسمًا للتَّوَاسُخِ نحو قوله عز وجل : ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ [الأنفال : ٦٢] . الخ . . .

وَمِنْ التَّرَاكِبِ الشَّائِعَةِ : حَسْبِي اللَّهُ ، وبحسب الله ؛ ويُعْرَبُ التَّرَكِيبُ الْأَوَّلُ كَالثَّانِي : «حَسْبِي» : مبتدأ مرفوعٌ بِالضَّمَّةِ الْمَقْدَرَةِ عَلَى مَا قَبْلَ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ مَنَعَ مِنْ ظَهْوَرِهَا اشْتِغَالُ الْمَحَلِّ بِالْحَرَكَةِ الْمُنَاسِبَةِ لِلْيَاءِ ، وهو مضافٌ . والياءُ ضميرٌ متصلٌ مبني على السَّكُونِ فِي مَحَلٍّ جَزْءٍ بِالْإِضَافَةِ . «الله» : لَفْظُ الْجَلَالَةِ خَبِرٌ مَرْفُوعٌ بِالضَّمَّةِ لَفْظًا وَيُعْرَبُ التَّرَكِيبُ الثَّانِي كَالثَّانِي : «بِحَسْبِي» : الباءُ حرفٌ جزَ زائدٌ مبنيٌّ عَلَى الْكُسْرِ لَا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الْإِعْرَابِ . «حَسْبِي» : مبتدأ مرفوعٌ .

٢ - بمعنى «لا غير» ، فتَبْنَى عَلَى الضَّمِّ وَتُعْرَبُ نَعْتًا إِذَا كَانَ الْاسْمُ قَبْلَهَا نَكْرَةً نَحْوُ : رَأَيْتَ تَلْمِيزًا حَسْبَ . وَحَالًا إِذَا كَانَ الْاسْمُ قَبْلَهَا مَعْرِفَةً ، نَحْوُ : شَاهَدْتُ زَيْدًا حَسْبَ . و«حَسْبَ» : فِي الْمِثَالِ الْأَوَّلِ اسْمٌ مَبْنِيٌّ عَلَى الضَّمِّ فِي مَحَلٍّ نَصْبٍ صِفَةً لـ : زَيْدًا . و«حَسْبَ» : فِي الْمِثَالِ الثَّانِي اسْمٌ مَبْنِيٌّ عَلَى الضَّمِّ فِي مَحَلٍّ نَصْبٍ حَالٍ . وَقَدْ تَرَادَّدَ عَلَيْهَا الْفَاءُ نَحْوُ : نَجَحَ الطَّالِبُ فَحَسْبُ .

فَالْفَاءُ حَرْفٌ زَائِدٌ مَبْنِيٌّ عَلَى الْفَتْحِ لَا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الْإِعْرَابِ .

وحسبُ : اسمٌ مبنيٌّ عَلَى الضَّمِّ فِي مَحَلٍّ رَفْعٍ نَعْتٍ .

(٢) تاريخ بغداد (١٣/ ٤٢٠) .

وَوَكَل مَنْ يوصلها إليه وسار ، فلما وصلت إليه وقرأها ، أمر برده وقال : والله ليفتش عن خير كثير ، وأمر فمئنت حقيته دراهم^(١) .

* ومن اللطائف «المعينة» - نسبة إلى معن - في رحاب الجود ما أورده الأتليدي في «نواده» قال : كان معن بن زائدة في بعض صيوده ، فعطش فلم يجد مع غلمانه ، فبينما هو كذلك ، وإذا بثلاث جوار قد أقبلن حاملات ثلاث قرب ، فسقيته ، فطلب شيئاً من المال مع غلمانه فلم يجده ، فدفع لكل واحدة منهن عشرة أسهم من كنانته نصولها من الذهب ، فقالت إحداهن : ويلكن ، لم تكن هذه الشمائل إلا لمعن بن زائدة ، فلتقل كل واحدة منكن شيئاً من الأبيات ، فقالت الأولى :

يُرْكَبُ فِي السَّهَامِ نُصُولَ تَبْرِ وَيَرْمِي لِلْعِدَا كَرَمًا وَجُودًا
فَللْمَرْضَىٰ عِلَاجٌ مِنْ جِرَاحٍ وَأَكْفَانٌ لِمَنْ سَكَنَ اللَّحُودَا

* وقالت الثانية :

وُمُحَارِبٌ مِنْ فَرَطِ جُودِ بَنَانِهِ عَمَّتْ مَكَارِمُهُ الْأَقَارِبَ وَالْعِدَا
صِيغَتْ نُصُولِ سَهَامِهِ مِنْ عَسَجِدٍ كِي لَا يَفُوتُهُمَا التَّقَارِبُ وَالنَّدَى

وقالت الثالثة :

وَمِنْ جُودِهِ يَرْمِي الْعِدَاةَ بِأَسْهُمٍ مِنَ الذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ صِيغَتْ نُصُولُهَا
لِيَنْفِقَهَا الْمَجْرُوحُ عِنْدَ انْقِطَاعِهِ وَيَشْتَرِي الْأَكْفَانَ مِنْهَا قَتِيلُهَا^(٢)

(١) انظر : المستجاد (ص ١٨٦ و ١٨٧) . ومعنى «بنات العمر» : أو بنات العم ، كبنات الدهر من اصطلاحاتهم ، وبنات الدهر : حوادثه ومصائبه ، أو الليالي والأيام . ويقول حاتم : «فدتك بنات الدهر أُمِّي وخالتي» . و«ليفتش» : الأولى ليتكشفن ، وتكشف : ظهر .

(٢) انظر : نوادر الخلفاء المسمى إعلام الناس (ص ٢٧٩) . والقصة - كما يراها القارىء الكريم - مصنوعة ومصوغة وموضوعة ، ولكن أثبتتها كاملة وحرفياً لطرافتها . ومن =

* ومن القصص الجميل الذي حُكي عن كريم الكرماء ، وفارس الأجواد في عَصْرِهِ معن بن زائدة ، والذي كان يُقال عنه : حدث عن البحر ولا حَرَج ، وعن معنٍ ولا حَرَج ، ما روي عن سخائِهِ وفراستِهِ ، أَنَّهُ جاءَهُ شاعرٌ ممن يؤمِّل جودَهُ ، فمُنِعَ من الدخول عليه مدّة من الزّمن ، ولم يتهيأ له الدّخول ، فلاحظ أَنَّهُ يخرج في رابعة النّهار يغتسلُ في بركةٍ بستانٍ له تغذّيها قنطرةٌ من خارج البُستان ، فكتبَ بيتاً في قطعةِ خشبٍ ، ثمّ رمّاها في القنطرة وقتَ وجودِ معنٍ في البركة ، فلمّا وصلتْ إليه قرأ ما كتب عليها ، فإذا هو مكتوبٌ فيها هذا البيت :

أيا جودَ معنٍ ناجٍ معنّاً بِحاجّتي فما لي إلى معنٍ سواكَ رسولُ

فخرجَ وجلسَ في مجلسِهِ ، وليس وقتَ جلوسٍ ، وقال : عليّ بناقشِ هذا البيت ، فتفرّقوا يطلبون الرّجلَ الشّاعرَ ، فأتوه به ، فقال له معنٌ : يا هذا ، رسولُكَ قد بلّغَ ، ما حملك على ما فعلتَ من الكتابةِ والنّقشِ على الخشبَةِ؟!

فقال الرجلُ: منذ سنّةٍ وأنا أحاولُ الدّخولَ عليك ، ومنعني من الانصرافِ الثّقّةُ بحصولِ مطلوبي^(١).

فأقسمَ معنٌ ألا يتّخذَ حاجباً بعدها ، وأعطاهُ ألفَ درهمٍ وجلسَ أربعينَ

= الملاحظ أنّ هذه القصّة من نَسَجِ أحدِ هُواة الأدبِ والقصّة والشّعْر ، ولكنّه هاوٍ لم يتقنَ حرفةَ الأدبِ إتقاناً صحيحاً ، حيثُ لغتُها ركيكةٌ وغيرُ قويّةٍ والحبكةُ فيها ضعيفةٌ هزيلةٌ ، ونظْمُ الشّعْرِ على لسانِ الجوارِ تظهرُ عليه فحولةُ الرّجالِ لا رقةُ النّساء ، ثمّ كيف يخرجُ معنُ الأميرِ الفارسِ إلى الصّيد ولا يأخذُ عبيدَهُ الماءَ ، بل كيف ينسى المالَ ولا ينسى نصالَهُ الدّهيةَ!!!؟... و...؟!

(١) انظر: قطوف الريحان (ص ٣٢١) ونوادر الخلفاء (ص ٢٧٦ و ٢٧٧) مع الجمع والتصرف ؛ وفي النفس شيء من هذه القصة وأمثالها.

يوماً ، كلما نظرَ إلى الخشبة يسألُ عنه ، فإذا حضرَ أعطاه ألفَ درهم ، فحسده بعضُ الناس وقال : لو اطلعَ أميرُ المؤمنين على ما أنفقَ معنُ من بيتِ المال عليك عزله واسترده منك ؛ فشرّدَ الرَّجلُ ، فلما كان اليوم الحادي والأربعون سألَ عنه فلم يُوجدْ ، فقال : سبحان الله لقد ظنَّ بنا غير الذي أردنا به ، والله لو مكثَ عمره لأعطيته ألفَ درهم كلما نظرتُ هذا البيت .

* وهناك قصصٌ شعريّة تحكي جودَ معنِ بنِ زائدة ، ولعلَّ معظم هذه القصص من نسجِ القصّاص ، وبعض المخلّدين في السُّجون ممن كانوا يحترفون صناعةَ الأدب .

* ومن تلکم القصص هذه القصة المشهورة المتعلّمة بين الناس والتي تحكي حلمَ معنٍ وتفصُّحَ عن جوده ، فقد ذكر «ديابُ الأيليدي» وغيره أنَّ معنًا كان لا يغيظُ أحداً ، ولا أحدٌ يغيظه ، فقال بعضُ السُّعراء : أنا أغيظُكم ، ولو كان قلبه من حَجَرٍ ، فراهنوه على مئةٍ بعير ؛ إنْ أغاظه أخذها ، وإنْ لم يُغيظه دفعَ مثلها .

* وعمدَ الرَّجل إلى جملٍ فذبّحه وسلّخه ، ولبسَ الجلدَ مثل الثَّوب ، وجعلَ اللحمَ من خارجٍ ، والشَّعرَ من داخلٍ ، والدُّباب يقعُ عليه ، ولبسَ برجليه نعلين من جلدِ الجملي ، وجعلَ اللحمَ من خارجٍ والشَّعرَ من ناحية رجله ، وجلس بين يدي معنٍ على هذه الصُّورة المشروحة^(١) ، ومدَّ رجله في وجهه وقال :

أَنَا وَاللَّهِ لَا أَبْذِي سَلاماً عَلَى مَعْنِ الْمَسْمَى بِالْأَمِيرِ

(١) لاحظِ الدَّجَلَ والكذبَ والسَّدَاجَةَ في هذا الكلام السَّخيف الذي يدلُّ على حماقة ناسجِهِ ، وعلى ضعف خياله ، فهل كانَ معنُ بنَ زائدة سهلَ الحجابِ والدَّخولِ عليه إلى هذا الحدِّ وبهذه الصُّورة ، ولو كانَ أحلمَ العرب ، ولكنَّ القصّاص والنَّساجون لهم أفانين في هذا المجال ليروِّجوا بضاعتهم الهزيلة .

فقال له معنٌ: السَّلامُ لله!! إِنْ سَلَّمْتَ رَدَدْنَا عَلَيْكَ وَإِنْ لَمْ تَسَلِّمْ مَا عَتَبْنَا عَلَيْكَ. فقال الشاعر:

وَلَا أَنْزِلْ بِلَاداً أَنْتَ فِيهَا وَلَوْ حُزَّتِ الشَّامُ مَعَ الثُّغُورِ
فقال له معنٌ: يا هذا ، البلادُ بلادُ الله عزَّ وجلَّ ، إِنْ نَزَلْتَ فمرحباً بك ، وَإِنْ رَحَلْتَ كَانَ اللهُ فِي عُونِكَ وفي ترحالك . فقال الشاعر وقد أراد أن يستفزّه:

وَأَرْحَلُ عَنْ بِلَادِكَ أَلْفَ شَهْرٍ أَجْدُ السَّيْرِ فِي أَعْلَى الْقُفُورِ
فقال له معنٌ: مصحوباً بالسَّلامة . فقال الشاعر - وقد أراد أن يغيّر موجة الإثارة كما زعموا -:

أَتَذَكِّرُ إِذْ قَمِصُكَ جَلَدَ شَاةٍ وَإِذْ نَعْلَاكَ مِنْ جُلْدِ الْبَعِيرِ
فقال له: أعرفُ ذلك وأذكرُهُ ولا أنكره . فقال الشاعر:
وَتَأْوِي كُلَّ مُضْطَبَّةٍ وَسُوقٍ بَلَا عَبْدٍ لَدَيْكَ وَلَا وَزِيرِ
فقال معنٌ: ما نسيْتُ ذلك يا أخا العرب . فقال الشاعر:

وَنَوْمُكَ فِي الشِّتَاءِ بَلَا لِحَافٍ وَأَكْلُكَ دَائِماً خُبْزَ الشَّعِيرِ
فقال: الحمدُ لله على كلِّ حال . فقال الشاعر:

وَفِي يَمْنَاكَ عَكَازٌ قَوِيٌّ تَذُودُ بِهِ الْكِلَابَ عَنِ الْهَرِيرِ
فقال له: ما خفي عليك خبرها إذ هي كعصا موسى عليه السَّلام . وتحير الشاعرُ من معنٍ وأسقطَ في يده ، فحاول أن يثيره من ناحيةٍ أخرى فقال:

فَسُبْحَانَ الَّذِي أَعْطَاكَ مُلْكاً وَعَلَّمَكَ الْقُعُودَ عَلَى السَّرِيرِ
فقال له معنٌ: بفضلِ الله لا بفضلِكَ . فقال الشاعر:

فَعَجَّلْ يَا بَنَ نَاقِصَةٍ بِمَالٍ فَإِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى الْمَسِيرِ
فأمر له معنٌ مئة دينار ، ولكنَّ الشاعر كانتِ السَّفاهة من عناوينِ إثارتِهِ

لمعن بن زائدة ، وعلى الرغم من أنه دعاه بـابن ناقصة ، لكن ذلك لم يُؤز
ولم يَغْضَبْ مَعْنًا ، هناك اندفع يقول :
قليل ما أمرت به فإني لأطمعُ منك الشيء الكثير
فأمر له بمئتي دينار أخرى ، فقال الشاعر :
فثَلثَ إذ ملكَت الملكَ رزقاً بلا عقلٍ ولا جاهٍ خطيرٍ
فأمر له بثلاثمئة دينار ، فقال الشاعر :
ولا أدبٍ كَسِبْتَ بهِ المعالي ولا خُلُقٍ ولا رأيٍ منيرٍ
فأمر له بأربعمئة دينار ، فقال الشاعر :
فمنك الجودُ والإفضالُ حقاً وفيضُ يدِيكَ كالبحر الغزير
فأمر له بخمسمئة دينار ، وما زال يطلبُ منه الزيادة حتى استكمل ألفي
دينار أخرى ، فأخذها وانصرف متعجباً من حلمٍ معنٍ وجوده وعدم انتقامه
منه ، ثم قال في نفسه : مثل هذا لا ينبغي أن يُهْجَى بل يُمدَح ، واغتسل
ولبس ثيابه ورجع إليه ، فسَلَّم عليه وامتدَحَه ، واعتذر له بأن الذي حمَلَه
على هجوه تلكم المئة بعير التي صار الرّهان عليها في نظير إغاضتِهِ ، فأمر له
بمئة بعير يدفعها في نظر الرّهان ، وبمئة بعيرٍ أخرى لنفسه ، فأخذها الرَّجُل
وانصرف مسروراً^(١).

(١) انظر: نوارد الخلفاء المسمّى إعلام الناس (ص ٢٨١ - ٢٨٣) ، وقطوف الريحان
(ص ٣٢٠) مع الجمع والتّصرف. وانظر: شذرات الذهب (٢/ ٢٣٨ و ٢٣٩)
والقصّة كما يراها القارئ الحبيب الكريمُ محبوبكة الصُّنْع ، حاول واضعها ومؤلفها
أن يجيّد قدر استطاعته في ترتيبها وصوغها وتركيبها ، ونحن بدورنا نشك في
صحتّها وحدوثها واستحالتها. فهي على الأغلب من وضع وصنّع السُّنَّار الذين
جعلوا من الأباطيل أسماراً يتحلّون بها في قطع أوقاتهم وأوقات النَّاس وتسلّيتهم ،
وزيادة رصيده آخر إلى كتب الأدب والأخبار ، وإلصاق قصّة إلى واحد من المشاهير
لتسير بين النَّاس ، مع ذكر المشوّقات والمثيرات. وقصّة معنٍ مع هذا الشاعر =

* ومما يُضافُ إلى رصيدِ معنِ بنِ أبي زائدة في ميدانِ الجودِ ، ما ذكره ابنُ مفلحٍ قال : قال معنُ بنُ أبي زائدةَ لرجلٍ من بني شيبان : ما هذه الغيبةُ المنسأةُ؟

قال : أبقي الله الأمير في نِعَمِ زائدة ، وكرامةٍ دائمة ، ما غابَ أيُّها الأميرُ عن العين مَنْ ذكره القلبُ ، وما زالَ شوقي إلى الأميرِ شديداً ، وهو دون ما يجب له عليّ وذكري له كثيرٌ ، وهو دون قَدْره عندي ، ولكنْ جفوةُ الحجابِ ، وقلةُ بَشَرِ الغلمانِ يمنعاني من الإتيانِ .
فأمرَ بتسهيلِ أمره ، وأحسنَ مثواه^(١) .

* وهكذا عَلِمَ معنٌ أنَّ الجودَ سيبقى وسيزول كلُّ شيءٍ ، والله درّ القائل :
كُلُّ الْأُمُورِ تَزُولُ عَنْكَ وَتَنْقُضِي إِلَّا الثَّنَاءَ فَإِنَّهُ لَكَ بَاقٍ
لَوْ أَنَّني خَيْرْتُ كُلَّ فَضِيلَةٍ مَا اخْتَرْتُ غَيْرَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ
* ومن القصصِ المغناجِ الذي يداعِبُ الخواطر والأحاسيسَ ، ويصقل الطِّباعَ ويَهْدِبُ النَّفُوسَ ، ويجلبُ الفائدةَ ، ما ورد أنَّ أبا جعفر المنصور لما ولَّى معن بن زائدة اليمين قصده قومٌ من أهل الكوفة ، فنظرَ إليهم وهم في هيئةٍ رديئةٍ ، فأنشأ يقول :

إِذَا نَوْبُهُ نَابَتْ صَدِيقُكَ فَاغْتَنِمِ مَرَمَّتَهَا فَالِدَّهْرُ فِي النَّاسِ قُلْبُ
فَأَحْسَنْ ثَوْبِيكَ الَّذِي هُوَ لَا يَسُ ْ وَأَفْرَهُ مُهْرِيكَ الَّذِي هُوَ يُرْكَبُ
وَبَادِرْ بِمَعْرُوفٍ إِذَا كُنْتَ قَادِرًا زَوَالَ اقْتِدَارٍ أَوْ غَنَى عَنْكَ يَذْهَبُ

= المتنكر تشبه إلى حدٍّ ما ، ما يسمّونه اليومَ «الكاميرا الخفية» التي تُعرَضُ في الشَّاشَاتِ الصَّغِيرَةِ والقنواتِ الفضائية ، بَيِّدَ أَنَّ قِصَّةَ مَعْنٍ مصنوعة لكنها تتفقُ في الإثارة مع الكاميرا الخفية ، والقارىء الحصيفُ يدرك أنَّ قصة معن والشاعر هي تبيانٌ مثالبٍ مَعْنٍ وقومه بالإضافة إلى أشياء أخرى يدركها الفطن .
(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٣٧٤) .

فقال له رجلٌ: ألا أنشدك أحسنَ من هذا لابنِ هرمة؟

قال: هات. فأنشأ يقول:

وللنفسِ تاراتٌ تحلُّ بها العُرا وتسُخو عن المالِ الثُّفوسُ الشَّحائِحُ
إذا المرءُ لم ينفَعَكَ حيًّا فنفعُهُ أقلُّ إذا ضُمَّتْ عليه الصَّفائِحُ
لأيةِ حالٍ يمنعُ المرءُ ماله غداً فَعَدَا والموتُ غادٍ ورائِحُ

فقال له معنٌ: أحسنتَ واللهِ ، وإن كانَ الشعرُ لغيرك ، يا غلامُ أعطِهِ أربعة آلاف .

فقال الغلامُ: أجعلُها دنانير أو دراهم؟

قال معنٌ: واللهِ لا تكون همَّتُك أرفعَ من همَّتي ، يا غلامُ صَفَرُها له^(١) .

* وهكذا رأى معن أن المالَ لا يبقى ، فأبقى له حمداً ، وأبقى لنفسه ذكراً حميداً ، فكان كما وصفَ بعضهم أحدَ الأجواد:

فأنتَ التَّدِي وابنُ التَّدِي وأخو التَّدِي حليفُ التَّدِي ما للتَّدِي عنكَ مذهبُ

* وكان قيسُ بنُ عاصمِ الصَّحابي - رضي الله عنه - يقولُ: الجوادُ سيِّدُ قومه^(٢) . والحقيقة؛ فالجوادُ الكريمُ سيِّدُ^(٣) قومه وغيرهم ، إذ الجودُ

(١) الآدابُ الشرعية (٣/ ٣١٤) ، والمعنى اجعلها من الذهب .

(٢) انظر: الآدابُ الشرعية (٣/ ٣١٣) .

(٣) «سيد»: السيِّد ، يُطلقُ على الرَّبِّ المالكِ ، والشَّريفِ ، والفاضلِ ، والكريمِ

الحكيم ، ومتحمِّلُ أذى قومه ، والزَّوجِ ، والرئيسِ ، والمقدَّمِ .

وأصلُّه من سَادَ يَسُودُ ، فقلبتِ الواو ياءً لأجل الياءِ الساكنةِ قَبْلَها ، ثمَّ أَدغمْتُ .

ووزنُ سيِّدٍ: فَيْعَلُ ، وهمُ سَادَةٌ ، وزنه: فَعَلَةٌ بالتحريك ، مثل: سِرِّي وسِرَاةُ ،

ولا نظيرَ لهما ، يدلُّ على ذلك أنَّه يُجمَعُ على سيَّائِدٍ بالهمزِ مثل: تبيعَ وتبائعُ ،

وأفيلَ وأفائلَ . وعند البصريِّين وزنُ سيِّدٍ: فَيْعَلُ ، وجمعُ على فَعَلَةٍ ، كأنَّهم جمعوا

سائداً مثل: قائدٍ وقادةُ ، وذائدٍ وذادةُ ، وقالوا: إنَّما جَمَعَتِ العربُ السيِّدَ والعجيدَ

على سيَّائِدٍ وجيَّائِدٍ بالهمزِ على غيرِ قياسٍ ، لأنَّ جمعَ فَيْعَلٍ فَيَاعِلٌ بلا همزٍ . =

يكسبُ صاحبَه هيبَةً ومكانَةً في نفوسِ النَّاسِ ؛ أمّا البَخيلُ فهو عنوان كلِّ قبيح ، قال منصور الفقيه :

مَا بِالْبَخِيلِ انْتِفَاعٌ وَالْكَلْبُ يَنْفَعُ أَهْلَهُ
فَنَزَهُ الْكَلْبُ عَنْ أَنْ تَرَى أَخَا الْبُخْلِ مِثْلَهُ
كَيْفَ مَاتَ مَعْنُ؟

* في سنة (١٥٢ هـ) ماتَ معنُ بنُ زائدةَ في سِجِسْتَانَ لَمَّا كَانَ والياً عليها؛ وسببُ موته أنَّ الخوارجَ وثبَّتَ عليه وهو يحتجمُ فقتلوه ، فقتلهم ابنُ أخيه يزيدُ بنُ مزيدٍ الأمير .

* وذكر الخطيبُ البغداديُّ أنَّ أبا جعفر المنصور قد ولى معناً سِجِسْتَانَ ، فنزلَ «بُسْت» وأساء السيرة في أهلها فقتلوه .

* وذكر ابنُ الوَثَّان في «حديقَتِه» أنَّ معنَ بنَ زائدةٍ قد وليَ سِجِسْتَانَ في آخرِ عمره ، وفي سنة (١٥١ هـ) كان له صنَّاعٌ يعملونَ له شغلاً ، فاندسَّ فيهم قومٌ منَ الخوارجِ فقتلوه بسِجِسْتَانَ بمدينةِ بُسْت وهو يحتجمُ ، فتتبعهم ابنُ أخيه يزيدُ بنُ مزيدٍ بنَ زائدةٍ فقتلهم عن آخرهم^(١) .

* وقال ابنُ العماد في شذراته : وفيها - أي : سنة (١٥١ هـ) قتلَتِ الخوارجُ غيلةً معنَ بنَ زائدةَ الشَّيباني الأمير بسِجِسْتَانَ ، وكان قد وليها عام أوَّل ، وكان أحدَ الأبطالِ الأجوادِ . . . ولما عظمَ صيته اندسَّ له جماعةٌ من

= * وجاءَ في الحديثِ عن بريدةَ - رضي الله عنه - قال : قال رسولُ الله ﷺ : « لا تقولوا للمنافقِ سيِّد ، فإنَّه إنْ يَكُ سيِّداً ، فقد أسخطمُ ربَّكم عزَّ وجلَّ » أخرجه أبو داود (٤٩٧٧) وأحمد (٣٤٦/٥ و ٣٤٧) وهو صحيح . وفي لفظ آخر عن النسائي في «اليوم والليلة» : « لا تقولوا للمنافقِ سيِّدنا ، إنْ يكن سيِّدكم . . . » .

(١) حديقة ابن الوثان (ص ٣٢١) .

الخوارج في ضيعة له بسجستان فقتلوه وهو يحتجم ، فتبعهم ابن أخيه فقتلهم جميعهم^(١).

* ولم يكن مقتل معنٍ عابراً ، وإنما سجّلتهُ ألسنةُ الشعراء على خدّ الأيام وجنيد المصادِر ، ورثاه عددٌ من أكابرِ شعراءِ عصره ، وممن أبدعَ في رثائه مروان بن أبي حفصة الذي صاغ قصيدةً لاميةً طويلةً في رثائه ، قال في مطلعها :

مَضَى لِسَبِيلِهِ مَعْنٌ وَأَبْقَى مَكَارِمَ لَنْ تَبِيدَ وَلَنْ تُنَالَا
كَأَنَّ الشَّمْسَ يَوْمَ أُصِيبَ مَعْنٌ مِنَ الظُّلَامِ مُلْبَسَةً جَلَالًا
وَعُطِّلَتِ الثُّغُورُ لِفَقْدِ مَعْنٍ وَقَدْ يُرَوَى بِهَا الْأَسْلُ النَّهَالَا

ومنها :

أَصَابَ الْمَوْتَ يَوْمَ أَصَابَ مَعْنًا وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ لِمَعْنٍ
وَلَمْ يَكُ طَالِبٌ لِلْعُرْفِ يُنَوِي مَضَى مَنْ كَانَ يَحْمِلُ كُلَّ ثَقُلٍ
وَمَا عَمَدُ الْوَفُودِ لِمِثْلِ مَعْنٍ وَلَا بَلَغَتْ أَكْفُ ذَوِي الْعَطَايَا
وَلَيْتَ الشَّامَتِينَ بِهِ فَدَوُّهُ وَلَمْ يَكُ كَنْزُهُ ذَهَبًا وَلَكِنْ
وَذُخْرًا مِنْ مُحَامَدَ بَاقِيَاتٍ

مِنَ الْأَحْيَاءِ أَكْرَمُهُمْ فَعَالَا إِلَى أَنْ زَارَ حَفْرَتَهُ عِيَالَا
إِلَى غَيْرِ ابْنِ زَائِدَةَ ارْتَجَالَا وَيَسْبِقُ فَضْلَ نَائِلِهِ السُّؤَالَا
وَلَا حَطُّوا بِسَاحَتِهِ تَرْحَالَا يَمِينًا مِنْ يَدَيْهِ وَلَا شِمَالَا
وَلَيْتَ الْعُمَرُ مُدًّا لَهُ فَطَالَا سَيُوفَ الْهِنْدِ وَالْحَلَقَ الْمُذَالَا
وَفَضْلَ تَقَى بِهِ التَّفْضِيلُ نَالَا

(١) شذرات الذهب (٢/ ٢٣٧ و ٢٣٩) بتصرف واختصار . وأورد ابنُ العماد حادثةً رائعةً لمعنٍ أحببتُ ذكرها لأنّها تزيدُ في رصيده في حبّه للعلماء . قال ابنُ العماد : لما طلبَ المنصورُ سفيانَ الثوري ، فرَّ سفيانُ إلى اليمن ، فكانَ يقرأُ على النَّاسِ أحاديثَ الضَّيَافَةِ ليضيفوه ، ويكتفي عن سؤالهم ، فاتهم بالسَّرْقَةِ ، وُزِعَ إلى معن بن زائدة ، فتعرّفه حتى عرفه ، فقال : اذهبْ حيثُ شئتَ ، فلو كنتَ تحتَ قدمي ما أخرجتك . (شذرات الذهب ٢/ ٢٣٩)

ومنها:

مضى لسبيله مَنْ كُنْتَ تَرْجُو بِهِ عَثَرَاتُ دَهْرِكَ أَنْ تُقَالَ
كَأَنَّ اللَّيْلَ وَاصَلَ بَعْدَ مَعْنٍ لِيَالِيَّ قَدْ قُرِنَ بِهِ فَطَالَا
وَقُلْنَا أَيْنَ نَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ وَقَدْ ذَهَبَ التَّوَالُ فَلَا نَوَالَا
سِيذُكَ الْخَلِيفَةُ غَيْرَ قَالَ إِذَا هُوَ فِي الْأُمُورِ بِلَا الرَّجَالَا
وَلَا يَنْسَى وَقَائِعَكَ اللِّوَاتِي عَلَى أَعْدَائِهِ جُعِلَتْ وَبَالَا
ثُمَّ خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ يَذْكُرُ أَنَّهُ لَنْ يَشُدَّ رَحْلَهُ لغيره:

وَأَلْقَى رَحْلَهُ أَسْفَاً وَآلَى يَمِيناً لَا يَشُدُّ لَهُ جَبَالاً^(١)

* قال أحمد بن خلكان: وهذه المراثية من أحسن المراثي.

* وقال عبد الله بن المعتز: دخل مروان بن أبي حفصة على جعفر
البرمكي، فقال له: ويحك أنشدني مراثيتك في معن بن زائدة.

فقال: بل أنشدك مديحي فيك.

فقال جعفر: أنشدني مراثيتك في معن، فأنشأ يقول:

وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ لِمَعْنٍ إِلَى أَنْ زَارَ حُفْرَتَهُ عِيَالَا
حَتَّى فَرَّغَ مِنَ الْقَصِيدَةِ ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ إِنْشَادِهَا ، قَالَ جَعْفَرُ: هَلْ أَثَابَكَ
عَلَى هَذِهِ الْمَرَثِيَةِ أَحَدٌ مِنْ وَلَدٍ مَعْنٍ أَوْ مِنْ أَهْلِهِ شَيْئاً؟

قال مروان: لا.

قال جعفر: فلو كان معن حياً، ثم سمعها منك، كم كان يشبك عليها؟

قال: أصلح الله الوزير، أربعمئة دينار.

(١) انظر: ديوان مروان (ص ٧٩ - ٨٣) وهي قصيدة طويلة وجميلة تعد (٥٤ بيتاً) وقد نقلها كثير ممن ترجموا لمعن في كتبهم.

قال جعفر: فَإِنَّا نَظَرُ أَنَّهُ كَانَ لَا يَرْضَى لَكَ بِذَلِكَ ، قد أمرنا لك عن معن - رحمه الله تعالى - بِالضَّعْفِ مِمَّا ظَنَنْتَ ، وزدناك نحنُ مثل ذلك ، فاقْبِضْ مِنَ الْخَازِنِ أَلْفًا وَسِتْمِئَةَ دِينَارٍ قَبْلَ أَنْ تَنْصَرِفَ إِلَى رَحْلِكَ ، فاقْبِضْ الْمَالَ وَانصَرِفْ^(١).

ويقال: إِنَّ مِرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ - بعد هذه القصيدة - لم ينتفع بشعره ، فَإِنَّهُ كَانَ إِذَا مَدَحَ خَلِيفَةً أَوْ مَنْ دُونَهُ قَالَ لَهُ: أَنْتَ قَلْتَ فِي مَرِثَتِكَ: وَقُلْنَا أَيْنَ نَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ وَقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فَلَا نَوَالًا فَلَا يَعْطِيهِ الْمَمْدُوحُ شَيْئًا ، وَلَا يَسْمَعُ قَصِيدَتَهُ^(٢).

* وروى أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ طَاهِرٍ كَانَ يَوْمًا عِنْدَ الْمَأْمُونِ ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا الْعَبَّاسِ ، مَنْ أَشْعَرُ مَنْ قَالَ الشَّعْرُ فِي خِلَافَةِ بَنِي هَاشِمٍ؟ قَالَ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَفَ بِهَذَا مِنِّي . قَالَ: قُلْ عَلَى كُلِّ حَالٍ.

قال عبد الله: أَشْعَرُهُمُ الَّذِي يَقُولُ فِي مَعْنٍ بِنِ زَائِدَةَ: أَيْمَا قَبْرِ مَعْنٍ كُنْتَ أَوَّلَ حَفْرَةٍ مِنْ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلْسَّمَاحَةِ مَضْجَعًا أَيْمَا قَبْرِ مَعْنٍ كَيْفَ وَاوَيْتَ جُودَهُ وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبِرُّ وَالْبَحْرُ مُتْرَعًا بَلَى قَدْ وَسَعَتْ الْجُودَ وَالْجُودُ مَيِّتٌ وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضَقَّتْ حَتَّى تَصْدَعَا

(١) انظر: وفيات الأعيان (٥/٢٥١ و ٢٥٢) بتصرف واختصار. وقال مروانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ يمدحُ جعفرَ البرمكيِّ ، وقد وَصَلَهُ عَلَى مَرِثَتِهِ اللَّامِيَّةِ فِي مَعْنٍ بِنِ زَائِدَةَ الشَّيْبَانِي:

نَفَحْتَ مَكَافِئًا عَنْ قَبْرِ مَعْنٍ لَنَا مِمَّا تَجُودُ بِهِ سَجَالًا
فَعَجَّلْتَ الْعَطِيَّةَ يَا بَنَ يَحْيَى بِتَأْدِيَةٍ وَلَمْ تُرِدِ الْمَطَالًا
فَكَافَأَ عَنْ صَدَى مَعْنٍ جَوَادٌ بِأَجُودَ رَاحَةٍ بِذَلِكَ نَوَالًا
(ديوان مروان ص ٨٤)

(٢) وفيات الأعيان (٥/٢٥١ و ٢٥٢) ولعل هذا القول من المبالغة.

* والأبياتُ للحُسينِ بنِ مطيرِ الأسديّ ، وهي تزيدُ على هذا المقدار وأولها :

أَلَمَّا عَلَى مَعْنٍ ثُمَّ قُولَا لِقَبْرِهِ سَقَتَكَ الْغَوَادِي مَرْبَعًا ثُمَّ مَرْبَعًا
* ومنها :

فَتَى عَيْشٍ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوِهِ كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعًا
وَلَمَّا مَضَى مَعْنٍ مَضَى الْجُودُ وَانْقَضَى وَأَصْبَحَ عَرْنِينُ الْمَكَارِمِ أَجْدَعًا^(١)
* ومن روائع بدائع الرثاء قول مروان في معن :

يَا مَنْ بِمَطْلَعِ شَمْسٍ ثُمَّ مَغْرِبِهَا إِنَّ السَّخَاءَ عَلَيْكُمْ غَيْرُ مُرْدُودٍ
قُلْ لِلْعُفَاةِ أَرِيحُوا الْعَيْسَ مَنْ طَلَبَ مَا بَعْدَ مَعْنٍ حَلِيفَ الْجُودِ مَنْ جُودَ
قُلْ لِلْمَنِيَّةِ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ إِذْ مَاتَ مَعْنٌ فَمَا مِثُّ بِمَفْقُودٍ^(٢)

* وبعد ، فهذه شذراتٌ جميلةٌ من سيرة فارسي جوادٍ عرفَ الجودُ كَفَّهُ
فلازمه ، وعرفتِ الشجاعةُ قلبه فلزمته ، فكانَ من فرسانِ الأجوادِ في دنيا
التاريخ ، وفي تاريخِ الدنيا .

* * *

(١) أمالي المرتضى (١/٢٢٧) ، ووفيات الأعيان (٥/٢٥٤) ، وقطوف الرياحان (ص ٣٢٢) . وما أجملَ قولَ الشاعرِ في امتداحِ أحدِ الأسخياءِ الأجوادِ :

وَإِذَا الرَّجَالُ تَصَرَّفَتْ أَهْوَاؤُهَا فَهَوَاهُ لِحِظَّةٍ سَائِلٍ أَوْ آمِلٍ
وَيَكَادُ مَنْ فَرَطَ السَّخَاءِ بِنَانَهُ حُبَّ الْعَطَاءِ يَقُولُ هَلْ مِنْ سَائِلٍ
(التذكرة الحمدونية ٢/٢٧٤)

(٢) ديوان مروان (ص ٤٠) .

يزيد بن مزيد

* أحد الأبطال والأجواد ، وهو ابنُ أخي الأمير معن بن زائدة.

* هو القائل:

من جاد بنفسه عند اللقاء ، وبماله عند العطاء ، فقد جاد
بنفسه كليهما.

* امتدحه كبار الشعراء ، كمسلم بن الوليد.

الفارسُ الأُميرُ الشَّهيرُ:

* لا شكَّ في أنَّ الشُّهرةَ منْ بعضِ مكاسبِ الدُّنيا ، يقتنصُها المرءُ منْ أبوابٍ متفرِّقةٍ وسبلٍ متشعِّبةٍ ؛ وقد كانتِ الشُّهرةُ في القديمِ تحتاجُ إلى جهْدٍ خاصٍ وسمعةٍ تتناقلُها الرِّكبانُ حتَّى ينتشرَ صيْتُ الإنسانِ ، ويعرَفَ الناسُ خِلالَه وخِلائقَه .

* أمَّا الشُّهرةُ اليومَ فهي مفتحةُ الأبوابِ ، سهلةُ المنالِ ، سريعةُ الانتشارِ ، دَعَمَتُها المديَّةُ الحديثةُ المتنوعةُ والملونةُ والميسرةُ وفي مقدمتها: وسائلُ الإعلامِ المرئيةِ والمسموعةِ والمقروءةِ ، فَمَنْ ذا الذي لا يسمعُ اليومَ بأسماءِ الممثليين والممثلاتِ والمطربين والمطربات؟! والفارغين والفارغات؟! بينما نجدُ كثيراً منَ الدَّارسين وأنصافِ المثقفين وأرباعِ المُطلعين وثلاثة أرباعِ المتعلِّمين لا يعرفون عظماء العرب والمسلمين ، ممن سَطَّروا أجملَ الأعمالِ في دنيا العِلْمِ والمعرفة .

ومهما ازداد - الآن - عددُ قراءِ شعرِ المتنبي ، ومؤلفاتِ الجاحظِ والغزالي وابنِ خلدون ، وغيرهم منَ الأدباءِ والعُلَماءِ ، فإنَّ المتحلِّقين حولَ الشَّاشاتِ الصَّغيرةِ أكثرُ ، وعددُ الذين يرتادون الملاعبَ المتنوعةَ أكثرُ وأكثرَ .

* يقول عبَّاسُ العقَّادِ في كتابه «الفصول»: وقد عَجَبْتُ إحدى صحفِ فرنسا منَ الحفاوةِ التي قُوبِلَ بها شارلي شابلنُ في لندن ، وقارنَتْ بين فتورِ الجماهيرِ قبل أصحابِ الفضلِ عليها من المخترعين والمُصلحين ، وبين شغفِها بالمُضحكين وتَهليلِها لهم وإقبالِها العظيمِ عليهم ، وضربتِ الصَّحيفةُ مثلاً بالطَّبيبِ «فنسان» صاحبِ لقَّاحِ التَّيفوسِ ، وقالتُ وهي

تستغربُ ما تقول: ترى لو كان هذا الطَّيِّبُ بينَ الجموعِ المُهلِّلةِ لشارلي شابلن أما كانوا يُنَحِّونَهُ عنِ الطَّرِيقِ ، ويزوِّرون عنه ليقبلُوا على بطلهم العزيز؟!

* نقول: ذلك ليس ببعيد... ولَعَمري إِنَّ الإنسانَ ليرى شيئاً منَ العَدْلِ في هذه الأطوارِ التي تشاهدُ في الجماهير ، فَإِنَّ الممثلَ الهزليَّ لَنَ يظفرَ بعد موتِهِ بكثيرٍ ولا قليلٍ منَ الإعجابِ الذي هو حقيقٌ به ، فمنَ الإنصافِ أَنْ يُكَافَأَ في حياتهِ هذه المكافأةَ على إضحاكِ النَّاسِ ، مع أنَّ ذكر «فنان» وأمثاله لا يُنسى بعد موتهم ، والإعجابُ بهم يبقَى زماناً وهم ترابٌ في لُحودهم^(١).

* إذًا ، فليسَ صاحبُ الشُّهرةِ الواسِعةِ في حياته سعيداً بشهرتهِ أبدَ الدَّهرِ ، وإنَّما تكون سعادتهُ خالدةً حينما تحكُمُ الأجيالُ على عبقريته وخلوده ، وحينما تصحح الأحكام التي يصدرها النَّاسُ جزافاً منقادينَ إلى العواطف ، مأخوذِينَ بالأهواء.

* ونحنُ اليومَ نطلُّعُ على حياةِ فارسِ بطلٍ منَ الأمراءِ المشهورين ، ومنَ الشُّجعانِ المعروفينَ في العَصْرِ الذَّهَبِيِّ العَبَّاسِيِّ في القرنِ الثاني الهجريّ؛

(١) انظر: الفصول للعقاد. ومن الجدير بالذكر أنَّ كثيراً منَ النَّاسِ في أيَّامنا هذه يحفظُ أسماءَ كثيرٍ من الممثلات والمطربات وغيرهم من أهل مدرسة الفن ، أو يحفظُ أسماءَ فريق كرة قدم أو سلَّة أو «علَّة» ويعرفُ حياةَ وأخبارَ المُصارعين الأجانب الذين تشبهُ أسماءُهم أسماءَ العفَّاريت في بعض الكتب القديمة ، ولو سألت أحدهم عن أسماءِ العشرةِ المبشرين بالجنة ، أو أسماءِ زوجات النبي ﷺ ، أو أسماء الخلفاء الراشدين لفتحَ فاهُ وما درى شيئاً. ومن العجيبِ أنَّ بعضَ المحطَّات قد استقبلتُ بعضهنَّ ، فانهالت التليفونات والفاكسات والرسائل عليها حتى إنَّ المذيعَ قال: خلال دقائق وصلنا أكثر من عشرة آلاف فاكس وهاتف وكلهم يطلبون الحديث مع السيدة؟ و.. نسأل الله اللطف.

وهذا الفارسُ ممّن طارتْ شهرتُهُ ، ورصّعتِ الأيّامُ أعماله ونقشتها على
جبهةِ التّاريخ ليراها من جاء بعده .

* ولن أدعَكَ - عزيزي القارئ - تذهبُ بعيداً كيما تعرف هذا الفارس
الشّهير الذي ننظمه في سلكِ دُرر فرسانِ التّاريخ ، أولئك الذين رسموا
بشجاعتهم أجملَ صورِ البطولةِ ، وزيّنوا جيّد الدّهر بحلي أفعالهم البيضِ
الرّزهر .

* والآن إليكمو بطاقة فارسِ الأجوادِ الأسخياءِ ، وجوادِ الفرسانِ
الأمراءِ . . . يزيدُ بنُ مزيدِ بنِ زائدةَ أميرِ العربِ ، أبو خالد الشّيباني ، أحدُ
الأبطالِ والأجوادِ ، وهو ابنُ أخي الأميرِ معن بن زائدةَ الجوادِ الشّهير
المشهور^(١) .

* وكان يزيدُ هذا يقولُ دائماً - وقد جمعَ بينَ الجُودِ وبينَ الشّجاعةِ - :
مَنْ جَادَ بِنَفْسِهِ عِنْدَ اللِّقَاءِ ، وبِمَالِهِ عِنْدَ العَطَاءِ ، فَقَدْ جَادَ بِنَفْسِهِ كِلَيْتَهُمَا^(٢) .

* وسيرةُ يزيدِ بنِ مزيدِ تزيّدُ في رصيدِ الفرسانِ الكرماءِ ، من بني زائدةَ
وغيرهم ممن نحفلُ بهم في موسوعتنا هذه التي تحملُ بين جوانحها خفقاتِ
رائعاتٍ من أخبارِهم التي تطرّبُ لها القلوبُ والنّفوسُ .

* فيزيدُ بنُ مزيدَ أحدُ الأمراءِ الوجّهاءِ ، وأحدُ الفرسانِ الكُبراءِ في
الدّولةِ العبّاسيّةِ ، وقد امتدّحه كبراءُ الشّعراءِ ، ومنهم مسلمُ بنُ الوليدِ

(١) سير أعلام النبلاء (٧١/٩ - ٧٣) ، والمعارف (ص ٤١٣ و ٤١٤) ، ووفيات الأعيان
(٣٢٧/٦ - ٣٤٢) ، ومراة الجنان (١/٤٠٠) ، والأغاني (انظر الفهارس) ، وديوان
صريع الغواني (انظر الفهارس ص ٤٧٨ و ٤٧٩) ، وخزانة الأدب (٣/٥٤) ،
والمستجد (ص ٤ و ٥ و ١٠٠ و ١٠٨ و ١٠٩) ، والكامل (ص ٦٥٣ و ٨٩٤ و ٩٤٣)
وغيرها كثير .

(٢) انظر : نهاية الأرب (٣/٢١٤) .

الأنصاري الذي رأى في يزيد بن يزيد البطولة والشجاعة والفروسيّة والكرم والسّخاء ، والنّسب العريق في بني شيّبان^(١) .

* ويزيد بن يزيد الشّيباني من أسرة رفيعة في العروبة ، مشهورة بالندى والبأس ، شاركت في نصرّة الخلافة العبّاسيّة ، ودعم الحكم كيما يقوم على سوقه ثابت الأساس ، قويّ الأركان .

* فقد كان عمّه معن بن زائدة الشّيبانيّ الأمير الجواد الشّهير ، علماً بارزاً ، ونجماً لامعاً يُشار إليه بالبنان ، وكان يزيد ابن أخيه شبيهاً بعمّه معن ، ناهيك^(٢) بأنّه فتى من فتیان الأماجد الذين حفروا برؤوس أسّتهم ،

(١) «بنو شيّبان»: بنو شيّبان من أصل عدنانيّ ، وهم من هامات ربيعة في الجاهليّة ، وهم أبطال معركة ذي قار الشّهيرة ، وقد امتدّ بهم المجد في الإسلام ، فكان منهم بيوتات سجّل لها التّاريخ صفحات خالداً وضيّات .

* وكان بنو شيّبان طلائع الفتح الإسلاميّ في العراق .

* وقيل: ليس في العرب أعزّ من شيّبان داراً ، ولا أكثر حليفاً .

* واشتُهر كثيرون من رجالات وأبطال وفرسان بني شيّبان في التّاريخ ، وحسبك المثني بن حارثة الشّيباني ، الذي مالّه في زمانه من ثاب ، فقد كان من أشرف بني شيّبان ، وكان أوّل قائد عربيّ تجرأ على مهاجمة الإمبراطوريّة السّاسانية في عقر دارها ، وقد نال المثني شرف الصّحبة النّبويّة ، فكان من الطّيبين الأخيار ، والفرسان الأطهار الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه .

(٢) «ناهيك»: يُقال: ناهيك بكذا ، أيّ حسّبك وكافيك بكذا ، نحو: ناهيك يدين الله ، أيّ دين الله كافيك عن طلب غيره . «ناهيك»: خبر مقدّم مرفوع بالضمّة المقدّرة على الياء للثقل ، وهو مضاف . والكاف ضمير متّصل مبني على الفتح في محلّ جرّ بالإضافة . «بدين»: الباء حرف جرّ زائد مبني على الكسر لا محلّ له من الإعراب . «دين»: اسم مجرور لفظاً مرفوع محلاً على أنّه مبتدأ مؤخر ، وهو مضاف . «الله»: لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور بالكسرة الظّاهرة . ونحو: هذا عبد الله ناهيك من رجل . «ناهيك»: حال منصوبة بالفتحة ، ونحو: هذا رجل ناهيك من رجل . «ناهيك»: نعت مرفوع ، «رجل»: اسم مجرور لفظاً منصوب محلاً للتّمييز . وتتعدّى ناهيك بالباء وبـ«من» .

وأشفار سيوفهم سطورَ المجدِ والخلودِ والرَّفعةِ^(١) ، وبسطوا أيديهم فكانت ركاباً مريحاً ممراحاً للمعوزين ، ونشروا أموالهم للمعتفين ، فقد كانت الدِّراهمُ والدِّنانيرُ على أكتفهم عابرات سبيل إلى جيوب الآخرين ، فكانوا صوئاً في طريق الأمنِ والخيرِ والحبِّ ، وأعلاماً في السِّلْمِ والحربِ والجلادِ ، عليهم تُعقَدُ الآمالُ الكبارُ ، وقد شهدت جوارحُ التَّاريخِ بمزاياهم ، واعترفت بأقدارهم ، فصفاتهم تجري فُراتاً على السنةِ المادحين ، وهذا مسلمُ بن الوليد يوفَّقُ في امتداحِ يزيد بن يزيد ، إذ الجودُ والكرمُ بكفَّيه فيقول :

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبٍ بَعْدَ الْخَلِيفَةِ يَا ضَرْغَمَةَ الْعَرَبِ
* ويوغلُ مسلمُ بنُ الوليدِ بمديحِ يزيد ، فيجعله عزَّ الخلافةِ العباسية ،
ويجعلُ الخلفاء العباسيين حكَّاماً ، فيقولُ من قصيدةٍ ميميةٍ رائعةٍ في يزيد :
إِذَا الْخِلَافَةُ عُدَّتْ كُنْتُ أَنْتَ لَهَا عَزّاً وَكَانَ بَنُو الْعَبَّاسِ حُكَّاماً^(٢)
* ولعلنا نرى أنَّ موقفَ مسلم بن الوليد من يزيد بن يزيد هو موقفٌ عجيبٌ في الإعجابِ به ، وإكباره وإنزاله منزلةً ضخمةً واسعةً ، فقد وردَ أنَّه قال فيما قال : إنَّه لولا يزيدُ لأضحى الملكُ مخذولاً ، ولأفسدته عاهاتُ تعملُ فيه حتى تقتله .

* ولم يكتفِ مسلم بهذا ، بل جعلَ يزيدَ كالأجل يسعى إلى الأعداءِ في

(١) ولهذا قال مسلمُ بنُ الوليد في بني زائدة الشَّجعانِ الفُرسانِ ، والقوادرِ العُظماءِ ، الذين يمنعونَ الرِّعيَةَ مِنَ العدوِّ ، فتكون في أَمْنٍ ، ويكون عدوها في خوفٍ من هؤلاء أن يوقعوا بهم العقوبة :

سَلُّوا السُّيُوفَ فَأَغْشَوْا مَنْ يَحَارِبُهُمْ خَبْطاً بِهَا غَيْرَ مَا نَكُلِ وَلَا وَكُلِ
الزَّائِدِيُّونَ قَوْمٌ فِي رِمَاحِهِمْ خَوْفُ الْمَخِيفِ وَأَمْنُ الْخَائِفِ الْوَجِلِ

(٢) انظر ديوان : مسلم بن الوليد ، صريح الغواني (ص ٦٧) .

الحرب ، فيستلّ أرواحهم بفروسيته حينما يريد ذلك ، وهو يخوضُ
ساحاتِ الوغى ضاحكاً الوجهِ باسمِ الثَّغر ، كما وصفَ فروسيّةَ يزيدَ بجميعِ
الألوانِ المُغريةِ الأخاذةِ ، ومنها أنّه جعله يطعمُ الطَّيرَ من جُثثِ أعدائِهِ ،
فالطَّيرُ تتبعه في كلّ مَكَانٍ يجالِدُ فيه ويقاِتلُ الأعداءَ ، هنالك تحومُ عصائبُ
الطَّيرِ حوله والتي عودّها على ذلك ، حيث تنتظرُ العيش والشَّبع على يديه
من خلالِ قائم سيفه الذي يجندلُ به الأبطالَ .

* وكان ليزيدَ أكثرُ من كُنيّةٍ ، فقد ذكرَ الجاحظُ أنّ يزيدَ بنَ يزيدَ كان
يُكنى في السَّلم بأبي خالِد ، وفي الحربِ بأبي الزُّبير ، وقال مسلم بنُ
الوليد الأنصاري :

لولا سُيوفُ أبي الزُّبير وخيلُهُ نَشَرَ الوليدُ بسيفهِ الضَّحَاكَ^(١)
مِنْ شَيْمِ يَزِيدٍ وَأَخْبَارِهِ :

* قال الشَّاعر :

لقد شرَعْتُ كَفًّا يزيدَ بنِ يزيدٍ شرائعَ جُودٍ لا يُنادي وليدُها
* قد لا تحيطُ الأقلامُ في رِسمِ شيمِ فارسنا اليوم ، وقد لا يقدرُ الباحثُ
أنَّ يجمعَ أَشتاتِ أخبارِهِ كيما ينضدّها في هذا الكتاب ، ولكنّا ننظّمُ أزهَرَ
من محاسنِهِ في طاقاتٍ جميلةٍ تنفُحُ بريّاتها القلوبَ الطَّامِثاتِ لأخبارِ الفُرسانِ
الأجوادِ في التَّاريخِ الإسلاميِّ والعربيِّ على مرِّ العُصورِ والأعوامِ والأَيَّامِ .

* وتطالعُنا سيرةُ يزيدَ بنِ يزيدَ الفارسِ الجوادِ بأنباءِ جُوده ، وجودِ
الشَّيبانيين الذين شغلُوا ساحاتِ المكارمِ بأنداءِ كَرَمِهِم ورشحاتِ أكفِّهِم ،
فقد بَنَتِ المكارمُ والمحاسنُ وسطَ راحتِهِم منازلًا ، وجعلوا أموالَهُم مباحةً

(١) البيان والتبيين للجاحظ (١/٣٤٢) .

بين الأنام ، فإذا أغلقتِ المكارمُ أبوابها وأوصدتها ، كانت أيديهم لقفليها مفتاحاً .

* ولعلنا نجدُ هذا كله في هذه المعاني الجميلة الراقصة التي صاغها صريع الغواني مسلمُ بنُ الوليد في يزيد فقال :

فأفخرَ فما لك في شيبانَ من مثلي كذاك ما لبني شيبانَ من مثلي
تشاغلَ النَّاسُ بالدُّنيا وزُخرفها وأنتَ منْ بذلكَ المعروفِ في شُغلي
يأبى لِسَانُكَ مَنعَ الجودِ سائله فما يُلجَلجُ بينَ الجودِ والبُخلِ
صدقتَ ظني وصدقتَ الظُّنونَ بهِ وخطَّ جودُكَ عَقْدَ الرَّحْلِ عنْ جَملي^(١)

* ولعلَّ الجودَ والكرمَ^(٢) وبسط اليَدِ من أبرز صفاتِ فارسنا يزيد بن

(١) انظر: ديوان صريع الغواني (ص ٢١ - ٢٣) بتصرف ، وهذه الأبيات من قصيدة جميلة تعدُّ (٧٩ بيتاً) ، وهي من أشهر قصائد ديوانه وأجملها ، وقد سارت أبياتها بين الناس والمصادر .

(٢) الجودُ والكرمُ من أعلى صفاتِ الإنسانِ الكامل ، ومن أجمل ما يتحلَّى به المؤمنُ ، على عكسِ البُخلِ واللُّومِ الذي هو مُجمَعُ كلِّ سوء . قال سيدنا عليُّ بنُ أبي طالب - رضي الله عنه - : البخلُ جامعٌ لمساوئِ العُيوب ، وهو زمامٌ يُقادُّ به إلى كلِّ سوء . (التذكرة الحمدونية ٢ / ٣٢٢)

وقيل لحبِّي المدنية : ما السُّقم الذي لا يَبْرأ ، والجرحُ الذي لا يندمل ؟!

قالت : حاجةُ الكريم إلى اللئيم الذي لا يجدي عليه .

* وقال الخطابي : الشُّحُّ في المنع أبلغُ من البُخلِ .

* وقال سلمانُ الفارسي - رضي الله عنه - : إذا ماتَ السَّخِيُّ قالتِ الأرضُ والحفظةُ :

ربِّ تجاوزْ عن عبدِكَ في الدُّنيا بسَخائِهِ ، وإذا ماتَ البَخِيلُ قالتْ : اللهم احجبْ هذا العبدَ عن الجنَّةِ ، كما حجبَ عبادَكَ عما جعلتَ في يَدَيْهِ مِنَ الدُّنيا .

* وقال بعضُ الحكماء : مَنْ كانَ بخيلاً ورثَ مالَهُ عدوّه .

* ووصفَ أعرابيٌّ رجلاً فقال : لقد صَغُرَ في عيني لِعِظَمِ الدُّنيا في عَيْنِهِ .

* وذمَّ أعرابي قوماً فقال : يصومونَ عن المعروفِ ويفطرونَ على الفواحشِ .

(مختصر منهاج القاصدين ص ٣٦)=

مزيد الشَّيباني ، فجودُهُ وعطاياه تأتي شتى لمؤمليه ، وإن كانوا بعيداً في بلادٍ بعيدة ، فهو مطبوعٌ على العطاء ، فليس يُعطي على حسن لطفٍ في السؤال ، ولكنه يعطي كلَّ النَّاسِ مَنْ أَحْسَنَ منهم السؤال وَمَنْ لَمْ يُحْسِنِ .

* وكان يزيدُ بنُ مزيدٍ شديدَ التَّيَقُّظِ ، يستعدُّ دائماً لمهمَّاتِ الأمور وجسامِها ، فإذا ما دعا الدَّاعي ، كانَ على أتمَّ استعدادٍ أيّاً كان الدَّاعي .

ولعلَّنا نتعرَّفُ شيئاً عن شيمٍ وأخبارِ يزيدٍ مِنْ خلالِ حديثهِ عن نفسه ، وبيانِ شمائلِهِ وخلالِهِ .

* قال يزيدُ : أرسلَ إليَّ الرَّشيدُ يوماً في وقتٍ لا يُرسلُ فيه إليَّ مثلي ، فأتيتُهُ لا بساً سِلاحِي ، مستعدّاً لأمرٍ إنَّ أرادَهُ ، فلمَّا رآني ضحكَ إليَّ ، ثمَّ قال : يا يزيدُ خبِّرني ؛ مَنْ الذي يقولُ فيكَ :

تَراه في الأَمَنِ في دِرْعٍ مضاعِفَةٍ لا يَأْمَنُ الدَّهْرُ أنْ يُدعى على عَجَلٍ
لله مِنْ هاشمٍ في أرضِهِ جَبَلٌ وأنتَ وابناكَ رُكَّنا ذلكَ الجَبَلِ
فقلتُ : لا أعرفُهُ يا أميرَ المؤمنين .

فقال : سوءةٌ لك من سيِّدٍ قومٍ يُمدِّحُ بمثلِ هذا الشَّعر ولا يعرفُ قائلَهُ ، وقد بلغَ أميرَ المؤمنين فرواهُ ووصلَ قائلَهُ ، وهو مسلمُ بنُ الوليد!!
فانصرفْتُ ، فدعوتُ بِهِ ووصلتُهُ وواليتُهُ^(١) .

* وحدَّثَ ذو الهِذَمَيْنِ قال : دخلَ يزيدُ بنُ مزيدٍ على الرَّشيدِ ، فقال له :
يا يزيدُ مَنْ الذي يقولُ فيكَ :

لا يَعْبقُ الطَّيْبُ خَدْيِهِ ومُفرِقَهُ ولا يُمسِّحُ عَيْنَيْهِ مِنَ الكُحْلِ

(١) معاهد التنصيص (٥٨/٣ و ٥٩) ، والأغاني (٤٠/١٩ و ٤١) ، وديوان صريع الغواني (ص ١٢) .

قد عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثَقَنَ بِهَا فَهَنْ يَتَّبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلٍ^(١)

فقال : لا أعرفُ قَائِلَهُ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ !

فقال له هارون : أَيْقَالُ فِيكَ مِثْلُ هَذَا الشُّعْرِ وَلَا تَعْرِفُ قَائِلَهُ ؟ !

فخرجَ من عنده خَجَلًا ، فَلَمَّا صَارَ إِلَى مَنْزِلِهِ دَعَا حَاجِبَهُ فَقَالَ لَهُ : مَنْ
بِالْبَابِ مِنَ الشُّعْرَاءِ ؟

قال : مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ .

فقال : وَكَيْفَ حَجَبْتَهُ عَنِّي فَلَمْ تَعْلَمْنِي بِمَكَانِهِ ؟

قال : أَخْبَرْتُهُ أَنَّكَ مُضَيِّقٌ - ضَاقَ عَلَيْهِ مَعَاشُهُ وَقَلَّ مَا بِيَدِهِ - ، وَأَنَّهُ لَيْسَ
فِي يَدَيْكَ شَيْءٌ تُعْطِيهِ إِيَّاهُ ، وَسَأَلْتَهُ الْإِمْسَاكَ وَالْمَقَامَ أَيَّامًا إِلَى أَنْ تَتَّسِعَ .

قال : فَأَنْكَرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ وَقَالَ : أَدْخَلَهُ إِلَيَّ . فَأَدْخَلَهُ إِلَيْهِ فَأَنْشَدَهُ قَوْلَهُ :

أَجْرَرْتُ حَبْلَ خَلِيعٍ فِي الصَّبَا غَزْلُ وَشَمَّرْتُ هِمَمُ الْعُدَّالِ فِي عَذَلِي
رَدَّ الْبُكَاءُ عَلَى الْعَيْنِ الطَّمُوحِ هَوًى مَفْرَقٌ بَيْنَ تَوْدِيعٍ وَمُرتَحَلِ
أَمَّا كَفَى الْبَيْنَ أَنَّ أُرْمَى بِأَسْهُمِهِ حَتَّى رَمَانِي بِلِحْظِ الْأَعْيُنِ النَّجْلِ
مِمَّا جَنَّتْ لِي وَإِنْ كَانَتْ مِنِّي صَدَقَتْ صَبَابَةٌ خُلْسُ السَّلِيمِ بِالْمُقْلِ
فقال له : قد أمرنا لكَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، فَاقْبِضْهَا وَاعْذِرْ ، فَخَرَجَ
الْحَاجِبُ فَقَالَ لِمُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ : قد أمر لي يَزِيدُ أَنْ أُرْهَنَ ضِيعَةً مِنْ ضِيعَاتِهِ
عَلَى مِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، خَمْسُونَ أَلْفًا لَكَ ، وَخَمْسُونَ أَلْفًا لِنَفَقَتِهِ ، وَأَعْطَاهُ

(١) قال النَّابِغَةُ الذَّبْيَانِي :

إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
وَقَالَ حَمِيدُ بْنُ ثَوْرٍ الْهَلَالِي :

إِذَا مَا غَدَا يَوْمًا رَأَيْتَ غِيَابَةً مِنَ الطَّيْرِ يَنْظُرْنَ الَّذِي هُوَ صَانِعُ
فَتَنَاوَلَ مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ مَعْنَى الْبَيْتَيْنِ فِي قَوْلِهِ :

قد عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثَقَنَ بِهَا فَهَنْ يَتَّبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلِ

إِيَّاهَا. وكتبَ صاحبُ الخبرِ بذلكَ إلى الرَّشيدِ ، فأمرَ ليزيدَ بمِئتي ألفِ درهمٍ وقالَ : اقضِ الخمسينَ الألفَ التي أخذَها الشَّاعرُ وزدْه مثلَها ، وخذْ مئةَ ألفٍ لنفقتك ، فافتكَّ ضيعته ، وأعطى مُسلماً خمسينَ ألفاً أخرى^(١) .

* وليزيدَ بنِ مزيدٍ أخبارٌ مطربةٌ مع الخليفةِ هارونَ الرَّشيدِ ، تدلُّ على عقلِهِ وذكائِهِ وهِمَّتِهِ وحصافتهِ وعلوِ كعبِهِ في أدبِ مجالسةِ الملوكِ ؛ فقد روي أنَّ هارونَ الرَّشيدَ قالَ ليزيدَ يوماً : يا يزيدُ ، إنِّي قد أعددتُكَ لأمرٍ كبيرٍ .

فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ، إنَّ اللهَ تعالى قد أعدَّ لك منِّي قلباً معقوداً بنصيحتك ، ويداً مبسوطةً لطاعتك ، وسيفاً مشحوداً على عدوك ، فإذا شئتُ فقلُّ^(٢) .

* وليزيدَ موقفٌ طريفٌ ورائعٌ مع الرَّشيدِ أيضاً ، فقد وردَ أنَّ الرَّشيدَ قالَ له في لعبِ الصَّوالجةِ : كنْ مع عيسىَ بنِ جعفرٍ . فأبى يزيدُ ، فغضبَ الرَّشيدُ وقالَ : تأنفُ أنْ تكونَ معه؟! فقالَ : قد حلفتُ لأمرِ المؤمنينَ أنْ لا أكونَ عليه في جدٍّ ولا هزلٍ^(٣) .

* وقيلَ : إنَّ الرَّشيدَ قالَ ليزيدَ يوماً : يا يزيدُ ، ما أكثرَ أمراءِ المؤمنينَ في قومِكَ !

قالَ : نعمَ إلَّا أنَّ منابرهمَ الجدوعُ^(٤) .

* ومنَ الجديرِ بالذكرِ أنَّ يزيدَ كانَ والياً بأرمينيةَ ، فعزله عنها هارونُ

(١) انظر : الأغاني (١٩ / ٤١ و ٤٢) ومعاهد التنصيص (٣ / ٥٩) .

(٢) وفيات الأعيان (٦ / ٣٣٧) .

(٣) وفيات الأعيان (٦ / ٣٣٧) .

(٤) سير أعلام النبلاء (٩ / ٧١) ويعني : الجدوع التي يُضَلَّبون عليها إذا قُتلوا .

الرَّشِيد فِي سَنَةِ (١٧٢ هـ) ، ثُمَّ وَلَاهُ إِيَّاهَا ، وَضَمَّ إِلَيْهَا أَذْرَبِيجَانَ سَنَةِ (١٨٣ هـ) ^(١) .

* كَمَا أَنَّ يَزِيدَ وَلِيَ الْيَمَنَ ^(٢) ، وَلَمَّا كَانَ وَالِيًا عَلَيْهَا ، قَصَدَهُ أَبُو الشَّمَقْمَقِ مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ - مَوْلَى مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ الْجَعْدِيَّ آخَرَ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ - الشَّاعِرَ الْكُوفِيَّ الْمَشْهُورَ ، وَكُنِيَّتُهُ أَبُو مُحَمَّدٍ ، وَكَانَ مَشْهُورًا بِأَبِي الشَّمَقْمَقِ ، وَهُوَ فِي حَالِ رَثَّةٍ ، وَكَانَ رَاجِلًا ، فَمَدَحَهُ وَشَرَحَ حَالَهُ بِقَوْلِهِ :
رَحَلَ الْمَطْيِيَّ إِلَيْكَ طَلَّابُ النَّدَى وَرَحَلْتُ نَحْوَكَ نَاقَةً نَعْلَيْهِ
إِذْ لَمْ تَكُنْ لِي يَا يَزِيدُ مَطِيَّةً فَجَعَلْتُهَا لِي فِي السَّفَارِ مَطِيَّةً
وَمِنْهَا قَوْلُهُ :

تَتَابُ أَكْرَمَ وَائِلٍ فِي بَيْتِهَا حَسْبًا وَقَبَّةً مَجْدِهَا مَبْنِيَّةً
أَعْنِي يَزِيدًا سَيْفَ آلِ مُحَمَّدٍ فَرَّاجَ كُلِّ شَدِيدَةٍ مُخْشِيَّةً
يَوْمَاهُ يَوْمٌ لِلْمَوَاهِبِ وَالْجَدَا خَضِلٌ وَيَوْمٌ دَمٌ وَخُطْفُ مَنِيَّةً
وَلَقَدْ أَتَيْتُكَ وَاثِقًا بِكَ عَالِمًا أَنْ لَسْتُ تَسْمَعُ مَدْحَةً بِنَسِيَّةً
فَقَالَ يَزِيدُ : صَدَقْتَ يَا شَمَقْمَقِي ، وَلَسْتُ أَقْبَلُ مَدْحَةً بِنَسِيَّةٍ - بِأَجَلٍ - ،
أَعْطَوهُ أَلْفَ دِينَارٍ ^(٣) .

* وَلِهَذَا امْتَدَحَهُ مَنْصُورُ بْنُ سَلَمَةَ النَّمْرِيَّ الشَّاعِرَ الْمَعْرُوفَ ، بِقَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ بَائِيَةٍ أَحْسَنَ فِيهَا كُلَّ الْإِحْسَانِ ، وَمِنْهَا هَذَا الْبَيْتُ الْجَمِيلُ :
لَوْ لَمْ يَكُنْ لِبَنِي شَيْبَانَ مِنْ حَسَبٍ سِوَى يَزِيدَ لَفَاتُوا النَّاسَ بِالْحَسَبِ
* وَأُورِدَ مَوْلَى يَزِيدَ بْنِ مَزِيدٍ خَبْرًا عَنْ عُلُوِّ هِمَّةِ يَزِيدَ فَقَالَ : رَكِبَ يَزِيدُ

(١) وفيات الأعيان (٦/٣٢٧) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٩/٧١) .

(٣) انظر : تاريخ بغداد (١٤/٣٣٦) بتصرف يسير جداً .

يوماً إلى الرشيد ، فتغلَّفَ بغاليةٍ - طِيب - ثُمَّ لَمْ يلبثْ أَنْ عادَ ، فدعا بطستٍ ، فغَسَلَ الغاليةَ ، وقالَ: كرهتْ أَنْ أكْذِبَ قولَ مسلمِ بنِ الوليدِ :
 لَا يَعْبُقُ الطَّيْبُ خَدَّيْهِ وَمَفْرِقِهِ وَلَا يُمَسِّحَ عَيْنَيْهِ مِنَ الْكُحْلِ^(١)
 * وكانَ يزيدُ حَصيفاً يدرُكُ بواطنَ الكلامِ ، كما كانَ حازماً فِطْناً ، فقد ذكَرَ الأصفهاني أَنَّ مسلمَ بنَ الوليدِ كانَ جالساً بينَ يدي يزيدَ بنِ يزيدٍ ، فأُتاه كتابٌ فيه مهمٌّ له ، فقرأه سرّاً ووضعهُ ، ثُمَّ أعادَ قراءتَهُ ووضعهُ ، ثُمَّ أرادَ القيامَ ، فقالَ له مسلمُ بنُ الوليدِ :
 الْحَزْمُ تَحْرِيقُهُ إِنْ كُنْتَ ذَا حَذَرٍ وَإِنَّمَا الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ لَقَدْ أَتَاكَ وَقَدْ أَدَّى أَمَانَتَهُ فَاجْعَلْ صِيَانَتَهُ فِي بَطْنِ أَرْمَاسٍ فَضَحَكَ يزيدُ وقالَ: صدقتَ لعمرى ، وخرَّقَ الكتابَ ، وأمرَ بإحراقهِ^(١).

* وليزيدُ بعضُ الأخبارِ الطَّرِيفةِ الممتعةِ ، فقد أوردَ أبو العباسِ المبرِّدُ هذه الطَّرِفةَ في «كامِله» فقالَ : نَظَرَ يزيدُ بنُ يزيدٍ الشَّيباني إلى رجلٍ ذي لَحْيَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَقَدْ تَلَفَّفَتْ عَلَى صَدْرِهِ ، فإذا هو خاضِبٌ ، فقالَ: إِنَّكَ مِنْ لَحِيكَ فِي مَوْوَنَةٍ!

فقالَ : أَجَلٌ وَلِذَلِكَ أَقُولُ:

لَهَا دِرْهَمٌ لِلدَّهْنِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ وَأَخْرُ لِلْحَنَاءِ يَتَدَرَانِ
 وَلَوْلَا نَوَالُ مِنْ يَزِيدَ بْنِ مَزِيدٍ لَصَوَّتَ فِي حَافَاتِهَا الْجَلَمَانِ^(٢)

(١) انظر: الأغاني (١٩/٤٦).

(٢) انظر: الكامل (١٢٨/٢) طبعة مصر ، والكامل (٦٥٣/٢) طبعة مؤسسة الرسالة في بيروت ، وسير أعلام النبلاء (٧٢/٩) ، ووفيات الأعيان (٦/٣٣٦) ، و«الجلَّمان»: بفتح الجيم واللام ، تشيئةً جَلَمَ ، وهو المقصَّ. قال المبرِّد: قال أعرابي:

عُلُوّ هِمَّتِهِ :

* كان يزيدُ بنُ يزيدَ عالي الهمة ، متأهباً لكلِّ الملماتِ في جميع الأحوال ، وقد عُرِفَ بهذه الصِّفة منذُ نُعومةِ أظفاره ، حتى إنّ عمّه معنَ بنَ زائدة كان شديد الإعجابِ بعُلُوّ همته ، وكمالِ مروءته ، فكان يقدّمه على أولاده ، لأنّه احتلَّ من نفسه مكاناً رخباً فسيحاً.

* روي أنّ معنَ بنَ زائدة كان يقدّم ابنَ أخيه يزيدَ على أولاده ، وينوّه به ، ويرفعُ من شأنه في كلّ مناسبة ، فغارت امرأته من ذلك ، ووجدت في نفسها ، وعاتبته عتاباً مريراً ، وكلمته وقالت : يا هذا ؛ كم تقدّم يزيدَ ابنَ أخيك ، وتؤخّرُ بنيك وهم همو في الذّروة والمجد ، ولو قدّمتهم لتقدّموا ، ولورفعتهم لارتفعوا.

فقال لها معنٌ : يا هذه ، إنّ يزيدَ ابنَ أخي قريبٌ منّي ، ثمّ إنّ له عليّ حقّ الولد إذ كنتُ عمّه ، وبعدُ فإنّ أولادي ألوطُ بقلبي ، وأدنى من نفسي ، ولكنني لا أجدُ عندهم من الغناء ما عنده ، ولو كان ما يضطلعُ به يزيدُ في بعيدٍ ، لصارَ قريباً ، أو عدواً لصارَ حبيباً ، ألا ترينَ علُوّ هِمّته ، وكمالَ مروءته ، وحسنَ أدبه؟! قالتُ : إنّك تبالغُ كثيراً في ذلك.

قال : إذاً ، سأريك في هذه الليلة ما تبسّطينَ به عذري ، وترينَ فضله على أولادي .

= كلُّ امرئٍ ذي لحيّة عثوليّة يقومُ عليها ظنٌّ أنّ له فضلاً وما الفضلُ في طولِ السّبال وعرضها إذا الله لم يجعلْ لصاحبها عقلاً و«عثولية» : كثيرة ، وقال بعضُ المحدثين : وما حسنُ الرّجالِ لهم بفخرٍ إذا ما أخطأ الحسنُ البيانُ كفى بالمرءِ عيباً أن تراه له وجهٌ وليس له لسانُ

* ثُمَّ إِنَّ مَعْنَاً لَمَّا احْلَوْلَكَ اللَّيْلُ وَعَسَّعَسَ ، نَادَى أَحَدَ خَدْمِهِ ، وَقَالَ لَهُ : يَا غَلَامَ ، اذْهَبْ فَادْعُ جَسَّاساً وَزَائِدَةً ، وَعَبْدَ اللَّهِ ، وَفُلَاناً وَفُلَاناً ، حَتَّى أَتَى عَلَى ذِكْرِ أَوْلَادِهِ جَمِيعاً ، فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ جَاؤُوا فِي الْغَلَائِلِ الْمُطَيَّبَةِ وَالثِّيَابِ اللَّيِّنَةِ ، وَالنَّعَالِ السُّنْدِيَةِ ، مَكْتَحِلِينَ ، مُتَعَطِّرِينَ ، - وَذَلِكَ بَعْدَ هِدَاةٍ مِنَ اللَّيْلِ - فَسَلَّمُوا وَجَلَسُوا فِي بَطْنِ .

* وَنَظَرَ مَعْنٌ إِلَى أَوْلَادِهِ ، وَهَمَّ عَلَى تِلْكَ الْهَيْئَةِ وَتِلْكَ الْحَالَةِ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى امْرَأَتِهِ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ شَيْئاً ، وَبَعْدَهَا نَادَى غَلَامَهُ وَقَالَ لَهُ : يَا غَلَامُ ، ادْعُ يَزِيدَ ابْنَ أَخِي .

* فَخَرَجَ الْغَلَامُ سَرِيعاً ، وَنَادَى يَزِيدَ ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ دَخَلَ عَلَى عَمِّهِ عَجْلاً وَعَلَيْهِ سِلَاحُهُ ، وَوَضَعَ رُمَحَهُ بَبَابِ الْمَجْلِسِ ، ثُمَّ دَخَلَ فَسَلَّمَ ؛ فَقَالَ لَهُ مَعْنٌ : مَا هَذِهِ الْهَيْئَةُ يَا أَبَا الزُّبَيْرِ ؟

فَقَالَ : جَاءَنِي رَسُولُ الْأَمِيرِ لَيْلًا ، فَخَفْتُ أَنْ يَكُونَ حَدَثٌ ، وَسَبَقَ وَهَمِي إِلَى أَنَّهُ يَرِيدُنِي لِمَهَمٍّ مِنَ الْأُمُورِ ، فَلَبِسْتُ سِلَاحِي ، وَقُلْتُ : إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ مُضِيئاً لِأَمْرِهِ وَلَمْ أَعْرِجْ ، وَإِنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، فَتَزَعُ ثِيَابِ الْحَرْبِ عَنِّي مِنْ أَسْهَلِ وَأَهْوَنِ الْأَشْيَاءِ وَأَيَسِّرَهَا .

فَقَالَ مَعْنٌ لَهُ وَلِأَوْلَادِهِ بَعْدَ أَنْ أَكْرَمَهُمْ : انصَرَفُوا فِي حِفْظِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ .

* فَلَمَّا خَرَجُوا قَالَتْ زَوْجَتُهُ : قَدْ تَبَيَّنَ لِي عَذْرُكَ الْآنَ ، وَعَجَبْتُ مِنْ فُطْنَةِ يَزِيدَ وَهَمَّتِهِ ، وَانْقَطَعَ عَتَابُهَا لَزَوْجِهَا ، فَأَنْشُدْ مَعْنٌ مَثَلًا :
نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامًا وَعَلَّمَتْهُ الْكَرَّ وَالْإِقْدَامَا
وَجَعَلَتْهُ مَلَكًا هُمَامًا^(١)

(١) وفيات الأعيان (٦/٣٣٣) بتصرف يسير . وقوله : «نفس عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامًا» مِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ الْمَشْهُورَةِ . قَالَ الْعُسْكُرِيُّ : هُوَ عِصَامُ بْنُ شَهْبَرِ الْجَرْمِيُّ ، وَكَانَ مِنْ =

* هذا وقد أشار إلى علو همة يزيد مسلم بن الوليد بقوله :

تَرَاهُ فِي الْأَمْنِ فِي دَرْعٍ مُضَاعَفَةٍ لَا يَأْمَنُ الدَّهْرَ أَنْ يُدْعَى عَلَى عَجَلٍ

* وهذا البيت من قصيدة مشهورة لمسلم بن الوليد في امتداح يزيد ، وله قصّة ظريفة ساقها صاحب «الأغاني» وغيره ، وقد أشرنا إليها في الفقرة السابقة ، وأنها حدثت مع هارون الرشيد .

* ومما حدث ليزيد مع هارون الرشيد ، ما حكاه يزيد بن مزيد عن نفسه فقال : أرسل إليّ الرشيد ليلاً يدعوني ، فأوجستُ منه خيفةً فقال : أنتَ القائلُ : أنا ركنُ الدّولةِ والثائرُ لها ، والضّاربُ أعناقَ بغاتها ، لا أُمّ لك ؛ أيّ ركن لك ، وأيّ ثائر أنت ؟ وهل كان منك فيها إلا نفخة أرنب رعبتَ قطاةً جئمتَ بمفحصها ؟

= أشدّ النَّاسِ بأساً ، وأبينهم لِسَاناً ، وأحزَمَهم رَأياً ، وكانَ على جِلِّ أَمْرِ التُّعْمَانِ ، ولم يكنْ في بيتِ قومِهِ أدنى مِنْهُ ، فقالَ له رجلٌ : كيفَ نزلتَ هذه المنزلةَ مِنَ الْمَلِكِ وَأَنْتَ دَنِيءُ الْأَصْلِ ؟ فقالَ :
نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَاماً وَعَلَّمَتْهُ الْكَرَّ وَالْإِقْدَامَا
وَجَعَلَتْهُ مَلِكاً هُمَامَا

والناسُ يقولونَ لمن يفتخرُ بنفسِهِ : عِصَامِي ، ولَمَن يفتخرُ بِآبَائِهِ عِظَامِي .
وقال رسولُ الله ﷺ : «مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يَسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» (أخرجهُ مسلم ٣٠٧٤ / ٤)
عن أبي هريرة مرفوعاً .
وقال أبو العتاهية :

هَلْ يَنْفَعُ الْمَرْءَ فِي فَهَاهَتِهِ مِنْ عَقْلِ جَدٍّ مَضَى وَعَقْلِ أَبٍ
مَا الْمَرْءُ إِلَّا ابْنُ نَفْسِهِ فِيهَا يُعْرِفُ عِنْدَ التَّحْصِيلِ لَا النَّسَبِ
كُنْ ابْنَ مَنْ شِئْتَ وَاکْتَسِبْ أَدَباً يَغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
* وكتبَ أبو الفضلُ بنُ العَمِيدِ : أظنُّكَ ممنَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ الْمُتَعَلِّقَ بِالْأَنْسَابِ مَتَمَسِّكٌ
بِأُضْعَفِ الْأَسْبَابِ ؛ وَأَنَّهُ لَنْ يَغْنِيَ عَنْكَ تَالِدٌ مُوروثٌ إِذَا لَمْ يَشِدْهُ مِنْ جِهَتِكَ طَارِفٌ
حديث .

قلت: يا أمير المؤمنين ، ما قلت هذا ، إنما قلت: أنا عبدُ الدولة والفائز بها.

فأطرقَ وجعلَ ينحلُّ غضبه عن وجهه ، ثمَّ ضحك ، فقلت: أَسْرُ من هذا قولي:

خِلَافَةُ اللَّهِ فِي هَارُونَ ثَابِتَةٌ وَفِي بَنِيهِ إِلَى أَنْ يُنْفَخَ الصُّورُ
إِرْثُ النَّبِيِّ لَكُمْ مِنْ دُونِ غَيْرِكُمْ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ مَسْطُورُ
فقال: يا فضل ، أعطه مئتي ألف درهم قبل أن يصبح^(١).

* ومما أثر عن علوِّ همّة يزيد بن يزيد ، وشهرته ونجدته هذه الحكاية اللطيفة ، التي أوردَها ابنُ خَلِّكان عن بعضهم فقال:

كنتُ مع يزيد بن يزيد ، فإذا صائح في الليل: يا يزيدَ بنَ يزيد ، فقال يزيد: عليّ بهذا الصّائح.

فلما جيء به قال له: ما حملك على أن ناديت بهذا الاسم؟! قال: نفقتُ دابّتي ، ونفدتُ نفقتي ، وسمعتُ قولَ الشّاعر فتيمنتُ به.

فقال: وما قالَ الشّاعر؟ فأنشد:

إِذَا قِيلَ مَنْ لِلْمَجْدِ وَالْجُودِ وَالنَّدَى فَنَادِ بِصَوْتٍ يَا يَزِيدَ بْنَ مَزِيدٍ

فلما سمعَ يزيدُ مقالته ، هَشَّ له وقال له: أتعرفُ يزيدَ بنَ يزيد؟

قال: لا والله.

قال: أنا هو ، وأمرَ له بفرسٍ أبلقٍ كان به مُعْجَبًا ، وبمئة دينار^(٢).

تلكم المكارمُ والأخلاقُ الحسان التي كان يزيدُ بنُ يزيد يتخلّقُ بها ،

(١) انظر: التذكرة الحمدونية (١٤٢/٢) طبعة دار صادر الأولى ١٩٩٦ م.

(٢) وفيات الأعيان (٣٣٧/٦).

ألا ما أجملَ وأكرمَ تلكَ الشَّمائلُ !! واللهُ درُّ القائلِ :

عَشِقَ المكارمَ فهو مشغولٌ بها والمكرماتُ قليلةُ العُشاقِ
وأقامَ سوقاً للثَّناء ولم تكنْ سوقُ الثَّناء تُعدُّ في الأسواقِ
بثَّ الصَّنائعِ في البلادِ فأصبَحَتْ تُجىئُ إليه محامدُ الأخلاقِ
يزيدُ ومقتلُ الوليدِ بنِ طَريفٍ :

* كانَ يزيدُ بنُ مزيدَ الشَّيباني واحدًا منَ الفُرسانِ الشُّجعانِ الذين دَعَمُوا
الخلافةَ العبَّاسيَّةَ بِأسِهِم وبطولَتِهِم وشجاعتِهِم^(١) ، وهو الذي قَتَلَ رأسَ
الخوارجِ وفارسِهِم الوليدَ بنَ طريفِ الشَّاري .

* وكانَ الخليفةُ هارونَ الرَّشيدَ - رحمه الله - يحبُّ البطلَ الفارسَ
الصَّنديدَ يزيدَ بنَ مزيدَ الشَّيباني ويقَدِّمه على غيرِهِ من فرسانِ عَصْرِهِ ،
وكذلك كانَ يقَدِّمَ عَمَّهُ معنَ بنَ زائدة ، ممَّا أثارَ حقدَ البرامكةِ الذين كانوا

(١) من الأدلَّةِ على أنَّ يزيدَ بنَ مزيدَ كانَ سَدَنًا قويًا للخلافةِ العبَّاسيَّةِ ، ما وردَ أنَّه خرجَ
في سَنَةِ (١٦٠ هـ) رجلٌ بخراسانَ على المهديِّ مُنْكَرًا عليه أحوالُه وسيرتُه
وما يتعاطاهُ ، يُقالُ له : يوسفُ البرم ، والتَفَّ عليه خَلْقٌ كثيرٌ ، وتفاقمَ الأمرُ ،
وعظُمَ الخطبُ به ، فتوجَّهَ إليه يزيدُ بنُ مزيدَ فلقِيَه ، فاقتتلا قتالًا شديدًا ، حتَّى
تنازَلا وتعانقا ، فأسرَ يزيدُ بنُ مزيدَ يوسفَ هذا ، وأسرَ جماعةً منَ أصحابِهِ ،
فبعثَهُم إلى المهديِّ ، فأدْخِلُوا عليه ، وقد حُمِلُوا على جمالٍ مُحَوَّلَةٍ وجوهُهُم إلى
ناحيةِ أذنانِ الإبلِ ، فأمرَ الخليفةَ هرثمةَ أنْ يقطعَ يَدَيِ يوسفَ ورجليَه ، ثمَّ تُضْرَبُ
عنقُه وأعناقُ مَنْ معه ، وصلَّيَهُم على جسرٍ دجلةَ الأكبرِ ممَّا يلي عسكرَ المهديِّ ،
وأطفأ اللهُ نائرتَهُم ، وكفى شرَّهُم .
(البداية والنهاية ١٠ / ١٣١)

* وفي سَنَةِ (١٨٣ هـ) خرجتِ الخزُرُ على النَّاسِ من ثلثةِ أرمينية ، فعاثوا في تلكَ
البلادِ فسادًا ، وسبُّوا منَ المسلمينِ وأهلِ الدِّمَّةِ نحوًا من مئةِ ألفٍ ، وقتلوا بشرًا
كثيرًا ، وانهزمَ نائبُ أرمينيةِ سعيدُ بنُ مسلمٍ ، فأرسلَ الرِّشيدُ إليهم خازمَ بنَ خزيمة
ويزيدَ بنَ مزيدَ في جيوشٍ كثيفةٍ ، فأصلحوا ما فسَدَ في تلكَ البلادِ .

(البداية والنهاية ١٠ / ١٨٣)

أعداء ليزيد ، ويحسدونه على مكانته من هارون الرشيد^(١).

* ومن العجيب أنّ البرامكة وزراء هارون الرشيد هم الذين دبّروا ضدّ يزيد بن يزيد لإبعاده عن حُبّ الخليفة وعطفه ، فقد اهتبلوا فرصة خطيرة من أخطر ما مرّ على الدولة العباسية في عصر الرشيد ، وهي قوّة الوليد بن طريف الشّاري الشّيباني زعيم الخوارج ، وفارسهم ومقدمهم ضدّ هارون الرشيد ، وزيّنوا للخليفة أن يرسل جيشاً بقيادة يزيد لحربه ، وهنا أصبح يزيد بن يزيد بين أمرين حرجين :

(١) ممّا يدلّ على عداوة البرامكة وحسدّهم ليزيد بن يزيد ومعن بن زائدة ما أورده الأصفهانيّ قال: دخل سلّم الخاسر على الرشيد ، وعنده العباس بن محمّد ، وجعفر بن يحيى ، فأنشده قوله فيه: «حضر الرّحيل وشدتّ الأحداج...». فلما انتهى إلى قوله:

إنّ المنايا في السيوف كوامٍ حتّى يهيّجها فتى هياج
فقال الرشيد: كان ذلك معن بن زائدة.

فقال: صدق أمير المؤمنين ، ثم أنشد حتّى انتهى إلى قوله:
ومدّجّج يغشى المضيق بسيفه حتّى يكون بسيفه الإفراج
فقال الرشيد: ذلك يزيد بن يزيد.

فقال: صدق أمير المؤمنين.
فاغتاظ جعفر بن يحيى ، وكان يزيد بن يزيد عدواً للبرامكة ، مُصافياً للفضل بن الرّبيع ، فلما انتهى إلى قوله:

نزلت نجوم الليل فوق رؤوسهم ولكلّ قوم كوكب وهّاج
قال له جعفر بن يحيى: من قلّة الشّعر حتّى تمدح أمير المؤمنين بشعر قيل في غيره!
هذا لبّشار في فلاّن التّميمي ، فقال الرشيد: ما تقول يا سلّم؟ صدق يا سيدي ، وهل أنا إلّا جزء من محاسن بشار ، هل أنطق إلا بفضل منطقته ، وحياتك يا سيدي إنّي لأروي له تسعة آلاف بيت ، ما يعرف أحد غيري منها شيئاً. فضحك الرشيد ، وقال: ما أحسن الصّدق! امض في شعرك ، وأمر له بمئة ألف درهم.

(الأغاني ٣٠٠/١٩ و٣٠١)

الأوّل: إمّا أن يحاربَ ابنَ عمّه الوليدَ بنَ طريف الشّيباني ، فيقتله أو يُقتلَ ، وبذلك يرضي الخليفة الرّشيد .

الثاني: إمّا أن يقفَ إلى جانبِ ابنِ عمّه الوليدِ بنِ طريف ، وعندها يقعُ في غضبِ الخليفة .

* وعندما انتصرَ يزيدُ ضدَّ الخارجينَ على الخليفة العربيّ القرشيّ ، سكّت البرامكةُ وألجموا حينَ أخفقتُ مساعيهم فيما دبّروه سرّاً ، وأظهروا الفرَحَ لهذا ، وهم على غيظٍ وحنقٍ شديدٍ ، تكادُ أفئدتهم تنفطرُ من ذلك^(١) .

* أما قصّةُ مقتلِ الوليدِ بنِ طريف على يدِ يزيدَ بنِ يزيد ، فقد ذكرتها كثيرٌ من المصادرِ التّاريخية والأدبيّة .

* فقد كانَ الوليدُ بنُ طريف بنِ الصّلت الشّيباني الشّاري أحدَ الشّجعانِ الطّغاةِ الأبطالِ ، وكانَ رأسَ الخوارجِ ، يقيمُ في نصيبين والخابور وهاتيك النّواحي ببلادِ الجزيرة ، وخرجَ في خلافةِ هارون الرّشيد ، وبغى في الأرض الفسّادَ ، وحشدَ جموعاً كثيرةً حوله ، وعظّمَ جمعه من الشّراة حتّى انتشروا في تلكَ البلادِ ، ونهضَ إليهم عاملُ ديار ربيعة فقتلوه ، وصارَ إلى ديارِ مُضَرَ ، فحصرُوا عبدَ الملك بنَ صالح بنِ عليّ العبّاسي بالرقّة ،

(١) قال الدكتور جميل سلطان عن مكائيد الأعاجم وبلاياهم: وكانَ منّ بلايا الأعاجم على هذه الأُمّة أن أفسدوا لها عقائدها وآراءها في كلّ شيء ، حتّى في المنكر المكروه ، فقد صيّروه مُستظرفاً طبيعياً في دولتهم ، وفيما وليهم من الدّول ، فلم يكنِ يستشعرُ معظمُ الناس في ذلك استنكاراً ، لأنّ الأخلاقَ نسيبةً ، وأحكامَ البشرِ تنغيّرُ بتغيّرِ الأزمانِ ، وهكذا انتقمَ الفرسُ من العربِ الفاتحين انتقامين: تقويضَ الملكِ العربيّ الخالص ؛ وإفسادَ الأخلاقِ العربيّة الفاضلة .

(مسلم بن الوليد ص ١٣٦)

فاستشار هارون الرّشيد يحيى بن خالد البرمكي فيمن يوجّهه لحرب الوليد بن طريف الشّيباني ، فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين ، وجّه إليه موسى بن حازم التّميمي ، فإنّ فرعون كان اسمه الوليد ، فغرّقه موسى عليه السّلام .

* فوجّه الرّشيد موسى بن حازم التّميمي إلى الوليد في جيش كثيف ، لكنّ الوليد لاقاه في أصحابه وجماعته ، وهزمه الوليد وقتله ، وشئت جيشه وفرق جموعه .

* ولما بلغ الرّشيد ذلك وجّه إليه معمر بن عيسى العبديّ ، فكانت بينهما عدّة وقائع بناحية دار من ديار ربيعة ، فلما اتّصل ذلك ، وكثرت جموع الوليد ، وظهر هذا الطّهور العظيم ، قال الرّشيد: ليس لها إلّا الأعرابي يزيد بن يزيد الشّيباني ؛ فقال بكر بن النّطّاح الشّاعر:

لا تبعثنّ إلى ربيعة غيرّها إنّ الحديدَ غيره لا يُفلحُ

* فوجّه الرّشيد إليه يزيد بن يزيد^(١) في عسكر ضخم ، وأمره

(١) جاء في كتاب «المختار من شعر بشار» طبعة مصر عام (١٩٣٤ م) ، عن سبب قتل الوليد بن طريف مايلى: مات الوليد مقتولاً ، قتله ابن عمّه يزيد بن يزيد الشّيباني ، وسبب قتله إيّاه أنّ الوليد بن طريف كان خرج على الرّشيد ، فدعا الرّشيد يزيد بن يزيد ، فقال له: يا يزيد من القائل:

الله من هاشم في أرضه جبلٌ وأنت وابنك ركنَا ذلك الجبلِ
قد عظموك فما تدعى لهيئةٍ إلّا لمعضلة تستن في العضلِ

قال: هو في شعر مسلم بن الوليد .

قال: ففني من قاله مسلم؟

قال: في عبدك يا أمير المؤمنين!

قال: دعوتك لحرب الوليد بن طريف الشّيباني .

فقال: يا أمير المؤمنين ، لو نذبت رجلاً من غير عشيرته .

فقال الرّشيد: إنّي لم أدعك للمشاورة .

بمناجزته ، فقصده يزيد ، وجعل الوليد يراوغه ويزيد يتبعه ، وكان الوليد ذا مكر ودهاء ، ثم كانت بينهما حربٌ صعبة .

* وكانت البرامكة منحرفةً عن يزيد بن يزيد ويكيدون له كلما سنحت لهم الفرصة بذلك ، وهنا أوغروا صدرَ الرشيد ، وأغروا به عنده وقالوا له : يا أمير المؤمنين : إنَّ يزيدَ بنَ يزيد الشيباني يراعي الوليدَ لأجلِ الرَّحِمِ بينهما ، وإلَّا فشوكهُ الوليدُ بنِ طريف يسيرةً وسهولةً ، وقناته ليست صلبةً .

* وبلغ الرشيدُ مُطاطلةَ يزيد بن يزيد له ، فوجهَ إليه خيلاً بعد خيل ، ثم بعثَ إليه مَنْ يعنّفه - بعد مقالة البرامكة فيه وافترائهم عليه - وقال له : لو وجهتُ أحدَ الخدم لقامَ بأكثر مما تقومُ به ، ولكنك مداهنٌ متعصّبٌ ، وأميرُ المؤمنين يقسمُ بالله لئن أخرتَ مناجزةَ الوليدِ ، ليعثنَّ إليك من يحملُ رأسك إلى أمير المؤمنين .

* فسارَ يزيدُ في طلبه ، ثم نزل يصلي الصُّبح ، فلم يستتم صلاته حتى طلعَ الوليدُ عليه في عسكره ، واصطفقت الخيلان وتزاحفت الناس .

فقال يزيد : السَّمْعُ والطَّاعة .

* فخرجَ حتّى شارفَ عسكرَ الوليدِ بنِ طريف ، فكتبَ الوليدُ إليه مِراراً ينهَاهُ عن قتالِهِ ، ويستعطفُهُ ويوتّخُهُ ويدعوه إلى الخلافِ على الرشيدِ ، وقالَ له في بعضِ الكتبِ إليه : أَمَا تستحيي أن تكونَ عوناً للظَّالَمين على الدَّعوةِ إلى الحقِّ والنَّاصحين لله ولرسوله ، وأنا ابنُ عمِّك؟! فوالله لئن أنتَ وافقتني على هذا الأمرِ فاجتمعنا عليه ، لا أطاقتُ أحدٌ ، وإن لم تفعلْ فوالله لئن قتلتنِي لتوهينَ عَزَّكَ ، ولئن قتلْتُكَ لأوهينَ عَزِي .

* فلم يلبثْ إليه يزيدُ وقتالَهُ حتّى ظفرَ به وهزمَ أصحابه ، وكتبَ إلى الرشيد بالفتح ، فسَرَّ الرشيدُ بذلك وابتهجَ له ، ورمى بكتابه إلى عيسى بن جعفر ، فقال له : اقرأ ، فلما قرأه عيسى قال : يا أمير المؤمنين ، أتدري ما يقولُ هذا وقومُه؟! قال : وما يقولون؟ قال : يقولون : لولا نحنُ لانفكتِ الأرضُ بأهلها .

* وقد ورد أنَّ الوليدَ بنَ طريف كان ينشدُ:
أَنَا الْوَلِيدُ بْنُ طَرِيفِ الشَّارِي قَسُورَةٌ لَا يُصْطَلَى بَنَارِي
جَوْزُكُمْ أَخْرَجَنِي مِنْ دَارِي

* ويروى أنَّ الوليدَ كان يقولُ في مخاطبةِ يزيد بنَ يزيد:
سَتَعَلِّمُ يَا يَزِيدُ إِذَا التَّقِيْنَا بِشَطِّ الزَّابِ أَيَّ فَتَى يَكُونُ
* ولما شَبَّتِ الحربُ ، واشتَدَّتْ شوكتُها ، والتهبَّتْ نارُها ، ناداه
يزيدُ: يا وليد ما حاجتك إلى التَّسَرُّ بالرجال؟ ابرزْ إليَّ.
فقال الوليدُ: نعم واللهِ.

* فبرزَ الوليدُ ، وبرزَ إليه يزيد ، ووقفَ العسكران فلم يتحركَ منهما
أحدٌ ، فتطاردا ساعةً ، وكلُّ واحدٍ منهما لا يقدرُ على صاحبه ، حتى مضتْ
ساعاتٌ منَ النَّهارِ ، فأمكنَتْ يزيدُ فيه الفرصةُ ، فضربَ رجلَه فسَقَطَ ،
وصاحَ يزيدُ بخيلِه فسقطُوا عليه ، واحتزَّوا رأسَه ، وذلك في سنة
(١٧٩ هـ) ، عشيةَ أوَّلِ خميسٍ في شهرِ رمضان^(١).

* ثُمَّ إِنَّ يَزِيدَ وَجَّهَ بِرَأْسِ الْوَلِيدِ بْنِ طَرِيفِ^(٢) إِلَى الرَّشِيدِ ، وبكتابِ

(١) انظر: وفيات الأعيان (٦/٣١ و ٣٢ و ٣٢٧ و ٣٢٩) بتصرف. وقال ابنُ العماد في حوادث سنة (١٧٩ هـ): فيها كانت فتنةُ الوليدِ بن طريف الشَّارِي الخارجي ، وأحدِ الشُّرَاةِ وهم الخوارجُ ، وسمَّوا بذلك لقولهم: شَرِينَا أَنْفُسَنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، أَيُّ بَعْنَاهَا بِالْجَنَّةِ حِينَ فَارَقْنَا الْأُمَّةَ الْجَبَابِرَةَ. وكانَ الوليدُ أحدَ الشَّجعانِ ، وندبَ الرشيدُ لحربه يزيدَ بنَ يزيد بن زائدة ، ومكثَ يزيدُ مدَّةَ يماكرِه ويخادِعُه ، وكانت البرامكةُ منحرفةً عن يزيد ، فقالوا للرَّشيد: إِنَّهُ مُدَاهِنٌ. فأرسلَ إليه يتوعَّده ، فناجزه يزيدُ فظفرَ به ، ولما انهزمَ تبعه يزيدُ بنفسه حتَّى أدركه على مسافةٍ بعيدة ، فقتله ، واحتزَّ رأسَه.

(شذرات الذهب ٢/٣٤٩) بتصرف واختصار

(٢) يُقال: إِنَّهُ لَمَّا انكسرَ جيشُ الوليد ، وانهزمَ تبعه يزيدُ بنفسه حتَّى لحقه على مسافةٍ بعيدة ، فقتله وأخذَ رأسَه.

الفتح مع ابنه أسد بن يزيد ، وفي ذلك يقولُ مُسلمُ بنُ الوليد في يزيد قصيدة مشهورة منها :

لولا يزيدُ وأيامُ له سَلَفَتْ عاشَ الوليدُ معَ الغاوينَ أغوامًا
سَلَّ الخليفةُ سيفاً من بني مَطَرٍ يمضي فيخترقُ الأجسادَ والهَامَا
حمى الخلافةَ والإسلامَ فامتنعا كالليثِ يحمي معَ الأشبالِ آجامًا
أكرمَ بهِ وبآباءٍ له سَلَفُوا أبقوا منَ المجدِ أياماً وأيامًا
أردى الوليدَ همامٌ من بني مَطَرٍ يزيدُه الروعُ يومَ الروعِ إقدامًا

* ولما انصرفَ يزيدُ بالظفرِ إلى بابِ الرّشيد ، حُجِبَ برأي البرامكة ، وأظهرَ الرّشيدُ السُّحْطَ عليه ، فقال : وحقّ أمير المؤمنين لأصيفنّ وأشتونّ على فرسي أو أدخل ، فارتفعَ الخبرُ بذلك ، فأذنَ له ، فدخلَ وقَدَّمه ، ورفعَ مرتبته ، وضحكَ وسرّ ، وأقبلَ يصيحُ : مَرَحَبًا بالأعرابي حتّى دخلَ وأجلِسَ وأكرمَ وعُرفَ بلاؤه ، ونقاءُ صدره ، وقال له الرّشيد :

يا يزيدُ ، ما أكثرُ أمراء المؤمنين في قومك ؟!

قال : نعم إلا أنّ منابرهم الجدوع - يعني الجدوع التي يُصَلَّبون عليها إذا قُتِلوا^(١) -

* ومدحَ يزيدَ مسلمُ بنُ الوليدِ بقصيدةٍ ذَكَرَ فيها مقتلَ الوليدِ بنِ طريفٍ فقال من قصيدته اللامية المشهورة :

يَفْتَرُّ عندَ افترارِ الحربِ مُبتسماً إذا تغيَّرَ وجهُ الفارسِ البَطَلِ
مُوفٍ على مُهَجٍ في يومِ ذي رَهَجٍ كأنَّه أَجَلٌ يَسْعَى إلى أَمَلِ
يَنالُ بالرَّفْقِ ما تَعْيَا الرِّجالُ بهِ كالموتِ مُستعجلاً يأتي على مَهَلِ

إلى أن يقول :

(١) وفیات الأعيان (٣٢٩/٦) ، ومعاهد التنصيص (١٦٢/٣) مع الجمع والتصرف .

والمَارِقُ ابْنُ طَرِيفٍ قَدْ دَلَفَتْ لَهُ بَعَارِضٍ لِّلْمَنَايَا مُسْبِلٍ هَاطِلٍ
لَوْ أَنَّ غَيْرَ شَرِيكِيَّ أَطَافَ بِهِ فَازَ الْوَلِيدُ بِقَدَحِ النَّاضِلِ الْخَضِلِ
مَا كَانَ جَمْعُهُمْ لَمَّا دَلَفَتْ لَهُمْ إِلَّا كَمْثِلِ جَرَادٍ رِيعٍ مُنْجَفِلِ^(١)

* وقد روي أَنَّ هَارُونَ الرَّشِيدَ لما جَهَّزَ يَزِيدَ بْنَ مَزِيدٍ إِلَى حَرْبِ
الْوَلِيدِ بْنِ طَرِيفٍ أَعْطَاهُ ذَا الْفَقَّارِ سَيْفَ النَّبِيِّ ﷺ وقال له : خُذْهُ يَا يَزِيدُ ،
فَإِنَّكَ سَتَنْصُرُ بِهِ ، فَأَخَذَهُ وَمَضَى ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ مُسْلِمٌ بْنُ الْوَلِيدِ :
أَذْكَرْتَ سَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ سُنَّتِهِ وَبَأْسَ أَوَّلِ مَنْ صَلَّى وَمَنْ صَامَا
يَعْنِي بَأْسَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِذْ كَانَ هُوَ الضَّارِبُ
بِهِ^(٢) .

* وَمَنْ الْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ طَرِيفٍ قَدْ رَثَتْهُ أُخْتُهُ الْفَارَعَةُ^(٣) بِيَضْعِ
قِصَائِدَ وَمَقْطَعَاتٍ ، وَمِنْهَا الْقَصِيدَةُ الْفَائِيَّةُ الْمَشْهُورَةُ الَّتِي مِنْهَا هَذِهِ الْأَبْيَاتُ :
أَيَا شَجَرِ الْخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَخْزَنْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ
فَتَى لَا يَحِبُّ الزَّادَ إِلَّا مِنَ الثَّقَى وَلَا الْمَالَ إِلَّا مَنْ قَنَأَ وَسِيفِ^(٤)
ومنها :

حَلِيفَ النَّدَى مَا عَاشَ يَرْضَى بِهِ النَّدَى فَإِنْ مَاتَ لَا يَرْضَى النَّدَى بِحَلِيفٍ
فَإِنْ يَكُ أَرَادَهُ يَزِيدُ بْنُ مَزِيدٍ فَرُبَّ زُحُوفٍ لَفَّهَا بِزُحُوفٍ
عَلَيْهِ سَلَامٌ اللَّهُ وَقَفَا فَإِنِّي أَرَى الْمَوْتَ وَقَاعًا بِكُلِّ شَرِيفٍ

(١) معاهد التنصيص (٣/١٦٣) .

(٢) وفيات الأعيان (٦/٣٢٩) . وقال الأصمعيُّ : رَأَيْتُ الرَّشِيدَ بَطُوسٍ مُتَقَلِّدًا سَيْفًا ،
فَقَالَ : يَا أَصْمَعِيُّ ، أَلَا أَرِيكَ ذَا الْفَقَّارِ؟ ! قُلْتُ : بَلَى ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ . فَقَالَ :
اسْتَلَّ سَيْفِي هَذَا ، فَاسْتَلَّتْهُ ، فَرَأَيْتُ فِيهِ ثَمَانِي عَشْرَةَ فَقَارَةً .

(وفايات الأعيان ٦/٣٣٠)

(٣) اقرأ سيرتها في هذا الكتاب في الباب الأخير تحت عنوان : فارسات من التاريخ .

(٤) البداية والنهاية (١٠/١٧٣) .

* ومن مراثيها فيه قولها :

ذَكَرْتُ الْوَلِيدَ وَإِيَامَهُ إِذَا الْأَرْضُ مِنْ شَخْصِهِ بُلْقُعُ
أَضَاعَكَ قَوْمُكَ فَلْيَطْلُبُوا إِفَادَةَ مِثْلِ الَّذِي ضَيَّعُوا^(١)
وَدَاعَاً أَبَا التُّجَبَاءِ :

* ظلَّ الفارسُ البطلُ يزيدُ بنُ مزيدٍ أميرَ السَّاحَاتِ وشجاعَ المعامع طيلةَ حياته ؛ والكلامُ عنه طَوِيلٌ طَوِيلٌ ، والكلامُ شجونٌ يتعلَّقُ بعضُه ببعض ، ومحاسنُ يزيدٍ كثيرةٌ كثيرةٌ ، لا تَتَّسِعُ هذه العُجالةُ لجمعِ أَشْتَاتِهَا ، ونظْمِهَا في هذا العقدِ النَّفيسِ .

* وامتدتِ الحياةُ بيزيدَ إلى سنَّةِ (١٨٥ هـ) ، حيثُ وافَتْهُ المنيَّةُ ، ورثاهُ عددٌ من الأماثلِ وأكابرِ الشُّعراءِ ، وذكرُوا جودَه وكرمَه وشجاعَتَه ، وعدَّدُوا مآثرَه وأياديَه البَيضَ في مجالِ اللِّسانِ والسَّنانِ .

* ورثاهُ مسلمُ بنُ الوليدِ ، وبكاهُ بكاءً حاراً وجادت عيناُه بدمعِ هَتُونٍ ، وفي مثلِ يزيدٍ تَسَخُّو البواكي ، فهو البطلُ النَّجيدُ ، والفارسُ النَّجيبُ ، والكَرِيمُ الجوادُ ، فها هو مسلمُ بنُ الوليدِ لا يكادُ يصدِّقُ النَّبَأَ المؤلَمَ ، نبأَ وفاةِ يزيدٍ الذي هَصَرَ الموتُ ، ويتساءلُ مسلمٌ كيفَ يُودي الموتُ حاميَ المجدِ والإسلامِ ؟ وكيفَ تتماسكُ الأرضُ فلا تَمِيدُ ؟ وتقفُ دعائمُ الإسلامِ فلا تَمِيلُ ؟ بل كيفَ لا تُهْدُ نزارُ لمصرعِه ولا تتهدَّمُ الأمجادُ لفقدِه ؟ يقولُ مسلمُ بنُ الوليدِ في مراثيهِ الدَّاليةِ^(٢) والتي مطلعُها :

أَحَقُّ أَنَّهُ أَوْدَى يَزِيدُ تَأْمَلُ أَيُّهَا الدَّاعِي الْمُشِيدُ

(١) معاهد التنصيص (٣/ ١٦٣) . وللفارعة قصيدةً أخرى داليةً أولها :

يا بني وائلٍ لقد فجعتكم من يزيدٍ سيوفه بالوليد

(٢) ذكر ابنُ خُلَّكان أنَّ هذه القصيدةَ قالها أبو محمد عبدُ اللهِ بنُ أيوبَ التيمي الشاعر المشهور .

بِهِ شَفَتَاكَ كَانَ بِهَا الصَّعِيدُ
فَمَا لِلْأَرْضِ وَيْحَكَ لَا تَمِيدُ
دَعَائِمُهُ وَهَلْ شَابَ الْوَلِيدُ
وَهَلْ وُضِعَتْ عَلَى الْخَيْلِ اللَّبُودُ

تَأْمَلُ مَنْ نَعَيْتَ وَكَيْفَ فَاهَتْ
أَحَامِي الْمَجْدِ وَالْإِسْلَامِ أودى
تَأْمَلُ هَلْ تَرَى الْإِسْلَامَ مَالَتْ
وَهَلْ شِيَمَتْ سَيْوْفُ بَنِي نِزَارِ
ومنها:

بَلَى وَتَقَوَّضَ الْمَجْدُ الْمَشِيدُ
طَرِيفُ الْمَجْدِ وَالْحَسْبُ التَّلِيدُ
عَلَيْكَ بَدْمِعِهَا أَبَدًا تَجُودُ
دُمُوعًا أَوْ تُصَانْ لَهَا خُودُ
فَرِيْسٌ لِلْمَنِيَّةِ أَوْ طَرِيدُ
فَتَكُنْ بِهِ وَهْنٌ لَهُ جَنُودُ
عَلَيْهَا مِثْلُ يَوْمِكَ لَا يَعُودُ^(١)

أَمَّا هُدَّتْ لِمَضْرَعِهِ نِزَارُ
وَحَلَّ ضَرِيحُهُ إِذْ حَلَّ فِيهِ
أَمَّا وَاللَّهِ لَا تَنْفَكُ عَيْنِي
أَبْعَدُ يَزِيدَ تَخْتَزُنُ الْبَوَاكِي
فَإِنْ يَهْلِكُ يَزِيدُ فَكُلَّ حَيٍّ
أَلَمْ تَعْجَبْ لَهُ أَنَّ الْمَنَايَا
لَقَدْ عَزَى رُبْعَةً أَنَّ يَوْمًا

* ويروى أَنَّ يَزِيدَ بْنَ مَزِيدٍ قَدْ مَاتَ فِي بَلَدٍ يُسَمَّى «بِرْدَعَةَ» أَوْ «بِرْدَعَةَ» ،

فِي أَقْصَى أَذْرَبِيجَانَ فَرْتَاهُ مُسْلِمٌ بْنُ الْوَلِيدِ بِأَبْيَاتٍ مِنْهَا :

خَطَرًا تَقَاصَرُ دُونَهُ الْأَخْطَارُ
حُزْنًا كَعَمْرِ الزَّهْرِ لَيْسَ يُعَارُ
وَاسْتَرْجَعْتُ نُزَاعَهَا الْأَمْصَارُ
أَثْنَى عَلَيْهَا السَّهْلُ وَالْأَوْعَارُ^(٢)

قَبْرُ بِرْدَعَةَ اسْتَسَرَّ ضَرِيحُهُ
أَبْقَى الزَّمَانُ عَلَى مَعْدٍ بَعْدَهُ
نَفَضَتْ بِكَ الْأَحْلَاسَ آمَالُ الْغَنَى
فَاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ

(١) ديوان صريع الغواني (ص ١٤٧ - ١٤٩) والقصيدة تعد (١٨ بيتاً). وانظر: وفيات

الأعيان (٣٣٨/٦) ، ومسلم بن الوليد لجميل سلطان (ص ١٨٨ و ١٨٩) طبعة دار
الأنوار بيروت ١٩٦٧ م. وغير ذلك من مصادر.

(٢) ديوان صريع الغواني (ص ٣١٣ و ٣١٤) باختصار؛ وانظر: وفيات الأعيان
(٣٣٩/٦).

* وقيل : إِنَّ هَذَا الْبَيْتَ الْأَخِيرَ أَبْلَغُ شَيْءٍ قِيلَ فِي الْمَرَاثِي ^(١) .

* ورثاه منصور النّمرى فقال :

أَبَا خَالِدٍ مَا كَانَ أَذْهَىٰ مُصِيبَةً أَصَابَتْ مَعْدًا يَوْمَ أَصْبَحْتَ ثَاوِيَا
لِعَمْرِي لَنْ سُرَّ الْأَعَادِي فَأَظْهَرُوا شَمَاتًا لَقَدْ مَرَّوْا بِرَبْعِكَ خَالِيَا
فَإِنْ يَكُ أَفْتَنَهُ اللَّيَالِي وَأَوْشَكَتْ فَإِنَّ لَهُ ذِكْرًا سِيفِنِي اللَّيَالِيَا ^(٢)

* ومن الجدير بالذكر أنّه كَانَ ليزيد ولدان نجيبان جليلان سيّدان هما :
خالدُ بنُ يزيد ممدوح أبي تمام الطّائي ، وله فيه أحسن المدائح وقد
تضمّنّها ديوانه .

* وابنه الآخر محمدُ بن يزيد ، وكان موصوفاً بالكرم ، وأنّه لا يردُّ
طالباً ، فَإِنْ لَمْ يَحْضُرْهُ مَالٌ لَمْ يَقُلْ لَا ، بَلْ يَعِدُّ ثُمَّ يَعَجِّلُ الْعِدَّةَ .

* فرحم اللهُ يزيدَ بنَ يزيد وأولاده جميعاً ، وجعلنا من الأجوادِ
الكرماء ، وحشرنا في معيّة سيّد الأنبياء .

* * *

(١) وفيات الأعيان (٦/ ٣٣٩) .

(٢) المصدر السابق (٦/ ٣٤٠) .

الباب الرابع
فارسات من التاريخ

أم حكيم الخارجية
أم قرفة الفزارية
خولة بنت الأزور
سجاح بنت الحارث
غزالة الحرورية
فاطمة بنت الخرشب
ليلى بنت طريف

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أُمُّ حَكِيمِ الْخَارِجِيَّةِ

- * من فارسات الخوارج ، ومن أشجع الناس في العصر
الأموي ، ومن أجملهم ، وأشدّهم تمسكاً بدينها.
- * تجيد ألوان الفروسية ، وتتقن أساليب القتال.
- * زوجة قطري بن الفجاءة ، زعيم الخوارج.

المرأة والفروسيّة:

* قد يتبادرُ إلى ذهنِ القارئ الكريم سؤالٌ مفادُهُ: إنّ صنعةَ الحربِ والفروسيّةِ ينهضُ بها الرّجالُ؟!!

* وللجوابِ عن هذا السُّؤال نقولُ: لقد تركتُ نساؤنا قديماً بصماتٍ رائعاتٍ في مجالِ الفروسيّةِ ، وكُنَّ فارساتٍ شاعراتٍ مقاتلاتٍ محارباتٍ ، وما تزالُ المرأةُ العربيّةُ إلى وقتنا الحاضر تُظهرُ من ألوانِ الشّجاعةِ والفداءِ والتّضحيةِ ما يجعلُها جديرةً بلقبِ الفروسيّةِ .

* صحيحٌ أنّ النّساءَ قواريرُ رقيقةٌ ، ويجبُ الرّفقُ بهنَّ ، إلّا أنّنا نلمحُ من بعضهنَّ شدّةَ المراسِ وقوّةَ البأسِ ما ينسِينا تلكمُ الرّقةَ والتّعومةَ والدّعةَ .

* والمرأةُ إذا أتقنتُ صنعةَ الحربِ ، فإنّها تبدعُ فيها كالرّجلِ ، ومن الملفتِ للنّظرِ أنّه في القرى البعيدةِ عن المُدن - أحياناً - تحصلُ مُشاجراتٌ بينَ النّساءِ أكثرَ مما يقعُ بينَ الرّجالِ ، وما أسرعَ ما تشتبكُ النّساءُ في المناوشاتِ اللفظيّةِ ، ثمّ تتطوّرُ هذه العمليّاتُ الكلاميّةُ وسرعانَ ما تظهرُ بعدها عمليّاتٌ حقيقيّةٌ ، فيبدأُ العضُّ وشدّ الشّعْرِ ، والضّربُ ، والمُصارعةُ على أوسعِ نطاقٍ .

* ومن العجيبِ والملفتِ للنّظرِ ، أنّي رأيتُ مرّةً أحدَ الرّجالِ يَعرِجُ قليلاً ويتأوّه ، فسألتهُ عن السّببِ فقال بالحرفِ الواحدِ : «إنّ هذه الملعونة - زوجته - قد عضّتني عضّةً منكّرةً في لُبّةِ رجلي ، كادتُ تمزّقُ اللّحمَ»!! . وكانت هذه العضّاضةُ ؛ هذه المرّةُ مدنيّةٌ متحضّرةٌ ولم تكن من القرى^(١) .

(١) كثير من الجرائم التي نسمع بها في وقتنا الحالي ، أو تطلع بها علينا بعض الجرائد سببها المرأة ، أو هي بطلتها .

* لذا فإنه من السطحية والسذاجة التأفّهة أحياناً ، أن نجاري مَنْ يزعمُ
أنّ المرأة خُلِقَتْ من رَقّةٍ ، وصوّرت من رخاوةٍ ولينٍ ؛ فإذا كانَ أبو البشرِ
آدم - عليه السّلام - قد خُلِقَ من طينٍ لازِبٍ - لَيّن - ، فإنَّ أمَّ البشرِ حواء قد
خُلِقَتْ من ضلعِ آدمَ ، والضّلعُ - كما تعلمُ عزيزي القارئ - عظمٌ صلبٌ غير
قابلٍ للثّني والليونة . . . ! ! ! .

* ومن هنا تميّزتِ المرأةُ بالميزاتِ التي يتمتّع بها الرّجُلُ فهي قادرةٌ على
التّمرّضِ ، واحتمالِ مشاهدِ الألمِ مِنَ المرضى ، وإذا ما خالطتُ ذلكَ نسبة
من خصائصِ الرّجولية ، فقد تمَّ المرادُ ، وأضحَتِ المرأةُ ندّاً للرّجُل في
مجالِ الشّجاعةِ والفروسيّة^(١) .

* وأودُّ أنْ أهمسَ في أذنِ القارئِ الكريمِ ، وأذكّره بأنَّ المرأةَ عندما
تُحاربُ وتناضلُ ، لا تخرجُ عن استعدادِها الأصليّ وعن أنوثيّتها التي فطّرها
اللهُ عليها ، ولكنَّ كثيراً مِنَ النّساءِ يؤدّين دورَ الفُروسيّةِ في نجاحِ كبيرٍ ،
وتاريخِ نساءنا المُسلمات - مثلاً - في عَصْرِ الثّبوةِ ، يشهدُ لهنَّ بذلك .

* أمّا فارسَةُ اليومِ فهي امرأةٌ مِنَ النّساءِ المُحارباتِ ، ومن فارساتِ
الخوارج يُقال لها: أمُّ حَكيمِ الخارجيّة^(٢) ، التي وصفوها بأنّها كانتُ مِنْ
أشجعِ النّاسِ في العَصْرِ الأمويّ ، وتركتُ دويّاً عظيماً في دُنيا الفروسيّة ،

(١) انظر كتاب: نساء محاربات بشيء من التصرف في مواطن متفرقة .

(٢) الأغاني (١٤٨/٦ و ١٤٩ و ١٥١ و ١٥٧ و ١٥٩) ، وجمهرة أنساب العرب (ص ٢٢٣ و ٢٢٤) والتذكرة الحمدونية (٤٤٧/٢) ، وشرح مقامات الحريري (١٠٢/١) طبعة مصورة ، وكذلك شرح مقامات الحريري المحققة (١/٢٣٣ و ٢٣٤) ، والحماسة البصرية (١/٢٥٦) رقم (١٧٢) ، والكامل للمبرد (١/٣٧٩) و (٣/٢٩٧) طبعة مصر المحققة ، والكامل (٣/١٢٢٦) طبعة مؤسسة الرسالة ، وحاشية على شرح بانث سعاد (١/٣١٠) . وغيرها .

وفضاء البطولة. ولا عجب أن نجد امرأة ذات سوارٍ وخمارٍ يُشهد لها بالبطولة والشجاعة والفروسيّة ، لأنّه كان عندها استعدادٌ فطريٌّ واجتماعيٌّ ورثته من محيطها وممن حولها من فرسان الخوارج .

* وذكر ابن حزم الأندلسي نسبها في «جَمهرته» فقال : وأمّ حكيم بنت عمرو بن قيس بن عامر بن جعدة بن ثعلبة بن سالم بن مالك بن واقف ، التي يقول فيها الشاعر :

لعمرك إنّني في الحياة لَزَاهِدٌ وفي العيش مالم ألق أمّ حكيم
وقد قيل : إنّ هذا البيت لقطري بن الفجاءة^(١) .

وقيل : إنّ هذا البيت لأبي سَهْم الخارجي^(٢) .

* وقال البغدادي في شرحه على بَانت سعاد : وأمّ حكيم امرأة من الخوارج كانت مع قطري بن الفجاءة ، وكانت من أشجع الناس وأجملهم حُسنًا ، وأحسنهم بدينهم تمسكًا^(٣) .

* ويُجمَع كلُّ مَنْ ترجمَ لأمّ حكيم هذه بأنّه كانت فارسةً تتسلّح بالشجاعة التي يتسلّح بها فرسان الخوارج ، وكذلك نساؤهم ، فالشجاعة عدتُّهم ظاهرة وباطنة ، وهي مفخرتهم يلبسونها وتلبسهم ، فهم لا يحتمون وراء الأسوار ، ولا يخافون على ذات سوار ، بل أَلْفُوا أن يدافعوا عن أنفسهم ، ويتجافوا عن الهُجوع ، واثقين بنفوسهم رجالاً ونساءً وشيئاً وولداً ، مدّلين ببأسهم ، فقد صارَ البأسُ خُلُقاً ، والشجاعةُ سجيّةً ، والبطولةُ طبعاً وعادةً . . . «لكلّ امرئٍ من دهره ما تعودا»^(٤) . . .

(١) انظر : جمهرة أنساب العرب (ص ٣٤٤) .

(٢) المصدر السابق نفسه (ص ٢٢٣) .

(٣) حاشية على شرح بَانت سعاد (١/ ٣١٠) .

(٤) هذا مطلع من قصيدة مشهورة للمتنبي في سيف الدولة الحمداني .

* وإذا تَقَصَّينا حياةَ فارساتِ الخوارجِ أَلَفينا أَنَّ الشَّجَاعَةَ قد نَبَتَتْ مَعَهُنَّ
كما تُنْبِتُ الأصابعُ في اليَدِ ، وَأَنَّها قد تَمَشَّتْ في مفاصلهنَّ كَتَمَشَّى البُرءُ في
السَّقَمِ .

* وكيف لا تكونُ أُمُّ حَكِيمٍ - وشبيهاؤها - مِنْ الشَّجَاعَةِ بِمَكَانٍ وقد
نَشَأَتْ في بَيْئَةٍ ارتَضَعَتِ الفُروسِيَّةُ مِنَ المَهْدِ ، وامتدحتِ البطولةَ والإقدامَ
عند اشتدادِ العُودِ ، وطالما سمعتُ أُمُّ حَكِيمٍ قَعَقَعَ السِّلَاحَ ، وصياحَ
المقاتلين ، وشاهدتُ حملاتِ الفُرسانِ والأبطالِ ، ورأتُ كذلكِ اشتباكَ
الرِّماحِ واشتجارِ السِّيوفِ ، ومقارعةَ القسِيِّ ، وصفيرِ النِّبالِ .

* لذلكِ نَشَأَتْ أُمُّ حَكِيمٍ تحبُّ الفُروسِيَّةَ ، وتُكَبِّرُ البطولةَ ، وترى أَنَّ
الفُروسِيَّةَ ليستُ وقفاً على الرِّجالِ ، وإنَّما هي مُلْكٌ أيضاً وحقٌّ لربَّاتِ
الحِجالِ .

ومنَ المعروفِ أَنَّ الإسلامَ قد أَباحَ للمرأةِ أَنْ تَجاهدَ ، وقد أَباحَ
رسولُ اللهِ ﷺ استخدامَ المرأةِ في التَّمريضِ في عَهْدِهِ النَّبَوِيِّ ، حتَّى إِنَّ
بعضَ زوجاته كُنَّ في شَرَفٍ مَعِيَّتِهِ في بعضِ مغازيه ، حيثُ قُمنَ بِخدمَتِهِ ،
وكذلكِ بعضُ نساءِ الصَّحابة كُنَّ يحضرنَ الميدانَ ، وَيَقُمنَ بما في
استطاعتهنَّ من الخدماتِ ومُساعدةِ المجاهدين ؛ ومنهنَّ : أُمُّ سليم
الأنصاريَّةُ ، وأُمُّ عطيةَ ، وأُمُّ عمارة نسيبةُ بنتُ كعب ، وأُمُّ حرام بنتِ
مِلْحان وغيرهنَّ مِنَ الآسياتِ الطَّيباتِ مِنْ مِثْلِ رُفيدةَ الأَسلميَّةِ الصَّحابيَّةِ ؛
فقد أقامت هذه المرأةُ الفاضلةُ خيمةً لمدَاواةِ جرحى المسلمين الذين ليسَ
لهم مِنْ أهليهم وذوي قرابتهم مَنْ يَقومُ عليهم ، ويتولَّى أمورهم ، وكانتُ
هذه الخيمةُ الميمونةُ في ناحيةٍ من مسجدِ رسولِ اللهِ ﷺ بالمدينة المنورة ،
ولما جُرحَ سعدُ بنُ معاذٍ - رضي الله عنه - في غزوةِ الخندقِ ، أمرَ
رسولُ اللهِ ﷺ قومه أَنْ يَكونَ سعدٌ عندَ رُفيدةَ فقال : «اجعلوه في خيمةٍ رُفيدةَ

حتَّى أَعُوذَهُ مِنْ قَرِيبٍ»^(١). وَلِلَّهِ دَرَّ أَحْمَدُ مُحْرَمٌ إِذْ تَحَدَّثَ عَنْ هَذِهِ السَّيِّدَةِ الْفَاضِلَةِ فَقَالَ قَصِيدَةٌ نُونِيَّةٌ جَمِيلَةٌ تَفِيضُ حَنَانًا وَرَقَّةٌ مِنْهَا هَذِهِ الْأَبْيَاتُ الْكَاشِفَاتُ :

| | |
|---|---|
| رُفِيدَةٌ عَلَّمِي النَّاسَ الْحَنَانَا | وَزَيْدِي قَوْمَكَ الْعَالِينَ شَانَا |
| خُذِي الْجِرْحَى إِلَيْكَ فَأَكْرَمِيهِمْ | وَطُوفِي حَوْلَهُمْ أَنَا فَأَنَا |
| وَأِنْ هَجَعَ النَّيَامُ فَلَا تَنَامِي | عَنِ الصَّوْتِ الْمَرْدَدِ حَيْثُ كَانَا |
| أَعَيْنِي السَّاهِرِينَ عَلَى كُلِّ لُومٍ | تُورِّقُهُمْ فَمِثْلُكَ مَنْ أَعَانَا |
| هُمْ الْأَهْلُونَ مَا عَرَفُوا أَنْيْسًا | سِوَاكَ لَهُمْ وَلَا وَجَدُوا مَكَانَا |
| حَبَاكَ اللَّهُ مِنْ تَقْوَاهُ قَلْبًا | وَسَوَّى مِنْ مَرَاكِمِهِ الْبَنَانَا |
| ضُيُوفُ اللَّهِ عِنْدَكَ فِي مَحَلٍّ | تُذَكِّرُنَا مَحَاسِنَهُ الْجَنَانَا |
| فِيَا لَكَ خَيْمَةً لِلْبِرِّ فِيهَا | جَلَالٌ لَا يُرَامُ وَلَا يُدَانِي |
| رُفِيدَةٌ جَاهِدِي وَدَعِي الْهُوْنِي | فَمَا شَرَفُ الْحَيَاةِ لِمَنْ تَوَانِي |
| وَرَبِّ مُجَاهِدٍ بَلَغَ الثُّرَيَّا | وَمَا عَرَفَ الضَّرَابَ وَلَا الطَّعَانَا |
| وَكَمْ هَزَّ الْمَمَالِكَ فِي عُلاهَا | فَتَى مَا هَزَّ سَيْفًا أَوْ سِنَانَا |
| رُفِيدَةٌ ذَلِكَ الْإِسْلَامُ حَقًّا | تَبَارَكَ مَنْ هَدَاكَ وَمَنْ هَدَانَا ^(٢) |

* وَفِي عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ تَابَعَ الْخُلَفَاءُ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي هَذَا الْمَجَالِ ، فَقَدْ أَبَاحُوا لِلْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَلِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَر_افِقْنَ الْمُجَاهِدِينَ - عَنْ تَطَوُّعٍ مِنْهُمْ - وَيَقْمْنَ بِالْمَعَاوَنَةِ فِي شُؤُونِ الْحَرْبِ وَالِدِّفَاعِ .

* وَسَنَذْكُرُ عِدَدًا مِمَّنْ خُضْنَ الْحُرُوبَ فِي الصَّفَحَاتِ التَّالِيَةِ :

(١) انظر : تفسير الخازن (٢٠٨/٥) .

(٢) انظر : ديوان مجد الإسلام لأحمد محرم (ص ٢٤٨ و ٢٤٩) بانتقاء واختصار .

١ - أزدَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ:

* مجاهدةٌ جليلةٌ خاضتْ ساحاتِ الوغى بكلِّ بسالةٍ ورباطةِ جأشٍ ، وحازتِ النَّصْرَ المبینَ على الأعداء . وكانت أزدَةُ عند عتبةِ بنِ غزوانَ ، وجعلتْ مِنْ جَلْبَابِهَا عَلَمًا رَفَعَتْهُ فِي مِیدَانِ الجِهَادِ فِي محاربةِ العدوِّ المشرکِ الفارسیِّ .

* ذَكَرَ المؤرِّخونَ أَنَّهُ أَجْمَعَ أَهْلُ مِیسَانَ - بلدةٍ بالعراق - للمسلمینِ وعلیهِم الفَلیکان ، فلقیهِم المغیرَةُ بْنُ شُعْبَةَ بِالْمَرْغَابِ - نهرٍ بالبصرة - وقد خَلَفَ العدوُّ دُونَ نهرِ دَجَلَةَ . فقالت أزدَةُ بِنْتُ الحارثِ لجماعةِ النِّسَاءِ المحارباتِ معها : إِنَّ رِجَالَنَا فِي نَحْرِ العدوِّ ، وَنَحْنُ خُلُوفٌ ، وَلَا آمَنُ أَنْ یُخَالِفُوا إِلینَا ، وَلیس عندنا مَنْ یمنَعُنَا ، وَأَخَافُ أَنْ یَکْثُرَ العدوُّ عَلَی المسلمینَ ، فیهزموهم ، فلو خَرَجْنَا لِأَمِنَّا مِمَّا نَخَافُ مِنْ مُخَالَفَةِ العدوِّ إِلینَا ، ویظنُّ المشرکونَ أَنَّا عَدَدٌ مَدْدٌ قَدْ أَتَى المسلمینَ ، فیکسرهمْ ذلکَ وَهِيَ مَکِیدَةٌ ، فَأَجْبَنَهَا إِلَى مَا رَأَتْ ، فَاعتقدتْ لَوَاءً مِنْ خُمَارِهَا ، وَاتَّخَذَتْ النِّسَاءُ رِایَاتٍ مِنْ خُمُرِهِنَّ ، وَمُضِینَ وَهِيَ أَمَامَهُنَّ وَهِيَ تَرْتَجِزُ وَتَقُولُ :

يَا نَاصِرَ الْإِسْلَامِ صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ إِنَّ تُهْزِمُوا وَتُدْبِرُوا عَنَّا نَخَفُ
أَوْ یَغْلِبُوكُمْ یَغْمِزُوا فینَا الْغَلْفُ

* ثُمَّ انْتَهینَ إِلَیْهِمَ والمشرکونَ یقاتلونهم ؛ فَلَمَّا رَأَى المشرکونَ الرِّایَاتِ مَقْبِلَةً ظَنُّوا أَنَّ عَدَدًا أَتَى المسلمینَ فَاَنکَشَفُوا وَاتَّبَعَهُمُ المسلمونَ ، فَقتلُوا مِنْهُمْ عَدَّةً ، وَفَتَحَ اللهُ تِلْكَ الْمَدِینَةَ لِلْمُسلِمِینَ^(١) .

٢ - أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ بِنْتُ یَزِیدِ الْکَلْبِیَّةِ :

* هَذِهِ مُجَاهِدَةٌ جَرِیئَةٌ شَهِدَ لَهَا تَارِیخُ النِّسَاءِ بِالْفُرُوسِیَّةِ وَالْجَرَاةِ

(١) انظر : فتوح البلدان (ص ٤٢١) ، وأعلام النساء (١/ ٤١ و ٤٢) مع الجمع والتصرف .

والإقدام ، فإنَّها قد حضرت معركة اليرموك مع نفرٍ من النساء ، وكان زوجها حبيب بن مسلمة قائداً للجيش الإسلامي في محاربة الروم من قبل معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - ، ولما قام وركب ليلاً للهجوم على جيش العدو قالت له : أين تذهب يا حبيب ؟!

فأجاب قائلاً : إما أظفرُ على خيام هذا الطاغية ، أو أذهب إلى الجنة .

* وذهب زوجها وظفرَ بخيام الطاغية ، لكنَّه وجدها قد سبقته إلى ميدان القتال عند سرادق الطاغية^(١) .

٣ - مَزْرُوعَةٌ بَنَتْ حَمْلُوقَ الْحَمِيرِيَّة :

* وهذه امرأة كانت من أفصح نساء زمانها ، وأشدَّهم بأساً ، يُقال : إنَّها خرجت مع بعث الشام لحرب الروم ، فأسرَ ابنُها صابر بن أوس في وقعة أنطاكية ، فجعلت أمه تندبه وتقول :

| | |
|-------------------------------|--|
| أيا ولدي قد زاد شوقي تلهفاً | وقد حرقت مني الشؤون المدامعُ |
| وقد أضرمت نار المصيبة شعله | وقد حميت مني الحشا والأضالعُ |
| وأسألُ عنك الركب هل يُخبرونني | بحالك كيما تستكن المضاجعُ |
| فلم يك فيهم مخبرٌ عنك صادقٌ | ولا فيهم من قال إنك راجعُ |
| فيا ولدي مذ غبت كدّرت عيشتي | فقلبي مصدوعٌ وطرفي دامعُ |
| وفكري مسقومٌ وعقلي مؤله | ودمعي مسفوحٌ وداري بلاقعُ |
| فإن تك حيّاً صمتُ لله حجةً | وإن تكن الأخرى فما الحرُّ جازعُ ^(٢) |

* وهناك أخريات كانَ لهنَّ كبيرُ الأثر في الفتوحات ؛ وانتصارات المسلمين في المشرق والمغرب .

(١) فتوح البلدان (ص ٢٣٥) بتصرف يسير .

(٢) ديوان الخنساء (ص ١٨١) طبعة دار التراث - بيروت - ١٩٦٨ م .

* وكان للنساء دورٌ كبيرٌ في عهدِ الخلفاء وصَدَرَ الإسلام في تشجيعِ المُقاتلين ، فقد ذَكَرَ الأزدِيُّ المتوفى سنة (١٦٨ هـ) أَنَّ خالداً بنَ الوليد - رضي الله عنه - أمرَ نساءَ المسلمين في معركةِ اليرموك أن يضرِبْنَ مَنْ يدرِكنَهُ هارباً من مُقاتلةِ المسلمين ، فكانتِ النساءُ تستقبلُ من هُزِمَ منهم ومعهنَّ عمد البيوتِ ، فأخذنَ يضرِبْنَ بها وجوهَهُم ويَقُلْنَ : لستُم ببعولتنا إن لم تمنعونا .

* كما كانَ لخولة بنتِ ثعلبةَ رَجُزٌ مشهورٌ وشِعْرٌ مذكورٌ في تلك الموقعة ، وكذلك هندُ بنتُ عتبةَ أنشدت رَجُزاً حماسياً يلهبُ النفوسَ ، ويشيرُ الهِمَمَ ، كما أَنَّ البلاذري قد أشارَ إلى قتالِ النساءِ وهندِ فقال : وقاتلَ يوم اليرموك نساءً منَ المسلمين قتالاً شديداً وجعلتُ هندُ بنتُ عتبةَ أمَّ معاوية بن أبي سفيان تقول : عضدوا الغُلفان بسيفكم^(١) . وفي تلكم المعركةِ ذاتها قال أحدُ المقاتلةِ : فلقد كانتِ النساءُ أشدَّ علينا من غلظةِ الرُّوم .

* وكذلك فعلتِ النساءُ الأفاعيلَ بالرُّوم في أجنادين ، فقد ذَكَرَ الأزدِيُّ هذا فقال : وأقبلَ خالدٌ يسيرُ بالنَّاسِ ، وما يقرُّ في مكانٍ واحدٍ ، يحرضُ النَّاسَ ، وقد أمرَ نساءَ المسلمين فاحتزمنَ ، وقُمنَ وراءَ النَّاسِ فهنَّ يدعونَ اللهَ ويستغثنَ ، فكلَّما مرَّ بهنَّ رجلٌ من المنهزمينَ ، دفَعْنَ أولادهنَّ إليه وقلْنَ له : قاتلوا دونَ أولادكم ونسائكم^(٢) .

* وذكر ابنُ عبد ربِّه وغيره أَنَّ الزَّرْقَاءَ بنتَ عدي الهمدانيَّة كانت يوم صفين تحضُّ جنودَ عليِّ بن أبي طالب وتقولُ : أيُّها النَّاسُ : إنَّ المصباحَ لا يضيءُ مع الشَّمسِ ، ولا تبدو الكواكبُ مع القمرِ ، ولا يقطعُ الحديدُ إلَّا الحديدَ ، إيَّها في الحربِ قُدماءُ غير ناكثينَ ، ولا مُشاكسينَ^(٣) .

(١) انظر : فتوح البلدان (ص ١٦٠) .

(٢) الجيش والقتال في صدر الإسلام (ص ١٣٧) نقلاً عن الأزدِي (ص ٦٠) .

(٣) العقد الفريد (٢١٣/١) .

* وفي المعركة عينها كانت عكرشة بنت الأطلش متقلدة حمائل السيف تقاتل مع عليّ ، وتحضّ قومها على القتال^(١).

* ومن العجيب أنّه ظهرت في العصر الرّاشديّ همّة عجيبة لنساء المسلمين في الحرب ، فقد ظهرت امرأة في الميدان من النّخع ، كان لها بنون أربعة حضروا حرب القادسيّة ، فخطبت فيهم تحمّسهم ، وتضري بخطابها الجنود ، فقالت: أيّ بني؛ إنكم أسلمتم فلم تبدّلوا ، وهاجرتم فلم تثوبوا ، ولم تنب بكم البلاد ، ولم تقحمكم السنّة ، ثمّ جئتم بأممكم ، عجزوا كبيرة ، فوضعتموها بين أيدي أهل فارس ، والله إنكم لبنو رجل واحد ، كما إنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكُم ، انطلقوا فاشهدوا أوّل القتال وآخره ، وموتوا كراماً.

* فأقبلوا يشتدون ، فلمّا غابوا عنها ، رفعت أكفّها إلى السّماء ، وهي تدعو الله وتقول في دعائها: اللهم اذفع عن بنيّ ، ولا تجعل يومهم قبل يومي .
* فرجعوا إليها بعد أن أبلوا بلاء حسناً ، وأحسنوا القتال ، ما كلّم - ما جرح - رجل كلّماً واحداً^(٢).

* وكانت النّساء بالإضافة إلى تلکم الأدوار الحربيّة أو الدّفاعيّة التي يقمن بها ، كنّ يرافقن المجاهدين الفاتحين ويقمن بمداواة الجرحى ، ففي معركة اليرموك قمن بمداواة الجرحى ، وكذلك فعّلن في معركة القادسيّة ، فعن أمّ كثير امرأة همام بن الحارث النّخعيّ قالت: شهدنا القادسيّة مع سعد بن أبي وقاص مع أزواجنا ، فلمّا أتانّا أن قد فرغ من النّاس ، شدّدنا علينا ثيابنا ، وأخذنا الهراوي ، ثمّ أتينا القتلّى ، فمن كان من المسلمين

(١) المصدر السابق (١/٢١٥).

(٢) انظر: خلافة الصديق والفاروق لعبد العزيز الثعالبي (ص ٢٤٠ و ٢٤١) طبعة دار ابن كثير بدمشق . وقد فصلنا هذه القصة في كتابنا «نساء من المشرق العربي» .

سقيناه ، ورفعناه ، ومن كانَ مِنَ المشركينَ أجهزنا عليه ، ومعنا الصّبيانُ نوليهم استلابَ قتلى المشركين^(١) .

* وذكرَ المسعودي في «مروجه» : أنَّ الرّثيثَ كان يُنقلُ إلى النّساءِ لعلاجِه^(٢) ، كما قامتِ النّساءُ والصّبيانُ بحفرِ القبورِ لدفنِ الشّهداء^(٣) .

* وقامتِ المرأةُ المسلمةُ إلى جانبِ التّمرّيضِ وتشجيعِ المقاتلينَ بخدماتٍ أخرى كالسّقايةِ ، وإعدادِ الطّعامِ ، وعزّلِ الشّعِرِ ، ومناولةِ السّهامِ ، وخياطةِ الثّيابِ ، وتزفيرِ القربِ ، ووردَ أنّهنَّ قُمنَ بسقايةِ المقاتلينَ في معركةِ اليرموكِ ، وكذلك في معركةِ أجنادينَ . وقامتِ النّساءُ كذلك بهذهِ المهمّةِ في معركةِ صفّينَ ، قالَ المسعودي : وتقدّمَ عمّارُ بنُ ياسرٍ فقاتلَ ، ثمَّ رجعَ إلى موضعيه فاستسقى ، فاتّتهُ امرأةٌ من نساءِ بني شيبانٍ من مصافّهم يُعسّ فيه لبنٌ^(٤) .

* وقد تقومُ المرأةُ بإعدادِ طعامِ المجاهدينَ أيضاً ، فقد ذكرَ الأزديُّ أنَّ النّساءَ كنَّ يقدّمنَ بإعدادِ الطّعامِ للمقاتلةِ في معركةِ اليرموك^(٥) .

* إلّا أنَّ نساءَ الخوارجِ - وخصوصاً الفارساتِ منهنَّ والمُقاتلاتِ - فقد كنَّ يقدّمنَ بأعباءِ الحربِ بكلِّ ما فيها من متاعٍ ومشاقٍّ ومصاعبٍ ، ولم يكنَّ يرضينَ أن يخرجنَ من أجلِ إعدادِ طعامٍ أو سقايةِ محاربٍ أو مداواته فقط ، وإنّما كانَ جلُّ همّهنَّ خوضَ المعامعِ وإبرازَ بطولتهنَّ بين صليلِ السّيوفِ واشتجارِ الرّماحِ وعلى صهواتِ الجيادِ ، كما كانت تفعل أمُّ حكيم الخارجية .

(١) انظر: البداية والنهاية (٤٦/٧) بتصرف يسير جداً.

(٢) مروج الذهب للمسعودي (٣١٧/٢) .

(٣) مروج الذهب (٣٨١/٢) .

(٤) الجيش والقتال في صدر الإسلام (ص ١٤٦) .

* إِنَّ المرأةَ الخارجيّة لم تكن منزويّةً عن الحروب والجلادِ ، بل إنّها أسهمت فيها بنصيبٍ كبيرٍ ، وجهدٍ ماثورٍ ، ملأَ صدورَ المصاديرِ ، وثنايا كُتُبِ الأدبِ والتّاريخِ والتّراجمِ ، بيدَ أنّه لم يُفردْ لَهُ مؤلّفٌ - فيما أعلمُ - كتاباً متخصّصاً ؛ وأرجو الله عزّ وجلّ أن يعطيني القوّة والجلدَ والصّبرَ لكي أسدّ جزءاً من هذا الفراغ الكبير الذي تحتاجه المكتبةُ العربيّةُ ، والمرأةُ العربيّةُ ، والمكتبةُ النّسويّةُ ، لتسيرَ النّساءُ على بصيرةٍ من أمرهنّ ، ويعرفنَ الخبيثَ مِنَ الطّيّبِ ، ومنَ يقتدينَ بالنّساءِ الصّالحات اللواتي قدّمنَ الخيرَ والعلمَ لبناتِ حواءَ .

شِجَاعَةُ أُمِّ حَكِيم :

* في ساحاتِ الحروبِ بذلتْ أُمُّ حَكِيم جهداً متميّزاً ، وكانت في مقدّمةِ المحاربين ، تقايلُ وتقارعُ ، ولم تكنْ كغيرِها من النّساءِ تقتصرُ على إثارةِ العواطفِ ، أو على مدِّ المحاربين بالطّعامِ والشّرّابِ ، وتضميدِ جراحهم ، ويروي تاريخها أنّها حاربتُ كما يحاربُ الأبطالُ ، وأدارتُ قُطْبَ الحربِ في بعضِ الأحيانِ ، وأحياناً كانت تقودُ فرقةً من فرقِ الجيشِ .

* وعلى الرّغم من أنّ أبا عُثمان الجاحظ قد ذكرَ أُمَّ حَكِيم هذه في مصنّفاته ، كما ذكرَ غيرَها من نساءِ الخوارجِ ، إلّا أنّه قد ظلّمها بعضُ الشّيء عندما قال : والمرأةُ إذا ضعُفتُ عن كلّ شيءٍ ، نزَعَتْ إلى الصّراخِ والولولةِ ، التماساً للرحمةِ ، واستجلاًباً للغياث من حُماتها وكفاتها ، أو من أهلِ الحسبةِ في أمرها^(١) .

* وآلآن ، قبل أن نتعرّفَ شِجَاعَةَ أُمِّ حَكِيم التي لا نعرفُ اسمَها ، وإنّما نعرفُها بهذه الكنيةِ ، دعونا نعرفُ شيئاً عن صفاتها وشمائلها .

(١) انظر : الحيوان للجاحظ (٦/٢٧٩) .

* فقد ذكروا أَنَّها امرأةٌ من الخوارج الذينَ علا صيِّتهم في العَصْرِ
الأمويِّ ، وأَنَّها كانتُ من أجملِ نساءِ عَصْرِها ، وأملِحنَّ وأصبحهنَّ ،
وقد خطبها جماعةٌ من مشاهيرهم ورؤسائهم فردَّتْهم خائبين^(١) .

* وقيل : إِنَّها كانتُ زوجاً لقطريِّ بنِ الفُجاءةِ الفارسيِّ المشهورِ وقد
ذكرها في شعره . قال أبو العباس الشَّريشي : وأمُّ حكيم التي شَبَّ بها ،
كانتُ معه في عَسْكَرِ الإباضِيَّةِ ، وكانتُ من أشجعِ النَّاسِ ، وأجملهم
وجهاً ، وأحسنهم بدينه متمسكاً ، وكان قطريُّ يحبُّها ويجلُّها^(٢) .

* أمَّا شجاعَتُها فقد كانتُ شيئاً يُكْتَبُ في التَّوَارِيخِ ويُحْكى في
المجالسِ ، روي أَنَّها كانت تجيّدُ ألوانَ الفروسيَّةِ ، وتتقنُ أساليبَ القتالِ ،
وكانتُ في الحربِ تحمِلُ على النَّاسِ ، وتقاتلهم وتناجزهم وترهبهم ، وقد
أخبرَ مَنْ شاهدَها في تلك الحروبِ أَنَّها كانت ترتجزُ فتقول :
أَحْمِلُ رَأْساً قَدْ سَمِئْتُ حَمْلَهُ وَقَدْ مَلَأْتُ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ
أَلَا فَتَى يَحْمِلُ عَنِّي ثَقْلَهُ

قال^(٣) : والخوارجُ يَفْذُونَهَا بِالْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ ، فما رأيتُ قبلَها ولا بعدها
مثلاً^(٤) .

* وكان نجمٌ أمُّ حكيمٍ قد لمعَ في ليالي عَصْرِها ، واحتلَّتْ شهرتُها

(١) انظر : التذكرة الحمدونية (٢/٤٤٧) بتصرف يسير جداً .

(٢) انظر : شرح مقامات الحريري (١/٢٣٤) .

(٣) ذكر الأصفهاني هذه القصة عن ميمون بن هارون قال : حَدَّثْتُ أَنَّ امرأةً من الخوارج
كانتُ مع قطريِّ بن الفجاءة يُقال لها أمُّ حكيم ، وكانتُ من أشجعِ النَّاسِ ،
وأجملهم وجهاً ، وأحسنهم بدينهم متمسكاً ، وخطبها جماعةٌ منهم ، فردَّتْهم ، ولم
تجبْ إلى ذلك . (الأغاني ٦/١٥٩)

(٤) انظر : الأغاني (٦/١٥٩) ، والتذكرة الحمدونية (٢/٤٤٧) ، وشرح مقامات
الحريري (١/٢٣٤) .

مساحةً عظيمةً بين فارساتِ عَصْرِها ، بل ونساء القوم ، فقد جمعت بين الفروسيّة والجمالِ والفصاحةِ والبلاغةِ والبيانِ ، ولهذا تهافت عليها جماعةٌ من أشرافِ الخوارج وشجعانهم يخطبونُها ، فردّتهم ردّاً جميلاً ، وأفهمتهم أنّها تنظرُ إلى أعلى وأرفع من هذا وقالت :

أَلَا إِنَّ وَجْهًا حَسَنَ اللَّهِ خَلَقَهُ لَأَجْدُرُ أَنْ يُلْفَى بِهِ الْحُسْنُ جَامِعًا وَأَكْرَمُ هَذَا الْجِرْمَ عَنْ أَنْ يَنَالَهُ تَوَرَّكَ فَحُلٍ هُمُّهُ أَنْ يُجَامِعَا^(١)

* ولعلنا نستطيع أن نشبه أمّ حكيم هذه بامرأةٍ فارسيّةٍ خارجيّةٍ هي غزالةُ الحروريّةِ وزوجها شبيبُ بنُ يزيد ، وقد قرأنا سيرتها في هذه الموسوعةِ الجميلة ، حيث كانت كلتاها بالمكانِ الأوفى من الشّجاعةِ ، وكانت أمّ حكيم وغزالةُ لا تُريان إلا في المواقفِ الخطرةِ من المعركةِ .

* فقد كانت أمّ حكيم هذه ممن يرى رأيَ الخوارج ويأخذ بطريقتهم ، ووقفت بشجاعةٍ وثباتٍ أمامَ عقيدتها هذه ، حيث إنّ الخوارج قومٌ يبتغونَ الكمالَ في الخلافةِ ، فهم يريدونَ الإمامَ العادلَ الثّبتَ الذي ينزلُ من الأمرِ على شوريّ المسلمين ، وهذا هو المبدأ الذي خرجوا به ، وقتلوا النَّاسَ عليه ، على أنّهم أسرفوا وأفرطوا فيه ، وغلوا غلواً كبيراً ، حتى حسبوا كلّ وزيرٍ كُفراً يُقاتلُ مقترفه ويقتلُ عليه .

* وكان الخوارجُ في أوّلِ أمرهم قطعةً من جندِ سيّدنا عليّ بنِ أبي طالب - رضوان الله عليه وحشرنا في معيته - ، فلمّا رضي بالتحكيم في خلافتهِ ، قالوا : علامَ يقتلُ المسلمون وأمرأؤهم في شكٍّ من أمرهم .

(١) شرح مقامات الحريري (١/٢٣٤) ، وقد علّق الشّريشي تعليقاً جميلاً على هذين البيتين فقال : أين هذه من أمّ خارجة ، واسمها عمرة بنت سعد ، كان يُقال لها : خُطْب ، فتقول : نكح . وضرب بها المثل فقليل : أسرع من نكاح أمّ خارجة . (شرح مقامات الحريري ١/٢٣٤)

* ومنذ ذلك اليوم انفصلوا عن سيّدنا عليّ - رضي الله عنه - واستجازوا قتالَه ، وقتلَ مَنْ بعده من الخلفاء .

* ومن المسلمّ به أنّ حجّتَهم في الخروج على سيّدنا عليّ - رضي الله عنه - داحضةٌ ، فقد يكونُ التحكيم ممّا يبعثه اليقين بالحقّ ، والثقة بالعبادة ، كذلك شرعَ الخوارج لأنفسِهم قتالَ كلّ خليفة ، لأنّه اتّخذ خلافةَ رسولِ الله ﷺ ثرائاً عن أبيه ، وحسبَ المسلمين سواءَ هملاً ، فساقَهم بغير عهدٍ منهم ولا رضا .

* وقد استبسلَ هؤلاء الخوارج - رجالاً ونساءً - في سبيل غايتهم ، حتى غدوا مضاربَ الأمثالِ في البسالة والجسارة والجرأة والإقدام .

* ولعلَّ أوضحَ ظاهرةٍ نراها في فريقِ الخوارج وجماعاتِهم ، نباهةُ ذكرِ المرأة^(١) ، ونزوعُها منازعَ القادةِ الكُفّةِ ، وقيامُها في الطرفِ القصيِّ من

(١) من ذلك ما وردَ عن أمّ علقمةَ الخارجيّة - وكانت من ربّاتِ الفصاحةِ والبلاغةِ والشجاعةِ وقوّةِ الحجّة - فقد ذكرَ الرّاعبُ الأصفهانيُّ في «محاضراتِه» أنّه أتى بها إلى الحجاج بن يوسف ، فقبل لها : وافقيه في المذهبِ فقد يظهرُ الشُّركُ بالمكر . فقالت : ﴿ قَدْ ضَلَكْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُهْتَبِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٦] . فقال لها : قد خبطتِ النَّاسَ بسيفِكِ يا عدوّ الله خبطَ عسواء . فقالت : لقد خفتُ اللهَ خوفاً صبرك في عيني أصغرَ من ذبابٍ - وكانت منكسّةً - فقال : ارفعي رأسك وانظري إليّ . . . فقالت : أكرهُ أن أنظرَ إلى مَنْ لا ينظرُ اللهَ إليه . فقال : يا أهلَ الشّام ، ما تقولونَ في دَمِ هذه ؟ قالوا : حلالٌ .

فقالت : لقد كانَ جلساءُ أخيك فرعونَ أرحمَ من جلسائك حيثَ استشارهم في أمرِ موسى ، فقالوا : ﴿ آتِجْهُ وَأَخَاهُ ﴾ . فقتلَها . (أعلام النساء ٣/ ٣٢٩)

* وفي النَّفسِ شيءٌ من هذه القصةِ التي يبدو عليها أثرُ التّصعُّعِ والوضعِ من نواحٍ كثيرةٍ منها : أنّ الحجاجَ قال : يا أهلَ الشّام ، وكانَ بالعراقِ ، ومنها أنّ أمّ علقمةَ =

تفدية العرض ، والتّضحية في سبيله ، وهذا ما نلمحُه في سيرة أمّ حكيم الخارجيّة .

* ويروي التّاريخُ النّسويُّ أنّ نساء الخوارج قد احتملن النّكال والوبالَ ، فلم يكُ شيءٌ يروعهنَّ أمامَ عقيدتهنَّ التي تلقينها عن قناعةٍ كاملةٍ ، ولا يثلم غرضهن ، أو يحول غايتهنَّ ، بل كنَّ يزددن ثباتاً و يقيناً وقوةً ، حتى إنّ المرأةَ منهنَّ كانت تُقَادُ إلى القتلِ غير خائفة ، ولا هيّابة ، بل صابرة راضية كأمّ علقمة التي قتلها الحجاج ، وغيرها كثيرات ممن حفظن التّاريخَ ، وكثيرات ممن نسيهنَّ ، واندثرت أخبارهنَّ مع مرورِ الأيّام .

أمّ حكيم وشِعْرُ قطريّ :

* قلنا : إنّ أمّ حكيم كانت من نساء الخوارج المشهورات في عصرها ومضربها ، وكانت من أجملِ النّساء وجهاً ، وأملحهم طلعةً ، وأكثرهم تمسكاً بدينه ، وتبعث زوجها قطريّ بن الفُجاعة الذي تلقّبَ بأمير المؤمنين ، واستمدَّ من امرأته أمّ حكيم الجليلَ من الرأى ، والشّديدَ من القوة ، لأنّ أمّ حكيم كانت من أتمّ النّساء ذكاءً ومضاءً ، ونفاذَ رأى ، وقوة

= هذه قالت للحجاج : كانَ جلساءُ أخيك فرعون ، والحجاج لم يكن شبيهاً بفرعون ، بل لا تجرؤُ امرأةٌ أنْ تنفّوه بمثلِ ذلك في مثلِ هذا المقام . والله أعلم بالصواب .
* ومن الأمثلة أيضاً على تخليدِ المرأة ، وذكرِ مآثرها أنّ مالك المزموم - وكان رجلاً من بني عامر بن ذهل من الخوارج - كان قد خلّد ذكرَ امرأته أمّ العلاء في رثائه لها فقال :

| | |
|-------------------------------------|--|
| أمّ العلاء فنَادَها لو تَسَمَّعُ | أمرُّز على الجَدثِ الذي حلَّتْ به |
| بلداً يمرُّ به الشُّجاع فيفزعُ | أتى حللتِ وكنتِ جدَّ فروقه |
| إذ لا يلائمُك المكانُ البلقعُ | صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ مِنْ مَفْقُودَةٍ |
| لم تَدْرِ ما جَزَعُ عَلَيْكَ فتجزعُ | فلقد تركتِ صغيرةً مرحومةً |
| طفقت عليك شؤونُ عيني تدمعُ | وإذا سمعتُ أنينها في ليلها |

بيان ، ناهيك بالجمال والحسن والشجاعة ، لذا فإن قطرياً قد ذكرها في
أشدّ المواقف حرجاً ، فقال في يوم دُولاب :

لعمرك^(١) إني في الحياة لزاهدٌ وفي العيش ما لم ألق أمّ حكيم
من الخفّرات البيض لم ير مثلاً شفاءً لذي بث ولا لسقيم
فيا كبداً من غير جوع ولا ظمأً ويا كبداً من وجد أمّ حكيم
ولو شهدتني يوم دُولاب أبصرت طعان فتى في الحرب غير ذميم
ومنها :

وضاربة خدّاً كريماً على فتى أغرّ نجيب الأمّهات كريم
أصيب بدُولاب ولم تك موطناً له أرض دُولاب ودير حميم^(٢)
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كلّ حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنّات عدنٍ عنده ونعيم^(٣)

(١) «لعمرك» : عَمْرُك : هذا اللفظ يرد كثيراً في أقسام العرب أو تأكيداتهما ، وأصله قسم
بالعمر أو دعاء بطول العمر . ومعناه في اللغة : العَمُرُ والعُمُرُ والعُمُرُ : الحياة . يقال :
طال عَمْرُهُ وعُمُرُهُ لُغتان فصيحتان . وفي القَسَم : الفتح لا غير . يُقال : لَعَمْرِي ،
لَعُمْرُكَ .

قال الجوهري : معنى «لعمرك الله» و«عمر الله» : أحلفُ ببقاء الله ودوامه ، وإذا قلتَ :
«عَمْرُكَ الله» فكأنك قلتَ : بتعميرك الله ، أي : بإقرارك له بالبقاء ، وقول عمر بن
أبي ربيعة :

أبها المنكحُ الثريا سهيلاً عَمْرُكَ اللهُ كَيْفَ يلتقيان
يريد : سألتُ الله أن يطيلَ عَمْرُكَ ، لأنّه لم يُردِ القسمَ بذلك ، بل استعمله في القسم
السؤالِي . و«لَعَمْرِي وَلَعُمْرُكَ» : يرفعونه بالابتداء ويضمرون الخبر ، كأنهم يقولون :
لعمرك قَسَمِي أو يميني .

(٢) «دير حميم» : موضع بالأهواز .

(٣) انظر : الأغاني (٦/١٥٧) ، وشرح مقامات الحريري (١/٢٣٣ و ٢٣٤) ، والكمال
(٣/٢٩٧ و ٢٩٨) ، وهي قصيدة مؤلفة من (١٢ بيتاً) ، وهي موجودة في مصادر
كثيرة وبأعداد أبيات مختلفة ، وقد تنازعها أكثر من شاعر .

* وفي أغانيه أوردَ أبو الفرج الأصفهاني ثلاثة أبياتٍ فيها ذكرُ أمِّ حَكيم ، والأبيات هي :

إِذَا قُلْتُ تَسْلُو النَّفْسُ أَوْ تَنْتَهِي الْمُنَى أَبَى الْقَلْبُ إِلَّا حُبَّ أُمِّ حَكِيمٍ
مَنْعَمَةٌ صَفْرَاءُ حُلُوْ دَلَالُهَا أَيْتُ بِهَا بَعْدَ الْهُدُوِّ أَهْيَمُ^(١)
قَطُوفُ الْخُطَا مَحْطُوطَةُ الْمَثَنِ زَانِهَا مَعَ الْحُسْنِ خَلْفُ فِي الْجَمَالِ
عَمِيمُ^(٢)

* ويقولُ الأصفهانيُّ : الشُّعْرُ مُخْتَلَفٌ فِي قَائِلِهِ ، فَمَنْ الرُّوَاةُ مَنْ يَرْوِيهِ لَصَالِحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْعَبْشَمِيِّ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْوِيهِ لِقَطْرِيِّ بْنِ الْفُجَاءَةِ الْمَازِنِيِّ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْوِيهِ لِعَبْدَةَ بْنِ هَلَالِ الْيَشْكْرِيِّ .

* وَمَنْ الْوَاضِحُ لِكُلِّ ذِي بَصِيرَةٍ أَنَّ الْقَصِيدَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَانِ فِي الْغَرَضِ ، وَإِنْ اتَّفَقَتَا فِي الْقَافِيَةِ وَالْوَزْنِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمَا لَشَاعِرَيْنِ يَخْتَلِفُ مَشْرَبُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ الْآخَرِ ، فَالْقَصِيدَةُ الْأُولَى الْمُنْسُوبَةُ لِقَطْرِيِّ ذَاتِ مَعَانٍ حَرْبِيَّةٍ قِتَالِيَّةٍ ، يُوَدُّ الشَّاعِرُ مِنْ خِلَالِ أَيْبَاتِهَا أَنْ تَشَاهِدَ أُمُّ حَكِيمٍ زَوْجَهُ شَجَاعَتَهُ وَفَرُوسِيَّتَهُ يَوْمَ دَوْلَابٍ ، هُوَ يَنْخَرُطُ فِي صَفُوفِ الْفُرْسَانِ يَشْرِي وَيَبِيعُ ، وَيَذْكُرُ نَدَمَهُ وَإِفْرَاطَهُ فِي لَطَمٍ وَجْهَهَا عِنْدَ غِيَابِ الْحَلَمِ وَالتَّعَقُّلِ .

* بَيَدَ أَنَّنَا نَجِدُ الْأَبْيَاتِ الثَّلَاثَةَ الْآخَرَى هِيَ أَيْبَاتُ ذَاتِ غَرَضٍ غَزَلِيٍّ لَيْسَ غَيْرُ ، وَفِيهَا تَغَزَّلٌ وَاضِحٌ بِامْرَأَةٍ تُدْعَى : أُمِّ حَكِيمٍ ، وَهِيَ كَمَا يَظْهَرُ مِنَ الْأَبْيَاتِ ذَاتِ دَلَالٍ وَنَعِيمٍ وَجَمَالٍ وَكَمَالٍ وَحَسَنٍ وَجَسَمٍ .

(١) فِي هَذَا الْبَيْتِ إِقْوَاءٌ ، حَيْثُ الَّذِي قَبْلَهُ مَكْسُورٌ ، وَهَذَا مَرْفُوعٌ .

(٢) انْظُرْ : الْأَغَانِي (٦/١٤٨ و ١٤٩) ، طَبْعَةُ بَيْرُوت . وَمَعْنَى : «الْهُدُو» : الْهَدْيُ ، وَالْمَقْصُودُ بِهِ الْهَزِيعُ الْآخِرُ مِنَ اللَّيْلِ . وَ«قَطُوفُ» : الْقَطُوفُ مِنَ الدَّوَابِّ : الْبَطِيُّ ، وَقِيلَ : هُوَ الصَّقِيقُ الْمَشِيُّ . وَ«مَحْطُوطَةُ الْمَثَنِ» : مَمْدُودَتُهُ .

* وفي كتابه «الكامل» ، أورد المبرّد مطلع قصيدة لقطري على النحو التالي :

فيا كَبِداً مِنْ غَيْرِ جُوعٍ وَلَا ظَمًا وواكبداً مِنْ وَجَدِ أُمِّ حَكِيمٍ
ثمَّ قال : وأُمُّ حَكِيمٍ هذه امرأةٌ مِنْ الخوارج قُتِلَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ^(١) .

* وهكذا طوى التاريخُ صفحةً فارسيةً مِنْ فارساتِهِ قُدِّرَ لَهَا أَنْ تُقْتَلَ بَيْنَ
صَلِيلِ السُّيُوفِ وَهَمْسِ الرِّمَاحِ ، وبذلك سَجَلَتْ بَطْلَةً فِي فارساتِ التاريخِ .

* * *

(١) انظر : الكامل للمبرّد (١/٢٢٣) ، طبعة مكتبة دار المعارف ببيروت .

أُمُّ قِرْفَةِ الْفَزَارِيَّةِ

* ضُربَ بها المثل حتى قيل: أعز من أم قرفة.

* غُلِّقَ في بيتها خمسون سيفاً لخمسين رجلاً كلهم لها

محرم.

* شاعرة مشهورة من شاعرات العرب.

امرأة زعيمة وقائدة:

* بذلت النساء قديماً جهداً بارزاً في معظم الأمور المهمة؛ التي جاذبت فيها الرجال أروية المجد.

* وقد بذلت المرأة العربية المشرقية^(١) في ماضيها الغابر جهداً واضحاً في الحرب وإدارتها ، بل وقيامها على ساق ، فقد كانت بعض الحرائر في مقدمة المحاربين ، تفعل كما يفعل الرجال في ميادين القتال ، وساحات النزال ، وضرب هامات الأبطال.

* وهذا لا يعني أنه كان للمرأة العربية قديماً دور ثانوي لا يؤبه له ، وذلك من تحريض حمية الفرسان المحاربين وإثارة عواطفهم ، وتنشيط مشاعرهم ، وكذلك إمداد المقاتلين بحاجاتهم من شراب وطعام وسلاح ، ومن ثمّ تضميد جراحاتهم ، والعناية بأحوالهم وشؤونهم ، حتى يتابعون الحرب والنزال.

وقد برزت في ساحة التاريخ النسوي العربي نساء كان لهن نصيبٌ موفورٌ ، في مجال الزعامة والقيادة الحربية ، بل وممارستها ما يمارس الصناديد من لظى الحروب وفواجعها.

* ومن العادة المتوارثة في الحروب أن قيادة الجيش لا تُناط إلا بالبطل الجريء الجلد الصبور المحنك المطاع ، وإن القائد ليُصرّف جنده ، ويدبّر الخُطط للنصر والظفر ، فإذا كانت المرأة العربية قد سمّت إلى هذه الرتبة

(١) للمزيد من أخبار النساء المشرقيات وصور أخبارهن وأعمالهن ، اقرأ كتابنا «نساء من المشرق العربي» حيث تجد فيه ما يسرّ العين والقلب بإذن الله.

العالية ، فإنَّ ذلك إقراءٌ من جماعة الرجال والأبطال بسمو مكانتها ، وعظمتها ، ودليلٌ أيضاً على خضوعهم لها وطاعتها^(١) .

* ومن هؤلاء القائدات اللواتي رسمت أعمالهن ريشة التاريخ رقاش الطيئة ، ورقاش هذه ، امرأة من قبيلة طيء ، كاهنة جاهلية ، كانت ذات حزم ورأي ونفوذ وبطش ، وكانت تغزو بقومها طيء ، وكانوا يتيمنون بها وبرأيها ، حيث غزت بهم مراراً ، وكان الظفر حليفها ، فأغارت يوماً على قبيلة إياد بن نزار فغنمت ، وسبّت ، وكان فيما أصابت فتى جميلاً ، فتزوَّجته وحملت منه ، فلم يلبث أن دنا وقت الغزو ، فقالوا لها : الغزو يا رقاش ، فاغزي إن كنت تريدين .

فقلت : رويد الغزو ينمرق^(٢) ، فأرسلتها مثلاً ، ثم إنهم جاؤوا لعادتهم فوجدوها نفساء قد ولدت غلاماً ، فقال بعض شعراء طيء يتهكم فيها :

نُبئت أن رقاش بعد شماسها حبلت وقد ولدت غلاماً أكحلاً
والله يُخطئها ويرفع بُضعها والله يُلقحها كشافاً مقبلاً
كانت رقاش تقود جيشاً جحفاً فصبت وحق لمن صبا أن يحبلاً^(٣)

(١) انظر : المرأة في الشعر الجاهلي لأحمد الحوفي (ص ٤٣٥) بتصرف .

(٢) معنى المثل : أمهل الغزو حتى يخرج الولد . ويُضرب في التمكن وانتظار العاقبة .

(٣) انظر : مجمع الأمثال للميداني (٢/ ٢٥ و ٢٦) رقم (١٥٢٨) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . وانظر جمهرة الأمثال (١/ ٣٩٣) ، وأعلام النساء (١/ ٤٥٢) ، والمرأة في الشعر الجاهلي (ص ٤٣٥) ، مع الجمع والتصرف ، ومعنى «يُلقحها» : يُغلي مهرها . و«الكشاف» : الحمل على الناقة بعد نتاجها .

* وعلق الدكتور أحمد الحوفي على الأبيات السابقة تعليقاً جميلاً فقال : ويظهر لي من حنّ الشاعر عليها ، أنه كان يظنّها قد انسلخت من أنوثتها ، أو انسلخت منها أنوثتها ، فلما حملت ووضعت استبان له أن القائدة الحازمة الأريبة مازالت أنثى =

* وظهرت امرأةٌ قائدةٌ أخرى في تميم ، وهي من حيث الوزنِ الصَّرفي على وزن رقاشٍ ، وهذه الزَّعيمة الخطيرة هي «سَجَّاح» ، التي تزعمت قومها ، وتقدمتهم في الحرب ، بل تطاولت أكثر من هذا وعملت نبيةً ، نعم تنبأت وزعمت أنه يُوحى إليها ، ودان لها كثيرٌ ممن حولها وآمنوا بها .

* وهذه قائدةٌ أخرى من النساء ، اشتهرت بكنيتها واسمها ، وكانت زعيمةً خطيرةً في قومها ، ومن سوء حظها وتعاستها أنها كانت تناوى رسولَ الله ﷺ ، وتناوى أصحابه الكرام - رضوان الله عليهم - ؛ ولعلها لو آمنت مع أمثالها لكان لها في التاريخِ النَّسوي نصيبٌ وشأنٌ ؛ ولكن لعداوتها ولؤمها ختمَ اللهُ على قلبها وعلى سمعها وعلى بصرها غشاوةً فهي لا تبصرُ طريقَ الهدى والحقِّ والنورِ المحمديّ .

* ومن العجيبِ في أخبارٍ^(١) هذه القائدة الكافرة أنَّ قومها كانوا يأتمرون بأمرها ، ولا يحدون عن إشارتها وإمضاءها ، فضلت وضلوا وأضلوا ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل : ٢٤] ؛ تلکم المرأةُ القائدةُ الزَّعيمة هي أمُّ قرفة الفزارية ، واسمها فاطمة بنتُ

= تتزوج وتحمل وتلد ، فخيبت ظنه ، ولعله سخط أيضاً لأنه خشي ألا يكون في رجال القبيلة من يخلفها في القيادة وبث الحماسة ويؤمن الزعامة ، فيعجزون عن الغارة واكتساب الغنائم . . . (المرأة في الشعر الجاهلي ص ٤٣٥ و ٤٣٦)

(١) جوامع السيرة النبوية (ص ١٩) ، وجمهرة الأمثال (١٥٨/٢) ، وأعلام النساء (٥٦/٤ - ٥٨) ، وجمهرة أنساب العرب (ص ٢٥٧) ، وتاريخ الخبيس (١٣/٢) ونهاية الأرب (٢١٠/١٧ و ٢١١) ، وعيون الأثر (١٥٦/٢ و ١٥٧) ، ولسان العرب (٢٨٢/٩) ، والكامل في التاريخ (٢/٢٠٩) ، ومجمع الأمثال للميداني (٢/٣٩٣) و (٣/٣٥٢) ، والسيرة النبوية (٤/٢٠٠) طبعة دار الخير ؛ وشاعرات العرب في الجاهلية والإسلام لبشير يموت (ص ٦١ و ٦٢) وغيرها كثير .

ربيعة بن زيد الفزاري، وذكر ابن إسحاق بأن اسمها فاطمة بنت ربيعة بن بدر.

أَمْنَعُ مِنْ أُمِّ قَرْفَةٍ:

* هذا مَثَلٌ^(١) من الأمثال العربية القديمة التي سَرَتْ بين الناس في العصور الخوالي، فقالوا: أَمْنَعُ مِنْ أُمِّ قَرْفَةٍ، أو أعزَّ من أمِّ قَرْفَةٍ^(٢). كما قالت العرب في أمثالها: لو كُنْتُ أعزَّ مِنْ أُمِّ قَرْفَةٍ، وَأَمْنَعُ مِنْ أُمِّ قَرْفَةٍ.

* وذكرها ابن منظور في «اللسان» فقال: وقولهم في المَثَلِ: أَمْنَعُ مِنْ أُمِّ قَرْفَةٍ، هي اسمُ امرأة^(٣).

(١) «مَثَلٌ»: قال المُبرِّد: المَثَلُ مأخوذٌ مِنَ المِثَالِ، وهو: قولٌ سائرٌ يُشَبَّه به حالُ الثاني بالأول، والأصلُ فيه التَّشْبِيهُ، فقولهم: مَثَلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ إِذَا انتَصَبَ، معناه أَشَبَّهُ الصُّورَةَ المنتصبةً، وفلان أمثلُ مِنْ فلان؛ أَي: أَشَبَّهُ بِمَا لَهُ مِنَ الفَضْلِ. والمِثَالُ: القِصَاصُ لتشبيهِ حالِ المُقْتَضَى منه بحالِ الأول، فحقيقة المَثَلِ ما جُعِلَ كالعلم للتشبيه بحالِ الأول، كقول كعب بن زهير:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرُقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ
فَمَوَاعِيدُ عُرُقُوبٍ عَلِمَ لِكُلِّ مَا لَا يَصْحُحُ مِنَ المَوَاعِيدِ.

قال ابنُ السَّكَيْتِ: المَثَلُ لَفْظٌ يَخَالِفُ لَفْظَ المَضْرُوبِ لَهُ، ويوافقُ معناه معنى ذلك اللفظِ، شَبَّهَهُ بالمِثَالِ الذي يُعْمَلُ عليه غيره.

وقال غيرهما: سُمِّيَتِ الحِكْمُ القَائِمُ صَدْفُهَا فِي العُقُولِ أَمْثَالًا؛ لِانْتِصَابِ صُورِهَا فِي العُقُولِ، مُشْتَقَّةٌ مِنَ المَثُولِ الذي هو الانْتِصَابُ.

وقال إبراهيمُ النَّظَّامُ: يَجْتَمِعُ فِي المَثَلِ أَرْبَعَةٌ لَا تَجْتَمِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الكَلَامِ: إيجازُ اللفظِ، وإصابةُ المعنى، وحسنُ التَّشْبِيهِ، وجودةُ الكِنَايَةِ؛ فهو نهايةُ البلاغةِ.

وقال ابنُ المقفَّعِ: إِذَا جُعِلَ الكَلَامُ مَثَلًا كَانَ أَوْضَحَ لِلْمُنْطِقِ، وَأَتَقَّ لِلسَّمْعِ، وَأَوْسَعَ لَشُعُوبِ الحَدِيثِ.

(٢) انظر: جمهرة الأمثال (٢/٥٨). والمستقصى (ص ٩٩)، ومجمع الأمثال (٢/٣٩٣).

(٣) لسان العرب (٩/٢٨٢)، ومعنى قَرْفَةٍ في اللغة: القَرْفُ: لحاءُ الشَّجَرِ، واحِدَتُهُ =

* وأُمُّ قَرْفَةَ واحدةٌ من نساءِ العَصْرِ الجاهليِّ المشهورات اللواتي أدركنَ الإسلامَ ، ولكنها لم تُسَلِّمْ ولم يدخل الإيمانُ في قلبها ، ولم تدركها السَّعادةُ ، بل لم تدركْ هي السَّعادةَ الأبديَّةَ باعترافِ الإسلامِ وارتضاءه ديناً لها ، وكانت مع شِفوتها هذه من ذوات السُّلطان والثُّفوذ في قومها ، وبين عشيرتها وأولادها ، وأهلها الأقربين .

* ذكر ابنُ حزم الأندلسيِّ في «جمهرته» أنَّ أُمَّ قَرْفَةَ هذه ، كان لها ثلاثة عشر ولداً ، وكانت زوجاً لمالك بن حذيفة بن بدر ، فولدت له : خَرَشَةَ ، وَجَبَلَةَ ، وَحَكَمَةَ ، وَقَرْفَةَ ، وَمَعَاوِيَةَ ، وَأَرْطَاةَ ، وَحُصَيْنَ ، وَعُبيدَ ، وشَهرانَ ، وقيسَ ، وَحِصْنَ ، وَزُفَرَ ، ومرثد^(١) .

* كما ذكر الرُّواة أنَّ لها ابنة تسمَّى سلمى ، لا تقلَّ عنها حزماً وشدةً وصرامةً وأنفةً^(٢) ؛ وذكروا أيضاً أقوالاً أخرى عن أُمِّ قَرْفَةَ بأنَّ لها عشرة بنين وابنتين ، وقد كُنت بابن لها يسمَّى قَرْفَةَ .

* وكانت أُمُّ قَرْفَةَ امرأةً عزيزة الجانبِ ، مرعيةً المكانةِ في قومها ، بلغت من المنعةِ أنَّه كان يُعلَّقُ في بيتها خمسونَ سيفاً لخمسينَ رجلاً كلَّهم لها محرم^(٣) .

أُمُّ قَرْفَةَ والشَّعْرُ :

* يظهرُ من الأخبارِ التي وصلت إلينا عن أُمِّ قَرْفَةَ ، أنَّها واحدةٌ من شواعرِ النساءِ العربيَّات في عَصْرِها ، ففي قصيدةٍ تائيةٍ لها ترثي ابنها تبدو

= قَرْفَةُ ، يعني القَشْرَةُ ، وقَرْفَةُ أيضاً يُطْلَقُ على اسمِ رجلٍ ، قال الشاعر :

ألا أبلغَ لديكَ بينَ سُويدٍ وقَرْفَةَ حينَ مالَ به الولاؤُ

(١) انظر : جمهرة أنساب العرب (ص ٢٥٧) .

(٢) انظر : تاريخ الطبري (٣/ ١٣٤) .

(٣) تاريخ الخميس (٢/ ١٣) ، ومجمع الأمثال (٢/ ٢٤٩) .

ثائرة عنيفةً ، تعتفُ مَنْ يرضى دِيَّةً مِنَ الثُّوقِ أَوْ الْأَنْعَامِ خِيفَةَ النَّزَالِ ، أَوْ
الجلاد ومقارعة الأبطال .

* وتبدو أم قرفة كذلك غاضبةً تدعو إلى الثَّارِ ، وإلى أَخْذِهِ بِحَدِّ السَّيْفِ
وَسِنَانِ الرَّمْحِ ، وإن لم يحصلْ ذلك فستبكي ليلَ نَهَارٍ بدموعِ جَارِيَاتٍ إِلَى
أَنْ تَمُوتَ ، لِأَنَّ ذَلِكَ أَحَبَّ إِلَى نَفْسِهَا مِنْ زَوْجِ جَبَانٍ رَعْدِيدٍ يَعِيشُ حَيَاةَ
الدَّلِّ وَالْهَوَانِ .

* وتذكرُ كُتُبُ الْأَخْبَارِ وَالْأَسْمَارِ وَالْأَدَبِ أَنَّ قَيْسَ بْنَ زَهِيرِ بْنِ جَذِيمَةَ
الْعَبْسِيَّ ، قَدْ قَتَلَ وَلَدَهَا قَرْفَةً ، وَمِنْ ثَمَّ حَمَلَ دَيْتَهُ إِلَى أَبِيهِ ، فَرَضِيهَا ، فَلَمَّا
عَلِمَتْ بِذَلِكَ أَنْشَأَتْ تَرْثِي ابْنَهَا ، وَتَعَيَّرَ زَوْجَهَا حَذِيفَةَ الَّذِي قَبِلَ الدِّيَّةَ
وَرَضِيَ الدَّيْتَةَ ، فَاسْمَعْ إِلَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْعَنِيفَاتِ ؛ وَالصَّرَخَاتِ الْعَالِيَاتِ ؛
وَالْأَنَاتِ الْمُثْقَلَاتِ بِالْحُزْنِ :

| | |
|---|---|
| حُذِيفَةَ لَا سَلَمْتَ مِنَ الْأَعَادِي | وَلَا وَقَيْتَ شَرَّ النَّائِبَاتِ |
| أَيَقْتُلُ قَرْفَةً قَيْسٌ وَتَرْضَى | بِأَنْعَامٍ وَثُوقٍ سَارِحَاتِ |
| أَمَّا تَخْشَى إِذَا قَالَ الْأَعَادِي | حَذِيفَةُ قَلْبُهُ قَلْبُ الْبَنَاتِ؟ |
| فَخِذْ ثَاراً بِأَطْرَافِ الْعَوَالِي | وَبِالْبَيْضِ الْحِدَادِ الْمُرْهَفَاتِ |
| وَالْأَخْلَنِي أَبْكِي نَهَارِي | وَلَيْلِي بِالدَّمُوعِ الْجَارِيَاتِ |
| لَعَلَّ مَنِيَّتِي تَأْتِي سَرِيعاً | وَتَرْمِينِي سَهَامَ الْحَادِثَاتِ |
| فَذَاكَ أَحَبُّ مَنْ بَعَلَ جَبَانٍ | تَكُونُ حَيَاتُهُ أَرْدَى حَيَاةِ |
| فِيَا أَسْفِي عَلَى الْمُقْتُولِ ظُلماً | وَقَدْ أَمْسَى قَتِيلاً فِي الْفَلَاةِ |
| تَرَى طَيْرَ الْأَرَاكِ يَنْوَحُ مِثْلِي | عَلَى أَعْلَى الْعُصُونِ الْمَائِلَاتِ |
| وَهَلْ تَجِدُ الْحَمَائِمُ مِثْلَ وَجْدِي | إِذَا رُمِيَتْ بِسَهْمٍ مِنْ شَتَاتِ |
| فِيَا يَوْمَ الرَّهْمَانِ فُجِعْتُ فِيهِ | بِشَخْصٍ جَازَ عَنْ حَدِّ الصِّفَاتِ |
| وَلَا زَالَ الصَّبَاحُ عَلَيْكَ لَيْلاً | وَوَجْهُهُ الْبَدْرُ مَسْوُودُ الْجِهَاتِ |

ويا خيلَ السِّبَاقِ سُقِيَتْ سُمّاً مُذاباً في المِياهِ الجَارياتِ
ولا زالتْ ظُهورُكَ مَثَقَلاتٌ بأحمالِ الجبالِ الرَّاسياتِ
لأنَّ سِباكَ ألقى علينا هموماً لا تزالُ إلى المماتِ^(١)
جُرأتُها وَعَدَاؤُها لِلنَّبِيِّ ﷺ :

* كانت أمُّ قرفةَ الفزاريةَ واحدةً منَ النسوةِ الضَّالَّاتِ المعانداتِ حمَّالاتِ الشرِّ والحقدِ ، اللواتي وقفنَ في وجهِ الإسلامِ والدعوةِ المحمديَّةِ في عَصْرِها ، فقد كانت تجاهرُ بعدائها للإسلامِ والمسلمين ، وكانت بناحيةَ وادي القُرى ، على سبعِ ليالٍ من المدينة المنورة في طريقِ الشَّامِ .

* وكانت أمُّ قرفةَ فاطمةُ بنتُ ربيعةَ الفزاريةَ ذاتَ صوتٍ مسموعٍ ، وزعامَةٍ واضحةٍ في قومها ، وبين أولادِها ونصرائها ، فقد كانتِ المرأةُ عَصْرَ ذاكِ إذا ولدتُ ارتفعَ قَدْرُها ، لِمَا للأولادِ من أهميَّةٍ في حياةِ الأسرةِ والعشيرة^(٢) .

(١) أعلام النساء (٤/ ٥٧) ، وشاعرات العرب في الجاهلية والإسلام (ص ٤٣) طبعة بيروت ١٩٣٤ م .

(٢) كانتِ الأمُّ المنجبةُ عَصْرَ ذاكِ تزهرُ بنجايةِ أولادِها ، ويفخرُ أبناؤها بها ، وسميتِ الأمُّ التي يَشْرَفُ بنوها منجبةً ، وقد رَفَعَ العربُ من أقدارِ المنجباتِ ، وضربوا ببعضهنَّ المثلَ فقالوا: أنجبُ منِ ماويةَ ، وأنجبُ من أمِّ البنين . ويكونُ الذكورُ فخرًا للأمهاتِ ، وقوةً لهنَّ ، ويُقالُ للمرأةِ التي تِلِدُ الأولادَ الكرماءَ الأشرافَ: منجبةٌ ومنجاب ، ولم تكنِ العربُ تعدُّ منجبةً من لها أقلُّ من ثلاثةِ بنين أشراف . (المحبر ص ٤٥٥)

ولذلك زُهِيتِ الأمُّ المنجبةُ بأبنائها ، وزهى أبناؤها بها ، لأنَّهم يدينونَ لها بكثيرٍ من عظمةِ نفوسِهِم ، وسلامةِ أبدانِهِم ، وشهرتِهِم ومجدِهِم .

وقد رَفَعَ العربُ من أقدارِ المُنْجَباتِ ، ففَوَّهوا بهنَّ ، وعدوهنَّ مُثَلًّا عاليةً ، لذلك ضربوا ببعضهنَّ الأمثالَ فقالوا: أنجبُ منِ عاتكةَ ، وأنجبُ من خبيثةَ ، وأنجبُ من فاطمة بنتِ الخرشب . ولهذا أَمَرَ الحبيبُ الأعظمُ مُحَمَّدٌ ﷺ بأنَّ يختارَ المرأةَ الإنسانيَّةَ =

* ولعلَّ أُمَّ قَرْفَةَ قد رَأَتْ كَثْرَةَ محارمها ، وكثرة السُّيُوف من حولها ، وكذلك كثرة الرِّمَاح وآلاتِ الحرب ، فنفخ الشَّيْطان في عطفِها ، وزَيَّنَ لها هذه الكثرة ، ولعبَ بها ذات اليمين وذات الشمال وكلَّبَ غوايته باسطُ ذراعيه أمامَ باب بيتها ، فظنَّتْ أنَّها قادرةٌ على إطفاءِ نورِ الحقِّ الذي ينبعثُ من المدينةِ المنوَّرة ، فبعثتُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ أربعين رجلاً من بطنِها ليغزوه في بيته وفي المدينةِ المنوَّرة ، وهي تحسبُ أنَّها تحسنُ بذلك صنْعاً ، ولم تَدْرِ أنَّ تدميرها كامنٌ في تدبيرها ، وأنَّ اللهَ عاصمُ نبيِّه منها ومن غيرها من سادةِ الفجَّارِ وكبارِ المجرمين ، وكُبَّارِ المفسدين والمستهزئين .

* ولم تكتفِ أُمَّ قَرْفَةَ بهذا العداءِ السَّافر للدعوةِ المحمديَّة ، وإنَّما كانت تؤلِّبُ النَّاسَ على رسولِ اللهِ ﷺ ، فبعثَ لها سيِّدنا زيدَ بنَ حارثة^(١) فارسَ الموالى ومولى الفُرسان - عليه سحائبُ الرضوان - فهزَمَتْه ، فحلفَ ألاَّ يغسلَ رأسَه ولا يدهنَ حتى يغزوها وقومَها ، ويذيقهم ألوانَ النِّكال .

* وروى أنَّ سيِّدنا زيدَ بنَ حارثة - رضي الله عنه - كان قد خرج في تجارةٍ إلى الشَّام ، ومعه بضائعُ لأصحابِ النَّبيِّ ﷺ ؛ فلمَّا كان دون وادي القُرى ، لقيه ناسٌ من فزارَةَ ، فأحاطُوا بهم من كلِّ جانب ، وأعملُوا فيهم السِّلَاح ، حتى ظنَّوا أنَّهم قد قُتِلُوا جميعاً ، وأخذوا البضائعَ التي كانت مع زيدِ بنِ حارثةٍ وأصحابه .

= الأصيلَةَ فقال : «تخيروا لنطفكم فإنَّ العرقَ دَسَّاسٌ» .

وللمزيد من هذه الأخبار الجميلة ، اقرأ سيرة فاطمة بنت الخرشب في كتابنا «نساء من المشرق العربي» .

(١) اقرأ سيرة سيِّدنا زيد بن حارثة - رضي الله عنه - في موسوعتنا «فرسان من عصر النبوة» (ص ١٢٦ - ١٤٦) ، فسيرته إمتاعٌ للأسماع وأنسٌ للمجالس بإذن الله .

* وفي روايةٍ أخرى أنّ زيداً وأصحابه لما كان دون وادي القُرى لقيه ناسٌ من فزارةٍ من بني بذرٍ ، فضرّبوه وضربوا أصحابه ، وأخذوا ما كان معهم^(١) .

* وعاد زيدٌ وأصحابه إلى المدينة المنورة ، ونذرَ زيدُ بنُ حارثةَ ألا يمسَّ رأسه غُسلٌ من جنابةٍ حتى يغزو بني فزارة ، فلمّا شُفي من جراحته ، وعُوفي من المرض ، بعثه رسولُ الله ﷺ في سريةٍ لهم وقال لهم : «اكنموا النَّهارَ وسيروا الليلَ» .

* فخرجَ بهم دليلٌ من بني فزارة ، وقد تتبّه لهم القوم - بنو فزارة - ، فجعلوا واحداً منهم ناظوراً ينظرُ في الصّباح على جبلٍ يشرفُ على وجهِ الطّريق الذي يرون أنّ المسلمين قد يأتون منه ، فينظرُ قدرَ مسيرة يوم ، فيقول بعد أن ينظرَ: اسرّحوا فلا بأسَ عليكم ؛ وإذا أمسى المساءُ أشرفَ ذلك الرّجلُ على ذلك الجبل ، فينظرُ مسيرةَ ليلة ، فيقول: ناموا فلا بأسَ عليكم هذه الليلة .

* فلمّا كان زيدُ بنُ حارثةَ وأصحابه على نحوِ مسيرة ليلة ، أخطأَ بهم الدليلُ الفزاريُّ طريقَهُم ، فسلّكَ بهم طريقاً أخرى ، حتى أصبحوا وهم على خطأ ، فعاینوا الحاضرَ من بني فزارة ، فحمدوا خطأَهُم ، فکمنَ لهم في الليل حتّى أصبحوا ، فأحاطَ بهم زيدٌ وأصحابه .

* ثمَّ کبرَ زيدٌ ، وكبّرَ أصحابه ، وأخذوا أمّ قرفةَ ، وأخذوا ابنتها سلمى ؛ وقيل : جارية بنت مالک بن حذيفة ، وكانت أمّ قرفةَ عجوزاً ذات شرفٍ في قومها ، ثمَّ قُتِلَتْ جزاءً وفاقاً لأعمالِها وعدوانِها ؛ أمّا ابنتها فقد ظلّت أسيرة .

(١) انظر: نهاية الأرب (١٧/ ٢١٠) .

* ثمَّ أَقْبَلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ بِجُنُودِهِ ، وَعَادَ ظَافِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ،
فَقَرَعَ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَامَ إِلَيْهِ يَجْرُ ثَوْبَهُ فَاعْتَنَقَهُ وَقَبَّلَهُ ، وَسَأَلَهُ ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا
ظَفَّرَهُ اللَّهُ بِهِ ^(١) .

* وهكذا قصمَ اللهُ أمَّ قُرْفَةَ ، وقطَعَ دابرَها ، وتعالوا نقرأ قصَّتها ،
ومسيرَ زيدِ بنِ حارثةِ إليها في هذه الأنشودةِ الجميلة :

| | |
|-----------------------------------|---|
| زيدُ بنُ حارِثَةٍ ومَع | — تجارةٌ للمُسْلِمِينَ |
| مُتَوَجِّهًا لِلشَّامِ يَب | غِي الصَّفْقَ مِثْلُ الْآخِرِينَ ^(٢) |
| خَرَجْتُ عَلَيْهِ بَنُو فِزَا | رَةً بئْسَ قَوْمًا فَاسِقِينَ |
| الْمَالُ قَدْ أَخَذُوهُ أَيَّ | ضًا عَذَّبُوهُ كَمُعْتَدِينَ |
| زَيْدٌ يَعُودُ لِيخْبَرَ الـ | هَادِيَ بِفَعْلِ الْمَجْرِمِينَ |
| فَوْرًا رَسُولُ اللَّهِ أَر | سَلَ بِالرِّجَالِ الصَّادِقِينَ |
| جَاؤُوا إِلَيْهِمْ فَاجَوْ | وَهُمْ فِي الصَّبَاحِ مَبْكِرِينَ |
| لَكِنْ بَنُو بَدْرِ أَحْشَوْا | بِالرِّجَالِ الْقَادِمِينَ |
| فَرَّوْا وَقَدْ تَرَكُوا الْمَنَا | زَلَ فِي الْبَرَارِيِّ هَارِبِينَ |
| أَخَذُوا امْرَأَةً وَابْنَتَ | هَا وَعَادُوا سَالِمِينَ |
| زَيْدٌ أَتَى بَابَ النَّبِ | يِّ مَبْشَرًا بِالْعَائِدِينَ |
| لِلْقَائِهِ قَامَ النَّبِ | يُّ بِسُرْعَةِ الْمُتَلَهِّفِينَ |
| بِالْأَمْرِ قَدْ عَلِمَ النَّبِ | يُّ وَأَنَّهُ النَّصْرُ الْمُبِينُ |
| قَدْ كَانَ هَذَا عَامَ سِتِّ | شَهْرِ صَوْمِ الْمُؤْمِنِينَ |

(١) انظر: نهاية الأرب (٢١١/١٧) ، وعيون الأثر (١٥٦/٢) ، وأعلام النساء
(٥٧/٤ و ٥٨) مع الجمع والتصرف . وكانت سرية زيد هذه في السنة السادسة من
الهجرة .

(٢) «الصفق»: التجارة .

* وقد شداً أحمد محرّم في ديوانٍ «مجد الإسلام» بهذه الحادثة ، فصاغ قصيدةً طويلةً تائيّةً منها هذه الأبيات الكاشفات ، وأولها :

أَمِنْكَ فَزَارَةٌ أَنْبَعَثَ الْغُزَاةُ فَمَا تَغْنِي السُّيُوفُ وَلَا الْحُمَاةُ
لَعَمْرِكَ مَا بَنُ حَارِثَةٍ بِحَلٍّ وَإِنْ زَعَمَ الْقَرَاصِنُ الْجُفَاةُ
أَثَارُوا الشَّرَّ لَا هُوَ يَتَغَيَّرُ وَلَا أَصْحَابُهُ الْغُرُّ الْهُدَاةُ
أَصَابُوهُمْ عَلَى ثِقَةٍ وَأَمْنٍ فَلَا سَيْفٌ يُسَلُّ وَلَا قَنَاةُ

* ومنها يصفُ مسيرَ زيدٍ ، وأسرَ أمّ قرفةَ وقتلَهَا :

مَشَى الْبَطْلُ الْمَقْدَفُ لَا اتَّأَدَّ تَضَيَّقُ بِهِ السُّيُوفُ وَلَا أَنَاةُ
يَخْفُ بِهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ بِيضاً عَلَيْهَا مِنْ مَنَاقِبِهَا سِمَاتُ
وَحَاقَ بِأَمِّ قَرْفَةٍ مَا أَرَادَتْ بِأَكْرَمَ مَا تُفَدِّي الْأُمّهَاتُ
أَرَادَتْ قَتْلَهُ فَجَرَى عَلَيْهَا قِضَاءُ الْقَتْلِ وَانْتَصَفَ الْقِضَاةُ
أُحِيطَ بِهَا وَبَابِنْتِهَا جَمِيعاً فَمَا نَجَتِ الْعَجُوزُ وَلَا الْفَتَاةُ
لِتِلْكَ جَزَاؤُهَا الْمُرْدِي وَهَذِي لَهَا الْأَسْرُ الْمَبْرَحُ وَالشَّتَاتُ
تَسَاقُ ذَلِيلَةً مِنْ بَعْدِ عَزٍّ كَمَا سَيَقْتَ غَدَاةَ النَّحْرِ شَاةُ^(١)

* وتذكرُ المصادِرُ أَنَّ أُمَّ قَرْفَةَ قَدْ قَتِلَتْ ، وَسَبَّيَتْ ابْنَتَهَا سَلْمَى ، وَكَانَتْ عَزِيزَةً فِي أَهْلِهَا مِثْلَ أُمِّهَا أَمِّ قَرْفَةَ ، وَقَدْ جَاءَ بِهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَتْ مِنْ نَصِيبِ قَيْسِ بْنِ الْمَسْحَرِ ، أَوْ سَلْمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ ، فَسَأَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَلْمَةُ فَوَهَبَهَا لَهُ ، فَأَهْدَاهَا إِلَى خَالِهِ حَزْنِ بْنِ أَبِي وَهَبٍ . وَقَدْ صَوَّرَ أَحْمَدُ مُحَرَّمٌ هَذَا الْمَشْهَدَ بِقَوْلِهِ :

هُوَ ابْنُ الْأَكْوَعِ الْبَطْلُ الْمَرْجِيُّ سَبَّاهَا حِينَ أَسْلَمَهَا الرَّعَاةُ
هِيَ الْهَبَةُ الْكَرِيمَةُ صَادَقَتْهَا يَمِينٌ مَا تَفَارَقُهَا الْهَبَاتُ

(١) انظر: ديوان مجد الإسلام (ص ٥٠٠ - ٥٠٢) باختصار وانتقاء الأبيات .

حَبَاهَا خَالَهُ فِي غَيْرِ ضَنٍّْ وَأَيْنَ مِنَ الضَّئِينَ الْمَكْرَمَاتُ^(١)
 * وهناك رواية تقول: إِنَّهَا كَانَتْ لِعَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -
 فَأَعْتَقَتْهَا^(٢).

* وفي روايةٍ أُخْرَى عِنْدَ ابْنِ الْأَثِيرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ بِهَا إِلَى مَكَّةَ ،
 ففَادَى بِهَا أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ^(٣).

* وكانت سلمى هذه من شواعرٍ عَصِرَها ، ولها بذلك آثارٌ وَعَثَها
 المصادر ودواوينُ الأدب^(٤).

* ومهما يكن من أمرٍ ، فقد رجعت سلمى إلى قومها ، وارتدت بعد
 وفاة رسول الله ﷺ فيمن ارتدَّ عن الإسلام من قومها ، ثم إِنَّهَا انضَمَّتْ إِلَى
 طَلِيحَةَ الْأَسَدِيِّ هِيَ وَعَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ ، وَجَمَعَتِ النَّاسَ حَوْلَهَا لِمَحَارِبَةِ
 قَاهِرِ الْمُرْتَدِّينَ وَقَامَعَ الْمُشْرِكِينَ سَيْفِ اللَّهِ وَسَيْفِ رَسُولِهِ سَيِّدِنَا خَالِدُ بْنُ
 الْوَلِيدِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - ، فَتَجَمَعَ إِلَيْهَا كُلُّ مَارِقٍ مِنْ تِلْكَ الْأَحْيَاءِ
 مِنْ غُطْفَانَ وَهُوَازَنَ وَسُلَيْمٍ وَأَسَدٍ وَطَيْيء .

(١) المرجع السابق عنه (ص ٥٠٢).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٢٣٤).

(٣) الكامل (٢/ ٧٩).

(٤) كانت سلمى هذه شاعرةً من شواعرِ الجاهليَّة اللواتي حفظَ لنا التَّأْرِيخُ أثاراً من
 أقوالهنَّ ، فقد رثتُ أَبَاهَا لَمَّا قَتَلَهُ بَنُو عَبْسٍ فَقَالَتْ :

لِلَّهِ عَيْنًا مَنْ رَأَى مِثْلَ مَالِكٍ عَقِيرَةً يَوْمَ إِذْ جَرَى فَرَسَانِ
 فَلَيْتَهُمَا لَمْ يَشْرَبَا قَطَّ قَطْرَةً وَلَيْتَهُمَا لَمْ يُرْسَلَا لِرَهْأَنِ
 أَحَلَّ بِهِ أَمْسَ الْجُنَيْدِ نَذْرُهُ فَأَيُّ قَتِيلٍ كَانَ فِي غُطْفَانَ
 إِذَا سَجَعَتْ بِالرَّقَمَتَيْنِ حَمَامَةً أَوِ الرِّسِّ فَبَكِي فَارِسَ الْكَتِفَانِ
 (أعلام النساء ٢/ ٢٥٣)

و«الْجُنَيْدُ» : هُوَ جَنْدُبُ أَحَدِ بَنِي رَوَاحَةَ ، فَقَدْ رَمَى أَبَاهَا بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ . و«الرَّقَمَتَيْنِ» :
 الرَّقَمَتَانِ : قَرِيَتَانِ بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَالنَّبَاجِ ، وَالرَّقَمَتَانِ أَيْضاً بِأَرْضِ بَنِي أَسَدٍ .

* ولعلّ سلمى هذه والتي تكنى أمّ زمل لم تنسَ ما حلَّ بأُمّها من قبلُ ، وما حلَّ بها من أسِرٍ ، فأرادتُ أنْ تقفوَ مسيرةَ أُمّها ، كما أرادت أنْ تنتقمَ لنفسِها ، وتثار لما حصَلَ لقومِها .

* ثمَّ إنّها قادتِ الجموعَ من حولِها ، وقادتَهُم كما قادتْ أُمّها الجموعَ من قبلُ ، وأمرتهم أنْ يهجموا على خالد بن الوليد ومنّ معه ، وكان مشغولاً بحربِ المرتدين ، فسارَ إليها خالدُ ، واقتتلَ الفريقان قتالاً شديداً عنيفاً ، وكانت سلمى أمّ زمل تشرفُ على المعركةِ ، وهي راكبةٌ على جملٍ أُمّها أمّ قرفة ، والتي كانت تركبُهُ في المعاركِ من قبل .

* وكانتِ المعركةُ حاميةَ الوطيسِ ، وقد احمرّتْ حدقُ الفُرسانِ لِهَوْلِها ، ولما رأى خالد - رضي الله عنه - خطرَ سلمى ، أحبَّ أنْ يدبّرَ خطةً للقضاءِ عليها وعلى شرّها ، ومن ثمَّ تنفضُ الجموعُ من حولِها ، فأوعزَ إلى الفرسانِ ، أنْ مَنْ نخسَ جملُها ، أو عقره فلهُ مئةٌ من الإبل ، هنالك تهافتَ الأبطالُ والفُرسانُ ، وكان قتالُهُم شديداً ، حتى اجتمعَ على الجملِ فوارسُ فعقروه وقتلوا ، وقُتِلَ حولَ جملِها مئةٌ من الملتفينَ حولِها ، ودارتِ الدائرةُ عليها وعليهم ، وهزمهم اللهُ عزَّ وجلَّ ، وردَّ كيدهم إلى نحورِهِم ، وبأوا بغضبٍ من الله . وبعثَ خالد بالفتحِ وذلك سنة (١١ هـ)^(١) .

* وهكذا انطفأتْ هذه الجمرَةُ من هاتينِ المرأتينِ الظَّالمتينِ ، وانتهتْ بذلك حياتهما ، لتكونا عبرةً للمعتبرين .

* غيرَ أنّنا نوذُّ أن نذيلَ هذه التّرجمةَ بذكرِ فقرَةٍ عن بعضِ النّساء اللواتي عادينَ الإسلامَ ، وعادينَ رسولَ اللهِ ﷺ ، لتتمَّ بذلك الفائدةُ ، ويعمَّ النّفعُ بإذنِ الله .

(١) انظر: تاريخ الطبري (٣/ ٢٣٤) ، وأعلام النساء (٢/ ٢٥٣) مع الجمع والتصرف .

نِسَاءً حَارِبُنَ الْإِسْلَامَ وَالرَّسُولَ ﷺ :

* عرفنا أَنَّ أُمَّ قَرْفَةَ قد حاربت رسولَ الله ﷺ عن بُعْدٍ وطولٍ مسافَةٍ ، وكذلك ابنتها ، ولكنَّ هناك بعضُ النساءِ قد حاربنَ رسولَ الله ﷺ وعادِينَ الْإِسْلَامَ عن قُرْبٍ ، بل إِنَّ بعضَهُنَّ كُنَّ منْ عَشِيرَتِهِ وقومه .

* ونحنُ ذاكرونَ لك بعضَ مواقفِ هؤلاء اللواتي صَدَدْنَ عن الْإِسْلَامِ ، وَصَدَّهُنَّ الْحَسَدُ والهوى عن اتِّباعِ الهدى ودينِ الحقِّ ، فُكُنَّ في صَفِّ المجرمينَ والمُسْتَهْزِئِينَ ، في الوقتِ الذي كانتِ مثيلاًتَهُنَّ ممنَ نَصَرْنَ دينَ اللهِ وأَقَمْنَ الصَّلَاةَ وآتَيْنَ الزَّكَاةَ وأَطَعْنَ اللهَ ورسولَهُ .

١ - أُمُّ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ :

* كلُّنا يعرفُ سعدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ القرشيَّ الزُّهريَّ ، أَحَدَ العشرةِ الْمُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ ، وَأَحَدَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَأَحَدَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَّةَ ، وَأَحَدَ السَّنَةِ أَهْلَ الشُّورَى .

* وأُمُّهُ هي : حَمْنَةُ بِنْتُ سَفْيَانَ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ مِنْ قُرَيْشٍ .

* أَسْلَمَ سَعْدُ بْنُ سَبْعِ عَشْرَةَ سَنَةً وهو في عُمُرِ الزَّهْرِ وَالْوَرْدِ ، وعرفَ الْإِيمَانَ سَبِيلَهُ إِلَى قَلْبِهِ الْخَالِي فَتَمَكَّنَ مِنْهُ . وكانَ ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ فِي الْإِسْلَامِ وفي ذَلِكَ يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ : ما أَسْلَمَ أَحَدٌ فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَسْلَمْتُ ، ولقدْ مَكُنْتُ سَبْعَ لَيَالٍ وَإِنِّي لَثَلْتُ الْإِسْلَامَ^(١) .

* نَشَأَ سَعْدٌ فِي رِعَايَةِ أُمِّهِ ، وَلَمَّا أَسْلَمَ سَعْدٌ كَانَ مِنَ الْمَتَوَقَّعِ مِنْ أُمِّهِ حَمْنَةُ بِنْتُ سَفْيَانَ أَنْ تُسَرَّ بِذَلِكَ ، بيدَ أَنَّ الشَّقْوَةَ غَلَبَتْ عَلَيْهَا ، وَرَاحَتْ

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٩٨/١) والحديث أخرجه البخاري في الفضائل برقم (٣٧٢٦ و ٣٧٢٧) .

تَحَارَبُ الدَّعْوَةُ الْمَحْمُودِيَّةُ بِكُلِّ مَا أُوتِيَتْ مِنْ حِيلَةٍ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ أَثِيرًا لَدَيْهَا .

* فقد ذكرتُ كُتُبُ الصَّحِيحِ والمفسِّرون وغيرهم من كُتَّابِ التَّراجم ، أَنَّهُ نَزَلَ فِي سَعْدٍ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ^(١) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿ [العنكبوت : ٨ - ٩] ^(٢) . وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَسْلَمَ سَعْدٌ قَالَتْ لَهُ أُمُّهُ حَمْنَةُ مُسْتَنْكَرَةً : يَا سَعْدُ بَلَّغْنِي أَنَّكَ صَبَوْتَ ، فَوَاللَّهِ لَا يَظْلَنِي بَيْتٌ مِنَ الضَّخِّ - الشَّمْسِ - ، وَالرَّيْحِ ، لَا أَكُلُ وَلَا أَشْرَبُ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ، وَتَرْجِعَ إِلَى مَا كُنْتَ عَلَيْهِ ، وَكَانَ أَحَبَّ وَلَدِهَا إِيَّاهَا ؛ فَأَبَى سَعْدٌ ، وَثَبَّتَ عَلَى إِسْلَامِهِ .

* وَصَبِرْتُ حَمْنَةُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ كَوَامِلَ لَمْ تَكَلِّمَهُ ، وَلَمْ تَأْكُلْ ، وَلَمْ تَشْرَبْ ، وَلَمْ تَسْتَظِلَّ بِظِلٍّ حَتَّى خَشِيَ عَلَيْهَا ، فَاتَى سَعْدٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَشَكَا ذَلِكَ إِلَيْهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ . . . ﴾ الْآيَةِ .

* وَرَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ الْقِصَّةَ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي . . . وَذَلِكَ أَنَّ مِصْعَبَ بْنَ سَعْدٍ حَدَّثَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَفِيهِ أَنَّهُ قَالَ : حَلَفْتُ أُمُّ سَعْدٍ أَلَّا تَكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ ، وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ .

قَالَتْ : زَعَمْتَ أَنَّ اللَّهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ ، وَأَنَا أُمُّكَ وَأَنَا أَمْرُكَ بِهَذَا .

قَالَ : مَكَّثْتُ ثَلَاثًا حَتَّى غَشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ ، فَقَامَ ابْنُ لَهَا يُقَالُ لَهُ عِمَارَةٌ ، فَسَقَّاهَا ، فَجَعَلْتُ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي

(١) انظر التفاسير الآتية للآية (٨ و٩) من سورة العنكبوت : القرطبي - البغوي - الخازن وغيرها .

القرآن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا...﴾ وفيه أنهم إذا أرادوا إطعامها شجروا فاهًا بالعصا^(١).

* وفي رواية أخرى عن سعدٍ قال: كنتُ رجلاً برّاً بأمي ، فلما أسلمت قالت: ياسعدُ ، لا آكلُ ولا أشربُ حتّى أموتَ فتعيّرَ بي ، فيقال: يا قاتلَ أمِّه.

قلتُ: لا تفعلِي يا أمّاه ، فإنّي لا أدعُ ديني لهذا الشّيء .

قال: فمكثتُ يوماً وليلةً لا تأكلُ ، فأصبحتُ قد جهدتُ.

قال: فلما رأيتُ ذلك قلتُ: تعلمينَ واللهِ يا أمّاه ، لو كانت لكِ مئةُ نفسٍ ، فخرجتِ نفساً نفساً ، ما تركتُ ديني هذا لشيءٍ ، إن شئتِ فكلّي ، وإن شئتِ فلا تأكلّي ، فلما رأيتُ ذلك أكلتُ ، فنزلتُ هذه الآية: ﴿وإن جاهدك﴾^(٢).

* وهكذا ثبتَ سعدٌ على إسلامِهِ ، ولم تغدُرْ بِهِ العاطفةُ ولم تعبثْ بعواطفِهِ ، ولذا فإنّه لم يتابعَ أمّه حمّةً على شركها وكفرها بالله ، لأنّ الكفرَ باللهِ مصيبةٌ وأيّ مصيبة!! وأيّ معصية أعظمُ من الكفرِ باللهِ التي يخلدُ صاحبها في النار .

* إنّ موقفَ سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - مع أمّه حمّة بنتِ سفيان يُعطينا نموذجاً للمؤمنِ الصّادقِ المتمسكِ بدينه ، والذي لا يساومُ عليه أبداً ، كما يبيّنُ صورةَ المرأةِ الكافرةِ المتسلّطةِ التي ورثتِ الضّلالَ عن سلفِها لتورّثه إلى خلفِها.

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث رقم (٤٦) (٢٧٨/٥ و ٢٧٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣٢٨/١٣) ، والدر المنثور (١٦٥/٥) وتفسير الخازن والبعوي (١٥٦/٥).

* ولكنَّ سعداً الشابَّ المؤمنَ التَّقِيَّ الذي واجَهَ الابتلاءَ صَبْرَ وصَبْرٍ
وصَبْرٍ وثَبَّتَ ، وقاومَ عواظِفَه ، فلم تَؤثِّرَ فيه عاطِفَةُ الأُمومَةِ ، فيضعِفُ
أمامَها ، فتردّه عن عقيدَتِه .

* ولا شَكَّ في أَنَّ عاطِفَةَ الأُمومَةِ أمرٌ صَعْبٌ وشاقٌّ يصعُبُ على كثيرينَ
الوقوفَ أمامَه ، ولكنَّ هُوَ الإيمانُ الصَّادِقُ الذي لا يقفُ أمامَه شيءٌ .

* إِنَّ الإيمانَ ليس كلمة تُقال ، وإنما هو حقيقة ذاتُ تكاليفٍ ، وأمانةٌ
ذاتُ أعباءٍ ، وجهادٌ يحتاجُ إلى صَبْرٍ ، وجهدٌ يحتاجُ إلى احتمالٍ ، فلا
يكفي أن يقولَ النَّاسُ: آمَنَّا؛ وهم لا يتركونَ لهذه الدَّعوى حتى يتعرضوا
للفتنةِ ، فيثبتوا عليها ، ويخرجوا منها صافيةً عناصرهم ، خالصةً قلوبُهم .

* وهكذا أثبتَ سعدٌ أنَّه صادقٌ صابرٌ ثابتٌ على الحقِّ ، فلم يجنحَ لرغبةِ
أُمِّه التي تريدُ أن تصدّه عن سبيلِ الله ، وهي أحبُّ النَّاسِ إليه ، وهو أحبُّ
النَّاسِ إليها .

* ويشبهُ قصَّةَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ هذه مع أُمِّه ، قصَّةَ عِيَّاشِ بْنِ
أَبِي ربيعة مع أُمِّه أسماءَ أيضاً ، وقد قيل : إِنَّ آيَتِي العنكبوت (٨ و ٩) اللَّتَيْنِ
نزلتا في سَعْدٍ نزلتا بشأنِ عِيَّاشٍ ، وهذا أمرٌ محتملٌ ، إذ قد يكونُ النَّازِلُ
واحداً ، والأسبابُ متعدِّدةٌ ، وقصَّتُه : أَنَّهُ هاجرَ مع عمرَ بنِ الخطَّابِ حتى
نزلَا المدينةَ المنورةَ ، فخرجَ أبو جهلٍ والحارثُ أخوَاهُ لأُمِّه أسماءَ ، فنزلَا
بعِيَّاشٍ وقالَا له : إِنَّ مِنْ دِينِ مُحَمَّدٍ - ﷺ - صِلَةَ الأَرْحَامِ ، وَبِرَّ الوَالِدَيْنِ ،
وقد تركتَ أُمَّكَ لا تطعمُ ، ولا تشربُ ، ولا تأوي بيتاً حتى تراكَ ، فاخرجْ
معنا ، واستشارَ عمرَ فقال : هما يخدعانكَ ، ولكَ عليَّ أن أقسمَ مالي بيني
وبينكَ ، فما زالَا به حتَّى أطاعَهُمَا وعصىَ عمرَ ، فقال عمرُ : أمَّا إذا
عصيتني فخذْ ناقتي ، فليسَ في الدُّنيا بعيرٌ يلحقُها ، فإنَّ رابِكَ منهما ريبٌ
فارجعُ .

* فلما انتهوا به إلى البیداء قال أبو جهل : إِنَّ نَاقَتِي قد كَلَّتْ فاحملني معك فنزل ليوطىء لنفسه وله ، فأخذاه فشداه وثاقاً وجَلَدَهُ كُلَّ واحدٍ مئة جلدة ، وذهبا به إلى أمه فقالت : لا تزالُ في عذابٍ حتى ترجعَ عن دين محمد^(١) .

٢ - أُمُّ مُصْعَبَ بْنِ عُمَيْرَ :

* أُمُّ مُصْعَبَ بْنِ عُمَيْرَ مِنَ المحاربات للإسلام وللدين الحنيف ، وقد فعلتُ شيئاً كثيراً لتصدَّ ابنها مُصْعَباً عن سبيل الله وما نزلَ من الحق ، ولتصدَّ عن رسول الله ﷺ .

* وَأُمُّ مُصْعَبَ هَذِهِ اسْمُهَا : خُنَاسُ بِنْتُ مَالِكٍ ، كانت امرأة من نساء مكة المعدودات ، وقد عُرِفَتْ بإرادتها النَّافِذَةِ ، وآرائها المتسلِّطَةِ على أسرتها وبقسوتها في تربية أولادها ، وحزمها في معاملتهم ، وهي مع هذا كلَّه تحبُّ ابنها مُصْعَباً حبّاً شديداً وتعطيه ما يحبُّ ويهوى ، فقد كانت من المؤسرات وكانت مليئةً كثيرة المال ، تكسو ابنها أحسن الثياب وأجملها وأرقه ؛ وكان يلبسُ الحضرميَّ من النعال ؛ واشتهر مُصْعَبُ بأنَّه فتى مكة شباباً وجَمالاً ، وقد وصفه الحبيبُ المصطفى ﷺ بقوله : « ما رأيتُ بمكة أحداً أحسنَ لَمَةً ، ولا أرقَ حلَّةً ، ولا أنعمَ نعمةً من مُصْعَبَ بْنِ عُمَيْرٍ » .

* ويحدثنا السُّهيلي عن مصعب وعن حالة أمه بعد أن ذكرَ ووصفَ من حاله قبل الإسلام ، فيقول : فلما أسلمَ أصابه من الشدة ما غيرَ لونه وأذهبَ لحمه ، ونهكت جسمه ، حتى كان رسولُ الله ﷺ ينظرُ إليه وعليه فروة قد رقعها ، فيبكي لما كان يعرفُ من نعمته . وحلفتُ أمه - حينَ أسلمَ وهاجر -

(١) انظر : تفسير أبي السعود (٣١/٧) ، وتفسير القرطبي (٣٢٨/١٣) ، والبحر المحيط (١٤٢/٧) .

ألا تَأْكُلَ ولا تَشْرَبَ ولا تَسْتَظِلَّ بظِلِّ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهَا ، فَكَانَتْ تَقْفُ
لِلشَّمْسِ حَتَّى تَسْقُطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا ، وَكَانَ بَنُوها يَحْشُونَ فَاهَا بِشِجَارٍ - عود -
فَيَصْبُونَ فِيهِ الْحِساءَ لثَلَا تَمُوتَ .

* وَيَذْكُرُ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الإصابة» أَنَّه قَدْ صُبَّ عَلَى مُصْعَبٍ الْعَذَابُ ،
وَقُيِّدَ فِي الْأَصْفَادِ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ سَيِّدًا فَأَخَذَهُ أَهْلُهُ وَقَوْمُهُ ، وَحَبَسُوهُ ، فَلَمْ
يَزَلْ مَحْبُوسًا إِلَى أَنْ هَاجَرَ إِلَى الْحَبْشَةِ .

* وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَتَغَيَّرَ مَجْرَى حَيَاةِ مُصْعَبٍ عِنْدَمَا أَسْلَمَ وَأَمِنَ بِمُحَمَّدٍ
نَبِيًّا وَرَسُولًا ؛ فَقَدْ أَسْلَمَ مُصْعَبٌ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ ، وَعَرَفَ مَعْنَى الشَّهَادَةِ
وَالتَّوْحِيدِ ، فَكَانَ يَكْتُمُ إِسْلَامَهُ خَوْفًا مِنْ أُمِّهِ - قَبْلَ قَرِيشَ - لثَلَا تَحُولَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ الذَّهَابِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ يَدْعُو إِلَى
اللَّهِ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .

* وَلَكِنَّ الْأُمُورَ لَمْ تَكُنْ كَمَا يَرِيدُ مُصْعَبٌ ، وَإِنَّمَا أَبْصَرَ بِهِ عِثْمَانُ بْنُ
طَلْحَةَ يُصَلِّي فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ فَأَشَاعَ مَا رَأَى ، وَعَلِمَتْ أُمُّهُ خُنَاسٌ بِمَا حَدَّثَ
بِهِ عِثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ ، فَكَانَ يَوْمًا صَعْبًا عَلَى مُصْعَبٍ ، وَسَأَلَتْهُ فِي غَضَبٍ :
أَصْبَأْتَ يَا مُصْعَبُ ؟

قَالَ مُصْعَبٌ : لَا يَا أُمَّاهُ ، وَلَكِنِّي عَرَفْتُ الطَّرِيقَ الْحَقَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
وَحَدَه لَا شَرِيكَ لَهُ .

فَقَالَتْ : وَيَحْكُ وَأَيَّ إِلَهٍ تَعْنِي يَا مُصْعَبُ .

قَالَ : يَا أُمَّاهُ ، إِنَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ،
وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ؛ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

فَقَالَتْ : أَهْناكَ آلِهَةٌ غَيْرُ اللَّاتِ وَالْعَزَّى ، وَهُبَلٌ ، وَمُنَّاةٌ يَا مُصْعَبُ ؟ !

فَقَالَ مُصْعَبٌ : يَا أُمَّاهُ ، إِنِّي أَعَرَفْتُ أَنَّكَ امْرَأَةٌ رَاجِحَةُ الْعَقْلِ ، نَافِذَةٌ

البصيرة ، وإني لأرجو ألا يغيبَ عنكَ أنَّ هذه الأحجارَ لا تنفعُ ولا تضرُّ ،
ولا تملكُ من أمرِ نفسها شيئاً ، فكيفَ نتوجَّه إليها بالعبادةِ والتقديسِ وهي
لا تسمعُ ولا تبصرُ؟!

فقالت أمُّه والغضبُ يعلو وجهها: ويحك يا مُصعبُ ماذا تقول ، أبهذه
الجرأة والقحّة تنالُ من آلهتنا وتسخرُ من معتقداتنا؟ .

قال: لا والله يا أمّاه ، ما أقولُ إلا حقّاً وصدقاً .

قالت: كفّ يا مصعبُ عن هذا الهراء والشُّخفِ ، لقد صدقُوا فيما قالوه
لي عنكَ ، وعن عقُوبكَ لآلهتنا . فقال مصعبُ في هدوء: وماذا قالُوا
يا أمّاه؟!

قالت: لقد قالُوا لي: يا خُناس ، إنّ محمّداً قد سَحَر ابنَكَ مُصعباً بِسِحْرِ
عظيم .

قال: وما هو هذا السِّحر؟!

قالت: يا مصعبُ ، لقد سَحَرَك فصبأتَ عن ديننا ، وتابعته فيما يدعو
إليه . . .

* ثمَّ إنّها أخذتْ تعنّفه وتشتّم ما جاء به ، وراحتْ تصدّهُ عن دينِ الله
بجميعِ الوسائلِ ، وتقربُ له وتبعد ، ولكنه ظلَّ ثابت القلبِ ، لم يَأْبَهُ
لكلامها ، ولم يرعوْ لتهديدها ، ولَمَّا يَسُتْ منه قالتْ له: وحقّ هذه الآلهة
لأضعنَّ قدمَكَ في القيدِ حتّى تموتَ كمدّاً ، أو تكفَّ عن هذا الذي تزعمُ
وتقول . . .

* ووضعتْ أمُّه يديهِ التّاعمتينِ في القيدِ ، وكذلك رجلَيْه ، ولم ترحمْ
غضارته ، ولعلّها وجدتْ حرجاً لها وانتقاصاً بإسلامه بينَ نساءِ قومها ، ولم
تعلمْ أنّها لو أسلمتْ لحظيْتُ بعزِّ الدَّهرِ وغنيمةِ الدّارين؟!

* وظلّ مصعبٌ في قيده ، حتّى أذن رسولُ الله ﷺ بالهجرةِ إلى الحبشة ، فانفلتَ من محبسه ، وانتظمَ مع المهاجرين إلى الله ، الفارين بدينهم من قريش .

* ولكنْ لم يطلْ مقامُ مصعبَ هناك فعادَ إلى مكّة ، ليكونَ السّفيرَ التّبويّ الحصيفَ إلى المدينة ، ويسلمَ كبراءَ أهلِ المدينة وأسيادهم على يديهِ .

* وفي المدينة نجحَ مُصعبُ في مهمّته ، وعادَ ومعه عددٌ من أهلها وقد ملأَ الإيمانُ قلوبهم ، وشغلتْ محبّةُ رسولِ الله ﷺ نفوسهم ، وعندما حطّت قوافلهم رحالها في مكّة ، أسرعَ مصعبُ إلى بيتِ رسولِ الله ﷺ وأخبره بإسلامِ أهلِ المدينة؛ فسُرَّ ﷺ بهذا الخبرِ وهذه التّائج المباركة .

* ونُميَ إلى خُناس أمّ مصعب بأنَّ ابنها قد قدّمَ من المدينة بعد غيابٍ طويل ، فلم تطقِ الأمُّ الحازمةُ صبراً ، وأرسلتْ إليه : يا عاق ، أتقدمُ بلداً أنا فيه لا تبدأ بي؟! !!

فقال مصعب قولتهُ الخالدةُ لأُمّه : واللهِ يا أمّاه ، ما كنتُ لأبدأ بأحدٍ قبل رسولِ الله ﷺ

* فلمّا سلّمَ مصعبُ على رسولِ الله ﷺ وأخبره بما أخبره ، ذهبَ بعد ذلك إلى أمّه خُناس بنتِ مالك ، فقالت له : ويحك يا مصعب ، إنك لعلّى ما أنت عليه من الصّباة بعد؟! !

قال مصعبُ وابتسامةُ الإيمانِ ترتسمُ على محيّاه : يا أمّاه أنا على دينِ رسولِ الله ﷺ ، وهو الإسلامُ الذي رضيَ اللهُ لنفسِهِ ولرسولِهِ

قالت : ما شكّرتَ ما رثيتُكَ مرةً بأرضِ الحبشة ، ومرةً بيثرب .

فقال : أفرّ بديني أن تفتنوني .

* ثم إِنَّ أُمَّه أَرَادَتِ حَبْسَهُ ، وَأَنْ تَضَعَهُ فِي الْقَيْدِ كَمَا فَعَلَتْ سَابِقاً فَقَالَ لَهَا : وَاللَّهِ لَئِنْ أَنْتِ حَبَسْتِنِي لِأَحْرَصَنْ عَلَى قَتْلِ مَنْ يَتَعَرَّضُ لِي .

قَالَتْ : فَاهْذُبْ لَشَأْنِكَ . وَجَعَلَتْ تَبْكِي .

فَقَالَ مَصْعَبُ : يَا أُمَّه إِنَّي لِكِ نَاصِحٍ عَلَيْكَ شَفِيقٌ ، فَاشْهَدِي أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

قَالَتْ أُمُّهُ وَالْحَرْبُ وَالتَّحَدِّي يَبْدُو مِنْ فِيمَا : يَا مَصْعَبُ وَالثَّوَابُ لَا أَدْخُلُ فِي دِينِكَ فَيُزْرَى بِرَأْيِي ، وَيَضَعُفُ عَقْلِي ، وَلَكِنِّي أَدْعُكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ ، وَأَقِيمْ عَلَى دِينِي ^(١) .

* وَظَلَّتْ أُمُّ مَصْعَبٍ مِنَ الْمَحَارِبَاتِ لِدِينِ اللَّهِ ، وَظَلَّ مَصْعَبُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى كَانَتْ غَزَاةُ بَدْرَ ، وَكَانَ النَّصْرُ حَلِيفَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَكَانَ أَخُوهُ أَبُو عَزِيزُ بْنُ عُمَيْرٍ صَاحِبَ لُؤَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِبَدْرٍ بَعْدَ النَّصْرِ بْنِ الْحَارِثِ ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِ الْأَسْرَى .

* وَعِنْدَمَا وَزَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَسْرَى بَيْنَ أَصْحَابِهِ قَالَ لَهُمْ : « اسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا » ، وَكَانَ أَبُو عَزِيزٍ أَخُو مَصْعَبٍ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَقَالَ أَبُو عَزِيزٍ - يَرُوي مَا جَرَى لَهُ مَعَ أَخِيهِ مَصْعَبٍ حِينَهَا - : مَرَّ بِي أَخِي مَصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ، وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَأْسُرُنِي ، فَقَالَ مَصْعَبُ لِلْأَنْصَارِيِّ : شُدَّ يَدَيْكَ بِهِ ، فَإِنَّ أُمَّه ذَاتُ مَتَاعٍ لَعَلَّهَا تَفْدِيهِ مِنْكَ .

فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَخِي ، هَذِهِ وَصَاتُكَ بِي ؟ !

فَقَالَ مَصْعَبُ : إِنَّهُ أَخِي دُونَكَ .

* وَسَأَلْتُ أُمَّه خُنَاسَ - بَعْدَ ذَلِكَ - عَنْ أَغْلَى فِدْيَةٍ دُفِعَتْ لِأَسِيرٍ مِنْ

(١) انظر : طبقات ابن سعد (٣/ ١١٩) بشيء من التصرف .

قريش ، فقالوا لها : أربعة آلاف درهم ، فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها^(١).

* وبهذا التصرف أثبت مصعب لأُمّه وأخيه أنّ وشيعة القربى لن تحول بينه وبين الحق.

٣- أمّ جميل بنت حرب :

* وهذه مجرمة خبيثة عادت النبي ﷺ ودعوة الإسلام بكلّ الوسائل ، وآذت الحبيب الأعظم ﷺ بكلّ سبيل ، آذته بالقول فكانت - بزعمها - تذمه ؛ وآذته بفعلها ، ووضعها ما يؤذيه في طريقه وأمام بيته .

* هذه المجرمة اللئيمة السفّية أمّ جميل بنت حرب بن أميّة ، واسمها العوراء ، وتكنى أمّ جميل . وأمّ جميل هذه امرأة عادت رسول الله ﷺ حسداً وبغياً ، ولم تترك وسيلة من وسائل الأذية إلا ركبها وارتكبتها ، فمرة تنعته بالسحر ، ومرة تعيره بالفقر ، وطوراً بموت البنين الذكور ، وكان الحبيب المصطفى ﷺ يعرض عنها وعن مثيلاتها .

* ومما زاد الطّين بلة والمرض علة أنّ هذه السفّية كانت امرأة أبي لهب عمّ النبي ﷺ ، لذلك كانت أذيتها له أكبر وأعظم ، فكانت إذا

(١) ذكر ابن الأثير أنّ أبا عزيز هذا اسمه «زُرة» ، وقال ابن الأثير أيضاً : بأنّ أبا عزيز هذا قد أسلم وله صحبة وسماع من النبي ﷺ ، وكان ممن شهد بدرًا كافرًا ، وأسر يومئذ . وروى ابن الأثير قصة أسره فقال : لما أقبل رسول الله ﷺ بأسارى بدر ، فرّقهم على المسلمين ، وقال : «استوصوا بالأسارى خيراً» ، قال أبو عزيز : كنت في الأسارى يوم بدر فسمعت رسول الله ﷺ يقول : «استوصوا بالأسارى خيراً» ؛ فإن كان ليقدم إليهم الطعام ، فما يقع بيد أحدهم كسرة إلا رمى بها إليّ ، ويأكلون التمر يؤثروني ، فكنث أستحيي ، فأخذ الكسرة فأرمي بها إليه ، فيرمي بها إليّ .
(أسد الغابة ٥/ ٢١٣ و ٢١٤) ترجمة رقم (٦٠٩٦)

ما الليل عسَّس تأخذُ الشَّوكَ والحسَكَ وتدشُّه في طريق الحبيبِ الأعظمِ ﷺ؛ وجاءَ في «الدلائل» للبيهقي أنَّها كانت تحملُ الشَّوكَ فتطرَّحه على طريق النبي ﷺ ليعقره وأصحابه ، ويُقال: «حمالة الحطب»: نَقالة الحديث^(١).

* وأوغلتُ أمَّ جميلٍ في عداوتها لرسولِ اللهِ ﷺ ، وكانت دارها ملاصقةً لداره ، فكانت تَضَعُ الأوساخَ والأقذارَ على بابهِ ، فيعِدهُ ويقولُ: «أيَّ جوارٍ هذا يا بني عبد مناف؟! ولا عجبَ إذا كان اللهُ عزَّ وجلَّ قد توعَّدها بنارٍ ذاتِ لَهَبٍ ، كما توعَّد أبا لهبٍ بالمصيرِ ذاته .

* ولعلَّ أمَّ جميلٍ لم تكنْ مسرورة بما تصنعه من الأذى ، فراحتْ تثيرُ الفتنةَ ، وتفسدُ على النبي ﷺ قلوبَ القومِ ، فكانت نَمَّامةً واشيةً تقطعُ ما بين الأقاربِ من صِلاتِ الودِّ والترَّاحمِ والقرابةِ ، فسَمَّاهَا اللهُ أشنعَ وصفٍ وأقبحه فقال: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤].

* ووصلَ السَّفَهَ بهذه العدوَّةِ إلى حدٍّ كبيرٍ ، وزعمت أنَّها ستهجو النبي ﷺ ، وذلك عندما أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ سورةَ المسدِّ كاملةً ، وسمعتِ الخبيثةُ أمَّ جميلٍ ما جاءَ فيها من وصفٍ لها ولزوجها أبي لهبٍ ، وجاءتِ النبيَّ ﷺ وهو جالسٌ في المسجدِ عندَ الكعبةِ ، ومعه أبو بكر الصِّديق - عليه رضوانُ اللهِ - وفي يدها حَجَرٌ تريدُ أنْ تضربهُ ، فلمَّا وقفت عليهما ، أخذَ اللهُ عزَّ وجلَّ يبصرها ، وصرفه عن رسولِ اللهِ ﷺ ، فلم ترَ إلاَّ أبا بكرٍ ، فقالت له: يا أبا بكر ، أينَ صاحبك؟ قد بلغني أنَّه يهجوني ، والله لو وجدته لَضَرَبْتُ فاهُ بهذا الحجرِ ، أما واللهِ إنِّي لشاعرةٌ ، فكما هَجَّاني لأهجوَنَّهُ ، ثمَّ قالت: مُذَمِّمًا عَصِينَا وَأَمْرَهُ أَبِينَا
وَدِينَهُ قَلِينَا

(١) دلائل النبوة (١/١٨٣).

فقال لها أبو بكر: يا أمّ جميل ، والله ما هجأك ، ولا هجا زوجك ، وما ينطق بالشعر ، ولا يتفوّه به ، فقالت: إنك لمصدق ، والله ما أنت بكذاب ، وإنّ الناس ليقولون ذلك . ثمّ ولّت ذاهبةً وهي تقول: قد علمت قريش أنّي ابنه سيدها .

* وبعد أن انصرفت قال أبو بكر: يا رسول الله! أما تراها رأيتك؟ فقال: «ما رأيتني لقد أخذ الله ببصرها عني»^(١) .

* ومن الألفاظ الإلهية أنّ الله عزّ وجلّ قد صرف عن محمّد ﷺ ذمّ كفّار قريش ، وذمّ أمّ جميل هذه ، فكانت إذا تعثّرت بثوبها قالت: تعس مذمّم ، وإذا سألت عنه ﷺ قالت: أين مذمّم؟ .

* ومذمّم ليس هو اسمه ﷺ ، وإنّما كانت الخبيثة أمّ جميل تقول: مذمّماً عصينا ، وتعسّ مذمّم ، وافتقر مذمّم . . . ولذلك قال ﷺ: «ألا تعجبون كيف يصرفُ الله عني شتم قريش ولعنهم؟ يشتمون مذمّماً ، ويلعنون مذمّماً ، وأنا محمّد»^(٢) .

* وظلّت أمّ جميل في عداوتها الحاقدة إلى آخر حياتها ، وستظلّ حمالة الحطب مذمومة إلى آخر الدّهر وسيظلّ ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد: ٥] . كما ذكر الله عزّ وجلّ؛ فقد أودت بها عداوتها المفرطة لله ورسوله إلى التّار وبئس القرار .

* وماتت أمّ جميل شرّ ميتة ، فقد ذكرت المصادر أنّها ظلّت تؤذي النّبي ﷺ إلى آخر حياتها ، وبينما هي ذات يوم حاملّة لحزْمِها قعدت على

(١) السيرة النبوية (١/٣٥٥ و ٣٥٦) ، وتفسير الماوردي (٤/٥٤٣) مع الجمع والتصرف .

(٢) فتح الباري (٦/٦٤١) حديث رقم (٣٥٣٣) .

حجر لتستريح ، فَأَتَاهَا مَلَكٌ فَجَذَبَهَا مِنْ خَلْفِهَا ، فَأَهْلَكَهَا خَنْقاً بِحَبْلِهَا ،
فَوَقَعَتْ وَمَاتَتْ فِي الطَّرِيقِ ، وَغَادَرَتِ الْحَيَاةَ وَهِيَ تَسْعَى فِي أُذَيَّةِ
النَّبِيِّ ﷺ ، فَخَسِرَتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ .

* * *

خولة بنت الأزور

- * فارسية من فارسات التاريخ العربي الإسلامي ، حتى إنها شُبِّهَتْ بخالد بن الوليد.
- * كان لها صولة كبيرة في معركة اليرموك.
- * جمعت بين فروسية ركوب الخيل والطعن بالسنان ، وفروسية البلاغة والبيان.

المرأة وصناعة الحرب:

* خولة بنت الأزور الكنديّة^(١) هي فارسة هذه الصفحات ، وضيعة هذه الأوقات ، ورحلة المرأة وصناعة الحرب ستكون معها إن شاء الله .

* وخولة بنت الأزور هذه امرأة نالت من الشهرة فوق المشهورات ، وقلمها يمر الناس بسيرتها إلا يذكرون أثارة من فروسيتهما وقتالها جنود الروم وخلص أحيها على يدها من أسرهم .

* ومع هذا وذاك كله ، فإن كثيراً من الدارسين لتاريخ النساء قد شك فيها ، وفي وجودها ، وأنها ضرب من خيال القصاص ، وتخيلات الأخباريين .

* ولكننا مع هذا وذاك أحببنا أن ننظمها في سلك هذا العقد ، لأن في سيرتها نفحات جميلة من الفروسيّة العربيّة والنسويّة .

* والمرأة العربيّة - بل المرأة بشكل عام - والحرب نظريّة تحمل الكلام المختلف ، إذ لا تجتمع المرأة مع الحرب ، لأن الحرب خشنة شرسة مهولة تعصف بكل شيء ، بينما عرف أنّ المرأة ومعشر النساء عبارة عن

(١) المصادر والمراجع التي تحدّثت عن خولة بنت الأزور كثيرة جداً ومنها كتاب: فتوح الشام للواقدي في مواطن متفرقة. وعنه أخذت المراجع مادتها ، وانظر: أعلام النساء (٣٧٤/١ - ٣٨٠) ، وشاعرات العرب (١٠٩ و ١١٠) ، وحروب الإسلام في الشام لمحمد أحمد باشمیل (ص ١٦١ و ٢٠٨ و ٢٣٩) ، ومعجم الأدبيات الشواعر (ص ٢٠٥ ، ٢١٠) ، والدّر المنثور (ص ١٨٤ - ١٨٧) ، والأعلام (٣٢٥/٢) ، وشاعرات العرب في الجاهلية والإسلام (ص ٢٦١ - ٢٦٣) ، وفن الحرب الإسلامي لبسام العسلي (١/ ١٠٤ و ١٠٥ و ١٠٦) وغيرها .

قوارير رقيقة ، يخذشها أي شيء ، ويرهقها العمل الذي لم تُخلَقْ له .

* أما صنعة الحرب فعادةً ينهضُ بها الرجال الأشداء ، ولها في الأمم المتحضرة طائفةٌ معينةٌ تحترفها من الضباط والقادة ، لهم شاراتهم وأزياءهم^(١) .

* بيد أن المرأة - على الأغلب - تحبُّ الألوان الزاهية والمزركشة من الثياب ، كما تحبُّ جرَّ الذبول ، والتنعّم بالحلي والحلل .

* على أننا إذا تصفّحنا أوراق التاريخ وسجلاته النسوية ، ألفينا أنها لم تطو على النساء ، ولم يضمن بأخبارها على طول تلك الحقب المتطاولة المترامية .

فقد كانت المرأة ذات صوت مسموع في الحرب والنزال ، وكثيراً ما كانت تهتفُ بالرجل أو تلمُّ به تحت ظلال السيوف ، وقد ملك الرّوع القلوب ، وعقد الهول الألسنة ، وحارت النواظر في المحاجر ، وهذا كله لا يخيفها ؛ ولذا فقد كانت مؤثرة في نجاح الحرب وانتصار الجيش ، ويروي التاريخ النسوي قصة تشير إلى مشاركة المرأة في الحرب في إثارة حماس الفرسان ، ويذكر بأن ابنتي الفند الزماني البكري كان لهما كبير الأثر في يوم «تحلاق اللمم» ، وهو يوم انتصاف بكر من تغلب ، فقد بدأت قبيلة بكر تتلاشى أمام تغلب ، وأخذت ترتد وتتكشف ، ولما رأت الفتاتان البكريتان ذلك ، حسرتا خماريهما ، ونفذتا بين صفوف قومهما ، وأخذتا تُثيران بما تنشدان من حماسيات نفوس قومهما ، وتذكيان نار الحفيظة فيهم ، فكان ممّا أنشدتا :

وَعَغَى وَغَى وَغَى حَرَّ الْحَرَارُ وَالتَّظَلَّى

(١) نساء محاربات (ص ٧) بتصرف يسير جداً .

وَمُلِّئْتُ مِنْهُ الرَّبِّيْ يَا حَبَّذَا الْمُحَلِّقُونَ بِالضَّحَى

* وأقبلت من ورائهما كَرَمَةٌ بنتُ ضِلَعٍ أُمُّ مالِك بن زيد فارسُ بكرٍ
وواحدها ، فتغنَّت مع نساء قومها بما يُحيلُ الجبان الرَّعديد فارساً
صنديداً ، وشهاباً ثاقباً ، وسعيراً مُستطيراً ، فكانت تنشدُ وتقول :

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقٍ نَمْشِي عَلَى النَّمَارِقِ
مَشْيَ الْقَطِيِّ الْبَارِقِ الْمِسْكُ فِي الْمَفَارِقِ
وَالدُّرُّ فِي الْمَخَانِقِ إِنْ تُقْبِلُوا نَعَانِقُ
أَوْ تَذْبِرُوا نُفَارِقُ فِرَاقٌ غَيْرٌ وَامِقُ
عِرْسُ الْمَوَالِي طَالِقُ وَالْعَارُ مِنْهُ لَاحِقُ^(١)

* فلم يلبث البكريون عندما سمعوا هذه الأهلوجة الحماسية ، حتى
تدافعوا وراءهنّ على أعدائهم ، واقتحموا صفوفهم ، وأعملوا السيوف في
رؤوسهم ، وأنهلوا الأسنة من صدورهم ، واستباحوا معاقلهم ، وما كان
مقدارُ حَلْبِ شاةٍ حتى راحَ فريقٌ في الإِسار ومثله فريقٌ في القتل وفرَّ
الباقون .

* وإذا ما سلَّطْنَا الضُّوءَ على دورِ المرأةِ قديماً في مجالِ الحربِ ، ألفينا
أنّها كانت تأسو الجراح ، وتشدُّ العظام ، وتعملُ على حَيَاةِ الدَّمِ دون

(١) انظر: شاعرات العرب (ص ٣٣٣)؛ ومعنى «طارق» كوكبٌ من كواكب السَّحَر ،
ويسمى كوكبُ الصَّباح ، وهو المعنيُّ بقوله عزّ وجلَّ ﴿وَاللَّيْلُ وَالطَّارِقُ﴾ [الطَّارِق : ١] :
تريدُ نحنُ بناتِ المجد والسمو . و«التمارق» : جمع نَمِرَق ونَمْرَقَة : الوسائد ، تريدُ
أنهنَّ يَطَّانَ مواطنَ الوجوهِ مِنَ النَّاسِ ، و«القطي» : صغائر القَطَا ، ومن دَابِ القَطَا
إذا مَشَى تَثَاقُلَ وتَبَاطَأَ حَتَّى ضَرَبُوا بِهِ الْمَثَلَ فَقَالُوا : أَذَلَّ مِنَ الْقَطَا ، و«البارق» :
الحائرُ أو الفزع . و«المفارق» : جَمْعُ مَفْرَق ، وسط الرأس ، وهو الذي يَفْرُقُ فِيهِ
الشَّعْر ، و«المخاتق» جمع مخنقة : القلائد . و«الوامق» : المحبُّ . و«العِرس» :
الزَّوْجَة . و«المولي» : الغَاثُ .

الزّيف ، وعمل النساء في هذا شبيهةً بنفاذ الرجال في أساليب القتال ، ومقارعة الأبطال ، لحاجتهنّ إليه إذا اتّقدت الحرب ، وتقاربت السيوف إلى النّحور ، ونفذت الرّماح إلى أعطاف الصُّدور ، فهناك يغتمرن الموقعة وهنّ حاملات قُرب الماء للفرسان ، وإلى جانب كلّ منهنّ ما تحتاج إليه الجراحات من لفائف وجبائر وما سوى ذلك من أدوات الطّب في عصر الجاهليّة وصدر الإسلام .

* ولعلّه من المفيد أن نشير هنا إلى تَمريضِ النساء في الحضارة العربيّة ، لتبرز صورة المرأة العربيّة المحاربة بشكلٍ أضواءً وأوضاً .

* فإذا كان الغربُ يفخرُ بالمرضة الإنكليزيّة «نايتنغل» التي خرجت عندهم من طبقة النّبلاء - كما يزعمون - وهي تدعو إلى التّمرّض وتعتبره عملاً شريفاً للمرأة ، فمن واجبنا ، - ونحن في هذه الرّحلة الممتعة مع فارسات العرب - أنّ هذا الفخار إلى المرأة العربيّة في عصر الجاهليّة ، وصدر الإسلام ، وفجره وضّحاه .

* فقد كانت المرأة العربيّة لا تتأخّر عن المساهمة في الخدّمات الاجتماعيّة ، من حماية للمستجير ، وحربٍ وحملٍ سلاحٍ وقيادة جيشٍ إنّ لزم الأمرُ ، وكذلك الطّبُّ ، فقد اختصّت - في الغالب بهذا العمل - جماعةٌ من نسوة العرب رزقهنّ الله بسطة العيش ، فقد كانت هناك فئةٌ منهنّ برزن في التّمرّض والإسعاف الصّحي في السّلم والحرب ، في الجاهليّة والإسلام .

* ومن الجدير بالذكر أنّ الإسلام الحنيف قد أجازَ هذا العمل الإنسانيّ ، وحبّبه إلى النّفوس ، وقد نصّ الإمامُ أحمدُ - رحمه الله ورضي عنه - على أنّه يجوزُ للمرأة أن تخدم الرّجل ، وأنّ تشاهد منه عورةً في حال المرضِ المُلزم لذلك ، وقال مثلَ هذا القول فيما بعد الإمامُ المحدث

الحافظ شمس الدين الذهبي صاحبُ التّصانيفِ المشهورة؛ والمتوفى في سنة (٧٤٨ هـ) رحمه الله .

وكان العربُ يُطلقون اسمَ الآسيّاتِ والأواسي على النساء اللّائي يعملنَ في تضميرِ الجراح ، وجبرِ العظام والوقاية من النَّزف ، وغير ذلك من أعمالِ الإسعافِ ، وقد سُمّين بهذا الاسم لأنَّهنَّ يعالجنَ جراحَ الجريح ويواسينّه ، وفيهنّ يقولُ الشّاعرُ المشهورُ قيسُ بنُ الخطيم ، وقد طعنَ عدوّهُ طعنةً منفسحةً الجوانبِ ، جمّةُ الشّعاب :

طعنتُ ابن عبد القيسِ طعنةً ثائِرٍ لها نَفْدٌ لولا الشّعاعُ أضاءها
يهُونُ عليّ أنْ تردَّ جراحُها عيونَ الأواسي إذ حَمِدَتِ بلاءها
فجعل أقصى طعنته أنْ تردَّ جراحُها عيونَ الأواسي ، فلا يجدنَ إلى شفاها سبيلاً .

* وكُنَّ يسرنَ إلى المعاركِ مع الرجالِ جنباً لجنب ، وكُنَّ ينفذنَ بين الرّجالِ معالجاتٍ مسعفاتٍ ، ومنهنّ من كُنَّ يشتركنَ في القتال ، وكانت لهنّ مواقفٌ محمودّة .

* وقد انبلجَ صبحُ الإسلامِ على كرائمِ حسيّاتِ رافقنَ الغزاةَ والمجاهدين والفاتحين ، فكنَّ مسعفاتِ آسيات ، وكُنَّ في المحلِّ الأمكن من نفوسِ المسلمين جميعاً ، ومنهنّ :

١ - رِفيدةُ الأسلميّةُ : كانت طبيبةً متميّزةً بالجراحة ، ومجاهدةً جريئةً ، اختارها النّبيُّ ﷺ لتقومَ بالعملِ في خيمةٍ مستقلّةٍ ، فكانت تُداوي الجرحى ، وتحتسبُ بنفسها على خدمةٍ مَنْ كانت بهِ ضيعةً من المسلمين .

٢ - أُميّةُ بنتُ قيسِ الغفاريّةُ : وهذه فتاةٌ طبيبةٌ آسيّةٌ خاَمَر الإسلامُ قلبها ، وهي لمْ تُعدْ بعدُ طورَ الحداثَةِ ، فقد قدّمتْ إلى رسولِ الله ﷺ - على بعدِ الشّقة - تبايعه ، فأسلمتْ وبايعتْ ، ولها أربعة عشرَ عاماً ، وخرجت

زعيمةً للآسياتِ الطَّيِّباتِ من قومها إلى غزوةٍ خيرٍ ولم تبلغْ وقتَهَا السَّابعةَ عشرةَ ، وأردفَهَا رسولُ اللَّهِ ﷺ خلفَهُ في مسيره ، وقامتْ بمهمتها أحسنَ قيامٍ ، وأعطاهَا ﷺ قلادةً من الغنيمَةِ ، ظَلَّتْ معها طولَ عمرها وأوصتْ أَنْ تُدفنَ معها ، ولنستمعْ إلى هذه البطلةِ تروي ذلكَ حيثُ تقولُ : جئْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ في نسوةٍ من بني غفار ، فقلنا : إِنَّا نريدُ يا رسولَ اللَّهِ أَنْ نخرجَ معَكَ إلى خيبر ، فنداوي الجرحى ونعينُ المُسلمينَ بما استطعنا . فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : «على بركةِ اللَّهِ» .

* فخرجنا معه ، وكنتُ جاريةً حديثاً سِنِّي ، فأردفني رسولُ اللَّهِ ﷺ حقيبةَ رَحْلِهِ ، فنزلَ إلى الصُّبْحِ فَأناخَ ؛ فلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ لَنَا خيبرَ ، رَضَخَ لَنَا مِنَ الْفِيءِ وَلَمْ يُسْهِمْ لَنَا ، وأخذَ القلادةَ التي تَرِينِ فِي عُنْقِي ، فأعطانيها وعلَّقَهَا بِيَدِهِ فِي عُنْقِي ، فواللهِ لَا تَفَارُقُنِي أَبَداً ، فكانتُ في عنقها حتَّى ماتَتْ ، وأوصتْ أَنْ تُدفنَ مَعَهَا .

٣ - أُمُّ سِنَانِ الْأَسْلَمِيَّةِ : امرأةٌ أَسْلَمِيَّةٌ قدِمَتْ من باديتها إلى المدينةِ المنورةِ فبايعتهُ ، ورافقتهُ إلى خيبرَ تعملُ على مداواةِ الجرحى ، وكانت مع زوجهِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها في هذه الغزاة .

* وقد روتُ أُمُّ سِنَانِ قِصَّةَ فُرُوسِيَّتِهَا وَحُبِّهَا لِلْجِهَادِ وَالتَّمْرِضِ فقالت : لما أَرَادَ رسولُ اللَّهِ ﷺ الخروجَ إلى خيبرَ جئتهُ فقلتُ : يا رسولَ اللَّهِ ، أخرجْ معَكَ في وجهكَ هذا ، أَخْرُزُ السَّقَاءَ ، وأداوي المريضَ والجريحَ إِنْ كَانَتْ جَرَّاحٌ - وَلَا تَكُونُ - وَأَبْصُرُ الرَّحْلَ .

فقالَ رسولُ اللَّهِ : «أخرجي على بركةِ اللَّهِ ، فَإِنَّ لَكَ صَوَاحِبَ قَدْ كَلَمَنَنِي ، وَأَذِنْتُ لَهُنَّ مِنْ قَوْمِكَ وَمِنْ غَيْرِهِمْ ، فَإِنْ شِئْتَ فَمَعَ قَوْمِكَ ، وَإِنْ شِئْتَ فَمَعَنَا» .

قلتُ : معَكَ - يا رسولَ اللَّهِ - .

قال: «فكوني مع أم سلمة زوجتي».

قالت: فكنْتُ معها.

فكان رسول الله ﷺ يغدو من الرجيع كل يوم عليه الدرع ، فإذا أمسى رجع إلينا ، فمكث على ذلك سبعة أيّام حتّى فتح الله حصون خيبر . وأعطاني خرزاً أحمر وحلياً وأشياءً وبغيراً بعته بسبعة دنانير ، وجعل الله في وجهي ذلك خيراً كثيراً^(١).

٤ - حمّة بنت جحش: أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش ، حضرت غزاة أحد ، وكانت تروي الظماء ، وتأسو الجراح ، وقد أصيبت في هذه الموقعة بزوجها مصعب بن عمير - رضي الله عنه - ، فخلف عليها طلحة بن عبيد الله فولدت له محمد بن طلحة ، وكان أوصل الناس لولده ، وهو المعروف بالسّجاد لكثرة سجوده .

٥ - أم أيمن بركة بنت ثعلبة: مولاة النبي ﷺ وحاضنته ، حضرت أحداً ، وكانت تسقي العطشى ، وتداوي الجرحى ، وشهدت كذلك غزوة خيبر ، وغزوة حنين .

٦ - أم عطية الأنصارية: كانت هذه الصحابة المحاربة المجاهدة تخرج مع الغزاة ، تروي عطش فرسان المسلمين ، وتداوي جراحهم ، وكانت تكثر مرافقة الغزاة ، حتى جاء في الصحيح عنها أنّها قالت: غزوت مع النبي ﷺ سبع غزوات أخلفهم في رحالهم ، فأصنع لهم الطعام ، وأداوي الجرحى ، وأقوم على المرضى^(٢).

٧ - كعبية بنت سعد الأسلمية: وهي إحدى النجيات المعدودات من

(١) انظر طبقات ابن سعد (٨/ ٢٩٢) ، والمغازي (٢/ ٦٨٦ و ٦٨٧) بتصرف واختصار .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه .

نساء الصَّحابة ومن طيباتِ العَرَب ، وكانت تُقامُ لها خيمة في المسجدِ
تداوي فيها المرضى ، وتأسو الجرحى ، وقد أعطاهَا رسولُ الله ﷺ في
غزاة خيبر سَهْمَ الرَّجُلِ الْمُجَاهِدِ .

٨ - الرُّبَيْعُ بِنْتُ مُعَوِّذٍ : وهي من مشاهيرِ بناتِ الأنصارِ ومن
المجاهداتِ ، كانت تسقي في الغزواتِ القومَ وتخدمُهُم ، وتداوي
الجرحى ، وتردُّ القتلى إلى المدينة المنورة ، وكان بعضُ هؤلاءِ الآسياتِ
المرضاتِ يغشينَ الحربَ لإفاضةِ الرَّحمةِ وبذلِ المعونةِ ، فإذا وجدْنَ
حاجةً إلى القتالِ جاذبنَ الفُرسانَ حبلَ البطولةِ ، وكنَّ يغامرنَ يومَ ترجُفُ
قلوبُ الأبطالِ .

٩ - نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبِ الْمَازِنِيَّةِ^(١) : هذه مجاهدةٌ فارسةٌ من أشهرِ نساءِ
الدُّنيا في دنيا فروسيَّةِ النِّساءِ ، ومن مشاهِدِهَا الْعَقْبَةُ ، وَغَزَاةُ أُحُدٍ ،
وَالْحُدَيْبِيَّةُ ، وَحُنَيْنٌ ، وَيَوْمُ الْيَمَامَةِ ، حَيْثُ جَاهَدَتْ وَفَعَلَتْ الْأَفَاعِيلَ ،
وَتَارِيخُهَا يَشْهَدُ لَهَا بِالشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ ، وَسِيرَتُهَا مَلَأَتْ الْأَسْمَاعَ يَعْرِفُهَا
الْخَاصُّ وَالْعَامُّ .

١٠ - أُمُّ مَنِيعِ الْأَنْصَارِيَّةِ^(١) : مجاهدةٌ كانت ثَانِيَةً اثْنَتَيْنِ فِي بَيْعَةِ الْعَقْبَةِ ،
فَالْأُولَى نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبِ الْأَنْصَارِيَّةِ أُمُّ عِمَارَةَ ، وَهَذِهِ الثَّانِيَةُ وَتُدْعَى : أَسْمَاءُ
بِنْتُ عَمْرٍو ، وَقَدْ حَضَرَتْ أُمُّ مَنِيعٍ هَذِهِ غَزَاةَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، وَغَزَاةَ خَيْبَرَ ، وَكَانَ
مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ الْغَزَاةِ عَشْرُونَ مُجَاهِدَةً ، وَأَعْطَاهُنَّ مِنْ غَنَائِمِ خَيْبَرَ .

١١ - أُمُّ سُلَيْمِ الْأَنْصَارِيَّةِ : وَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -
أَنَّهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْزُو بِأُمِّ سُلَيْمٍ وَنِسْوَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ مَعَهُ إِذَا غَزَا ،
فَيَسْقِيَنَّ الْمَاءَ وَيَدَاوِيَنَّ الْجَرْحَى .

(١) انظر سيرتهما في كتابنا: نساء من عصر النبوة .

* وروى الإمام مسلم عن أبي طلحة الأنصاري - رضي الله عنه - أنه رأى أم سليم - زوجته - في غزوة حُنين وبيدها خنجر ، فعرضَ الحالَ على رسول الله ﷺ فقال : «يا أم سليم ما هذا الخنجر؟»

فقالت : أخذته حتى إذا قربَ مِنِّي أي مُشرك أبقرُ بطنه . فضحك النَّبي ﷺ .

١٢ - أم حَرام بنتُ ملحان : كانت أمُّ حرام هذه زوجاً للصَّحابي الكبير العالمِ الفارسي عبادة بن الصَّامت ، ولما كانتِ الفُتوحاتُ الإسلاميَّة ، وانطلقتْ جيوشُ المسلمين لفتح قبرص ، رافقتْ أمُّ حرام الجيشَ الغازي على الأسطول الإسلامي في تلك الغزوة التي قادها معاوية بن أبي سفيان ، وفي جزيرة قبرص نالت أمُّ حرام الشَّهادة في سبيلِ الله ؛ وكان رسول الله ﷺ قد دعا لأم حرام أن يجعلها الله من غزاة البحر ، وذلك إجابةً لطلبها كما جاء في الصَّحيح .

* ومن هنا نجد أنَّ الإسلامَ الحنيفَ قد أصدرَ أحكاماً بشأنِ المرأةِ المسلمة ، وهذه الأحكامُ تنبئ عن رعاية طبيعتها التي خلقتُ عليها ، وعلى استعدادها الخَلقي والعُقلي ، ممَّا يتمُّ لمصلحتها الشَّخصيَّة وغيرها في المجتمع الإسلامي .

* وقد لاحظنا في التَّراجمِ السَّابقة لاثنتي عشرة امرأة أنهنَّ قمنَ بدورهنَّ فيما يتناسبُ مع طبيعتهنَّ ومقتضى ظروفهنَّ ، وشاركنَ في صنعة الحرب عندما لزم الأمر ، ولكنَّ ضمنَ طاقتهنَّ ، حتى إنَّ بعضَ نساءِ النَّبي ﷺ كنَّ في شرفِ معيَّته في غزوات كثيرة حيثُ قمنَ بخدمته ، ومنهنَّ : عائشة وأم سلمة وميمونة رضي الله عنهنَّ .

* ولا ننسى فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها التي كانت مع أبيها

رسول الله ﷺ في غزوة أُحُدٍ وعندما شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ في وجهه وكُسِرَت رِباعيته جاءت وغسلت عنه الدم وعليّ زوجها يسكبُ الماء^(١).

خَوْلَةُ وَالنِّسَاءُ فِي مَيَادِينِ الْقِتَالِ :

* من الأخبارِ الطَّرِيفَةِ التي وصلت إلينا عن خَوْلَةَ بِنْتِ الْأَزْوَاجِ ، أَنَّهَا كَانَتْ فَارِسَةً مِنْ فَارِسَاتِ التَّارِيخِ اللَّائِي أَتَقَنَّ فَنَّ الْفُرُوسِيَّةِ ، وَرُكُوبَ الْخَيْلِ ، وَاسْتِعْمَالَ أَدْوَاتِ السَّلَاحِ .

* وَيَبْدُو أَنَّ خَوْلَةَ كَانَتْ تَتَقَنَّ رُكُوبَ الْخَيْلِ وَالْجَوْلَانَ عَلَيْهَا ، وَكَانَتْ تَقْتَنِي بِفُرُوسِيَّتِهَا وَتَتَشَبَّهُ بِأَكَابِرِ فَرَسَانِ عَصْرِهَا ، حَتَّى شَبَّهُوهَا بِحِمَلَاتِهَا بِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ؛ وَلَعَلَّ حُبَّهَا لِلْخَيْلِ^(٢) وَالْفُرُوسِيَّةِ يَعُودُ إِلَى

-
- (١) اقرأ سيرتها في موسوعتنا «نساء أهل البيت» تفسيرتها إمتاع للأسماع .
(٢) ذكر ابن قيم الجوزية سبب حب العرب للخيل ، وذكر كذلك فضل ركوبها فقال ما مفاده :

رَجَحَتْ طَائِفَةُ رُكُوبِ الْخَيْلِ لُوجُوهَ :

- ١ - أَنَّهُ أَصْلُ الْفُرُوسِيَّةِ وَقَاعِدَتُهَا ؛ وَأَنَّهُ يَعْلَمُ الْكَرْ وَالْفَرْ ، وَالظَّفَرَ بِالْخَضَمِ .
- ٢ - أَنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ مَا يَخْرُجُ الْفَارِسُ إِلَى الْقِتَالِ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ .
- ٣ - أَنَّ الرُّكُوبَ يَعْلَمُ الْفَارِسَ وَالْفَرَسَ مَعًا ، فَهُوَ يُؤَثِّرُ الْقُوَّةَ فِي الْمَرْكُوبِ وَرَاكِبِهِ .
- ٤ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَاهَنَ عَلَى فَرَسٍ يُقَالُ لَهُ : «سَبِيحَةٌ» ، فَسَبَقَ النَّاسَ .
- ٥ - أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَقَدَ الْخَيْرَ بِنَوَاصِي الْخَيْلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .
- ٦ - أَنَّهَا تَصْلُحُ لِلطَّلَبِ وَالْهَرَبِ ، فَهِيَ حَصُونٌ وَمَعَاقِلٌ لِأَهْلِهَا ، وَأَنَّ أَهْلَهَا أَعَزُّ مِنَ الرِّمَاءِ .

٧ - أَنَّهَا كَانَتْ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ النَّسَاءِ ، فَرَوَى النَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ النَّسَاءِ مِنَ الْخَيْلِ . (أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ ٢١٧/٦ وَ ٢١٨) . كَمَا أَمَرَ بِارْتِبَاطِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

٨ - أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَقْسَمَ بِالْخَيْلِ فِي كِتَابِهِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شَرْفِهَا وَفَضْلِهَا عِنْدَهُ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَاللَّيْلِ نَبِيحًا ۝ وَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا ۝﴾ [الْعَنَادِيَاتُ : ١ - ٣] .
(الْفُرُوسِيَّةُ لِابْنِ قِيمِ الْجُوزِيَّةِ ص ٥٠ - ٥٤) بِانْتِقَاءٍ وَتَصَرُّفٍ وَاخْتِصَارٍ .

نشأتها بين قومها الفرسان الشجعان ، ومنهم أخوها ضراؤ الذي كان يُعدُّ بألف فارس ، ولعلّها اقتبست كثيراً من فنون القتال منه ، حتى غدت من مشاهير فارسات الدنيا ، فلا تُذكرُ خولة إلا تُقرنُ بالفروسيّة والشجاعة والإقدام .

* وتظهرُ الفروسيّة كما يقولُ ابنُ قيم الجوزيّة - رحمه الله - في ثلاثة أشياء :

١ - ركوبُ الخيل والمُسابقةُ عليها .

٢ - الرميُّ بالنشاب .

٣ - واللعبُ بالرَّمح^(١) .

* وعن فنّ الفروسيّة للرجال والنساء والناس جميعاً يتابعُ ابنُ قيم الجوزيّة حديثه ويذكرُ أنّ الفروسيّة فروسيّتان : فروسيّة الميدان ، وفروسيّة البيان فيقول : ولما كانَ الجِلادُ بالسَّيفِ والسَّنانِ ، والجدالُ بالحجّة والبرهانِ كالأخوين الشَّقِيقَيْنِ ، والقريْنِ المتصاحِبَيْنِ ، كانت أحكامُ كلِّ واحدٍ منهما شبيهةً بأحكامِ الآخر ، ومستفادةٌ منه .

* فالإصابةُ في الرمي والنضال ، كالإصابةُ في الحجّة والمقال ؛ والطعن والتبّطيل : نظير إقامة الحجّة ، وإبطال حجّة الخصم ، والخروج ؛ نظيرُ الإيراد والاحترازِ منه ، وجوابِ القرْنِ عند دخوله عليك : كجوابِ الخصمِ عما يورده عليك .

* فالفروسيّة فروسيّتان : فروسيّة العِلْمِ والبيان ، وفروسيّة الرمي والطعان ، ولما كان أصحابُ النَّبِيِّ ﷺ أكملَ الخلقِ في الفروسيّتين ، فتحوا القلوبَ بالحجّة والبرهانِ ، والبلادَ بالسَّيفِ والسَّنانِ^(٢) .

(١) الفروسيّة (ص ٦٩) .

(٢) الفروسيّة (ص ٧٠ و ٧١) باختصار وتصرف .

* هذا وقد جمعتِ الفارسةُ الشهيرةُ خولةُ بنتُ الأزور بين الفروسيَّتين ، فكانت فارسةً مجيدةً على ظهورِ الخيل واللعب بالسَّنان ، كما كانت ذات بلاغةٍ وبيان ، وأدبٍ وفصاحةٍ لسان .

* ويروي التاريخُ أنَّ خولةَ بنتَ الأزور رافقتُ أخاها ضرارَ بنَ الأزور في حروبه للروم ببلادِ الشَّام^(١) تحت رايةِ خالد بن الوليد - رضوان الله عليه - ففي يوم اليرموك نظَّم خالدُ جيشَه تنظيمًا كاملاً ، وكان للنِّساء وفيهِنَّ خولة بنت الأزور دورٌ مهمٌّ في هذه المعركةِ الحاسمةِ ، فقد كلَّف خولةَ وجماعةُ النِّساءِ المحارباتِ بمهمَّاتٍ تخدمُ الحربَ ضدَّ الرُّومِ ، فقد جعلهنَّ في السَّاقةِ - مؤخِّرةِ الجيشِ - للقيامِ بمهمَّةِ البوليسِ الحربيّ الذي يربطُ في العَصْرِ الحديثِ وراءَ الخطوطِ ، وصدرتِ الأوامرُ «الخالدِيَّةُ» المشدَّدةُ إلى هؤلاءِ النِّسوةِ بالاسلاتِ المجاهداتِ أن يقمنَ في ردٍّ وتوبيخٍ من يحاولُ الفرارَ من المسلمين ساعةَ القتالِ ، أو تسوِّلُ له نفسه أن يتراجعَ عن المعركةِ ، بل كان في نصِّ الأوامرِ الخالدِيَّةِ الحاسمةِ أنه يجوزُ للنِّساءِ البطلاتِ المرابطاتِ في آخرِ الجيشِ أن يقتلنَ الفارسَ أو المحاربَ الذي يصرُّ على الهَرَبِ من وجْهِ العدوِّ إذا كانتِ المعركةُ دائرةً؛ فقد ذكرَ ابنُ عساكر في تاريخه أنَّ خالدَ بنَ الوليد أصدرَ أمره إلى النِّساءِ قائلاً: يا نساءَ المسلمين ، أيَّ رجلٍ أقبلَ إليكنَّ مُنهزماً فاقتلنَّه .

* ثمَّ إنَّه بالإضافةِ إلى مهمَّةِ تكليفِ النِّساءِ الحيلولةَ بين ضعافِ النَّفوسِ ، وبين الهَرَبِ ولو بالقتلِ إذا لم يكن منه بدٌّ ، أسندَ القائمُ العامُ إلى هؤلاءِ النِّساءِ الكريماتِ المجدَّاتِ المجاهداتِ أدواراً أخرى غاية في الأهمِّيَّةِ ، وهذه الأدوارُ تتلخَّصُ فيما يلي :

(١) لم يذكر ابن عساكر في تاريخه الطويل لمدينة دمشق ترجمة لخولة ولم يذكرها مطلقاً .

١ - العناية بالمقاتلين الجرحى والمرضى .

٢ - سقاية المجاهدين أثناء القتال ورعاية أمورهم .

٣ - التجوّل على المجاهدين أثناء القتال ، وإثارة الحماس وروح الاستبسال في نفوسهم وقلوبهم .

٤ - أن يشتركن في القتال عندما لا يكون بدّ من ذلك ، ولم يمنع أحداً منهنّ من الاشتراك في القتال اختيارياً ، إذا أردن ذلك مع الرجال^(١) .

* وقد روي عن أبي يمامة - وهو ممن شهد معركة اليرموك - أنّه قال :
إنّ بعضاً من النساء المسلمات دخلن غمار المعركة ، واشتركن في القتال .

* وكان من النساء المشاركات في القتال عددٌ من مشاهير الفارسات المجاهدات ومنهنّ : جويرية بنت أبي سفيان ، وأسماء بنت أبي بكر الصديق ، وهند بنت عتبة ، وأمّ أبان زوج عكرمة بن أبي جهل ، وخولة بنت الأزور - وقد جرحَتْ في هذه المعركة - ، ونسيبة بنت كعب ، وعفيرة بنت غفار ، وغرة بنت عامر ، ورملة بنت طلحة الزبيري ، وهند ويعمر وسمية بنات عاصم الخولاني^(٢) .

* وبدأ القوَادُ الكبارُ والفرسانُ السّادة يعظون أفراد الجيش رجالاً ونساءً ، فكان أبو عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - يخاطب الجميع بقوله :
عباد الله ، انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ؛ يا عباد الله اصبروا فإنّ الصّبر منجاةٌ من الكفر ، ومرضاةٌ للرّب ، ومدحضةٌ للعار ، ولا تتركوا مصافكم ولا تخطوا إليهم خطوةً ، ولا تبدؤوهم بالقتال ، وأشرعوا

(١) انظر: حروب الإسلام في الشام (ص ١٦٠) بشيء من التصرف .

(٢) المرجع السّابق بتصريف واختصار (ص ١٦١ و ١٧٦ - ١٧٨) .

الرِّمَاحَ ، واستتروا بالدَّرَقِ ، والزموا الصَّمْتَ إِلَّا مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَنْفُسِكُمْ ، حَتَّى يَتِمَّ أَمْرُكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ^(١) .

* وكذلك وعظ عمرو بنُ العاصِ الجيشَ ، وأبو سفيان بنُ حرب ، فَكَانَ مِمَّا قَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، أَنْتُمُ الْعَرَبُ ، وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي دَارِ الْعَجَمِ مَنْقُطَعِينَ عَنِ الْأَهْلِ إِلَّا مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِمْدَاداً لِلَّهِ ، وَقَدْ أَصْبَحْتُمْ وَاللَّهِ بِإِزَاءِ عَدُوٍّ كَثِيرٍ عَدُوَّهُ ، شَدِيدٌ عَلَيْكُمْ حَنْقُهُ ، وَقَدْ وَتَرْتَمَوْهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَبِلَادِهِمْ وَنِسَائِهِمْ فَاْمْتَنِعُوا بِسُيُوفِكُمْ ، وَلْتَكُنْ مِنَ الْحَصُونِ^(١) .

* ثُمَّ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ انْطَلَقَ - وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ - إِلَى مَعْسَكِ النِّسَاءِ ، وَتَبِعَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، وَكَانَتْ قَدْ أَلْقِيَتْ أَمَامَ مَعْسَكِ النِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ الْحَجَارَةُ تَحْسَباً لِلطَّوَارِيءِ ، فَأَخَذَ أَبُو سُفْيَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ لِلنِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ الْمَجَاهِدَاتِ :

مَعَاشِرَ النِّسَاءِ ، لَا يَرْجِعْ إِلَيْكِنَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَمَيْتُمُوهُ بِهَذِهِ الْحَجَارَةِ ، وَقُلْنَ لَهُ : مَنْ يَرْجُوكُمْ بَعْدَ الْفِرَارِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، وَعَنِ النِّسَاءِ وَهِنَّ أُمَمٌ الْعَدُوُّ ؟ ! .

* ثُمَّ إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ شَدَّ أَرْزَ أَبِي سُفْيَانَ ، وَأَرْدَفَ يَقُولُ لَهُنَّ : يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمِينَ ؛ أَيُّ رَجُلٍ أَقْبَلَ إِلَيْكِنَّ مِنْهُنَّ مَنْهَظَةً فَاقتُلْنَهُ^(١) .

* وَمَنْ الْمُطْرَبُ أَنَّهُ جَاءَ فِي عَيُونِ الْمَصَادِرِ التَّارِيخِيَةِ ، أَنَّ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْيَرْمُوكِ كَانَ يَضُمُّ أَلْفًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَهُمْ خَيْرُ النَّاسِ وَصَفْوَةُ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهِمْ ، وَكَانَ الْقَادَةُ سُعْدَاءُ بِوُجُودِهِمْ ضَمَّنَ الْجَيْشِ الْفَاتِحَ ، وَكَيْفَ لَا يَفْرَحُونَ بِوُجُودِهِمْ ، وَهُمْ عَاصِرُوا وَرَأَوْا وَجَالَسُوا

(١) المرجع السابق نفسه (ص ١٧٨) .

النبي ﷺ ، وتلقوا آداب الإسلام وتعاليمه ، وفنون الحرب من فمه الشريف الذي ما ينطق عن الهوى ، وزاد من عزة جيش الإسلام ، وارتفاع معنوياته أن فيه مئة مئة شهدوا بذكاء ، فكانوا خير أهل الأرض يومئذ .

* وعندما بدأت المعركة كان للمرأة المسلمة دورٌ لاهبٌ ومؤثر ، فعندما أخذت بعض طلائع المنهزمين تركض نحو النساء ، برز هؤلاء النسوة بالأسلحة الثابتة ثبات الأبطال ، وواجهن المنهزمين ، يقاتلنهم بما لديهن من أسلحة ، حتى اضطررن إلى مقاتلتهم بأعمدة الخيام وبالحجارة ، وعلى أيديهن أبنائهن وأطفالهن وهن يصرخن في وجوههم قائلات ومحسسات: يا جنود الرحمن ، يا فرسان المسلمين أين عز الإسلام ، والأمهات والأولاد والأزواج؟! فخلج المنهزمون ، ومن ثم عادوا راجعين إلى الميدان .

* وفي الحقيقة كان دور المرأة المسلمة دوراً رائعاً في معركة اليرموك ، ولقد سجل التاريخ لهن صفحات من نور ، فلم يكن يقتصرن في ذلك اليوم على مقاتلة المنهزمين المسلمين وردهم إلى ساحة القتال ، وإنما كن يقاتلن من وصل إليهن من جنود الروم ، ويذكر التاريخ بأنهن قد انتزعن أعمدة الخيام ، وقاومن من اقترب منهن من الرومان ، فقاتلن بضراوة وبسالة ، وقتلن مجموعة كبيرة من جنود الروم ، الأمر الذي بُهِت له الروم وطاشت أحلامهم من أجله ، فما كان عهدهم أن النساء العربيات المسلمات يقاتلن هذا القتال الضاري العنيف ، وهن أضعف خلق الله إنساناً!! حتى إن الصحابة الكريمة المجاهدة أم حكيم بنت الحارث بن هشام قتلت وحدها يومئذ سبعة من فرسان الروم بعمود فسطاطها^(١) .

(١) انظر: تاريخ دمشق (تراجم النساء ص ٥٠٦) ، والاستيعاب (٤/ ٤٢٥) ، مع الجمع والتصرف .

* وكانت ابنة عمرو بن العاص تقودُ النساء في المواجهة المزدوجة ،
حيث يقاتلنَ المنهزمين منَ المسلمين . ومنَ وصلَ في تقدمه إليهنَّ منَ
الرُّوم ، وكانت تصرخُ في وجوه المتراجعين المسلمين : قَبِّحَ اللهُ رجلاً يفرُّ
عن حليلته ، وقَبِّحَ اللهُ رجلاً يفرُّ عن كريمته .

وتندفعُ النساءُ المجاهداتُ المؤمناتُ وراءها وهنَّ ينشدنَ قائلاتٍ في
حماس : واللهِ لستم بعولتنا إن لم تمنعونا .

* وكان العباسُ بنُ سهل بنِ سعد السَّاعدي ممن تراجعَ أمامَ ضَغْطِ
الرُّوم حتَّى وصلَ معسكرَ النساء ، فلما رأى ثباتهنَّ واستبسالهنَّ ، هاجتَ
نفسه بالحمية ، فصرخَ لائماً نفسه ، وغيره منَ الفارّين :
يا هَارِباً عَنْ نِسوةٍ ثَيَاتٍ فَعَنْ قَلِيلٍ مَا تَرَى سَبِيَاتٍ
ولا حظيات ولا رصينات

* ثم يكرُّ راجعاً في حنقٍ مع مجموعةٍ منَ الفارّين على مجموعةٍ من
الرُّوم فيشتتهم ويطردهم عن النساء ، ثم يعودُ إلى ساحة الوفاء مع
المنهزمين ، وكلّه ثورةٌ وحماس^(١) .

* وقد أوردَ ابنُ كثير هذا الخبر على النحو التالي فقال : واستقبلَ النساءُ
مَنْ انهزمَ من سرعان الناس يضرِبُنَّهم بالخشبِ والحجارة ، وجعلت خولةُ
بنتُ ثعلبة تقولُ :

يا هَارِباً عَنْ نِسوةٍ ثَيَاتٍ فَعَنْ قَلِيلٍ مَا تَرَى سَبِيَاتٍ
ولا حظيات ولا رصينات

فترجعَ النَّاسُ إلى مواقِفهم^(٢) .

(١) حروب الإسلام في الشام (ص ٢٠٦ و ٢٠٧) .

(٢) البداية والنهاية (١١ / ٧) .

وخرجتُ جویریةُ بنتُ أبي سفيان فقاتلتِ الأعداءَ قتالاً شديداً ، وكانت مجاهدة جلیلة ، جاهدتُ في اليرموك ، وجالت جولاتٍ في الحربِ دلتُ على فروسيَّتِها وشدةِ بأسِها ، وظلَّتْ تقاتلُ حتى قُتِلَتْ ، وأصيبَ أبوها بِسَهْمٍ في عينه ، وكان الذي أخرجَ السَّهمَ من عَيْنِ أبيها أبو حَثْمَةَ .

قال الواقدي : وأقبلَ أبو سفيان إلى قائدِ القلبِ أبي عبيدة ، وقال : أيُّها الأميرُ ؛ مُرْ نساءنا أَنْ يَعلُوْنَ على هذا التَّلِّ - تل شهاب - فأمرهنَّ أبو عبيدة بذلك ، ففعلنَّ وعلونَ التَّلِّ ، وتحصَّنَ فيه ومعهنَّ أطفالهنَّ ، ثم أصدرَ أبو عبيدة أمره إليهنَّ بأنْ يقاتلنَ المنهزمينَ مِنَ المسلمينَ قائلاً : خذْنَ بأيديكنَّ أعمدةَ البُيوتِ والخيامِ ، واجعلنَ الحجارةَ بين أيديكنَّ ، وحرِضنَ المؤمنينَ على القتالِ ، فَإِنْ كَانَ الأمرُ لنا والظفرُ فكنَّ على ما أتنَّ عليه ، وَإِنْ رَأَيْتُنَّ أَحَدًا مِنَ المُسلمينَ منهزماً ، فاضربنَّ وجهه بأعمدتكنَّ ، واحصبنَّه بحجارتكنَّ ، وارفعنَّ إليه أولادكنَّ وقلنَّ له : قاتلِ عن أَهلكِ وولدك وعن دينِ الإسلامِ ؛ فقالتِ النساءُ : أيُّها الأميرُ ، أبشِرْ بما يسرُّكَ^(١) .

وعندما أصبحَ وَضَعُ المسلمينَ في شيءٍ مِنَ الحرجِ ، وأخذتُ بعضُ وحداتهم في الانهزامِ نحو المؤخرةِ حيثُ خولهُ بنتُ الأزورِ والنِّساءُ المحارباتُ المسلماتُ ، تنادتِ الحرائرُ من نساءِ المسلمينَ : يا بناتِ العمودِ ، دونكنَّ الرِّجالَ ، ردّوهم مِنَ الهزيمةِ حتّى يعودوا إلى الحربِ ، قالتِ سعيدةُ بنتُ عاصمِ الخولاني : وكنْتُ في جملةِ النساءِ يومئذٍ على التَّلِّ ، فلما انكشفتِ ميمنةُ المسلمينَ ، صاحتُ بنا عفيرةُ بنتُ غفار ، ونادتُ : يا نساءَ العربِ : دونكنَّ والرِّجالَ - أي الهاربينَ - ، واحملنَّ أولادكنَّ على أيديكنَّ ، واستقبلنهم بالتَّحريضِ .

(١) فتوح الشام (١/١٢٥) .

* فأقبلت النسوة يرجمن وجوه الخيل - المنهزمة - بالحجارة ، وجعلت ابنة ابن العاص تنادي : قَبَحَ اللهُ وَجْهَ رجلٍ يَفْرُ عَنْ حَلِيلَتِهِ ، وجعلت النساء يقلن لأزواجهنَّ : لستم لنا ببعولةٍ إن لم تمنعوا عنا هؤلاء الأعلاج .

* وظلت النساء يقلن مثل هذا حتى برزت فئةٌ منهنَّ وفي مقدمتهنَّ خولة بنتُ الأزور ، وهندُ بنتُ عتبة ، وغيرنَّ وجهَ المعركةِ لصالحِ المسلمين ، ترى ما موقفُ خولة وهندُ؟! مَوْقفُ خَوْلَة وَهَنْدُ :

في ذلك اليومِ الأغرّ، يومُ اليرموك، ويومُ الحربِ مع الروم، كان صوتُ خولة وصويحباتها مَسْموعاً لدى الفرسانِ؛ فقد روى العباسُ بنُ سهل السَّاعدي قال: كانت خولةُ بنتُ الأزور ، وخولة بنت ثعلبة الأنصارية ، وكعوب بنتُ مالك بنِ عاصم ، وسلمى بنتُ هاشم ، ونُعمُ بنتُ فياض ، وهندُ بنتُ عتبة ، ولبنى بنتُ جوير الحميريّة متحزّماتٍ ، وهنَّ أمامَ النساءِ ، والمزاهرُ معهنَّ ، وخولة تقولُ هذه الأبيات :

يا هَارِباً عَنْ نِسْوةٍ ثَقَاتٍ لَهَا جَمَالٌ وَلَهَا ثَبَاتٌ
تَسْلَمُوهُنَّ إِلَى الْهَنَاتِ تَمْلِكُ نَوَاصِينَا مَعَ الْبَنَاتِ
أَعْلَاجُ فُسُقٍ سُوءِ عِتَاةٍ يَصِرْنَ مِنْهُمُو لِأَعْظَمِ الشَّتَاتِ

* فلما سمعَ الفرسانُ المنهزمون منَ النساءِ هذا التّعنيف في القولِ رجَعُوا رجعةً عَظيمةً .

* وخرجتُ هندُ بنتُ عتبةَ وببيدها مزهراً ، ومن خلفها نساءٌ من المهاجرين ، وهي تقولُ الشّعر الذي قالته يومَ أُحُدٍ :

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقٍ نَمْشِي عَلَى النَّمَارِقِ
مَشْيَ الْقَطَا الْمَوَافِقِ قِيَدِي مَعَ الْمَرَاْفِقِ

وَمَنْ أَبَى نَفَارُقُ إِنَّ تَغْلُبُوا نَعَانُقُ
أَوْ تَدْبِرُوا نَفَارُقُ فُفَارَقَ غَيْرُ وَا مَقُ
هَلْ مِنْ كَرِيمٍ عَاشِقُ يَحْمِي عَنِ الْعَوَاتِقُ

* ثم استقبلت خيلَ ميمنة المسلمين ، فرأَتْهم منهزمينَ فصاحتَ بهم :
إِلَى أَيْنَ تَنْهَضُونَ ، وَإِلَى أَيْنَ تَفْرُونَ مِنْ اللَّهِ وَمِنْ جَنَّتِهِ؟! هُوَ سَبْحَانَهُ مَطْلَعُ
عَلَيْكُمْ . ونظرتُ إلى زوجها أبي سفيانٍ منهزماً ، فضرَبْتُ وَجْهَ حصانِهِ
بعمودِها وقالتُ : إِلَى أَيْنَ يَا بَنَ صَخْرُ؟! ارجعْ إِلَى الْقِتَالِ ، ابدُلْ مَهْجَتَكَ
حَتَّى تَمَحَّصَ مَا سَلَفَ مِنْ تَحْرِيفِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - تعني يومَ أُحُدٍ ..

* فعطفَ أبو سفيانُ عندما سمعَ كلامَ زوجته هند ، وعطفَ المسلمون
معه ، وحملَ النِّساءُ معهم على الرُّومِ ، بأيديهنَّ أعمدةَ الخيامِ ، وقد وثبتَ
منهنَّ امرأةٌ إلى عِلْجٍ من علوجِ الرُّومِ وهو على فرسِهِ ، فتعلَّقتْ به ،
وما زالتْ به حتَّى طرَحَتْهُ عَنْ جَوَادِهِ وَقَتَلَتْهُ وَهِيَ تَقُولُ :

هَذَا بَيَانُ نَصْرِ اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ .

* وعندما أخرجتْ خولَةُ والنِّساءُ المنهزمينَ ، عادوا إلى الميْدَانِ
يقاتلونَ بضراوةٍ ، ونظَّموا صفوفَهم التي اخترَقَهَا الرُّومانُ ؛ واحتدمَ القتالُ ،
وخاصَّةً بعدَ عودَةِ المنهزمينَ بفضلِ وقْفَةِ النِّساءِ البطوليَّةِ وراءَ الصُّفوفِ ،
فقد كُنَّ يَرْجِمْنَ الْفَارَّيْنَ مِنْ جُنْدِ الْمُسْلِمِينَ بِالْحِجَارَةِ ، وَيَعْبُنَ عَلَيْهِمْ هَرَبَهُمْ
وَتَخْلِيهِمْ عَنْ عَرْضِهِمْ وَأَطْفَالِهِمْ وَذُرَارِيهِمْ .

* وثابَ النَّاسُ إلى رَشْدِهِمْ ، وثَبَّتُوا ، وانهطفُوا نحوَ العدوِّ يقاتلونَهُ
حَتَّى أَزَاحُوهُ عَنْ مَوَاقِعِهِ^(١) .

(١) حروب الإسلام في الشام (ص ٢٠٨ - ٢١٠) بتصرف .

* وهكذا كانت أصوات النساء في مؤخرة الجيش ومن على تل شهاب تشجيعاً للفرسان ونصراً لهم.

خولة تقتل قائداً رومياً:

تذكر المصاדר أن خولة بنت الأزور قد وقعت أسيرة في أيدي الروم مع جماعة من البطلات ، فقد كان في أسرى المسلمات مع خولة : عفرة بنت غفار ، وأم أبان بنت عتبة ، وسلمة بنت زراع ، ولبنى بنت حازم ، ومزروعة بنت عملوق ، وسلمة بنت الثعمان .

* كان ذلك عندما لحقت مقدمة جيش بطرس حاكم دمشق ، بمؤخرة المسلمين في مرج الصفر ، واشتبكت قوات الطرفين ، وانقضَّ «بولص» أخو بطرس على الرتل الإداري ، وقاد النساء ، وأحمال المواد التموينية ، وتوجَّه بها نحو دمشق .

* وعلم خالد بن الوليد بذلك ، فأسرع بمن معه من فرسان المسلمين لدعم معركة المؤخرة ، وتوجَّه فوراً بحركة التفاف واسعة ، وصل بها إلى خلف المعسكر الذي أقامه بولص ، ونظَّم به الحراسة لحماية الغنائم والأسرى من المسلمين وخصوصاً خولة ومن معها من النساء اللواتي ذكرنا آنفاً .

* وكانت خولة بنت الأزور متألمة أشدَّ الألم لأسرها وأسر من معها من نساء القوم المسلمين ، وكانت شديدة الغيظ من بولص الذي يشدد الحراسة عليهن ، وعلى أطفالهن ، وعلى المواد التموينية التي استلبها من مؤخرة جيش المسلمين .

* وخلال سير بولص بمن معه نحو الشام توقَّف يستريح ومعه الغنائم والسبيات ، هنالك وقفت خولة بنت الأزور وقفة ميمونة ، وراحت تخطبُ

بين المُسلماتِ الأسيراتِ ، وطلبت إليهنَّ أنْ يدافعنَ عن شرفهنَّ ،
وشرفِ قومهنَّ عن طريق الإسهامِ في المعركة ، ولكنْ من أين يأتينَ
بالسَّلاحِ؟!

* لمن يكنْ أمامْ خولةَ وَمَنْ بصحبتيها منَ الأسيراتِ سوى أعمدةِ الخيامِ
وخشبِها ، وهنالكِ دبَّ فيهنَّ الحماسُ ، واشتعلتْ في قلوبهنَّ نارُ
الشَّجاعةِ ، فاقتلنَ أعمدةَ الخيامِ وحملنَها ، وانطلقنَ في الجندِ قتلاً وهنَّ
يرتجنزْنَ ويقلنَ في صوتٍ واحدٍ :

نحنُ بناتُ تبَّعٍ وحِمْيَرٍ وضربُنَا في القومِ ليسَ يُنكَرُ
لأنَّنا في الحربِ نارٌ تُسَعَّرُ اليومُ تُسَقَّونَ العذابَ الأكبرُ

* ودبَّ اللهُ عزَّ وجلَّ الرُّعبَ في قلوبِ الرُّومِ ، وسَقَطَ عددٌ من جندِ
الرُّومِ قتلى بيدِ خولةَ ومنْ معها منَ النساءِ ، ومن ثم تشجعتْ أكثرُ وانتزعنَ
السَّلاحَ منَ الرُّومِ وانطلقنَ إلى القتالِ ، وهنا جُنَّ جنونَ قائدِ الرُّومِ بولصَ ،
فقرَّرَ القضاءَ عليهنَّ وقتلهنَّ ، لأنَّهنَّ شَرَّدْنَ جماعتهُ وقتلنَ فريقاً منهم . وفي
هذهِ الفترةِ الحرجةِ والصَّعبةِ ظهرَ سيِّدنا خالدُ بنُ الوليدِ وجنَّده ، واندفعَ
ضرارُ بنُ الأزورِ لإنقاذِ أُختِهِ خولةَ ونساءِ المسلمين منَ الأسْرِ ، واندفعَ بقيَّةُ
الفرسانِ ، وقتلَتْ خولةُ بولصَ ، وعاونَهَا أخوها ضرارُ في ذلكَ ، حتَّى
شَتَّتوا هذهِ الفِرقةَ ، ولاذَ بالفرارِ منِ استطاعَ الهربَ منهم^(١) .

* وبهذهِ الجرأةِ وهذهِ البَسالةِ ، وذاكِ القتالِ المستميتِ ، استنقذتْ
خولةُ نفسَها وصاحباتها منَ الأسْرِ من أيدي الرُّومِ .

* ولكنْ ما رأيُ القاريءِ الكريمِ لو نقرأُ سويّاً ثورةَ خولةَ والأسيراتِ منْ
كتابِ «فتوحِ السَّامِ» ونتعرَّفُ على جمالِ وبساطةِ القِصَّةِ كما وردتْ هناكَ مع

(١) انظر: فن الحرب الإسلامي (١/ ١٠٤ - ١٠٦) بشيء من التصرف .

شيء من التصرف اليسير؟! . حسنًا لنبدأ الرحلة «الواقديّة» في الحديث عن خولة وصديقاتها ، وكيف تخلصن من الأسر .

* يقول الواقديّ: حدثني سعيد بن عمر بن سنان بن عامر اليربوعي ، قال: سمعتُ حبيب بن مُضْعَب يقول: لما اقتطع الروم - من مؤخرة جيش المسلمين - خولة وعدداً من نساء العرب ، سارَ بهم بطرسُ أخو بولص إلى أن نزلَ بهم على النّهر ، ثمّ قال بطرس: أنا لا أبرحُ من هاهنا حتّى أنظرَ ما يكونُ من أمرٍ أخي .

* ثمّ إنّهُ عرِضَ عليه النّساءُ المأسوراتُ فلم يعجبه منهنّ إلا خولة بنتُ الأزور أختُ ضرار ، قال بطرسُ: هذه لي ، وأنا لها ، لا يعارضني فيها أحدٌ ، فقالَ له أصحابه: هي لك وأنتَ لها .

* قال: وكلُّ مَنْ سبقَ إلى واحدةٍ يقول: هي لي ، حتّى قسّموا الغنيمةَ على ذلك . ووقفوا ينتظرون ما يكون من أمرِ بولص وأصحابه ، وكان في النّساء عجائزٌ من حميرٍ وتُبَع من نسلِ العمالقة والتّبابعة ، وكُنّ قد اعتدنَ ركوبَ الخيلِ ، وخوضاتِ الليل ، والهجوم على القبائل ، فاجتمعتِ النّساءُ بعضهنّ على بعض فقالت لهنّ خولة بنتُ الأزور: يا بناتِ حميرِ بقيّة تبع ، أترضينَ بأنفسِكُنّ علوجَ الرّوم؟ ويكون أولادكُنّ عبيداً لأهل الشّرك؟ فأين شجاعتكُنّ وبراعتكُنّ التي نتحدّثُ بها عنكُنّ في أحياء العرب ومحاضرِ الحضّر؟

ولا أراكنَ إلا بمعزلٍ عن ذلك؛ وإنّي أرى القتلَ عليكن أهونَ من هذه المصائب ، وما نزلَ بكم من خدمةِ الرّوم الكلاب؟

* فقالت عفراءُ بنتُ غفار الحميريّة: صدقتِ ، ووالله يا بنتَ الأزور نحنُ في الشّجاعة كما ذكرتِ ، وفي البراعة كما وصفتِ ، لنا المشاهدُ العظام ، والمواقفُ الجسام؛ ووالله لقد اعتدنا ركوبَ الخيلِ ، وهجومَ

الليل ، غير أنَّ السَّيْفَ يحسنُ فعلُهُ في مثلِ هذا الوقتِ ، وإنَّما دهمنا على حين غفلةٍ من أمرنا .

فَقَالَتْ خَوْلَةُ : يَا بَنَاتِ التَّبَاعَةِ وَالْعَمَالِقَةِ ، خُذُوا أَعْمَدَةَ الْخِيَامِ ، وَأَوْتَادَ الْأُطْنَابِ ، وَنَحْمِلُ بِهَا عَلَى هَؤُلَاءِ اللَّثَامِ ، فَلَعَلَّ اللَّهَ يَنْصُرُنَا عَلَيْهِمْ ، أَوْ نَسْتَرِيحُ مِنْ مَعَرَّةِ الْعَرَبِ .

فَقَالَتْ عَفْرَةُ بِنْتُ غَفَارٍ : وَاللَّهِ مَا دَعَوْتُ إِلَّا مَا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا ذَكَرْتَ .

* ثُمَّ تَنَاوَلَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ عَمُودًا مِنْ أَعْمَدَةِ الْخِيَامِ ، وَصَحْنَ صِيحَةً وَاحِدَةً ، وَأَلْقَتْ خَوْلَةُ عَلَى عَاتِقِهَا عَمُودَ الْخِيَمَةِ ، وَسَعَتْ مِنْ وَرَائِهَا عَفْرَةُ ، وَأُمُّ أَبَانَ بِنْتُ عَتَبَةَ ، وَسَلْمَةُ بِنْتُ زَرَّاعٍ ، وَلَبْنَى بِنْتُ حَازِمٍ ، وَمَزْرُوعَةُ بِنْتُ عَمْلُوقٍ ، وَسَلْمَةُ بِنْتُ الثُّعْمَانِ ، وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ

فَقَالَتْ لِهِنَّ خَوْلَةُ : لَا يَنْفَكُ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ ، وَكُنَّ كَالْحَلَقَةِ الدَّائِرَةِ وَلَا تَتَفَرَّقَنَّ فَتَمْلِكَنَّ ، فَيَقَعَنَّ بِكُنَّ التَّشْتِيتُ ، وَحُطْمَنَّ رِمَاحُ الْقَوْمِ ، وَاكْسَرَنَّ سُيُوفُهُنَّ .

* قَالَ : فَهَجَمْتُ خَوْلَةُ أُمَامَهُنَّ ، فَأَوَّلُ مَا ضَرَبَتْ رَجُلًا مِنَ الْقَوْمِ عَلَى هَامَتِهِ بِالْعُمُودِ ، فَتَجَنَّدَلَ صَرِيحًا ، وَالتَفَتَ الرُّومُ يَنْظُرُونَ مَا الْخَبِيرُ ، فَإِذَا هُمْ بِالنِّسْوَةِ ، وَقَدْ أَقْبَلْنَ وَالْعُمُدُ بِأَيْدِيهِنَّ ، فَصَاحَ بِهِنَّ بِطَرِيقٍ : يَا وَيَكُنَّ مَا هَذَا ؟

فَقَالَتْ عَفْرَةُ : هَذِهِ فَعَالِنَا ، فَلْنَضْرِبَنَّ الْقَوْمَ بِهَذِهِ الْأَعْمَدَةِ ، وَلَا بَدَّ مِنْ قَطْعِ أَعْمَارِكُمْ وَانْصِرَامِ آجَالِكُمْ يَا أَهْلَ الْكُفْرِ . فَجَاءَ بِطَرَسُ وَقَالَ : تَفَرَّقُوا عَنِ النَّسْوَةِ ، وَلَا تَبْذُلُوا فِيهِنَّ السُّيُوفَ ، وَلَا أَحَدٌ يَقْتُلُ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ ، وَخُذُوهُنَّ أَسَارَى ، وَمَنْ وَقَعَ مِنْكُمْ بِصَاحِبَتِي ، فَلَا يَنْلُهَا بِمَكْرُوهِ ، فَتَفَرَّقَ الْقَوْمُ عَلَيْهِنَّ ، وَأَحْدَقُوا بِهِنَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَرَامُوا الْوَصُولَ إِلَيْهِنَّ ، فَلَمْ

يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، ولم تزل النساء لا يدنو إليهن أحدٌ من الرُّوم إلا ضربنَ قوائم فرسه ، فإذا تنكَّسَ عن جواده ، بادرتِ النساء بالأعمدة فيقتلنه ، ويأخذنَ سلاحه .

* قال الواقدي : ولقد بلغني أنَّ النسوة قتلنَ ثلاثين فارساً من الرُّوم ، فلما نظر بطرس إلى ذلك غضبَ غضباً شديداً ، وترجَّل وترجَّل أصحابه نحو النساء ، والنساء يحرضُ بعضهنَّ بعضاً ، ويقلنَ : مُتَن كراماً ولا تمنَ لثاماً ؛ وأظهرَ بطرسُ بأسه وتلهَّفه عندما نظرَ إلى فعلهنَّ ، ونظرَ إلى خولة بنتِ الأزور ، وهي تجولُ كالأسدِ وتقولُ :

نَحْنُ بَنَاتُ تُبَعٍ وَحَمِيرٍ وَضَرَبْنَا فِي الْقَوْمِ لَيْسَ يُنْكَرُ
لَأَنَّنَا فِي الْحَرْبِ نَارٌ تَسْعَرُ الْيَوْمَ تُسَقِّونَ الْعَذَابَ الْأَكْبَرُ

* قالَ : فلما سمعَ بطرس ذلك من قولها ، ورأى حُسْنَهَا وَجَمَالَهَا ، قال لها : يا عريَّةُ اقْصُرِي عن فعلكِ فَإِنِّي مكرمكِ بكلِّ ما يسرُّكِ ، أما ترضينَ أن أكونَ أنا مولاكِ ، وأنا الذي تهابُني أهلُ النصرانية ولي ضياعٌ وأموالٌ ومنزلٌ عند الملكِ هرقل ، وجميعُ ما أنا فيه مردودٌ إليك ، أما ترضينَ أن تكوني سيِّدة أهلِ دمشق فلا تقتلي نَفْسَكِ .

فقالت له : يا ملعون ويا بنَ ألف ملعون ، واللهِ لئن ظفرتُ بك لأقطعنَّ رأسك ، واللهِ ما أرضى بك أن ترعى لي الإبل ، فكيف أرضاك أن تكونَ لي كفوًّا .

* فلما سمعَ كلامها ، حرَّضَ أصحابه على القتالِ ، وقال : أترونَ عاراً أكبرَ من هذا في بلاد الشام أن النسوة غلبنكم ، فاتَّقوا غَضَبَ الْمَلِكِ .

* فافترقَ القومُ ، وحملوا حملةً عظيمةً ، وصبرتِ النساءُ لهم صبرَ الكرام ، فبينما هم على ذلك إذ خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ومن معه

منَ المسلمين ، ونظروا إلى الغبار وبريق السيوف ، فقال لأصحابه: مَنْ يأتيني بخبرِ القوم؟

فقال رافعُ بنُ عميرة الطائي: أنا آتيكَ به .

* ثمَّ أطلقَ جوادهَ حتى أشرفَ على النسوة وهُنَّ يقاتلنَ قتالَ الموتِ . فرجعَ وأخبرَ خالدًا بما رأى ، فقال خالد: لا أعجبُ منَ ذلك ، إنَّهنَّ من بناتِ العمالقة ، ونَسْلُ التَّبابعةِ ، وما بينهنَّ وبينَ تبعِ إلّا قرْن واحد^(١) .
خولة وأخوها ضرار :

* عُرِفَتْ هذه البطلةُ خولةُ ، ونالتِ الشُّهرةَ العريضةَ من خلالِ الهالةِ التي أحاطَتْ بسيرةِ أخيها ضرارِ بنِ الأزور ، بالإضافةِ إلى عنصرِ الخرافةِ والمبالغةِ التي أُدْخِلَتْ في سيرتها ، وجعلتها أقربَ إلى سيرةِ «عنترة» الشعبية ، أو «ذات الهمة» ، أو «الملك سيف» وما شابهَ ذلك ، ومنَ المعروفِ أنَّ المصادرَ المعروفةَ لم تُشِرْ إلى خولةَ ولم يترجمْ لها ابنُ عسَّاکر أو الطبريُّ أو البغدادِيُّ أو ابنُ الأثير أو ابنُ كثير ، وإنَّما وردتْ عندَ الواقدي فقط .

* وتروي كتبُ الأسمارِ وما شابهها قصَّةَ أسْرِ ضرارِ بنِ الأزورِ ، وكيفيَّةَ خلاصِهِ على يدِ خولةَ بطريقةٍ ساحرةٍ في العرضِ ، وقد أوردَها الواقديُّ في فتوحه ، ونحنُ مرسلو القولِ في ذلك معَ المحافظةِ قَدْرَ الإمكانِ على هيكلِ القصَّةِ ورُوحها .

* تقولُ القصَّةُ «الواقديَّة»: لما أسِرَ ضرارُ بنُ الأزورِ في وقعةِ أجنادين بالشَّامِ ، مشى خالدُ بنُ الوليد - رضي الله عنه - لاستنقاذه وخلاصِهِ ، وبينما

(١) انظر: فتوح الشام (ص ٦٦ - ٧٠) طبعة وزارة الثقافة بدمشق بشيء من التصرف . وسأترك محاكمة القصَّة للقارىء حيث أثر الصنعة بادية عليها .

هو في الطريق ، إذ مرَّ به فارسٌ على فرسٍ طويلٍ قد تقلَّد سيفه ، واعتقلَ رمحه ، ولا يبينُ منه إلا الحَدَق ، وهو يقذفُ بنفسِه ، ولا يلوي على ما وراءه . فلمَّا نظره خالدُ بنُ الوليد قال : ليت شعري مَنْ هذا الفارسُ؟! وايمُ الله إنَّه لفارسٌ! . .

* ثمَّ اتَّبعه خالدٌ والنَّاس وراءه ، حتَّى أدركَ جندَ الرُّومِ وعساكرَهم ، فحملَ عليهم حملةَ الفُرسانِ الأشداءِ ، وأمعنَ بينَ صفوفهم كأنَّه النَّارُ المحرقةُ ، حتَّى زعزعَ كتابَهم وحطَّمَ مواكبَهم ، فلم تكنْ إلاَّ جولةً جائلٍ ، حتَّى خرجَ وسنَّاهُ ملطَّخٌ من دمايهم ، وقد قتل رجالاً ، وجندلَ أبطالاً ، وقطَّعَ أوصالاً .

* ثمَّ إنَّ هذا الفارسَ المثلَّمَّ والبطلَ المُعلَّمَّ عرَّضَ نفسَه للموتِ ثانيةً ، فاخترقَ صفوفَ القومِ غيرَ مكترثٍ بهم وبجموعهم وجمْعهم ، فكثُرَ قلقُ فرسانِ المسلمين عليه ، وأشفقُوا أنْ ينالَه سوءٌ من القومِ الكافرين ، لأنَّهم لا يعلمونَ مَنْ هو ، وظنَّه ناسٌ خالداً وقالوا : ما هذه الحملاتُ إلاَّ لخالدِ بنِ الوليد .

* وبينما هم على ذلك إذ قدَّم خالدُ بمن معه ، فقال له رافعُ بنُ عُميرة : من الفارسُ الذي تقدَّم أمامك؟ فلقد بذلَ نفسَه ومهجَّته .

فقال خالد : واللهِ لأنا أشدُّ إنكاراً وإعجاباً لما ظهرَ من خلالِه وشمائله .

* وبينما القومُ في حديثهم ، وخالدٌ يهيمُ بأنَّ يحملَ بمن معه لمساعدةِ الفارسِ المثلَّم ، فحانتُ من خالدٍ التفاتةٌ ، فإذا به ينظرُ إلى الفارسِ وقد خرجَ من قلبِ جيشِ الرُّومِ كأنَّه الشَّهابُ الثَّاقِبُ ، وخيلهم تعدو في أثره ، وكلَّما دنا أحدٌ منه ألوى عليه ، وأنهلَ رمحه من صدرِه ، وأوردَه شعوب ، وجعله كأُمسِ الدَّابر .

* ووصلَ هذا الفارسُ إلى جيشِ المسلمين ، فتأمَّلُوهُ ، وأحاطوا بِهِ ،
ورأوا أنَّ جسمَهُ قد تخضَّبَ بدماءِ الرُّومِ؛ فصاحَ خالدٌ والمسلمونَ: اللهُ
أكبر ، اللهُ درَّك منْ فارسٍ بذلَ مهجَتِهِ في سبيلِ اللهِ تعالى ، وأظهرَ شجاعَتَهُ
على الأعداءِ!! . وناشدوه أنْ يفصحَ عن اسمِهِ ، وأنْ يرفعَ لثامَهُ
ليعرفوه... فمالَ عنهم ولم يردَّ عليهم جواباً.

* وابتعدَ الفارسُ عنِ القومِ قليلاً ، فسارَ إليه خالدٌ بنفسه وقال له:
ويحك لقد شغلَّتْ قلوبَ الناسِ وقلبي بفعلك ، مَنْ أنتَ أيُّها الفارس
الكريم؟ فلما ألحَّ عليه خالدٌ أجابه الفارسُ منْ تحتِ لثامه بلسانِ التَّأنيثِ؛
وقال: إنَّني أيُّها الأميرُ لم أعرضْ عنكَ إلا حياءً منك ، لأنَّكَ أميرٌ جليل ،
وأنا منْ ذواتِ الخُدور ، وبناتِ السُّتور ، وإنَّما حَمَلَنِي على ذلكَ أنِّي
مُحَرِّقَةُ الكَبِدِ ، زائِدَةُ الكَمَدِ .

فقال لها خالدٌ: مَنْ أنتِ يا بنتَ الأجوادِ؟

قالت: يا سيفَ اللهِ ، أنا خولَةُ بنتِ الأزورِ أختُ ضرارِ المأسورِ بيدِ
الرُّومِ المشركين ، وإنِّي كنتُ مع نساءِ قومي وبناتِ العرب ، وقد أتاني آتٍ
فأخبرني بأنَّ أخي أسيرٌ ، فركبتُ ، وفعلتُ ما رأيتُ .

قال خالد: يا خولَةُ نحملُ بأجمعنا ، ونرجو اللهُ أنْ نصلَ إلى أخيكِ
ضرارِ فنفكَّهُ .

* وهنالك صاحَ خالدٌ في جنده ، فحملوا على الرُّومِ وحملتْ خولَةُ ،
وعظُمَ على الرُّومِ ما نزلَ بهم منها ، وقالوا: إنْ كان القومُ كلَّهم مثلَ هذا
الفارس ، فما لنا بهم منْ طاقة؟ وانقلبوا على أعقابِهِمْ ، وكانت تجولُ في
كلِّ مكانٍ لعلَّها تعرفُ أين ذهبَ الرُّومُ بأخيها ، فلم ترَ له أثراً ، ولا وقفتْ

له على خبر^(١) ، على أنّها لم تزل على جهادها وجلادها للروم ، حتى استنقذ المسلمون لها أخاها ضراراً ، وعندها قرّ قراؤها ، وانظفت نازها^(١).

* ويروي الواقدي بطولة أخرى لخولة بنت الأزور ، وكيف استنقذت أخاها ضراراً من الأسر في الصّعيد ، وذلك عندما أرسل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد طليعة من الجيش بقيادة ضرار بن الأزور كيما يستطلع أحوال الروم في شمال الصّعيد .

* يقول الواقدي ما مفاده ومحصله وملخصه : حدثنا أبو الزناد عن عبد الله بن أبي مالك الخولاني ، عن طارق بن شهاب الجهمي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : بينما نحن نتحدث مع الفضل ، وإذا بالغبار قد قرب منا ، وانكشف عن عشرة آلاف فارس ومعهم الأعلام والصّلبان ، فلما رأونا رطنوا بلغتهم ، ثم لم يمهلوا دون أن حملوا .

* وكان ضرار بن الأزور قد انفرد معه مئتان من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل النجدة ، وساروا في طريق الجبل على غير الجادة ، فبينما هم يسرون ، إذا بالغبار قد ثار وانكشف عمّن ذكرنا من عساكر الروم وجنودهم ، فلما عاينهم أيقنوا بالهلاك ، فعندها وثب ضرار بن الأزور وقال : لا فرار من الموت ، فلم يمهلوهم دون أن داروا عليهم ، فرأوا ألا بدّ لهم من القتال ، والتقت الرّجال بالرّجال ، وصبروا صبر الكرام ، وأحاطت بهم الروم اللثام من كلّ جانب ومكان ، فله در ضرار لقد قاتل قتالاً شديداً ، فلم يكن غير ساعة حتى قُتل من جماعة ضرار جماعة ، وكبا

(١) انظر : فتوح الشام للواقدي (ص ٢٨ و ٢٩) ، والمختار من كتاب فتوح الشام (ص ٦٢ - ٦٥) طبعة وزارة الثقافة بدمشق ١٩٨٦ م ، والدر المنثور (ص ١٨٤ و ١٨٥) ، والمرأة العربية (٢/ ١١٥ و ١١٦) ؛ وغيرها مع الجمع والتصرف .

به جواده فأسروه وأسرُوا جماعةً من أصحابه ، وكان الذي قاتلهم رأسُ البطارقة صاحبُ ببا الكُبرى ؛ فأوثقوا ضراراً وأصحابه كِتافاً وربطوهم على ظهورِ خيولهم ، وأرسلوهم إلى العسكر ، وانفلتَ من القوم مولى من موالي عبد الرحمن بن أبي بكر الصّدِّيق يُقالُ له سالم ، فسارَ يجدُّ في مسيره حتى قدِمَ على خالدٍ وعمرُو . فعندَ ذلك وثبَ المسيّبُ بنُ نجيبة الفزاريّ ، ورافعُ بنُ عميرة الطّائي ، وأخذَا معهما ألفاً من أصحابِ رسول الله ﷺ ، وسارَ معهما رجلٌ منَ الجيزة يدلُّهم على طريقِ غيرِ الجادة ، وكمِنوا هناك عندَ الدّير ، وقد سبَقُوا البطريقَ الذي أسَرَ ضراراً وأصحابه ، وقد اختفى عنهم الأثرُ ، فقال الدّليلُ : أظنّكم قد سَبَقْتُم القوم ، اكمنوا هاهنا ، وكان الذي مضى بضرارٍ وأصحابه خمسمئة فارس .

* وكانت خولة بنتُ الأزور قد شقَّ عليها أسْرُ أخيها ضرار ، فلمّا سار المسيّبُ ورافعُ وجماعتهما في طلبِ أخيها تهلّلت فرحاً ، وأسْرعت في لبسِ سلاحيها ، وأتت إلى خالدٍ وقد همَّ القومُ بالمسيرِ وقالت : أيُّها الأمير ، سألتك بالطّاهرِ المطهرِ إلّا ما سيّرْتني مع هؤلاء عسى أن أكونَ مشاهدةً لهم .

فقال خالد للمسيّبِ ورافعٍ : أنتما تعلمانِ شجاعتها وبراعتها فخذاهما معكما .

فقالا : السّمع والطّاعة ، ونزلوا بالمكانِ المذكور .

* وبينما هم كامنون ، إذا بغيرةٌ قد لاحَتْ لهم ، فإذا بهم قد أتوا محدقينَ بضرارٍ ، وهو متألّمٌ منَ كتافِهِ ، وهو ينشدُ ويقول :

ألا بلّغا قومي وخولة أنني أسيرُ رهينُ موثقُ اليَدِ بالقيَدِ
وحولي علوجُ الرُّومِ منَ كُلِّ كافِرٍ وأصَبَحْتُ مَعَهُمْ لا أعيْدُ ولا أبدي
فلو أنني فوقَ المُحجَّلِ راكباً وقائمٌ حدَّ العَضْبِ قد مَلَكْتُ يدي

لَأَذَلَّتْ جَمَعَ الرُّومِ إِذْلالَ نَقْمَةٍ وَأَسْقَيْتُهُمْ وَسْطَ الْوَغَى أَعْظَمَ الْكَدِّ
فِيَا قَلْبُ مَتَّ هَمًّا وَحُزْنًا وَحَسْرَةً وَيَا دَمْعَ عَيْنِي كُنْ مَعِينًا عَلَى خَدَيَّ
فَلَوْ أَنَّ أَقْوَامِي وَخَوْلَةَ عِنْدَنَا وَالزَّمَ مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ الْعَهْدِ
كَبَا بِي جَوَادِي فَانْتَبَذْتُ عَلَى الْوَغَى وَأَصْبَحْتُ بِالْمَقْدُورِ وَلَمْ أْبْلُغْنَ قَصْدِي

* وسمعتُ خولةً هذه القصيدة الدَّالِيَّةَ ، فعرفتُ أنَّه ضرار ، فنادته من مكمِنِها: يا ضرارُ قد أجابَ اللهُ دُعاكَ ، وقبلَ تضرُّعَكَ ونجواكَ ، أنا خولةُ بنتُ الأزور فارسةُ نساءِ المسلمين .

* ثم كبرت وحملتُ ، وكبرَ رافعُ والمسيَّبُ والمسلمون .

* قال جُبَيْرُ بْنُ سَالِمٍ : وكُنَّا إِذَا كَبِرْنَا تَصْهَلُ الْخَيْلُ إِلْهَامًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَمَا كَانَ أَكْثَرَ مِنْ سَاعَةٍ حَتَّى قَتَلْنَاهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ ، وَخَلَّصَ اللَّهُ ضَرَارَ بْنَ الْأَزُورِ وَأَصْحَابَهُ ، وَأَخَذْنَا خَيْلَ الْقَوْمِ الْمُشْرِكِينَ ، كَمَا أَخَذْنَا أَسْلَابَهُمْ وَسِلَاحَهُمْ ، وَكَانَتْ أَوَّلَ غَنِيمَةٍ لَنَا هُنَاكَ ^(١) .

خَوْلَةُ الْفَارِسَةِ الشَّاعِرَةُ :

* شهدنا خولةُ بنتُ الأزورِ في ميادين القتالِ والنِّزالِ ، وسنشهدُ الآنَ جانباً من فروسيَّتِها في الشُّعْرِ واللِّسَانِ ، فقد ذكروا أنَّ أخاها قد أُسِرَ في إحدى الوقعاتِ ، ويُقالُ في مرجِ دابقَ ، فحزنتُ لِأُسْرِهِ حُزْنًا شَدِيدًا ، وقالت هذه القصيدةُ التَّوْنِيَّةُ الجميلةُ :

أَلَا مُخْبِرَ بَعْدَ الْفِرَاقِ يُخَبِّرُنَا فَمَنْ ذَا الَّذِي يَا قَوْمُ أَشْغَلَكَمَ عَنَّا
فَلَوْ كُنْتُ أَدْرِي أَنَّهُ آخِرُ اللَّقَا لَكُنَّا وَقَفْنَا لِلْوُدَاعِ وَوَدَّعْنَا
أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ هَلْ أَنْتَ مُخْبِرِي فَهَلْ بِقُدُومِ الْغَائِبِينَ تُبَشِّرُنَا
لَقَدْ كَانَتْ الْآيَامُ تَزْهُو لِقُرْبِهِمْ وَكُنَّا بِهِمْ نَزْهُو وَكَانُوا كَمَا كُنَّا

(١) فتوح الشام (ص ٢٢٢ - ٢٢٥) بشيء من التصرف .

أَلَا قَاتَلَ اللهُ النَّوْىَ مَا أَمَرَهُ
 ذَكَرْتُ لِيَالِي الْجَمْعِ كُنَّا سَوِيَّةً
 لِّئِنْ رَجَعُوا يَوْمًا إِلَى دَارِ عِزِّهِمْ
 وَلَمْ أَنْسَ إِذْ قَالُوا ضِرَارٌ مَقِيدٌ
 فَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مُعَارَةٌ
 أَرَى الْقَلْبَ لَا يَخْتَارُ فِي النَّاسِ غَيْرَهُمْ
 سَلَامٌ عَلَى الْأَحْبَابِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ
 وَأَقْبَحُهُ مَاذَا يُرِيدُ النَّوْىَ مِنَّا
 فَفَرَّقَنَا رَيْبُ الزَّمَانِ وَشَتَّتَنَا
 لَثْمَنَا خِفَافًا لِلْمَطَايَا وَقَبَّلَنَا
 تَرَكْنَاهُ فِي دَارِ الْعَدُوِّ وَيَمَّمَّنَا
 وَمَا نَحْنُ إِلَّا مِثْلُ لَفْظٍ بِلاَ مَعْنَى
 إِذَا مَا ذَكَّرْنَاهُمْ فَوَا قَلْبِي الْمُضْنَى
 وَإِنْ بَعُدُوا عَنَّا وَإِنْ مُنِعُوا مِنَّا^(١)

* ثَم قَالَتْ خَوْلَةُ: لَا بَدَّ أَنْ أَخْلَصَهُ مِنَ الرُّومِ ، وَأَخَذَ بِثَأْرِهِ ، وَتَقَدَّمَتْ
 مَعَ الْجَيْشِ الذَّاهِبِ إِلَى أَنْطَاكِيَّةَ لَخْلَاصِ أَخِيهَا ضِرَارٍ ، وَمَعَهَا جَمَاعَةٌ مِنَ
 النِّسَاءِ وَهِيَ تَتَشَدَّدُ وَتَقُولُ:

أَبْعَدَ أَخِي تَلَدُ الْعَمَضِ عَيْنِي
 سَأُبْكِي مَا حَيِّتُ عَلَى شَفِيقِ
 فَلَوْ أَنِّي لَحَقْتُ بِهِ قَتِيلًا
 وَكُنْتُ إِلَى السُّلُوِّ أَرَى طَرِيقًا
 وَإِنَّا مَعْشَرٌ مَنُ مَاتَ مِنَّا
 وَإِنِّي أَنْ يُقَالَ قَضَى ضِرَارٌ
 وَقَالُوا لِمَ بُكََاكِ فَقُلْتُ مَهْلًا
 فَهَجَمْتُ وَخَلَصْتَهُ مِنَ الْأَسْرِ^(٢) .
 فَكَيْفَ يَنَامُ مَقْرُوحُ الْجَفُونِ
 أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ عَيْنِي الْيَمِينِ
 لَهَانَ عَلَيَّ إِذْ هُوَ غَيْرُ هُونٍ
 وَأَعْلَقُ مِنْهُ بِالْحَبْلِ الْمَتِينِ
 فَلَيْسَ يَمُوتُ مَوْتَ الْمُسْتَكِينِ
 لِبَاكِئَةٍ بِمُنْسَجِمٍ هَتُونِ
 أَمَّا أَبْكِي وَقَدْ قَطَعُوا وَتَيْنِي

* وَيُرْوَى أَنَّ خَوْلَةَ بِنْتَ الْأَزُورِ قَدْ حَضَرَتْ فَتُوحَ مِصْرَ ، فَهَجَمَ الْقَبْطُ

(١) انظر: شرح ديوان الخنساء (ص ١٤٧) ، وشاعرات العرب في الجاهلية والإسلام
 لبشير يموت (ص ٢٦٢) ، والدر المثلث (ص ١٨٦) ، وأعلام النساء (١/ ٣٧٤ و
 ٣٧٥) ، وشاعرات العرب (ص ١٠٩ و ١١٠) وغيرها كثير .
 (٢) انظر: شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام (ص ٢٦٣) والمصادر السابقة نفسها .

على المسلمين ، وأسروا قوماً منهم ، وكانت خولة من الأسارى ، فقالت
ترثي نفسها ، وتذكر أخاها ضراراً :

حلّ المصابُ فعمّ الويلُ والحربُ وكلُّ دمعٍ من الأجنانِ ينسكبُ
وكادني الدهرُ ممّا قد رُميتُ به حتّى توهّمتُ أنّ الأرضَ تنقلبُ
خارت يدُ القُبْطِ فينا عندَ غفلتنا واستحكمَ الرُّومُ لما زلّتِ العربُ
لَهفي على بطلٍ قد كان عُمَدتنا فيه العفافُ وفيه الدّينُ والأدبُ
لو كانَ ناصرنا في وقتِ شدتنا أعني ضرارَ الذي للحربِ يُتدبُ
فيه الحميّةُ والإحسانُ سيَمُّتهُ فيه التَّعصُّبُ والإنصافُ والحسبُ
وهو لنا فارسُ الهيجاءِ وعادتهُ الطَّعنُ بالرمحِ في الأعداءِ ويُتَهَبُ
مُردّي الكتائبِ والكفارِ قاتِلُهُم ومُهزِمُ الجيشِ إنْ كُروا وإنْ صَعُبُوا
لو كانَ يسمعُ صوتي صاحَ بي عَجلاً مهلاً فَقَدْ زالَ عنكِ البؤسُ والعَطَبُ^(١)

* هذا ووقائعُ خولة كثيرةٌ ، وقد أبلتُ بلاءً حسناً في فتوح الشام
ومصر ، ونالت شهرةً عظيمةً في دنيا الفارساتِ فاستحققتِ الثناء والخلود
مع الخالدات في سجلّ العظام .

خولة والثناء عليّها :

* عندما تحدّثتُ زينبُ يوسفُ فواز العامليّة عن خولة قالت في مَطْلَعِ
ترجمتها : خولة بنتُ الأزورِ الكنديّ ، وهي أختُ ضرارِ بنِ الأزور ، كانت
مشهورةً بالشّجاعةِ والجمالِ ؛ خرجتُ مع أخيها إلى الشام حينَ فتحها في
خلافةِ أبي بكر الصّديق ؛ وكانت تفوقُ الرّجالَ بالفروسيّة والبسالة ، ولها
وقائعُ مشهورة^(٢) .

(١) ديوان الخنساء (ص ١٤٧ و ١٤٨) .

(٢) الدرّ المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ١٨٤) ؛ وانظر : معجم الأدبيات الشواعر
(ص ٢٠٥ و ٢٠٦) .

* وفي كتابه «المرأة العربيّة» يقولُ عنها عبد الله عفيفي: خولة بنتُ الأزور أختُ القائدِ العظيمِ ضرارِ بنِ الأزور الكنديّ؛ وهي إحدى عقائلِ العربِ، وبقيةُ بناتِ الملوكِ، وبيتُها بيتُ رَسَخَتْ دعائمُهُ على القوّةِ والمضاءِ في الجاهليّةِ والإسلامِ. قُتِلَ أبوها بين يدي رسولِ الله دفعاً عنه، وأخوها ضرارٌ من القادةِ الذين لا يغني غناءهم أحدٌ، وكان يُقاسُ إذا اشتملتُ عليه الوقائعُ بألفِ رجلٍ^(١).

* ويتابعُ عفيفي قائلاً عن خولة: أمّا هي، فقد أوتيتُ من جمالِ الوجهِ، ومضاءِ القلبِ، ورباطةِ الجأشِ، والاستبسالِ في القتالِ، مالم يُتَخَ لكثيرٌ من النَّاسِ، ولها مواطنُ غرٍّ صالحاتٍ، شَفَتْ قلوباً، وروّعتْ قلوباً^(٢).

* وقال عمر رضا كحالة: خولة بنتُ الأزور الكنديّةُ، من ربّاتِ الشّجاعةِ والفروسيّةِ، خرجتْ مع أخيها ضرارِ بنِ الأزور إلى الشّامِ، وأظهرتْ في الوقعاتِ التي دارتْ رحاها بين العربِ والرومِ بسالةً فائقةً خلّدَ التّاريخُ اسمَها في سجلِّ الأبطالِ البواسلِ^(٣).

* وقال عبدُ البديع صقّر في «شاعراتِ العربِ»: خولة بنتُ الأزور كانت من أشجعِ النَّاسِ في عَصْرِها، خرجتْ مع أخيها ضرارِ بنِ الأزور إلى

(١) المرأة العربيّةُ في جاهليّتها وإسلامها (١١٥/٢). ومن الغريب أنَّ عفيفي هذا زعم أنَّ أباهَا قد قُتِلَ بين يدي رسولِ الله دفاعاً عنه، ولم أجِدْ فيما بين يدي من مصادرِ هذا الخبر، ولا ندرِي من أين جاءَ عفيفي بهذه المعلومة؛ ولعلّه أخذها من كلامِ الواقدي عندما تحدّث عن معركةٍ من معارك خولة كما في «فتوح الشام».

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) أعلام النساء (١/٣٧٤).

الشَّام ، وأظهرت في الوقعات التي دارت رحاها بين الرُّوم والمسلمين بسالةً فائقة^(١).

* وقال الزُّركليُّ: خولة بنتُ الأزور ، شاعرةٌ ، كانت من أشجعِ النساء في عصرها ، وتُشَبَّهُ بخالد بن الوليد في حملاتها ، وهي أختُ ضرار بن الأزور ، لها أخبارٌ كثيرة في فتوحِ الشَّام ، وفي شعرها جَزالةٌ وفخر^(٢).

* وقال مُبَشِّر الطَّرَازي الحُسَيني - وهو كبير علماء تركستان - عن خولة: خولة بنتُ الأزور حضرت في غزوة اليرموك مع عددٍ من النساء ، وطلبن من خالد بن الوليد - حينما كان مشغولاً بترتيب الجيش الإسلامي وتنظيمه - أن يعينَ لهنَّ نصيباً في الجهاد ، فتقبَّل خالدُ طلبهنَّ ، حيثُ عيَّنهنَّ ونظَّمهنَّ في أقسامٍ مختلفةٍ من شؤونِ الجهاد ، وجعلَ هذه الفرقة من النساء تحت قيادة خولة ، وأجازَ لهنَّ الدَّخولَ في الميدانِ فدخلنَ حتَّى جُرحتْ خولةُ بسيفِ مشرك^(٣).

* هذا والأقوالُ كثيرةٌ في خولة ، والثناءُ ينحصرُ عليها في ميدانِ الفروسيَّة والجهادِ ، وقاتلَ الرُّوم.

* أمَّا عن وفاة خولة فيذكرون أنَّها عُمِرت طويلاً وعاشت حتَّى أواخر خلافة عثمان بن عفَّان حيث وافَتْها المنيَّةُ لتركَّ في دنيا الفارساتِ ذكراً حميداً ودويّاً ضخماً ما يزالُ صداه إلى الآن.

* * *

(١) شاعرات العرب (ص ١٠٩).

(٢) الأعلام (٢/ ٣٢٥).

(٣) المرأة وحقوقها في الإسلام (ص ١٠٣).

سَجَاحُ بِنْتِ الْحَارِثِ

- * فارسة ، متنبئة ، ذات أثر في مجرى الحوادث التي تلت وفاة رسول الله ﷺ.
- * تعاطت الكهانة ، وكانت من النساء العاقلات الحكيمات ، ذوات الفصاحة والبلاغة وأصالة الرأي.
- * أسلمت وحسُن إسلامها.

الْمَرْأَةُ الْمُحَارِبَةُ الْقَائِدَةُ:

* نقرأ في التَّارِيخِ الطَّوِيلِ العَرِيضِ ، أَنَّ الرِّجَالَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ ، وَكُلِّ شَعْبٍ مِنَ الشُّعُوبِ ، هُمُ الَّذِينَ يَنْهَضُونَ بِأُمُورِ الْحَرْبِ وَأَعْبَائِهَا ، وَلِقَاءِ الْفُرْسَانِ ، وَمِلَاقَةِ الصَّنَادِيدِ؛ وَمَصَارِعَةِ الْأَبْطَالِ وَالشُّجْعَانِ ، وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَرْوَاحَهُمْ عَلَى رَاحَتِهِمْ ، وَعَلَى شَبَا سَيُوفِهِمْ وَأَسِنَّةِ رِمَاحِهِمْ ، وَيَسْلُكُونَ بِهَا مَهَاوِي الرَّدَى ، وَمَعَامِعَ الْحُرُوبِ ، لَا يَبَالُونَ أَوْقَعُوا عَلَى الْمَوْتِ أَمْ وَقَعَ الْمَوْتُ عَلَيْهِمْ .

* وَكَانَ مِنَ الْمَتَوَارِثِ بَيْنَ فُرْسَانِ الْعَرَبِ وَأَبْطَالِهِمْ ، أَنَّ الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ لَهُمْ ، وَأَنَّ الْجِلَادَ وَالنَّزَالَ مِنْ شَأْنِهِمْ ، وَأَنَّ النِّسَاءَ يَتَنَعَّمْنَ فِي الدِّيْبَاجِ وَالْحُلِيِّ وَالْحُلْلِ وَالزَّيْتَةِ وَنَوْمِ الضُّحَى ، وَعَلَى فُرْشِهِنَّ فَتَيْتُ الْمِسْكِ وَالْوَانِ الْعِطْرِ ، وَلَكِنْ إِنْ شَارَكَنَ فِي الْحَرْبِ ، فَإِنَّمَا يَقْمُنَ بِمَا تَطِيقُهُ الْأُنثَى مِنْ تَحْمِيسٍ لِلْأَبْطَالِ ، وَتَضْمِيدٍ لَجِرَاحَاتِهِمْ ، وَإِطْعَامِهِمْ وَسَقْيِهِمْ .

* بَيَدَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْطَبِقَ عَلَى جَمِيعِ النِّسَاءِ - وَإِنْ كَانَتْ الْحَقَائِقُ تَثْبُتُ ذَلِكَ - حَيْثُ أَنَّ بَعْضَهُنَّ جَاذِبْنَ الرِّجَالَ دَفْعَةَ الْحَرْبِ ، وَقِيَادَةَ الْجُيُوشِ ، وَمِقْوَدَ الْفُرْسَانِ ، وَحَارِبْنَ كَمَا يَحَارِبُ الْفُرْسَانُ ، بَلْ إِنَّ بَعْضَهُنَّ قَدْ أَشْعَلْنَ فِتِيلَ الْحَرْبِ ، وَأَذَرْنَ قُطْبَهَا وَرَحَاهَا أَحْيَاناً ، وَكُنَّ أَحْيَاناً الْقَائِدَاتِ لَجِيْشٍ يَسْرِي بِجِيَادٍ مَا لَهُنَّ قَوَائِمُ ، وَفِيهِ مِنَ الرِّجَالِ وَالْأَشْدَاءِ مِمَّنْ تَهَابُهُمُ الشُّجْعَانُ .

* وَكَانَ لِلْمَرْأَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَطَاءٌ وَمَكَانَةٌ فِي الْمَعَارِكِ الَّتِي تَنْشُبُ بَيْنَ الْقَبَائِلِ ، وَكَانَتْ مِنْ عُنَاصِرِ النَّصْرِ وَالْغَلْبَةِ ، إِذَا مَا قَامَتْ بِمَهْمَّتِهَا فِي الْحُرُوبِ .

* وكانت الأوضاع السياسية التي تحكم القبائل العربية تفرض على القبيلة حالة اجتماعية ، وطابعاً خاصاً ، وواقعاً لا مفر منه ، فقد كانت القبيلة تُفاجأ بالغزو بين حين وآخر ، وكان يتطلّب من زعيم القبيلة - إذ ذاك - القوة الجسميّة والعقليّة ، والاستعداد الحربيّ الدائم ، وكان من غير المنتظر أن تُوكّل رئاسة القبيلة إلى امرأة ، وفي الواقع فإنّه لم يُقرأ في كتب الأخبار ما يفيد سيادة النّساء على القبائل في الجاهليّة القريبة من الإسلام^(١) ، ولكنّ الأخبار تقدّم مادّة غزيرة عن الدور الذي لعبته زوج سيّد القبيلة أو أمّه ، أو أخته أو ابنته^(٢) في الحياة السياسيّة للقبيلة ، وربما كانت النّساء أحياناً أخرى عنصراً محرضاً للحرب ، كما حدث في حرب البسوس بين بكر وتغلب ، والتي امتدّت أربعين عاماً أهلكت خلالها الحرث والنّسل والمال والتّلاذ.

* فالمرأة العربيّة في الجاهليّة إذاً ، أسهمت من خلف ستارٍ في سياسة القبائل ، وتحالفاتها وحروبها ، ومع أنّ الأخبار لا تشير - كما أسلفنا القول - أنفاً - إلى زعامات نسائيّة للقبائل في الفترة القريبة من الإسلام ، إلا بعض النسوة من مثل رقاش الطائيّة ومثيلاتهما.

* ولكنّ هناك بعض النّساء قد شاركن في المعامع ، حيث تذكر المصادِر أنّه لما كانت الحرب بين بكر وتغلب ، قال الحارث بن عباد للحارث بن همام رئيس بكر: هل أنت مطيعي فيما أمرك؟

قال: ما أنا بتارك رأيك.

(١) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٤/٦١٦).

(٢) اقرأ في هذا سيرة بُهيسة بنت أوس في كتابنا «نساء من المشرق العربي» حيث كان لها دورٌ عظيمٌ في السّلام بين عبّس وذبيان.

قال : قَاتِلُوا الْقَوْمَ بِالنِّسَاءِ فَضْلاً عَنِ الرِّجَالِ .

قال الحارثُ : وكيف ؟!

قال : تعمدونَ إلى كُلِّ امرأةٍ لها جِلْدٌ ونَفْسٌ ، فتعطونها إِداوَةً وهَرَاوَةً ، فإذا صَفَفْتَ أَصْحَابَكَ فَصَفَّهُنَ خَلْفَهُمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُ الرِّجَالَ جِلْدًا وشِدَّةً ونَشَاطًا ، ثُمَّ تَعَلَّمُوا بِعَلَامَةٍ تَعْرِفُهَا نِسَاؤُكُمْ ، فإذا مَرَّتِ المرأةُ على صَرِيحٍ مِنْكُمْ عَرَفْتُهُ ، فَسَقَتْهُ مِنَ الْمَاءِ وَنَعَشَتْهُ ، وإذا مَرَّتْ عَلَى رَجُلٍ مِنْ غَيْرِكُمْ ضَرَبَتْهُ بِالْهَرَاوَةِ فَقَتَلَتْهُ وَأَتَتْ عَلَيْهِ ؛ فَقَبِلَ الْحَارِثُ بْنُ هِمَامٍ مَا أَمَرَهُ بِهِ ، وَكَانَ النَّصْرَ لَهُمْ^(١) .

* إِذَا فَهْنَاكَ نِسَاءً شَارَكُنَ الرِّجَالَ فِي الْحَرْبِ ، وَمَارَسْنَ مَا يَمَارَسُ الرِّجَالُ مِنْ لُظَاهَا وَفَوَاجِعِهَا .

* وَلَكِنَّا وَجَدْنَا - مَعَ هَذَا كُلِّهِ - نِسَاءً مُحَارِبَاتٍ مِنْ طَرَانٍ خَاصٍ ، وَهُوَ قِيَادَةُ جَيْشٍ بِأَكْمَلِهِ ، وَرِثَاسَةُ تَدْبِيرِ الْحُرُوبِ ، وَالتَّنْقُلُ بَيْنَ الْبُلْدَانِ عَلَى صَهَوَاتِ الْجِيَادِ وَمَتُونِ الْخَيْلِ .

* يَقُولُ الدَّكْتُورُ أَحْمَدُ الْحُوفِي : إِنَّ قِيَادَةَ الْجَيْشِ لَا تُنَاطُ إِلَّا بِالشَّهْمِ الْجَلْدِ الْمُحَنِّكَ الْمُطَاعِ ، وَإِنَّ الْقَائِدَ لِيَصْرِفُ جُنْدَهُ ، وَيَدَبِّرُ الْخُطَطَ لِلنَّصْرِ ، فَإِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ الْعَرَبِيَّةُ قَدْ سَمَتْ إِلَى هَذِهِ الرُّتَبَةِ الْعَالِيَةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِقْرَارٌ مِنَ الرِّجَالِ بِعَظَمَتِهَا ، وَسَمَوِ مَكَانَتِهَا ، وَدَلِيلٌ عَلَى خُضُوعِهِمْ لَهَا وَطَاعَتِهَا^(٢) .

* وَدَعَوْنَا الْآنَ نَتَعَرَّفُ شَخْصِيَّةً سِيَاسِيَّةً نِسَائِيَّةً ، فَارِسَةٌ ظَهَرَتْ فِي أَرْضِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَكَانَتْ ذَاتَ أَثَرٍ فِي مَجْرَى الْحَوَادِثِ الَّتِي تَلَتْ وَفَاةَ

(١) انظر : شرح الحماسة للتبريزي (٣٤/٢) .

(٢) المرأة في الشعر الجاهلي لأحمد الحوفي (ص ٤٣٥) .

رسول الله ﷺ وهي شخصية نسوية ظهرت كيما تتزعم قومها ،
وتقدّمهم في الحرب ، بل لقد تنبأت أيضاً ، وكانت صاحبة شعبذات ،
وبلغ من شأنها أنها ادّعت النبوة ، ودان لها كثير من الخلق ، وآمنوا
بدعواها المزعومة .

أما اسمها فهو: سَجَاح^(١) بنت الحارث بن سويد بن عقفان ، وأما
كنيتها فأمّ صادر اليربوعيّة .

* كانت سَجَاح متنبئة مشهورة ، كما كانت شاعرة أدبية عارفة
بالأخبار ، رفيعة الشأن في قومها ، وقد لمع نجمها في عهد الرّدة .

* قال ابن منظور - رحمه الله - في «اللسان»: سَجَاح: اسم المرأة
المتنبئة ، بكسر الحاء ، مثل: حَذَامٍ وقَطَام ، وهي من بني يربوع؛ قال:
عَصَتْ سَجَاحُ شَبْثًا وَقَيْسًا وَلَقَيْتُ مِنَ النِّكَاحِ وَيَسَا
قَدْ حَيْسَ هَذَا الدِّينُ عِنْدِي حَيْسًا^(٢)

قال الأزهري: كانت في تميم امرأة كذّابة أيام مُسلمة المتنبىء ،
فتنبأت هي أيضاً ، واسمها سَجَاح ، وخطبها مُسلمة وتزوّجته ، ولهما
حديث مشهور^(٣) .

(١) انظر: جمهرة الأمثال (١/٤١٢) و(٢/٧٨) ، وجوامع السيرة النبوية (ص ٣٣٩) ،
ولسان العرب (٢/٤٧٥ و٤٧٦) ، والروضة الفيحاء في تواريخ النساء
(ص ٣١٣ - ٣١٦) ، وشرح مقامات الحريري (٤/٣٢٤ - ٣٢٧) ، وجمهرة أنساب
العرب (ص ٢٢٦ و٢٢٧) ، وأعلام النساء (٢/١٧٧ - ١٨٠) ، والدر المنثور
(ص ٢٤٠ و٢٤١) ، والأغاني (٨/٣٩٧) و(١٤/٨٩) و(١٥/٢٩٠) ، و(٢١/٣٦)
و(٣٧ و٣٨ و٤٠) ، وانظر فهارس: تاريخ الطبري ، وكامل ابن الأثير ، والبداية
والنهاية وغيرها .

(٢) لسان العرب لابن منظور (٢/٤٧٥ و٤٧٦) .

(٣) انظر: دائرة المعارف الإسلامية (٥/٣٢٩) .

نَشَأَتُهَا وَخَطَرُهَا :

* تذكرُ المصادرُ أنَّ سجاحَ قد نَشَأَتْ بينَ أخوالِها بني تغلب ، وتنصَّرتْ مثلهم ، وكانت راسخةً في النِّصرانية ، ومحيطَةٌ بفكرها ، ويبدو من الأخبارِ التي وصلتْ إلينا أنَّها قد تعاطتْ شيئاً من الكَهانة^(١) ، فكانت

(١) اعتقدَ العربُ بالكواهنِ من النساءِ ، كما اعتقدوا بالكهَّان من الرجالِ ، على الرِّغم من نظرةِ الرِّجلِ المبدئيةِ منهم إلى المرأةِ ، على أنَّ في رأيها وهناً وضعفاً وفي أحكامِها تأثراً بالعاطفةِ ، وأنَّ معاييرَ حكمِها هي دونَ مقاييسِ الرِّجلِ في الدِّقةِ والضَّبْطِ ، بل إنَّ جمهورَ العربِ كان يرى أنَّ النساءَ في الكهانةِ والعرافةِ أعمقُ ، وأنَّ أخبارهنَّ أصدقُ ، لأنَّ رفاقهنَّ من الجنِّ أدقُّ وأوثقُ ، ولذا فإنَّهم أكثرُوا من الاحتكامِ إليهنَّ ، وتقبلُوا فتاويهنَّ بإيمانٍ .

وقد لعبتِ الكاهناتُ والكهَّان دوراً كبيراً في العلاقاتِ السِّياسيةِ ، وفي حياةِ المجتمعِ العربيِّ الجاهليِّ ، لأنَّ كثيراً من أمورِ الحربِ والسَّلامِ ، كانت تصدرُ عنهنَّ ، وقد يؤثّرُ عليهم فيدفعون إليهنَّ .

وقد يُطلقُ بعضُ علماءِ اللغةِ على الكاهنةِ أيضاً لفظةَ العرَافةِ ، إلّا أنَّ بعضَ العلماءِ الآخرينَ ميّزَ بين الكهانةِ والعرَافةِ ، فالكاهنُ - بحسبهم - هو الذي يتعاطى الخبرَ عن الكائناتِ في مستقبلِ الزَّمنِ ، ويدّعي معرفةَ الأسرارِ ، والعرَافُ هو الذي يدّعي معرفةَ الشَّيءِ المسروقِ ومكانَ الضَّالةِ ونحوهما ، أو الذي يزعمُ أنَّه يعرفُ الأمورَ بمقدماتٍ وأسبابٍ يستدلُّ بها على مواقعِها من كلامِ مَنْ يسألهُ ، أو فعله أو حاله ؛ ومنهم مَنْ ذهبَ إلى أنَّ العرَافَ مَنْ اختصَّ بالأنباءِ عن الأحوالِ المستقبليةِ ، والكاهنُ من اختصَّ بالأخبارِ الماضيةِ .

ويرتبطُ بالكهانةِ والعرَافةِ أيضاً اللّتين اشتهرتِ المرأةُ العريضةُ الجاهليةُ في مضماريهما : المعرفةُ الطَّبيّةُ ، فالكاهنةُ أو العرَافةُ إذاً طبيبةٌ نفسيّةٌ ، عليها أن تعالجَ المريضَ بالإيحاءِ بأنَّها قادرةٌ على إبعادِ الرُّوحِ الشريرةِ المؤذيةِ عنه ، وكانت تلجأُ إلى ما يسمّى بالسَّحْرِ أو الشعوذةِ ، وبهذا قد تكونُ المرأةُ طبيبةً ساحرةً ، ومريضةً متداويةً ، لأنَّها أشدُّ حاجةً للطبِّ من الرِّجلِ ، وذلك في علاجِ أطفالِها باستمرارٍ ، وكان العلاجُ يجري بوساطةِ الرُّقى والتعاويذِ والتَّمايمِ وما شابهَ ذلك .

إحدى كواهنِ قومها الذكيات ، ولها تأثيرها الفكريّ فيهم^(١) .

* كما أنَّ سجاح كان لها مطامحٌ واسعةٌ ، وكانت ذات إرادة صلبة ، فكان حُلُمُها أن تتزعّم قومها ، وتمدّ نفوذها على القبائل العربية في العراق ، بل إذا سنحت لها الفرصة أن تمدّ نفوذها على منطقة اليمامة في شرقي شبه الجزيرة العربية ، وعلى الحجاز ، ولعلّ هذا الحلم غدا صورة واقعة خصوصاً عندما سمعت ورأت أن رسول الله ﷺ قد أخذ يوحّد قبائل شبه الجزيرة ، ويسير نحو توحيد العرب جميعهم تحت لواء واحد .

* ولما كانت السنّة الحادية عشرة للهجرة ، تنبأ بعض العرب ، وارتدّ بعضهم ، وكانت بنو تميم قد تخاذلت في أمر الردّة بعد وفاة رسول الله ﷺ ، واختلفوا في ذلك اختلافاً شديداً ، وامتنع قومٌ من دفع الزكاة ، ولذا فما أن قبض رسول الله ﷺ حتى تنبأت سجاح ، وأعلنت نبوتها في منطقة الجزيرة شمالي العراق ، حيث يقيم بنو تغلب قومها الذين يدينون بالنصرانية ، واستجابوا لها ، وانضمّ إليها أفناء ربيعة .

* ولما رأت سجاح جموع النصارى والمرتين من حولها ، ركبها الغرور ، وفكرت أن تخرج غازيةً أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - في المدينة المنورة ، ولم يثنها عن عزيمتها بُعد الشقّة عن المدينة .

* وخرجت بجموعها إلى بلاد تميم ، فلقيها بنو حنظلة وصدّقوها ، وأجمع بنو تميم على نصرتها ، وفيهم بعض سادتهم ، كالأحنف بن قيس ، وحارثة بن بدر ، والزبرقان بن بدر ، وعطار بن حاجب ، وغيرهم من سادة بني تميم .

(١) قالت زينب فوّاز في مطلع ترجمة سجاح: كانت من النساء العاقلات الحكيمات ذوات الفصاحة والبلاغة وأصالة الرأي ، حتى أنها قادت أكابر قومها إلى رأيها وتحت طاعتها . (الدر المنثور ص ٢٤٠) .

* وكان فيما أغرتهم به أَنَّ اللهَ لم يجعل أَمْرَ التَّبَوَّةِ في بني ربيعةَ ، وإنَّمَا جعله أيضاً في مُضَرٍ ، وَأَنَّ تميمًا تعدلُ قريشاً في السَّيَادَةِ والشَّرَفِ والسُّودد ، لأنَّهما معاً من مُضَرٍ...!..

* ولم تتوقف سَجَاحٌ عندَ هذا الحدِّ ، وإنَّمَا زعمت وادَّعتُ أَنَّهُ قد أُنْزِلَ عليها: يا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ ، لنا نصفُ الأرضِ ، ولقريش نصفها ، ولكنَّ قريشاً قومًا ييغون^(١) . فعلى الْمُضَرِّينَ أَنْ يقصدوا جموعَ ربيعةَ ويفضّوها ، ثم يكرّوا على قريش ويغلبوها .

* وراجتْ دعوئُها ، واجتمعتْ تميمٌ كُلُّها تنصرُها ، بالإضافةِ إلى إِيَادٍ ، وبعضِ القبائلِ العربيَّةِ النَّصرانيَّةِ بالجزيرةِ ، وكان مؤذنها شبيبُ بنُ ربيعي الرِّياحيِّ ، وكانت تهذي وتقولُ: أعدوا الرِّكَّابَ ، واستعدُّوا للنَّهابِ ، ثم اغدُّوا على الرِّبابِ ، فليسَ منْ دونهم حِجَابٌ .

* ثم إنَّها غَزَتْ بجموعها وأحلافها الرِّبابَ وحلفاءها بني ضَبَّةَ ، ووقعَ عددٌ منَ القَتلى ، ممَّا نفَّرَ النَّاسَ من دعوةِ سَجَاحٍ ، ويظهرُ هذا واضحاً في شعرِ أصمِّ التَّميمي الذي قال :

أَتْنَا أَخْتَ تَغْلِبَ فَاسْتَهَذَّتْ جَلَائِبَ مِنْ سَرَاةِ بَنِي أَبِينَا
وَأَرْسَتْ دَعْوَةً فِينَا سَفَاهاً وَكَانَتْ مِنْ عَمَائِرِ آخِرِينَا
فَمَا كُنَّا لِنَرْزِيهِمْ زِبَالاً وَمَا كَانَتْ لِنَسْلَمَ إِذْ أَتِينَا
أَلَا سَفَهَتْ حُلُومَكُمُ وَضَلَّتْ عَشِيَّةَ تَحْشُدُونَ لَهَا ثُبِينَا

* ومع هذا كلُّه لم تتوقف سَجَاحٌ ، وإنَّمَا تابعتْ سيرها حتى بلغتِ النَّبَاجَ^(٢) ، واصطدمتْ بقبائلَ عربيَّةٍ أخرى أرادت أَنْ تمنعها منَ المرورِ

(١) انظر: شرح مقامات الحريري (٣٢٥/٤)، نقلاً عن الأغاني (٣٨/٢١) طبعة بيروت .

(٢) «النَّبَاج»: مكان بين البصرة واليمامة .

بأراضيها هي وجُندُها ، إلا أنَّها سالمَتهم ، وغدَّت السَّيرَ إلى اليمامة ، حيثُ كانَ مسيلمةُ بنُ حبيب الكذاب قد أعلنَ هو الآخر نُبوتَه في بني حَنيفَةَ ، واستجابَ له القوم .

* ثم إنَّ سَجَاحَ قالت لأجنادِها وحلفائِها وَمَنْ تَجَمَّعَ حولَها : اقصدُوا اليمامة .

فقالوا لها : إنَّ شوكةَ أهلِ اليمامةِ قويَّةٌ شديدةٌ ، وقد غلظَ أمرُ مُسيلمة .

* عندها قالتْ لهم وَحَيْهَا - بل هذيانُها - : عليكم باليمامة ، ودَفُّوا دَفيْفَ الحمَّامةِ ، فإنَّها غزوةٌ صرَّامةٌ ، لا يلحقكم بعدها ملامة^(١) .

سَجَاحَ وَمُسَيْلِمَةَ :

* عندما قصدتْ سَجَاحُ اليمامةَ بجموعِها الجرَّارة ، أظهرت من قوَّةِ البأسِ ، وصلابةِ الموقفِ والتَّصميمِ ما جعلَ مسيلمةَ نفسه يهابُها ويخشاهُ ، ويرهبُ جانبَها ، لذلك ضاقَ ذرعاً بالأمرِ ، وتحصَّنَ في حِجْرِ حصنِ اليمامة ، وأحاطت به جيوشُها . وخافَ مسيلمةُ إنَّ شُغْلَ بها أنْ يغلبه القادةُ المسلمون الذين وجَّهَهُم الخليفةُ أبو بكر الصَّدِّيق - رضي الله عنه - لقطعِ دابر الرِّدةِ والفتنةِ ، وهما ثمامةُ بنُ أثال ، وشرحبيلُ بنُ حسنة ، لذلك شرعَ في مفاوضةِ سَجَاحَ .

* وفكَّرَ مُسيلمةُ فيما يفعلُ ، وأرسلَ في وجوهِ قومه وقال لهم : ويحكم ما ترونَ في هذه المصيبةِ التي داهمتنا؟ قالوا : نسلمُ هذا الأمرَ لها ، وإنَّ لم نفعلْ ذلك فهو البوارُ والهلاكُ والدَّمارُ .

(١) تاريخ الطبري (٢/٤٩٨) ، وفي شرح مقامات الحريري أنَّ سَجَاحَ قالت : يا معاشِرَ تميم ، اقصدُوا اليمامةَ ، فاضربوا فيها كلَّ هامة ، واضربوا ناراً ملْهامةً ، حتى تتركوها سوداء كالحمَّامة . (شرح مقامات الحريري ٤/٣٢٥)

فقال لهم بخبثه ودهائه : سننظرُ في هذا الأمر... .

* ثمَّ إِنَّهُ بَعَثَ إِلَيْهَا وَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ وَحْيًا ، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ وَحْيًا أَيْضًا ، فَهَلُمَّيْ نَجْتَمِعُ فَنَتَدَارَسُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا ، فَمَنْ عَرَفَ الْحَقَّ تَبَعَهُ ، وَاجْتَمَعْنَا فَأَكْلَنَّا الْعَرَبَ أَكْلًا بِقَوْمِي وَقَوْمِكَ .
فَبَعَثْتُ سَجَاحَ إِلَيْهِ : أَفْعَلْ ، وَأَمْتَنَّهُ .

* ثمَّ أَمَرَ أَنْ تُضْرَبَ قُبَّةٌ مِنْ أَدَمَ ، وَأَنْ تُبَخَّرَ ، وَيَكْتُرَ فِيهَا مِنَ الطَّيِّبِ وَالْمَجْمَرِ ، ثُمَّ أَتَتِ الْقُبَّةَ وَاجْتَمَعَتْ مَعَ مَسِيلِمَةَ ، وَقَالَتْ لَهُ : هَاتِ مَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ .

فَقَالَ : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِالْحَبْلِيِّ ، أَخْرَجَ مِنْهَا نَسْمَةً تَسْعَى ، بَيْنَ صِفَاقٍ وَحَشَا ، مِنْ بَيْنِ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَأَمَاتَ وَأَحْيَا ، ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ يَكُونُ الْمُنْتَهَى^(١) .

* ثُمَّ إِنَّ مَسِيلِمَةَ عَرَضَ عَلَيْهَا الزَّوَاجَ - فِي قِصَّةٍ وَشِعْرٍ ذَكَرْتُهُ الْمَصَادِرُ - فَقَبِلَتْ ذَلِكَ ، وَقَالَتْ لَهُ : إِنِّي مُسَلِّمَةُ النَّبُوءَةِ إِلَيْكَ ، فَاخْطُبْنِي إِلَى أَوْلِيَائِي يَزُوجُوكَ ، ثُمَّ أَقْوُدُ تَمِيمًا مَعَكَ ، وَعَرَضَ عَلَيْهَا أَنْ تَكُونَ الْأَرْضَ الْعَرَبِيَّةَ مَنَاصِفَةً بَيْنَهُمَا .

* فَخَرَجَ وَخَرَجْتُ مَعَهُ ، فَاجْتَمَعَ الْحَيَّانُ مِنْ حَنِيفَةٍ وَتَمِيمٍ ، فَقَالَتْ لَهُمْ سَجَاحُ : إِنَّهُ قَرَأَ عَلَيَّ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ ، فَوَجَدْتُهُ حَقًّا ، فَاتَّبَعْتُهُ ، ثُمَّ خَطَبَهَا فزَوَّجُوهُ إِيَّاهَا ، وَسَلَّوْهُ عَنِ الْمَهْرِ فَقَالَ : قَدْ وَضَعْتُ عَنْكُمْ صَلَاةَ الْعَصْرِ .

* وَلَعَلَّ هَذَا التَّصَرُّفَ مِنْ سَجَاحٍ قَدْ أَزْعَجَ قَوْمَهَا وَحُلَفَاءَهَا مِنْ أَنْ تَتَحَوَّلَ مِنْ فَارِسَةٍ وَرَائِدَةٍ سِيَاسِيَّةٍ وَمَحَارِبَةٍ وَقَائِدَةٍ إِلَى امْرَأَةٍ أَنْثَى تَبْحَثُ فِي

(١) انظر: الأغاني (٣٩/٢١) ، وشرح مقامات الحريري (٣٢٦/٤) مع الجمع والتصرف اليسير .

الصَّدَاقِ وَالْمَهْرَ ، وَلِذَلِكَ قَالَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ الْمَنْقَرِي - وَكَانَ مِنْ أَنْصَارِهَا
ثُمَّ أَسْلَمَ وَحَسَنَ إِسْلَامَهُ :-

أَضَحَّتْ نَبِيَّتُنَا أَثْنَى يُطَافُ بِهَا وَأَصْبَحَتْ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ ذُكْرَانَا
فَلَعَنَهُ اللَّهُ رَبَّ النَّاسِ كُلَّهُمْ عَلَى سَجَاحٍ وَمَنْ بِالْكَفْرِ أَغْوَانَا
أَعْنِي مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ لَا سُقَيْتَ أَصْدَاؤُهُ مِنْ رُعَيْثٍ حَيْثَمَا كَانَا^(١)

* وهكذا كان لقاء سجاح مع مسيلمة هو مغربٌ مجدِّها وأفولهِ ، حيث
تزوَّجَتْهُ ، وجعلت دَيْنَهُ وَدِينَهَا واحداً ، وآمنت به .

* وهناك روايات كثيرة عن سجاح في زواجها ، تحملُ في طياتها
عناصر الشكِّ فيها ، ومن المُرجَّح أنَّ تاريخها قد شوَّه كثيراً لأنَّها ارتدَّت عن
الإسلام .

* ويظهرُ من نتائجِ علاقة سجاح مع مُسَيْلِمَةَ أنَّ حَبَّ الْمَالِ وَالْمَادَّةِ
وَالذَّهَبِ كَانَ هَدَفًا كَبِيرًا مِنْ أَهْدَافِ حَرَكَتِهَا ، إذْ بِمَجَرَّدِ أَنْ وافَقَهَا مُسَيْلِمَةُ
على أَنْ تَأْخُذَ نِصْفَ غِلَّاتِ الْيَمَامَةِ ، وَأَنْ يَسْلِفَهَا نِصْفَ السَّنَةِ الْمُقْبِلَةِ مِنْهَا ،
فإنَّها قبلتْ وكرَّرت راجعةً إلى الجزيرة .

* وفي الواقعِ لقد رَأَتْ سَجَاحٍ كَذَلِكَ قُوَّةَ الْمُسْلِمِينَ الْجِهَادِيَّةِ ،

(١) الأغانِي (١٤/٨٩) ، وَصِيدُ الْخَاطِرِ لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (ص ٤٣٤) طَبْعَةُ دَارِ الْيَمَامَةِ
بِدِمَشْقَ ، تَحْقِيقُ: يَوْسُفُ بَدْيَوِي ، وَنَقَلَ الْأَصْفَهَانِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَلَامٍ شِعْرًا
حِينَما تَزَوَّجَتْ سَجَاحُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ ، قَالَ: قَالَ الْأَغْلُبُ الْعَجْلِيُّ فِي سَجَاحٍ لَمَّا
تَزَوَّجَتْ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابِ أَبْيَاتًا مِنْهَا:

لَقَدْ لَقِيتُ سَجَاحَ مَنْ بَعْدَ الْعَمَى مُلَوَّحًا فِي الْعَيْنِ مَجْلُودَ الْقَرَا
مِثْلَ الْعَتِيقِ فِي شَبَابٍ قَدْ أَتَى مِنَ اللَّجَمِيِّينَ أَصْحَابَ الْقِرَى
لَيْسَ بِلَذِي وَاهِنَةٍ وَلَا نَسَا نَشَا بِلَحْمٍ وَبِخَبْزٍ مَا اشْتَرَى

وَمَعْنَى «الْمُلُوحُ»: الَّذِي يَدُلُّ السَّفَرَ هَيْئَتَهُ .
و«النَّسَا»: عَرَقٌ مِنَ الْوَرِكِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ .

(الأغانِي ٢١/٣٦ و ٣٧) باختصار

فاستشفّت مصيرَها ، فقررتِ العودة ، وانفضَّ جَمْعُ مَنْ حولها عند قدوم خالد بن الوليد - رضي الله عنه - إليهم مجاهداً^(١) ، وذهبت نبوتها وطارَت بقتل مُسيلمة الكذاب .

* وتروي المصادرُ أنَّ خالدَ بنَ الوليد - رضي الله عنه - غزا اليمامة ، وقتلَ مُسيلمة الكذاب ، عندها هربَتْ سجاح إلى بني تغلب بالعراق ، وبقيت في بني قومها تغلب حتَّى نَقَلَ معاويةُ بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - أهلها إلى الكوفة ، ووضعهم في منازلِ القعقاعِ وبني أبيه ، وقد أسلمت وحسُنَ إسلامها .

* وقيلَ : إِنَّ سَجاحَ قد أسلمتْ وهاجرت إلى البصرة ، وحسُنَ إسلامُها ، وصَلَّى عليها سمرَةُ بنُ جندب والي البصرة من قِبَل معاوية^(٢) .

* قال ابنُ حزم : ثمَّ أسلمتْ سجاح بعد مقتلِ مُسيلمة^(٣) .

* وهكذا يطوي تاريخُ المحارباتِ صفحتَه عن سَجاح ، ولا شكَّ بعد هذا كلّه أَنَّ هذه المرأة استطاعتْ أَنْ تكونَ واحدة من مشاهيرِ النساءِ في التاريخ .

* * *

(١) انظر : المرأة في التاريخ العربي للدكتورة ليلى الصباغ (ص ٣٢٦) .

(٢) انظر : الروضة الفحاء (ص ٣١٥ و ٣١٦) ، وأعلام النساء (٢/ ١٨٠) .

(٣) جوامع السيرة النبوية (ص ٣٣٩) . وقالت زينبُ فَوَاز : وقيل إنها لما قُتِلَ مُسيلمة سارت إلى أخوالها تغلب بالجزيرة ، فماتتْ عندهم . ولم يُسمَعْ لها بذكر .

(الدر المنثور ص ٢٤١)

غزاة الحرورية

- * فارسة من بطلات العصر الأموي ، ومن نساء الخوارج.
- * شجاعة من الطراز الأول ، وقيادية كبرى ، ومقاتلة في حومة الوغى.
- * خطيبة ، فصيحة ، فقيهة.

فَارِسَةُ زَوْجِ فَارِسَ :

* لَا شَكَّ فِي أَنَّ أَخْبَارَ الشُّجْعَانِ ، وَذَكَرَ الْأَبْطَالِ ، يَبْتُ فِي النَّفْسِ
 الْحِمَاسِ ، وَيَذْكِي الْقَلْبَ بِنَفْسِ أَخْبَارِهِمْ ، هَذَا إِذَا كَانَ الْحَدِيثُ عَنْ
 الْفَرَسَانِ الْأَبْطَالِ مِنَ الرِّجَالِ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْحَدِيثُ شَائِقًا جَمِيلًا عَنْ
 فَارِسَاتٍ مِنْ نِسَاءِ نَاعِمَاتٍ رَسَمْنَ لَوْحَاتٍ جَمِيلَةً فِي سَجَلِ تَارِيخِ الْفُرُوسِيَّةِ
 النَّسُوبَةِ؟!

* أَعْتَقْدُ أَنَّ هَذَا شَيْءٌ مَمْتَعٌ لِلنَّفْسِ وَالسَّمْعِ ، لَا سِيَّمَا إِذَا عَلِمْنَا أَنَّ
 فَارِسَةَ هَذِهِ الصَّفَحَاتِ وَاحِدَةً مِنْ بَطَلَاتِ الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ اللَّوَاتِي دَوَّخْنَ
 الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ ، وَكُنَّ مِمَّنْ يَحْمِلْنَ السَّيْفَ ، وَيَقَاتِلْنَ بِهِ ، وَيَطَاعَنَّ بِعَوَالِي
 الرَّمَاكِ ، مِنْ عَلَى ظُهُورِ الْجُرْدِ الْمِلَاحِ! ..

* وَمَنْ الْمَثِيرِ وَالْجَمِيلِ أَنَّ فَارِسَةَ الْيَوْمِ بَطْلَةٌ مِنْ بَطَلَاتِ نِسَاءِ الْخَوَارِجِ ،
 أُولَئِكَ الَّذِينَ ظَهَرَ مِنْهُمْ فَرَسَانٌ مَشْهُورُونَ ، وَأَبْطَالٌ مَذْكُورُونَ ، لَا تَبْتُ
 أَمَامَهُمْ صَنَادِيدَ الرِّجَالِ ؛ وَمِنْهُمْ أَبُو بَلَالٍ مَرْدَاسُ بْنُ أَدِيَّةَ الَّذِي وَرَدَ أَنَّهُ خَرَجَ
 فِي أَرْبَعِينَ فَارِسًا مِنْ أَتْبَاعِهِ ، فَهَزَمَ أَلْفِينَ مِنْ فَرَسَانِ الْخُلَافَةِ الْأُمَوِيَّةِ ،
 وَجَعَلَهُمْ حَصِيدًا لَأَلْسِنَةِ السُّيُوفِ ، وَلَأَسَنَةِ الرَّمَاكِ .

* وَمِنْهُمْ قَطْرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ الْخَارِجِيِّ الْأَمِيرُ أَبُو نَعَامَةَ التَّمِيمِي الْمَازَنِي
 الْبَطْلُ الْمَشْهُورُ ، وَالْفَارِسُ الْمَذْكُورُ ، كَانَ رَأْسَ الْخَوَارِجِ ، وَخَاطَبُوهُ بِأَمِيرِ
 الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَظَّمُوهُ وَبَجَّلُوهُ ، وَأَشْعَارُهُ فِي الشَّجَاعَةِ تَدُلُّ عَلَى مَكَانَتِهِ
 مِنْهَا. خَرَجَ قَطْرِيُّ زَمَنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّيْبِرِ ، وَهَزَمَ الْجِيُوشَ وَالْكَتَائِبَ ،
 وَاسْتَفْحَلَ بِلَاؤُهُ ، وَعَظَّمَ خَطَرُهُ ، وَخِيفَ جَانِبُهُ ، وَكَانَ الْحَجَّاجُ بْنُ يَوْسُفَ

التَّقْفِي يَجْهَزُ إِلَيْهِ الْجَيْشَ تَلُو الْجَيْشِ فَيَكْسِرُهُمْ وَيَهْزُمُهُمْ ؛ وَغَلَبَ عَلَى بِلَادِ
فَارِسَ ، وَلَهُ وَقَائِعٌ مَذْكُورَةٌ ، وَشَجَاعَةٌ لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهَا ، وَإِقْدَامٌ يَشْجَعُ
أُجْبَنَ خَلْقِ اللَّهِ ، نَاهِيكَ بِشَعْرِهِ الْفَصِيحِ السَّائِرِ مَسِيرَ الْأَمْثَالِ ، وَمِنْهُ عَيْنِيَّتُهُ
الْمَشْهُورَةُ الذَّائِعَةُ الصَّيْتُ فِي دَوَاوِينَ الْحِمَاسَةِ :

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شِعَاعاً مِنْ الْأَبْطَالِ وَيَحْكُ لَنْ تُرَاعِي
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجْلِ الَّذِي لَكَ لَمْ تُطَاعِي
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نِيلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
* وَأَخْرَاهَا :

وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ
* وَبَقِيَ قَطْرِيَّ يَحَارِبُ بَضْعَ عَشْرَةِ حَجَّةٍ ، وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ إِلَى أَنْ
سَارَ إِلَيْهِ سُفْيَانُ بْنُ الْأَبْرَدِ الْكَلْبِيُّ ، فَانْتَصَرَ عَلَيْهِ ، وَقَتْلَهُ ؛ وَكَانَ خَطِيبًا مَاهِرًا
بَلِيغًا كَبِيرَ الْمَحَلِّ ، مِنْ أَفْرَادِ زَمَانِهِ .

* وَمِنْهُمْ شَبِيبٌ الْخَارِجِيُّ الَّذِي مَاتَ غَرَقًا فِي الْفُرَاتِ ، وَالَّذِي نَعِيشُ
هَذِهِ الْأَوْيَقَاتِ مَعَ زَوْجِهِ الْفَارِسَةِ الْبَطْلَةِ الْجَرِيئَةِ غَزَالَةَ الْحُرُورِيَّةِ^(١) زَوْجِ
الْقَائِدِ الْفَارِسِ الْبَطْلِ شَبِيبِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي نُعَيْمِ الشَّيْبَانِيِّ قَائِدِ الْخَوَارِجِ
وَبَطْلِهِمْ ، وَرَأْسُهُمْ وَرَثَتُهُمْ ، وَالْقَائِمُ بِالْأَمْرِ فِيهِمْ .

* وَكَانَتْ غَزَالَةُ هَذِهِ ذَاتُ نَفْسٍ كَبِيرَةٍ ، وَهَمَّةٍ عَالِيَةٍ ، وَشَجَاعَةٍ نَادِرَةٍ ،
صَحِبَتْ زَوْجَهَا فِي حُرُوبِهِ وَخِصَامِهِ ، وَكَانَ لَهَا صَوْتُ مَسْمُوعٌ ، وَدَوْرٌ

(١) انظر: البداية والنهاية (١٣/٨ - ١٥) و(١٨/٩ - ٢٠) ، ووفيات الأعيان (٢/٤٥٤ و ٤٥٥) ، والمستطرف (١/٢٢٥) ، وسير أعلام النبلاء (٤/١٤٧) ، والتذكرة الحمدونية (٢/٤٥٠ و ٤٨٨) ، وشذرات الذهب (١/٣١٦ و ٣١٧) ، وأعلام النساء (٤/٧ و ٨) ، والمرأة العربية في جاهليتها وإسلامها (٢/١١٩ - ١٢١) والأغاني (١٨/١٢١) ، والكامل (٢/٩٢٩) .

مذكور؛ وهي إحدى القادة الكفافة ، ممّن دوخوا البلاد ، وروّعوا
الجيوش ، وملؤوا القلوب أثراً ، والأفواه خبراً ، والأسماع عبراً .

* ومن المعروف أنّ الخوارج خالفوا عليّاً - رضي الله عنه - وكانت
نساؤهم أشدّ من رجالهم ، وأكثر تأثراً بأفكارهم ، لذلك برزت جماعة
منهنّ في التاريخ النسوي في القرن الهجري الأول - خاصّة - ، وتركّن
بصمات واضحات في التاريخ ما تزال خطوطها واضحة المعالم إلى عصرنا
الحاضر .

* وقد يتبادر إلى الذهن سؤال مفاده: هل كان مع عليّ بن أبي طالب
نساء حاربن معه؟ وهل اشتهرت نساء منهنّ كنساء الخوارج اللاتي عارضنه؟!

* لا شك في أنّه كان مع عليّ - رضي الله عنه - نساء ناصرته وكُنّ في
معيّته في حروبه ضدّ الخوارج وفي صفّين ، وقد وعّت ذاكرة التاريخ أسماء
بعضهنّ ، واحتفظت بأثارة من أقوالهنّ ورسمن بعض صور أفعالهنّ ،
وذكرت جوانب من فروسيتهنّ وإقدامهنّ وجُرأتِهِنَّ ؛ وما كان حربهنّ معه
وبطولتهنّ من جفوة في الخلق ، أو نبوة في الطّبع ، وهنّ الخفريات اللاتي
عرّفن بالعبادة والصّلاح ، وما كانت شجاعتهنّ أثراً من الغلظة ، وظمّاً إلى
الدّماء ، ولكنها قوة فاضت بها وفرة الصّبر ، وابتعثتها قوة اليقين ، فخلدن
هنّ الأخريات في التاريخ النسوي البطولي ، كخلود نساء الخوارج .

* ولكي تتمّ الفائدة من هذا الكتاب ، ويُستفاد منه ، أحببت أن أذكر
فقرة عن نصراء عليّ من النساء ، وأثارة من سيرهنّ ، ليكون الحديث
أحلى ، والفائدة أكثر ، ولتوضح صورة هؤلاء اللواتي أحببن عليّاً ،
وصورة أولئك اللواتي حاربنه ، وبهذا تبرز محاسن الكتاب بإذن الله :

صِدَّانِ لَمَّا اسْتَجِمَعَا حَسَنًا وَالصَّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الصَّدُّ

وها نحن أولاء مرسلو القول في أخبارهنّ في الفقرة التالية :

نُصْرَاءُ عَلِيٍّ مِنَ النِّسَاءِ :

* لم تترك نساءُ القومِ قِداماً خَلَّةً لرجالهنَّ يستأثرون بها دونهنَّ ، فلم يكنَّ يتأخرنَ عن فضيلةٍ ، وإنْ تُبْتَدِرُ يوماً غايةً لمكرمةٍ تجدهنَّ سابقاتٍ إليها ، وإثباتٍ نحوها ، وما ظنَّك بأنَّهنَّ - وهنَّ الرِّقِيقَاتُ القَوَارِيرُ - قد اصطَلَيْنَ نيرانَ الحروبِ ، وانتضينَ السُّيوفَ ، وأثرنَ الحمَّاسَ؟! ومنهنَّ هؤلاء النِّسوة اللواتي ناصرْنَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ وقاتلنَ معه ، وكُنَّ في معيَّته في حروبه .

* لقد أظهرتُ بعضُ النِّساءِ قديماً من الشَّجاعة ما يعجزُ عنه أفرسُ الشَّجعانِ ، وقد بلغَ من ثباتِ المرأةِ ، ووفورِ ثقتها بنفسها ، ما يدهشُ العقولَ ، من ذلك ما ذكره أبو عثمان الجاحظ في كتابه الشَّهير «البيان والتبيين» قال : كان حبيبُ بنُ مسلمة الفهري رجلاً غزَّاءً للترك ، فخرجَ ذاتَ مرَّةٍ إلى بعضِ غزواتِهِ ، فقالتَ له امرأته : أينَ موعداكَ؟

قال : سرادقِ الطَّاغية ، أو الجنَّة إنْ شاءَ الله تعالى .

قالت : إنِّي لأرجو الله أنْ أسبقكَ إلى أيِّ الموضعَيْنِ كنتَ به . فجاءَ فوجدها في سرادقِ الطَّاغية ، تقاتلُ الترك^(١) .

* أمَّا نصراءُ عليٍّ من النِّساءِ فكنَّ كثيراتٍ ، ولهنَّ في صفينِ مقاماتٍ ومواقفُ جميلة ، فكثيراتٌ منهنَّ أوتينَ جوامعَ الكلمِ ، وجمعنَ أشدَّاتِ الحِكمِ ، وهنَ بينَ ازدحامِ الصِّفوفِ ، وتحتَ ظلالِ السُّيوفِ .

* وهانحنُ نشيرُ إلى بعضهنَّ ، ونذكرُ جانباً من شجاعتهنَّ ،

(١) البيان والتبيين (٢/ ١٤٣) .

وفصاحتِهِنَّ ، ليكتمَلَ جَمالُ بَحْثِنَا ، وتتمَّ فائِدَتُهُ ، حيث كانت هممهنَّ
تطاولُ الثُّريا ، كما قال الشاعر :

وَلِي هِمَّةٌ أَذْنَى مَنَازِلِهَا الشُّهَا وَنَفْسٌ تَعَالَى فِي الْمَكَارِمِ وَالنُّهَى
١ - أُمُّ سِنَانٍ بَنَتْ خَيْثَمَةَ الْمَذْحِجِيَّة :

* هذه المرأة مِنْ ذَوَاتِ الْبَاسِ والنُّهَى واللسن ، كانت مِنْ نُصْرَاءِ
عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رضي الله عنه - ، ومن نفثاتها يَوْمَ صَفِّينَ أبيات منها :
عَزَبَ الرُّقَادُ فَمَقَلَّتِي لَا تَرْقُدُ وَاللَّيْلُ يُصْدِرُ بِالْهَمُومِ وَيُورِدُ
هَذَا عَلِيٌّ كَالِهَلَالِ تَحْفُهُ وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ الْكَوَاكِبِ أَسْعُدُ
* ولها في رثائه أبيات منها :

إِنَّمَا هَلَكْتَ أبا الْحُسَيْنِ فَلَمْ تَزَلْ بِالْحَقِّ تُعْرِفُ هَادِيًا مَهْدِيًا
* وقد وفدت هذه المرأة المذحجية على معاوية - رضي الله عنه -
وتظلمت من عامله على المدينة المنورة ، فكشف ظلامتها بعد حديث دار
بينهما عن بطولاتها ونصرتها لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - .

٢ - أُمُّ الْخَيْرِ بَنَتْ الْحُرَيْش :

* مِنْ بَيْنِ نُصْرَاءِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رضي الله عنه - تبرز هذه البطلة
مِنَ الْكُوفَةِ فِي مَجْلِسِ مَعَاوِيَةَ - رضي الله عنه - الذي استقدمها لحاجة في
نفسه ولأنها كانت تركبُ جَمالاً يَوْمَ صَفِّينَ ويدها سَوَاطٍ مَنشُرُ الضَّفِيرَةِ ،
وهي تَحْمَسُ الْفُرْسَانَ الَّذِينَ يَنْضَوُونَ تَحْتَ رَايَةِ عَلِيٍّ - رضي الله عنه - ،
ومما قالت : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَوْضَحَ الْحَقَّ ، وَأَبَانَ الْبَاطِلَ ،
وَنَوَّرَ السُّبُلَ ، وَرَفَعَ الْعِلْمَ ، فَلَمْ يَدْعُكُمْ فِي عَمِيَاءٍ مُشْتَبِهَةٍ ، وَلَا عِشْوَاءٍ
مَدْلَهْمَةٍ أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّ الْأَكْيَاسَ اسْتَقْصَرُوا عُمْرَ الدُّنْيَا فَرَفَضُوهَا ،
وَاسْتَطَالُوا مَدَّةَ الْآخِرَةِ فَسَعَوْا لَهَا سَعِيًّا ، وَابْتَاعُوا بَدَارَ لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا ،

ولا تنصرمُ همومُها... قد اجتهدتُ في القولِ ، وبالغتُ في النصيحة ،
وبالله التوفيق ، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته... .

* ويدورُ حديثٌ وحوارٌ بين معاويةَ وأمّ الخير ، ويسألُها عن كبارِ
الصَّحابة من مثلِ عثمانَ وطلحةَ والزَّبيرِ ، ثم تستغفیه من الأسئلةِ ، وبعدها
يأمرُ لها بصلّةٍ ويردُّها إلى الكوفةِ مكرّمةً .

٣- جَرَوْهُ بَنَتْ مَرَّةَ التَّمِيمِيَّةِ :

* لم تكنُ جروةُ هذه ممّن حملَ السِّلَاحَ في جيشِ عليّ ، ولكنها كانتُ
منَ نصرائه وشيعته ، وكانتُ عالمةً بأحوالِ قبائلِ العربِ وأخبارِها ، وكانت
مجاورةً بمكةَ ، وتذكرُ أخبارُها أنّ معاويةَ - رضي الله عنه - احتجمَ مرّةً
بالمدينةِ ، ولَمّا أَمْسَى أرقاً شديداً ، فبعثَ إلى جروةَ فدخلتُ عليه
وهي ترتجفُ منَ الخوفِ ، ولكنه طيَّبَ نفسَها ، وهذا رَوْعُها ، وسألها عن
بعضِ قبائلِ العربِ ؛ ومنهم قومُها بنو تميم فقالتُ له : يا أميرَ المؤمنين ،
هم أكثرُ النَّاسِ عدداً ، وأوسعُهم بلداً ، وأبعدُهم أمداً ، هم الذهبُ
الأحمرُ ، والحسبُ الأفخرُ ، والعددُ الأكثرُ .

* ثمَّ سألها عن قبائلِ وأقوامِ آخرين ، فتجيبُه عن كلِّ قبيلةٍ بأبرزِ
صفاتها ، وكان ممّا قالتُ عن غطفانَ ، وذيّانَ ، وعبسَ ، وهوازنَ ،
وسُليمَ وغيرهم ما يلي :

أَمَّا غطفانُ : فأكثرُ سادةً ، وأمنعُ قادة .

وأما فرارةُ : فبيتُها المشهورُ ، وحسبُها المذكورُ .

وأما ذُبيانُ : فخطباءُ شعراءَ ، أعزّةُ أقوياء .

وأما عبسُ : فجمرةٌ لا تُطفأُ ، وعقبةٌ لا تُعلى ، وحيّةٌ لا تُرقى .

وأما هوازنُ : فحلُمٌ ظاهرُ ، وعزٌّ قاهرُ .

وأما بنو سُليم : ففرسانُ الملاحم ، وأسودُّ ضراغم .
وأما نُمير : فشوكَةٌ مسمومةٌ ، وهامةٌ ملمومةٌ ، وآيةٌ مفهومة .
وأما هلال : فاسمٌ فخْمٌ ، وعِزٌّ ضخْم .
وأما بنو كلاب : فعددٌ كثيرٌ ، وبحرٌ ذخيرٌ ، وفخرٌ أثيرٌ ، وحكمٌ كثير .
وأما قريش : فهم ذِروَةُ السَّنام ، وسادةُ الأَنام .
* ثم إنَّ معاويةَ سألها عن عليٍّ قائلاً : ما تقولينَ في عليٍّ بن أبي طالب
- رضي الله عنه - ؟ !

قالت جروة : حازَ واللهِ الشَّرَفَ حتَّى لا يُوصَفَ ، وغايةٌ لا تُعرفُ ،
وباللهِ أسألكَ يا أميرَ المؤمنينَ إعفائي ممَّا أتخوفُ .
* فاستجابَ معاويةٌ لرغبتها ، وأمرَ لها بضِيعَةٍ غلَّتْها عشرةُ آلافِ
درهم ، وردَّها إلى أهلِها مكرمةً على أحسنِ وجهٍ .
٤ - عِكرشةُ بنتُ الأَطحس :

* هذه امرأةٌ من نُصراءِ عليٍّ - رضي الله عنه - كانتَ معه يومَ صفِّينَ
متقلِّدةً بسيفٍ ذي حمائل ، وكانتَ تحرِّضُ النَّاسَ على القتالِ ، ويدها
عكَّازٌ وقد انكفأَ عليها العسكرانُ يقولون : هذه عكرشةُ بنتُ الأَطحس ؛ وقد
خطبتَ يومها خطبةً تؤلبُ الناسَ فيها على معاوية ؛ ولما صارَ أميراً للمؤمنينَ
دخلتَ عليه وحاورته ، فرآها فقيهةً نابهةً محبةً لعليِّ بن أبي طالب ،
فأكرمها وقضى حاجتها .

٥ - دارميَّةُ الحَجُّونيَّة :

* حجَّ معاويةُ سنةً من السَّنين ، فأرسلَ إلى امرأةٍ كنانيةٍ تنزلُ بالجحفَةِ
- قريةٌ بين مكَّةَ والمدينة - فجاءتُ دارميَّةُ ، وكانتِ امرأةً سوداءَ من نُصراءِ
عليٍّ ، وسألها معاويةُ : لِمَ أحبَّبتِ عليّاً ؟

فأجابته : أحببتُ علياً على عدله في الرعية ، وقسمته بالسوية ، وحبته للمساكين ، وإعطائه أهل السبيل .

* ثم تصفُ له علياً وصفاً دقيقاً ، ويحلّم معاويةً عنها ، ويعطيها مئة ناقةٍ مع رعائِها ، ويردّها إلى أهلِها وهو يقول :
إذا لم أجِدْ بالحِلْمِ مِنِّي عليكم فَمَنْ ذا الذي بعدي يُؤمِّلُ للحِلْمِ
خُذِهَا هنيئاً واذكُري فعلَ ماجِدِ حَبَاكِ على حينِ العداوةِ بالسُّلْمِ
٦ - أمُّ البراء بنتُ صفوان :

* أمُّ البراء بنتُ صفوان من المناصراتِ لعلِّي باللسانِ ، كانت تحرّضُ الناسَ يومَ صفّين على القتالِ ، وتقولُ :
يا زيدُ دونك صارِماً ذا رونقٍ عَضَبَ المهزّةِ ليسَ بالخوّارِ
أسرجُ جوادك مُسرِعاً ومُشَمِّراً للحربِ غيرَ موليِّ فرّارِ
* ولما مات عليّ رثتهُ أحمرُّ رثاءٍ ، وظلّ حُبُّه في قلبِها لآخرِ حياتِها ، وكانت عفيفةً النفسَ لا تسألُ أحداً شيئاً .

٧ - أروى بنتُ الحارثِ بن عبد المطلب :

* كانت من أشدّ الناسِ حبّاً لعلِّي ، ولها في مجلسِ معاويةَ أخبارٌ تدلّ على ذلك ، وقد أسمعتهُ وأسمعتُ جلساءه من غليظِ الكلامِ شيئاً عجيباً ، ومعَ هذا وذاك أسمعَتِ الحاضرينَ قصيدةً في رثاءِ عليّ ، وطلبتُ من معاويةَ ستّةَ آلافِ دينارٍ ، فأعطاهَا وانصرفتُ .

٨ - الزّرقاءُ بنتُ عدي الهمدانيّة :

* امرأةٌ من الكوفةِ لها لسانٌ وعقلٌ ، كانت تركبُ جَمَلاً أحمرَّ يومَ صفّين ، وهي توقدُ الحربَ وتحضُّ عليها ، وتخطبُ الناسَ ، وتحثُّهم على الإقدامِ .

* وكانت وفيةً لعلّي بن أبي طالب حيّاً وميتاً حتّى أعجب بوفائها له معاويةً ، وكلُّ مَنْ حضر مجلسه .

٩ - سودة بنتُ عمارِة الهمدانيّة :

* إحدى نساءِ همدان اللواتي لم يعرفِ الخوفُ إلى قلوبهنّ سبيلاً ، عُرِفَتْ بحبّها الشّدِيدِ لعلّي ، وكانت من نُصرائِه يوم صفّين ، وكانت تحرّضُ أخاها بأبياتِ حماسيّة منها :
شَمَّرْ كفعلِ أبيك يا بنَ عَمارةِ يومَ الطّعانِ وملتقى الأقرانِ
كما أنّها رثتُ عليّاً فقالت :

صَلَّى الإلهُ على روحِ تَضَمَّنْها قبرٌ فأصبحَ فيها العدلُ مدفوناً
قد حالفَ الحقُّ لا يبغي به بدلاً فصارَ بالحقِّ والإيمانِ مقروناً
١٠ - بكارةُ الهلاليّة :

* شهدتُ بكارةَ معركةَ صفّين مع أخيها زيد ، وكانت امرأةً فصيحةَ اللّسان ، شاعرة ، وخطيبة مفوّهة ، لها أشعارٌ حماسيّة يوم صفّين ، وكلماتٌ سائرات ، وعَتَّها المصادِرُ وكتُبُ الأسمار .

* ومن نُصراءِ عليٍّ من النّساء : امرأةُ أبي الأسود الدّؤلي ، وأمّامَةُ بنتُ يزيد بن الصّعق ، وأختُ عبدِ الله بن عامر بن ربيعة ، وآمنةُ بنتُ الشّريد ، وفارعةُ بنتُ عبد الرحمن الحارثيّة ، وامرأةٌ من ذكوان ، وغيرهنّ كثيراتُ قد أحصتهنّ بعضُ المصادِر^(١) ، وأوردت أخبارهنّ ، وحفظتُ كلماتهنّ وأشعارهنّ ، وقد لمسنا في شذراتِ أخبارهنّ ذلكَ الولاءَ العجيبَ والدّفاعَ

(١) المصادِر التي تحدّثت عن هؤلاء النّساء كثيرة جداً ، ومنها : أخبار الوافدات من النّساء على معاوية بن أبي سفيان للعباس بن بكار الضبي ؛ وبلاغات النّساء ، وتاريخ دمشق (تراجم النّساء) ، والحدائق الغناء ، والعقد الفريد ، وصبح الأعشى . ومن المراجع : جمهرة خطب العرب وأعلام النّساء وغير ذلك كثير .

المستमित عن عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - كما عرفنا جانباً من بطولاتهنّ في السّنان واللسان .

هَلَّا بَرَزْتَ إِلَى غَزَاةٍ؟

* غزاةُ الحروريّة هذه امرأةٌ متفرّدةٌ في عالمِ الفارساتِ في العصرِ الأمويّ ، عصرُ الفرسانِ الفاتحين ، والشّجعانِ المرموقين ، والفتيانِ المشهورين .

* وكانت غزاةٌ من الشّجاعةِ والفروسيّةِ بالموضعِ العظيم ، والمكانِ الجسيم ، وكانت تقاتلُ في الحروبِ بنفسها ، وتباشرُ المعاركَ بسيفها ، وتطاحنُ وتجالدُ الفرسانَ الأشداء ، وهي إحدى القادةِ الكفّاءِ ممن دوّخوا البلاد ، وروعوا الجيوشَ والعباد ، وملؤوا القلوبَ أثراً ، والأفواهَ خبراً ، والأرضَ عبراً .

قال ابنُ العمادِ الحنبليّ في شذراته عنها وعن شجاعتهما: وكانت قد قاتلتُ في تلكَ الحروبِ - أي حروبِ الخوارج^(١) - قتالاً عجزَ عنه كُملُ الرّجال ، وكانت بحيث يُضربُ بشجاعتهما المثل^(٢) .

* كانت غزاةٌ وزوجها شبيب يليانِ قيادةَ الخوارج ، وكان الحجاجُ بنُ يوسفَ الثّقفي مبيدَ العراقِ ظلوماً جبّاراً ناصبياً خبيثاً سفاكاً للدّماء ، وكان ذا

(١) ذكر ابنُ العمادِ أنّه في سنة (٧٧ هـ) بعثَ الحجاجُ بنُ يوسفَ الثّقفي لحربِ شبيب الخارجي عتّاب بن وزيّاء الرّياحيّ ، فلقِيَ شبيباً بسوادِ الكوفة ، فقتلَ شبيبَ عتّاباً ، وهزمَ جيشه ، ثمّ جهّزَ الحجاجُ له الحارث بنَ معاوية الثّقفي فقتلَ الحارثَ أيضاً ، فوجّهَ الحجاجُ له أبا الورد البصريّ فقتله أيضاً ، فوجّهَ له طهمان مولى عثمان فقتله أيضاً ، ففرّقَ منه الحجاجُ ، وسارَ بنفسه ، فاقتتلوا قتالاً شديداً أشدَّ القتال ، وتكاثروا على شبيب فانهزمَ . (شذرات الذهب ٣١٦/١) بتصرف يسير

(٢) شذرات الذهب (٣١٦/١) .

شجاعة وإقدام ومكرٍ ودهاءٍ وفصاحةٍ وبلاغة^(١). وكان هذا العاتي الظالم يستمعُ خبرها ، فيمتليءُ قلبه رعباً ووهناً ووهلاً ، وقد وردَ أنه هربَ منها في بعضِ الوقائع مع زوجها شبيب ، واعتصم في الكوفة.

* ذكرَ أهلُ الأخبارِ والتَّوَارِيخِ أنَّ الحجاجَ بنَ يوسفَ قد خرجَ في جندٍ وفرسانه ورجاله ، وكلُّهم شاكي السلاح ، مستكملُ العدة ، مرهوبُ الصَّولة ، وجميعُهم يدعي البطولة ، فعرضتْ له غزاةُ الحرورية في أربعين فارساً من جماعتها ، وهو في أربعة آلاف^(٢) ، فما لبث أن اختلطَ عليه الأمرُ ، وخلع الفزعُ قلبه ، واستولى عليه الخوفُ ، وولَّى هارباً يخلطُ في قوله ، وهو أعرفُ النَّاسِ بمواطنِ القول ، وأرفقُهم بأساليبِ الكلام ، ولكنه عَقَلَ قلبه فعَقَلَ لسانه ، وأُرتجَ عليه كلُّ قولٍ في دنيا القول . وقيل : إنَّ غزاةَ دَعَتْه في إحدى الوقائع أن يبرزَ لها فأبى وخاف ، هنالك سَخِرَ منه بعضُ شعراءِ عصره^(٣) ، وكتبَ إليه يعيّره بكلماتٍ لاذعة تقطرُ تهكماً لهروبه من غزاة ، وكانت غزاةً عديمةَ النِّظيرِ في الشَّجاعةِ والإقدامِ والجرأة :

أَسَدٌ عَلِيٌّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتْخَاءٌ تَنْفُرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَا بَرَزْتَ إِلَى غَزَاةٍ فِي الْوَعْيِ بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرِ

(١) قَالَ الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنْ الْحَجَّاجِ بْنِ يَوْسُفَ : أَهْلَكَهُ اللَّهُ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ (٩٥ هـ) كَهَلًا ، وَقَدْ سَقَتْ مِنْ سُوءِ سِيرَتِهِ فِي تَارِيخِي الْكَبِيرِ ، وَحَصَارِهِ لَابِنِ الزُّبَيْرِ بِالْكَعْبَةِ ، وَرَمِيهِ إِثَاها بِالْمَنْجَنِيْقِ ، وَإِذْلَالِهِ لِأَهْلِ الْحَرَمَيْنِ ، ثُمَّ وَلايَتِهِ عَلَى الْعِرَاقِ وَالْمَشْرِقِ كُلِّهِ عَشْرِينَ سَنَةً ، وَحُرُوبِ ابْنِ الْأَشْعَثِ لَهُ ، وَتَأْخِيرِهِ لِلصَّلَواتِ إِلَى أَنْ اسْتَأْصَلَهُ اللَّهُ ؛ فَسُبُّهُ وَلَا نَحْبَهُ ، بَلْ نَبْغُضُهُ فِي اللَّهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ عَرَا الْإِيْمَانِ . وَلَهُ حَسَنَاتٌ مَغْمُورَةٌ فِي بَحْرِ دُنُوبِهِ ، وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، وَلَهُ تَوْحِيدٌ فِي الْجُمْلَةِ ، وَنَظَرَاءُ مِنْ ظُلْمَةِ الْجَبَابِرَةِ وَالْأَمْرَاءِ . (سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٤٣)

(٢) عِنْدِي أَنَّ هَذَا الرَّقْمَ مُبَالِغٌ فِيهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوابِ .

(٣) هُوَ عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانَ ، وَكَانَ الْحَجَّاجُ قَدْ لَجَّ فِي طَلْبِهِ أَيْضًا .

صَدَعَتْ غَزَالَةً جَمَعَهُ بَعْسَاكِيرٌ تَرَكْتُ كِتَابِيهِ كَأَمْسِ الدَّابِرِ
 أَلْقَى السَّلَاحَ وَخَذُ وَشَاحِي مُعْصِرٍ واعمدُ لمنزلةِ الجَبَانِ الكَافِرِ^(١)
 * وهكذا اشتهرت غزالة بالشجاعة والفصاحة ، فهي تخطبُ على
 المنابر ، وتخوضُ المعارك ، وتتحدى الكُماة والفرسان في المبارزة .
 غَزَالَةٌ وَقَسَمٌ غَرِيبٌ :

* في سيرةِ فارساتِ التَّارِيخِ الجميلِ ، تبرزُ صورةُ غزالةِ الحروريةِ
 لتعطيَ ملامحَ الفروسيَّةِ والشَّجاعةِ التي يخشأها كثيرٌ مِنَ الرِّجَالِ ، فقد بلغَ
 مِنْ جسارتها وجرأتها وقوةِ قلبها ، وشدةِ بطشها ، أَنَّهَا أقسمتُ باللهِ أَغْلَظَ
 الأَيْمَانِ لَتُصَلِّيَنَّ فِي مَسْجِدِ الكوفةِ ركعتينِ ، تقرأُ فِي الرِّكْعَةِ الأولى سورةَ
 البقرة ، وفي الرِّكْعَةِ الثَّانِيَةِ آلِ عمرانَ^(٢) ، والكوفةِ يومَ إِذْ مَعْقِلُ الحجاجِ بنِ
 يوسف ، ودارُ إمرته ، ومجتمعُ قوته ، ومجمعُ فُرسانه .

* والظَّاهِرُ أَنَّ غرابةَ هذهِ الفِعالِ مِنْ امْرَأَةٍ مِثْلِ غزالةِ الحروريةِ قد انبثقتُ
 عن فروسيَّةِ زوجها شبيب ، فما خرجتُ إِلَّا بخروجهِ ، وما حاربتُ إِلَّا شِدًّا
 لَأُزِرَّهُ ، والتَّبَصِيرُ بمعتقده في الدِّينِ ، وقصارى القولِ : إِنَّ شَنَا قَدْ وَافَقَ
 طَبَقَةَ ، فهو فارسٌ مِنْ جبابرةِ الخلقِ وعتاتهم ، وامراته على غراره ، فقد
 قيل : إِنَّهَا كانت فقيهةً أيضاً ، وكانت خطيبةً ، فهي معتزةٌ بقوتها ، مزهوةٌ
 ببسالةِ زوجها .

* فقد خرجَ زوجها شبيبُ في خلافةِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ ، وكانَ

(١) انظر: وفيات الأعيان (٢/٤٥٥) ، وسير أعلام النبلاء (٤/١٤٧) ، مع الجمع
 والتصرف . وانظر: التذكرة الحمدونية (٢/٤٥٠) ، وشذرات الذهب (١/٣١٦)
 و(٣١٧) . ومعنى «مُعْصِرٍ» : المُعْصِرُ : الفتاة التي بلغتْ عَصْرَ شبابها ، والمعنى : دُعُ
 حملَ السِّلَاحِ والبسَ لباسَ الفتاة .

(٢) شذرات الذهب (١/٣١٦) .

الحجاجُ بنُ يوسفَ الثَّقَفيّ بالعراقِ يومئذٍ ، وخرجَ بالموصلِ ، فبعثَ الحجاجُ لحربه خمسةَ قَوادٍ من القادة الشُّجعان ، فقتلهم واحداً بعد واحدٍ بعد واحدٍ ، ثمَّ خرجَ مِنَ المَوْصِلِ يريدُ الكوفةَ ، وخرجَ الحجاجُ مِنَ البصرةِ يريدُ الكوفةَ أيضاً ، وطمعَ شبيبٌ أَنْ يلقاه قبلَ أَنْ يصلَ إلى الكوفةِ ، فأقحمَ الحجاجُ خيله في قَصْرِ الإمارةِ ، ودخلَ إليها شبيبٌ ، ومعه أمُّه جهيزة^(١) وزوجته غزالة عند الصُّباح ، فوجدَ بابَ القصرِ مغلقاً والحجاجُ فيه ، فقتلَ الحرسَ ، ثم دنا من البابِ فعالجه هو وأصحابه فأعياهم فَتَحَهُ ، فضربه شبيبٌ بعمودٍ كان في يده فنقبَ البابَ .

* وكانت غزالةٌ قد نذرتُ أَنْ تدخلَ مسجدَ الكوفةِ ، فتصلي فيه ركعتينِ تقرأُ فيهما سورةَ البقرة وآل عمران ، وناهيك بالبقرة وآل عمران أنهما أطولُ سورتينِ في القرآن ، فأتوا الجامعَ في سبعينَ رجلاً ، فصلَّت في الغداةِ ، وخرجت من نذرِها ، ووفَّت به ، وهي تتمتعُ بالموضع العظيم من الشُّجاعةِ والفروسيةِ والبسالةِ والإقدامِ ، وفي ذلك قال بعضُ الشعراءِ في وفاءِ نذرِها :

وَفَتِ الْغَزَالَةُ نَذْرَهَا يَا رَبِّ لَا تَغْفِرْ لَهَا

(١) قال الذَّهَبِيُّ : وكانت أمُّ شبيبٍ جهيزةٌ تشهدُ الحروبَ . (سير أعلام النبلاء ٤/ ١٤٧) وجهيزةٌ هذه من سبي سلمان بن ربيعة حين غزا أرضَ الرُّومِ في أيام عثمان - رضي الله عنه - .

قال النويري : وكانت أمُّه جاريةٌ روميةٌ ، اشتراها أبوه فأولدها شبيباً سنة (٢٥ هـ) يوم النَّحر . (نهاية الأرب ٢١/ ١٩٢)

وقال ابنُ كثير : وكانت أمُّ شبيبٍ جاريةً اسمُها جُهيزةٌ ، وكانت جميلةً وكانت من أشجعِ النساءِ تقاتلُ مع ابنِها في الحروبِ (البداية والنهاية ٩/ ٢٠) وقال ابنُ خلكان : وكانت أمُّه جهيزةٌ أيضاً شُجاعةٌ تشهدُ الحروبَ . (وفيات الأعيان ٢/ ٤٥٥) ومن العجيبِ حقاً هذه المصافاة العجيبة بينَ جهيزة وغزالة ، فلم نسمعَ هناك مصافاة بينَ حماة وكنة على هذا المستوى !! .

* ومن الواضح أنَّ صلاةَ غزاةٍ ليست صلاةَ الواجبِ العجلان ، بل هي فعلةُ المستأنى في أناةِ الاستهانةِ بعدَّوه الجرار ، ولكنَّه العزَّةُ والاعتدادُ بالفتوة .

* نعم لقد روي أنَّ زوجها شبيب قد وقفَ بثمانية فرسان من أصحابه حتى صلَّت زوجته غزاةً كما نذرت ، وأطالت كما شاءت .

* وقيل : إنَّه أصدعها المنبرَ في بعضِ حروبه ودخوله للكوفة فخطبتِ النَّاسُ !

* ويقولُ صاحبُ كتاب «الفرق بين الفرق» : إنَّها كانت في تلك الحرب على رأسِ كتيبةٍ من النساءِ يعتقلن الرِّماح . . .

* وهكذا كانت غزاةُ امرأةٍ تعتزُّ بقوتها وقوَّةِ زوجها ، فقد كانت فارسةً من طرازٍ فريد في عالمِ النساءِ .

* وذكر ابنُ كثير - رحمه الله - أنَّ غزاةً كانت شديدةُ البأسِ ، تقاتل قتالاً يعجزُ عنه الأبطال ، وكان الحجاجُ يخافُ منها أشدَّ الخوف^(١) .

* وذكر الإمامُ الذَّهبيُّ - رحمه الله - جرأتها ووفاء نذرها فقال : ودخلت غزاةُ جامعِ الكوفةِ ، وصلَّت ورَدَها ، وصعدت المنبر ، ووفت نذرها^(٢) .

غَزَاةٌ تَهْزِمُ جُيُوشَ الْحَجَّاجِ :

* ظلَّ شبيبُ بنُ يزيدٍ وزوجُه غزاةُ الحرورية يحاربان الحجاجَ شيئاً من الدَّهر ، حتى هزَمَا له عشرينَ جيشاً في مدة سنتين منها : جيش عتاب بنِ ورقاء ، وجيش الحارث بن معاوية الثَّقفي ، وجيش أبي الورد البصري ، وجيش طهمان مولى عثمان .

(١) البداية والنهاية (٢٠ / ٩) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤٨ / ٤) .

* ثم إنَّ شبيب كبسَ الكوفة ليلاً ومعه ألفٌ من الخوارج ، ومعه زوجه غزالة ، وأُمُّه جهيزة ، وذلك في مئتين من نساء الخوارج ، وقد اعتقلن الرِّماح ، وتقلدن السُّيوف ، وقصدَ المسجدَ الجامع ، فقتلَ حرَّاسَ المسجدِ والمعتكفين فيه ، ونصبَ غزالة على المنبر ، فخطبتُ.

* وكانَ الحجاج - من قبلُ - قد رمى غزالة بخمسة جيوش ، فكانت توقعُ بهم الهزائمَ ، وتلتهمهم التهاماً ، حتى غدت طباقُ العراقِ ومن حولها ترتجفُ لاسمِها ارتجافاً ، وقد وصفَ ذلك أيمنُ بن خريم لما طالتِ الحربُ بين غزالة وبين أهل العراق ، وهم لا يغنون شيئاً؛ وذكرَ كيف صنعتُ غزالةُ الأفاعيلَ بأهلِ العراق وكيف كانت تسبي النساءَ فيقولُ:

| | |
|--|---|
| أَتَيْنَا بِهِمْ مَتًى فَارِسٍ | مَنْ السَّافِكِينَ الْحَرَامَ الْعَبِيطَا |
| وخمسونَ منَ مارقَاتِ النِّسَاءِ | ءِ يَسْحَبْنَ لِلْمُنْدِيَاتِ الْمُرُوطَا |
| وهم مئتا ألفٍ ذي قَوْنَسٍ | يَيْطُ الْعِرَاقَانِ مِنْهُمْ أَطِيطَا |
| رَأَيْتُ غَزَالَهٗ إِن طَرَّحَتْ | بِمَكَّةَ هُودَجَهَا وَالْغَيْطَا |
| سَمَتْ لِلْعِرَاقِينَ فِي جَمْعِهَا | فَلَاقَى الْعِرَاقَانُ مِنْهَا بَطِيطَا |
| أَلَا يَسْتَحْيِ اللَّهُ أَهْلَ الْعِرَا | قَ إِن قَلَدُوا الْغَانِيَاتِ السُّمُوطَا |
| وخیلُ غَزَالَهٗ تسبي النِّسَاءِ | وتحوي النَّهَابَ وتحوي النَّبِيطَا |
| ولو أنَّ لُوطاً أَمِيرٌ لَكُمْ | لَأَسْلَمْتُمْ فِي الْمَلَمَاتِ لُوطَا ^(١) |

(١) انظر: الأغاني (٣٢٧/٢٠ و ٣٢٨) طبعة بيروت و (١٨/١٦) طبعة مصر. ومعنى: «عَبِيطاً»: العَبِيطُ الدم الخالِص الطَّري. «المنديات»: المخزيات يندى لها الجبين. و«مروط»: المرط: كِسَاء من صوف يؤتزر به. و«القَوْنَس»: البيضة وهي الخوذة من آلات الحرب لوقاية الرأس. و«يَيْطُ أَطِيطاً»: يصيح صياحاً. و«العراقان»: الكوفة والبصرة. و«الغَيْط»: الرَّحْل ، و«البطيط»: العجب أو الداهية. و«النَّهَاب»: جمع =

مَوْتُهَا:

عجزَ الحجاجُ بنُ يوسفَ الثَّقَفي عن شبيب بنِ يزيدِ الخارجي ، الذي هزَمَ جيوشه مرَّاتٍ ومرَّاتٍ ، وقتَلَ عدَّةً منَ الأشراف ، وتزلزلَ له عبد الملك ، وتحيرَ الحجاجُ في أمره وقال: أعياني هذا ، وجمعَ له جيشاً كثيفاً نحو خمسين ألفاً ، وبعثَ إليه عبد الملك بنُ مروانَ عساكرَ كثيرة من السَّامِ عليها سُفيان بن الأبرد الكلبِي ، فوصلَ الكوفةَ ، وخرجَ الحجاجُ أيضاً ، ثم إنَّهم تكاثروا على شبيب ، فانهزمَ ، وباع أصحاب شبيب في الآخر من الدَّجِيل^(١) غزاةً ، وعقدَ سُفيانُ بنُ الأبرد الجِسْرَ ، وعبرَ مع جنده إلى أولئك الخوارج ، وقتلَ أكثرهم ، وقتَلَ فيمن قتلَ غزاةَ الحروريةَ ، كما قتلَ معها حماةَها جهيزة التي فعلتِ الأفاعيلَ أيضاً بجنود الخلافةِ وجنودِ الحجاج ، كما أنَّه أسَرَ الباقيين من أتباعِ شبيب ، وشدَّهم في الأغلال .

* وكانت غزاةٌ قد قُتِلَتْ خدعةً ، حيث غافلَتْها فرقةٌ من جنودِ الحجاج من ورائها ، بينما كانت تخوضُ غمارَ المعركةِ في صدرِ جنده ، وهي غيرُ هيَّابة ولا وجلَّة ؛ وبذلك سجَّلت تاريخاً بطولياً نسوياً ظلَّ مضربُ المثل عند

= نهب ، الغنائم . و«النبيط»: جيل من الناس يسكنون البطائح بين العراقيين الكوفة والبصرة .

(١) «دُجِيل»: هو نهرٌ عظيمٌ بنواحي الأهواز وتلك البلاد ، عليه قرى ومدن ومخرجه من جهةِ أصبهان ، وحَفَره أزدشير بنُ بابك أولُ ملوك بني ساسان ملوك الفُرس بالمدائن ، وهو غيرُ دُجِيل بغداد ، فإنَّ ذلك مخرجه من دجلةَ مقابلَ القادسيَّة في الجانبِ الغربيِّ بينَ تكريت وبغداد عليه كُورة عظيمةٌ .

(وفيات الأعيان ٢/٤٥٧)

الشعراء^(١) والأدباء؛ كما أنَّ حماةَها جُهيزة^(٢) قد سجّلت أيضاً صفحاتٍ مفعمةً بالحركة في ميدان الفروسيّة .

❖ أمّا شبيبٌ ، فإنّه لما انهزمَ نجا في فوارسَ من أصحابه ، فاتّبعه سفيان الكلبيّ في أهل الشّام ، فلحقّه بالأهوازِ ، فولّى شبيب ، فلما حصل على جسِرٍ دُجِل ، نفّر به فرسه ، وعليه الحديد الثّقل من درع ومِغْفَر وغيرهما ، فألقاه في الماء ، فقال له بعضُ أصحابه : أغرقاً يا أمير المؤمنين؟

قال شبيب : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس : ٣٨].

(١) ممّن سجّل بطولَ غزاةٍ في شعره وبطولَ زوجِها ، رجلٌ شاعرٌ من عَصْرِها كان يرى رأيَ الخوارج ، واسمُه عِثْبَانُ بْنُ أُصَيْلَةَ الحروريّ ، ويُقال عِثْبَانُ بْنُ وَصِيلَةَ ، وهي أمّه ، وهي من بني محلّم ، وهو من بني شيبانَ من شِراةِ الجزيرة ، وكان عِثْبَانُ قد خرجَ أيّامَ عبد الملك بن مروان ، ووقعَ بين يديه ، عفا عنه ؛ فقالَ عِثْبَانُ يخاطب عبد الملك ويذكرُ غزاةَ الحروريةِ وبعضَ فرسانِ الخوارج من قصيدةٍ بائيةٍ منها :

لعمري لقد نادى شبيب وصحبه على الباب لو أن الأمير يجيب
فأبلغ أمير المؤمنين رسالة وذو النصح لو تصغي إليه قريب
أتذكر إذا دارت عليك رماحنا بمسكن والكلبي ثم غريب
ومنها :

فلا صلح ما دامت منار أرضنا يقوم عليها من ثقيف خطيب
وإنك إن لا تُرض بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصيب
فلن يك منهم كان مروان وابنه وعمرو ومنهم هاشمٌ وحبیب
فمنا سُويدُ والبطيْنُ وقَعْنَبُ ومنا أميرُ المؤمنين شبيب
غزاةُ ذاتِ النّذرِ منا حميدةٌ لها في سهام المسلمين نصيب
فوارسُنا من يلقهم يلقى حتفه ومن ينج منهم ينج وهو سليب
وعِثْبَانُ بْنُ وَصِيلَةَ كنيتهُ أبو المنهال ، ومعنى قوله : « من ثقيف خطيبٌ » : يريدُ به الحجاج بن يوسف الثقفي .

(٢) قال ابن خلكان : وكانت جُهيزةُ شجاعةً تشهدُ الحروبَ . . . وكان شبيبٌ قد ادعى الخلافة .

* ثم إنَّ نهر دُجِيل ألقاه مَيِّتاً في ساحلِهِ^(١) ، وذلك في سنة (٧٧ هـ) ،
فَحُمِلَ على البريدِ إلى الحجاجِ بنِ يوسف ، فأمرَ الحجاجُ بشقِّ بطنه ،
واستخراج قلبه ، فاستُخْرِجَ فإذا هو كالحجر ، إذا ضُرِبَ به الأرضُ نبا عنها ،
فَشُقَّ فكان في داخله قلبٌ صغير كالكرة ، فَشُقَّ ، فأصيب علقة الدم في
داخله^(٢).

* قال الجاحظُ: كان شبيبٌ يصيغُ في جنباتِ الجيشِ إذا أتاهُ ، فلا
يلوي أحدٌ على أحدٍ ، وقال الشاعر فيه :

إِنْ صَاحَ يَوْمًا حَسَبْتَ الصَّخْرَ مُنْحَدِرًا وَالرَّيْحَ عَاصِفَةً وَالْمَوْجَ يَلْتَطِمُ^(٣)
* وكانت شخصيته مهيبَةً ، قال بعضهم: رأيتُ شبيباً وقد دخل
المسجد وعليه جبّة طيالة عليها نقط من أثرِ المطر ، وهو طويلٌ أشمط
جعْدُ آدم ، فجعل المسجدُ يرتج له^(٤).

* وهكذا عشنا أويقاتٍ مع بطلةٍ فارسة عاشت على صهواتِ الجياد
وماتت عليها ، ماتتِ البطلةُ الفارسةُ التي سَطَّرت في تاريخِ الفروسيةِ
النسويةِ سُطوراً جميلة ، وكان مقتلها في سنة (٧٧ هـ).

* * *

-
- (١) وردَّ أنَّه كان شبيبٌ ينعى إلى أمه جُهيزةً في وقائعِهِ ، فلا تُصدَّق ، حتَّى بلغها أنَّه قد
غرقَ في نهر دُجِيل ، فسكتتْ ، وقالت: الآن علمتُ أنَّه قد هلك ، فقيل لها:
وكيف ذلك؟ فقالت: لآتي رأيتُ عند حملي به أنَّ شهاباً قد خرجَ مِنِّي فبلغَ أقطار
الأرض وعنان السَّماء ، وليس يطفىء النَّارَ غير الماء ، فلذلك صدقتُ بذهابه. !! . .
(٢) وفياتُ الأعيان (٢/ ٤٥٥) بتصرُّف يسير؛ وفي النَّفسِ شيءٌ من هذه الرواية ، وهذه
القصة ، ولعلَّها من نسج الرواة. والله أعلم.
(٣) البيان والتبيين (١/ ١٢٨ و ١٢٩). وقال ابنُ العِماد: وكانت شجاعته خارجةً أكثرَ
ما يكونُ في مئة نفس فيهمون الألف . (شذرات الذهب ١/ ٣٧)
(٤) وفياتُ الأعيان (٢/ ٤٥٥).

فاطمة بنت الخُشب

- * فارسة جمعت جميع ألوان الفروسية من الحكمة والفهم والقوة والنجابة ...
- * من عاقلات النساء ، وسديدات الرأي ، وقويات الشخصية.
- * كانت ذات ضيافة وسؤدد ومجد وشهرة.

المرأة والفروسيّة في عصر الجاهليّة:

* الفروسيّة مظهرٌ من مظاهر الفتوة العربيّة دعت إليها الحياة التي كان العربُ يحيونها في عصر الجاهليّة ، والبيئة التي ينزلون فيها ، والنظام القبليّ الذي قامت عليه حياتهم ومن هنا ظهرت نساءٌ اشتهرن بالحزم ومضاء العزيمة وقوة الساعد .

* أمّا أخلاقُ الفرسان في العصر الجاهليّ فهي كريمةٌ ، فالفارسيّ شجاعٌ ، عزيزُ النفس ، كريمٌ عفيفٌ ، يحترم المرأة ويدافع عنها ، ويجير المستجير ، ويعملُ على زرع كلّ فضيلة ترفع من شأنه وشأن قبيلته .

* والفروسيّة ترتبط ارتباطاً قوياً بالمكارم والخير ، وقد اختلطت بطولات العربِ نساءً ورجالاً بمكارم أخلاقهم ، وقد عرف العربُ قديماً الفروسيّة في تقاليدهم ومثلهم وحياتهم ، وصوّروها في آثارهم الأدبيّة من شعرٍ ونثرٍ ، وقد خلفوا لنا أدباً وافراً وفيراً ، يحملُ زهر ربّ حياتهم الجميلة في الفروسيّة والشجاعة والنّجدة والمروءة والعقل المتّزن ، والخلق النّبل .

* ولعلّ لفظةَ الفارسيّ تُطلّق على الرّجل الشّجاع الذي أمضى عمره في خوض غمارِ الحروبِ يشري ويبيعُ ، كيما يحقق النّصرَ لقبيلته ، أو أسرته وعشيرته الأقربين ، وكيما يكتب لها الذّكر الحميدَ والمآثر الحسان في سجلّ مفاخرها ، وديوان فخرها وعزّها .

* ولكنّ ما دورُ المرأة في هذا المجال؟!

* يمكننا أن نقول: إنّ اتزان المرأة ، وتصرفها الحسن في بعض الأمور ، يدلُّ على فروسيّة خاصّة بها ، فعندما تكونُ في موقفٍ خاصّ ،

وتتصرف بعقلٍ وحكمةٍ ، تكونُ قد حَقَّقَتْ شيئاً من الفروسيةِ الحقَّةِ ، فإذا احتاج الأمرُ إلى القوةِ والجلادِ ، كانت من الشَّجاعةِ والجرأةِ بمكان .

* وأستطيعُ الآن أن أسردَ لك أمثلةً عن المرأةِ المتميِّزةِ الحصيفةِ العاقلةِ الحكيمةِ القائدةِ ، التي عاشت لمجتمعها الأُسريِّ الأصغر ، ولمجتمع قومها الأكبر في آنٍ واحد ، ووقفت ندّاً إلى جانبِ الرُّجل ، أكان أباً ، أو زَوْجاً ، أو أخاً ، أو ابناً تجاذبه سياسةُ الأسرةِ والعشيرةِ ، وولايةُ الأمرِ ، وجدَّ العملِ ، وشؤونُ الحياةِ ، وهي التي سكنَ إليها ، واستكانَ أمامَ حكمتهِ وسلامةِ منطقها وحُلُوِّ كلامها ، وأحنى الرأسَ أمامَ قوَّةِ شكيמתها ، وثباتِ القيمِ الخلقيَّةِ والاجتماعيةِ في ذهنها وقلبها ؛ هذه المرأةُ التي فعلتِ الأفاعيلَ في العَصْرِ الجاهليِّ لتقيمَ مجدَّ أسرتها وقومها من نُطْقٍ بالشَّعرِ في جميعِ فنونهِ ، وحثَّ على القتالِ ، والأخذِ بالثَّارِ ، ولو أدَّى ذلك إلى فقدانها من تحبَّ من زوجٍ أو أخٍ أو وليدٍ . .

* ولعلَّ خيرَ مثالٍ نسوقُه هنا شخصيةُ أمِّ ندبةٍ - أو أمِّ قرفةٍ - زوج حذيفةَ بن بدر ، وذلك عندما طالبتُ زوجها بأخذِ ثأرِ ابنها وقد قَتَله قيسُ بنُ زُهَير العَبسيِّ في حربِ داحس والغبراء ، فقد قالت له بكبرياء وأنفةٍ :

| | |
|---------------------------|------------------------------|
| أما تخشى إذا قال الأعادي | حذيفةُ قلبه قلبُ البناتِ |
| فخذ ثأراً بأطرافِ العوالي | وبالبیضِ الحدادِ المُرَهفاتِ |
| لعلَّ منيتي تأتي سريعاً | وترميني سهامُ الحادثاتِ |
| أحبُّ إليَّ من بعلِ جبانٍ | تكونُ حيَّاته أردى الحياةِ |

* وننتقلُ الآن إلى رحابِ فارسيةٍ من نوعٍ خاصٍ يختلفُ عمَّن قرأنا في هذا السُّفَرِ من فارساتِ ، حيث أظهرتُ جميعَ ألوانِ الفروسيةِ من حكمةٍ وفهمٍ وقوَّةٍ ونجايةٍ وما شابه ذلك .

* هذه المرأة هي التي رَبَّتِ الكَمَلَةَ مِنَ الرِّجَالِ وزودتِ المجتمعَ بفضليات النساء ، وصانَت شرفَ الأسرة ، وذادت عن القبيلة والقوم بلسانها وأعمالها ، وثبتت للنَّوائِبِ برباطة جأشٍ قد تفوقُ رباطة جأشِ أقوى الرجال ، ونطقتِ الحكمةَ والمَثَلَ ، هذه المرأة هي فاطمة بنتُ الخُرْشَبِ الأَنْمَارِيَّةِ^(١) ، إحدى نساءِ عَصْرِ الجاهليَّة اللواتي حلَّقْنَ في الفضاء الرَّحْبِ في المكارمِ والشَّجاعةِ وسَدادِ الرَّأْيِ ، وإحدى بنات الخُرْشَبِ الْمُنجَباتِ^(٢).

مِنْ عَاقِلَاتِ النِّسَاءِ النَّجِيبَاتِ :

* سردَ أبو الفضل الميْدَانِي في «مجمع الأمثال» قائمةً لنساءٍ عُرِفْنَ بسَدادِ الرَّأْيِ ومضاءِ العزيمة ، وقوَّةِ الشَّخصيَّة ، وحُسْنِ الأحْدوثةِ فقال : كانت أم خارجة - عمرة بنتُ سعد بن عبد الله - ، ومارية بنتُ الجُعَيدِ العبدية ، وعاتكة بنتُ مرة بنِ هلال بنِ فالح بنِ ذكوان السُّلَمِيَّة ، وفاطمة بنتُ الخُرْشَبِ الأَنْمَارِيَّة ، والسَّوَاءُ العزِيَّة ثم الهزانيَّة ، وسلمى بنتُ عمرو بنِ زيد بن لبيد أحد بني النَّجَّار ، وهي أمُّ عبدِ المطلب بنِ هاشم ؛ إذا تزوَّجَتِ الواحدةُ منهم رجلاً ، وأصبحتُ عنده ، كان أمرها إليها ، إن شاءتْ

(١) أعلام النساء (٤/٤٨ - ٥٠) ، ومجمع الأمثال (١/٣٤٦) و(٢/١٣٣) و(٣/٤٠١) ، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٤/٥٧٤ و ٦٣٦ و ٦٤٨) و(٥/٥٥٤) ، والأغاني (١٦/١٩ و ٢١) وديوان حاتم الطائي (عدة مواضع) ، والمحبر (ص ٣٦٩) ، وخزانة الأدب (٣/٧٧٨) و(٤/١٣) و(٧/٤٨٧ و ٤٨٨) و(٨/٣٦٨ و ٣٦٩) و(٩/٢١٣) ، والمرأة في التاريخ العربي (ص ٨٠ و ٨٥ و ٩٥ و ٩٦ و ١٥٠ و ٢١٠ و ٢٩٧). وغيرها كثير.

(٢) «بناتُ الخُرْشَبِ» : بناتُ الخُرْشَبِ ، يقال : إنَّهنَّ أنجبْنَ نِسَاءَ العربِ . والخُرْشَبُ : لقبٌ ، واسمُه : عمرو بنُ نصر بنِ حارثة بنِ طريف بنِ أنمار بنِ بغيض بنِ ريث بنِ غطفانَ .

أقامت ، وإن شاءت ذهبت ، ويكون علامة ارتضاؤها للزوج أن تعالج له طعاماً إذا أصبح^(١).

* إذا ففاطمة هذه ، قسيمة هؤلاء النسوة اللواتي عُرفن بالنجاة والعقل ، وهي واحدة من النساء العرييات اللواتي ضرب بهن المثل في الأمومة الحقة ، وفي النجاة الصحيحة ، فقليل : أنجب من فاطمة بنت الخرشب الأنمارية^(٢).

* ففاطمة بنت الخرشب هذه ، إحدى النساء اللاتي كان أمرهن إلهن^(٣) ، وإحدى ثلاث نساء من العرب الأقحاح عُرفن بالمنجبات ، وهن : فاطمة بنت الخرشب الأنمارية - ضيفتنا وفارستنا اليوم - ، وقبلها حيية بنت رياح الغنوية أم الأحوص ، وماوية بنت عبد مناة بن مالك .

(١) انظر : مجمع الأمثال (٢/ ١٣٣ و ١٣٤) ، وثمار القلوب (ص ٣١١).

(٢) مجمع الأمثال (٣/ ٤٠١) ، وانظر : تمثال الأمثال (١/ ٣٢٠) ، والمستقصى (١/ ٣٨٣) ، وجمهرة الأمثال (٢/ ٢٥٨).

(٣) من الواضح أن الطلاق في الجاهلية كان من حق الرجل ، ولكن المرأة قد أعطيت حق خلع نفسها منه بالاتفاق معه على ترضية تقدمها بعد مفاوضة مع أهلها على مال أو جعل معين .

وهناك من النساء من جعلن أمرهن منذ زواجهن ، إن شئن عشن أمرهن بأيديهن منذ زواجهن ، وإن شئن تركن معاشرتهم وأوقعن الطلاق . وقد أخذن هذا الحق بأنفسهن لشرفهن وقدرهن وحكمتهم ، من مثل النساء اللواتي ذكرناهن آنفاً .

قال الدكتور جواد علي عن الزواج في العصر الجاهلي : والعادة في أمر الزواج بيد الأبوين ، وليس للبنات معارضة وليها الشرعي في الزواج ، غير أن بعض بنات الأسر الشريفة لم يكن يقبلن بالزواج بأحد إلا بموافقتهم ، فإلى البنت يكون حق قبول الزواج أو رفضه ، كما اشترطت بعض النسوة أنهن إن أصبحن عند أزواجهن كان أمرهن إلهن ، إن شئن أقمن معهم ، وإن شئن تركنهم ، أي إن حق الطلاق بيدهن ، وذلك لشرفهن وقدرهن ، ومنهن فاطمة بنت الخرشب .

(المفصل في تاريخ العرب ٤/ ٦٣٦)

* وفاطمةُ هذه دُعِيَتْ بالمنجبة^(١) ، لأنَّها ولدتِ الكملةَ لزياد العبيسيِّ وهم: ربيعُ الكامل ، وقيسُ الحفاظ ، وعمارةُ الوهاب ، وأنسُ الفوارس^(٢) .

* قال قيسُ بنُ غالبِ البدريِّ : ولدتُ فاطمةُ بنتُ الخرشبِ الكملةَ منُ عبس ، لم يُوجدْ مثلُهم^(٣) .

* وقال الأصفهانيُّ : كانَ لفاطمةَ ثلاثةُ أبناءٍ يُعرفونَ بالكَمَلَةِ وهم: الرُّبيعُ ، وعمارةُ ، وأنسُ^(٤) .

* وذكر ابنُ الكلبيِّ عن أبي مسكين قال : كانَ يُقالُ للرُّبيعِ بنِ زياد : الكامل ، ولعمارةَ أخيه : الوهاب ودالق ، وقال فيه الفرزدق :

وهنَّ بِشَرَحافٍ تَدَارُكُنَ دَالِقاً عمارةَ عَبْسٍ بعدما جَنَحَ العَصْرُ^(٥)

(١) كانتِ العربُ لا تقولُ عنِ المرأةِ منجبةً حتى تنجبَ ثلاثةً . وقد ضُرِبَ المثلُ بكثيراتٍ من النِّجيات ، فقليل : أنجبُ منُ أمِّ البنين ، وهي ابنةُ عمرو بنِ عامرِ فارس الضَّحِياء ، وأنجبُ من خبيثةَ بنتِ رباح ، وأنجبُ من عاتكةَ بنتِ هلالِ السَّلمية ؛ وأنجبُ من ماريةَ بنتِ عبدِ مناةَ بنِ مالكِ الدَّارمية ، ولدتُ حاجباً ولقيطاً ومعبداً بني زُرارة بنِ عُدُس بنِ زيدِ مناةَ بنِ دارم .

(٢) مجمعُ الأمثال (٤٠١/٣) ، وكانَ ابنُها عمارةُ ألى على نفسه ألا يسمعَ صوتَ أسيرٍ ينادي في الليلِ إلا افتكَّه . (خزانةُ الأدب ٤٨٨/٧)

(٣) خزانةُ الأدب (٢١٣/٩) .

(٤) الأغاني (١٩/١٦) طبعة مصر . وذكر ابنُ رَشِيقٍ وغيرُه قال : تحدَّثَ أهلُ الأخبارِ عن جماعةٍ منَ الجاهليين ، قالوا إنَّهم عُرِفوا بين قومهم بالكَمَلَةِ . . . ومنهم الرُّبيعُ بنُ زياد وإخوته ، وأُمُّهم فاطمةُ بنتُ الخُرشب . (العمدة ١٩٧/٢) و(المحبر ص ٣٩٨) .

(٥) «شرحاف» : رجلٌ منُ بني ضُبَّة ، وهذا قد قتلَ عمارةَ يومَ أعيار ، وقد ذكَرَ مقتله أيضاً ربيعةُ بنُ مقروم الضُّبي حيث قال :

ترَكُّنا عمارةَ بينَ الرِّماح عمارةَ عَبْسٍ نزيفاً كليما

* قال ابن قُتيبة: وفاطمة بنتُ الخُرشب هي أُمُ ربيع بن زياد وإخوته العبسيّين الذين يُقال لهم الكَمَلَة^(١).

* ويظهر لنا أنّ فاطمة هذه كان تفخرُ بأولادِها فخراً شديداً ، ومن الجدير بالذكر أنّ الرّجل هو الذي يتباهى بأولاده الذّكور ، وقد أدرك المجتمعُ العربيُّ الجاهليُّ قيمة الأولاد ، ولاسيما إذا كان المولود من الذّكور ، فقد كان دعاءُ الوالد لابنته عندما تغادرُ بيتها للحاقِ بزوجها:

أيسرت وأذكرت ولا أنثت ، جعلَ اللهُ فيك عدداً وعزّاً وخلداً ، أحسني خلقي ، وأكرمي زوجك ، وليكن طيبك الماء^(٢).

* فكثرةُ البنين من المفاخر التي كان يعتزُّ بها أهلُ الجاهليّة ، فهم نعمةٌ وسؤددٌ لأسرتهم وقبيلتهم ، ف ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] ، كما ذكرَ ربُّنا عزَّ وجل ذلك في القرآن الكريم . فبالبنين يُنالُ المالُ والحقُّ ، ويؤخذُ بالتأرُّ ، وبهم تُدافعُ القبيلةُ عن وجودِها ، وبهم تزدادُ وسائلُ العيش ، وبهم تُغزى القبائلُ الأخرى ، وبهم حصلَ كثيرٌ من رجالِ الجاهليّة على الدّعم ، والشُّهرة السّنيّة ، والذّكر الحسن ، ومن هؤلاء «سعدُ العشيرة» الذي لقّبَ بهذا اللّقب لأنّه كان يركبُ في عشرةٍ من أولاده الذّكور ، فكأنّه منهم في عشيرة .

* وضربَ به المثلُ للرّجل يستكثرُ بأبنائه وعشيرته ويعزّزُ بهم ويقالُ: إنّ الحارثَ بنَ سدوس كان له واحدٌ وعشرون من الأولاد الذّكور .

* وكما كان الرّجلُ عصراً ذاك يتباهى بأولاده الذّكور ، فإنّ المرأةَ أيضاً

(١) الشعر والشّعراء (٣١٦/١) ، وفاطمة أمّ هؤلاء هي أختُ سلمة بن الخُرشب وله المفضّلين (٥ و٦).

(٢) بلوغ الأرب (٣/٢).

كانت تفعلُ ذلك ، ولا سيما إذا كانوا من ذوي البأسِ والكرمِ والسَّجَايا
الرفيعةِ ، والذكرُ النَّابِه ، فالأولادُ قوَّة لها ، كما هُم قوَّة للقبيلةِ ، ولذلك
كان يُقالُ للمرأة التي تلدُ الأشرافَ الكرماء الذين لا يقلُّ عددهم عن ثلاثة :
«منجبة» أو «منجاب» وتلقَّب : «بأمِّ البنين» .

* ومن أشهرِ النسوةِ المُنجبات : ضيفتنا فاطمة زوجة زياد العبيسيِّ أحد
سادة قبيلة عَبَس ، وقد أنجبت له الكَملة ، وكانت فاطمة من أعلامِ نساء
الجاهليَّة بفصاحتها وعزَّتها وقيمتها .

* ومن مشاهيرِ النساءِ المنجبات أيضاً أمُّ البنين ابنةَ عامر بن عمرو زوج
مالك بن جعفر التي أنجبت له خمسةً من الأشرافِ الأسياد ، فاخترَمَ المنون
واحداً منهم فلَقَّبَتْ بأمِّ البنين الأربعة ، وأولادُها هم : ملاعبُ الأسنَّة ،
وطفيلُ الخيل ، وربيعُ المُقترين ، ونزالُ الضَّيف ، ومعوذُ الحَكماء ، وقد
قُتِلَ واحدٌ منهم ، وبأمِّ البنين افتخرَ لبید بن ربيعة الشاعر المشهور بين يدي
الثَّعْمان بن المنذر حينما قال : نحنُ بنو أمِّ البنين الأربعة .

* ومنهنَّ : عاتكة بنتُ هلال السُّلَميَّة ، وقد أنجبت لعبد مناف بن قصيِّ
الجدِّ الأبعد لرسولِ الله ﷺ هاشماً وعبد شمس والمطلب .

* ومنهنَّ : ريحانة بنتُ معدي كِرب ، وقد ولدتُ للصَّمة بن عبد الله
خمسة أبناء وهم : دريدُ بنُ الصَّمة الشاعر الشَّهير وسيدُ قومه ، وعبدُ الله ،
وعبدُ يغوث ، وقيسُ ، وخالدُ .

* ومنَ المُنجبات : خبيئة بنتُ رياح الغنويَّة التي ولدتُ لزوجها
جعفر بن كلاب العامريِّ خالداً الأصبغ وهو أشجعُ مَنْ اشتهرَ منُ فرسانِ
العرب^(١) .

(١) انظر: بلوغ الأرب (١/ ١١٨ - ١٢٠) .

* ومن العجيب أن فاطمة هذه كانت قد ربّت أبناءها على كلّ مكرمة ، فتخرجوا في مدرستها على كلّ مكرمة حتى غدت لا تفضل واحداً على الآخر ، لأنّهم متساوون في الفضل ، يتسابقون إلى التّدي والمكارم في حلبة واحدة ، وكلّهم من السّوابق ، وليس فيهم من يقصّر أو ينكل عن مكرمة .

* ولهذا لما سُئِلَت أمّهم فاطمة بنت الخرشب عن خصالهم وخصائلهم وفضلهم ، وقيل لها : يا فاطمة ، أيّ بنيك أفضل ؟!

فقلت : الرّبيع ، لا ، بل قيس ، لا ؛ بل عمارة ، لا ، بل أنس ، ثكلتهم إن كنت أدري أيّهم أفضل^(١) .

* وتروى هذه الحادثة على النّحو الآتي : لقي حرّ بن أميّة - والد أبي سفيان - فاطمة بنت الخرشب في بعض المواسم ، فقال : يا فاطمة ! أيّ بنيك أفضل ؟

قلت : الرّبيع ، لا بل عمارة ، لا بل أنس ، ثكلتهم إن كنت أدري أيّهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يُدري أين طرفاها^(٢) .

* وقال أبو اليقظان : قيل لفاطمة بنت الخرشب الأنماريّة - وقد سُئِلَت عن بنينا - : أيّ بنيك أفضل ؟ .

فقلت : وعيشهم ما أدري ، إنّني ما حملت واحداً منهم تصنعاً ،

(١) مجمع الأمثال (٤٠٢/٣) .

(٢) انظر : حاتم الطائي (ص/ ١٥٠) ، وخزانة الأدب (١٣/٤) . وأما رواية الأغاني ، فإنّ عبد الله بن جُدعان قد لقي فاطمة بنت الخرشب وهي تطوف بالكعبة ، فقال لها : نشدتك برّب هذه البنية ، أيّ بنيك أفضل ؟
قلت : الرّبيع ، لا بل عمارة ، لا بل أنس ، ثكلتهم إن كنت أدري أيّهم أفضل .

ولا ولدته نبياً ، ولا أرضعته غيّلاً ، ولا منعه قَيْلاً ، ولا أنمته ثُدّاً ،
ولا سقيته هُدبداً ، ولا أطعمته قَبْلَ رثّة كَبِداً ، ولا أَبَتْهُ عَلَى مَأْقَةٍ^(١) .

* ويظهر أَنَّ مِنَ الأسسِ الصحيّة التي كانت تعتمدُها فاطمة بنتُ
الْخُرْشَبِ في تغذية طفلِها أَنَّ تعتمدَ على اللبنِ في تغذيته الأولى أكثرَ من
الماءِ والأطعمة الأخرى ، وألا يكون هذا اللبنُ فاسداً ، أو من النّوع الخاثرِ
الحامضِ ، كما أَنَّها كانت تُدخِلُه تدريجياً في نظامِ أطعمته اللحوم ، لأنَّ
فاطمةَ بنتَ الخرشبِ قالت : ما منعه قَيْلاً ، ولا سقيته هُدبداً ، ولا أطعمته
قَبْلَ رثّة كَبِداً^(٢) .

(١) انظر : مجمع الأمثال (٣/٤٠٢) . وقولها : «ثُدّاً» : أي : مقروراً ، «الهدبد» : الرثيثة
من اللبن ، و«المأقة» : البكاء .

(٢) يبدو من قولِ فاطمةَ بنتِ الخرشبِ أَنَّهُ كانَ لديها ولدى المرأةِ في عَصْرِها معلومات
مهمّة عن الحملِ ، وأفضلِ أوقاته ، اقتبسَتْها من تجاربِ أجيالٍ مِنَ النّساءِ قبلها .
* ولهذا كانَ العربيُّ في العَصْرِ الجاهليّ يؤمّنُ بأنَّ المرأةَ هي وعاءُ الولدِ ، أي : أَنَّ
لها أثراً كبيراً في تكوينه الخلقي ، ولذا فقد كانَ يبحثُ عن صحّةِ البنيةِ ، والعقلِ
والأخلاقِ فيها ، وفي أسرتها ، ومن نصائحِ العربِ الجاهليين للرجلِ : إذا تزوجتْ
فاسألِ عن الغُصْنِ ومنبتهِ .

وقال أكتّم بن صيفي : المناكح الكريمة مدارج الشرف . (ثمار القلوب ص ٦٩١)
وقال أحدُ العربِ : لا أترَوِّجُ حتى أنظرَ إلى ولدي منها .
فقبل له : وكيف ذلك؟

قال : أنظرُ إلى أبيها وأمّها ، فإنّها تجرّ بأحدهما .

وقال الجاحظُ : إنَّ العربَ تقولُ : عرقُ الخال لا يُنال ، وهو أنزعُ من عرقِ العم .
ومن أقوالِ العربِ إنّه : لثيمُ الخال . ويمكن إرجاعَ اهتمامِ العربِ بعرقِ الخالِ
وتباهيهم به على عرقِ العمِّ لبقايا عهدِ الأمومةِ عندما كانت المرأةُ في الحَقَبِ البعيدةِ
هي مصدرُ النّسبِ ، ومرجعُ الأولادِ ، وكان الخالُ هو صاحبُ النفوذِ على الأولادِ
في عشيرة الأمّ . وبذلك انتسبت عدّةٌ مِنَ القبائلِ العربيّةِ إلى أمهاتها مثل : خندف ،
وجُديلة ، ومُزينة ، وعاملة ، وعَفراء ، وحبابة ، وغير ذلك كثير .

* وكانت فاطمة تهتم بتغذية أولادها ، فقد استفادت من تجارب المرأة التي سبقتها بعض الأسس في صحة نمو عظامه ونفسه ، فكانت لا تنيمه على أرض نكدة ، ولا تجعله ينام باكياً حزيناً ، وقد ورد على لسانها ذلك ، وكانت العرب تعير مَنْ قصّرت أمّه في بعض منها وتسبّه به^(١) .

* ونحبُّ أن نسأل القارئ الكريم ، فنقول : هل توجد نساء في عصرنا الحالي يدركن تربية الأطفال كما تدركه فاطمة هذه على الرغم من تقدّم العلم والطب؟!

* لا شكّ أنّه توجد بعض النسوة ، ولكن ليس في المستوى الرفيع الذي ربّت عليه فاطمة بنت الخرشب أولادها!

* ولا يحسبن القارئ الكريم أننا نظلم النساء المعاصرات ، فهذه حقيقة قد لا تخفى على كثيرين ممن يرون المربيات من نساء هذا العصر .

* فالمرأة في العصر الجاهلي كانت تُدرك أصول التربية الحقّة لأولادها ، فكان الأولاد يدرجون على فضائل ظاهرة وتوجيه صحيح .

* ولا نريد أن نتحدّث عن المرأة بأنّها الأم فقط ، وإنما نتحدّث عن المرأة بمفهوم عام وشامل ، ترتبط به ، فهي تقوم مقام الأم ، والبنت ، والأخت ، والزوجة ، وأحياناً الحبيبة ، ومرة الشاعرة ، والمحاربة ، حتى الأمة أو السّبية أو المغنّية وغير ذلك .

* وقد رفدنا تاريخنا العربي الوضيء في أعصره الأولى بروافد ثرة عن هؤلاء النساء ، وأعطانا صوراً متعدّدة الألوان لحياتهنّ ، كما رسم لنا صوراً

(١) انظر : عيون الأخبار (١/٤٥٤) .

مشرقةً لبعضهنَّ كما صنعَ في ضيفةٍ هذه الصَّفحات فاطمة بنت الخُرشب الأنمارية^(١).

* وقد اكتسبتُ فاطمةُ صفاتٍ نادرةً بينَ نساءِ عصرِها ، حتى قيلَ عنها: كانت امرأة ذات ضيافةٍ وسؤدد^(٢).

* وقد تسنَّمتُ فاطمةُ ذِروَةَ المجدِ والشَّهرة في عصرِها ، وكانت من طبقةِ الأسياد ، حيث إنَّ زوجها وأولادها وعشيرتها من عليِّه القوم . ومن الطَّبيعي أنَّ فاطمةَ قد تركتُ صغارَ أعمالِ المنزلِ الرِّتيبةِ إلى الإماء ، وانصرفَ ذهنُها إلى أمورٍ أعمق وأرفع ، فرَبَّتِ الكَمَلَةَ مِنَ الرِّجال ، وأقرَّتْ لها مَنْ يعرفها بسلوكها وتهذيبها وقوَّة شخصيتها .
مَكَانَتُهَا وَمَنْزِلَتُهَا :

* كانتُ فاطمةُ بنتُ الخُرشب إحدى نساءِ العَصْرِ الجاهليِّ اللواتي أبدعنَ في رسمِ صورةِ المرأةِ العربيَّة في الأعْصِرِ الخوالي في أجملِ الحُلل ، تنمُّ عن مكانةِ المرأةِ في عَصْرِها ، وبين قومها ، بل وفي الجزيرةِ العربيَّة .

(١) إنَّ قوَّةَ شخصيَّةِ المرأةِ الجاهليَّة من مثلِ فاطمةَ بنتِ الخُرشب ، وبروزها في المجتمع لا تستمدُّها من رَجُلِها إذاً ، وإنَّما من أساسياتِ كامنَةٍ في ذاتها ، واستعداداتِ ذهنيَّة متفوقة ، ثم يأتي الدَّعْمُ الاجتماعيُّ والاقتصاديُّ من الأسرة .

* ومهما يكنُ من أمرٍ فإنَّ المرأةَ الجاهليَّة الحرَّة قد عاشتُ للشَّدائدِ أكثرَ ممَّا عاشتُ للترفِ والرِّخاء ، وكانت تحبُّ العملَ ولا تشكو قَسْوَتَهُ ، وكانت ذاتِ إباءٍ وعزَّة وكبرياء ، ومثُلُ خلقيَّة واجتماعيَّة نبيلة ، وترفضُ الضَّيْم والاستكانة ، صريحة القول ، حرَّة التفكير ، تتحمَّلُ المسؤوليَّة ، قويَّة ، وثبتتُ هذه القوة في أبنائها الرِّجال ، وفي بناتها وزوجها ومجتمعها .

(٢) ديوان حاتم الطائي (ص ١٥٠) ، وخزانة الأدب (٨/ ٣٦٩) طبعة بيروت .

* وإذا أحببنا أن نستعرض منزلة فاطمة بنت الخرشب ومكانتها ، لألفيناها ساميةً في غالب الأحيان ، فهي من ذوات الفصاحة واللسان ، والذكاء والحصافة وعزة النفس^(١) ، فقد كان أولادها يستشيرونها في غالب الأحيان ، في السرّ والعلائية ، وفي كثير من أمورهم ، وكثيراً ما كانوا يحتكمون إليها ، كيما يأخذوا برأيها ، ويهتدوا بمآثرها وكلماتها .

* لقد احتلت فاطمة بنت الخرشب مكاناً رفيعاً في سدة نساء القوم ، فقد كانت مدار حياة زوجها زياد بن عبد الله العبسي ، ومكان شرفه ، وحمى وطنه ، وكانت مكانتها ومنزلتها تتناسب مع الخدمات الجليلة التي تؤدّيها وخصوصاً في تربية أولادها على مكارم ومحامد الأخلاق ، ناهيك بالواجبات التي كانت تقوم بها من لسن وشجاعة وفصاحة وعفة وشرف .

* وقد أهلتها هذه الأهمية لأن تكون في مكانة مرموقة محمودة من قبل نساء قومها ، ورجال العشيرة ، ولذا فقد كان أولادها الكملة الأربعة يفخرون بها أشدّ الفخر ، ويموتون دونها لأنها امرأة تستحقّ الثناء والذكر ، فهي صاحبة رأي وإرادة ، وأنفة ورفعة ، وربّت أبناءها على هذه الخصائل حتى شبوا عن الطوق ، وفاقوا غيرهم في حسن الرأي .

* وتذكر المصادر أنها ولدت سبعة من زياد بن عبد الله العبسي ، فعذت العرب المنجيين منهم ثلاثة أو أربعة وهم خيارهم ، ولذلك سئلت فاطمة عن بنيتها مرّات ومرّات ، وكلّ مرة تجيب إجابة كريمة جميلة .

* وسئلت ذات مرّة عن بنيتها^(٢) وعن صفاتهم ، فوصفتهم فكان ممّا

(١) لم يؤثر عن المرأة العربية في العصر الجاهلي استخذاء ، وتخاضع ، وإنّما كانت كالرجل شمماً وإباء واعتزازاً بالكرامة ، واعتداداً بالنفس .

(٢) اشتهر كلّ واحد منهم بميزة لزمته ، وعُرف بها ، وهم يسمّون الكملة ويُقال لقيس =

قَالَتْ فِي الرَّبِيعِ : لَا تُعَدُّ مَآثِرُهُ ، وَلَا يَخْشَى فِي الْجَهْلِ بَوَادِرُهُ .

* وَقَالَتْ فِي أَنْسٍ : إِذَا عَزَمَ أَمْضَى ، وَإِذَا سُئِلَ أَرْضَى ، وَإِذَا قَدِرَ أَغْضَى . . وَقَالَتْ فِي الْآخِرِينَ أَشْيَاءَ لَمْ تُحْفَظْ عَنْهَا^(١) .

قَوَّتْهَا وَحُسْنُ تَدْبِيرِهَا :

* لئن كانت فاطمة بنتُ الخرشب أمَّ المنجيين ، لقد كانت هي نفسها نجيةً حسنةَ التدبير ، قوَّةَ الشَّكِيمَةِ ، كادت تبطش ذات يومَ برجلٍ ، ثمَّ إنَّهَا رَأَتْ أَنْ تَصْفَحَ عَنْهُ لئلا تسوءَ سمعتها بين نسوةِ العرب .

* روتِ المصادِرُ أنَّه قد ضافَ فاطمةَ بنتَ الخرشب ضيفٌ من العربِ ، فطرحَتْ عليه شملةً من خَزٍّ مفعمةً بالمسك والعِطْر ، فلما وجدَ الضَّيفُ رائحةَ المسك ، - وكان الليلُ قد أَرخى سدوله - دنا منها ، فصاحتُ به : ويحك ! فكفَّ عنها .

* ثمَّ إنَّه بعد قليلٍ تحرَّك أيضاً فأرادَهَا عن نفسها ، فصاحتُ به ، فكفَّ ورَجَعَ .

* ثمَّ إنَّه لم يصبر فوائبَهَا ، فبطشتُ بِهِ ، فإذا هي من أشدِّ النَّاسِ ، فقبضتُ عليه قبضةً شديدةً ، ثمَّ صاحَتْ : يَا قَيْسُ ، فَأَتَاهَا ، فَقَالَتْ : يَا بَنِي ، إِنَّ هَذَا أَرَادَنِي عَنْ نَفْسِي ، فَمَا تَرَى فِيهِ ؟ !

* وَفَكَّرَ قَيْسٌ قَلِيلاً ثُمَّ قَالَ : يَا أُمِّي ، أَخِي عِمَارَةُ أَكْبَرُ مِنِّي فَسَلِّهِ عَنِ

= أيضاً: البرد؛ ولأنس: الواقعة ، ولهم ثلاثة إخوة لم يبلغوا مبلغهم من الشهرة وهم: الحارث وهو الحرون ، ومالك وهو لاحق ، وعمرو وهو الدارك .
إذاً ، فأولادُ فاطمة هم: الرَّبِيعُ ، وعِمَارَةُ ، وقَيْسُ ، وَأَنْسُ ، والحارثُ ، ومالكُ ، عمرو ، فهؤلاء سبعةٌ أهمُّ فاطمةً ، وكانوا من نجباء العرب .
(١) عن أعلام النساء (٤٨/٤) باختصار وتصرف .

هذا يخبرك، فنادتُ فاطمةُ: يا عمارة ، فأناها مُسرِعاً ، فذكرتُ ذلك له .
فقال لها: يا أمّاه ، السَّيفُ ؛ ثمَّ أرادَ قَتْلَه .

* وهنا ظهرتُ فاطمةُ في حُكْمَتِها وفروسيّتها الصَّحيحة فقالت:
يا بني ؛ لو دعونا أخاك الرِّبيع ، فهو أكبرُ منك .
فدعتِ الرِّبيعَ فذكرتُ له ذلك .

فقال الرِّبيعُ: أفتطيعونني يا بني زياد؟ .

قالوا: نَعَمْ يا ربيع ، فأنتُ أكبرنا وأعلمنا وأحلُّنا .

قال: إذاً ، فلا تُزئِوا أمَّكم ، ولا تقتلُوا ضيفَكم ، وخلَّوه يذهب إلى
حالِ سبيله ، فامتثل جميعُهم رأيه ، ورأوا فضلَ أمِّهم بذلك ، وعرفوا سَعَةَ
عَقْلِها^(١) .

ولقصة فاطمة مع الضَّيف شكلٌ آخر عند ابن الكلبي عن أبي مسكين ،
واسمه جعفر بن المحرز قال:

* نزلَ بها رجلٌ منَ العربِ ، فأطعمته وسقته وفرشته ، فلما كان في
بعض الليل لم يفجأها ، أو لم تشعرْ به ، إلّا وقد أخذَ برجلِها ، فركضته
برجلِها وقالت: ويحك! مالك؟ قال: مالي والله ، إنَّك أطعمتِ وسقيتِ
وفرشتِ ، فأردتُ أنْ أنالَ منك .

قالت: قم ، فإنَّك أحقُّ .

فقام ، ثم قال في نفسه: لا بدَّ من أن تمتنعَ أولاً .

فقام ، ثمَّ دنا فأخذَ برجلِها .

فقالت: مالك!

(١) انظر: أعلام النِّساء (٤/٤٩) بتصرّف يسير .

قال : هو ذاك .

قالت لجواريتها : خذنه .

فأخذنه ، فشددنه كِتَافاً حَتَّى أَصْبَحَ ، فلما أصبحت - قال : وكان بنوها الأربعة مُطْنِبِينَ حَوْلَهَا ، وكانت إِذَا دَعَتْ رجلاً منهم أَقْبَلَ وبيده السَّيْفَ - بعثت إلى عمارة ، وكان أكبرهم ، فقالت : ما تقولُ في رجلٍ ضافَ أَمَّكَ الليلة فأطعمته وسقته وفرشته ، ثم راودها عن نفسها؟ .

فوثبَ مغضباً إلى الرجل ، فقال : أَقْتُلْهُ .

فقالت : انصرف . فلم يراجعها الكلامَ حَتَّى انصرفَ .

* ثمَّ بعثت إلى قيس ، فقالت له مثل مقالتها لعمارة ، فقال مثل مقالته ، فقالت : انصرف .

* ثمَّ بعثت إلى أنسٍ ، فقالت له مثل مقالتها لأخوته ، فردَّ مثل مقالتهما ، فبعثت إلى الرَّبِيعِ ، وكان أصغرهم ، فقالت له مثل مقالتها لإخوته ، فقال : واللهِ إِنَّكَ لتعلمينَ ما الرَّأيُ فيه .

قالت : وما الرَّأيُ فيه؟ !

قال : الرَّأيُ - والله - أَنْ يُكْسَى ويكرَّم ويحملَ ، فواللهِ لو أصبحَ قتيلاً لقالتِ العربُ : فَجَرَ بِأَمِّهِمْ فقتلوه ، واللهِ ما لنا أختٌ ، ولا ابنةٌ عمٍّ قريبة .

قالت : فديتك ! أنتَ واللهِ الكاملُ ، فمِ إِلَيْهِ فَأَكْسُهُ واحمله واخلُ سبيله .

ففعلَ ، ثمَّ خرجَ حَتَّى أBRَزَهُ مِنَ الْحَيِّ ، فقال : اذهبِ يا مَلَأْمَانُ^(١)

(١) «المَلَأْمَانُ» : اللثيم .

فأخبر العرب ما رأيت من فاطمة بنت الخرشب^(١).

* وقد اكتسب بنوها بفضلها سمعةً عظيمةً عند أكابر القوم وأعلياهم عصر ذاك ، فقد كسبوا ثناء حاتم الطائي الشاعر الفارس الجواد المشهور ، حيث خلع عليهم حُللاً من المعاني السامية ، والكلمات الخالدة التي جعلتهم مع أمهم فاطمة من مشاهير الزمان .

* وقصة ذلك ما رواه هشام بن محمد بن السائب الكلبّي ، عن أبي مسكين قال : جاور حاتم طيء في زمن الفساد - وكانت حربُ الفساد في الجاهلية بين جديلة والغوث - بين زياد بن عبد الله من بني عبس ، فأحسنوا جواره ، فقال :

لَعَمْرِكَ مَا أَضَاعَ بَنُو زِيَادٍ ذِمَارَ أَبِيهِمْ فِيمَنْ يَضِيعُ
بَنُو جَنْيَةٍ وَلَدَتْ سُيُوفاً صَوَارِمَ كُلِّهَا ذَكَرَ صَنِيعُ
وَجَارَتْهُمْ حَصَانٌ مَا تُزْنِي وَطَاعِمَةُ الشُّتَاءِ فَمَا تَجُوعُ
شَرَى وَدِّي وَتَكْرِمَتِي جَمِيعاً لَأَخِرِ غَالِبٍ أَبَدًا رِيْعُ^(٢)

(١) ديوان حاتم الطائي (ص ١٥١ و ١٥٢).

(٢) انظر : ديوان حاتم (ص ١٤٧ و ١٤٨) . و«بنو جنّة» : كانت العرب إذا بالغت في الصفة بالشّهامة أو بالحُسن جعلته من الجنّ ، كأنّه خارجٌ عن حدّ الآدميين . وقال التبريزي : ويروى بنو حنية : الحنّ : قبيلة من الجنّ ، وبنو حنّ : حيّ من قُضاعة ، وهو حنّ بن درّاج ، من أحوال قصي بن كلاب ، وكما جعل الأمّ جنية لخروجها فيما أتت به عن المعتاد من الإنس جعل الأولاد سُيُوفاً قواطع كلهم . و«الصنيع» : السيف الصّقيل المجرب . و«جارتهم» : قال ابن الكلبّي : جارتهم يعني أمهم . و«حصان» : عفيفة ما تُقَدَّفُ بالزنى . و«شَرَى ودي» : اشترى ودي . وشريت الشيء : بمعنى اشتريت وبعثت جميعاً . و«لآخر غالب» ، مَنْ يَبْقَى من عقبهم ، وغالب بن قطيعة بن عبس .

حَسْبُكَ مِنْ شَرِّ سَمَاعُهُ:

* إِذَا ذُكِرَتِ النِّسَاءُ الْفَصِيحَاتُ ذَوَاتِ الْبَلَاغَةِ وَالْخَطَابِ ، فَإِنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْخُرَشْبِ الْأَنْمَارِيَّةِ وَاحِدَةً مِمَّنْ ذُلَّتْ لَهَا قُطُوفُ الْبَلَاغَةِ تَذْلِيلًا ، وَوَاحِدَةٌ مِنْ رَبَّاتِ الْفَصَاحَةِ وَضُرِبِ الْأَمْثَالِ ؛ فَقَدْ كَانَ لَهَا كَلِمَاتٌ سَائِرَاتٌ فِي النِّسَاءِ مَجْرَى الْأَمْثَالِ ، وَقَدْ قَالَتْ قَبْلَ مَوْتِهَا بِلَحْظَاتٍ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ أَرْسَلَتْهَا مَثَلًا وَهِيَ : حَسْبُكَ مِنْ شَرِّ سَمَاعُهُ ^(١) .

* قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : أَخْبَرَنِي هِشَامُ بْنُ الْكَلْبِيِّ أَنَّ الْمَثَلَ لِأُمِّ الرَّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ الْعَبْسِيِّ ، وَذَلِكَ أَنَّ ابْنَهَا الرَّبِيعَ كَانَ أَخَذَ مِنْ قَيْسِ بْنِ زَهِيرِ بْنِ جَذِيمَةَ دَرْعًا ، فَعَرَضَ قَيْسٌ لِأُمِّ الرَّبِيعِ وَهِيَ عَلَى رَاكِئَتِهَا فِي مَسِيرٍ لَهَا ، فَأَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ بِهَا لِيَرْتَهَنَهَا بِالْدَّرْعِ .

فَقَالَتْ لَهُ : أَيْنَ عَزَبَ عَنْكَ عَقْلُكَ يَا قَيْسُ ؟ أَتَرَى بَنِي زِيَادٍ مُصَالِحِينَ وَقَدْ ذَهَبَتْ بِأَمَّتِهِمْ يَمِينًا وَشِمَالًا ؟ ! وَقَالَ النَّاسُ مَا قَالُوا وَشَاؤُوا ؟ وَإِنَّ حَسْبُكَ مِنْ شَرِّ سَمَاعِهِ ؛ فَذَهَبَتْ كَلِمَتُهَا مَثَلًا ^(٢) . تَقُولُ : كَفَى بِالْمَقَالَةِ عَارًا وَإِنْ كَانَ

(١) الْمَعْنَى : اكْتَفَى مِنَ الشَّرِّ بِسَمَاعِهِ ، وَلَا تُعَايِنُهُ ، أَوْ يَكْفِيكَ سَمَاعُ الشَّرِّ ، وَإِنْ لَمْ تُقَدِّمْ عَلَيْهِ ، وَلَمْ تُنْسَبْ إِلَيْهِ ، وَهَذَا الْمَثَلُ يُضْرَبُ عِنْدَ الْعَرَبِ ، وَالْمَقَالَةُ السَّيِّئَةُ ، وَمَا يُخَافُ مِنْهَا .

(٢) نَلْحِظُ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مَسْعَى الْمَرْأَةِ الْإِيجَابِيَّ لِلسَّلَامِ وَقَطْعَ دَابِرِ الْخُصُومَةِ وَالْعَدَاءِ بِالْمَنْطِقِ وَالْكَلِمَةِ ، وَلَا حِظْنَا كَيْفَ اسْتَحْيَا قَيْسٌ وَتَرَكَهَا . وَمِنْ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَنَّ قَيْسَ بْنَ زَهِيرٍ كَانَ زَوْجًا لِابْنَةِ الرَّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ ، وَقَدْ ظَهَرَ مِنْ ذِكَاةِ الْجُمَانَةِ بِنْتُ قَيْسٍ وَحُبُّهَا لِلسَّلَامِ ، مَا سَجَلَتْهُ لَهَا يَدُ التَّارِيخِ بِأَحْرَفِ كِبَارٍ وَاضِحَةٍ .

فَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ انْطَلَقَتِ الْجُمَانَةُ بِنْتُ قَيْسِ بْنِ زَهِيرٍ إِلَى جَدِّهَا أَبِي أُمِّهَا الرَّبِيعِ بْنِ زِيَادٍ بَعْدَ أَنْ اسْتَأْذَنْتْ أَبَاهَا وَقَالَتْ لَهُ : دَعْنِي أَنْظِرَ جَدِّي ، فَإِنْ صَلَحَ الْأَمْرُ بَيْنَكُمَا ، وَإِلَّا كُنْتُ مِنْ وَرَاءِ رَأْيِكَ ، فَأَذِنَ لَهَا ، فَاتَتْ جَدَّهَا الرَّبِيعَ فَقَالَتْ لَهُ : إِذَا كَانَ قَيْسُ =

باطلاً ، فعرفَ قيسُ بنُ زهير ما قالتْ له ، فخلّى سبيلَها ، وأطردَ إبلاً لبني زياد ، فقدمَ بها مَكَّةَ فباعَها من عبد الله بنِ جُدعانَ معاوضةً بأدراعٍ وسيوف^(١) .

* وقالت بعضُ النساءِ الشَّواعر ، وهي عاتكةُ بنتُ عبد المطلب :

سَائِلُ بَنِي قَوْمِنَا وليكفِ مِنْ شَرِّ سَمَاعِهِ^(٢)

* ولكنَّ الأصفهاني يزعمُ أنَّ فاطمةَ لم تقبلِ الدَّيَّةَ والعارَ ، فقذفتْ بنفسِها من على ظَهْرِ البعيرِ وماتتْ .

* فقد أوردَ الأصفهاني أنَّه في يومٍ أغارَ حَمَلُ بنُ بَدْرِ الفزاريّ على بني عَبَسَ ، وهي القبيلةُ التي تنتهي إليها فاطمةُ ، فأسرَها ، فلما أخذَ بخطامِ البعيرِ ، وابتعدَ بها عن الحيِّ وأهله ، صاحَتْ به ، وطلبتْ منه تركها ، لأنَّ النَّاسَ سيقولون في هذهِ الحال ما شاؤوا؛ فردَّ عليها: إنِّي أذهبُ بك حتَّى ترعي إبلي . فلما أيقنت أنَّه ذاهبٌ بها ، رمَتْ بنفسِها على رأسِها من

= أبي فإنَّكَ يا ربَّيعُ جدِّي ، وما يجبُ له من حقِّ الأبوةِ عليّ كالذي يجبُ عليك من حقِّ البنوةِ لي ، والرَّأيُ الصَّريحُ تبعثُهُ العنايةُ وتجلّي عن محضهِ النِّصيحةِ ، إنَّكَ ظلمتَ قيساً بأخذِ دِرْعِهِ وأجدُ مكافأتهِ إيَّاكَ سوءَ عزمِهِ ، والمعارضُ منتصرٌ ، والبادي أظلمُ ، وليس قيسٌ بمن يخوفُ بالوعيدِ ، ولا يروعه التَّهديدُ ، فلا تركنْ إلى منابذتهِ ، فالحزمُ في متاركتِهِ ، والحربُ متلفَةٌ للعبادِ ، ذهابٌ بالطَّارِفِ والتَّلاذِ ، والسَّلمُ أرخى للبالِ ، وأبقى لأنفسِ الرِّجالِ ، وبحقِّ أقول: لقد صدعتُ بحكمٍ وما يدفعُ قولِي إلا غيرُ ذي فَهمٍ ، ثمَّ قالت :

أبي لا يَرى أن يتركَ الدَّهْرُ دِرْعَهُ وجدِّي يرى أن يأخذَ الدَّرْعَ من أبي
فرأيَ أبي رأيَ البخیلِ بمالِهِ وشيمَةُ جدِّي شيمَةُ الخائفِ الأبِّي
فرقٌ جدُّها ، وردَّ الدَّرْعَ إلى أبيها وتصافيا . (بلاغات النساء ص ١٢٥)

(١) خزانة الأدب (٣٦٨/٨) ، وجمهرة الأمثال (٢٧٩/١) .

(٢) مجمع الأمثال (٣٤٦/١) ، وأعلام النساء (٥٠/٤) مع الجمع .

البعير ، فماتت خوفاً من أن يلحقَ ببنيتها عارٌ فيها^(١) .

* وهكذا كانت فاطمة بنتُ الخرشب شجاعةً حتى آخر لحظةٍ من حياتها ، وبذلك رسّمت لكلّ النساء من بعدها طريقَ العفةِ والكرامةِ والشجاعةِ . . .

* * *

(١) الأغاني (٢١ / ١٦) بتصرف يسير . وعلى الرغم من المعاملة المثلّية التي قد يطبقها الأسر على أسيرته ، فإنّ السّبي يبقى عاراً على المرأة وقبيلتها ، ولذا فإنّها إذا كانت مشاركة في القتال تسعى للفرار إذا اتّضح لها انهزام قومها حتى لا تقع سبيّاً ، وإذا ما وقعت فإنّها كانت تبذلُ كلّ ما في وسعها من حيل للخلاص مما هي فيه ، ولا سيما إذا كانت وفيّة مخلصّة لقبيلتها وأسرتها ، بل إنّ بعضهن كنّ يفضلن الموت على السّبي ، كما فعلت فاطمة بنت الخرشب .

ليلى بنت طريف

- * من نساء الخوارج الشراة ، الصابرات على حرّ النزال.
- * شُجاعة ، شاعرة ، رثت أخاها الوليد بن طريف بعد مقتله.
- * قادت جيشاً ضد خصومها بعد مقتل أخيها.

مِنْ فَارِسَاتٍ عَصَرَهَا :

* هذه المرأة نشأت والفروسيّة في قرْنٍ واحدٍ ، وكانت من نساء العرب في العصر العبّاسي ، اللواتي لم يدعْنَ للرجال خلّةً من خلال الفضائل يستأثرن بها من دونهنّ ، ولم يتركنَ سبيلاً من سُبُلِ العِظائم ، ولا مشرفاً من مشارفِ المكارم ، إلا كُنَّ السّابقات له ، المبادرات إلى غايته ، حتى لقد جاذبن الرّجال حبل البسالة والفروسيّة والبطولة ، واصطلينَ نيرانَ الحرب ، وكُنَّ ممن ملكنَ عنانها في بعضِ الأحيان والأوقات .

* ولقد عُرفت في تاريخنا نساءً غشينَ الحرب ، وانتضينَ الشّيوف ، وخضنَ المعامع ، وأظهرنَ من مكنونِ بطولاتهنّ الأعاجيب ، عندما رجفت قلوبُ بعضِ الرّجال من هولِ المعاركِ وشدةِ الوقائعِ وشراسةِ الحروبِ .

وها نحنُ أولاءِ اليوم نعيشُ أويقاتٍ حلوةً مع فارسةٍ من فارساتِ العرب الشّهيرات ، وامرأةٍ من نساءِ العرب المحارباتِ ، خطّت اسمها بسيفها بين الفرسان ، إنّها ليلى بنتُ طريف الشّيبانية^(١) ، أختُ الفارسِ البطلِ القائدِ الثّائرِ الوليدِ بنِ طريف الشّيباني الخارجي .

(١) وفيات الأعيان (٣٢/٦ - ٣٤) ، وديوان الخنساء (ص ١٧٣ و ١٧٤) طبعة دار التراث بيروت (١٩٦٨ م) ، والحماسة البصرية (٩٧/٢) ، وقطوف الريحان (ص ٢٤٨ - ٢٥١) ، وحماسة البحري (ص ٤٣) ، وسمط اللّالي (٩١٣/٢) ، ومعاهد التنصيص (١٦٣/٣) ، وشاعرات العرب (ص ٣٧٤ - ٣٧٧) ، وشذرات الذهب (٣٤٩/٢) ، ومراة الجنان (٣٨٥/١) ، وأعلام النساء (٣١٨/٤ - ٣٢٠) ، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٤٧٩ و ٤٨٠) ، والمرأة العربية في جاهليتها وإسلامها (١١٨/٢ و ١١٩) . والعقد الفريد (٢٦٩/٣) ، وكتاب الصناعتين (ص ١٦٥) ، والأغاني (١١٣/١٢ - ١١٧ و ١٢١) وحماسة البحري (ص ٢٧٦ و ٢٧٧) ، وديوان الخنساء (ص ١٧٣ و ١٧٤) .

* وليلى بنت طريف هذه تسمى الفارعة ، وقيل فاطمة ، وقيل سلمى بنت طريف بن عامر ، بيد أن ليلي أشهر الأسماء في المصادر المعتمدة^(١).

* ولم تكن نشأة ليلي مثل نشأة الفتيات اللواتي عشن في ظل البيوت ، وتنعمن بالدياج والحلي والحلل ، وتضمخن بفتيت المسك ، وكُنْ نؤومات الضحى ، بل كانت واحدة من البنات والنساء اللواتي عشن ممتطيات صهوات الجياد ، وممن لبسن الدرع ، وشهرن السيوف ، وحملن عوالي الرماح ، وهن غير هيئات ولا وجلات ولا رعديدات.

* وكانت ليلي من نساء الخوارج الشراة ، والخوارج كما هو معروف في التواريخ من أعظم الأحزاب - التي ظهرت في القرن الهجري الأول - شهرةً بالبأس وشدة الصبر على حرّ النزال ، وفداء العقيدة بكل شيء ، وأول فداء عندهم فداء النفس ، لذلك كانت بطولاتهم مثار الإعجاب ومبعث التقدير على الرغم من فساد آرائهم ومذهبهم.

* وكانت نساء الخوارج يتشبهن برجالهن في مجال الشجاعة والفروسيّة ، وكُنْ يشتركن في الحروب ، ويقاتلن ويدافعن دون وجل أو خوف ، بل كانت بعضهن تبيع حليها وتشتري السلاح كي تقاتل به أعداءها ، وتدافع به عن عقيدتها ، وتفخر بذلك على بنات جنسها.

* ومن المثير حقاً أن نجد بعض النساء الخارجيات يبعن ما يملكه من ذهب وأساور ، ومن ثم يشترين سيفاً ويتدربن على فنون القتال ، وأنت تعلم - عزيزي القارئ - مكانة الحلي والذهب عند النساء ، وأنه عندهن من أغلى الأشياء ، ولكننا نجد مريم امرأة أبي حمزة الخارجي والتي

(١) الحماسة البصرية (٢/٩٧).

اشتهرت بلقبِ الجُدَيْعَاءِ تَبِعُ سَوَارِيهَا ، وَتَشْتَرِي سَيْفًا عَضْبًا تَدَافِعُ فِيهِ عَنْ عَقِيدَتِهَا ، فَاسْمَعُ إِلَى الْجَدِيعَاءِ تَرْتَجِزُ وَتَقُولُ وَتَفْتَحُرُ بِمَا صَنَعَتْ :

أَنَا الْجُدَيْعَاءُ وَبُنْتُ الْأَعْلَمَ مَنْ سَأَلَ عَنْ اسْمِي فَاسْمِي مَرِيَمُ
بِعْتُ سَوَارِيَّ بِعَضْبٍ مَخْذَمٍ

* ولهذه الأسباب كان عبيدُ الله بنُ زياد شديدَ الغيظِ منهم ، كثيرَ الحنقِ عليهن ، لأنَّهنَّ كنَّ يلهينَ قلوبَ الرجالِ ، ويزرعنَ الحماسَ في نفوسِ الأبطالِ ، فتزدادُ شجاعتهم وتزدادُ جرأتهم ، ويجتهدون في قتالهم ، لذلك أقسم ابنُ زياد بأغلظِ الأيمان لئن سمعَ بخارجيةٍ أو ظفرَ بها ، لينزلنَّ بها أشدَّ العذابِ ، وليجعلنها عبرةً لغيرها ممن تسوَّلُ لهنَّ نفوسهنَّ بالحماسة والقتال .

* وكانت من المجتهديات من الخوارج امرأة تدعى البلجاء^(١) ، وكان أمرها قد نُمي إلى ابنِ زياد ، وعُرفَ أنَّها على رأي كبارِ الخوارج وكبارهم ، وأنها بلغت مبلغاً عظيماً في علمهم ، كما بلغه أنَّها تؤدُّ الجهادَ في صفوفهم ، فعزمَ على قتلها .

* وعلمَ بذلك مرداسُ بنُ حدير أبو بلال - وكانتِ الخوارجُ تعظمُهُ ، وكان مجتهداً كثيرَ الصَّوابِ في لفظه - ، فانطلقَ إلى البلجاءِ وقصَّ عليها القصصَ وقال : يا هذه ، استتري ، فإنَّ ابنَ زياد قد ذكرَكَ ، ولا آمنُ عليك من بطشه ، فاخرجي إنِّي لك من الناصحين .

* ولكنَّ هذه المرأة العنيدة الثَّابتة التي لا تخافُ زياداً ولا أباه ،

(١) «البلجاء» : الأبلجُ من الرجال : الذي ليسَ بمقرونِ الحاجبين ، والمرأةُ بلجاء ، وقال ابنُ الأعرابي : البلجُ : ايضاضُ ما بينَ الحاجبين ونقاؤه ؛ رجلٌ أبلجٌ ، وامرأةٌ بلجاء ، والاسم : البُلجَّة .

ولا أحداً قالت له في ثباتٍ وغرارٍ ورباطةٍ جأشٍ: والله يا أبا بلال ، ما أحبُّ أن يُعَنَّتَ إنسانٌ بسببي ، فإنْ يأخذني ابن زياد فهو أشقى له .

* وبعثَ عبيدُ الله بن زياد فأتني بالبلجاء ، فوجدَها أشدَّ ثباتاً من الرجال ، ولم تأبُه به ولا بمن حوله ، فاستشاطَ غيظاً ، ففطعَ يديها ورجليها ، ورمى بها في السُّوق^(١) .

* وممن سجَّلَ التاريخُ النَّسوي بطولاتِها غزاةَ الحروريةِ وحمايتها أمُّ شبيب بن يزيد الشَّيباني ، ومن غرائبِ التَّاريخ أن تجتمعَ الحماةُ والكِنَّةُ على رأي ، وكان لهما تين المراتين غنائٌ وبلاءٌ في حروبِ الصُّفريَّة ومعارِكهم .
لَيْلَى وَأُخُوها الْوَلِيدُ :

* تدلُّ أخبارُ ليلَى بنت طريف الشَّيبانيَّة التي وصلتْ إلينا - على الرِّغم من ندرتها - أنَّها كانت منَ الفروسيَّة على جانبٍ عظيم ، وكانت تركبُ الخيلَ وتقاتلُ وعليها الدَّرع والمُغْفَرُ ؛ ويبدو أنَّها تعلَّمت ألوانَ الفروسيَّة من أخيها الوليد بن طريف فارسِ الخوارج ، فقد كان أخوها الوليدُ بقيَّة أبطالِ الخوارج الذين خرجوا على الخُلفاء ، وروَّعوا جندهم ، وحطَّموا كتائبهم ، واستشرى خَطَرُهم .

* وتحكي الأخبارُ أنَّ الوليدَ بنَ طريف الشَّاري^(٢) كان أحدَ الشُّجعانِ الطُّغاةِ الأبطالِ ، وأحدَ الفرسانِ المارقين على هارون الرَّشيد ، وكان رأسَ الخوارج ورؤسَهم ، وكان مقيماً بنصيبينَ والخابور^(٣) ، وتلك النِّواحي ،

(١) انظر الكامل (١١٧٣/٣ و ١١٧٤) بشيء من التصرف .

(٢) «الشَّاري»: بفتح الشَّين ، هو واحدُ الشُّراة ، وهمُ الخوارجُ ، وإنَّما سُمُّوا بذلك لقولهم : إِنَّا شَرِينَا أَنْفُسَنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، أَيِ بَعَانَهَا بِالْجَنَّةِ حِينَ فَارَقْنَا الْأُئِمَّةَ الْجَائِرَةَ . (وفيات الأعيان ٦/٣٤) .

(٣) «الخابور»: نهرٌ معروفٌ ، أوَّلُه منَ رأسِ عَيْن ، وآخرُه عند قَرَقِيسِيَا ، يصبُّ في =

وبغى بغياً شديداً ، وجمع كثيراً من الناس حوله ، حتى أخاف تلك البقاع والأصقاع ، وخيف شره ، بحيث كان سكان ضواحي بغداد لا يأمنون نزوله إليهم وغاراته عليهم .

* قال الأصفهاني في «أغانيه»: كان الوليد بن طريف الشيباني رأس الخوارج ، وأشدّهم بأساً وصولاً وأشجعهم ، فكان من الشماسية^(١) لا يأمن طروقه إياه ، واشتدّت شوكته وطالت أيامه^(٢) .

* وكانت ليلى - على ما يظهر لي - ترافق أخاها الوليد في حروبه وغاراته ، وتقتبس من أفعاله وفروسيته ، وتحاكبه في ذلك حتى غدت ممن يُشهد لها بالشجاعة والإقدام في ميدان الجلال والنزال .

* وخرج الوليد على هارون الرشيد ، وأمعن في جنده فتكاً وقتلاً ، وكلّما أرسل إليه الرشيد فرقة وجنوداً ، شتّتهم الوليد ، وجعلهم كأمس الدّابر ، وكانوا أمامه كأكلة الرأس ، حتى أعيأ الرشيد أمره ، وبات منه على قلقٍ عظيم ، فالوليد قريب من مقرّ الخلافة العباسية ، وقد التفّ حوله خلقٌ عظيم ، فقد عرّف الوليد بأنه من أشدّ الفرسان بأساً وصولاً .

* واشتدّت شوكة الوليد بن طريف ، وطالت أيامه ، وكثر أعوانه ، فوجّه إليه موسى بن حازم التميمي ، فلم يثبت أمام الوليد بل هزمه وقتله ،

= الفرات ، وعلى هذا النهر مدُنٌ صغارٌ تشبه الكبار في عمارة بلادها ، وفي أسواقها ، وكثرة خيراتها .

(١) «الشماسية»: منسوبة إلى بعض شمّاسي النصارى ، وهي مجاورة لدار الرّوم التي في أعلى مدينة بغداد ، وإليها يُنسب بابُ الشماسية ، وفيها كانت دار معزّ الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه ، وفرغ منها في سنة (٣٠٥ هـ) (معجم البلدان ٣/ ٣٦١) باختصار .

(٢) الأغاني (١٢/ ١١٥) .

وشتّت جنوده ، فرجعوا وهم يرتجفون من شدة ما لا قوة في بلاد الجزيرة
من صولة وهيبة الوليد .

* وعندها طار صيْتُ الوليد في الآفاق ، وكثرت جموعه ، وظهر
ظهوراً كبيراً ، فوجّه إليه الرشيدُ أحدَ الأشدّاء الأبطال ، وأحدَ الفرسان
الشّجعان وهو مُعَمَّرُ بنُ يحيى العبديّ ، فسارَ حتى بلغَ بجنوده نصيبين ،
وتلك النّواحي ، ونازلَ الوليد ، وكانت بينهما وقائعُ كثيرة في ناحية دارا^(١)
من ديارِ ربيعة ؛ ولكن معمر لم يفلح هو الآخر في القضاء على شوكة الوليد
بن طريف وأعوانه .

* واستشرى خطرُ الوليد ، وعظُم أمرُهُ ، وكثُر شرُّهُ ، وعندها عجمَ
الرشيدُ عيدانه ، فوجدَ أنَّ أصلبها عُوداً ، وأمرّها مذاقاً الأعرابيَّ يزيدَ بنَ
مزيد الشّيباني ، فقال : ليس لها إلا هذا الأعرابي يزيد ، فرمى الوليد بهذا
الفارسي والقائدِ العملاق ، فسارَ إليه يزيدُ ، و كان الوليدُ قد تسمّى بأمرير
المؤمنين^(٢) ، فظهرَ عليه يزيدُ ، وقتلَهُ بالخابور أيامَ الرشيد .

وذكرَ الأصفهاني قصةَ مقتلِ الوليد وكيف قتله يزيد فقال : فوجّه إليه
الرشيدُ يزيدَ بنَ مزيد الشّيباني ، فجعل يقاتله ويمكرهُ ، وكانت البرامكةُ
منحرفةً عن يزيد بن مزيد ، فأغروا به أميرَ المؤمنين ، وقالوا : إنّما يتجافى
عنه للرّحم ، وإلاّ فشوكةُ الوليدِ يسيرة ، وهو يواعده وينتظرُ ما يكون من

(١) «دارا» : بلدةٌ في لحفِ جبلٍ بينَ نصيبين ومادريّن ، وهي من بلادِ الجزيرة ، ذات
بساتين ومياه جارية ، وعندها كانَ معسكرُ دارا بين دارا الملك بن قباذ الملك لما
بقي الإسكندرُ المقدوني فقتله الإسكندر ، وتزوَّج ابنته ، وبنى في موضعٍ معسكره
هذه المدينةَ وسَمّاها باسمه .

(معجم البلدان : دارا) .

(٢) سمط اللّالي (٩١٣/٢) ، وكان الوليد ينشد ويقول ليزيد :
ستعلم يا يزيد إذا التقينا شطّ الزاب أي فتى تكونُ

أمره . فوجه إليه الرّشيد بكتابٍ مغضبٍ يقول فيه : لو وجّهت بأحد الخدم لقام بأكثر ممّا تقومُ به ، ولكنكّ مداهنٌ متعصّبٌ ، وأميرُ المؤمنين يقسمُ بالله لئن أخرجتَ مناجزةَ الوليدِ ليوجّهنَّ إليك مَنْ يحملُ رأسك إلى أميرِ المؤمنين .

* فلقِيَ الوليدَ عشيةَ خميس في شهرِ رمضانَ ، فيقال : إنّ يزيدَ جُهدَ عطشاً حتى رمى بخاتمه في فيه ، فجعلَ يلوكة ويقولُ : اللهم إنّها شدّةٌ شديدةٌ فاستُرْها ؛ وقال لأصحابه : فداكم أبي وأمي ، إنّما هي الخوارجُ ولهم حَمْلَةٌ ، فاثبتوا لهم تحتَ التّراس^(١) ، فإذا انقضتْ حملتُهم فاحملوا ؛ فإنّهم إذا انهزموا لم يرجعوا . فكان كما قالَ ، حملوا حملةً وثبتَ يزيدُ ومن معه من عشيرته وأصحابه ، ثمّ حملَ عليهم فانكشفوا .

* ويُقال إنّ أسدَ بنَ يزيدَ كان شبيهاً بأبيه جدّاً ، وكان لا يفصلُ بينهما إلا المتأملُ ؛ واتّبع يزيدُ الوليدَ بنَ طريفٍ فلحقه بعد مسافةٍ بعيدةٍ فأخذَ رأسه ، وكان الوليدُ خرجَ إليهم حيثُ خرجَ وهو يقولُ :
أنا الوليدُ بنُ طريفِ الشّاري قسورةٌ لا يُصْطَلَى بناي
جوركمُ أخرجني من داري^(٢)

* وذكروا أنّ يزيدَ بنَ يزيدَ لما اصطفَ الجيشانَ بارزَ الوليدَ ، وتطاردا ساعةً ، وكلّ واحدٍ منهما يظهرُ من بسالتهِ وثباتهِ وألوانِ فروسيّتهِ ما حيّرَ الجيشانَ والفُرسانَ والشُّجعانَ ، ومضى على تشابكهما ساعاتٌ من النّهار ، إلى أن سنحتْ ليزيدَ فرصةٌ من الوليدِ ، فضربَ رجله فسقطَ ، ونادى يزيدُ أصحابه ، فجاءوا مسرعين ، وأجهّزوا على الوليدِ واحترّوا رأسه .

ويروى أنّ جيشَ الوليدِ قد انكسرَ ، وانهزمَ أمامَ جيوشِ يزيدَ بنِ يزيدَ ،

(١) «التّراس» : جنعُ تُرسٍ بالضمّ ، وهو صفحةٌ من الفولاذِ مستديرةٌ ، تُحملُ للوقايةِ من السّيفِ ونحوه . والتّترُسُ : التّسَرُّ بالتّرس . (لسان العرب ٦ / ٣٢) .

(٢) الأغاني (١٢ / ١١٥ و ١١٦) .

فانهزم الوليدُ ، وتبعه يزيدُ بنفسِه حتّى لحقَهُ على مسافةٍ بعيدةٍ فقتله ، وأخذَ رأسَه ، وأرسله إلى الرّشيدِ ، ومعه كتابُ الفتح ، والنّصرِ على الخوارجِ ، فسَرَّ الرّشيدُ بذلك سُروراً عظيماً ، وأحسنَ إلى الفارسِ البطلِ يزيدَ بنِ مزيدٍ بعد رجوعه وأكرمه^(١) .

* وكان مقتلُ الوليدِ بنِ طريفٍ في سنة (١٧٩ هـ) في خلافةِ هارون الرّشيد .

* ولكنْ ما حال أخته ليلَى بنتِ طريف ، وأينَ كانت عند مقتل أخيها؟! هذا ما ستجْلوه لنا السُّطور الثّاليات ؛ حيث نعرفُ أنباءَ بطولتها وأخبارِها .

لَيْلَى وَقِيَادَةُ الْجَيْشِ :

* كَانَ الرّجَالُ والفرسانُ وما يزالون في غابرِ العُصور ، وفي كلّ أُمَّةٍ ينهضون بأعباءِ الحروب ، ولقاءِ الصّناديدِ ، وهم يحملون أرواحهم على راحتهم ، ويلقون بها في مهاوي الرّدى بين أشفارِ السُّيوف وأسنّةِ الرّماح .

* وكان المعروفُ والمتعارفُ عليه عندَ العربِ المحاربين أنّه قد كُتِبَ القتلُ والقتالُ على الرّجال ، وعلى الغانيات وربّات الحجالِ جرّ الذّيول ، فإنْ شاركنَ في الحربِ ، فإنّما يقمنَ بما تطيقهُ الأنثى من تحميسِ الرّجال وبذرِ الإقدامِ في نفوسهم ، وتضميدِ جراحاتهم ، وإطعامهم وسقايتهم وتقديم ما يحتاجونه في حربهم .

* ولكنّ بعضَ النّساء قد خَرَجْنَ عن هذه القاعدة ، وحاربنَ كما يحاربُ الرّجال ، بل أدرنَ قطبَ الحربِ أحياناً ، وكُنَّ القائداتِ لجيشٍ كثيفٍ مِنَ الفرسان .

(١) انظر: وفيات الأعيان (٣٣/٦) و(٣٢٨/٦ و٣٢٩) بتصرف يسير .

* وهذا ما كان من فارسة الخارجيات ليلي بنت طريف ، فقد كانت ليلي ذات همّة كبيرة ، فبعد أن قُتِلَ أخوها الوليد سنة (١٧٩ هـ) خلفته على قيادة جنده ، ثمّ إنّها صَبَحَتِ القومَ في اليومِ التّالي وعلى جَسَدِها الدَّرْعُ ، ولأَمّةُ الحربِ ، وعدّةُ حربها كاملة^(١) ، وكانت من الفروسيّة على جانبٍ عظيم ، وجعلتْ تحملُ بجندِ أخيها على جندِ الرّشيد ، وأطبقتْ عليهم حتّى خلعتْ قلوبهم ، ومزّقتْ أوصالهم ، وأظهرتْ من شجاعَتِها ومن فروسيّتها ما أدهشَ القومَ وقالوا: إنّ الوليدَ بنَ طريف قد قُتِلَ أمسٍ وانقبرَ ، وليست هذه إلا أخته ليلي ، لأنّ فعلها بفعله أشبه ، وهي تشابهه بالفروسيّة ، وشدة البأس! . . .

* وكادَ الوهنُ يدبُّ في جيشِ يزيدَ بنِ يزيد ، حتّى إذا أبصرَ ذلك ، وتأكدَ من أنّها ليلي ، صاحَ بجنوده وقال لهم: اتركوها .

* ثمّ إنّ يزيدَ بنَ يزيد خرجَ إليها ، فضربَ بالرّمح مؤخّرة فرسها ، وقال: اغرُبي غرَبَ الله عينك ، فقد فضحتِ العشيرة^(٢) ، فاستحيّت ليلي وانصرفتْ ، ونفسها تسيلُ حسراتٍ على أخيها الذي جندله يزيد بن يزيد الشّيباني ، وجعله كأَمْسِ الدّابر^(٣) .

* وقد سجّلَ هذا الانتصارَ ليزيد على الوليدِ مسلمُ بنُ الوليد صريع الغواني فقال من قصيدةٍ لامية مشهورة منها:

يفترُّ عندَ افتتارِ الحربِ مَبْتَسِماً إذا تغيّرَ وجهُ الفارسِ البَطَلِ

(١) قال الأصفهاني: فلما وقعَ فيهم السّيف ، وأخذَ رأسُ الوليد ، صَبَحَتهم أخته ليلي بنتُ طريف مستعدةً عليها الدَّرْعُ والجوشنُ ، فجعلتْ تحملُ على النَّاسِ فَعُرَفَتْ ، فقال يزيدُ: دعوها . . ثمّ خرجَ إليها . . . (الأغاني ١١٦/١٢).

(٢) يريدُ عشيرةَ بنى شيبان التي ينتسبُ إليها كلّ من يزيد والوليد والفارعة .

(٣) انظر: وفيات الأعيان (٦/٣٣) ، والدر المثور (ص ٤٧٩) مع الجمع والتصرف .

يَكْسُو السُّيُوفَ رُؤُوسَ النَّاكِثِينَ بِهِ
اسْلَمْ يَزِيدُ فَمَا فِي الْمُلْكِ مِنْ أَوْدٍ
لَوْلَا دَفَاعُكَ بِأَسْرِ الرُّومِ إِذْ مَكَرْتُ
وَالْمَارِقُ ابْنُ طَرِيفٍ قَدْ دَلَفَتْ لَهُ
لَوْ أَنَّ غَيْرَ شَرِيكِي أَطَافَ بِهِ
مَا كَانَ جَمْعُهُمْ لَمَا دَلَفَتْ لَهُمْ
وَيَجْعَلُ الْهَامَ تِيجَانَ الْقَنَا الدُّبْلِ
إِذَا سَلِمْتَ وَلَا فِي الدِّينِ مِنْ خَلَلٍ
عَنْ بِيضَةِ الدِّينِ لَمْ تَأْمَنْ مِنَ الثَّكَلِ
بِعَارِضٍ لِلْمَنَايَا مُسْبِلِ هَطَلٍ
فَازَ الْوَلِيدُ بِقَدْحِ النَّاضِلِ الْخَصْلِ
إِلَّا كَمَثَلِ جَرَادٍ رِيْعٍ مَنْجَفَلٍ^(١)

* وعادتُ ليلِي إلى خَدْرِهَا ، وأقامتُ بعدَ ذلكَ بِنَجْوَةٍ عَنِ الْعَيُونِ تَبْكِي
أَخَاهَا الْوَلِيدَ بِمَرَاثٍ تَسْتَنْزِفُ الْعَبْرَاتِ ، وَتَسْتَثِيرُ الرَّفْرَاتِ ، وَتَرَكْتَ عِدَّةَ الْحَرْبِ
وَالْفُرُوسِيَّةِ ، وَرَكَنْتَ إِلَى أَنْفَاسِ أَشْعَارِهَا لَعَلَّهَا تَجِدُ فِيهَا سَلْوَةً عَنْ أَخِيهَا .

* وَلَكِنْ مَا مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ اشْتِرَاكَ لَيْلَى بِنْتَ طَرِيفِ الشَّيْبَانِيَةِ فِي
الْحَرْبِ ، وَقِتَالِهَا جُنُودَ الرَّشِيدِ بِقِيَادَةِ فَارِسِ الْأَبْطَالِ الشَّدَادِ يَزِيدَ بْنِ مَزِيدَ ،
لَدَلِيلٍ عَلَى شَجَاعَتِهَا ، وَتَشَوُّقِهَا إِلَى انْتِصَارِ جَمَاعَتِهَا ، كَمَا أَنَّ ذَلِكَ لَدَلِيلٌ
عَلَى سَمَوِّ مَكَانَتِهَا بَيْنَ الْفُرْسَانِ ، فَهِيَ جَدِيرَةٌ بِأَنْ تَشَارَكَ الرِّجَالُ فِي كَسْبِ
النَّصْرِ ، وَالِدَّفَاعِ عَنْ عَقِيدَتِهَا ، وَلَوْ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ جَدِيرَةً بِالمُشَارَكَةِ فِي هَذَا
الْعَمَلِ الْخَطِيرِ ، مَا سَمَحَ لَهَا أَخُوهَا الْوَلِيدُ ، ثُمَّ جَمَاعَتُهُ مِنْ بَعْدِ بِأَنْ
تَشَارَكَهُمْ فِيهِ ، وَتُظَهَرَ بِسَالَتِهَا وَشَجَاعَتِهَا .

* وَلَعَلَّ إِعْجَابَ لَيْلَى بِالْفُرْسَانِ الشُّجْعَانِ ، وَإِشَادَتِهَا بِالْبَطُولَةِ
وَالْأَبْطَالِ ، وَحِرْصَ الْمُقَاتِلِينَ عَلَى نَيْلِ إِعْجَابِهَا وَثَنَائِهَا ، دَلِيلٌ عَلَى عَظِيمِ
أَثَرِهَا ، وَعَلَوْ قَدْرِهَا .

(١) انظر: الأغاني (١٢/١١٨ و ١١٩) والقصيدةُ طويلةٌ في ديوانِ صريعِ الغواني أيضاً وهي من غررِ مدائحه ، ومعنى: «يفتر»: افتَرَ: أبدى الأَسْنَانَ عِنْدَ الضَّحْكِ؛ وافتَرَا: الحرب: شدتها وقوتها. و«أود»: عوج. و«شريكى»: نسبة إلى شريك جدّ من أجدادِ يزيد بن يزيد. و«الناضل»: المصيب. و«الخصل»: المصيب.

* إِلَّا أَنَّ الظُّرُوفَ الَّتِي أَحَاطَتْ بِلَيْلَى ، جَعَلَتْهَا - فِيمَا بَعْدَ - قَعِيدَةً
الْبَيْتِ ، تَرْسُلُ الْأُنَاثَ الْمُوجَعَاتِ ، وَنَفَثَاتِ صَدْرِهَا ، وَتَعْبِيرَاتِ وَجْدَانِهَا
مِمَّا جَعَلَهَا مِنْ شَوَاعِرِ الْعَرَبِ اللَّوَاتِي يَجِدْنَ الشَّعْرَ ، كَمَا كَانَتْ مِنْ
الْمُقَاتَلَاتِ مِمَّنْ يَجِدْنَ الْفُرُوسِيَّةَ وَالنَّزَالَ .

لَيْلَى وَرَثَاءُ أَخِيهَا :

* أَثَّرَ مَقْتَلُ الْوَلِيدِ بْنِ طَرِيفٍ فِي أَخِيهِ لَيْلَى وَأَثَارَ شَجَوْنَهَا ، فَلَزِمَتْ بَيْتَهَا
وَقَرَّتْ فِيهِ ، بَيِّدَ أَنَّ عَوَاطِفَهَا الْجَيَّاشَةَ لَمْ تَقَرَّ فِي نَفْسِهَا ، حَيْثُ كَانَتْ تَتَسَلَّى
بِالشَّعْرِ ، إِذْ كَانَتْ تَجِيدُهُ ، وَهِيَ إِحْدَى شَوَاعِرِ الْعَرَبِ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ،
فَقَدْ كَانَتْ شَاعِرَةً بَلِيغَةً تَجِيدُ صَوْغَ الْكَلَامِ ، وَتَمْلِكُ نَاصِيَةَ الْبَيَانِ ، وَرَاحَتْ
تَسْلُكُ سَبِيلَ الْخِنْسَاءِ ، وَتَتَشَبَّهُ بِهَا فِي مَرَاثِيهَا لِأَخِيهَا صَخْرَ ، فَرُثَتْ لَيْلَى
أَخَاهَا الْوَلِيدَ بِقَصَائِدَ وَمَقْطُوعَاتَ ، أَجَادَتْ فِيهَا فَنَ الرِّثَاءِ .

* وَمَنْ أَجْمَلَ الْقَصَائِدِ النِّسَائِيَّةَ فِي فَنِّ الرِّثَاءِ فِي عَصْرِهَا ، قَصِيدَةُ لَيْلَى
بِنْتِ طَرِيفِ الْفَائِيَّةِ فِي رِثَاءِ أَخِيهَا ، وَهِيَ قَصِيدَةٌ فِي غَايَةِ الْجَمَالِ
وَالْانْسِيَابِ ، وَالْحَرَارَةِ الصَّادِقَةِ ، وَتَزِيدُ عَنْ عَشْرِينَ بَيْتًا .

* يَقُولُ ابْنُ خَلَّكَانَ عَنْ لَيْلَى وَقَصِيدَتِهَا : وَكَانَ لِلْوَلِيدِ أُخْتُ تَجِيدُ
الشَّعْرَ ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَ الْخِنْسَاءِ فِي مَرَاثِيهَا لِأَخِيهَا صَخْرَ ، فَرُثَتْ لَيْلَى
أَخَاهَا الْوَلِيدَ بِقَصِيدَةٍ أَجَادَتْ فِيهَا ، وَهِيَ قَلِيلَةُ الْوُجُودِ ، وَلَمْ أَجِدْ فِي
مَجَامِيعِ كُتُبِ الْأَدَبِ إِلَّا بَعْضَهَا ، حَتَّى إِنَّ أَبَا عَلِيٍّ الْقَالِي ، لَمْ يَذْكُرْ فِي
أَمَالِيهِ سِوَى أَرْبَعَةِ أَبْيَاتٍ ، فَاتَّفَقَ أَنِّي ظَفَرْتُ بِهَا كَامِلَةً فَأَثْبَتُهَا لِعُغْرَابَتِهَا مَعَ
حُسْنِهَا^(١) .

* وَقَدْ أوردَ ابْنُ خَلَّكَانَ قَصِيدَةَ لَيْلَى كَامِلَةً وَهِيَ عِنْدَهُ (١٨ بَيْتًا) ، بَيِّدَ

(١) وفیات الأعيان (٦/٣٢) .

أَنِّي بحثُ في مصادرَ كثيرةٍ ومتنوعة فوجدتُ أَنَّ القصيدةَ تبلغُ (٢٤ بيتاً)^(١) ،
وهناك بعضُ الأمور والاحتمالات حتى تضحَّت القصيدةُ ، ومنها : أَنَّ
بعض المغرِّمينَ بهذه القصيدة قد زادَ في أبياتها ، أو أَنَّ ابنَ خَلْكان لم يَطلعْ
فيما وقعَ بين يديه من كُتُبٍ على هذه القصيدة كاملة ، وربما تكون هذه
القصيدة أكثر من هذا العددِ ، إلا أَنَّ يدَ الدَّهر قد عدَّتْ عليها ، كما عدَّتْ
على أخيها الوليد ، على أَنِّي حاولتُ قَدْر الطَّاقة والجهدِ أَنْ أرتبَ
القصيدة ، لأنَّ ترتيب أبياتها يختلفُ من مصدرٍ لآخر ، والقصيدة قد
أصبحت على الشَّكل الآتي :

| | |
|--|--|
| بِتَلِّ نَبَاتِي رَسْمُ قَبْرِ كَأَنَّهُ | على جَبَلٍ فوقَ الجَبَالِ مُنِيفٍ |
| تَضَمَّنَ جُوداً حَاتِماً وَسُودُوداً | وَهَمَّةً مِقْدَامٍ وَرَأْيَ حَصِيفٍ |
| أَلَا قَاتَلَ اللهُ الْجُنَّا حَيْثُ أَضْمَرْتُ | فَتَى كَانََ لِلْمَعْرُوفِ غَيْرَ عَيُوفٍ |
| خَفِيفٍ عَلَى ظَهْرِ الْجَوَادِ إِذَا عَدَا | وَلَيْسَ عَلَى أَعْدَائِهِ بِخَفِيفٍ |
| فَالَا تُجِبْنِي دِمْنَةً هِيَ دُونَهُ | فَقَدْ طَالَ تَسْلِيمِي وَطَالَ وَقُوفِي |
| وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ لَا ضَعِيفاً تَضَمَّنْتُ | إِذَا عَظَّمَ الْمُزْرِي وَلَا ابْنَ ضَعِيفٍ |
| فَتَى لَا يَلُومُ السَّيْفَ حِينَ يَهْزُهُ | إِذَا مَا اخْتَلَى مِنْ مَعْصَمٍ وَصَلِيفٍ |
| فَتَى لَا يَحِبُّ الزَّادَ إِلَّا مِنَ التَّقَى | وَلَا الْمَالَ إِلَّا مَنْ قَنَأَ وَسُيُوفٍ |
| وَلَا الْخَيْلَ إِلَّا كُلَّ جَرْدَاءٍ شَطْبَةٍ | وَأَجْرَدَ ضَخَمَ الْمُنْكَبِّينَ عَطُوفٍ |
| فَلَا تَجْزَعَا يَا بَنِي طَرِيفٍ فَإِنِّي | أَرَى الْمَوْتَ نَزَالاً بِكُلِّ شَرِيفٍ |
| فَقَدْ نَاهُ فَقْدَانُ الرَّيِّعِ وَلَيْتَنَا | فَدِينَاهُ مِنْ سَادَاتِنَا بِأُلُوفٍ |
| وَمَا زَالَ حَتَّى أَزْهَقَ الْمَوْتُ نَفْسَهُ | شَجَى لَعْدُوٍّ أَوْ لَجَأٍ لِضَعِيفٍ |
| حَلِيفُ النَّدَى مَا عَاشَ يَرْضَى بِهِ النَّدَى | فَإِنْ مَاتَ لَا يَرْضَى النَّدَى بِحَلِيفٍ |
| فَإِنْ يَكُ أَرْدَاهُ يَزِيدُ بَنُ مَزِيدٍ | فَرَبَّ زُخُوفٍ فَضْهًا بِزُخُوفٍ |

(١) انظر : حماسة البحري (ص ٢٧٦ و ٢٧٧).

كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ
وَلِلْأَرْضِ هَمَّتْ بَعْدَهُ بَرْجُوفٍ
وَدَهْرٍ مُلَحٍّ بِالْكَرَامِ عَنِيفٍ
وَلِلشَّمْسِ هَمَّتْ بَعْدَهُ بِكُسُوفٍ
إِلَى حُفْرَةٍ مَلْحُودَةٍ وَسُقُوفٍ
وَأُبْرَزَ مِنْهَا كُلُّ ذَاتٍ نَصِيفٍ
مَعَاتِدَ حَلِيٍّ مِنْ بُرَى وَشَنُوفٍ
مَقَاماً عَلَى الْأَعْدَاءِ غَيْرَ خَفِيفٍ
وَلَمْ تَبْدُ فِي خَضِرَاءِ ذَاتِ رَفِيفٍ
وَمَنْ ذُلَّقِ يُعْجِمْنَهَا بِحُرُوفٍ
عَلَى يَزْنِيٍّ كَالشَّهَابِ رَعُوفٍ
بِأَوْصَالِ بُخْتِيٍّ أَحَزَّ عَلِيفٍ
أَرَى الْمَوْتَ وَقَاعاً بِكُلِّ شَرِيفٍ^(١)

فَيَا شَجَرَ الْخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقاً
أَلَا يَا لِقُومٍ لِلْحِمَامِ وَلِلْبَلْبِ
أَلَا يَا لِقُومٍ لِلنَّوَابِ وَالرَّدَى
وَلِلْبَدْرِ مِنْ بَيْنِ الْكَوَاكِبِ إِذْ هَوَى
وَلِلَّيْلِ فَوْقَ النَّعْشِ إِذْ يَحْمِلُونَهُ
بَكَتْ تَغْلِبُ الْغَلْبَاءُ يَوْمَ وَفَاتِهِ
يُقْلَنَ وَقَدْ أُبْرِزْنَ بَعْدَكَ لِلوَرَى
كَأَنَّكَ لَمْ تَشْهَدْ مِصَاعاً وَلَمْ تَقُمْ
وَلَمْ تَشْتَمِلْ يَوْمَ الْوَعَى بِكَتِيبَةٍ
دِلَاصٍ تَرَى فِيهَا كُدُوحاً مِنَ الْقَنَآ
وَطَعْنَةٍ خِلْسٍ قَدْ طَعَنْتَ مُرْشَةً
وَمَائِدَةٍ مَحْمُودَةٍ قَدْ عَلَوْتَهَا
عَلَيْهِ سَلَامُ اللَّهِ وَقُفْ فَإِنِّي

(١) انظر: شاعرات العرب (ص ٣٧٤ - ٣٧٦) ، ووفيات الأعيان (٣٢/٦ و ٣٣) ،
والدر المنثور (ص ٤٧٩ و ٤٨٠) ، وديوان الخنساء (ص ١٧٣ و ١٧٤) ، ومعاهد
التنصيص (٣/ ١٦٠ و ١٦١) ، والأغاني (١١٤/ ١١٥) ، وكتاب الصنائع
(ص ١٦٥) ، والحماسة البصرية (٩٧/ ٢) ، وحماسة البحري (ص ٢٧٦) مع
تقديم وتأخير في الأبيات ، وتكرار في بعض أنصاف الأبيات .
- وهذه هي القصيدة الفاتية الجميلة التي استمتعنا بقراءتها ، والتي تنم عن شاعرية
عذبة قوية .

- إلّا أننا نشك أن تكون القصيدة جميعها من إنشاء ليلي بنت طريف ، ولعلّ ليلي قد
نظمت بعض الأبيات ، لأننا نلاحظ قوة السبك وضخامة الألفاظ وتنوع المعاني التي
تدل على ذكورة قائلها من مثل :

فقدناه فقدان الرّبيع وليتنا فديناه من ساداتنا بألوف
بالإضافة إلى نواح أخرى في القصيدة تدل على أن شطراً من أبياتها منسوبة إلى
ليلى ، ناهيك باضطراب المصادر في ترتيب ونقل القصيدة ، حتى إن أبا هلال =

* وقد طارت هذه القصيدة في الآفاق ، واشتهرت شهرةً عظيمةً ،
وتناقلتها الألسنُ ، وأُغْرِمَ بها الأدباءُ والعلماءُ ، حتى إنَّ البلاغيين أغرموا
في بيتها الشَّهير :

أيا شَجَرَ الخَابُورِ ما لَكَ مُورِقاً كأنَّكَ لم تَحْزَنْ على ابنِ طَريفٍ^(١)

= العسكريّ لم ينسبها إلى ليلي ، وإنَّما جاءتْ بعضُ أبياتها عنده لبعضِ العرب .
وأغلبُ الظَّنَّ أنَّ بعضَ الرواةِ وأهلَ الأخبارِ قد زادَ في هذه القصيدة حتى وصلت إلى
ما هي عليه الآن ، والله أعلم بحقيقة الصواب .

(١) هذا البيتُ من شواهدِ البلاغيين ويسمونه «تجاهلُ العارف» : وسمَّاه السَّكاكي : سوقَ
المعلوم مساقٍ غيره لنكتةٍ بلاغيةٍ ، وهي هنا التوبيخ ، فإنَّها تعلمُ أنَّ الشَّجَرَ لا يجزَعُ
على ابنِ طَريفٍ لكنَّها تجاهلتْ واستعملتْ كأنَّ الدَّالَّةَ على الشَّكِّ . (معاهد
التنخيص ١٦٣/٣ و١٦٤) .

وقال العسكريّ : تجاهلُ العارفِ ومزجُ الشَّكِّ باليقين : هو إخراجُ ما يُعرفُ صحَّتهُ
مخرجاً ما يُشكَّ فيه ليزيد بذلك تأكيداً . (كتاب الصناعتين ص ٣٩٦) .

- وتجاهلُ العارفِ : سوقُ المعلوم مساقٍ المجهولِ لنكتةٍ تُقصدُ لدى البُلغاءِ ،
والدَّواعي لتجاهلِ العارفِ كثيرةٌ منها :

١ - التوبيخ : منْ مثلِ قولِ ليلي بنتِ طَريفِ الخارجية :

أيا شَجَرَ الخَابُورِ ما لَكَ مُورِقاً كأنَّكَ لم تَحْزَنْ على ابنِ طَريفِ

٢ - المبالغةُ في المدحِ أو الذَّمِّ : ومنْ المبالغةِ في المدحِ قولُ أبي عبادةِ البحتري :

أَلَمُعُ بَرَقِ سَرى أُمُ ضَوْءِ مُصْبِحِ أُمُ ابْتِسامَتِها بِالْمَنْظَرِ الضَّاحِي

ومنْ المبالغةِ في الذَّمِّ قولُ زهير بنِ أبي سلمى المزني :

وما أَذْري وسوفَ إِخْالُ أَذْري أَقْـوَمُ آلُ حُصْنٍ أَمْ نِساءُ؟

٣ - التَّدلُّه في الحُبِّ : ومنه قولُ الحُسين بنِ عبد الله الغريبي :

بِاللهِ يا ظَبِيَّاتِ القاعِ قُلْنَ لَنَا لَيْلَايَ مِنْكُنَّ أَمْ لَيْلَى مِنْ البَشَرِ

وقول ذي الرِّمة :

أيا ظَبِيَّةَ الوُعْساءِ بَيْنَ جُلْجُلِ وَبَيْنَ النَّقا أَنْتِ أَمْ أُمُّ سَالمِ

وقول أبي الطيب الممتني :

أَتَراها لكَثْرَةِ العِشاقِ تحسِبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً في المآقي

وقول القاضي الفاضل يمدحُ الملكَ العادل :

* وقد نسجَ كثيرونَ على منواله ، ويسمى في علمِ البديع : تجاهلِ العارف ، وهو في الشعر أشهر ، لكنَّ كثيراً من الأدباء نسجوا في تجاهلِ العارف نثرًا ، ومن أمثلة ذلك ما كتبه أبو هلال العسكري إلى بعضِ أهلِ الأدب : سمعتُ بورودَ كتابك ، فاستفزني الفرحُ قبلَ رؤيته ، وهزَّ عطفِي المرحُ أمامَ مشاهدته ، فما أدري أسمعُ بورودَ كتابٍ ، أمْ ظفرتُ برجوعِ شبابٍ ، ولمْ أدْرِ ما رأيتُ : أخطَّ مسطور؟ أمْ روضٌ ممطور وكلامٌ منشور؟ أمْ وشيٌّ منشور؟ ولمْ أدْرِ ما أبصرتُ في أثناثه : أبياتٌ شعر ، أمْ عقود درر؟ ولمْ أدْرِ ما حملته : أغيثٌ حلَّ بوادي ظمان ، أمْ غوثٌ سيقَ إلى لهفان^(١).

* وللعسكري أيضاً في الشعر :

أثغرٌ ما أرى أمْ أفتحوانُ وقد ما بدا أمْ خيزرانُ
وطرفٌ ما تقلبُ أمْ حُسامُ ولفظٌ ما تساقطُ أمْ جُمانُ
وشوقٌ ما أكابدُ أمْ حريقُ وليلٌ ما أقاسي أمْ زَمانُ

وله أيضاً :

أغرَّةُ إسماعيلَ أمْ سُنَّةُ البدرِ وفيضُ ندَى كَفَّهِ أمْ باكرُ القطرِ^(١)
* هذا ولمْ تكنْ ليلى بنتُ طريف لترثي أخاها بقصيدة فائية يتيمة وإنما

= أهذي كفَّه أمْ غوثُ غيثٍ ولا بلغَ السحابَ ولا كرامه
وهذا بشره أمْ لمعُ برقٍ ومنَ للبرقِ فينا للإقامه
٤ - الإيناسُ : ومنه قولُ الله عزَّ وجلَّ لنبيه موسى عليه السلام كما جاء في سورة طه :
﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى ﴾ [طه : ١٧].

إلى غير ذلك من دواعٍ كثيرة أوردتها البلاغيون في كتبهم واستفاضوا بذكرِ الأمثلة والشواهد.

(١) انظر كتاب الصناعتين (ص ٣٩٦ و ٣٩٧).

لها فيه مراث كثيرة ومثيرة ، فمن ذلك قولها فيه تذكره وتذكر أيامه ، وأن
الأرض غدت خراباً من بعد غيابه :

ذَكَرْتُ الْوَلِيدَ وَأَيَّامَهُ إِذِ الْأَرْضُ مِنْ شَخْصِهِ بُلْقَعُ
فَأَقْبَلْتُ أَطْلُبُهُ فِي السَّمَاءِ كَمَا يَبْتَغِي أَنْفَهُ الْأَجْدَعُ
أَضَاعَكَ قَوْمُكَ فَلْيَطْلُبُوا إِعَارَةَ مِثْلِ الَّذِي ضَيَّعُوا
لَوْ أَنَّ السُّيُوفَ الَّتِي حَدَّهَا يَصِيكَ تَعْلَمُ مَا تَصْنَعُ
نَبَتْ عَنْكَ أَوْ جَفَلَتْ هَيْبَةً وَخَوْفًا لِمَصُولِكَ لَا تَقْطَعُ^(١)

* وَقَالَتْ لَيْلَى فِي أَخِيهَا الْوَلِيدِ أَيْضاً :

يَا بَنِي وَائِلٍ لَقَدْ فَجَعْتُكُمْ مِنْ يَزِيدٍ سَيُوفُهُ بِالْوَلِيدِ
لَوْ سَيُوفٌ سِوَى سَيُوفِ يَزِيدٍ قَاتَلْتُهُ لَأَقَتُ خِلَافَ السُّعُودِ
وَائِلٌ بَعْضُهَا يَقْتُلُ بَعْضاً لَا يَفْلُ الْحَدِيدَ غَيْرُ الْحَدِيدِ^(٢)

* وَلَعَلَّ لَيْلَى بِنْتُ طَرِيفٍ فَارِسَةُ الشَّاعِرَاتِ ، وَشَاعِرَةُ الْفَارَسَاتِ فِي
عَصْرِهَا ، قَدْ رَثَتْ أَخَاهَا الْوَلِيدَ فِي مَقْطَعَاتٍ كَثِيرَةٍ جَدّاً ، وَلَكِنْ عَوَادِي
الزَّمَنِ - عَلَى مَا يَبْدُو - قَدْ فَجَعْتَنَا بِهَا ، كَمَا فَجَعَتْ لَيْلَى بِالْوَلِيدِ ، وَلَمْ
تَنْفَحْنَا إِلَّا بِمَا قَرَأْنَاهُ مِنْ قِصَائِدَ وَمَقْطَعَاتٍ ، بَيْنَمَا غَفَلْتُ ذَاكِرَةَ التَّارِيخِ عَنْ
مَعْظَمِهَا ، وَسَهَتْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ آثَارِ النِّسَاءِ وَمَرَاثِيهِنَّ وَأَخْبَارِهِنَّ .

* بَيَدُ أَنَّ ذَاكِرَةَ التَّارِيخِ هَذِهِ وَعَتَّ بَعْضَ مَرَاثِي النِّسَاءِ الْخَارِجِيَّاتِ
لِإِخْوَانِهِنَّ ، وَرَسَمْتُ بَعْضَ الْخَطُوطِ لِأَنْفَاسِ الشُّوَاعِرِ اللَّوَاتِي صَافَحَتْ
كَلِمَاتِهِنَّ أَسْمَاعَهُ ، وَمِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ النِّسَاءِ الْخَارِجِيَّاتِ : أُخْتُ حَازُوقِ

(١) انظر : معاهد التنصيص (١٦٣/٣) ، وقطوف الرياحان (ص ٢٥٠) ووفيات الأعيان

(٣٣/٦) ، وشاعرات العرب (ص ٣٧٧) .

(٢) وفيات الأعيان (٣٢٩/٦) .

الخارجي^(١) التي رثت أخاها الحازوق بقصيدة رائية جميلة ، أظهرت شمائله وصفاته ، وذكرت بأنها ستثأر له من دوس الذين أذاقوه الموت ، وعبرت عن ذلك بأبيات كثيرة منها :

أعيني جوداً بالدموع على الصدر على الفارس المقتول في الجبل الوعر
فإن تقتلوا الحازوق وابن مطرف فإننا قتلنا حوشباً وأبا حشر^(٢)
أقلب عيني في الركاب فلا أرى حزاقاً بعين كالحجار من القطر
تعاوره أسيف قوم تعودوا قراع الكماة لا خنوس ولا ضجر^(٣)
فإن لا أنل من دوس ثأري بفتية مصاليت لم يكسرهم حدث الدهر
* وقالت امرأة من الخوارج في رثاء أخيها الذي قتل ، وبالتالي تعبت الأيام بها :

من لعين ريا من الدمع عبرى ولنفس من المصاب حرى
أفسدت عيشنا صروف الليالي ووقاع من الكتائب تثرى
كلما سكنت حرارة وجد من فقيد منا تجينا بأخرى^(٤)
* وهذه امرأة خارجية تتسم بالحرارة والشجاعة ترثي أخاها ، وتدعى

(١) حازوق الخارجي ، أحد ولاية نجدة الحنفي على إحدى مقاطعات النجدية في جهات الطائف ، فلما وقع الاختلاف بين نجدة وأصحابه ، اجترأ الناس على عماله ، فهرب الحازوق ، فطلبوه بالطائف فهرب ، فلما صار بين الجبال ، إذا قوم يطلبونه ، فرمؤه بالحجارة من رؤوسها فجعل يقول : ويلكم لا تقتلوني قتل المرجومة ، فلم يقلعوا عنه حتى قتلوه .

(٢) «حوشباً» : لعلها تقصد حوشب بن يزيد بن الحارث الشيباني ، الذي كان أبوه والياً على الري ، وقتلته الخوارج الأزارقة .

(٣) «تعاوره» : تداوله . «الكماة» : الشجعان . «خنوس» : متأخر .

(٤) ديوان الخوارج (ص ٢١٥) .

مُلَيْكَةُ الشَّيْبَانِيَةِ ، ومن أشعارِها في رثاء أخيها قولُها الذي تشيرُ فيه إلى أنَّها من الشُّرَاة :

| | |
|--|----------------------------------|
| ع بواكفٍ حتَّى المَماتِ | يَا عَيْنُ جُودِي بِالذُّمِّ |
| بَ مِنْ النِّسَاءِ الشَّارِيَاتِ | قُولَا لِمَنْ حَضَرَ الحُرُو |
| ونعيم عيشٍ مُبْتَاتِ | أَمْسِيْنَ بَعْدَ غَضَارَةٍ |
| صارتْ عَظَامَهُمْ رُفَاتِ | مِنْ بَعْدِ عَيْشٍ نَاعِمِ |
| لَمْ تَغْنِ أَقْوَالُ الرُّقَاةِ | وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَفْبَلَتْ |
| لِي فِي الْأُمُورِ الْمُعْضَلَاتِ | كُنْتَ الْمُؤَمَّلَ وَالْمُرَجَّ |
| زَرَ وَالْمَطَالِبَ لِلتُّرَاتِ ^(١) | كُنْتَ الْمُؤَامَرَ وَالْمَوْأَا |

* ولمليكة الشَّيْبَانِيَةِ قصيدةٌ نونيةٌ جميلةٌ أيضاً في رثاء أخيها ذي الشَّمَائِلِ الكريمةِ من إغاثَةِ اللِّهْفَانِ ، وإطعامِ الضَّيْفَانِ ، وإقالةِ عثراتِ الجاراتِ الضَّعَافِ ، وكفِّ الأذى عن النَّاسِ ، وبذلِ المعروفِ ، وبسطِ الكفِّ لِلنَّدَى والجودِ ، تقولُ مليكةٌ راثيةً شاكيةً باكيةً :

| | |
|--|---|
| حَلَّ بِهَا نَازِلٌ مِنَ الحِذْثَانِ | مَنْ لَجَارَاتِكَ الضَّعَافِ إِذَا |
| الليل إذا مَلَّ مَنْزِلَ الضَّيْفَانِ | مَنْ لَضَيْفٍ يَتَابُ فِي ظُلْمَةٍ |
| أَذْنَايَ يَوْمًا تَسْلَاوَةَ الْفُرْقَانِ | سَوْفَ أَبْكِي عَلَيْكَ مَا سَمِعْتُ |
| وَيُؤْتِي لِحَاجَةِ اللَّهْفَانِ | أَيْنَ مَنْ يَحْفَظُ الْقَرَابَةَ وَالصُّهْرَ |
| ويجزي الإحسانَ بِالْإِحْسَانِ | ويحوطُ المولى وَيَصْطَنِعُ الخَيْرَ |
| سَمَحَ اليَدَيْنِ سَبْطَ الْبَنَانِ ^(٢) | ويكفُّ الأذى وَيَبْتَذِلُ الْمَعْرُوفَ |

* وإذا ما تابَعْنَا رحلةَ النِّسَاءِ الْخَارِجِيَّاتِ ، لألفينا أَنهِنَّ أَبْدَعْنَ فِي هَذَا المِيدَانِ ، فَقَدْ رَثَيْنَ أَبْطَالَ الْخَوَارِجِ فِي حُومَاتِ المِيدَانِ ، أَوْ قَتَلَ هَؤُلَاءِ

(١) أشعار النساء للمرزباني (ص ١٢٥).

(٢) أشعار النساء (ص ١٢٥).

الرَّجَالِ مِنْ أَجْلِ مَذْهَبِهِمْ ، أَوْ خُرُوجِهِمْ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَنَسْمَعُ مِنْ بَيْنِ
الْأَصْوَاتِ النِّسَائِيَّةِ صَوْتَ امْرَأَةٍ تُدْعَى أُمَّ الْجِرَّاحِ الْعَدَوِيَّةِ الْخَارِجِيَّةِ الَّتِي رَثَتْ
أَحَدَ مَشَاهِيرِ الْخَوَارِجِ وَعَظَمَائِهِمْ وَهُوَ أَبُو بِلَالٍ مُرْدَاسِ بْنِ أُدِيَّةَ ، وَأَخُوهُ
عُرْوَةُ بْنُ أُدِيَّةَ ؛ تَقُولُ أُمُّ الْجِرَّاحِ :

وَمَا بَعْدَ مُرْدَاسٍ وَعُرْوَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ شَيْءٌ سِوَى عِطْرِ مُنْشَمٍ^(١)
فَلَسْتُ بِنَاجٍ مِنْ يَدِ اللَّهِ بَعْدَ مَا هَرَقْتَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ بِلَا دَمٍ

* وَمَنْ النِّسَاءِ الْخَارِجِيَّاتِ اللَّوَاتِي اشْتَهَرْنَ بِالشَّجَاعَةِ وَشِدَّةِ الْبَاسِ عِمْرَةُ
الرَّاسِبِيَّةِ ، وَتَشْتَهَرُ بِأُمِّ عِمْرَانَ بْنِ الْحَارِثِ الرَّاسِبِيِّ^(٢) ، قَالَتْ أُمُّ عِمْرَانَ
تَرَثِي ابْنَهَا عِمْرَانَ الَّذِي قُتِلَ فِي يَوْمِ دَوْلَابَ ، وَتَذْكُرُ صِفَاتِهِ وَتَشِيرُ إِلَى
صِلَاحِهِ وَدَعَائِهِ لِلَّهِ سِرًّا وَعِلَانِيَةً لِيَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ :

اللَّهُ أَيُّدِ عِمْرَانًا وَطَهَّرَهُ وَكَانَ عِمْرَانٌ يَدْعُو اللَّهَ فِي السَّحْرِ
يَدْعُوهُ سِرًّا وَإِعْلَانًا لِيَرْزُقَهُ شَهَادَةً بِيَدِي مِلْحَادَةٍ غُدْرٍ^(٣)
وَلَّى صَحَابَتُهُ عَنْ حَرٍّ مَلْحَمَةٍ وَشَدَّ عِمْرَانَ كَالضَّرْغَامَةِ الْهَضِرِ
أَعْنِي ابْنَ عِمْرَةَ إِذْ لَاقَى مَنِيَّتَهُ يَوْمَ ابْنِ نَابٍ يُحَامِي عَوْرَةَ الدَّبْرِ

* وَقَدْ اشْتَهَرَتْ كَثِيرٌ مِنْ نِسَاءِ الْخَوَارِجِ بِالْفَصَاحَةِ وَقَوْلِ الشُّعْرِ ، وَقُوَّةِ
الْقَلْبِ ، وَجَرَاءَةِ اللِّسَانِ أَمَامَ الْأَمْراءِ ، فَقَدْ ذَكَرْتُ الْمَصَادِرَ قِصَّةَ تَدَلُّ عَلَى

(١) «مُنْشَمٌ»: اسْمُ امْرَأَةٍ كَانَتْ تَبِيعُ الطَّيِّبَ وَالْعِطْرَ ، فَكَلَّمَا اسْتُعْمِلَ طَيِّبُهَا زَادَتْ
الْحَرْبُ ، فَصَارَتْ مَثَلًا فِي الشَّرِّ ، وَقَدْ ذَكَرَهَا زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ فِي مَعْلَقَتِهِ وَأَشَارَ
إِلَى شَوْمِهَا .

(٢) أُمُّ عِمْرَانَ الْخَارِجِيَّةُ هَذِهِ ، اشْتَهَرَتْ بِوَلَدِهَا عِمْرَانَ بْنِ الْحَارِثِ الرَّاسِبِيِّ الَّذِي كَانَ
أَحَدَ قَادَةِ الْخَوَارِجِ الْأَزَارِقَةِ ، وَبَعْدَ أَنْ حَارَبَ بِشَجَاعَةٍ فَائِظَةٍ ، التَّقَى الْحِجَّاجَ بْنَ بَابِ
الْحَمِيرِيِّ ، فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ ، سَقَطَا عَلَى أَثَرِهَا مَيِّتَيْنِ مَعًا . (الكَامِلُ ٣ / ١٢٢٤)

(٣) «مِلْحَادَةٌ»: مِفْعَالٌ: مِنَ الْإِلْحَادِ ، كَمَا تَقُولُ: رَجُلٌ مِعْطَاءٌ وَمَكْرَامٌ ، وَأَدْخَلَتْ الْهَاءُ
لِلْمِبَالِغَةِ ، كَمَا تَدْخُلُ فِي رِوَايَةٍ ، وَعِلَامَةٌ ، وَنِسَابَةٌ .

ذلك فقالت: كان يزيدُ بنُ قرة الشَّيباني شديداً منيعاً ، وكان يرى رأيَ الخوارج ، ولم يكنْ يخشى عمَّالَ العراق ، فغاضَ ذلك الحجاجُ بن يوسفَ وبلغَ منه الغيظُ مبلغاً عظيماً ، فكتبَ إلى الخليفةِ عبد الملك بن مروانَ بدمشقَ يخبرهُ بذلك ، فكتبَ عبدُ الملكِ إليه : أن احتلَّ له ، فإنْ قدرتَ عليه فاضربْ عُقَّه .

* فدعا الحجاجُ يزيدَ بنَ رويم ، وجريز بن يزيد ، فأكرمهما وأدناهما ، وقال ليزيد: لك شطرُ العراقِ ، ولجريز ديوان الخراج ، إنَّما أتيتماني بيزيدَ بنِ قرة الشَّيباني .

* فركبا جميعاً إلى يزيدَ فقالا له : إنَّ الأميرَ قد غضبَ عليك ، وإنَّا نخافُ أن ينالَ غضبه جميعَ قومك ، فاركبْ إليه ؛ قال يزيد : لا أفعلُ ، إنَّه إنْ نظرَ إليَّ قَتَلَنِي .

فقالا له : ما هو بفاعل - إن شاء الله - ولا بد أن تتركبَ معنا ، فلبسَ ثياباً بيضاً ، وتهيأَ للقتلِ ، وركب ، وخرجَ نساؤه حتى أتَيْنَ بابَ الحجاجِ ، فلما أُدخِلَ عليه ، قال له الحجاجُ : أنت يزيدُ بنُ قرة؟ قال : نعم أنا يزيدُ .

قال الحجاجُ : قَتَلَنِي اللهُ إنْ لم أَقْتُلْكَ .

قال يزيدُ : نشدتك اللهُ أيُّها الأميرُ أنْ تقتلَنِي ، فإنِّي قيِّمُ أربع وعشرين امرأةً ، ليس لهنَّ قيِّمٌ سِواي .

قال الحجاجُ : وَمَنْ يَعْلَمُ ذلك؟

قال يزيدُ : أيُّها الأميرُ ، هُنَّ بالبَابِ .

* فَأَمَرَ الْحَجَّاجُ بِإِدْخَالِهِنَّ ، فَدَخَلْنَ مُسْتَعْبِرَاتٍ ، وَكُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ
تَقُولُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؛ اقْتُلْنِي وَدَعْنِي .

فَيَقُولُ الْحَجَّاجُ : مَنْ أَنْتِ ؟

فَتَقُولُ : عَمَّتِي ، أَوْ خَالَتِي ، أَوْ بَنَّتِي ، أَوْ بِنْتُ أَخِي ، أَوْ بِنْتُ أُخْتِي ، حَتَّى
اجْتَمَعْنَ بَيْنَ يَدَيْهِ قِيَاماً ، فَقَالَتْ ابْنَتُهُ ، أَوْ أُخْتُهُ :

| | |
|---|---|
| أَحْبَبَّاجُ إِمَّا أَنْ تَمَنَّ بِنِعْمَةٍ | عَلَيْنَا وَإِمَّا أَنْ تُقَتِّلَنَا مَعَا |
| أَحْبَبَّاجُ كَمْ تَفْجَعُ بِهِ إِنْ قَتَلْتَهُ | ثَمَانِي عَشَرَ وَاثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعًا |
| أَحْبَبَّاجُ لَوْ تَسْمَعُ بِكَاءِ نِسَائِهِ | وَعَمَّاتِهِ يُنْدُبْنَهُ اللَّيْلَ أَجْمَعًا |
| أَحْبَبَّاجُ مَنْ هَذَا يَقُومُ مَقَامَهُ | عَلَيْنَا فَمَهْلًا لَا تَزِدُنَا تَضَعُضًا |
| أَحْبَبَّاجُ هَبْهُ الْيَوْمَ لِلَّهِ وَحْدَهُ | وَلِلْبَاكِيَاتِ الصَّارِخَاتِ تَفْجُّعًا |

* فَرَّقَ لَهَا الْحَجَّاجُ وَبَكَى ، وَكُتِبَ فِي أَمْرِهِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ يَصِفُ
مَا جَرَى ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ : إِنْ كَانَ حَقًّا فَاغْفُ عَنْهُ ، وَالْحَقُّ عِيَالُهُ فِي الْعَطَاءِ ،
فَفَعَلَ ^(١) .

* وَتَذَكَّرُ الْمَصَادِرُ أَنَّ امْرَأَةً خَارِجِيَّةً مِنْ بَنِي سَلِيطَ قَالَتْ تَرْتِي مِرْدَاسًا
وَأَصْحَابَهُ فِي آيَاتِ مِنْهَا :

| | |
|---|--|
| سَقَى اللَّهُ مِرْدَاسًا وَأَصْحَابَهُ الْأُلَى | شَرَوْا مَعَهُ غِيثًا كَثِيرَ الزَّمَاكِيرِ |
| فَكُلُّهُمْ قَدْ جَادَ لِلَّهِ مُخْلِصًا | بِمَهْجَتِهِ عِنْدَ التَّقَاءِ الْعَسَاكِيرِ |

* وَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْخَوَارِجِ :

(١) انظر: أشعار النساء (ص ١٢٠ - ١٢٢) ، والمستجد (ص ٢٣٣ - ٢٣٤) - مع الجمع والتصرف .

يا عينُ جُودي بالدموع وابكي بجهدِ المُستطيع
يا موتُ ويحك ما تزا لُ مفترقاً بينَ الجميع
أبكي وما يُغني التلّهِ فُ والبكاءُ عنِ الجزوع
* وقالت امرأةٌ من الخوارجِ أيضاً ، وكانت قد أقامت في عسكرِ
الضّحّاك ثمّ انصرفت :

تركْتُ رمحاً ليناً مُسه وجئتُ رمحاً مُسه قاتِلُ
شّتان هذا بدمٍ سائلُ وذاك منه عسل سائلُ
مطعونُ ذا كمّ منه في لذّة وأمّ مطعونٍ بهذا ثاكل
مُروا بنا نرجعْ إلى ديننا فكلُّ دينٍ غيرُهُ باطلُ
وملّةُ الضّحّاك متروكةُ لا يجتبيها أحدٌ عاقلُ^(١)

* بيدَ أنّنا نجدُ امرأةً أخرى من شيبانَ ترثي ذويها وهم : أبوها ،
وأخوها ، وزوجها ، وابنها ، وعمّاها ، وخالاها ، وقد قُتلوا مع الضّحّاك
بن قيس الخارجيّ ، فعاشت بعد الضّحّاك فما رقأت لها عينٌ ولا ضحكت
ولا ابتسمت ؛ تقول :

مَنْ لَقَلْبٍ شَقَّه الحَزَنُ ولنفسٍ مالها سَكَنُ
ظَعَنَ الأبرارُ فأنقلبُوا خيرهم منْ مَعْشَرِ ظَعُنُوا
مَعْشَرٌ قَضُّوا نُحُوبَهُمْ كلُّ ما قَدْ قَدَّمُوا حَسَنُ
صَبَرُوا عند السُّيوفِ فلمْ ينكَلُوا عنها ولا جُبُّوا
فَتِيَّةٌ باعُوا نفوسَهُم لا وربّ البيتِ ما غُبُّوا
فأصابَ القومُ ما طَلَبُوا منّةٌ ما بعدَها مِنَنْ^(٢)

(١) انظر: بلاغات النساء (ص ١٩١).

(٢) انظر: أشعار النساء للمرزباني (ص ١٢٣ و ١٢٤) بتصرف يسير.

* كما أننا نسمعُ صوتَ مُليكة الشَّيبانية يرتفعُ عالياً في رثاء الضَّحَّاك بنِ

قيس الخارجيِّ وأصحابه فتقولُ:

قُولِي مُليكَ عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ قُولِي فَلَيْتَكَ غَيْرُ كَاذِبَةٍ
تَسْتَوْجِبِينَ فَضَائِلَ الْأَجْرِ أَوْرَثْتَنِي كَمَدًا يُوَرِّقُنِي
يَا عُدَّتِي لِنَوَائِبِ الدَّهْرِ وَمَرَارَةً فِي الْعَيْشِ دَائِمَةً
وَتَلَهُّفًا وَحَرَارَةَ الصَّدْرِ وَحَرَارَةً كَحَرَارَةِ الْجَمْرِ
بِالْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ وَالذِّكْرِ^(١) ذَهَبَ الَّذِي قَدْ كَانَ يَأْمُرُنَا

* وكان لمليكة عمُّ من الشُّراة ، ويبدو أنَّه كان لِسِنًا مَفْوَّهاً ، وفارساً

مُغَوَّاراً ، فَقَالَتْ تَرْتِيهِ :

أَصْبَرْتُ عَنْ عَمِّي الَّذِي أَصْبَرْتُ عَنْ عَمِّي الَّذِي
قَدْ كَانَ بِالْمَعْرُوفِ آمِرٌ إِيَّاهُ التَّفَرُّ الشُّرَاةُ
كَانَ الْمُؤَامِرِ وَالْمُؤَاوِرِ يَاعَمِّ كُنْتَ لِسَانَ قَوْ
ذَوِ الْفَضِيلَةِ وَالْبَصَائِرِ فَلَأَبْكِيَنَّكَ بِالْغَدَاةِ
مِكَ حِينَ يَجْتَمِعُ الْمَعَاشِرُ وَلَيْتَنُ بَكَيْتُ لَقَدْ رَزَيْتُ
وَبِالْأَصَائِلِ وَالْهَوَاجِرِ وَلَهَا فِي رِثَاءِ عَمِّهَا أَيْضاً الَّذِي أَذْهَلَهَا مَوْتَهُ ، وَأَلْقَتْ جَلْبَابَهَا ،
بِفَارِسٍ بَطْلٍ مُغَوَّارٍ

(١) انظر: أشعار النساء (ص ١٢٥) ، ولمليكة قصيدةٌ ميميةٌ ترثي فيها الضَّحَّاك فتقولُ:

مَا بَالُ دُمْعِكَ دَائِمَ السَّجَمِ مِثْلُ الْجَمَانِ وَهِيَ مِنَ النَّظَمِ
جَلَّتْ مَصِيبَتُنَا وَقَدْ عَظُمَتْ لَمَّا فُجِعْتُ بِسَيِّدِ ضَخَمِ
حُلُوِ الشَّمَائِلِ حِينَ تَخْبِرُهُ حَسَنُ السَّرِيرَةِ مَاجِدِ شَهْمِ
يَصْلُ الْقَرَابَةِ وَالْجَوَارِ إِذَا قَطَعَ الْقَرَابَةَ صَاحِبُ الظَّلَمِ
فَلَأَبْكِيَنَّكَ كُلَّمَا وَخَدْتَ عَيْسُ بِأَرْحَلِهَا عَلَى وَسْمِ
وَلَأَبْكِيَنَّكَ عِنْدَ مَجْتَمَعِ الْأُمِّ سَلَاءٍ عِنْدَ تَطَاوُلِ الْخُصَمِ

وبرزت سافرةً بغيرِ خمار ، فموته زُزءٌ عظيمٌ ، ومثل عمّها فلتبكِ النساءِ
الشَّارياتِ ، ومثله يبكيه المولى وطالب الحاجة والضيّف ، فلنسمعُ إلى
مُليكة في هذا الشَّجو العذب :

ما بالُ دمعكِ يا مليكةُ جارِ
أمّ ما لنفسكِ ليسَ يسكنُ حزنُها
جزعاً على مَنْ كانَ يجمعُ شملنا
لو كنتُ أملكُ دفعَ ذلكَ لم تكنُ
ألقىتُ جلبابي لعظمِ رزيتي
زرتُ المقابرَ كي أسليَ عبرتي
فلتَبكِ نسوانُ الشُّراةِ بعبرةٍ
وليبيكه المولى وطالبُ حاجةٍ
أينَ الذينَ إذا ذكرتُ فعالهم
أينَ الذينَ إذا أتاهمُ سائلٌ
أينَ الذينَ إذا ذكرنا دينهم
* وقالت مُليكةُ أيضاً ترثي :

أبكي المُغيَّبَ في الثرى
أبكي وحقَّ لي البكاءُ
فلا بكيّنكَ ما غدتُ شمسُ
مَنْ ذا يرجي للنصيحةِ
أم مَنْ يؤمِّلُ لليتيمِ
بينَ النَّضائدِ والصِّفائحِ
مع الغوادي والروائحِ
وما جرتِ البوارحِ
حينَ تُعقِّدُ النَّصائحِ
وكلَّ ذي غربٍ ونائحِ

(١) في هذا البيت إقواء .

(٢) في هذا البيت إقواء .

أَمْ مَنْ يَعْلَمُ صَدِيقَهُ خَيْرًا وَيَحْجِرُ كُلَّ نَابِحٍ^(١)

* ومن بليغات النساء الخارجيات أم البرذون الصُفْرية ، وكان ولدها البرذون بن مرزوق الشيباني من فوارس الخوارج الصُفْرية في أواخر العهد الأموي ، فهذه المرأة ترتجز في قول ينم عن جراتها وشدة بأسها ، وبأس قومها الذين عبروا خندقاً عميقاً مقعراً وقتلوا أعداءهم :

نَحْنُ عَبَرْنَا الْخَنْدَقَ الْمُقَعَّرَا يَوْمَ لَقِينَاكُمْ وَجُزْنَا الْعَسْكَرَا
حَتَّى قَتَلْنَا عَاصِمًا وَجَعَفَرَا وَالْفَاسِقَ الضُّبِّيَّ لَمَّا أَذْبَرَا
وَالْيَمْنِيِّينَ وَمَنْ تَنَزَّرَا لَا تَحْسِبُوا ضَرْبَ الشَّرَاةِ سَكْرًا^(٢)

* هذا والحديث شائقٌ وجميلٌ عن رثاء ذات الخمار لذويهن ، وقد استطرَدنا في هذه الترجمة ، ولكن هناك فائدة إن شاء الله .

* ونعود الآن ثانية إلى فارسة هذه الصفحات ليلي بنت طريف الشيبانية التي أثارت فينا قصيدتها الفائية الشُّجون ، ورحلنا مع النساء الخارجيات نجمعُ باقاتٍ من أناراتهنَّ ونفثاتهنَّ ، لننظمَ بذلك عقدَ هذا الكتاب ، ونحليَّ جيدهُ بحلي الآداب .

* أمّا ليلي بنتُ طريف فلا نعلم متى ماتت بالتحديد^(٣) ، ولا نعرفُ أيضاً مكانَ وفاتها ، ولعلّها قد ماتت بعد مقتل أخيها الوليد بسنواتٍ ، ونسيَتْ عَيْنُ التَّارِيخِ أَنْ تَلْتَقِطَ لَنَا صُورًا مِنْ أَوَاخِرِ أَيَّامِهَا ، أَوْ تَرْسُمَ لَنَا مَكَانَ وَزْمَانَ

(١) انظر: أشعار النساء (ص ١٢٦ و ١٢٧).

(٢) ديوان الخوارج (ص ٢٥ و ٢٦) نقلاً عن تاريخ الطبري .

(٣) قال بشير يموت في كتابه: شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام: كانت وفاتها نحو سنة (٢٠٠هـ).

أقول: هذا من باب التخمين، فلم تفصح المصادرُ التي بين أيدينا عن زمانٍ ومكانٍ وفاتها. والله أعلم بالصواب .

وفاتها ، لكنّها لم تنسَ أنْ تلوّنَ بريشتها السّاحرة أيّام بطولاتها وفروسيّتها
وأشعارها في النّساء الفارسات .

- وبعد فقد أوْشكتِ الرحلةُ أنْ تنتهيَ ، وحانَ الوداعُ ، وإلى أنْ نلتقيَ
في سِفْرِ آخرَ ، تعالوا نقرأ قول الله عز وجل : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ قَسِينَا أَوْ
أَخْطَأْنَا ﴾ . [البقرة : ٢٨٦] .

أحمد بن خليل جمعة
الحرستاني الدمشقي

* * *

فهرس المصادر والمراجع

- ١ - إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين : للزبيدي - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٩٨٩ م .
- ٢ - الإتيقان في علوم القرآن : للسيوطي - تقديم وتعليق د . مصطفى ديب البغا - دار ابن كثير - دمشق ط ١ - ١٩٨٩ م .
- ٣ - أحكام القرآن : لابن العربي - تحقيق علي محمد البجاوي - دار المعرفة - بيروت .
- ٤ - الأخبار الطوال : للدينوري - تحقيق عبد المنعم عامر - مراجعة د . جمال الدين الشيال - مصر - ١٩٥٩ م .
- ٥ - الأخبار الموفقيات : للزبير بن بكار - تحقيق د . سامي مكّي العاني - مطبعة العاني - بغداد - ١٩٧٢ م .
- ٦ - أدب الدنيا والدين : للماوردي - تحقيق ياسين السواس - دار ابن كثير - دمشق ط ١ - ١٩٩٢ م .
- ٧ - أساسُ البلاغة : للزمخشري - دار الفكر - بيروت - ١٩٩٤ م .
- ٨ - أسبابُ النزول : للسيوطي - طبعات مختلفة .
- ٩ - أسبابُ النزول : للواحدي - تحقيق كمال بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٩١ م .

- ١٠ - الاستبصارُ في نسبِ الصَّحابةِ مِنَ الأنصارِ: لابنِ قدامةَ المقدسي - تحقيق علي نُويهض - دار الفكر - بيروت .
- ١١ - الاستيعابُ - بهامش الإصابة - لابن عبد البر - تحقيق د. طه محمّد الزيني - مكتبة ابن تيمية - القاهرة ط ١ - ١٤١١ هـ . وطبعة بيروت .
- ١٢ - أُسدُ الغابةِ في معرفةِ الصَّحابةِ: لابن الأثير - دارُ الفكر - طبعة مصوِّرة عن طبعة دارِ الشَّعب المحقَّقة - بيروت - ١٩٨٩ م .
- ١٣ - الأعلامُ: لخير الدِّين الزُّركلي - دار العِلْم للملايين - بيروت - ط ٨ - ١٩٨٤ م - وطبعة مصوِّرة في عشرة أجزاء .
- ١٤ - أعلامُ النِّساء: لعمر رضا كحّالة - مؤسسة الرِّسالة - بيروت - ط ٩ - ١٩٨٩ م .
- ١٥ - الأغانِي: لأبي الفرج الأصبهاني - تحقيق عَدَدٍ مِنَ الأساتِذة - دار الكتب العلميّة - بيروت - ط ٢ - ١٩٩٢ م ؛ وطبعة مصوِّرة عن دار الكتب المصريّة - وطبعة دار الفكر ببيروت .
- ١٦ - الإكمال في رفع الارياب في المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: لأبي نصر بن ماکولا - دار الكتب العلميّة - بيروت ط ١ - ١٤١١ هـ .
- ١٧ - الأُمالي: للقالِي - مصر ط ٣ - ١٩٥٣ م . وطبعة مؤسسة الرسالة .
- ١٨ - أُمالي المرتضى: للشريف المرتضى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربيّة - القاهرة - ١٩٥٤ م .
- ١٩ - البدايةُ والنَّهايةُ: لابن كثير - دارُ الفكر - بيروت - ١٩٧٨ م - ودار المعارف .
- ٢٠ - البصائرُ والذِّخائر: لأبي حيَّان التَّوحيديّ - تحقيق د. وداد القاضي - دار صَادِر - بيروت - ط ١ - ١٩٨٨ م .

- ٢١ - بلاغاتُ النِّساء: لابنِ طيفور الخُرّاساني - صحَّحه وشرَّحه أحمد الألفي . مطبعةُ مدرسةِ والدَةِ عبَّاسِ الأوَّل - القاهرة - ١٩٠٨ م . وطبعةُ مكتبةِ السُّندس بالكويت ١٩٩٣ م .
- ٢٢ - البُلدان: لابنِ الفقيه - تحقيقُ يُوسُفِ الهادي - عالمِ الكتب - بيروت - ط ١ - ١٩٩٦ م .
- ٢٣ - بلوغُ الأرب: لآلوسي - تحقيقُ محمَّد بهجة الأثري - ط ٢ - ١٩٢٤ م .
- ٢٤ - بهجةُ المُجالسِ وأنسُ المُجالسِ: لابنِ عبد البر - تحقيقُ محمَّد الخولي - دار الكتب العلميَّة - بيروت - دون تاريخ .
- ٢٥ - البيان والتبيين: للجاحظ - تحقيقُ عبد السَّلام هارون - القاهرة - ١٩٦١ م .
- ٢٦ - تاج العروس: للزبيدي - المطبعة الخيرية - مصر - ١٣٠٦ هـ .
- ٢٧ - تاريخ الأدب العربي: لبلاشير - دار الفكر .
- ٢٨ - تاريخ الأدب العربي - لعمر فروخ - دار العلم للملايين - بيروت ط ٤ - ١٩٨١ م .
- ٢٩ - تاريخ الإسلام: لحسن إبراهيم حسن - دار الجيل - بيروت .
- ٣٠ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: للذهبي - تحقيق د. عمر تدمري - دار الكتاب العربي - بيروت ط ١ - ١٩٨٧ م .
- ٣١ - تاريخُ مدينةِ دمشق (تراجمُ النِّساء): لابنِ عسَّاکر - تحقيقُ سَكينة الشَّهابي - دار الفكر - دمشق .
- ٣٢ - تاريخُ مَكَّة: للأزرقي - المكتبةُ التَّجارية - مَكَّة المَكْرَمَة - ط ١ - ١٤١٦ هـ .
- ٣٣ - تاريخُ اليعقوبي: لليعقوبي - دار بيروت للطباعة والنَّشر - بيروت - ١٩٨٠ م .
- ٣٤ - تفسير البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي - دار الفكر - بيروت ط ٢ - ١٩٨٣ م .

- ٣٥ - تفسير الخازن وبهامشه البغوي: للخازن والبغوي - مطبعة البابي الحلبي - مصر ط ٢ - ١٩٥٥ م.
- ٣٦ - تفسير القرآن العظيم: لابن كثير - مكتبة المنار - الأردن ط ١ - ١٩٩٠ م ، وطبعة دار ابن كثير بدمشق .
- ٣٧ - التفسير الكبير «أو مفاتيح الغيب»: للفخر الرازي - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٩٩٠ م.
- ٣٨ - تهذيب التهذيب: لابن حجر العسقلاني - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - طبعة مصورة . وطبعة دار الفكر .
- ٣٩ - ثمار القلوب: للثعالبي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار نهضة مصر - ١٩٦٥ م.
- ٤٠ - ثمرات الأوراق بهامش المستطرف: للحموي - طبعة دار الفكر المصورة.
- ٤١ - جامع البيان في تفسير القرآن: للقرطبي - دار الفكر - دمشق - ١٩٨٤ م.
- ٤٢ - الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي - دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ٤٣ - الحيوان: للجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة - ١٩٤٥ م .
- ٤٤ - خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب: للبغدادلي - دار صادر - بيروت .
- ٤٥ - الخصائص الكبرى: للسيوطي - طبعة مصورة - دار الكتب العلمية .
- ٤٦ - الدر المنثور في التفسير المأثور: للسيوطي - دار الفكر - بيروت ط ١ - ١٩٨٣ م.
- ٤٧ - الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: لزينب فواز العاملة - مصر - ١٣١٢ هـ .
- ٤٨ - دلائل النبوة: لأبي نعيم الأصبهاني - تحقيق د . عبد المعطي قلعجي - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٩٨٥ م.

- ٤٩ - ديوان علي بن الجهم: تحقيق خليل مردم بك - دمشق - ١٩٤٩ م.
- ٥٠ - ديوان عمر بن أبي ربيعة: بيروت - ١٩٦١ م.
- ٥١ - ديوان عنتره: تحقيق محمد سعيد مولوي - المكتب الإسلامي - دمشق - ١٩٦٥ م. وطبعة بيروت.
- ٥٢ - ديوان كثير عزة: جمع وشرح د. إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - ١٩٧١ م.
- ٥٣ - ديوان مجد الإسلام: لأحمد محرم - حققه وراجعاه محمود أحمد محرم - مكتبة الفلاح - الكويت ط ١ - ١٤١٢ هـ.
- ٥٤ - ديوان المعاني: لأبي هلال العسكري - القاهرة - ١٣٥٢ هـ.
- ٥٥ - ذمُّ الهوى: لابن الجوزي - تحقيق مصطفى عبد الواحد - مصر - ١٣٨١ هـ.
- ٥٦ - ربيع الأبرار ونصوص الأخبار: للزمخشري - تحقيق د. سليم النعيمي - دار الذخائر للمطبوعات - إيران.
- ٥٧ - رجال مبشرون بالجنة: لأحمد خليل جمعة - دار ابن كثير - دمشق ط ٣ - ١٩٩٦ م.
- ٥٨ - روح المعاني: للآلوسي - دار إحياء التراث العربي - طبعة مصورة وطبعة دار الفكر بدمشق وبيروت.
- ٥٩ - الرّوضُ الأنْفُ: للسُّهيلي - تحقيق طه سَعْد - مكتبة الكُليّات الأزهرية - مصر - ١٩٧١ م.
- ٦٠ - روضةُ العقلاء: لابن حَبَّان البُستي - مكتبة نزار الباز - مكة المكرمة - ط ١ - ١٤١٧ هـ.
- ٦١ - الروضةُ الفيحاءُ في تاريخ النِّساء: لياسين العُمري - تحقيق د. رجاء السَّامرائي - الدَّارُ العربيَّة للموسوعات - بيروت - ط ١ - ١٩٨٧ م.

- ٦٢ - روضة المحبين: لابن قيم الجوزية - بيروت - ١٩٦٧ م. وطبعة حلب.
- ٦٣ - زاد المسير في علم التفسير: لابن الجوزي - المكتب الإسلامي - دمشق - ١٩٦٤ م.
- ٦٤ - زاد المعاد: لابن قيم الجوزية - تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت ط ٦ - ١٩٨٤ م.
- ٦٥ - الزهد: لأحمد بن حنبل - مطبعة أم القرى - مكة - ١٣٥٧ هـ وطبعة بيروت.
- ٦٦ - زهر الآداب وثمر الألباب: للحصري القيرواني - حققه وضبطه وشرحه علي محمد البجاوي - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ط ٢ - ١٩٧٠ م.
- ٦٧ - سمطُ اللّالي في شرح أمالي القالي: للبكري - تحقيق عبد العزيز الميمني - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - مصر - ١٣٥٤ هـ.
- ٦٨ - سننُ ابن ماجه: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي ببيروت - ١٩٧٥ م.
- ٦٩ - سننُ أبي داود: إعداد وتعليق محيي الدّين عبد الحميد - دار إحياء التراث العربي - بيروت - دون تاريخ.
- ٧٠ - سننُ الترمذي: إعداد وتعليق عزّت عبّيد الدّعاس - حمص - ط ١ - ١٩٦٦ م.
- ٧١ - سننُ النسائي: بشرح الشّيوطي وحاشية السّندي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٧٢ - سيرُ أعلام النبلاء: للذهبي - تحقيق جماعة من الأفاضل والعلماء - مؤسسة الرّسالة - بيروت - ط ٣ - ١٩٨٥ م.

- ٧٣ - شاعرات العرب: جمع وتحقيق عبد البديع صقر - المكتب الإسلامي ط ١ - ١٩٦٧ م.
- ٧٤ - شذرات الذهب: لابن العماد الحنبلي - تحقيق محمود الأرناؤوط ومراجعة وإشراف عبد القادر الأرناؤوط - دار ابن كثير - دمشق ط ١ - ١٩٨٦ م.
- ٧٥ - شرحُ المعلقات العشر وأخبارُ شعرائها: اعتنى بجمعه وتصحيحه أحمد بن الأمين الشنقيطي - دار الكتب العلمية - بيروت - دون تاريخ.
- ٧٦ - شرحُ المعلقات السبع: للزوزني - تحقيق يوسف بن علي بديوي - دار ابن كثير - دمشق ط ١ - ١٩٨٩ م.
- ٧٧ - شرحُ مقامات الحريري: للشَّريشي - تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم - المكتبةُ العصرية - لبنان - صيدا - ١٩٩٢ م.
- ٧٨ - صبحُ الأعشى: للقلقشندي - طبعة مصوَّرة عن طبعة القاهرة - ١٩٦٣ م.
- ٧٩ - صحيحُ ابن حَبَّان: بعناية كمال الحوت - دارُ الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٩٨٧ م - وطبعة المكتب الإسلامي.
- ٨٠ - صحيحُ مسلم: تحقيق محمَّد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٨١ - صحيحُ مسلم بشرح النَّووي: رئاسة إدارة البحوث العلميَّة والإفتاء والدَّعوة والإرشاد - المملكةُ العربيَّة السُّعوديَّة.
- ٨٢ - صِفَةُ الصَّفْوَةِ: لابن الجوزي - تحقيق محمود فاخوري ومحمَّد رواس قلعجي - دارُ المعرفة - بيروت - ط ٢ - ١٩٧٩ م.
- ٨٣ - الطبقات الكبرى: لابن سعد - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت.

- ٨٤ - الطبقات الكبرى : للشعراني - القاهرة - ١٢٩٩ هـ .
- ٨٥ - الطبقات الكبرى : للمناوي - مخطوطة دار الكتب المصرية .
- ٨٦ - العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين : للفاسي - تحقيق فؤاد سيد - القاهرة ١٣٥٨ هـ .
- ٨٧ - العقد الفريد : لابن عبد ربه - تحقيق أحمد أمين ورفاقه - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ط ٢ - ١٩٦٢ م - وطبعة محمد سعيد العريان .
- ٨٨ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري - لبدر الدين العيني - طبعة مصورة عن المطبعة الميمنية - بيروت .
- ٨٩ - عوارف المعارف : للسهروردي - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٣ هـ .
- ٩٠ - عون المعبود شرح سنن أبي داود : لأبي الطيب الآبادي - تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان - مكتبة ابن تيمية - القاهرة ط ٣ - ١٩٨٧ م .
- ٩١ - عيون الأخبار : لابن قتيبة - مصورة عن دار الكتب - مصر - ١٩٦٣ م .
- ٩٢ - الغزل عند العرب : لجان فاديه - ترجمة د . إبراهيم كيلاني - منشورات وزارة الثقافة - دمشق - ط ٢ - ١٩٨٥ م .
- ٩٣ - غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة : لأبي القاسم بن بشكوال - تحقيق د . عز الدين علي السيد ، ومحمد كمال الدين عز الدين - عالم الكتب - بيروت - ط ٢ - ١٩٩٦ م .
- ٩٤ - الغيث المسجم في شرح لامية العجم : لصلاح الدين الصفدي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٩٧٥ م .
- ٩٥ - فتح الباري : لابن حجر العسقلاني - تحقيق محب الدين الخطيب - المكتبة السلفية - القاهرة - ط ٤ - ١٤٠٨ هـ . وطبعة دار المعرفة ببيروت .

- ٩٦ - الفتح الربّاني - لأحمد عبد الرحمن البنا - دار الحديث - القاهرة - دون تاريخ .
- ٩٧ - الفهرست : لابن النديم - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٩١٦ هـ .
- ٩٨ - فوات الوفيات : لابن شاکر الکتبی - تحقیق د . إحسان عباس - دار صادر - بیروت - ١٩٧٣ م ، وطبعة مصر المحققة أيضاً .
- ٩٩ - الفوائد المجموعة : للشوکانی - تحقیق عبد الرحمن الیمانی - دار الكتب العلمية - بیروت - ١٣٧٩ هـ .
- ١٠٠ - القاموس المحيط : للفيروز آبادي - مؤسسة الرسالة - بیروت ط ٢ - ١٩٨٧ م .
- ١٠١ - قصص العرب : لمحمد أحمد جاد المولى ورفاقه - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة - ١٩٥٦ م .
- ١٠٢ - الكامل في التاريخ : لابن الأثير - دار صادر - بیروت .
- ١٠٣ - الكامل في اللغة والأدب : للمبرد - عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر العربي - القاهرة - وطبعة مؤسسة الرسالة في بیروت .
- ١٠٤ - الکشاف (تفسير الزمخشري) : للزمخشري - دار المعرفة - بیروت .
- ١٠٥ - كشف الخفاء ومزيل الإلباس : للعجلوني - بعناية أحمد القلاش - دار التراث - القاهرة - دون تاريخ .
- ١٠٦ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : لحاجي خليفة - بإشراف هيئة البحوث والدراسات في دار الفكر - دار الفكر - ١٩٩٤ م .
- ١٠٧ - الكفاية في علم الرواية - دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد - ١٣٥٧ هـ .

- ١٠٨ - كنز العمال : لعلاء الدين علي المتقي الهندي - بعناية حيّاني والسّقا -
مؤسّسة الرسالة بيروت ط ٥ - ١٩٨٥ م .
- ١٠٩ - لسان العرب : لابن منظور - دار صادر - بيروت - ط ١ - ١٩٩٠ م .
- ١١٠ - مجمع الأمثال : للميداني - تحقيق محيي الدين عبد الحميد - مطبعة
السنة المحمدية - القاهرة - ١٩٥٥ م - وطبعة بيروت .
- ١١١ - مجمع الزوائد : للهيثمي - دار الكتاب العربي - بيروت .
- ١١٢ - المحاسن والمساوى : للجاحظ - تحقيق محمد سويد - دار إحياء
العلوم - بيروت .
- ١١٣ - المحاسن والمساوى : للبيهقي - دار صادر - بيروت - ١٩٧٠ م .
- ١١٤ - محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء : للراغب الأصفهاني
- دار مكتبة الحياة - بيروت .
- ١١٥ - المحبر : لابن حبيب - رواية السكري - صححه الدكتوراة إيلزة ليختن
شتير - دار الآفاق الجديدة - بيروت .
- ١١٦ - مختصر تاريخ مدينة دمشق : لابن منظور - تحقيق عدد من الأفاضل -
دار الفكر - دمشق ط ١ - ١٩٩٠ م .
- ١١٧ - المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها : لعبد الله عفيفي - دار الرائد
العربي - بيروت .
- ١١٨ - المرأة في الشعر الجاهلي : لأحمد الحوفي - دار نهضة مصر - القاهرة
- ١٩٨٠ م .
- ١١٩ - المرأة في عالمي العرب والإسلام : لعمر رضا كحالة - مؤسّسة
الرسالة بيروت - ط ١ - ١٩٧٨ م .
- ١٢٠ - المرأة في القديم والحديث : لعمر رضا كحالة - مؤسّسة الرسالة
بيروت - ط ١ - ١٩٧٨ م .

- ١٢١ - مروجُ الذهب ومعادنُ الجوهر: للمسعودي - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - دارُ المعرفة - بيروت - دون تاريخ .
- ١٢٢ - معجم الأدباء: لياقوت الحموي - دار المأمون - القاهرة - ١٩٣٦ م .
- ١٢٣ - معجم البلدان: لياقوت الحموي - دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ١٢٤ - المعرفة والتاريخ: للبسوي - تحقيق د. أكرم ضياء العمري - مؤسسة الرسالة - بيروت ط ٢ - ١٩٨١ م .
- ١٢٥ - مقَاتِلُ الطَّالِبِينَ: لأبي الفرج الأصبهاني - تحقيق السيّد أحمد صفر مؤسسة الأعلمي - بيروت - ط ٢ - ١٩٨٧ م .
- ١٢٦ - المقاييسُ في اللُّغة: لابن فارس - تحقيق شهاب الدّين أبو عمرو - دار الفكر - بيروت - ط ٢ - ١٩٩٨ م .
- ١٢٧ - منتخباتُ التّواريخ لدمشق: لمحمد الحصني - منشوراتُ دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط ١ - ١٣٩٩ هـ .
- ١٢٨ - المنمَّقُ في أخبارِ قريش: لابن حبيب - تحقيق خورشيد أحمد فاروق - عالمُ الكُتب - بيروت - ط ١ - ١٩٨٥ م .
- ١٢٩ - المواهبُ اللدنية بالمنح المحمّدية: للقُسطلاني - تحقيق صالح أحمد الشّامي - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ١ - ١٩٩١ م .
- ١٣٠ - موسوعةُ التّاريخ الإسلامي: لأحمد شلبي - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ط ٧ - ١٩٨٤ م .
- ١٣١ - المَوْشَحُ: للمرزباني - تحقيق محمد حسين شمس الدّين - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٤١٥ هـ . وطبعة مصر تحقيق محمّد علي البجاوي - ١٩٦٥ م .

- ١٣٢ - الموشى' (أو الظرفُ والظرفاء): لأبي الطَّيِّب الوشاء - دار صادر - بيروت - دون تاريخ .
- ١٣٣ - نزهة الجلّساء في أشعار النساء : للسيوطي - تحقيق د. صلاح الدين المنجد - بيروت - ١٩٥٨ م ، وطبعة مصر .
- ١٣٤ - نساء من عصر التابعين : لأحمد خليل جمعة - دار ابن كثير - دمشق ط ٢ - ١٩٩٢ م .
- ١٣٥ - نساء من عصر النبوة : لأحمد خليل جمعة - دار ابن كثير - دمشق ط ٢ - ١٩٩٢ م .
- ١٣٦ - نسب قریش : لمصعب الزبيري - تحقيق ليفي بروفنسال - دار المعارف - مصر - ١٩٥٣ م .
- ١٣٧ - نهاية الأرب في فنون الأدب : للتّويري - طبعة مُصَوَّرة عن طبعة دار الكتب المصريّة .
- ١٣٨ - الوافي بالوفيات : للصفدي - جمعية المستشرقين الألمانين - مطابع مختلفة - ١٩٣١ - ١٩٨٤ م .
- ١٣٩ - الوزراء والكتاب : للجهشياري - تحقيق مصطفى السقا ورفاقه - القاهرة - ١٩٣٨ م .
- ١٤٠ - وفيات الأعيان : لابن خلكان تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ١٩٦٨ م .
- ١٤١ - يتيمة الدّهر في محاسن أهل العَصْرِ : للثّعالبي - تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد - القاهرة - ١٩٦٥ م . وطبعات أُخر .
- وغير ذلك كثير من المصادر والمراجع الموجودة في حواشي الكتاب ، وثناياه ، ومنها ما هو نادر ، لم نشأ أن نذكره ؛ لثلا يطول الكتاب .

* * *

فهرس الموضوعات

| | |
|----|-------------------------------------|
| ٥ | مقدمة الكتاب |
| ١٧ | الباب الأول: فرسان من العصر الجاهلي |
| ١٩ | * ربيعة بن مكرم |
| ٢٠ | فتى الفرسان |
| ٢٣ | ربيعة والفروسية |
| ٢٥ | من أشجع من رأيت؟ |
| ٢٧ | حامي الطعينة |
| ٣٠ | أنا جارة له منكم |
| ٣٥ | مقتل البطل |
| ٣٩ | ربيعة في ذاكرة التاريخ |
| ٤٣ | * عروة بن الورد |
| ٤٤ | في رحاب فرسان الصعاليك |
| ٥٣ | أبو الصعاليك |
| ٥٧ | فروسيته وأخلاقه وهمته |
| ٦٠ | أقلى علي اللوم |
| ٧١ | قصة عروة مع زوجته |
| ٧٣ | منهجه في الحياة |

| | |
|-----|--------------------------------------|
| ٨٠ | * عنتره بن شداد |
| ٨١ | في رحاب الشهرة |
| ٨٦ | عنتره الفارس البطل |
| ٩٠ | فروسيته وشمائله |
| ٩٩ | بطولته وأسلحته وأفراسه |
| ١١٢ | جوده وشعره وشاعريته |
| ١١٧ | عنتره والوقائع |
| ١٢٠ | عنتره وعبله والقصص الغرامي |
| ١٣٠ | عبله في همسات عنتره |
| ١٤٠ | نهاية عنتره وموته |
| ١٤٧ | الباب الثاني: فرسان من عصر المخضرمين |
| ١٤٩ | * زيد الخيل بن مهلهل |
| ١٥٠ | فتى الصباح |
| ١٥٤ | فروسية وشيمة كريمة |
| ١٥٨ | الفارس الحكيم |
| ١٦٣ | مروءة زيد الخيل وحلمه |
| ١٦٧ | صفاته وأخلاقه |
| ١٦٨ | بل أنت زيد الخير |
| ١٧٢ | * ضرار بن الخطاب |
| ١٧٣ | الفارس المخضرم |
| ١٧٧ | ضرار الفارس المحارب |
| ١٨٩ | ضرار وغزوة الخندق |
| ١٩٥ | إسلامه ومدحه النبي ﷺ |

| | |
|-----|---------------------------------------|
| ١٩٨ | ضرار الفارس المجاهد الفاتح |
| ٢٠٠ | شذرات رائعات من أخباره |
| ٢١٠ | * عمرو بن معدي كرب |
| ٢١١ | الفارس السيد |
| ٢١٣ | فارس زبيد |
| ٢١٦ | شجاعته وأخلاقه |
| ٢٢٣ | عمرو الصحابي الفارس |
| ٢٢٩ | عمرو والحرب والسلاح |
| ٢٣٥ | وفاة فارس العرب |
| ٢٣٧ | الباب الثالث: فرسان من العصر الإسلامي |
| ٢٣٩ | * جحدر بن معاوية |
| ٢٤٠ | الفارس الجريء المتصعلك |
| ٢٤٦ | الفارس الفاتك |
| ٢٥١ | جحدر والحجاج |
| ٢٥٦ | جحدر يقتل أسداً ضارياً |
| ٢٧٠ | سيف الدولة الحمداني |
| ٢٧١ | حامل لواء الجهاد |
| ٢٧٣ | الفارس السيد |
| ٢٧٥ | قاهر الروم وحامي الثغور |
| ٢٧٧ | شذرات من بطولاته وإقدامه |
| ٢٨٣ | مجد وشهرة |
| ٢٨٤ | من مزايا سيف الدولة |
| ٢٨٩ | سيف الدولة شخصية بطولية |

| | |
|-----|--------------------------------|
| ٢٩٢ | الشجاع الجواد وشدرات من أخباره |
| ٢٩٧ | وغاب النجم |
| ٣٠٠ | * عبد الرحيم محمود |
| ١٠٣ | هذا البطل الشجاع الشاعر |
| ٣٠٤ | عبد الرحيم والنشأة الصافية |
| ٣٠٦ | ثقافته وأساتذته |
| ٣١٠ | رحلة الجهاد والكفاح |
| ٣١٨ | البطل الشهيد |
| ٣٢٤ | * قطري بن الفجاءة |
| ٣٢٥ | أمير الموت |
| ٣٢٨ | فروسيته ومذهبه وخوف الناس منه |
| ٣٤٧ | قطري والحجاج بن يوسف |
| ٣٤٩ | الفارس الخطيب الشاعر |
| ٣٥٧ | موته ونهايته |
| ٣٥٩ | * القعقاع بن عمرو |
| ٣٦٠ | زين الفرسان |
| ٣٦٢ | ماذا أعددت للجهاد؟ |
| ٣٦٥ | مآثر وشهادات |
| ٣٦٩ | القعقاع وبطولات نادرة |
| ٣٨١ | * معن بن زائدة |
| ٣٨٢ | شرف على شرف |
| ٣٨٥ | وهبتك لنفسك ولجودك المأثور |
| ٣٨٨ | فروسية معن يوم الهاشمية |

| | |
|---------------------------------|-----|
| معن والمنصور | ٣٩٠ |
| الجواد السخي الشجاع | ٣٩٣ |
| كيف مات معن ؟ | ٤٠٨ |
| * يزيد بن يزيد | ٤١٣ |
| الفارس الأمير الشهير | ٤١٤ |
| من شيم يزيد وأخباره | ٤١٩ |
| علو همته | ٤٢٦ |
| يزيد ومقتل الوليد بن طريف | ٤٣٠ |
| وداعاً أبا النجباء | ٤٣٨ |
| الباب الرابع: فارسات من التاريخ | ٤٤١ |
| * أم حكيم الخارجية | ٤٤٣ |
| المرأة والفروسية | ٤٤٤ |
| شجاعة أم حكيم | ٤٥٤ |
| أم حكيم وشعر قطري | ٤٥٨ |
| * أم قرفة الفزارية | ٤٦٢ |
| امرأة زعيمة وقائدة | ٤٦٣ |
| أمنع من أم قرفة | ٤٦٦ |
| أم قرفة والشعر | ٤٦٧ |
| جرأتها وعداؤها للنبي ﷺ | ٤٦٩ |
| نساء حاربن الإسلام والرسول ﷺ | ٤٧٦ |
| * خولة بنت الأزور | ٤٨٩ |
| المرأة وصناعة الحرب | ٤٩٠ |
| خولة والنساء في ميادين القتال | ٤٩٩ |

- موقف خولة وهند ٥٠٧
- خولة تقتل قائداً رومياً ٥٠٩
- خولة وأخوها ضرار ٥١٤
- خولة الفارسة الشاعرة ٥١٩
- خولة والثناء عليها ٥٢١
- * سجاح بنت الحارث ٥٢٤
- المرأة المحاربة القائدة ٥٢٥
- نشأتها وخطرها ٥٢٩
- سجاح ومسيلمة ٥٣٢
- * غزالة الحرورية ٥٣٦
- فارسة زوج فارس ٥٣٧
- نصراء علي من النساء ٥٤٠
- هلا برزت إلى غزالة؟ ٥٤٦
- غزالة وقسم غريب ٥٤٨
- غزالة تهزم جيوش الحجاج ٥٥٠
- موتها ٥٥٢
- * فاطمة بنت الخرشب ٥٥٥
- المرأة والفروسية في عصر الجاهلية ٥٥٦
- من عاقلات النساء التجليات ٥٥٨
- مكانتها ومنزلتها ٥٦٦
- قوتها وحسن تدبيرها ٥٦٨
- حسبك من شر سماعه ٥٧٢

| | |
|-----|-----------------------------|
| ٥٧٥ | * ليلي بنت طريف |
| ٥٧٦ | من فارسات عصرها |
| ٥٧٩ | ليلي وأخوها الوليد |
| ٥٨٣ | ليلي وقيادة الجيش |
| ٥٨٦ | ليلي ورثاء أخيها |
| ٦٠٢ | فهرس المصادر والمراجع |
| ٦١٤ | فهرس الموضوعات |

* * *

المؤلفات العلمية للأستاذ أحمد خليل جمعة

- ١ - رجال مبشرون بالجنة مجلد
- ٢ - نساء مبشرات بالجنة مجلد
- ٣ - نساء من عصر النبوة مجلد
- ٤ - نساء من عصر التابعين مجلد
- ٥ - المبشرون بالنار مجلد
- ٦ - نساء الأنبياء مجلد
- ٧ - النصيحة جزء واحد (بالاشتراك)
- ٨ - الحياء جزء واحد
- ٩ - الجار جزء واحد
- ١٠ - الحلم جزء واحد (بالاشتراك)
- ١١ - المغفرة جزء واحد
- ١٢ - فرسان حول الرسول مجلدان
- ١٣ - الصبر والصابرون جزء واحد
- ١٤ - الصدق والصادقون جزء واحد
- ١٥ - التوبة جزء واحد
- ١٦ - المناجاة جزء واحد
- ١٧ - القرآن وأصحاب الرسول جزء واحد
- دار ابن كثير
- دار ابن كثير
- دار ابن كثير
- دار ابن كثير
- دار ابن كثير
- دار ابن كثير
- دار ابن كثير
- دار ابن كثير
- دار ابن كثير
- دار ابن كثير
- دار الكلم الطيب
- دار الكلم الطيب
- دار الكلم الطيب
- دار الكلم الطيب
- دار الكلم الطيب
- دار الكلم الطيب

- ١٨ - رجال من الإسلام جزءان
 ١٩ - نساء من الإسلام جزءان
 ٢٠ - نساء أهل البيت مجلد
 ٢١ - نساء من التاريخ مجلد
 ٢٢ - بنات الصحابة مجلد
 ٢٣ - نساء في قصور الأمراء مجلد
 ٢٤ - فرسان من عصر النبوة مجلد
 ٢٥ - التقوى جزء واحد (بالاشتراك)
 ٢٦ - الإحسان جزء واحد
 ٢٧ - البشرى جزء واحد
 ٢٨ - النجاة جزء واحد
 ٢٩ - الفلاح جزء واحد
 ٣٠ - الطاعة جزء واحد
 ٣١ - التوكل جزء واحد
 ٣٢ - النفقات جزء واحد (بالاشتراك)
 ٣٣ - العدل جزء واحد (بالاشتراك)
 ٣٤ - فرسان من التاريخ مجلد
 ٣٥ - نساء من المشرق العربي مجلد
 ٣٦ - نساء من الأندلس مجلد
 ٣٧ - نساء من مصر والمغرب العربي مجلد
 ٣٨ - أمهات الصحابة مجلد
 ٣٩ - أبناء الصحابة مجلد
 ٤٠ - علماء الصحابة مجلد
- دار الهجرة
 دار الهجرة
 دار اليمامة
 دار اليمامة
 دار اليمامة
 دار اليمامة
 دار اليمامة
 دار اليمامة
 دار اليمامة
 دار اليمامة
 دار اليمامة
 دار اليمامة
 دار اليمامة
 دار اليمامة
 دار اليمامة
 دار اليمامة
 دار اليمامة
 دار اليمامة
 دار اليمامة

- ٤١ - أنبياء الله - أمهاتهم - نساؤهم مجلد دار اليمامة
- ٤٢ - الطفل في ضوء القرآن والسنة والأدب مجلد دار اليمامة
- ٤٣ - الحب جزء واحد دار اليمامة
- ٤٤ - الرزق جزء واحد دار اليمامة
- ٤٥ - الأحلام جزء واحد دار اليمامة
- ٤٦ - الأطفال جزء واحد دار اليمامة
- ٤٧ - البر جزء واحد دار اليمامة

وسيصدر للمؤلف قريباً بإذن الله

- * المرأة في حياة الشعراء مجلد
- * المرأة في حياة العميان مجلد
- * رجال أهل البيت مجلد
- * صحابة من أبناء الصحابة مجلد
- * نساء من القرآن والسنة مجلد
- * الطب في ضوء القرآن والسنة مجلد
- * رجال من القرآن الكريم مجلد
- * رجال من عصر النبوة مجلداً
- * رجال من عصر التابعين مجلداً
- * الأمانة جزء واحد
- * الرضا جزء واحد
- * الحسد جزء واحد
- * الاستقامة جزء واحد
- * الإخلاص جزء واحد

* الوقت جزء واحد

* السعادة جزء واحد

* الوفاء جزء واحد

* النفس جزء واحد

* الأسرة جزء واحد

* اللسان جزء واحد

* سلسلة : أعلام النساء

دار اليمامة

* روضة المحبين (تحقيق) (بالاشتراك)